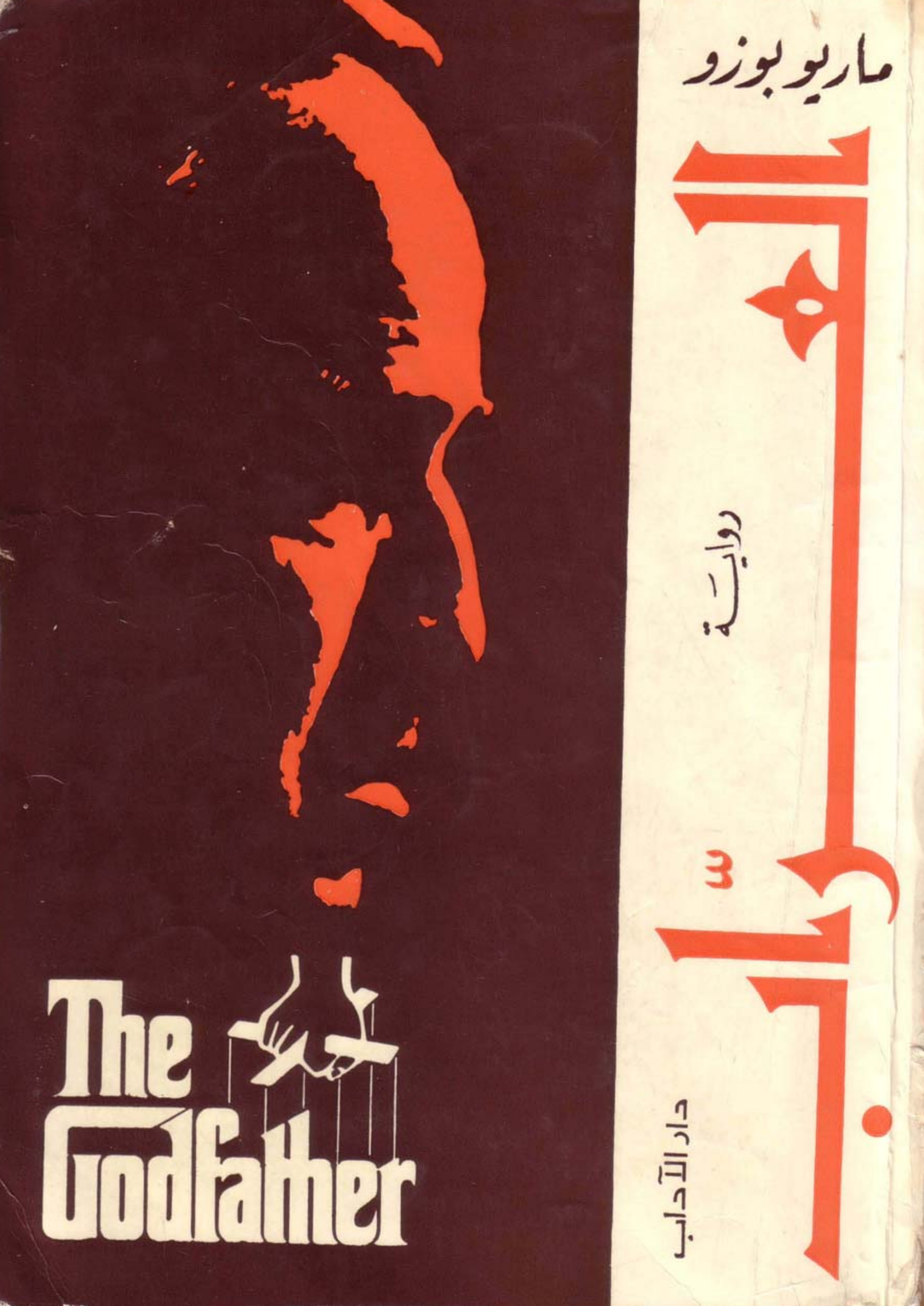
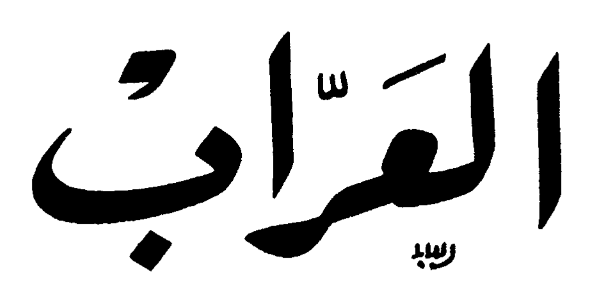

ماريو بوزو
العراب
رواية
دار الآداب
The Godfather

ماريو بوزو



رواية

منشورات

دار الآداب - بيروت

هذا الكتاب

« العرّاب » THE GODFATHER هو الرواية التي سجلت منذ صدورها اكبر رقم في التوزيع عرفته اية رواية عالمية حتى اليوم . فهي ما تزال تباع بالملايين في جميع انحاء العالم بعد ان ترجمت الى معظم اللغات . وقد اقتبس منها فيلم ضخم لايزال يعرض في كثير من دور السينما في العالم ويشهد اقبالاً فاق الاقبال على اشهر فيلمين عالميين هما : « ذهب مع الريح » و « صوت الموسيقى » .

ولكن من يقرأ الرواية يلمس الفرق الكبير بينها وبين الفيلم الذي يمكن اعتباره صورة مشوهة عنها . لأن الرواية التي كتبها ماريو بوزو أجمل وأغنى بالاحداث وأعمق بالتحليل من الفيلم . وبالرغم من ان هذه الرواية تشد القارئ اليها وتتركه مذهولاً ، فانها تعطي أصدق صورة لتحلل المجتمع الاميركي الذي يخضع ، حتى أعلى مستوى فيه ، لنفوذ عصابات « المافيا » ، هذه العصابات التي يمثل دون كورليون « العراب » رأسا من رؤوسها الخطيرة ويمثل اولاده فيها ادوار القتل والاجرام والجنس والوحشية . . .

ان « العراب » إدانة للمجتمع الاميركي وللإجرام الرأسمالي الذي يقوم عليه والذي يخلق هذه الطبقة من « المافيا » ذات النفوذ الخطير الممتد الى النقابات ومجلس الشيوخ وسائر السلطات التي تشد خيوط الحياة الاميركية .

وبراعة المؤلف تقوم على تصوير الجريمة تحت مظهر الاحترام والوقار . ووراء عنوان « العراب » البريء ، يجد القارئ اربعمئة صفحة محشوّة بالديناميت . . .

الكتاب الأول

١

كان اميريغو بوناسيرا جالسا في قاعة المحاكمات في محكمة نيويورك الجزائية الثالثة ، ينتظر ان يصدر الحكم وان يثأر له من الرجلين اللذين كانا قد جرحا ابنته على ذلك النحو الوحشي ، بعد ان حاولا تلويث شرفها .

ورد القاضي ، وهو شخص ممتليء ذو مظهر مخيف ، رد كمي ثوبه كما لو انه كان ينوي ان يوقع عقابا جسديا بالشابين اللذين كانا منتصبين أمامه . وكان تعبير من الاحتقار المتعالي والمثلوج يرتسم على قسماته . ولكن كان في مظهره شيء ما مصطنع كان بوناسيرا يلاحظه جيدا من غير ان يهتدي بعد الى تفسيره .

وصاح القاضي بصوت عدواني :

ــ لقد تصرفتما تصرف منحلين فاسدين ينتمون الى اسوا جنس !

ففكر بوناسيرا : « هذا صحيح ، هذا صحيح . تصرف وحوش ، تصرف كلاب . » وكان وجها الشابين حليقين ، يلمعان كدرهم جديد ، وسط شعر كث براق مسرح بالفرشاة ، وقد احنيا راسيهما بتواضع واصطنعا هيئة المذلة النادمة .

واستطرد القاضي يقول :

ــ لقد تصرفتما تصرف وحوش في غابة . وانه لحظ لكما ان تكون هذه الفتاة المسكينة قد عرفت كيف تدافع عن شرفها ، والا لكان الحكم عليكما عشرين عاما !

وتوقف القاضي ، واسترقت عيناه من تحت قبة حاجبيه الدغلين نظرة خاطفة الى الرجل ذي السحنة المخضرة : بوناسيرا الاجنبي ، ثم عادت عيناه تستقران على الملفات الموضوعة امامه . وكانت هذه تقارير في صالح الافراج عن الشابين ووضعهما تحت الرقابة . وقطب القاضي حاجبيه وهز كتفيه ، كما لو انه لم يكن يستجيب الا على مضض للبراهين القدمة من اجل اكتساب تسامحه في الحكم ، واستأنف خطابه :

ــ ولكن نظرا لحداثة سنكما ، ولاسرتيكما المحترمتين ، ولانكما لم يسبق لكما قط ان حكمتما بأي حكم ، ولان القانون ، في هيبته الكبرى ، لا يسعى الى الثأر ، فاني احكم عليكما هنا بثلاثة اعوام من الحجر في احد السجون ، مع وقف التنفيذ.

اربعون عاما من الحداد المهني ومعاشرة اليأس اليومي هي وحدها التي حالت دون ان يظهر على وجه اميريغو بوناسيرا ، ملتزم مواكب الدفن ، ما انتابه في تلك اللحظة من شعور الخيبة والحقد . لقد كانت ابنته الحبيبة ، الفتية ، الجميلة ، ما تزال في المستشفى ، وقد تحطم فكها وثقب خدها بدرزات لأم الجروح . وها ان هذين الشيطانين مطلقا السراح ؟ وكانت قاعة المحكمة تتحول الى مسرحية : فها هم الاقرباء

السعداء يحيطون بابنيهما المعبودين ! وكان بوناسيرا يتأمل هذا المشهد الكريه . اوه ! شد ما كانوا سعداء ، وكم كانت شفاههم تبتسم الآن !

وملأ فيض من المرارة السوداء الحامزة فم بوناسيرا وتدفق بين اسنانه المنقبضة . وتناول المنديل الصغير الابيض الذي كان يحمله في جيبه الأعلى وسحقه على فمه . وكان الشابان قد بدأا يصعدان بخطوة خفيفة الممر الرئيسي ، ومرا امام بوناسيرا ، مطمئنين ، مبتسمين ، حتى من غير ان ينظرا اليه . وتركهما يمران ، وهو ما يزال يضغط على شفتيه المنديل الرقيق الابيض .

وصل افراد عائلتي الشيطانين امام بوناسيرا : رجلان وامرأتان في مثل سنه ، ولكنهم اشد منه امركة في لباسهم . ورموه بنظرة ، وبالرغم من ان الخجل كان ظاهرا على وجوههم ، فقد كان شعاع من التحدي المنتصر يلتمع في عيونهم . وانحنى بوناسيرا ، وقد استبد به الغضب ، نحو الممر الرئيسي وصاح بصوت ابح :

ــ حذار ! حذار ! سوف تبكون كما بكيت . سوف ابكيكم كما ابكي بسبب خطيئة ولديكم !

وكان يضغط منديله الآن على عينيه . وحث محامو الدفاع الذين كانوا في اخر الموكب ، حثوا خطاهم ، منتصبين كحاجز دفاعي بين بوناسيرا المحتد وبين الشابين اللذين كانا قد استدارا نصف استدارة ليحميا ذويهما الاعزاء . وهرع حاجب ضخم بخطى واسعة ليسد الطريق امام المحتج المزعج . ولكن هذا الاحتياط كان امرا نافلا . فان بوناسيرا كان منذ وصوله الى اميركا قد عاش في احترام النظام والقانون . وكان هذا الاحترام قد حقق له النجاح والرخاء . اما الآن ، فقد كان الحقد يغلي في راسه : فيتمثل نفسه وهو يبتاع مسدسا ويقتل بيده جلادتي ابنته . ومع ذلك ، فقد التفت الى زوجته برباطة جأش وقال لها :

ــ لقد سخروا بنا .

ولم تكن السيدة بوناسيرا قد فهمت شيئا مما حدث . ولبث دفان الموتى لحظة صامتا . لم يكن ثمة بعد مجال للتردد . لقد اتخذ قراره . ولم يكن الثمن الذي سيكلفه اياه ذا شأن بعد .

ــ لكي ترد لنا العدالة ، سنزحف على ركابنا لمقابلة دون كورليون .

شقة ذات بذخ كريه ، في فندق من فنادق لوس انجليس . كان جوني فونتان يغرق غيرته في الكحول ، شأنه في ذلك شأن أي زوج مخدوع مبتذل . وكان مسترخيا على ديوان احمر يعب محتوى زجاجة ويسكي اسكتلندي . وكان جوني ، بين الفينة والفينة ، حين يأخذه الغثيان ، يغطس فمه وذقنه في قدح من البلور مليء بقطع من الثلج نصف ذائبة . وكانت الساعة الرابعة صباحا ، وكانت رؤى قتل تدوم في راسه المريض ، حين تعود زوجته عما قليل ، فسيقتلها ، هذه القحبة ، ما دام اسمه جوني فونتان . اذا عادت ، اذا عادت . واخذته الرغبة في ان يتلفن لزوجته الاولى ليسألها عن اخبار ولديه ولكن الوقت كان متأخرا . الاصدقاء ؟ انه ، منذ بدأ يخسر مهنته ، لا يجرؤ بعد على الاتصال باصدقائه القدامى . وحتى عهد قريب ،

كان يسحرهم ، بل يثير غرورهم ، ان يوقظهم في الساعة الرابعة صباحا .. اما الآن ، فانه كان يزعجهم . وكانت هموم جوني فونتان الصغيرة ، في زمن مجده ، قد بدت مهمة ومثيرة الى ابعد حد بالنسبة لعدد من اشهر ممثلات هوليوود.. هذه الفكرة جعلته يبتسم قليلا .

كان باقيا له زجاجة الويسكي . وسمع اخيرا صرير المفتاح في القفل : زوجته تعود . وظل يشرب حتى وصلت الى مقربة منه . وبدت له على غاية الجمال ، وجهها الملائكي ، وعينيها البنفسجيتين الكبيرتين اللتين يخيل اليه انهما تقولان اشياء كثيرة ، وجسدها ذي الحنايا الساحرة برخاصتها الرقيقة ! على الشاشة ، كان جمالها أروع واوفر روحانية . كان مئة مليون رجل ، في العالم الشاسع ، يعشقون مارغو اشتون ، ويدفعون ليروها على الشاشة . وسألها جوني فونتان:

ـ من اين انت قادمة ؟

ـ من حيث كنت افعل الحب .

كانت قد حسبته اكثر سكرا مما كان . فقد تخطى الطاولة المنخفضة وقبض على مارغو من عنقها . ولكنه اذ التقى تحت عينيه الوجه المعبود ذا النظرة السحرية، سقط غضبه . واذ رأته مارغو حائرا متوزع البال ، كانت من قلة الحذر بحيث بسمت بسمة هازئة ، فرآته يكور قبضته ويقوس مرفقه ، فصاحت :

ـ حذار ، ياجوني . ليس الوجه . انني امثل فيلما .

وضحكت . فضربها في بطنها ، فسقطت على السجادة ، وتداعى للسقوط عليها . ولهثت مارغو لتسترد انفاسها . فسكر من نفسها المعطر ، واخذ يساقط ضرباته على ذراعيها ومؤخرتها وساقيها الطويلتين الحريريتين الذهبيتين .واشبعها ضربا كما كان يفعل مع كثير من السوقة في حداثته ، حين كان يمثل دورالشقاوة والقسوة في احياء نيويورك الدنيا . وهذا العقاب ، على ايلامه ، لم يكن يعرض جمال مارغو اشتون لاي ضرر : فلا سن مكسورة ، ولا اذن مجروحة .

لم يكن جوني يضرب ضربا مبرحا . لم يكن يستطيع ذلك . كانت تضحك من حنجرتها ضحكا متقطعا ، وهي مصلوبة على السجادة ، وقد انحسر ثوبها المفضض فوق فخذيها . وبين ضحكتين ، كانت تستثيره متحدية :

ـ خذني ، ياجوني . هيا ، ضاجعني يا عزيزي . ان هذا هو ما يتأكلك !

ونهض جوني فونتان . كان يكره المرأة الملقاة عند قدميه ، ولكن جمالها كان يحميها كدرع سحرية . وقفزت مارغو على قدميها ، ببراعة حورية ، فالفت نفسها وجها لوجه مع جوني . ورسمت خطوة رقص صغيرة وهي تدندن بصوت طالبة ساذجة :

ـ لم يوجعني جوني ، لم يوجعني جوني !

ثم قالت وقد استردت فجأة جمالها المهيب ، بلهجة شبه حزينة :

ـ يالك من حمار صغير ! انك لن تفهم شيئا ابدا . انك توجعني في بطني ! لن تكون ابدا الا ايطاليا عاطفيا ! وحتى الحب،تفعله كالاطفال ! مسكين انت يا جوني! انت تضاجع كما تغني : برخاوة !

وهزت راسها باسى وهي تردد :
– يا لجوني المسكين ! وداعا يا جوني الصغير المسكين !
وابتعدت بهدوء ، متقهقرة ، ودخلت غرفتها ، وسمع جوني صرير المفتاح وهو يدار في القفل .
جلس على السجادة ، وراسه بين يديه ، وقد اغشاه الذل واليأس . ولكن كبرياءه وصلابة صبي الارصفة فيه ، وتلك القوة التي اتاحت له ان يحفر مكانه في هوليود ، استيقظت مرة اخرى في كيانه ، فاذا به يتناول التلفون ويستدعي سيارة اجرة . سيتجه فورا الى المطار ، وسيقفز في اول طائرة متجهة الى نيويورك . ان هناك كائنا واحدا في العالم يستطيع ان ينقذه : كائن قادر وحكيم بما فيه الكفاية ، كائن لم يعوزه يوما حبه وشغفه : عرّابه ، دون كورليون ،« البادرينو » .

كان الخباز نازورين ، الذي يشبه بانتفاخه واستدارته رغيفا طازجا من ارغفته الايطالية ما يزال مرشوشا بالدقيق ، يصعق بنظراته زوجته وابنته ومعاونه انزو الذي كان قد ارتدى ثوبه ، ثوب اسير الحرب ، وكان يرتجف خوفا من ان يؤخره هذا المشهد : فهو لن يصل في الساعة النظامية الى جزيرة « الحاكم » . وكان انزو واحدا من الوف اسرى الحرب الايطاليين الذين اطلق سراحهم بقيود ليشاركوا في المجهود الاقتصادي ، وكان يعيش في خوف مستمر ان يفقد حظوة هذا النظام . ولهذا فان التمثيلية الصغيرة التي كانت تمثل تحت ناظريه كانت تشكل بالنسبة اليه قضية خطيرة جدا . كان نازورين يدير في محجريه عينين مرعبتين وهو يصيح به :
– أجب . هل لوثت شرف عائلتي ؟ ماذا فعلت لابنتي ؟ انك لن تترك لنا طفلا على سبيل التذكار الان وقد انتهت الحرب وتستعد اميركا لقذفك بضربة في قفاك نحو قريتك القملة في صقلية ؟
وضع انزو ، الشاب القصير المتين البنية ، يده على قلبه وقال وفي صوته دموع ورقة :
– ايها المعلم : اقسم امام العذراء المقدسة انني لم اسيء قط الى طيبتك . انني احب ابنتك . وقد احترمتها . وانني باحترام كلي اطلب منك يدها . انا اعلم ان ليس لي في ذلك اي حق ، ولكن تذكر انني اذا اعادوني الى ايطاليا ، فلن استطيع ابدا ان ارجع الى اميركا . وابدا لن استطيع ان اتزوج كاترين .
وهنا تدخلت السيدة فيلومينا بشجاعة امام زوجها النزق ، قائلة :
– كفى تمثيلا ! انت تعرف جيدا ما ينبغي ان تفعله . يجب ان يبقى انزو . ارسله الى اقربائنا في « لونغ ايسلند » ، وسيعرفون كيف يخبئونه .
كانت كاترين تبكي . وبالرغم من ان كاترين كانت ما تزال في زهرة شبابها ، فقد كانت سمينة اكثر مما ينبغي ، وكان شعر مخملي خفيف يظلل شفتها العليا . لم تكن جميلة ، جميلة . وابدا لن تجد زوجا في مثل جمال انزو ، معاون الخباز ، لن تجد رجلا يحسن مثله هو ان يجس ، باحترام حبي ، المناطق السرية من جسمها .

وصاحت بأبيها :
– اذا لم تحتفظ بأنزو ، فسوف اهرب ، اتسمعني ؟ سأذهب لاعيش في *أيطاليا* .

وحدج نازورين ابنته بنظرة مشاركة ، لم يكن مخطئا في الامر : فقد كانت بحاجة اليه . كان قد لاحظ كيف كانت تمد مؤخرتها السمينة لتلتقي بطن انزو حين كان ينزلق خلفها ليقذف في سلال المتجر الارغفة الحارة التي يخرجها من الفرن . ويقول نازورين في نفسه : « في فرنها هي سينتهي الامر بالفتى الخبيث الى وضع رغيفه الحار » ولقد حان وقت التقرير. كان ينبغي لانزو ان يبقى في اميركا ، وان يصبح مواطنا للولايات المتحدة . والحال ان ثمة رجلا واحدا كان يستطيع ان يحقق هذا الامر : العرّاب ، دون فيتو كورليون

جميع هؤلاء الاشخاص – وكثيرون غيرهم ايضا – تلقوا بطاقات دعوة منقوشة ترجوهم حضور حفلة عرس الانسة كونستانزيا كورليون ، يوم السبت الاخير من اب ١٩٤٥ . ولم يكن ابو العروس ، دون فيتوكورليون ، ينسى قط اصدقاءه وجيرانه السابقين ، بالرغم من انه يسكن الان بيتا واسعا من بيوت « لونغ بيتش » . وكان هو الذي يستقبل المدعوين . وكان من المتوقع ان يكون الحدث مشهودا ، وكان من المفروض ان تستمر الاحتفالات طوال النهار . كانت الحرب مع اليابان قد وضعت اوزارها ، وكان الابناء المنضمون الى الجيوش بمنجاة من الاخطار : فغمامة القلق لن تلقي ظلها على الاحتفال . وكان ذلك العرس الفرصة التي يحلم بها كل شخص للتعبير عن فرحته .

وصباح ذلك اليوم الكبير ، غادرت قافلة اصدقاء دون كورليون نيويورك مستجيبين لدعوته . وكانوا يحملون هدايا الزواج مغلفات محشوة بالاوراق النقدية، وليس فيها شكات ... وكانت بطاقة مدسوسة في كل مغلف تشير الى هوية الواهب وتتيح في الوقت نفسه تقدير الاحترام الذي كان يوليه الى العراب : وهو احترام يستحقه ، دون ما ريب .

كان دون كورليون رجلا يلجأ اليه الجميع طلبا للعون والمساعدة ، فلا يخيب ابدا اولئك الذين يركنون اليه . ولم يكن قط يعطي وعودا كاذبة ، ولم يكن قط يسعى الى التهرب بان يدعي بان ثمة في العالم قوى عليا توثق يديه : كان يعد مثل هذا العذر جبنا . لم يكن من الضروري ان يكون هو شخصيا صديقك ، ولم يكن ذا اهمية ان تكون او لا تكون قادرا على مبادلته الفضل . لم يكن لديه الا مطلب واحد : ان تعلن نفسك بنفسك صديقا له . فاذا كان ذلك ، وسواء كان اللاجيء اليه مغمورا او قديرا، غنيا او فقيرا ، فقد كان دون كورليون يشاطره همه ولا يسمح بان تنهض عقبة لتسد المخرج الذي يكون قد رسمه للقضية . اي جزاء كان يترقب من ذلك ؟ صداقة ، وشرف ان يسمع من يناديه باحترام « دون » كورليون ، واحيانا ، بلهجة اكثر ودا: بادرينو . وربما كذلك ، ولكن على سبيل العرفان فحسب – وليس كأجر قط –

هدية متواضعة : غالون نبيذ معتق في البيت ، او سلة من الطامال (١) مجهـــزة خصيصا لتزين مائدة اسرة كورليون في عيد الميلاد . بهذه الالتفاتات الصغيرة ، كان مفهومــا ضمنا بانك تعد نفسك مدينا لدون كورليون الذي كــان يستطيع في كل لحظة ان يذكرك بالدين الذي له عليك ليطلب منك أن تؤدي له ، بالمقابل ، خدمة صغيرة.

كان دون كورليون واقفا على عتبة منزله في لونغ بيتش يستقبل مدعويه . كان يعرفهم جميعا ، وكانوا جميعا موضع ثقته ، وكثيرون كانوا مدينين له بنجاحهم . وكان طابع المناسبة الحميمة يسمح لهم بان يتوجهوا اليه منادين اياه ب « العراب » وحتى الاشخاص الذين كانوا يقومون بالخدمة ، كانوا اصدقاء . وكان الساقي ، وهو صديق كريم ، قد قدم جميع المشروبات التي كان المدعوون سيتناولونها في اثنــاء النهار بصرف النظر عن المساعدة التي يقدمها بمواهبه الثمينة . وكــان الخــدم اصدقاء اولاد رب البيت . وكانت زوجة دون كورليون وصديقاتها القديمات قــد اعددن المآكل التي كانت تملأ موائد الحديقة . اما الملعب الصغير المزدان بالشرائط الملونة ، فقد اشرف على تزيينه صديقات العروس الصغيرات .

اغنياء وفقراء ، ضعافا واقوياء ، كان دون كورليون يستقبل الجميع بمظاهر الصداقة والحفاوة نفسها . لم يكن يهمل احدا . وكان ذلك سمة من سمــــات شخصيته . وقد كــان من شــأن صيحات الاعجاب التي كان يطلقها ضيوفه اذ يرون السموكن لائقا به تماما ان تحمل مشاهدا غير مطلع على الاعتقاد بانه كان هو العريس الجديد ، بطل الاحتفال .

والى جانبيه ، عند الباب المشرع ، كان يقف اثنان من اولاده الثلاثة . كــان الابن الاكبر قد اطلق عليه يوم عماده اسم سانتينو ، ولكن الجميع ، باستثناء ابيه ، كانوا يدعونه « سوني » . وكان الشيوخ من الايطاليين ينظرون اليه في حذر ، اما الشبان ففي اعجاب . وكان سوني كورليون ، في نظر اميركي من الجيــــل الاول متحدر من اب وأم ايطاليين ، يعد طويل القامة . فقد كان طوله مترا وثمانين . وكانت كتلة من الشعر الكث ذي الخصلات المتزجة تجعله اكثر طولا . وكان يملك رأسا كوبيدونيا ضخما ، وقسمات طبيعية لا دقة فيها ، وكانت شفتــاه المتعرجتان الريانتان تفضح عنده شهوانية متطلبة ، وكان ذقنه المحفور بخط عميق يشف عن نزعة فحش تثير الفضول . كان ذا بنية شبيهة ببنية ثور ، وكان واضحا ان الطبيعة قد جهزته تجهيزا سخيا جدا حتى ان زوجته ــ الشهيدة كانت تخــاف السرير الزوجي كما كان هراطقة الماضي يخافون خشبة التعذيب . ويروى بصوت خافت انه حين قصد ذات يوم ، في ايام شبابه ، مكانا مشبوها ، اذا بالبغي التي كانت اقوى نساء المبغى واقلهن حياء ، تطالبه ، بعد ان عاينت عضوه الهائل ، بان يدفع لها تعرفة مضاعفة .

كان ثمة بعض الزوجات الفتيات المدعوات الى العرس ــ من ذوات الاكشاح العريضة والافواه الواسعة ــ يحدجن سوني الجميل بوقاحة . ولكنهن كن ، في ذلك اليوم ، يضعن اوقاتهن . فان سوني كارليون ، برغم وجود زوجته واولاده الثلاثــة

---

(١) طعام مكسيكي معد من دقيق الذرة ومن لحم مفروم مع الفلفل الاحمر .

الصغار ، كان يوجه انظاره الى وصيفة الشرف الملحقة باخته . وكانت لوسي مانسيني ، المدركة تماما مقاصد سوني ، جالسة الى طاولة في الحديقة ، وهي ترتدي ثوبا ورديا طويلا ، وعلى شعرها الاسود البراق تاج من زهور . وكانت طوال الاسبوع ، في اثناء التجارب على حفلة الزواج ، قد تغازلت مع سوني . وذلك الصباح بالذات ، في الكنيسة ، كانت قد شدت على يده ... ولم تكن آنسة لتستطيع ان تسمح لنفسها باكثر من ذلك . ولم يكن يهمها كثيرا ان سوني لم يكن مخلوقا ليصبح ، فيما بعد ، « الرجل الكبير » الذي كان كل انسان يجده في ابيه . كان يملك القوة والشجاعة . وكان سخيا ، ايضا (كان واضحا ان قلبه وعضوه متساويان في القيمة) ولكنه لم يكن يملك تواضع ابيه . وكان طبعه الحاد النزق يحمله غالبا على ارتكاب اخطاء في الحكم والتقدير . صحيح انه كان يعين دون فيتو في عمله ، ولكن كثيرين كانوا يشكون في ان يكون باستطاعته يوما ان يخلفه .

وكان الاخ الذي يصغر سوني كورليون ، فرديريكو (وكان يدعى فريد أو فريدي او فريدو) ذلك الابن الممتاز الذي كان جميع الايطاليين يدعون القديسين ان يمنحوهم مثله : مجلا ، امينا ، دائما في خدمة ابيه . وكان ما يزال يعيش بالقرب من ابويه ، رغم تجاوزه الثلاثين . كان فرديريكو قصيرا ، سمينا ، ولم يكن رجلا جميلا ، ولكنه كان يملك الراس الكوبيدوني ذاته الذي يملكه اخوه سوني ، يعلوه شعر كث ذو خصلات ، وفم مماثل ذو تعرجات شهوانية . ولكن فم فردريكو كان اقرب الى فم من حجر منه الى فم من لحم . وهو في ميله الى التقشف ، لم يكن يريد ان يكون الا سند ابيه . لم يكن قط يعارض دون فيتو ، ولم يكن يزعجه قط بقصص نسائية تثير الفضائح . وبالرغم من جميع هذه المزايا ، كانت تعوزه هذه المغنطيسية ، وتلك القوة الحيوانية التي يحتاجها كل رئيس . هو ايضا ، لم يكن يبدو مرصودا لكي يرث « اعمال العائلة » .

وكان ميخائيل اصغر اولاد دون كورليون الثلاثة والوحيد الذي رفض ان يقوده هذا الرجل الكبير . ولم يكن يملك الوجه الكوبيدوني الذي كان يملكه اخواه ، وكان شعره الاسود الفاحم منبسطا بدلا من ان يكون اجعد . وكانت بشرته ذات لون اسمر كامد لو اوتيته فتاة لكان ساحرا . كان جميلا ، ولكن جماله كان هشا . وقد ساور دون كورليون ، حينا من الزمن ، بعض القلق بصدد رجولة ولده ، ولكن مخاوفه تلاشت من تلقاء ذاتها حين بلغ ميخائيل سن السابعة عشرة .

كان اصغر اولاد كورليون جالسا امام طاولة في ابعد زاوية من الحديقة ، كما لو كان يريد ان يؤكد استقلاله تجاه ابيه واخويه الكبيرين . وعلى مقربة منه فتاة : هي الاميركية التي سمع الجميع عنها ولكن ، حتى ذلك الحين ، لم يكن احد قد رآها بعد . ولا حاجة الى القول بان ميخائيل كان قد امتثل لقواعد المجاملة والتهذيب ، فقدم المجهولة الى الجماعة كلهم ، والى اسرته كذلك . ولم يتأثر احد لذلك : فقد كان عودها ارق مما يجب ، وكان شعرها مفرط الشقرة ، وهيئتها مفرطة اللطافة ، وكانت اذكى مما تحتمله امراة ، ولم تكن مشيتها المتحررة تلائم فتاة صبية . ثم ان هذا الاسم — كاي ادامس — كان يبدو غريبا جدا على الآذان الايطالية . ولو كانت كاي قد

قالت لضيوف دون كورليون ان عائلتها كانت مقيمة في اميركا منذ قرنين وان اسمها كان من اروج الاسماء ، لاكتفوا بهز اكتافهم .

لاحظ الجميع ان دون فيتو لم يكن يولي صغير اولاده اي اهتمام . ومع ذلك، فان ميخائيل كان حتى الحرب الابن المفضل لديه : كان هو ، بلا ادنى شك ، من اختاره بصمت ليخلفه في اللحظة المناسبة ، على راس اعمال العائلة . وكان ميخائيل قد ورث من ابيه الشهير القوة الهادئة والذكاء ، وتلك الهبة الفريدة التي كانت تجعله دائما يتصرف بحيث لا يمكن لاحد الا ان يحترمه . ولكن حين نشبت الحرب العالمية الثانية ، قرر ميخائيل كورليون ، برغم المنع البات الذي اظهره ابوه ، ان يلتحق بقوات البحرية « المارينز » . لم يكن الاب راغبا في ان يدع اصغر ابنائه يجازف بحياته في خدمة امة كانت تظل — بعد كل حساب — اجنبية عنه . وكان قد رشا اطباء ، وعقد اتفاقات سرية . وكان ذلك كله قد كلفه غاليا جدا ، ولكن ميخائيل كان في الثانية والعشرين من عمره ، وقد اطاح عناده بجميع العقبات التي اقامها ابوه ، فالتحق بالجيش ، وحارب في الباسفيك ونال الشرائط والمداليات . وفي عام ١٩٤٤ ظهرت صورته في « لايف » مرفقة بسلسلة من الصور تمثل مختلف مآثره . واطلع صديق اباه (اذ لم تجرؤ الاسرة على ذلك) على عدد المجلة ، فدمدم الدون دمدمة احتقار وقال : « انه يقوم بهذه الاعاجيب كلها من اجل اجانب » وكان ذلك تعليقه الوحيد .

واعيد ميخائيل كورليون الى منزله في مطلع ١٩٤٥ ليبل من جرح كان يجعله ، وقتا ، غير قادر على الخدمة . وكان بعيدا عن الشك ان منحه الاذن كان ناتجا عن مداخلات ابوية . وقد بقي في المنزل بضعة اسابيع . ثم غادر البيت العائلي ، من غير ان يستشير احدا ،ودخل الى كلية دارتموت في هانوفر ، بولاية نيو هامبشاير. وكان الان عائدا منها ، للمرة الاولى ، ليحضر عرس اخته ويقدم في الوقت نفسه للعائلة هذه التي كان يريد ان يتزوجها : هذه الاميركية ، هذه الدمية الشاحبة .

ولتسلية كاي ادامس ، كان ميخائيل يروى لها قصة بعض اشخاص «الشركة» وكان يسليه ما يجد لدى كاي من دهشة مبعثها اكتشافها عالما غريبا طريفا . كانت كاي تسحره ، كالعادة ، بما توليه من اهتمام لكل ما كان مجهولا لديها ، ولكل ما كان يحمل تجربة جديدة . وقد تركز انتباه الفتاة على جماعة صغيرة من الرجال المجتمعين حول برميل كبير من النبيذ المصنوع في المنزل . كان ثمة اميريغو بوناسيرا، ونازورين الخباز ،وانطوني كوبولا ولوكا برازي . ولفتت كاي نظر ميخائيل بحس المراقبة الحاد الذي كانت تنعم به ، الى ان هؤلاء الاشخاص الاربعة لم تكن تبدو عليهم هيئة السعادة . وابتسم ميخائيل قائلا :

— لا . هذا صحيح . انهم ينتظرون ان يستقبلهم ابي على انفراد . انهم يريدون ان يطلبوا منه خدمات صغيرة .

وكان بوسع اقل الناس خبرة ان يلاحظ ان الرجال الاربعة كانوا دائمي التطلع الى دون كورليون . وفيما كان هذا الاخير ماضيا في استقبال ضيوفه ، توقفت سيارة شفروليه سوداء في الجهة المقابلة من الممر المشجر وقد اخرج رجلان جالسان

في المقعد الامامي دفترا من جيب سترتهما واخذا ، من غير ان يتخفيا على الاطلاق ، يدونان ارقام السيارات المتوقفة ازاء الممر . والتفت سوني نحو ابيه قائلا :

ـ هذان الشخصان هما بالتأكيد من رجال الشرطة .

فهز دون كورليون كتفيه قائلا :

ـ الشارع ليس ملكي . فبوسعهما ان يقوما بما يشاءان .

وتضرج وجه سوني الكوبيدوني الجميل بالغضب :

ـ يا للقذرين ! انهما لا يحترمان شيئا !

وهبط درج المدخل ، فعبر الممر واقترب من السيارة السوداء واتى يـــزرع غضبه الاعمى في وجه السائق . وفتح الرجل محفظته ، بلا قلق ، وعرض بطاقتــه الخضراء على سوني الذي ابتعد من غير ان ينطق بكلمة . وفيما هو يمضي اطلـــق بصقة اصابت باب السيارة الخلفي . وكان يأمل ان يرد السائق على تحديه فيطارده على الممر ، ولكن الاخر لم يتحرك ..وعاد سوني يصعد درج المدخل ويقول لابيه :

ـ انهم اوباش وكالة الاستخبارات ، وهم يسجلون الارقام ! فيا للقذرين !

كان دون كورليون يعرف تمامـــا خصومه هؤلاء . وكان قد اوعز الى مقربيـــه ان يقصدوا حفلة العرس في سيارات مستأجرة او مستعارة . صحيح انه كان ينكر مشهد الغضب الاحمق الذي استسلم له ابنه ، ولكن هذا المشهد كان يخدمـــه : فسوف يرى الدخلاء فيه دليلا على ان زيارتهم لم تكن متوقعة ولم يتم الاستعـداد لها . ولهذا ، فان الدوق لم يكن يحس ازاءهم اي ضغينة . كان قد تعلم منذ وقت طويل ان المجتمع يوقع اهانات لا بد من تحملها بقدر ما يتيقن المرء بان الساعة لا بـد آتية اذ يجد الضعيف ، حين يفتح عينا يقظة ، فرصة مناسبة ليثأر من القوي . وهذا اليقين هو الذي كان يمنع الدون من ان يفقد التواضع الذي كان اصدقاؤه يقدرونه فيه حق قدره . وفي الحديقة ، خلف المنزل ، كانت جوقة موسيقية صغيرة من اربعة عازفين قد بدات تعزف لحنا راقصا . وكان جميع المدعوين قد وصلوا ، فطرد الدون من رأسه مزعجي وكالة الاستخبارات ودفع ولديه الى الحديقة التي كان الاحتفال قد بدا فيها .

وكان مئات من المدعوين قد لبوا دعوة دون كورليون . كان بعضهم يرقص على منصة مزدانة بالزهور ، وكان آخرون قد اتخذوا مكانهم امام موائد طويلة مـــلأى بالمآكل المعطرة بشتى الافاوية واباريق مترعة بنبيذ عتق في كهوف البيت . وكانت العروس كونستانزيا كورليون جالسة على عرشها امام مائدة معلاة ، بين عريسهـــا الشاب ووصيفة الشرف الاولى ، بينما جلس حولهم سائر الوصيفات والفتيـــان . وهذه اللوحة الريفية ذات الطرز الايطالي القديم لم تكن لترضي العروس . ولكنها كانت قد استسلمت لهذا العرس القروي ارضاء لابيها ، تعويضا له عن الاستياء الكبير الذي سببته له باختيار عريسها .

كان كارلو ريزي ، الزوج المختار ، هجينا . فان اباه الصقلي العريق كان قد تزوج ايطالية من الشمال ، وقد ورث كارلو من امه عينين زرقاوين وشعرا اشقر . وكانت اسرة ريزي تعيش في النيفادا ، ولكن كان لا مفر لكارلو من ان يهجر الولاية

على اثر بعض المشكلات مع رجال القانون . وفي نيويورك ، كان قد تعرف الى سوني كورليون الذي قدمه لاخته . وكان طبيعيا ان يكلف دون كورليون اصدقاء موثوقا بهم في القيام بتحقيق سري في النيفادا ، فاخبروه ان مشكلات كارلو ريزي مع الشرطة كان سببها طيش طفولي كان يمارس به استعمال المسدس : شيء غير ذي بال . كان من اليسير ازالة الآثار المكتوبة لهذا الحادث واعادة البكارة الى سجل ريزي العدلي . وحمل مبعوثو دون كورليون في الوقت نفسه انباء مفصلة عن قوانين لعب القمار في النيفادا ، فاولاها الدون اهتماما بالغا . ومنذ ذلك الحين ، امسى هذا الموضوع الكبير موضع تفكيره وتامله الدائم . كان دون كورليون يعرف ان يفيد من كل شيء، ومن اي شيء . وهذه الموهبة كانت تشكل عمادا من اعمدة عظمته .

لم تكن كونستانزيا كورليون توصف بالجميلة : كانت هزيلة ، نزقة . وكان بالامكان التنبؤ بانها ستصبح مع الزمن شرسة . ولكنها ذلك اليوم كانت بثوبها الابيض وانفعالات الساعات الاخيرة من بكارتها النافذة الصبر متألقة الى حد انها كانت تبدو جميلة تقريبا . وكانت يدها ، تحت الطاولة الخشبية ، مستريحة على فخذ زوجها العاضلة . وكان فمها الكوبيدوني يتكور ليشكل قبلات وقبلات كانت ترسلها الى كارلو الحبيب عن طريق الهواء .

كانت تجده جميلا جمالا لا يصدق ، وكان كارلو ريزي في حداثته قد عمل بقسوة في هواء الصحراء ، فتكونت له فيها عضلات عظيمة ، وكانت كتفاه القويتان تنفخان سترته . وكان يملأ بالنبيذ القدح الذي تمده « كوني » اليه وهو يشعر بانظارها المشغوفة . وكان لطفه الاحتفالي يجعله اشبه بعريس هزلي ،ولكن انظاره كانت تعود بلا انقطاع الى كيس النقود الذي كانت العروس تعلقه في كتفها اليمنى وكان يفيض بالملفات المليئة بالاوراق النقدية .وكان كارلو يتكهن بمحتوياتها : عشرة الاف ؟ عشرون الفا ؟ ويبتسم كارلو : لم تكن هذه الا بداءة . لقد صاهر عائلة ملكية وكان لا بد من ان يولوه الاهتمام واللطف .

وفي جمع المدعوين،كان ثمة شخص آخر يراقب بالحاح كيس نقود كونستانزيا: شاب قصير انيق ، نمسي الوجه ناعمه . على ان بوليو غاتو انما كان بدافع من العادة ليس غير يتساءل كيف له ان يضع يده على كنز العروس . كانت الفكرة تسليه . ومع ذلك فلم يكن هذا الا شرود خيال بريئا ، ليس اكثر تدميرا من حلم صبي يود ان ينسف دبابة ببندقية فلين . وكان بولي غاتو يراقب « سيده » : بيتر كليمنزا الهائل . كان كليمنزا على الحلبة الخشبية المخصصة للراقصين يخاصر على التوالي فتيات لطيفات في دوامة رقصة تارنتيلا قروية صاخبة . كان رجلا قد تجاوز سن النضج ، وكان طويلا جدا ، وعريضا جدا ، وكانت بطنه القاسية تصدم في فجور مرح نهود الفتيات الصغيرات اللواتي يختارهن للرقص . ولكنه كان يرقص ببراعة وليونة حتى ان الجميع كانوا يصفقون له عن طيب قلب . وكانت نساء اكبر سنا يتعلقن بذراعه ليخصهن بالرقصة القادمة . اما الرجال فقد كانوا يخلون الحلبة مراعاة له ويؤالفون تصفيقهم مع زغردات المندولين الخشنة . وانتهى الامر بكليمنزا الى ان يتداعى ساقطا على مقعد ، فجاءه بولي غاتو بقدح من نبيذ مثلوج ، نبيذ

بنفسجي اسود تقريبا ، وجفف جبين الجوبيتر الصقلي بمنديل حريري . وافرغ كليمنزا قدحه بجرعة واحدة وهو ينفخ كالجوت ، ولكنه قال لبولي بجفاء ، بدلا من ان يشكره :

ــ انت هنا للعمل يا سيد بولي غاتو ، وليس للمشاركة في مسابقة رقص ، كما قد تظن . اذهب فقم بجولة في الانحاء لترى اذا كان كل شيء طبيعيا .

وضاع بولي في الجمهور .

توقف الموسيقيون لحظة ، كانت حناجرهم جافة . وتناول رجل آلة مندولين من وسط الآلات المتناثرة ، ووضع قدمه اليسرى على منضدة خفيفة وشرع يغني اغنية غرامية صقلية ذات كلمات خفيفة . هذا الشاب نينو فالانتي كان ذا وجه اقرب الى الجمال ، بالرغم من ان ادمان المشروبات الروحيه قد خلف فيه الورم ، والحق انه كان قد بدأ يثمل ، وكان يدير عينين زائغتين بينما كان لسانه الوردي يتذوق في نهم كلمات اغنيته المرحه . وكانت النساء يزقزقن افتتانا ، والرجال يرددون بأعلى اصواتهم مع المغني آخر كلمة من كل مقطع .

اما دون كورليون ، الذي كان شديد الرصانة في هذا الميدان (بالرغم من ان روجته السمينة لم تكن اقل من سائر المجموعة مرحا وضحكا) فقد عاد خفية الى البيت . ولاحظ سوني انسحاب أبيه ،فاقترب من مائدة العروس وجلس قرب وصيفة الشرف الاولى : الصبية لوسي مانسيني . ولم يكونا يخافان شيئا ، فان زوجة سوني كانت مشغولة في المطبخ باعداد حلوى العرس التي كانت على وشك ان تقدم . وهمس سوني ببعض كلمات في اذن الفتاة التي نهضت . وبعد بضع دقائق ، نهض سوني بدوره وتبعها لا يبدو على وجهه اي تأثر ، وكان يتوقف هنا وهناك وسط حشد المدعوين . وتبعته جميع الانظار : فان اللعبة لم تخف على احد .

لم تكن لوسي مانسيني فتاة بريئة على الاطلاق . كانت قد اصبحت لها « شهرة » بعد ان تأمركت كليا طوال ثلاثة اعوام في الكلية . وطوال اسبوع الاعداد الذي سبق العرس ، قامت بمغازلة سوني الجميل باسلوب الاثارة والتحدي الذي كان يبدو لها مقبولا بين فتى ووصيفة شرف . وبعد ان رفعت لوسي قليلا ثوبها الوردي حتى لا ينسحب على الارض ، دخلت المنزل وبسمة البراءة على شفتيها ، وارتقت الدرج وهي تعدو ثم اغلقت خلفها باب الحمام . وبقيت بضع دقائق ،وحين خرجت ، كان سوني كورليون منتصبا ، ويداه في جيبيه ، عند قرص درج الطابق الاعلى . واومأ لها ان تصعد .

كان توماس هاجن واقفا خلف النافذة المغلقة لمكتبة دونكورليون ، يراقب الحشد الفرح الذي كان يتزاحم في الملعب المزدان باكاليل الزهر . وكان مكتب العراب غرفة مثلثة ، مرتفعة بعض الشيء ، تختفي جدرانها خلف رفوف مليئة بكتب الحقوق . وكان هاجن رجل القانون الرسمي للدون ، وكان يقوم الى قربه بأعمال « الكونسغليوري » (اي المستشار) ، ويحتل مركزا اساسيا في اركان حرب « العائلة » . وفي هذه الغرفة ، كان قد وضع هو ودون فيتو حل كثير من

المشكلات الشائكة . وقد ادرك توم هاجن ، حين راى العراب يغادر الاحتفال ويدخل البيت ، ان يوم عرس الآنسة كونستانزيا لن يكون كليا يوم بطالة لـه ولسيده . ان الدون سيأتي للقائة .وبعد لحظة ، راى هاجن سوني كورليون يهمس في اذن لوسي مانساني ، فتابع لعبتهمـا وراى سوني يدخل البيت بعـد لوسي . وقطب هاجن جبينه ، وتساءل لحظـة اذا كان عليه ان يطلع دون كورليون على الحقيقة ، وقرر اخيرا الا يقول شيئا . واقترب من المكتب واخذ ورقة مخطوطة تحمل اسماء الذين نالـوا الحظوة لمقابلة دون كورليون على انفراد . وحين دخل الدون المكتب ، بسط له هاجن اللائحة ، فقراها وهزّ راسه قائلا :

— سيكون بوناسيرا آخر من يقابلنـي .

وفتح هاجن الباب ــ النافذة ،وتوجه توا الى الحديقة وقصد الرجال الاربعة الذيـن كانوا ما يزالون ملتفين حول برميل النبيذ ، واومأ بسبابته الى نازورين السميـن . وعانق دون كورليـون بحرارة صديقه الخباز . كانا رفيقي اللعب في طفولتهما ، في ايطاليا ، ولم يفسد مرور الزمن صداقتهما . كـان نازورين يرسل كل عام ، في عيد الفصح ، كميةمـن الكعك بالجبن الابيض ، مذهبة كأنها الشموس، وعريضة كعجلات عربة ، الى منزل دون كورليون . وفي عيد الميلاد ، واعياد جميع افراد العائلة ، كانت قوالب ضخمة بالقشدة تعبُر عن تبجيل الخباز الامين لصديقه القديم . وعاما بعد عام ، في ايام القحط وايام اليسر على حدّ سواء ، كان نازورين يدفع ضريبته بطيبة خاطر الى « اخوية الخبازين » التي كـان دون كورليون قـد نظمهـا في شبابه . وهو بالمقابل لـم يطلب قط الى دونكورليون ان يرد لـه ايـة خدمـة (باستثناء ان يحصل له في اثناء الحرب على قسائم من السكر في السوق السوداء) . ولكـن هاقـد آن الاوان لكي يطالب الخبـاز الوفيّ بالحقـوق التـي اكتسبهـا من وفائه وكان دون كورليون يستشعر مقدما سرورا مخلصا بالاستجابة الطلب الذي سيقدم له .

وقدم لنازورين سيكارا من « نوبيلي » وقدحا من « الستريغا » ووضع يـده على كتفـه ليدفعه الى التحدث من غير مواربة. وكانت هذه الحركة تدلل (ان كان ثمة حاجة الى دليل) على نزعـة دون كورليون الانسانية . كان يعرف بالتجربـة القاسيـة كم يتطلب من الشجاعة ان يطالب شخص « صديقا » له ببعض المعونة .

وروى نازورين قصة انزو وابنته . شاب جميل طيب ، من مواليد صقلية ، أسره الجيش الاميركي وارسله الى الولايات المتحدة كأسير حرب ، ثم اطلق سراحـه لوعد بالمشاركـة في الجهد العسكري لاميركا . وكان حب بريء نقيّ قد ولد بيـن انزو الشريف وكاترين اللطيفة ، الحذرة ، العذراء . ولكن الحرب كانت قد انتهت، وسوف يعـاد الشاب العديم الحظ الى ايطاليـا ، ولا شك في ان الآنسة نازورين ستموت من ذلك كمدا . والعراب وحده كان يستطيع ان ينقـذ الشاب والفتاة . انهمـا لم يكونـا يضعـان املهمـا الا فيـه .

كان الرجلان يذرعان الغرفة الواسعة جيئة وذهابا ، جنبا الى جنب . وكان الدون قـد احتفظ بيده مستريحـة على كتف نازورين ، وفيمـا كان يصغي اليـه

ـان يهز رأسه علامة التفهم ليظهر له انه كان مستعدا لخدمته . وحين انتهى نازورين ، نظر اليه وهو يبتسم قائلا له :

ـ يا صديقي العزيز القديم ، لا تقلق ولا تعذب نفسك بعد .

ثم شرح له ما ينبغي ان يعمل . فسوف يقدم طلب الى نائب من نواب الدائرة يطرح في الكونغرس مشروع قانون يمنح انزو الجنسيه الاميركيه . ولم يكن نجاح المسعى مشكوكا فيه . فان جميع افراد الكونغرس كانوا متواطئين ليتبادلوا خدمات من هذا النوع . ولكن ذلك كان يكلف غاليا . الفي دولار . وسيضمن دون كورليون ، من جانبه ، نجاح هذه الخطوة ، ويقبل بتسليم المبلغ . الكون هذه الشروط موافقة لصديقه القديم ؟

وهز الخباز السمين رأسه ايجابا . انه لم يكن يتوقع ان يحصل مجانا على حظوة استثنائية كهذه . هذا امر مفروغ منه . ان عملا خاصا من اعمال كونغرس الولايات المتحده لا يباع بسعرمنخفض . وكان الرجل الطيب يكاد يبكي لفرط شعوره بالعرفان . وقد رافقه دون كورليون حتى الباب واعدا اياه بان يرسل له اشخاصا اكفاء ينظمون كل التفاصيل ويهيئون الاوراق الظرورية . وعانق الخباز بحرارة صديقه المحسن واختفى في الحديقة .

التفت هاجن باسما نحو دون كورليون :

ـ ان نازورين يوظف ماله توظيفا جيدا . صهر ومعاون له الى الابد لن يكلفه كثيرا ... كل ذلك لقاء الفي دولار .

وبعد ان صمت لحظة ، استطرد يسأل :

ـ لمن ينبغي ان نعهد في هذا العمل ؟

وفكر دون كورليون ، مقطب الحاجب .

ـ ليس ذلك لصاحبنا . أعط هذا الى يهودي الحي الاخر . وليس عليك الا ان تغير العناوين : الان وقد انتهت الحرب، ربما كان امامنا كثير من القضايا المماثلة. اننا بحاجة الى عملاء في واشنطن للقيام بالفائض من العمل من غير دفع الاجور .

وسجل هاجن على دفتر مذكراته : « لا لرجل الكونغرس لوتاكو . لنحاول مع فيشر . »

كان الزائر الثاني الذي ادخله هاجن الى مكتب دون كورليون يدعى انطوني كوبولا . وكان ابوه وكورليون قد عملا معا في السكك الحديدية في شبابهما الاول . وكانت قضيته من اسهل القضايا : كان بحاجة الى خمسمئة دولار ليفتح مطعما « للبيتزا » . وكان يطلب سلفة يدفعها لبعض الترتيبات ولشراء فرن خاص. ولسبب غير واضح ، لم يكن كوبولا قادرا على الافادة من الاعتمادات العادية في المصارف . وقد دس كورليون يده في جيبه واخرج رزمة من الاوراق المالية . ولكنها لم تكن كافية ، فقطب وجهه والتفت نحو توم هاجن :

ـ اعرني مئة دولار ، وسأردها لك الاثنين حين اقصد المصرف .

واحتج صاحب الطلب بان اربعمئة دولار تقدم له خدمة عظيمة ، ولكن دون كورليون قاطعه بتربيتة ودية على كتفه وقال له معتذرا :

ـ ان هذا العرس الصغير قد اوقعني ببعض العجز .

وتناول الاوراق التي مدها هاجن له واعطاها لانطوني كوبولا مضافة الى الاربعمئة دولار التي كان قد اخرجها من جيبه .

ونظر اليه هاجن باعجاب صامت. كان قد تعلم في مدرسة دون كورليون بأن الانسان صاحب القلب الكبير ينبغي ان يضفي طابعا شخصيا على مظاهر كرمه. فيا له من شرف لانطوني كوبولا ان يستدين شخص في مثل اهمية الدون مالا ليعيره اياه ، هو الحشرة الحقيرة ! صحيح ان كوبولا كان لا يجهل ان دون كورليون كان مليونيرا كبيرا ، ولكن ما هو عدد المليونيرات الذين يقبلون التضييق على انفسهم ، مهما كان هذا التضييق ، ليقدموا خدمة الى صديق فقير ؟

رفع الدون نحو توم هاجن نظرة تساؤل ، فقال هاجن :

ـ التالي ليس على اللائحة ، ولكنه يلح من اجل مقابلتك . انه لوكا برازي. هو يعلم انه لا يستطيع ان يقدم لك تهانيه علنا ، ولكنه حريص على ان يقوم بذلك على انفراد . فهل تريد مقابلته ؟

للمرة الاولى ذلك النهار ، بدا الضيق على دون كورليون . وقد اجاب على سؤال توم هاجن بسؤال اخر :

ـ أتظن ان ذلك ضروري ؟

فرفع هاجن كتفيه :

ـ انت تفهم هذا الشخص خيرا مني . انه مدين لك ان تدعوه الى العرس. وهو لم يكن يتوقع ذلك . فانا اتصور انه حريص على التعبير عن عرفانه لك.

هز دون كورليون راسه واوما الى توم هاجن ان بامكانه ان يدخل لوكا برازي .

كانت الشراسة الوحشية التي تشف عنها سحنة لوكا برازي البنفسجية قد استرعت انتباه كاي ادامس في الحديقة ، وسط الوجوه المبتهجة التي كان يحملها مدعوو دون كورليون . وقد سالت ميخائيل . والحال ان ميخائيل اذا كان قد اصطحب كاي الى عرس شقيقته ، فمن اجل ان تكتشف ـ بصورة تدريجية حتى لا تستشعر صدمة كبيرة ـ « الحقيقة » حول نشاطات دون كورليون . فحتى ذلك الحين ، لم تكن كاي قد رات في الدون الا رجل اعمال ليست اخلاقيته صارمة اكثر مما ينبغي . وقد عزم ميخائيل ان يكشف لها بصورة غير مباشرة جزءا ـ جزءا فقط ـ من الواقع . فشرح لها ان لوكا برازي كان واحدا من الذين يخشون اكثر ما يخشون في احياء البؤساء في الولايات الشرقية . والامر الذي كان سبب تفوق موهبته انه كان يملك ، بلا معونة احد ، قوة هائلة لتنفيذ عمله كقاتل اجير . لم يكن بحاجة الى مساعدين . وهذا ما كان يجعله بمنجاة من فضول رجال الشرطة . لم يكن بالامكان اقامة الادلة عليه . ولعدم وجود البراهين الكافية ، لم يكن ممكنا قط القبض عليه . وكشر ميخائيل واضاف :

ـ لا ادري ان كان صحيحا كل ما يروونه . ولكني اعرف ان هذا الرجل هو صديق ابي .

للمرة الاولى ، بدات كاي تفهم . وسألت بصوت غير مصدق بعض الشيء :

ـ انت لا تقصد الى القول ان شخصا كهذا يعمل مع ابيك ؟
وفكر ميخائيل : ان هذا سيطول اكثر مما ينبغي . فالافضل الحديث الصريح:
ـ منذ خمسة عشر عاما تقريبا ، حاول البعض ان يضعوا ايديهم على تجارة ابي: تصدير الزيت . فحاولوا ان يقتلوه ، وكانـوا يوشكون على النجاح . واذ ذاك قـام نوكا برازي بمطاردتهم . ويقال انه قتل ستة اشخاص في خمسة عشر يومـا ... وهكذا انتهت حرب زيت الزيتون التاريخيــة .
وابتسم ميخائيل بسمة متواطئة ، كما لو انه روى حكاية طريفة . وارتعشت كاي :
ـ اتقصد ان اباك قد جرحه اللصوص ؟
ـ مضى على ذلك خمسةعشر عاما لو تعلمين . ومنذ ذلك الحين ، جرى كل شيء بلا تعقيدات .
وكان قد بدا يخشى ان يكون قد شط به القول . وقالت كاي :
ـ انك تحاول ان تخيفني . الافضل ان تعترف بانك غير راغب في الزواج بي.
وابتسمت وراحت تضربه في جنبه ضربات حادة بمرفقها :
ـ انك لبارع ، شديد البراعة !
وابتسم ميخائيل ايضا . وقال :
ـ لئن رويت لك هذا ، فلاني اريدك ان تفكري فيه قليلا .
وسألت كاي :
ـ اصحيح انه قتل ستة رجال ؟
ـ هذا ما روته جميع الصحف . ولكن لم يقم على ذلك اي دليـل . وهنـاك قصة اخرى ، بصدد برازي . وهذه القصة لا يرويها احد . ويبدو انها من الفظاعة بحيث يرفض حتى ابي ان يتحدث عنها . ويعرفها توم هاجن ، وهو لم يرد قط ان يرويها لي . وقد قلت له ذات يوم مازحا : « توم ، متى اكبر بما فيه الكفاية لتروي لي قصة لوكا ؟ » فأجابني توم « حين تبلـغ المئة » (وبل ميخائيـل شفتيـه بقدح النبيذ) لا بد انها ،هذه ، قصة عجيبة .. فائقة ..
لم يكن لوكا برازي قد اغتصب شهرته . كان رجلا يخيف الشيطان ، قصيرا ، قوي البنية ، ضخم الرأس ، وما كان عليه الا ان يظهر حتى تنتابك الرغبة في اطلاق اشارة الخطر . كان حضوره يعلن عن الخطر مثل علم القرصنة الاسـود . كانـت عيناه داكنتين ، ولكن دكنة لا حرارة فيها ، فكان بؤبؤيه يغطيهما راسب سخامي بسحب منهما الحياة . وكان يلاحظ على فمه الصفرة المنزوفة اكثر من التعبير الفظ الوحشي ، كان فم ميت ، رقيقا ، كاوتشوكيا ، كابيـا كانه من لحم العجل .
وكان تفاني لوكا برازي بالنسبة لدون كورليون مشهورا شهرة عنفه الشيطاني. كان يشكل وحده ركنا من الاركان التي قامت عليها قدرة دون كورليون الكلية. كـان ظاهرة فريدة في جنسه .
لم يكن يخشى الشرطة ولا المجتمع ، ولم يكن يخاف الله ولا الشيطان ، ولـم يكن يخاف ولا يحب امثاله . ولكنه كان قد اختار ان يخاف دون كورليون وان يحبه.

وحين مثل امام الدون ، اتخذ مظهر التصلب والتكلف الذي يتخذه من يخضعه الاحترام . ودمدم بتهنئة مرصعة بزهور البلاغة وعبر تعبيرا احتفاليا عن امنيته بان يكون من حظ الوليد الاول لاحفاد دون كورليون ان يكون ذكرا . وبعد ذلك ، مد للدون مغلفا محشوا باوراق نقدية. كانت تلك هي الهدية التي يقدمها للعروسين.

والان ، كان دون كورليون يدرك لماذا كان لوكا برازي قد طلب ان يقابله على انفراد . وقد لاحظ هاجن التغير الذي حدث في تصرف معلمه . لقد عامل الدون لوكا برازي كما يعامل ملك رعيه من رعاياه قدم له خدمه تافهة ، عامله بمراعاة شامخه ولكن من غير ان يستسلم لحظه للالفه . وكانت كل حركة وكل كلمة من دون كورليون مرصودة لاشعار لوكا برازي بأنه موضع تقدير رفيع . ولم يبد على الدون انه قد عجب قط أن يقدم برازي هدية العرس اليه هو بالذات . كان يفهم السبب.

كان يعلم مقدما ان مغلف برازي كان اضخم المغلفات التي تحملها كونستانزيا السعيدة في كيس نقودها . وكان برازي قد قضى ساعات طويلة وهو يحدد المبلغ الذي سيقدمه للعروسين الشابين ويقارنه بما عسى ان يجود به الواهبون الآخرون وهذا الحساب كان قد كلفه ساعات من التفكير .كان حريصا على ان يبدو اسخى الناس لكي يبرهن انه اخلص اصدقاء دون كورليون واشدهم احتراما له . من اجل هذا سلم كورليون الاب مغلفه ، خلافا للعادة المألوفة . وقدشكره الدون بعبارات مزدهرة وحاذر ان يشير الى عدم قانونية الطريقة . وقد راى توم هاجن قناع القاتل الضاري يسقط ووجهه ينتفخ بالفخر والسرور . وقبل ان ينسحب برازي ، قبل يد دون كورليون ، وحين خرج الم بهاجن الذي كان يمسك الباب مفتوحا ويوجه له ، بحذر ، بسمة ودية . فاجاب عليها الغول ببسمة اطالت شفتيه الكابيتين المطاطتين.

حين انغلق الباب خلف الشخصية المقلقة ، صعد دون كورليون تنهدة ارتياح. كان برازي هو الرجل الوحيد في العالم القادر على تعكير صفوه ، قوة للطبيعة لم يكن ثمة اي يقين بامكان اخضاعها . كان ينبغي تحريكها بمثل الحذر الذي تحرك به عبوة ديناميت . وهز دون كورليون كتفيه ، وكان يقول لنفسه : حتى عبوة ديناميت، يمكن بعد كل حساب تفجيرها بلا اضرار ، في حالة الضرورة القاهرة ، والقى كورليون على توم هاجن نظرة استفهام :

ـ الم يبق الا بوناسيرا ؟

فهز هاجن راسه بالايجاب . وقطب الدون حاجبه ، وبدا عليه الانشغال :

ـ قبل ان تأتيني به ، اطلب من سانتينو ان يجيء . يجب ان اقوم بتربيته .

وراح هاجن يبحث في قلق عن سوني في جميع زوايا الحديقة . وعاد يقول لبوناسيرا ان يصبر لحظة اخرى ، وعاد الى اقصى الحديقة ليستفهم بالقرب من ميخائيل كورليون وجميلته :

ـ الم تريا سوني ؟

لا . لم يرياه .وفكر توم هاجن : « ما اقبحه ! لئن قضى سوني الجميل الوقت كله وهو يحوم حول وصيفة الشرف ، فستحدث بلبلة وضجيج . زوجته ، اسرة الآنسة !... » ان ذلك يمكن ان يؤدي الى كارثة . وهرع هاجن ، ضيق الصدر ،

الى الباب الذي دخلمنه سوني البيت ، قبل ذلك بنصف ساعة تقريبا .

كانت كاي ادامس تتبع بنظرها تحركات توم هاجن . وسألت ميخائيل :

ــ من هذا ؟ لقد قدمته لي على انه اخوك ، ولكن اسمه ليس كورليون .. ثم انه يشبه كل شيء،الا ان يكون ايطاليا .

قال ميخائيل : ــ ان توم يعيش معنا منذ كان في الثانية عشرة . كان قد فقد آنذاك اباه وامه ... وكان يتسكع في الشوارع وهو يشكو وجعا في عينيه . واصطحبه سوني ذات مساء الى البيت ، ومنذ ذلك الوقت ، بقي فيه . لم يكن له بيت ولا اهل .وعاش بيننا حتى تزوج .

كانت كاي ادامس شديدة التأثر :

ــ اية قصة روائية ! لا بد ان اباك رجل طيب طيبة استثنائية .. ان يتبنى صبيا ، على هذا النحو ، بكل بساطة ، حين يكون له ما فيه الكفاية ...

ولم يجد ميخائيل حاجة ليلفت نظرها الى ان اربعة اولاد ، بالنسبة للمهاجرين الايطاليين ، لا يشكلون الا اسرة صغيرة جدا . واكتفى بان يوضح :

ــ لم يتبن توم . كل ما هناك انه عاش عندنا .

قالت كاي :

ــ آه ، حسنا .. (وبدت مندهشة) ولماذا لم تتبنوه ؟

فأخذ ميخائيل يضحك:

ــ لان ابي كان يجد ان ذلك سيكون نقصا في الاحترام البنوي من قبل توم . ان الموافقة على تغيير الاسم كان يكون اهانة لاسرة هاجن .

ورأى الشابان توم يفتح امام سوني الباب الزجاجي الذي يفضي الى مكتب دون كورليون ويوميء باصبعه الى بوناسيرا . وسألت كاي :

ــ الا يستطيعون ان يدعوا اباك وشأنه، جميع هؤلاء الاشخاص ؟ الا يستطيعون ان يختاروا يوما آخر ليحدثوه في شؤونهم ؟

واخذ ميخائيل يضحك :

ــ انهم يعرفون ، بالتقاليد ، ان صقليا حقيقيا لا يستطيع ان يرفضالاستجابة للمطالب التي تقدم اليه يوم عرس ابنته . ولن يكون هناك صقلي حقيقي يفوت مثل هذه المناسبة !

رفعت لوسي مانسيني ثوبها الوردي قليلا ورقيت السلم وهي تعدو . كان سوني يكاد الآن يخيفها . كان وجهه الكوبيدوني ، وقد اشتعل بالخمر والشهوة ، يتضرج بحمرة داعرة . ولكنها كانت قد ارهقته طوال الاسبوع لكي توصله الى هذه النقطة بالذات . كانت المغامرتان الفراميتان اللتان حدثتا للوسي في الكلية قد خلفتاها باردة بشكل يرثى له ، والحق ان اية مغامرة منهما لم تدم اكثر من اسبوع . وكان عشيقها الثاني قد دمدم بين شفتيه ، وهو في نزاع معها ، بانها كانت«اوسع مما ينبغي ، هناك ، منتحت» وكانت لوسي قد فهمت تماما ، وحتى نهاية العام الدراسي ، رفضت كل دعوة وكل لقاء .

وفي اثناء الصيف ، فيما كانت لوسي تساعد في معدات كوني كورليون ، افضل صديقة لها ، سمعت همسا حول امور مهمة تتعلق بسوني الجميل . فذات احد بعد الظهر ، في مطبخ آل كورليون ، وصل الامر بساندرا ، زوجة سوني ، الى الاعترافات . كانت سيدة شابة بسيطة طبيعية جدا . وكانت تعيش في اميركا منذ طفولتها ، وهي ايطالية المولد . كانت ذات بنية قوية وصدر سخي ، وكانت قد وضعت ثلاثة اولاد في خمسة أعوام من الزواج . وكانت ساندرا والنساء الاخريات ينكدن على كوني وهن يتحدثن عن اهوال السرير الزوجي ، وصاحت ساندرا وهي تقهقه كالعفريتة :

– يا الهي ! في المرة الاولى التي رايت فيها حربة سوني وقلت لنفسي انه سيدخل لي هذا كله ، صحت يا للنجدة ! وبعد انتهاء عام ، كانت أحشائي أشبه بقدر من المكرونة غلت طوال ساعة . وحين سمعت انه كان يقضي لفتيات اخريات حاجتهن هرعت الى الكنيسة اشعل شمعة للقديس جوزيف !

وانفجر الجميع بالضحك ، ولكن اوسي احست بلحمها يرتعش بين ساقيها .

وها هي الآن تصعد السلم جريا لتلتقي بسوني . وانتشرت الشهوة فجأة في جسدها بعنف . وحتى قبل ان تصل الى قرص الدرج ، قبض سوني على يدها واقتادها الى غرفة غير مشغولة كانت تفضي الى طرف الرواق . وحين انغلق الباب خلفهما ، احست لوسي بساقيها تخوران . والتصقت شفتا سوني بشفتيها ، وكان لهما مذاق مر لتبغ محروق . وفتحت لوسي فمها ، واذ ذاك احست بيد سوني تصعد بين ساقيها تحت ثوبها الوردي ، ثوب وصيفة الشرف ، وسمعت حفيف الحرير المدعوك . وكانت يد سوني تنتزع سروالها القصير من الاطلس ، يد سوني الضخمة الملتهبة تداعبها . وعقدت ذراعيها حول عنق سوني وظلت متعاقة به بينما كان يفك ازراره . ووضع كلتا يديه تحت فخذي لوسي العاريتين ورفعها عن الارض . ورفعت ساقيها الى الامام فانفلقت فخذاها على فخذي سوني . واندس لسان سوني في فم لوسي التي مصته . ونفض سوني صلبه نفضة وحشية ، فصدم راس لوسي الباب بعنف . واذ ذاك احست شيئا محرقا ينزلق بين فخذيها . وانفصلت يدها اليمنى عن عنق سوني وهبطت على جسمه لترشده ، ثم انغلقت على عمود من اللحم هائل مفعم بالدم . وكان ذلك يتحرك ، يخفق في يدها كأنه حيوان . وكان العرفان والنشوة ينتزعان منها الدموع تقريبا . واذ ذاك قادت يدها الراجفة العضو الاسطوري حتى عتبة لحمها الدبق المنتفخ . وحين ولجها شعرت بلذة صعّدت من حنجرتها حشرجة نابضة ، وكانت ساقاها المنتصبتان ، آنذاك متعلقتين تقريبا بعنق سوني ، فيما كان سوني يفلح جسمها بضربات خاطفة ، معذّبة ، لا عد لها . كانت لوسي ، وقد تقوس جنباها ، ترفع كفلها اعلى فاعلى ، وللمرة الاولى في حياتها بلغت ذروة اللذة . واحست جدولا من المني يسيل على فخذيها وعلى مهل ، انحلت ساقاها وانزلقتا على جسم سوني ، وعادت قدماها الى الارض الخشبية . وظلت لوسي وسوني لحظة مستندا احدهما الى الآخر ، مرهقين ، لاهثين .

وفجأة سمعا حركة خفيفة فارتعشا . كان ثمة من يطرق الباب بهدوء .

فسارع سوني الى تزرير بنطاله ، مستندا بظهره الى الباب للحيلولة دون فتحــه. وسوت لوسي ، وقد استطار لبها ، ثوبها الوردي ، وماست بظاهر كفها الحريـر المدعوك . ولم تكن عيناها النهمتان تنفصلان عن سوني ، ولكن ماكان قد منحها تلك اللذة كلها ، كان قد عاد الى مكانه تحت قماش ضيق اسود . وسمعا صوت تـوم هاجن الذي كان يسأل بكل هدوء :

ـ سوني ... انت هنا ؟

واطلق سوني تنهيدة عزاء ، وغمز بعينه للوسي .

ـ نعم ، ياتوم ... ماذا هناك ؟

فأجاب هاجن ، من غير ان يرفع صوته :

ـ ان الدون يريد ان تأتي ألى مكتبه ، حالا .

وسمع الشاب والفتاة وقع اقدام تبتعد في الرواق . وانتظر سوني لحظــة اخرى ، وسحق فمه على فم لوسي ، ثم فتح الباب ودلف الى الممر .

وامرت لوسي مشطا في شعرها ، ثم تحققت مـن ان وضعها لن يفضحهـا ورفعت ربطة ساقها . وكان يخيل اليها ان ضلوعها محطمة ، وكانت شفتاها رخوتين كاجاصة ذائبة . وخرجت بدورها . وكانت ما تزال تحس بنداوة رطبة بين فخذيها، ولكنها لم تدخل الحمام ، بل هبطت السلم وهي تعدو وخرجت توا الى الحديقــة. وحين راتها كوني تعود الى مكانها على مائدة الشرف ، صاحت بصوت رنان :

ـ اين كنت يالوسي ؟ يبدو عليك انك ثملة . هيا . ابقي الى جانبي الآن !

اما كارلو ريزي ، العريس ، فقد ملأ قدح نبيذ للوسي وابتسم كما لو انه يعرف ولكن لوسي لم توله اهتماما ، ورفعت القدح المترع بنبيذ اسود ذي طعم مفكه الذي كان يقدمه لها كارلو الاشقر ، فبلت به شفتيها الملتهبتين وجرعته دفعة واحدة . وفيما كانت تشرب ، كانت عيناها تبرقان على حافة قدحها وتحاولان بشراهــة ان تجدا ثانية سوني الجميل . لم يكن ثمة شخص آخر يهمها بعد . وشدت ساقيها واحدة الى الاخرى . وكان لايزال ثمة بعد ذلك المكان الارطب بين فخذيها . كان جسمها كله يرتجف . وبينما كانت تجرع الخمرة ، مالت قليلا نحو كوني وهمست سـرا :

ـ بضع ساعات اخرى من الانتظار ،وتعرفين كل شيء ، كل شيء ،كل شيء..

فكبتت كونستانزيا ضحكة قصيرة . واخذت لوسي ، وقد ضمت يديها علـى المائدة ، في جلسة متواضعة ، تتذوق انتصارها بتلذذ غادر ، وكان لديها احساس بأنها قد سرقت كنزا محفوظا للعروس .

دخل اميريغو بوناسيرا خلف هاجن الى غرفة البيت الجانبية حيث كـان دون كورليون ينتظره جالسا بازاء مكتب عريض . وكان سوني كورليون واقفا امام النافذة ينظر الى الحديقة . ومن جميع الزوار الذين استقبلهم دون كورليون منذ بـدء الاحتفال ، كان بوناسيرا الوحيد الذي استقبله ببرودة . فهو لم يعانقه ، بل لم يمد له يده للمصافحة . والحق ان دعوة دفان الموتى ذي السحنة المصفرة لم تكن معزوة

الا الى الصداقة الحميمة التي كانت تربط زوجته بزوجة دون فيتو . اما بوناسيرا شخصيا ، فقد كان فاقد الحظوة كليا تجاه دون كورليون .

وقدم بوناسيرا طلبه بشكل منحرف :

– يجب ان تعذر ابنتي ، ابنة السيدة زوجتك بالمعمودية . فهي ان قصرت بواجباتها تجاه عائلتك فلم تأت اليوم ، فلانها لا تزال في المستشفى .

ورمى بنظرة نحو سوني كورليون وتوم هاجن ليظهر انه لم يكن يرغب في قول المزيد بحضورهما . وكان كلام دون كورليون عديم الشفقة اذ قال :

– لقد سمعنا جميعا ما أصاب ابنتك . فاذا كان بامكاني ان اقدم لها خدمة، فليس لك الا ان تقول كلمة. ان زوجتي هي عرّابتها ، في اخر المطاف ، اليس كذلك؟ وانا لم أنس قط الشرف الذي اوليتها اياه .

كان في هذا الكلام توبيخ . فانه لم يسبق قط لبوناسيرا ان دعا دون كورليون « بادرينو » . انه لم يكن يحترم العادة .

وامتقع دفان الموتى وسأل هذه المرة بشكل مباشر :

– هل بالامكان ان نتحدث على انفراد ؟

فهز دون كورليون رأسه نفيا وقال :

– انني على استعداد لتسليم حياتي الى هذين الرجلين : ابني وساعدي الايمن. ولن أهينهما بان اطلب اليهما ان يخرجا .

واغمض بوناسيرا عينيه لحظة قبل ان يعاود الكلام . واتخذ صوته الخشن الرتيب الذي كان يستعمله ليقدم التعازي الى العائلات :

– لقد ربيت ابنتي على الطريقة الاميركية . انني اؤمن باميركا . وقد تركت كثيرا من الحرية لابنتي ولكني علمتها في الوقت نفسه ان تحترم شرف عائلتها، وجذرتها . ووجدت لها صديقا صغيرا ، ليس ايطاليا . كان يصطحبها الى السينما ، فكانت تعود الى البيت متأخرة ، ولكنه لم يأت الينا قط مقدما نفسه . وقبلت كل شيء ، بلا احتجاج . وانا المخطيء . ومنذ شهرين ، اخذها الى النزهة فيسيارة. وسقاها ، بمعاونة صديق له ، الويسكي ، وبعد ذلك حاولا ان يعتديا عليها ،وقاومت فانقذت شرفها . واوسعاها ضربا ، كأنها دابة . وحين ذهبت الى المستشفى رأيت عينيها الاثنتين متورمتين وانفها مكسورا وفكها محطما . وكان لا بد من رفئها. كانت تبكي من فرط الالم . وكانت تقول لي « بابا ، بابا ، لماذا فعلا ذلك ؟ لماذا فعلا ذلك لي انا ؟ » وانا ايضا كنت ابكي ..

واضطر بوناسيرا الى التوقف ، وعاد يبكي . بالرغم من ان رنة صوته لم تكن قد كشفت قط تأثره .

وقام دون كورليون بحركة تعاطف ، كما لو استسلم على مضض الى سماحة قلبه . واستأنف بوناسيرا كلامه :

– ماذا دهاني؟ (كان الضيق قد انسَن صوته) كانت نور حياتي ، كانت ابنتي الصغيرة ، المحبة ، المشفوفة . وكانت جميلة ! كانت تثق بالناس ، اما الآن فلن تثق بأحد ابدا . ولن تكون بعد جميلة ابدا .

وكان اميريغو بوناسيرا قد بدأ يرتعش ، وكانت حمرة شاحبة تغمر وجهه المصفر .

ـ توجهت الى الشرطة ، كأي اميركي صالح ، فأوقف الشقيان واحيلا على المحكمة . كانت الاثباتات مرهقة ، وتم الترافع على اساس الاعتراف بالجرم ، ولكن اطلق سراحهما في اليوم نفسه . وانا كنت هناك في قاعة المحكمة اشبه بسخيف احمق ، وذانك القذران كانا يحتقرانني . عند ذلك قلت لزوجتي : ما دام الامر كذلك، لم يبق لنا الا شيء واحد نقوم به : ان نذهب للقاء دون كورليون ونطلب منه الاقتصاص لنا .

وكان دون كورليون قد حنى راسه ليظهر انه كان يحترم الم الاب . ولكنه اجاب بوناسيرا بكل برودة الكرامة المهانة :

ـ لماذا لجأت الى الشرطة؟ لماذا لم تأت لمقابلتي منذ البدء ؟

فتمتم دفان الموتى بصوت خفيض لم يكد يسمع :

ـ ماذا تطلب مني ؟ قل لي ماذا تطلب . ولكن افعل ما ابتهل اليك ان تفعله.

كان التحدث الى دونكورليون بهذه اللهجة اشبه بالوقاحة .

ـ وماذا تبتهل الي ان افعل ؟

فألقى بوناسيرا نظرة مائلة نحو هاجن وسوني وهز راسه بحذر . ومال الدون بجسمه ، من خلف مكتبه ، نحو بوناسيرا : وهو ما زال جالسا الى مكتبه. وتردد الرجل قليلا ، ثم مال بدوره منخفضا حتى لامست شفتاه اذن دون كورليون الزغبة . واستمع اليه الدون ككاهن في الاعتراف ، شارد العينين ، جامدا ،بعيدا. وبقي الرجلان فترة طويلة في الوضع نفسه ، حتى انتهى بوناسيرا من مسارّاته واستقام بقامته كلها .

نظر اليه الدون نظرة قاسية ، ملتهب الوجنتين ، وظل محدقا فيه دون إن يطرف . وتكلم الدون كورليون :

ـ هذا ما لا استطيع ان افعله . انك تفقد كل اعتدال !

اذ ذاك قال الآخر بصوت مرتفع ومسموع :

ـ سأدفع لك ما ستطلبه مني .

حين سمع هاجن هذه الكلمات الغريبة عرته انتفاضة ، وشبك سونيكورليون ذراعيه وانصرف عن النافذة وقد تشنج فمه ببسمة تهكم . كان يبدو للمرة الاولى مهتما بالمشهد الذي كان يمثل في الغرفة .

ونهض دون كورليون . كان وجهه ما يزال جامدا ، ولكن صوته ارتفع يقول ببرودة جنائزية :

ـ نحنمتعارفان منذ سنوات طويلة . ولكنك لم تقصدني قط لكي انصحك او اساعدك . بل انا لا اذكر متى دعوتني آخر مرة لتناول القهوة في منزلك .ومع ذلك ، فان زوجتي هيعرابة ابنتك الوحيدة . فلنتصارح . لقد احتقرت صداقتي ولم تكن تريد ان تدين لي بشيء . كان هذا يخيفك .

قال بوناسيرا في تمتمة :

ـ لم اكن اريد حدوث مشاكل .
ورفع دون كورليون يده :
ـ لا ، لا تقل شيئا . كانت اميركا بالنسبة اليك جنة . كانت لك مهنةطيبة، ولم تكن تحرم نفسك شيئا ، وكنت تعد العالم مكانا مريحا جدا ، غير مؤذ اطلاقا ، ولم يكن لك الا ان تدع نفسك تعيش فيه على هواك . لم تسع مطلقا الى عقد صداقات حقيقية . ولكن الشرطة كانت موجودة ، بعد كل حساب ، اليس كذلك ؟ لم يكن بالامكان ان يحدث لك شيء ، لا لك ولا لذويك . لم تكن بحاجة الى دون كارليون . حسنا ،حسنا . كنت تجرح مشاعري ، ولكني لست من اولئك الذين يفرضون صداقتهم على من لا يريدها ، على من لا يقيم لها وزنا .
وانقطع الدون لحظة ووجه الى دفان الموتى بسمة ساخرة بأدب :
ـ وهأنت تقصدني الآن وتقول لي : دون كورليون ، حقق لي العدالة . تطلب مني ذلك بقليل من المراعاة . وانت لا تعرض علي حتى صداقتك . انك تقصدني يوم عرس ابنتي ، تطلب مني ان ادبر لك قتلا وتقول (وهنا قلد دون كورليون صوت بوناسيرا تقليدا مضحكا) : « سأدفع ما ستطلبه مني » لا ، لا . انني لا احسني مهانا، ولكن قل لي ماعسى ان اكون قد فعلت لتعاملني بهذا القدر القليل من المجاملة ؟
كان الضيق والخوف قد استوليا على اميريغو بوناسيرا . فصاح :
ـ كانت اميركا طيبة معي . كنت اريد ان اكون مواطنا صالحا . كنت اريد ان أجعل ابنتي اميركية حقيقية .
وصفق دون كورليون يديه على سبيل الموافقة :
ـ تتكلم ببراعة . رائع ! ولكنك في هذه الحالة لا تحتاج الى شكوى . لقد حكم القاضي . حكمت اميركا . وفي المرة القادمة حين تذهب لرؤية ابنتك في المستشفى ، احمل لها زهورا وكيس حلوى . ان ذلك سيعزيها . وستكون انت راضيا ! فبعد كل حساب ، ليست القضية ذات بال . ان الشابين صغيران ، مندفعان ، ثم ان احدهما هو ابن سياسي مرموق ، لا ، لا ، ياعزيزي اميريغو ، لقد كنت دائما رجلا شريفا . انا مجبر على الاعتراف بذلك ، بالرغم من انك احتقرت صداقتي . وسأثق بكلمة اميريغو بوناسيرا اكثر من ثقتي بأية كلمة لسواه . هيا ، اعطني كلمة الشرف بأنك ستعدل عن هذه الحماقة . ان هذا ليس عملا اميركيا . اصفح . وانس . ان الحياة مليئة بالمصائب .
هذه اللهجة الساخرة المحتقرة التي قيلت بها تلك الكلمات ، وذلك الغضب المدروس والمخيف بالقدر نفسه ، كانا قد احالا دفان الموتى المسكين الى حالة الجمود المحبط . ومع ذلك ، فقد عاد بحماسة الى المهمة :
ـ انني اطلب منك العدالة .
فقال دون كورليون بجفاف :
ـ لقد اعطتك المحاكم العدالة .
وهز بوناسيرا رأسه بهيئة مصدومة :
ـ لا ، لا ، بل اعطت العدالة لشقيين . وليس لي انا .

حيّا دون كورليون هذا التمييز الدقيق بايماءة موافقة من راسه وسأل :

ـ وما هي عدالتك ؟

ـ العين بالعين ، والسن بالسن .

ـ كنت تطلب اكثر من ذلك . ان ابنتك على قيد الحياة .

وقام دفان الموتى بتنازل ، على مضض منه :

ـ فليتألما مثل ألمها .

وانتظر دون كورليون ان يعبر بأكثر من ذلك . واذ ذاك ، استجمع بوناسيرا ما كان باقيا له من شجاعة ، وقال :

ـ كم تريدني ان أدفع لك ؟

ولم تكن هذه العبارة بعد الا انينا يثير الشفقة . وادار دون كورليون ظهره، فكان في ذلك اذن لبوناسيرا بالانصراف . ولم يكن له بعد الا ان ينسحب . ولكنه لم يتحـرك .

اخيرا ، التفت دون كورليون وهو يتنهد ، اشبه برجل طيب لا يستطيع ان يكن اكثر مما فعل ضغينة لصديق تائه . وكان دفان الموتى في مثل امتقاع زبون ميت من زبائنه . وساءله دون كورليون بصبر حليم :

ـ لماذا كنت على مثل ذلك الخوف في الارتباط بي ؟ انك تمثل امام المحاكم ، ويجعلونك تنتظر شهورا ، وتنفق المال لتدفع للمحامين الذين يعرفون مسبقا انك ستخدع . وتقبل حكم قاض يبيع نفسه كأيـة قحبة . تذكر انك منذ بضعة اعوام قد احتجت الى مال ، فذهبت تطرق ابواب المصارف النيويوركية ، وقد حملوك على ان تدفع فوائد هائلة ، وكنت تنتظر هناك ، وقبعتك بيدك ، كأنـك شحاذ ، بينما كان اولئك السادة يشمونك ويدسون أنوفهم في ثقب مؤخرتك، اعذرني علـى الكلمة ، ليكونوا على يقين من انك سترد لهم دينهم ...

وبعد ان توقف لحظة ، ليتدبر امر الانتقال ، استأنف دون كورليون بصـوت اقسى :

ـ ولكن يا صديقي وعزيزي ، لو جئتني آنذاك لوجدت كيسي مفتوحا لـك . لو اتيتني تطلب العدالة ، لكان اولئك الرعاع الذين شوهوا ابنتك يذرفون الآن دموعا محرقة . واذا اتفق ، بفعل ظروف مؤسفة ، ان اصطنع شخص شريف مثلك اعداءه ، فانني كنت سأعتبرهم فورا اعدائي الشخصيين !

ورفع الدون ذراعه وشهر سبابته في وجه اميريغو بوناسيرا :

ـ ولكانوا آنذاك ، وتستطيع ان تصدقني ، قد خافوا منك .

امال بوناسيرا راسه وتمتم بصوت مخنوق :

ـ كن صديقي : انني اقبل .

وضع دون كورليون يده على كتف خادمه الجديد وقال له :

ـ حسنا ، ستنالها ، عدالتك . وذات يوم (ومن الممكن الا يأتي هذا اليوم ابدا) سوف اناديك واطلب منك ان تقدم لي ، بدورك ، خدمة صغيرة . فحتى ذلك الحين، اعتبر ما سوف يعمل لك بمثابة هدية من زوجتي ، عرابة ابنتك .

حين انغلق الباب خلف دفان الموتى المعترف بالجميل ، التفت دون كورليون الى هاجن وقال له :

– اعهد في هذه المسألة الى كليمنزا ، وقل له ان يتحقق من ان الذين سيقومون بالعمل يجب ان يكونوا من الثقات : اشخاصا لا تدوخهم رائحة الدم . اننا ، بعد كل حساب ، لسنا قتلة ، حتى ولو كان عاشق الجثث ذاك يفكر خلاف ذلك ، برأسه الضخم البليد .

ولاحظ الدون ان ابنه البكر كان يتابع الاحتفال عبر النوافذ المغلقة . كانت الحالة ميئوسا منها . هذا على الاقل ما يحدث به نفسه . فاذا كان سانتينو يرفض ان يتعلم ، فلن يستطيع ابدا ان يدير اعمال « العائلة » ويصبح بدوره « دونا » وستكون الحاجة ماسة الى شخص آخر . وبسرعة . كان دون كورليون يردد لنفسه انه لم يكن خالدا .

وفجأة ارتفعت من الحديقة جلبة فرحة ، فانتفض الرجال الثلاثة . واسند سوني كورليون أنفه الى النافذة ، وبدا أن ما اكتشفه قد ابهجه كثيرا ، فاذا به يثب الى الباب ويصيح ببسمة جذلة :

– انه جوني ! لقد أتى الى العرس ! ماذا قلت لكم ؟

واقترب هاجن من النافذة ، وقال لدون كورليون :

– صحيح . انه ابنك بالمعمودية . بلحمه وعظمه . هل آتيك به ؟

قال العرّاب : – لا . لا نحرم ضيوفنا من هذه النعمة الطارئة . سنستدعيه حين تكون له في ذلك رغبة . (وابتسم لمستشاره) أترى ؟ ان جوني ابن صالح بالمعمودية .

واحس هاجن بلذعة حسد صغيرة ، فأجاب بجفاء :

– نعم ، ولكننا لم نره منذ عامين . لا بد ان لديه بعض الهموم . فهو بحاجة اليك .

فسأل كارليون :

– ولمن يتوجه اذا لم يكن لعرابه ؟

كانت كونستانزيا اول من رأى جوني فونتان يدخل الحديقة . ونسيت كل رصانة عرسية فأخذت تصرخ بأعلى صوتها :

– جوني ! اوه ، جوني !

ثم ركضت ترتمي على عنق جوني . فتلقاها بذراعيه وعانقها طويلا ، وفيما كان الآخرون يتجمعون ليحتفوا به ، ظل ممسكا كوني . كانوا جميعا اصدقاءه القدامى . فقد ترعرعوا جنبا الى جنب في الوست سايد . وجذبت كوني جوني من يده فقدمته الى العريس ، ولاحظ جوني بمرح ان الشاب الاشقر كان يبدو مغتاظا بعض الشيء الا يحس نفسه بعد بطل اليوم . وبذل كثيرا من اللطف ، وشد بحرارة على يد جوني فونتان ، وشرب نخبه .

وناداه صوت مألوف من أعلى منصة الموسيقيين :

ـ ماذا تقول في ان تغني لنا شيئا ، يا جوني ؟.
ورفع عينيه فلمح فوقه وجه نينو فالانتي الذي كان يبسم له . وقفز جوني فونتان الى المنصه وضم اليه نينو طويلا . لانا في الماضـي لا ينفصلان ، فكـانا يغنيان معا ، ويخرجان معا مع الفتيات . وكان ذلك قبل ان يصبح جوني مشهـورا ويغني في الاذاعه . ومن هوليوود التي كان قصدها ليعمل في السينما ، كان قـد تلفن مرتين لنينو ، على سبيل الثرثره ، ووعده بان يجد له عملا . ولكنه لم يفعـل شيئا من اجله . والان وقد راى نينو من جديد بوجهـه السكير اللطيف وبسمتـه الجذله ، فان جوني كان يشعر بحبه القديم يولد كله من جديد .
وتناول نينو ماندولينه وبدا يعزف ، بما يشبه الزغردة ، لازمـة موسيقية فرحة . واعلن جوني ، وقد وضع يده على كتف نينو : « مهداة للعروش » واخـذ يغني مقاطع ماجنه من اغنية غراميه صقليه . وفيما كان يغني وهو يوقع بقدمه ، كان نينو يقوم بايمانية موحية . واحمرت العروس ، ولكنها كانت مزهوه جدا ، وعبّر جمع المدعوين عن رضاه بصخب ، وسرعان ما شارك الجميع بالايقاع بضربات مـن الاكعاب واستعادوا بملء حناجرهم البيت الشعري الملتبس الذي كان ينهي كـل مقطع . وهتفوا لجوني هتافا مجنونا ، ولم ينقطع التصفيق الا حين رأوه يتنحنـح ليغني اغنيـة اخرى .
كان الجميع فخورين بجوني ، كان يخص الجميع ، كان واحدا منهم ، وهـا هو قد اصبح مغنيا مشهورا ،نجما سينمائيا ، رجـلا يضاجع اشهى نساء العالم . وهذا لم يمنعه من القيام برحلة تزيد عن اربعة الاف كيلو متر ليقدم الى دونكورليون ايات الاحترام المتوجبة عليه يوم زواج ابنته . وكان لا يزال مخلصـا لاصدقائـه القدامى ، لنينو فالانتي مثلا . وكان كثيرون ممن حضروا الاحتفال يذكرون انهـم سمعوا جوني ونينو يغنيان معا ، حين كانا ما يزالان بعد صبيين . في ذلك الزمان، من كان يتوقع ان يمتلك جوني ذات يوم قلوب خمسين مليون امرأة ؟
مد جوني يده ليعين العروس على ارتقاء المنصة .وها هي كوني واقفة بين جوني ونينو فالانتي . ووقف الرجلان القرفصاء وجها لوجه ، كديكين مـن ديكـة المصارعة . وانتزع نينو من ماندولينه بعض الانغام الحادة ، كانت تلك عادة مـن عادات الصبا ، طقسا قديما ، منازعة للاضحاك كان الصديقان فيه يغنيان بالتناوب مقطعا مقطعا ، ويهاجم احدهما الاخر بالمنقار . وبلباقـة مؤثرة لاحظها الجميع ، ترك جوني صوت نينو يغطي صوته تدريجيا ، وينتزع منه العروس ويقود منتصرا ، بمدد كبير من تعاقب النغمات ، اخر مقطع من هذه الاغنية الثنائية ، فيمـا كـان صـوت جوني يتلاشى رويدا رويدا . وانفجـر التصفيق أصخب من ذي قبـل ، وتعانقت كونستانزيا وفارسيها ،وكان المدعوون يصرخون :
ـ اغنية اخرى ! اغنية اخرى !
كان دون كورليون يشاهد الحادث ، واقفا في فتحة باب صفير . كان وحـده من لاحظ ان ثمة شيئا غير طبيعي يحدث . وقد تقدم في الحديقة بوجه بشوش ومرح يناسب الظرف (لانه لم يكن يود قط ان يزعج مدعويه) وصاح :

– مادا ؟ ان ابني بالمعموديه يجتاز حمسه الاف كيلومتر ليشرفنا بزيـارته . ولا يفكر أحد في تقديم شراب له ؟

وعلى الفور امتدت عشر أذرع تحمل اقداح النبيذ المترعـة نحو جوني فونتان. وشرب جرعة من كل قدح ، وهرع يرتمي بين ذراعي عرابه : وفيما هو يعانقه .همس بكلمة في اذنه . واوما دون كورليون الى جوني فونتان ان يتبعه الى البيت .

حين رأى توم هاجن جوني داخلا المكتب الصغير ، مد له يده فصافحه جوني قائلا :

– كيف الحال يا توم ؟

ولكنه لم يضف على عبارته تلك التلقائية الحارة التي كانت مبعث سحره .وقد احس توم من هذه اللامبالاة بما يشبه الجرح ، ولكنه اجبر نفسه على الا يفكر في الامر . تلك هي سيئة صغيرة من السيئات التي يتعرض لها كل مستشار .

وكان جوني فونتان يقول :

– حين تلقيت بطاقة دعوتك ، قلت في نفسي : ان عرابي لم يعد غاضبا مني . لقد تلفنت لك خمس مرات ، بعد طلاقي ، واجابني توم في كل مرة انك كنت قـد خرجت او انك مشغول . وادركت اذ ذاك انك كنت عاتبا علي .

كان دون كورليون يمسك بزجاجة الستريغا الصفراء ويملأ الاقداح :

– لقد نسي هذا كله . ومضى عليه الزمن . هل بامكاني بعد ان افعل لـــك شيئا ؟ ام لعلك اصبحت اشهر واغنى من ان استطيع بعد مساعدتك ؟

وجرع جوني دفعة واحدة الشراب المحرق ومد قدحه لدون كورليون الذي ملأه مجـــددا .

– لست غنيا ، يا عراب . بل هو التدهور والهبوط ! لقد كنت على حق ،فما كان لي ان أتخلى عن زوجتي واولادي من اجل تلك المومس .. انني لا آخذ عليـك انك قد عتبت علي . لا ..

هز دون كورليون كتفيه :

– من اجلك كنت أشعر بالقلق . انك ابني بالمعمودية . هذا كل ما فيالامر .

وذرع جوني الغرفة ذهابا وايابا .

– كنت مجنونا بتلك القحبة ! اكبر كوكب في هوليوود . ان من يراها يقـول انها ملاك . فهل تعرف ماذا تفعل حين تفرغ من تمثيل فيلم ؟ اذا كـان المطرّي (1) حاذقا في طليوجهها الصغير الجميل، فانها تعرّفه على مؤخرتها الجميلة الصغيرة. واذا كان مدير آلة التصوير بارعا في اخراج صورتها ، دعي الى مقصورتها ،وسمح له بتطريق السيدة . الجميع يمرون من هناك . انها تستعمل جسمها كما تستعمل القطع المعدنية الصغيرة الملقاة في جيبك لتعطي بخشيشا الى صبي مقهى . انهــا مخلوقـة للتعهر ...

لم يكن دون كورليون يقدر كثيرا هذه اللغة. وقد قاطع ابنه بالمعمودية بجفاء.

– كيف حال عائلتك ؟

فتنهد جوني :

(1) المطري هو من يتعاطى مهنة التطرية او الطلي بالمساحيق

ـ انني مهتم بها . بعد الطلاق ، كنت مع جيني ومع الولدين اسخى مما كان الحكم يلزمني به . وانا اذهب لرؤيتهم مرة في الاسبوع . انني اشتاق اليهم . واحيانا ... احس انني سأصبح مجنونا .

ومد قدحه مرة اخرى .

ـ زوجتي الثانية لا تكترث لي . انني اضحكها . وهي لا تفهم ان اكون غيورا . فهذا ما يتجاوز ادراكها . تقول انني متأخر . وحين أغني ، تسخر مني . في ليلة سابقة ، قبل مجيئي ، ادّبتها تأديبا طيبا ! ليس على وجهها ، لا ، فهي تمثل في فيلم . لقد اوسعتها ضربا على ذراعيها وساقيها ، كما لو انها طفل . وطوال تلك الفترة ، لم تكف عن الاستهزاء بي . (واشعل سيكارة) اتدري ، ياعراب ، اذا كانت الحياة كذلك ، فانها لا تستحق أن ...

اجاب دون كورليون ، من غير انزعاج :

ـ هذا نوع من الامور لاحيلة لي به .

وصمت لحظة ثم استطرد :

ـ ماذا يحدث لصوتك ؟

وتلاشت على وجه جوني فونتان مظاهر الثقة التي يتحلى بها المطرب الساحر وخفة الرجل الذي يريد ان يتظاهر بانه لا يأخذ اموره مأخذ الجد . وبصوت شبه محطم ، اجاب :

ـ لا استطيع ، يا عراب ، ان اغني بعد . ان شيئا ما يحدث في حنجرتي ، ولكن الاطباء لا يعرفون ما هو .

ونظر اليه هاجن وكورليون باندهاش : كان جوني قد تقبل دائما الضربات القاسية بشجاعة .

ـ ان فيلمي الاثنين قد ربحا كثيرا . وكنت قد اصبحت نجما كبيرا . ثم هانذا مطرود خارج الباب . ان معلم الستديوهات لم يستطع قط ان يطيقني وهو يفيد من ذلك ليطردني كشخص قذر .

وانزرع دون كورليون امام ابنه بالمعمودية ، وسأله مستاء :

ـ وماذا يأخذ عليك ، هذا السيد ؟

ـ اوه ، لقد غنيت لصالح لجان تحررية ، يا عراب . انت ايضا ، لم تكن تحب ان تراني افعل ذلك . على اي حال ، هذا لا يروق للسيد جاك ولتز . لقد اراد ان يقنع الناس انني كنت شيوعيا ، ولكنه اخطأ هدفه ، في هذا الميدان . ثم هناك ايضا انني اخذت منه فتاة كانت له رغبة فيها . وقد دام ذلك ليلة واحدة فقط . والحق انها هي التي سعت الي . فما كان عساني ان افعل ؟ وهناك ، بالاضافة الى ذلك ، زوجتي الثانية التي تريد ان تلقي بي في الشارع ، وجيني والولدان الذين لا يريدون استعادتي اذا لم ارجع اليهم زاحفا على بطني ، وصوتي الذي يهرب . فماذا تراني سأصبح ، يا عرابي ؟

كان كل تعبير من تعاطف قد امحى على وجه دون كورليون . وأجاب بصوت احتقار :

– ستبدأ بالتصرف تصرف رجل .

وشوهت وجهه انتفاضة غضب فصاح مرددا « تصرف رجل ! » ثم انحنى فوق المكتب ، فقبض على جوني من شعره بما يشبه الحنان الوحشي :

– يا لدم المسيح ! امن الممكـن ان تكون قد قضيت تلك الساعات والايام قربي فلم تستفد من ذلك الا هذه الاشياء الهزيلة ؟ بينوشيو (١) من صنع هوليوود يذرف دمعه ، يستجدي الشفقة ، ينن كالمراه :« ماذا تراني ساصبح ؟ اوه ! ولكن مـاذا تراني ساصبح . » .

كانت ايمائية دون كورليون ، وهو يقلد انتحاب ابنه بالمعمودية ، جذابـة جـدا وغير متوقعة اطلاقابحيث ان هاجن وجوني لم يتمالكا نفسهما من الانفجار ضاحكين. وسر دون كورليون لذلك بالغ السرور . فالفكرة الموجزة التي استسلم لهـا جعلته يكتشف الى اي حد كان ابنه بالمعمودية اثيرا لديه . فما عساه كان يكون رد فعـل اولاده الثلاثة تجاه توبيخ لاذع كهذا ؟ اما سانتينو ، فسوف يبرطم طوال اسابيع بحيث لا يكون مجال للامساك به . واما ميخائيل ، فسوف يبتسم ببرودة ساخـره ويترك البيت ، بحيث لا يرى اشهرا طويلة . ولكن جوني ، اه ! يا للفتـى الصغير الطيب ! لقد استرد بسمته واستعاد شجاعته . كان قد ادرك على الفور ان عرابه كان يتحدث اليه بهذه اللغة القاسية من أجل صالحه بالذات .

واستأنف دون كورليون خطابه غير المتقطع :

– انك تفوي صديقة معلمك ، وهو رجل اقوى منك ، ثم تشكـو انـه لا يريد ان يمد لك يد المعونة . ان هذا يتجاوز الحد دون ريب!ولكي تتزوج قحبة ، تترك عائلتك ، وتحرم ولديك من أبيهما ، ثم تأتي تتباكى لانهم غير مستعدين لاستقبالـك بأذرع مفتوحة ولا يبتهجون لعودتك . اما الاخرى ، القحبة ، فتضربها ولكنك لا تلمس وجهها لانها « تمثل فيلما » ثم تندهش لانها تسخر بك . لقد عشت حياتك كأحمق، وانت تحصد نصيب الحمقى !

كان دون كورليون يحسن التنقل في المواقف ، فصمت لحظة قبل ان يستطرد بلهجة مهداة ، معجونة بالصبر :

– هل انت مستعد ، هذه المرة ، لسماع نصائحي ؟

فهز جوني فونتان كتفيه ، وقال :

– لا استطيع ان اتزوج ثانية مـع جيني بالشروط التي تريد فرضها علي . لا استطيع التوقف عن القمار والشراب والخروج مع الرفاق . ان جميـع الفتيات الجميلات يطاردنني ، وانا لم استطع يوما ان أصمد لهن . وحين كنت اعود قرب جيني ، كان يداخلني شعور بأنني لست شيئا على الاطلاق ، بأنني صعلوك ، بأنني صفر ! آه ! لا ، لا استطيع ان استأنف هذا كله !

كان من النادر ان يظهر دون كورليون غيظه وغضبه :

– يا عزيزي جوني ! لم أطلب اليك ان تتزوج من جديد . افعل ما تريد ان تفعله

(١) دمية تتحول الى صبي عفريت لا مبال وهو بطل رواية للاطفال كتبها الكاتب الايطالي كولودي (١٨٨٣) واستغلها والت ديزني في صوره المتحركة (هـ . م) .

تريد ان تكون ابا حقيقيا لولديك، فمرحى ! ان الرجل الذي ليس ابا لاولاده لايستطيع ان يكون حقا رجلا . ولكن في هذه الحالة يجب ان تتدبر امرك لكي تقبلك امهما. فمن يمنعك من ان تراهما كل يوم ، من يمنعك من ان تعيش بقربهما تحت سقف واحد ؟ من يمنعك من ان تعيش الحياة تماما كما ترغب في ان تعيشها ؟

قال جوني وهو يضحك :

ـ يا عراب ! ليست جميع النساء ايطاليات من الزمن الطيب الماضي . ان جيني لن تقبل ، بكل تاكيد .

فاتخذ دون كورليون لهجة ساخرة :

ـ نعم ، لانك تصرفت تصرف غر . انت تعطي لواحدة اكثر مما يلزمك به القانون . اما الاخرى ، فلا تجرؤ على خمش وجهها لانها تمثل فيلما . انك تترك للنساء ان يملين عليك سلوكك ، ولكن هذا ليس شأنهن . انهن في هذه الحياة الفانية لسن خبيرات . اما في العالم الآخر ، فانا اعرف جيدا انهن سيحملن هالة في الجنة، بينما نحن الرجال سنحترق بنيران جهنم . اسمع بعد : انني منذ عدة اعوام اراقبك ، وانظر اليك تتصرف .

كان صوت دون فيتو قد استعاد كل رصانته :

ـ لقد اثبت انك ابن بالمعمودية ممتاز ، فتجاهي لم تقصر في اي واجب يفرضه الاحترام .. اما الآخرون ، اصدقاء الماضي ... فماذا فعلت من اجلهم ؟ فصلا تتفاوض مع واحد ، وفصلا بعده مع آخر ، ذلك الايطالي الصغير الذي كان طريفا جدا في السينما ، تخلى عنه الحظ ذات يوم ، ومنذ ذلك الحين انقطعت عن رؤيته، لانك كنت قد اصبحت مشهورا . والاخر ، رفيق الابد ، كنتما قد غنيتما معا .. انه يعاقر الخمرة لان الحياة قد خيبته ولانه تعطل ، ولكنه لا يشكو ابدا . انه يرهق نفسه طوال الاسبوع في قيادة شاحنة مليئة بالحصى ، ويوم السبت يغني مقابل بعض الدولارات . وهو لم يقل قط كلمة ضدك . الا تظن ان بامكانك ان تساعده ؟ ان نينو يحسن الغناء .

قال جوني بلهجة عياء متسامح:

ـ ياعراب .. لنكن صريحين : ان نينو ليس موهوبا بما فيه الكفاية ، هذا كل شيء . انه فتى لطيف ، ولكنه ليس شخصا مهما .

اسبل دون كورليون اجفانه وتابع بعينين نصف مغمضتين :

ـ وانت ايضا يا عزيزي ، انت ايضا لست اليوم موهوبا بما فيه الكفاية . هذا كل شيء . اتريدني ان اسعى لك لتقود شاحنة حصى ، كنينو ؟

فلم يجب جوني ، واستطرد دون كورليون :

ـ الصداقة فوق كل شيء . الصداقة فوق الموهبة ، فوق قوة الحكومات ، وقيمتها كقيمة العائلة . لا تنس ابدا ما اقوله لك . لو انك اقمت حولك حاجزا من صداقات لاستغنيت اليوم عن خدماتي . والان . اشرح لي ما تعانيه . ماذا يمنعك من الغناء ؟ منذ دقائق ، كنت تغني جيدا في الحديقة ، تغني مثل نينو .

وابتسم هاجن وجوني لهذه الغمزة من القدر الابوي . وجاء دور جوني ليدلل

على صبره :

– ان صوتي مريض ، يا عراب ، لقد فقد صوتي قوته . انني انجح في غناء اغنية او اثنتين ، ثم ينتهي الامر ، ولا يخرج صوتي بعد ، طوال ساعات ، طوال ايام . فاذا كان عليّ ان اتمرن ، وان اعيد الغناء خمس مرات او ستا من اجل التسجيل ، فيمكنك ان تتصور ما عسى ان يكون ذلك . انني اخفق . ان صوتي عليل . وانا أتساءل ما عسى ان يكون قد أصاب صوتي .

– ان نساءك يحدثن لك المشاكل ، فيمرض صوتك . حسنا . اشرح لي الآن بدقة ما الذي تشكوه من ذلك « المعلم » الهوليوودي الذي يدّعي الاستغناء عنك .

كان دون كورليون يباشر الآن العمل الجاد ، فأجابه جوني :

– انه اطول باعا من « معلميك » ! فالاستوديوهات له ، وهو يعطي نصائح لرئيس الجمهورية من اجل الدعاية للحرب المصورة . وفي الشهر الماضي ،اشترى حقوق رواية الموسم . والبطل الرئيسي شخص يشبهني كما يشبه خنزير خنزيرا . لن يكون لي ان امثل ، بل ليس امامي الا ان ادع نفسي أعيش . ومن غير ان اغني، فوق هذا كله . ومن الممكن ان يعود علي ذلك الدور بجائزة الاوسكار . الجميع يقولون انني مطابق تماما للبطل . ومن المؤكد ان بامكاني ان انجح نجاحا عظيما كممثل هذه المرة . ولكن جاك وولتز ، ذلك القذر ، يطردني ، ولن احصل على الدور . ومع ذلك ، فقد عرضت ان اقوم به مجانا ، او ما يشبه ذلك . ولكن عبثا . وذلك القرد القذر يردد امام كل من يريد ان يسمعه اني اذا كنت مستعدا ان الحس له قفاه في الاستوديو ، فبامكانه ان يعيد النظر في الامر .

ورفع دون كورليون يده ليظهر انه لم يكن يريد ان يسمع مثل هذا السخف . فقضايا العمل يمكن ان تحل دائما بين الاشخاص العاقلين . وقد ربت دون كورليون بحنان على كتف ابنه بالمعمودية وقال :

– انك خائر العزيمة . وتعتقد ان ليس ثمة من يهتم بك بعد . لقد هزلت كثيرا واخذت تدمن الشراب ، اليس كذلك ؟ وانت لا تنام ، وتتناول المنومات ... (وهز دون كورليون راسه اشارة الانكار) . ابتداء من اليوم ، ستطيعني طاعة عمياء ، ستعيش عندي اربعة اسابيع . ستأكل جيدا ، وسترتاح ، وستنام . وستكون بصحبتي . انت تعرف انني احب حضورك . بل لعل بوسعك ان تتعلم المزيد عن العالم الواسع، بالقرب من عرابك الذي يمكن ان يكون مفيدا لك بعد ، حتى في هوليوودك الكبيرة . ولكنك لن تغني . ولن تشرب . وليس هناك نساء . وستعود الى كاليفورنيا بعد شهر ، وسيعطيك معلمك ، ذاك المدعي المهذار ، الدور الذي ترغب فيه . ايروق لك ذلك ؟

لم يكن جوني فونتان يريد ان يصدق ان دون كورليون على مثل القوة التي يوحي بها . ولكنه كان يعرف بالاختبار ان كل ما كان عرابه يصوره على انه امر ممكن لن يلبث طويلا حتى يصبح امرا محققا . ولم تحتمل القاعدة اي استثناء قط . ومع ذلك فقد قال :

– ان هذا الرجل صديق حميم لـ ج . ادغار هوفر . فمهما رفعت صوتك .

فانه لن يرتفع حتى يبلغ اذنيه .
قال الدون بلهجة سمحة :
ــ انه فيالتجارة. سأقدم له عرضا لن يستطيع رفضه .
ــ فات الاوان ، ياعراب . لقد وقعت جميع العقود . وتصوير الفيلم يبدأ الاسبوع القادم . لا مجال بعد لعمل شيء .
ــ اذهب فالتحق بالآخرين . اذهب فتسلّ معهم . انهم يطلبونك . ودعني اعمل . سأتكفل بكل شيء .
وفتح دون كورليون الباب ودفع جوني خارج الغرفة . وكان هاجن قد جلس الى مكتبه ليسجل الملاحظات . وارسل الدون تنهدة وسأل :
ــ اهذا كل شيء اليوم ؟
قال هاجن :ــ لا نستطيع ان نجعل سولوزو ينتظر أطول من ذلك . يجب ان نراه في اثناء الاسبوع ...
وكان هاجن يمسك قلمه جامدا فوق الروزنامة . وهزّ دون كورليون كتفيه :
ــ اما وقد انتهى العرس الان ، فالامر عندي سواء . متى شئت.
وخرج هاجن من هذا الجواب بنتيجتين : الاول والاهم هي ان دون كورليون كان ينوي ان يجيب فيرجيل سولوزو سلبا . ثم انه كان يتوقع انيجلب عليه جوابه بعض الهموم والازعاجات . من اجل ذلك لم يرد ان يكشف عنه قبل زواج ابنته .
وسأله هاجن بحذر :
ــ هل يجب ان نقول لكليمنزا ان يوفد بعض رجاله ليقيموا هنا ؟
فأجاب كورليون بنفاد صبر :
ــ وما سبب ذلك ؟ لئن كنت لم اجب قبل الزواج ، فلانه ينبغي الا يكدر سماء هذا اليوم المقدس اي سحاب ، ولانني ايضا كنت اريد ان اعرف مقدما ماكان ينوي ان يحدثني فيه . اما الآن ، فنحن نعرف ذلك . ان ما يتأهب لاقتراحه علي هو « اهانة » .
ــ انك اذن ترفض ؟
فهز الدون راسه ايجابا ، فاستطرد هاجن :
ــ الا تعتقد ان علينا قبل الاجابة ان نناقش الامر جميعا ، « العائلة » كلها مجتمعة ؟
ابتسم دون كورليون .
ــ اهذا ما تراه انت ؟ حسنا . سنناقش الامر لدى عودتك من اوس انجلس. لانك ستذهب غدا بالطائرة الى كاليفورنيا ، وستحل قضايا جوني مع «معلم» السينما ذاك . اخبر سولوزو انني سالتقي به عند عودتك . هل هناك شيء آخر ؟
واتخذ هاجن هيئة مناسبة :
ــ لقد خابر المستشفى . ان « المستشار » ابانداندو يحتضر ، وسيقضيخلال الليل. وقد استدعيت اسرته . انها نهايته .
كان هاجن يمارس اعباء « المستشار » منذ لازم جانسو اباندادو الشيخ سرير

المستشفى مصابا بالسرطان ، وكان ذلك منذ عام تقريبا . كان جانسو على وشك الوفاة ، وكان هاجن يأمل في ان يعهد اليه دون كورليون في الوظيفة المرغوبة بشكل نهائي . ولكن حظوظه كانت ضعيفة بما فيه الكفاية . كان ينبغي ان يكون متحدرا من اب وام صقليين ليحتل مركزا كبيرا كهذا ، وكانت المهام الموقتة المسندة الى توم هاجن الاميركي قد اثارت اللغط . ثم ان توم لم يكن يتجاوز الخامسة والثلاثين . وكان من المتواضع عليه ان رجلا في مثل هذه السن لم يتح له ان يكتسب التجربة والمهارة والحيلة الضرورية لمستشار صالح .

ولم ينطق دون كورليون بكلمة تشجيع .

– متى تغادر ابنتي وعريسها البيت ؟

فنظر هاجن الى ساعة يده :

– بعد خمس دقائق ستقدم الحلوى ، وسيخرجان بعد ذلك بنصف ساعة .

وذكره سؤال دون كورليون بسؤال آخر نسي ان يطرحه :

– بالمناسبة .. صهرك ، هل يحفظ له مكان هام في « العائلة » ؟

فصاح دون كورليون بحيوية اثارت دهشة توم هاجن :

– ابدا !

وضرب الدون المكتب بباطن يده ، ثم استطرد :

– ابدا ! جد له عملا يتيح له العيش ، العيش المرفه ، ولكن حاذروا ان تطلعوه على اي امر من امور « العائلة » . نبه الآخرين : سوني وفريدو وكليمنزا .

وتابع دون كورليون ، بعد فترة صمت :

– قل لاولادي الثلاثة ان يرافقوني الى المستشفى لنودع جانسو المسكين . اريدهم ان يقوموا بواجبهم نحوه مرة اخيرة . قل لفريدي ان يخرج السيارة الكبيرة واسأل ميخائيل ان كان يرغب في مرافقتنا . سأعتبر ذلك حظوة استثنائية (والقى هاجن على دون كورليون نظرة استفهام) وانت ، يجب ان تسافر هذا المساء بالذات الى كاليفورنيا . ولن يكون لديك الوقت لرؤية جانسو ، ولكن لا تذهب قبل ان اعود من المستشفى . ان عندي ما اقوله لك . مفهوم ؟

قال هاجن : – مفهوم . لاية ساعة يهيء فريد السيارة ؟

– سنذهب بعد ان يخرج الضيوف . انا اعلم ان جانسو سينتظرني .

قال هاجن : – لقد خابر عضو مجلس الشيوخ ، وهو يرجوك ان تعذره لانه لم يأت شخصيا ، ولكنه يقول انك ستفهمه . ربما كان يفكر برجال وكالة الاستخبارات ، اولئك الذين كانوا يسجلون منذ فترة ، في الجانب الآخر من الممر . وقد اوفد مبعوثا شخصيا ليحمل الهدية .

هز دون كورليون راسه ، ولكنه لم يجد ضروريا ان يكشف لتوم انه هو الذي اقنع عضو مجلس الشيوخ بألا يأتي الى حفلة العرس .

– هل ارسل هدية جميلة ؟

فاصطنع هاجن سيماء اعجاب كان يبدو ، بشكل غريب ، شيئا ايطاليا على ذلك الوجه نصف الالماني ونصف الايرلندي .

ـ اوان فضية قديمة . انها غالية الثمن . وبوسع الاولاد ان يبيعوها بسعر مناسب .ولا بد ان عضو مجلس الشيوخ قد اضاع وقتا طويلا ليعثر تماما على ما هو ملائم . وهذا يساوي اكثر من سعره ، بالنسبة لهذا النوع من الرجال .

ولم يحاول دون كورليون ان يخفي انشراحه . كان يروق له الى ابعد حد ان توليه شخصية في مثل اهمية عضو مجلس الشيوخ هذا القدر من الاعتبار . كان الشيخ ، شانه في ذلك شان لوكا برازي ، احد الاعمدة التي كان ينهض عليها صرح قوته . وهو ايضا ، كان عبر هذه الهدية يجدد احترامه كرجل مخلص .

كانت كاي قد ميزت جوني فونتان في اللحظة التي دلف فيها الى الحديقة . ولم تكن دهشتها من ذلك يسيرة :

ـ ميخائيل ، لم تقل لي قط ان جوني فونتان كان صديقا لاسرتك . هذا ما يحملني على ان اقرر تماما ان اتزوجك !

ـ اتريدين ان اقدمه لك ؟

ـ ليس على الفور .

وتنهدت كاي :

ـ كنت مغرمة به طوال ثلاثة أعوام . كنت أجيء قصدا من نيويورك كلماكان يغني في الكابيتول . وكنت اضرب الارض بقدمي واصرخ حتى افقد رشدي . كان هائلا .

ـ سنراه عما قليل ، او في لقاء آخر ، كما تريدين .

وحين اختفى جوني في البيت تحت جناح دون كورليون ، قالت كاي لرفيقها بلهجة لا تخلو من سخرية :

ـ لا تحاول ان تقنعني الآن بان نجما ذائع الصيت كصاحبنا جوني فونتان جاء يطلب حظوة من ابيك !

ـ جوني هو ابن ابي بالمعمودية ، ولولا ابي لما كان اليوم نجما ذائع الصيت .

وبدت كاي مسحورة بهذه الخفايا كلها ، فقالت ضاحكة :

ـ لدي احساس بانك تتهيأ لتروي لي قصة اخرى مدهشة .

فهز ميخائيل راسه وقال :

ـ لا : هذه ، لا استطيع ان ارويها لك .

ـ اوه ، بلى . كن واثقا بي .

وروى ميخائيل ، من غير ان يسعى الى الطرافة ولا الغرور ولا الشروح . قال لها فقط ان دون كورليون كان في الماضي غالبا ما يظهر تهورا في الطبع لم يعد يعهد فيه ، وانه حين تعلق الامر بابنه بالمعمودية ، عالج القضية كما لو ان شرفه كان في الميزان .

كانت القصة تلخص بكلمات قليلة . فمنذ ثمانية اعوام ، كان جوني فونتان قد احرز نجاحا مطنطنا في عمله كمغن في جوقة موسيقية . وكان قد اصبح نجما ذاعيا . ولكن معلمه الذي يدعى ليس هالي وكان معروفا جدا في عالم المتنوعات ، حمله على توقيع عقد حصري لمدة خمسة اعوام . وكانت تلك عادة مالوفة في عالم

المسرح . ولماكان جوني قد أصبح مشهورا ، فقد كان بوسع ليس هالي ان يؤجره بسعر ذهبي وان يختصّ نفسه بأفضل أجوره. وباشر دون كورليون المفاوضات بنفسه ، فعرض عشرين الف دولار على النخاس ليحرر جوني من عقده . اما هالي فاقترح بدوره الا يحتفظ الا بخمسين بالمئة من اجور جوني . ووجد دون كورليون في هذا العرض مجالا للتسلية ، فذاب كرمه الى النصف : فبدلا من عشرين الف دولار ، لم يعرض بعد الا عشرة الاف . ولم يكن هالي يعرف شيئا كثيرا من شؤون العالم ، خارج مهنته التي كان يعبدها ، فلم يفهم معنى هذا التخفيض ،وكان ان رفض العرض .

في اليوم التالي، زاره دون كورليون ، وكان يصطحب افضل صديقين له : مستشاره جانسو اباندادو ولوكا برازي . ومن غير شاهد اخر ، عرف دون كورليون ان يقنع ليس هالي بتوقيع ورقة : تصريح يتخلى بموجبه عن قبض اية حقوق على اجور جوني فونتان ، لقاء تسليمه شكا بعشرة آلاف دولار . وقد حصل دون كورليون على هذه النتيجة بان اطبق اطباقا خفيا فوهة مسدس على صدغ ليس هالي ، واذ فعل ذلك ، أنذره ، بجدية كبيرة ، بأنه لن تنقضي دقيقة الا ويكون توقيعه او نخاعه قد طبعا علامة على الوثيقة . ووقع ليس هالي .واعاد دون كورليون مسدسه الى جيبه ومدّ الشك الى صاحبه .

اما الباقي ، فكان يخص التاريخ . وكان جوني فونتان قد مشى طريقه منتصرا ، فأصبح اكبر مطرب عاطفي في الولايات المتحدة الاميركية . وكانت الافلام الموسيقية التي مثلها في هوليوود قد عادت على الشركات التي تعاقدت معه حولها بارباح هائلة ، وكانت اسطواناته قد بيعت بالملايين . وكان قد طلق زوجته الاولى التي كان يحبها منذ حداثة سنه ، وترك ولديه ليتزوج « كوكبا » شقراء مثيرة: اكثر فاتنات هوليوود شقرة واثارة . ولم يلبث طويلا حتى اكتشف انها كانت ايضا اقحب امراة في البلد . فأخذ يشرب ويقامر ويطارد النساء الاخريات . ثم فقد صوته ، فكفت اسطواناته عن ان تباع ، ولم تجدد هوليوود عقده . ولهذا ، عاد يقابل عرّابه .

كان التفكر يبدو على وجه كاي ، فقالت :

ـ هل انت واثق من انك لا تغار من ابيك ؟ ان كل ما تقوله لي يظهره مخلصا متفانيا بالنسبة للاخرين . لا شك ان له قلبا طيبا (وكشرت بعض الشيء) حتى ولو لم تكن طرقه دستورية بشكل دقيق .

وتنهد ميخائيل قائلا :

ـ انت على حق ، يا كاي ادامس ، بالنسبة للمظاهر على الاقل . ولكن دعيني اقل لك هذا : لقد سمعت من يتحدث عن مكتشفي « الاركتيك » ، اولئك الذين يخبئون احتياطات من الغذاء ، من مكان الى مكان ، على طريق القطب . ان من الممكن ان يحتاجوا اليها حاجة ماسة ، ذات يوم . وهذه هي مساعدات ابي. فذات يوم ، سيذهب فيطرق باب جميع هؤلاء الاشخاص ، وفي ذلك اليوم ، اقسم لك انهم لن يكون في صالحهم الا يسارعوا للاستجابة .

كان الظلام يهبط حين قدمت كعكة العرس وسط جوقة من صرخات الاعجاب، فقطعت واكلت . وكان صانعها ، الخباز نازورين ، قد زينهـا تزيينا فنيـا بصدفات قشدة كانت لذيذة جدا حتى ان العروس انتزعتهـا بنهم من عمارة الحلوى قبل ان تطيـر نحـو لذاذات اخرى تحت جناح كارلو ريزي الاشقر . ومـن غير ان يتخلى دون كورليون عـن لياقته ، استعجل انسحاب مدعويه . ولاحظ ان السيارة السوداء وركابها السادة اعضاء وكالة المخابرات لم يكونوا بعد مرئيين في الجوار .

وبعد قليل ، لم يبق في الممر الا سيارة دون كورليون الطويلة السوداء مـن طـراز كاديلاك . وكان فريدي جالسا الى المقود ، وقد قفز دون كورليون الى جانبه بنشاط وسرعـة يستلفتان النظـر بالنسبة لرجل في مثل سنه وضخامة جسمه. وصعد الى المقاعد الخلفية سوني وميخائيل وجونـي فونتان . وسأل دون كورليون ابنـه ميخائيـل :

ـ الا تنزعج صديقتك الصغيرة بان تعود وحدها الى المدينة ؟

فأجاب ميخائيل : ـ قال لي توم انه سيهتم بهـا .

وباشارة رضى من راسه، قدر دون كورليون روح المبادرة لدى توم هاجن . كانت حركة السير ضعيفة بين «بلت باركواي» و« مانهاتن » . ففي آب ١٩٤٥، كان البنزين لا يزال مقننا ، فلم تحتج سيارة دون كورليون الكاديلاك الى اكثر مـن نصف ساعة لتبلـغ المستشفى الفرنسي .وفي الطريق ، سأل الدون ابنه الاصغر اذا كان راضيا عن دراسته ، فهز ميخائيل رأسه بالايجـاب . وبعـد قليـل قـال سوني لابيـه :

ـ يعتقد جوني انك تسير به سيرا بطيئا بالنسبة لقضيته في هوليوود . ان بامكاني ان اقصد المدينة لاساعده ، اذا شئت .

فسد دون كورليون الطريق على هذا الاقتراح بقوله :

ـ ان توم سافـر هذا المساء . ولن يكون بحاجة لاحد . انهـا مسألة بسيطة.

قـال سـوني ضاحكـا :

ـ يعتقد جوني انك غير قادر على ذلك . من اجل هذا كنت افكـر بانك ربما اردت ان اذهب الـى هنـاك .

فالتفت دون كورليون يسأل جوني فونتان :

ـ لماذا لا تثق بي ؟ لماذا تشك بي ؟ الا يقوم عرّابك دائمـا بما تعهد بالقيـام به ؟ هل رآني احـد اخدع احدا ؟

وحاول جوني ان يعتذر ، وكان يبدو عصبيا . قال :

ـ يا عرّاب ، ان « الامير » الذي يشرف على المسألة هو « معلم » من الـوزن الثقيل ، كبير، صلب ، ولن تتمكـن من زعزعته ، حتى بالمال . ان له علاقات قويـة وهـو يحتقرني . وانا لا اعرف حقا كيف ستنجح في اخضاعه .

واجاب دون كورليون بلهجة سخرية ودية :

ـ وانا اقول لك :انـك ستحصل عليه ، دورك .

ثم دفع ميخائيل بمرفقـه :

– لن نخيب امل ابني بالمعمودية ، أليس كذلك يا ميخائيل ؟

فاكتفى ميخائيل ، الذي لم يكن يشك لحظة بان والده سيفي بوعده، بان هز راسه بالايجاب . وحين ترجل دون كورليون من السيارة ، وضع يده على ذراع ميخائيل ، فتجاوزهما سوني وجوني فونتان متجهين الى مدخل المستشفى وقال الدون لميخائيل :

– حين تنتهي من دراستك ، تعال قابلني ، ان عندي مشاريع تروق لك .

فلم يجب ميخائيل. واغتاظ دون كورليون فدمدم بين اسنانه :

– هيا ، انني اعرفك . ولن اطلب اليك ان تقوم باي شيء لا توافق عليه .انني قصدت الى شيء خاص. وبانتظار ذلك ، سر في طريقك . انك رجل ، بعد كل حساب . ولكن حين تنهي دراستك ، تعال حدثني كما يكون طبيعيا ان يتحدث ابن الى ابيه .

كانت زوجة جانسو اباندادو وبناته الثلاث واقفات على البلاط الابيض في ممر المستشفى ، مرتديات السواد ، فكن اشبه بسربة من طائر الزاغ . واذ رأين دون كورليون يخرج من المصعد تنفضن كما ليباشرن الطيران ويحتمين بجناحه . وكانت الام قوية البنية مهيبة في هيئة ملكة ،بينما كانت بناتها ثقيلات ومبتذلات . ووضعت السيدة اباندادو منقارها على خد دون كورليون وهي تبكي وتئن :

– اه .. انك لرجل قديس ان تأتي هنا يوم زواج ابنتك .

وقطع دون كورليون سيل المديح بقوله :

– اليس من الطبيعي ان اقوم بواجب الاحترام لهذا الصديق الامين ، الصديق الذي كان ساعدي الايمن طوال عشرين عاما ؟

وكان دون كورليون قد فهم على الفور ان السيدة اباندادو ، شبه الارمل ، لم تكن مدركة بعد ان زوجها سيقضي بعد قليل .

وكان جانسو قد قضى عاما في المستشفى وهو يموت على مهل من جراء السرطان ، وكانت السيدة اباندادو قد تعودت ان تعتبر مرض زوجها جزءا من الوجود الطبيعي . كان جانسو يحتضر ، ولكن ذلك بالنسبة لزوجته لم يكن الا نوبة جديدة ، بعد نوبات عديدات . وتابعت ثرثرتها :

– ادخل فانظر زوجي المسكين . انه يطلبك . كان المسكين يريد ان يذهب الى حفلة زواج ابنتك . وكان يحرص على تقديم واجباته ، ولكن الطبيب منعه . اذ ذاك قال لنا انك انتمن يأتي لرؤيته ، ولكني لم اكن اعتقد ان ذلك سيكون ممكنا . في يوم مثل هذا اليوم ! هيا .. ان الرجال يفهمون الصداقة خيرا منا نحن النساء . ادخل .سترى كم سيكون مسرورا بذلك .

وخرجت ممرضة وطبيب شاب من غرفة جانسو اباندادو . وكانت هيئة الطبيب حادة ، هيئة رجل ولد ليأمر ، وبعبارة اخرى رجل كان طوال حياته وافر الغنى .

وسألت احدى بنات اباندادو بخجل :

ـ دكتور كندي ، انستطيع ان ندخل الان ؟

واجال الدكتور كندي في الزوار نظرة مغتاظة . الا يفهم هؤلاء الناس ان الرجل المضطجع في الغرفة المجاورة كان في النزع الاخير وان احتضاره كان عذابا ؟ انهم لم يكونوا يستطيعون ان يدعوه يموت في سلام .

ـ الاسرة فقط . صدقوني ان ذلك سيكون افضل . الاسرة الاقرب .

كان الدكتور كندي يتكلم بادب فتان . وقد ادهشه ان يرى زوجة المحتضر وبناته يلتفتن معا نحو رجل من الرجال الذين كانوا يرافقونهن ، رجل ذو كرش صغيرة يرتدي ثوب سموكن لم يكن على قده . وكن على ما يبدو ينتظرن قراره . وتكلم الرجل القصير . ولم تكن لكنته الايطالية ظاهرة تقريبا . وسال دون كورليون .

ـ اصحيح يا عزيزي الدكتور انه يحتضر ؟

قال الدكتور كندي : ـ نعم .

فقال دون كورليون : ـ اذا كان الامر كذلك ، فانت لا تستطيع بعد شيئا من اجله . اننا نخلصك من هذا العبء . وقد جئنا لنشدد عزمه . سوف نغمض له عينيه ، وسننظم له جنازة لائقة . وسنذرف الدموع على قبره ، ثم نهتم بزوجته وبناته .

كان دون كورليون قد تكلم بلا مواربة . ولم يكن بوسع السيدة اباناندو الا ان تفهم ، فذرفت دموعها ، وهز الدكتور كندي كتفيه . انه لجهد ضائع ان يسعى الى التفاهم مع هذا القروي. ومع ذلك ، فقد كان الدكتور كندي يعترف على مضض بما كان في كلام الرجل القصير من صدق . لقد انتهى دوره هو . وقال بتأدبه الفتان نفسه .

ـ تلطفوا بالانتظار ريثما تدخلكم الممرضة . ان عليها ان تقوم قبل ذلك ببعض الامور الصغيرة .

وابتعد في الممر الابيض ، وكانت اكمام سترته البيضاء تخفق كالاجنحة . ودخلت الممرضة الى الغرفة ثانية ، ثم ظهرت بعد دقائق وابقت الباب مفتوحا لتدع الزوار يدخلون . وقالت بصوت منخفض :

ـ انه يهذي ويتألم ، وحرارته مرتفعة . يجب الا يتهيج . ابقوا عدة دقائق فقط ، باستثناء السيدة .

وعرفت جوني فونتان وهو يمر امامها ، فانفتحت عيناها على سعتهما . ووجه لها خفية بسمة متواطئة ، فردت عليه بدعوة لبقة متميزة . وسجل الامر لعل وعسى ... ثم دخل في اعقاب الاخرين الى غرفة المحتضر .

كان جانسو اباناندو قد تسابق فترة طويلة مع الموت ، وها هو الان مهزوم ، منطرح نافد القوى على سرير مرتفع كأنه طاولة . كان قد تقلص الى هيكل ، ولم يكن باقيا من لمته السوداء الكثة الا طرة فظة من شعر مصفر .

قال دون كورليون بمرح :

ـ جانسو ، يا صديقي القديم ، لقد اصطحبت اولادي الثلاثة ليقدموا لك

آيات الاحترام ، ثم انظر ، حتى جوني قد جاء . لقد قام بالرحلة من هوليوود .

رفع المحتضر نحو دون كورليون عينين محمومتين طافحتين بالعرفان . وترك للشبان ان يضموا يده العظيمة في ايديهم اللحمية . واصطفت زوجته وبناته بحذاء السرير ، ووضعت كل منهن شفتيها على خده ، بالدور .

واحتفظ دون كورليون طويلا بيد صديقه القديم في يده ، قائلا له ليقوي عزمه:

– عجِّل بالشفاء لنعود الى ايطاليا معا . سنذهب لنرى قريتنا ، وسنلعب « البوشي » امام المقهى ، كما فعل اباؤنا من قبلنا .

هز المحتضر راسه واومأ للشبان والنساء ان يبتعدوا عن وسادته . وقبضت اصابعه المعظمة الشبيهة بالمخلب على ذراع دون كورليون . وحاول ان يتكلم ، فأمال الدون رأسه وجلس على الكرسي القريبة من السرير . وتمتم جانسو اباندانـدو كلمات متقطعة : ذكريات حداثتهما المشتركة . ونطقت عيناه السوداوان بتعبير دهاء ، ولم يكن صوته بعد الا لهاثا . وادنى دون كورليون اذنه من شفتي المحتضر اللذين جفّ فيهما الدم ، فأجاب هازا برأسه . وشده الاخرون ان يروا الدموع تسيل على وجهه . واذ ذاك تقوى الصوت المحطم وملأ الفرفة . وبجهد يفوق الطاقة البشرية ، رفع اباندادو رأسه عن وسادته ، مغمض العينين ، ومدّ الى دون كورليون سبَّابة هيكلية :

– بادرينو ! بادرينو ! انقذني من الموت ، ارجوك . ان لحمي يحرق عظمي ، وأحس دودا يتأكل نخاعي . اشفني، يا عرّاب . انت قادر على ذلك .جفف دموع زوجتي المسكينة ، حين كنا صبيين ، كنا نلعب معا في كورليون . انك لن تدعني اموت . انني اخشى الجحيم ، فقد أثمت كثيرا .

كان دون كورليون يلتزم الصمت . واستطرد اباندادو :

– انه يوم عرس ابنتك ، فانت لا تستطيع أن ترفض ما اطلب منك .

وانتهى الامر بدون كورليون الى ان يرد برصانة على هذا الهذيان التجديفي . فقال بهدوء :

– يا عزيزي وصديقي القديم . انني لا املك هذه القدرة التي تنسبها اليّ. ولو كنت املكها ، لكنت ارحم من الرب ، اؤكد لك ذلك . ولكن لا تخش الموت ، ولا الجحيم . سأقيم صلاة من اجلك كل صباح . وفي كل مساء ستصلي زوجتك وبناتك من اجل خلاصك . فأني للرب ان يدينك اذا طلبت منه الرحمة جميع هذه الاصوات ؟

واتخذت سحنة جانسو اباندادو الهيكلية تعبير دهاء كان يبدو غير مناسب تقريبا :

– لقد دبر كل شيء ، اليس كذلك ؛ على ما ارى ؟ قل لي ، كل شيء رتب مقدما ؟

فقاطعه دون كورليون بصوت قاس تقريبا :

– انت تجدف . انت تجدف . يجب ان تستسلم .

وسقط اباندادو من جديد على وسادته ، وفقدت عيناه شرارة الامل المستطار.

ودخلت الممرضة الى الغرفة ، واخذت تقوم بواجب اخراج الدخلاء . ونهض دون كورليون . ولكن جانسو الشيخ مدّ يده ليمسك به :

ـ ابق معي يا عراب . ساعدني ياعرّاب على النظر الى « الموت » وهو قادم . فلعله اذا رآك قربي يخاف ويدعني اعيش . او ربما كان باستطاعتك ان تقول كلمة في صالحي . ان تسحب واحدا من خيطانك . قل ؟

وغض المحتضر جفنه ، كما او كان يسخر قليلا من دون كورليون :

ـ انتما . بعد كل حساب، اخ واخت . انت والموت ، اخوان بالدم !

ثم سارع يأخذ يد دون كورليون ، كما لو كان يخشى ان يكون قد جرح دون كورليون :

ـ ابق معي . دعني امسك بيدك . سوف نتغلب عليه ، الجيفة القذرة ، كما تغلبنا على كثير سواه . لا تتركني ، يا عراب ، لا تتركني .

اومأ دون كورليون للاخرين ان يخرجوا ، وحين انغلق الباب خلفهم ،تناول الدون اليد المتقلصة الجافة ، وضمها بين يديه العريضتين . وفيما كانا معا ينتظران « الموت » بهدوء ، وحنان ،حاول دون كورليون ان يقوي بالكلمات المطمئنة عزم رفيقه القديم ، كما لو انه كان يملك حقا القدرة على انتزاع حياة جانسو اباندادو من أقذر عدو للانسان واشده غدرا وخساسة .

بالنسبة لكونستانزيا كورليون ، انتهى النهار على نحو اعذب وامرح . وقد قام كارلو ريزي بواجباته الزوجية بقوة ومعرفة ، تنشطه صورة المحتوى الهام لكيس النقود . وكان ضيوف دون كورليون قد وضعوا فيه اكثر من عشرين الف دولار . ولكن كونستانزيا تنازلت عن بكارتها باسهل جدا من تنازلها عن كيس نقودها . فلكي يستولي كارلو ريزي على الشيء المشتهى ، اضطر الى المناورة بحيث ان كونستانزيا افاقت صباح اليوم التالي وقد اسودّت عينها من الضرب .

وانتظرت لوسي مانسيني في منزلها مخابرة تلفونية من سوني الجميل .كانت واثقة من انه سيطلب ثانية رؤيتها . وبعد ان تعبت من الانتظار عبثا ، بادرت هي الى الاتصال به . فرد عليها صوت امراة . وسارعت لوسي الى تعليق السماعة. لم تكن تعرف ان جميع ضيوف آل كورليون كانوا قد لاحظوا غيابها وغياب سوني في نصف الساعة المشهودة ، وانهم قد بداوا يروون ان سانتينو كورليون كان قد سن وتده على وصيفة شرف العروس : اخته كونستانزيا .

واما اميريغو بوناسيرا فقد عانى من كابوس فظيع . فقد حلم بدون كورليون وهو يرتدي ثوب عامل تنظيفات ويفرغ جثثا مثقوبة بالرصاص امام باب عمله كمتعهد للمواكب الجنائزية ويصرخ : « تذكر يا اميريغو ، لا تقل كلمة لاحد ، والان ادفن هذه الجثث بسرعة ». وقد اصدر اميريغو في رقاده انينا قويا حتى ان زوجته هزته لتوقظه وتمتمت :« اي رجل تزوجته ! انه بعد العرس يعاني كوابيس ! »

واما بولي غاتو وكليمنزا فقد رافقا كاي ادامس الى نيويورك حتى باب الفندق التي كانت نازلة فيه . وكانت السيارة التي يقودها بولي غاتو كبيرة ، طويلة ،

فارهة . وقد جلس كليمنزا في المقعد الخلفي ، ودعيت كاي لتأخذ مكانها في المقعد الامامي ، الى جانب بولي غاتو . وكانت تجد حارسيها على اصالة عجيبة. كانا يتكلمان لهجة بروكلين السينمائية المحض . وكان تصرفهما معها قائما على لطف مفرط . وقد تحدثت في الطريق مع كل منهما بلا رابط ، وادهشها ان تسمعهما يتحدثان عن ميخائيل بشغف واحترام لا يمكن ان يكونا مصطنعين . وكان ميخائيل قد افهمها انه كان يعتبر اجنبيا في العالم الابوي . ومع ذلك ، فقد كان كليمنزا يكشف لها بصوته الحنجري المبهور ن « العجوز » كان يعتبر ميخائيل افضل ابنائه ،وانه هو الذي سيرث دون شك شؤون « العائلة » . وسألت كاي بلهجة طبيعية :

— اي نوع من الشؤون ؟

فرماها بولي غاتو بنظرة مواربة . وسألها كليمنزا ، الجالس خلفها ،بدهشة:

— ولكن الم يقل لك ميخائيل شيئا ؟ ان السيد كورليون هو اضخم مستورد لزيت الزيتون الايطالي في الولايات المتحدة . الان وقد انتهت الحرب ، فمن الممكن ان يصبح ذلك تجارة ذهبية ، وسيكون السيد كورليون بحاجة الى فتى ذكي كميخائيل .

وحرص كليمنزا في الفندق على مرافقة كاي ادامس حتى مكتب الاستقبال. وحين احتجت ، اكتفى بالقول :

— لقد طلب مني المعلم ان اصحبك حتى غرفتك : وانا مطيع .

واخذت كاي مفتاحها ، ورافقها كليمنزا حتى المصعد وانتظر حتى دخلته . واشارت له اشارة وداع وهي تبتسم وفوجئت بمظهر الاشراق الذي رد لها به بسمتها . ولا ريب في ان دهشتها كانت تكون اكبر لو رأته ، في اللحظةالتالية، يتجه الى موظف الاستقبال ويسأله فجأة :

— تحت اي اسم تسجلت هذه الانسة ؟

فأجاب الاخر بنظرة مثلوجة. واذ ذاك ، فرش كليمنزا على المكتب ملف الورق الاخضر اللون الذي كان يشده في يده اليسرى ، فتناوله الاخر وقال بسرعة :

— السيد والسيدة ميخائيل كورليون .

قال بولي غاتو حين صعدا ثانية الى السيارة :

— لطيفة هي السيدة الصغيرة .

فدمدم كليمنزا : — انها عشيقة ميخائيل .

وفكر : الا ان يكونا قد تزوجا زواجا حقيقيا . ثم قال :

— هيه ! ستأتي يابولي لتأخذني في ساعة مبكرة ، صباح الغد ، ان هاجن سيعهد الينا في عمل صغير علينا ان ننجزه بسرعة .

لم يتمكن توم هاجن الا مساء الاحد من تقبيل زوجته قبلة وداع والتوجه الى المطار . وبفضل بطاقة الاولوية رقم ١، وهي هبة عرفان لضابط ملحق بالبانتغون، لم يجد اية صعوبة بحجز مكان له في الطائرة الى لوس انجلس . وكان توم هاجن

قد قضى نهارا طاحنا ، ولكن كان له ان يعتبر نفسه راضيا .

كان جانسو اباندادو قد قضى نحبه في الساعة الثالثة صباحا . وحين عاد دون كورليون من المستشفى ، ابلغ هاجن انه اصبح رسميا « المستشار » الجديد للعائلة ، اي انه ، بعبارة اخيرا ، كان بامكانه ان يطمئن الى انه سيصبح عما قليل رجلا غنيا ، غنيا جدا (بصرف النظر عن القوة المرتبطة بهذا اللقب العظيم). واذ اتخذ هذا القرار ، وضع الدون حدا لتقليد قائم منذ وقت طويل . فحتى ذلك التاريخ ، كان « المستشار » قد اختير دائما من الصقليين العريقين ، وان يكون توم هاجن قد ربي في قلب عائلة كورليون ، فذلك مالم يكن يدخل في الحساب . كانت المسألة مسألة دم . فوحده الصقلي المولود تحت قانون الـ «اوميرتا» ، اي قانون الصمت هو الجدير باحتلال مركز رفيع كهذا المركز . وبين رب العائلة ، وهو هنا دون كورليون ، الذي كان يعطي التوجيهات العامة ، ومعاونيه المكلفين بتنفيذ الاوامر العليا ، كانت تقوم ثلاثة قطاعات حاجزة ، مفصولة بقواطع مسيكة . وبفضل هذا الجهاز ، لم يكن لاي طريق مرسوم ان يصعد حتى القمة . الا اذا خان « المستشار » .

صباح الاحد ، كان دون كورليون قد اعطى تعليمات دقيقة عن طريقة معالجة الشابين المعتديين على الانسة بوناسيرا . وكان توم هاجن هو الذي تلقى اوامره بصورة خاصة . وفي اثناء النهار ، اعطى توم هاجن الاشارة بدوره الى كليمنزا ، بصورة خاصة ايضا ، فكلف هذا الاخير بولي غاتو بالتنفيذ . كان على بولي ان يجند العناصر الضرورية وينتقل الى العمل . ولن يعرف هو ولا مساعدوه دوافع العمل الصغير الذي كلفوا به ، وسيجهلون كذلك المصدر الاول للامر الذي نقل اليهم . فحتى لا يتعرض الدون للشبهة، فلا بد لجميع حلقات السلسلة من ان تتحطم في الوقت نفسه، ان يخون جميع الوسطاء . ولم يكن قد حصل مثل ذلك ، ولكنه كان ممكنا . والحق ان العلاج كان قد اعد : كان يكفي تحطيم حلقة ، حلقة واحدة من السلسلة .

وكانت للمستشار مهام اخرى : كان يقوم بدور ساعد الدون الايمن ومساعده في التخطيط . وكان كذلك اقرب رفيق له والصق صديق به . وحين كان الدون يتنقل للقيام بعمل هام ، كان المستشار هو من يقود سيارته . وفي اثناء الاجتماعات كان المستشار هو من يخرج ليأتيه بالمرطبات والقهوة والشطائر والسيكارات الطازجة . كان يعرف كل ما كان الدون يعرفه او يكاد . وكان يعرف تفاصيل كل خلية من الخلايا التي تشكل مصدر قوته . وكان الكائن الوحيد في العالم الذي يستطيع ان يجلب على الدون كارثة لا علاج لها ، ولكن لم يسبق في اية عائلة من العائلات الصقلية القوية المقيمة في اميركا ان خان مستشار معلمه . كان ذلك يعني ، لو حدث ، سلوك طريق مسدود . والحال ان كل مستشار كان يعرف انه حين يظل امينا ، فانه يضمن لنفسه الغنى والقوة والنفوذ . كان يعرف انه اذا اصابته مصيبة ، فان زوجته واولاده لن يظلوا ابدا بلا ملجأ او بلا مورد ، بل هم سيتابعون حياتهم بمنجى من العوز ، كما كانوا في حياته . بشرط واحد : الاخلاص.

في بعض المناسبات ، يترتب على المستشار ان يقوم بنفسه بتنفيذ رغبات معلمه ، متجنبا بدقة ان يعرض « الدون » لاية شبهة . وكانت مهمة من هذا النوع هي التي تنتظر هاجن في كاليفورنيا . وكان يدرك تماما ان مهنته كمستشار ستحمل الى مدى بعيد ، طابع نجاح هذه المهمة او اخفاقها . ووفقا للمقاييس المألوفة في « قضايا العائلة » ، فان قضية جوني فونتان لم يكن لها الا اهمية ضئيلة : فسواء حصل ام لم يحصل على الدور الذي كان يطمع فيه ، فان هذا غير ذي شأن . والمقابلة التي سيقوم بها هاجن مع فيرجيل سولوزو ، يوم الجمعة القادم ، سيكون لها ، على العكس ، نتائج خطيره ، ولكن هاجن كان يعرف ان القضيتين كان لهما في نظر دون كورليون القيمة نفسها : والمستشار الناجح يترتب عليه ان يرى بعيني معلمه .

حركت اهتزازات الطائرة احشاء توم هاجن الحساسة بالاصل ، ولكي يسترد هدوءه . طلب من مضيفة الطائرة قدح مارتيني . وكان دون كورليون وجوني فونتان قد وصفا له باختصار طبع الرجل الذي سيقابله : المنتج السينمائي جان وولتز. وكان هاجن يعرف مما قاله له جوني انه لن ينجح في اقناع وولتز .ولكن كان يعرف كذلك اوثق معرفة ان الدون سيفي بوعده لجوني . والدور الذي سيقوم به في هذه المسألة كان دور وسيط ودبلوماسي .

انقلب هاجن في كرسيه المريح وراجع المعلومات التي كان قد جمعها في اثناء النهار . كان جان وولتز احد ثلاثة كبار من المنتجين في هوليوود . كان يملك استوديوهاته الخاصة ، وكانت عشرات النجوم والكواكب مرتبطة معه بعقود،وكان عضوا في المجلس الاستشاري لرئيس الولايات المتحدة من اجل الدعاية الحربية ، قسم السينما ، ولم يكن هذا يعني اكثر من انه كان ينتج افلاما دعائية . وكان قد دعي للعشاء في البيت الابيض ، واستقبل ج. ادغار هوفر في مقصورته بهوليوود. ولكن لم يكن شيء ،من هذا كله مهماً بالقدر الذي قد يظن . صحيح ان وولتز كانت له علاقات سامية ، ولكن لم يكن له اية سلطة سياسية ، ليس فقط لانه كان ينتمي الى فئة الرجعيين المتطرفين ، بل لانه كان كذلك مصابا بمرض العظمة : كانت ممارسة السلطة ممارسة تتجاوز الحدود تعود عليه بمباهج رائعة ، حتى ليمكن القول انه لم يكن يبالي بالهموم الكثيرة التي كان هذا السلوك يجلبه له .

تنهد هاجن . لم يكن جاك وولتز رجلا سهل التطويع . وفتح هاجن محفظته وحاول ان ينظم اوراقه ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك ، كان يحس نفسه متعبا اكثر مما ينبغي . وطلب قدح مارتيني اخر ، واستغرق في تأمل طويل راجع فيه مجرى حياته السابقة : فلم يكن يشعر بأي اسف ، بل على العكس ، كان يقول لنفسه انه اوتي حظوظا هائلة . كان الطريق الذي سلكه ، لعشرة اعوام خلت . من غير ان يعرف لماذا سلكه،قد قاده ابعد وأعلى مما كان يؤمل . وكان ينجح في كل شيء . وكان سعيدا السعادة التي يتمناها كل رجل عاقل في هذا العالم ، وكان يجد الحياة مثيرة للاهتمام .

كان توم هاجن ، وهو في الخامسة والثلاثين ، طويلا ، هزيلا ، مقصوص

الشعر عادي القسمات .. وعلى انه كان محاميا بالمهنة ، فهو لم يكن مكلفا بالتدقيق في المسائل القانونية المتصلة ب « اعمال » عائلة كورليون (بالرغم من انه مارس المحاماة ثلاثة اعوام بعد قبوله في الترافع) .

في الحادية عشرة ، كان توم رفيق لعب لسوني كورليون . كانا في سن واحدة . وفي تلك السنة ماتت ام توم وهي عمياء . وما لبث ابوه الذي كان يشرب كثيرا ان سقط في السكر والعربدة . كان الاب نجارا نشيطا وشريفا ، ولم يكن قد ارتكب في حياته آية غلطة شنيعة . ولكنه كان مدمن شراب . وما عتم ان مات ، مخلفا توم الصغير دون اسرة ، فعاش في الشارع . كان ينام ليلا في اروقة المباني، وقد وضعت اخته الصغيرة في ميتم . ولكن مكاتب المساعدة الاجتماعية لم تكن ، في العشرينات ، تهتم اهتماما حصريا بمصير الاولاد البالغين اثني عشر عاما والذين كانوا من العقوق بحيث يتهربون من كرم هذه المكاتب . ثم ان هاجن كان يشكو مرضا في عينيه ، وكان الجيران يتهامسون انه التقط هذا المرض من امه ، وان بالامكان ان يعدي به اخرين ، من اجل هذا كانوا يتجنبونه.

وفي الحادية عشرة ، كان سوني كورليون صبيا طيب القلب ، قوي الارادة . وقد اصطحب الى المنزل رفيقه والح على ابيه ان يؤويه تحت سقف العائلة . وقدم لتون هاجن صحن مليء بالمعجنات اللذيذة بمرق البندورة وزيت الزيتون . ولم ينس قط مذاقه ونكهته . وفرش له سرير حديدي وقيل له ان يضطجع عليه وينام .

وبلا كلمة تعليق ، تقبل دون كورليون توم الصغير في بيته ، من غير ان يناقش الموضوع في الاسرة ، كما لو انه كان امرا طبيعيا جدا . وقد اصطحبه بنفسه الى اخصائي عالج عينيه وشفاهما . وفيما بعد ارسله الى الكلية ، ثم الى مدرسة الحقوق . ومع ذلك ، فان تصرفه بازاء توم الصغير كان موقف وصي اكثر منه موقف اب . لم يكن يوليه بادرة حنان ولا كلام ود . غير انه بالمقابل كان يظهر له من الرعاية اكثر مما يظهر لابنائه ولم يكن يجعله يحس قط بثقل سلطته الابوية .

وقرر توم بمطلق ارادته ، حين خرج من الكلية ، ان يدرس الحقوق . كان قد سمع ذات يوم من يقول لدون كورليون : « ان محاميا مع محفظته الجلدية يستطيع ان ينهب اضعاف ما ينهبه مئة لص مع مسدساتهم ». وفي هذه الاثناء، كان سوني وفريدي يعلنان رغبتهما بالدخول في خدمة « قضايا العائلة » ، على إستياء كبير من والدهما ، وتسجل ميخائيل وحده ، من اولاد كورليون الثلاثة ، في الجامعة . ولكنه كان قد تطوع في « البحرية » في اعقاب بيرل هاربور. وبعد ان قدم توم هاجن امتحاناته ، قرر ان يتزوج ويؤسس عائلته الخاصة . وقد اختار رفيقة له صبية ايطالية من نيوجيرسى تحمل دبلوما جامعيا . وكان ذلك نادرا ، في ذلك العهد .

ولا حاجة للقول ان العرس قد اقيم في بيت كورليون ، وقد عرض الدون بعده على توم هاجن ان يقدم له كل عون قد يحتاج اليه ، وان يجلب له زبائن، وان يؤثث مكتبه . وكان كل ما اجابه به توم هاجن ، وهو يحني راسه : « اريد

ان اعمل في خدمتك » .

وفوجيء دون كورليون ، وكان بالغ السرور ، وسأله :

— هل تعرف ما انا ؟

(في الواقع ، لم يكن توم يرى بعد قوة دون كورليون بكل سعتها . وقد ظل طوال عشرة اعوام في هذا الوضع من الجهل النصفي . وكان لابد من ان يسقط جانسو اباندالدو مريضا وان يقرر دون كورليون اسناد مهمات « المستشار » — وليس لقبه — لتوم هاجن حتى يدخل الى حرم الحقيقة الكاملة) .

ويومذاك ، هز هاجن رأسه ، والتقى نظره نظر دون كورليون . وقال :

— اريد ان اعمل في خدمتك ، كأولادك .

و « كأولادك » كانت تعني : باخلاص ابدي ، وقبول سلطة الحق الالهي الذي يمارسه دون كورليون قبولا لاتحفظ فيه . وبهذا الفهم للاخرين الذي كان يشكل جزءا من اسطورة الدون ، منح توم الشاب طابع حب ابوي للمرة الاولى . ولقد اخذه بين ذراعيه وضمه لحظة قصيرة . ومنذ ذلك اليوم ، عامله كابنه تقريبا ، فيما كان يقول له مع ذلك، بين الفينة والفينة :

— توم ، لا تنس ابدا اهلك ! (وهذه النصيحة كانت تبدو موجهة إليه هو نفسه توجهها الى توم) .

والحق ان توم لم يكن معرضا لامكانية نسيان اهله . كانت أمه قد انتهت الى ما يشبه الحطام ، في حالة قريبة من البلادة ، مصابة بفقر دم لم يكن يمنحها القوة على ان تحس تجاه ولديها باي حنان حتى ولا على التظاهر بذلك . اما الاب ، فكان توم هاجن قد احتقره. كان قد رأى امه تصبح عمياء ، قبل اشهر من موتها ، وقد خلفت هذه الذكرى في نفسه اثرا فظيعا . وحين أصيبت عيناه هو بالمرض، حسب ان القدر يطارده باللعنة ، انه سيصبح هو ايضا اعمى . وقد كان على يقين من ذلك . وكان توم هاجن في الحادية عشرة حين مات ابوه . وكان رد فعله فريدا. ذلك انه أخذ يشرد في شوارع المدينة كحيوان ينتظر الموت ، الى اليوم السعيد الذي عثر فيه عليه سوني نائما في رواق فرافقه الى منزل ابيه .

وما حدث بعد ذلك . كان معجزة . ولكن طوال اعوام . ظل توم هاجن يحلم بالكابوس نفسه : كان يصبح أعمى فيما هو يكبر ، كان يرى نفسه ، في سن الرجال . شحاذا في الشوارع . كان يتقدم وهو ينقر بلاط الارصفة بطرف عصاه البيضاء . وكان توم يكتشف أحيانا في الصباح ، في لحظة الوعي الاولى التي تعقب يقظته ، وجه دون كورليون مطبوعا على وجدانه . آنذاك كان يحس انه قد انقذ . ولكن الدون كان قد فرض الا يخصص توم ، وهو على عتبة مهنته ، كل وقته لشؤون « العائلة » وعلى ان يتم دراسة الحقوق بثلاثة اعوام تطبيقية . وكان ذلك رأيا مليئا بالحكمة . فالخبرة التي اكتسبها توم عادت عليه فيما بعد بخدمات لا تثمن وثبتته في عزمه على العمل لصالح دون كورليون . وقد قضى ثلاثة اعوام تدرب فيها لدى وكالة متخصصة في القضايا الاجرامية ، وكان لدون كورليون بعض النفوذ في تلك الوكالة . وفي رأي الجميع ان توم هاجن تبدى بصورة

استثنائية موهوبا في هذا الميدان الخاص من النشاط القضائي . وقد احرز تقدما كبيرا ، وحين انتقل اخيرا بصورة نهائية الى خدمة دون كورليون ، لم يدع امامه اي مجال لمأخذ واحد يأخذه عليه في السنوات الست التي تلت .

واثار رفع توم هاجن الى منصب نائب المستشار استنكار العائلات الصقلية الكبيرة المنافسة لاسرة كورليون ، وأطلق على الدون وعائلته اللقب التحقيري « عصبة الايرلنديين » ، ووجد توم هاجن الامر طريفا وتاكد ان عليه الا يؤمل يوما ان يرث دون كورليون على رأس « قضايا العائلة » . ولكنه لم يذهب به الطموح قط هذا المذهب ، ومثل هذا الطمع كان يكون نقصا في الاحترام الذي كان مدينا به ، لا الى المحسن اليه وحده ، بل كذلك الى اسرته . كان توم هاجن مسرورا بما آل اليه ، ولم يكن يطلب المزيد .

كان الظلام ما يزال هابطا حين وصلت الطائرة الى لوس انجلوس . واتجه هاجن الى الفندق الذي كانت قد حجزت فيه غرفته . فاخذ حماما وحلق ذقنه واخذ يتامل الصباح يبزغ على المدينة . وحين طلع النهار طلب طعام الافطار وجرائد الصباح الى غرفته . كان باقيا له ساعة او ساعتان لينظر الى الذباب يطير . فقد كان موعده في العاشرة مع جاك وولتز . وكان قد حصل على الموعد بسهولة مدهشة ، حين اتصل في الليلة السابقة بأحد النقابيين الاوفر نفوذا في عالم السينما ، المدعو بيلي غوف .

فطلب اليه وفقا لتعليمات دون كورليون ، أن يحصل له لليوم التالي على موعد مع جاك وولتز وان يوحي لهذا ان نتيجة المقابلة اذا لم ترض هاجن ، فان موظفي الاستديو يمكن ان يلجاوا الى الأضراب . وبعد ساعة . كان هاجن يتلقى مخابرة من بيلي غوف يحدد له فيها الموعد في العاشرة صباحا . وكان غوف قد نقل الى وولتز رسالة هاجن بصدد اضراب محتمل ، ولكن لم يبد على وولتز قط انه تأثر لذلك . وقد أضاف غوف :

ــ اذا كان الامر سيبلغ هذا المبلغ ، فيجب ان اتصل مباشرة بالدون .

وأجابه توم على ذلك بقوله :

ــ اذا كان الامر سيبلغ هذا المبلغ ، فان الدون سيتصل بك .

وكان هذا الجواب يجنبه اعطاء وعد . ولم يدهش هاجن ان يظهر غوف هذا القدر من الاهتمام لارضاء رغبات دون كورليون . صحيح ان مملكة آل كورليون لم تكن تمتد اداريا الى ما وراء منطقة نيويورك ، ولكن الدون كان قد خدم في الماضي اكثر من رئيس نقابي واحد ، وهذا ما كان يمنحه نفوذه . كان يستنجد ، طواعية ، بعرفان الذين كانوا مدينين له .

ولكن ساعة اللقاء ، العاشرة صباحا ، كانت نذير شؤم . فسيكون توم هاجن اول من يقابلهم جاك وولتز الذي لم تكن لديه الرغبة . اذن ، في دعوته النداء . ولم يكن هذا دليل اعتبار . ان غوف لم يظهر مهددا بما فيه الكفاية : فلا بد انه سيتلقى بعض البرطيل من السيد وولتز . والبراعة الفائقة التي كانت تتيح لدون كورليون ان يبقى دائما في الظل كانت تنقلب احيانا لغير صالح « قضايا العائلة » ، ولم

يكن اسمه ، في الاوساط غير الخبيرة ، ذا وزن كبير .
كان هاجن قد احسن التنبؤ ، فقد جعله جاك وولتز ينتظر نصف ساعة ولكن مستشار دون كورليون لم ينفعل قط لهذا . كانت غرفة الانتظار فاخرة الرياش ، مريحة جدا . ولم يعجب هاجن بالمكان فقط ، فقد كانت جالسة قبالته، على ديوان بنفسجي ، اجمل صبية رآها في حياته ، ولم تكن تتجاوز الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، ولكنها كانت ترتدي ثوبا بسيطا وغاليا جدا بالتأكيد . كان شعرها ذا شقرة فوطبيعية وكانت ذات عينين كبيرتين زرقاوين كمياه البحار الاستوائية وفم نضر قرمزي اشبه بحبة توت . وكانت المراة التي ترافقها ،امها على ما يظهر ، تصر على التحديق في هاجن بغطرسة مضحكة . وقال هاجن في نفسه انه سيسره كثيرا ان يرسل قبضته في وجهها . وفكر فيما هو يبادلها نظرتها اللطيفة : الملاك والتنين .

واخيرا جاءت ترافق توم هاجن امراة ناضجة السن ، ممتلئة ، ولكنها رائعة الملبس ، فقادته عبر متاهة من المكاتب حتى معبد جاك وولتز الكبير . واندهش هاجن لفخامة المكاتب مثل اندهاشه لجمال الموظفات اللواتي كن يعملن فيها . وكان يتقدم وهو يبتسم . كانت جميع السكرتيرات وجميع الضاربات على الالة الكاتبة شاطرات فاتنات لم يكن العمل في المكتب ، بالنسبة اليهن ، الا وسيلة لوضع القدم في عالم السينما . ان معظمهن سيقضين حياتهن كلها بين هذه الجدران التي لا مجد لها . اما البعض الاخر فسيرجعن ذات يوم ، خائبات الى ريفهن.
كان جاك وولتز رجلا طويل القامة ممتلىء الجسم . وكان تفصيل ثيابه الممتاز ينجح تقريبا في اخفاء استدارة كرشه . وكان هاجن يعرف قصة الرجل . فقد كان وولتز يدحرج ، وهو في العاشرة من عمره ، براميل فارغة وعربات تجر باليد على طرق الايست سايد . وحين بلغ العشرين ، كان يساعد اباه في استغلال العاملات الصغيرات في معمل للنسيج . وفي الثلاثين من عمره ، كان يغادرنيويورك ويقيم في الغرب ، وكان يوظف المال في تأجير صناديق ــ جوك ويصبح واحدا من رواد صناعة السينما .

وحين بلغ الثامنة والاربعين اصبح القطب الاول في هوليوود : وكان قد حافظ على لغته الرعاعية وجشعه الفرامي ، فكان الذئب في حظيرة الكواكب الصغيرات اللواتي لا حامي لهن . وفي الخمسين ، طرا تحول : اخذ الرجل دروسا في طريقة النطق ، واستأجر فراشا انكليزيا علمه ارتداء الثياب ورئيس خدم انكليزيا ايضا دربه على فن التصرف بين الناس . وحين اضبح ارمل،تزوج ممثلة جميلة ومشهورة عالميا لم تكن تحب مهنتها . اما الان ، فان جاك وولتز في الستين : وكان يجمع لوحات مشاهير الرسامين ، ويجلس في لجنة استشارية لرئيس الولايات المتحدة ، ويمول مؤسسة بعدة ملايين من الدولارات* لتشجيع فن السينما . وكانت ابنته قد تزوجت لوردا انكليزيا ، وابنه اميرة ايطالية .
وكان قد اكتشف عنده ، منذ فترة ، حبا لخيل السباق ، وكان مخبرو مجلات السينما قد نشروا في اميركا كلها ان نفقات اسطبلات جاك وولتز الكبير قد

ارتفعت في العام الماضي الى عشرة ملايين دولار ، واعلنت الصحف باحرف كبيرة ان وولتز كان قد اشترى حصان « خرطوم » الشهير الكريم الاصل بمبلغ ستمئة الف دولار ، واضافت ان « خرطوم » الذي لم يشق له غبار في السابق لن يظهر بعد في ميادين السباق . كان وولتز يخصصه فقط لسفاد افراس التناسل .

استقبل جاك وولتز هاجن بلطف ومجاملة . وقد بدت على وجهه المبرنز والمحلوق بدقة تكشيرة كان يريدها بسمة . وكان جاك وولتز ، رغم تدخل اكفأ الاخصائيين واغلى المعالجات ، يبدو في سنه الحقيقة . فلكأن بشرة وجهه قد خيطت من جديد . ولكن مشيته وحركاته كانت تنم عن حيوية هائلة . وشبيها بدون كورليون ، كانت لجاك وولتز هيبة من يحكم ، بلا مدافع ، العالم الذي يعيش فيه .

وباشر هاجن الموضوع توا ، فقال لوولتز انه كان مبعوث صديق لجوني فونتان ، وان هذا الصديق كان شخصية قوية جدا ، وانه سيعتبر نفسه مديونا للسيد وولتز وصديقا ابديا له . اذا كان السيد وولتز مستعدا ان يمنحه ... حظوة صغيرة . وكانت هذه الحظوة تكمن نقط في التعاقد مع جوني فونتان لبطولة الفيلم الحربي الجديد الذي يعتزم السيد وولتز انتاجه .

وظل الوجه المخيط جامدا .

ـ واية خدمة يستطيع صديقك ان يقدمها لي ؟

وفي الطريقة التي نطق بها جاك وولتز هذه العبارة ، لم يكن ثمة الا نبرة صغيرة من التنازل ، اما اللهجة فكانت ما تزال مجاملة .

ولكن فروق النطق لدى جاك وولتز لم تكن لتهم توم هاجن ، فاستمر يقول:

ـ انك معرض حاليا لبعض المضايقات مع عمالك . وان بامكان صديقي ان يتعهد تعهدا قاطعا بان يوفر عليك هذا النوع من المتاعب . ان بطلك الشاب القادر على القيام بالدور الاول قد تخلى عن الماريجونا ولكن ، مع الاسف ، ليدمن الهيروين . ويستطيع صديقي ان يضمن لك الا يحصل هذا الشاب على مليغرام واحد من المخدر . واذا واجهتك في السنوات القادمة متاعب صغيرة اخرى ، فليس عليك الا ان تخابرني بالتلفون . اننا لن نتركك ابدا في الضيق والارتباك .

كان وولتز قد اصغى لتوم هاجن يتكلم كما يصغي انسان لتبجحات فتى ارعن . وقد غير لهجته فجأة ، فسأله بنبرة مقصودة النذالة :

ـ هل تحاول ان تهددني؟

فأجاب هاجن بهدوء :

ـ على الاطلاق ، يا سيدي العزيز . لقد اتيت اطلب منك خدمة لواحد من اصدقائي ، واحاول ان اشرح لك انك لن تخسر في ذلك . هذا كل ما في الامر .

وانقلبت سحنة وولتز ، فاصطنع قناع الغضب . فاذا فمه يلتوي ويتقلص حاجباه الكثيفان المصبوغان بالسواد فيشكلان نفخة مستقيمة فوق حدقتيه الملتهبتين . وانتصب وولتز فوق مكتبه كشيطان خارج من علبة ، وانحنى حتى

كاد يلمس توم هاجن ، فقذفه بصوت صارخ .

– كفى ! كفى ! يا ابن اللئيمة الفاجرة ! سوف اضع لك النقاط على الحروف. افهمني جيدا ، انت ومعلمك ، ايا كان اسمه : ان جوني فونتان لن يحصل ابدا على هذا الدور . ولا يهمني ان اعرف ماعدد القذرين الجبناء من جماعة المافيا الذين تستطيعون ان تخرجوهم من مجاريرهم!

وعاد وولتز الى الجلوس ، مستندا الى مقعده واستطرد يقول :

– اما انت ، يا صديقي الصغير ، فأعطيك نصيحة طيبة . ان اسم ج . ادغار هوفر ربما كان يقول لك شيئا (وابتسم بسمة ساخرة) ، وهو واحد من اخلص اصدقائي . فاذا قلت له انكم تحاولون ان تهددوني ، فحاذروا على مؤخراتكم !

استمع هاجن بصبر الى هذا الخطاب ، ولكنه كان ينتظر افضل من ذلك من شخصية بهذا المستوى . كيف امكن لرجل يستطيع ان يتصرف على هذا النحو البليد ان يصبح قائما على تجارة تقدر ببضعة ملايين من الدولارات ؟ كان ذلك يدعو الى التفكير : لقد كان دون كورليون يسعى الى توظيف مال له في اعمال تجارية لم يستثمرها بعد . فاذا كانت رؤوس الصناعة السينمائية الكبيرة بليدة الى هذا الحد ، فربما كانت هناك اشياء كثيرة تصنع في هذا الميدان . اما شتائم وولتز، فقد كانت تخلفه لا مباليا تماما . كان هاجن قد تعلم فن المفاوضة على يدي دون كورليون نفسه . وكان الدون قد قال له : « لا تغضب ابدا . لا تطلق قط تهديدا. حاول ان تقنع الناس . اقبل الشتيمة ، واحتقر الاستفزاز ، ومد خدك الايمن لمن يضربك على الايسر » كان هاجن قد استوعب الدرس . وكان قد شاهد دون كورليون وهو يفاوض طوال ثماني ساعات متتالية ، جالسا امام طاولة ، لا يتأثر بالشتم ، محاولا ان يقنع منافسا له قويا ، مصابا بمرض العظمة ، بان يتصرف معه تصرفا احكم واعقل . وفي نهاية الساعة الثامنة ، رفع دون كورليون ذراعيه الى السماء بحركة عجز واستسلام وصاح : « كفى ! لا سبيل الى اقناع هذا الرجل ! » ووسط الصمت العام ، خرج بوقار تام . وابيض وجه المتعاظم الصامد من فرط الخوف ، ثم ارسل اصدقاءه في اعقاب دون كورليون ليقنعوه بالعودة . وتم التوقيع على العقد المستحيل . ومع ذلك فقد تلقى المعاند بعد شهرين رصاصة في عنقه، وهو عند المزين ، فيما كان يحلق ذقنه .

استطرد هاجن يقول بلهجة هادئة طبيعية :

– انظر الى بطاقتي . انا محام . اتظن انني ارتضي احاطة عنقي بالحبل ؟ هل وجهت اليك تهديدا واحدا؟ افهم جيدا انني مستعد ان اقبل جميع شروطك، مهما كانت ، اذا اسندت هذا الدور لجوني فونتان . واعتبر انني قدمت لك الكثير لقاء طلب متواضع كهذا . انها خدمة اعتقد ان لك مصلحة كبيرة في تقديمها لنا. انت تعترف ، على ما يقول جوني ، بانه مخلوق تماما لهذا الدور . وصدقني ان الامر لو لم يكن كذلك لما طلبنا منك قط هذا الطلب . والحق انك اذا كان يراودك القلق حول المبالغ اللازمة ، فان صديقي يسره ان يمول فيلمك . بعد هذا ،احرص على ان اكون واضحا غاية الوضوح . فنحن نقر تماما ان ترفض . فليس ثمة من

يستطيع ان يجبرك على شيء ، وان يحاول احد ذلك . ولكن اسمح لي ان اضيف ان العلاقات الودية التي تقيمها مع السيد هوفر لم تكن مجهولة لدينا وان معلمي يعتبرها سببا اضافيا لتقديرك . ان هذه الصداقة توحي له باحترام كبير .

كان وولتز ، وهو يصغي الى هذا الخطاب،يداعب ريشة كبيرة حمراء مصنوعة بشكل قلم من حبر . وحين سمع الكلام عن المال ، رفع حاجبه ، وقطع حركاته وقال بصوت يحمل روح الحماية :

ــ هذا الفيلم يكلف خمسةملايين دولار .

فصفر هاجن صفرة خفيفة ليظهر انه تأثر بالامر ، ثم اضاف ، كمن يفكر بشيء آخر :

ــ ان لمعلمي اصدقاء كثيرين يؤيدون قراراته .

وللمرة الاولى ، بدا على وولتز انه يحمل الامر محمل الجد ، فنظر الى بطاقة هاجن وقال :

ــ أعرف معظم كبار محامي نيويورك ، ولم اسمع عنك قط ، فمن انت بحق الشيطان ؟

ونهض هاجن فجأة وقال :

ــ لن ازعجك اكثر من ذلك ، يا سيد وولتز .

وشد على يد محدثه واتجه نحو الباب . ثم استدار فجأة يقول :

ــ يبدو لي انك تتعامل بصورة عامة مع اشخاص يمنحون انفسهم من الاهمية اكثر مما لهم في الواقع . وليس هذا هو حال صديقي . ان بامكانك ان تستعلم عنه من اصدقاء مشتركين . فاذا غيرت رأيك ، فبامكانك ان تخابرني في فندقي .

وتوقف لحظة ثم أضاف :

ــ ان ما سأقوله لك سيبدو لك من غير شك احدى الكبائر ، بل حتى خرقا للمقدسات ، ياسيد وولتز . ان زبوني يمكن ان يفعل لك اشياء ربما اعتبرها السيد هوفر نفسه خارج متناوله .

ورأى هاجن عيني وولتز تقطبان : أيكون قد فهم اخيرا معنى المهمة ؟ وقال هاجن بلهجة تملق :

ــ انا معجب ، يا وولتز ، بافلامك اعجابا كبيرا وارجو ان تستطيع الاستمرار طويلا في القيام بعمل جيد كهذا . ان البلاد بحاجة اليك .

وبعد الظهر ، تلقى هاجن مخابرة تلفونية من سكرتيرة وولتز تعلمه بان سيارة ستاتي لتقله قبل انقضاء ساعة فتحمله الى مقصورة السيد وولتز حيث كان مدعوا لتناول العشاء ، وان الرحلة تستغرق ثلاث ساعات تقريبا ، ولكن السيارة كانت مجهزة بمشرب مليء وبالزجاجات والمشهيات . وكان هاجن يعرف ان وولتز سيعود الى مقصورته بطائرته الخاصة ، فادهشه الا يكون مدعوا لمرافقته . واضافت السكرتيرة بلهجة حفية :

ــ السيد وولتز يقترح ان تحمل معك ملابسك الليلية . وسيرافقك صباح الغد الى المطار .

قال هاجن : ــ اتفقنا .

كان ثمة مادة جديدة للتفكير : كيف كان وولتز يعرف ان هاجن سيعود الى نيويورك في طائرة الصباح ؟ وبعد لحظة بلبلة ، قال هاجن في نفسه ان وولتز لا بد انه ارسل مخبريه الخاصين يتعقبونه ليجمعوا عنه اكبر كمية ممكنة من المعلومات. واذن ، فان وولتز لا يمكن ان يجهل بعد انه كان مبعوث دون كورليون . واذن ، لا بد انه بدأ يدرك اي رجل كان دون كورليون . واذن ، فقد كان مستعدا لا شك لان ينظر الى المسألة بمزيد من الجدية . ربما لم يكن كل شيء قد فقد ، ولعل وولتز كان يملك من حسّ الفهم اكثر مما كان يوحي مظهره .

كانت مقصورة وولتز تشبه ديكورا سينمائيا غير محتمل الوقوع . جناح من الطراز الاستعماري ، ومروج شاسعة تحف بها ممرات عريضة منثورة بالرمل الابيض ، واسطبلات ومراع للخيل . وكانت السياجات وادغال الزهور والقصب تبدو وكأنها قد تلقت ليس رعاية بستاني ، بل رعاية مانيكور . فقد كانت مقصوصة ومملسة ومبرنشة كاظافر نجمة سينمائية . واستقبل وولتز توم هاجن على شرفة مكيفه كان كل جدار من جدرانها مؤلفا من لوح زجاجي واحد . وكان رجل الاعمال يتزيا بزي حقلي : قميص من الحرير الازرق مفتوح عند العنق ، وبنطال خردلي اللون ، وخف من الجلد الطري . ووسط هذا المعرض من الالوان والغنى الباذخ ، كان وجهه القاسي المرتق يضفي تأثيرا ساحرا . وقد قدم وولتز الى هاجن قدحا مليئا بالمارتيني واخذ واحدا لنفسه من الصينية الملآى بالزجاجات (كانت تدابيره بازاء ضيفه قد تحسنت كثيرا ، على ما يبدو ، منذ الصباح) ووضع يده على كتف توم قائلا :

– تبقى لنا لحظة قبل ان ننتقل الى المائدة ، تعال نر الخيل .

وتوجه الرجلان نحو الاسطبلات. وفي الطريق قال وولتز لمدعوه :

– لقد كشفت قناعك يا توم . كان عليك ان تقول لي انك تعمل لمصلحة كورليون . كنت اظنك محاميا صغيرا من الفئة الثالثة يرسله لي جوني ليخدعني . انني شخصيا لا اخدع احدا . لا تظن اني حريص على كسب الاعداء . ولكن الحقيقة انني لم أحمل ذلك قط على محمل الجد . والان ، لنحاول ان نمضي معا فترة لذيذة . وسنتحدث بشؤون التجارة بعد العشاء .

واثار دهشة توم هاجن ان وولتز تبدى مضيفا مليئا بالمجاملة . وقد شرح لتوم طرق تربية الخيل التي كان يتبعها . وكان يؤمل ان تجعل هذه التجديدات من اسطبلاته خير اسطبلات اميركا . والواقع ان الاسطبلات المزودة بأحدث تحسينات التقنية الصحية ، كانت مبنية بمواد غير قابلة للاحتراق ، نظيفة كأنها الحمامات ، يراقبها باستمرار زمرة من المخبرين الخاصين . وعلى الحاجز الخارجي لآخر مربط ، كانت لافتة كبيرة من البرونز تحمل اسم « خرطوم » محفورا . وكان الحصان الذي يشغل ذلك المربط ، حتى بنظر جاهل كتوم هاجن ، حيوانا رائعا. كان بوص خرطوم اسود فاحما ، ماعدا بقعة بيضاء بشكل معين تضيء جبينه الكبير كجوهرة قمرية . وكانت عيناه الكابيتان تلتمعان شبيهتين بثمرتين من ذهب ، وكان البوص الممدود على العضلات العصبية يبرق كأنه الحرير . وقال وولتز بزهوطفولي:

ـ هذا اول حصان سباق في العالم . وقد اشتريته العام الماضي في انكلترا بستمئة الف دولار . وانا واثق انه لم يسبق لاحد ، حتى من قياصرة روسيا ،ان دفع هذا الثمن الإسطوري ثمنا لحصان . ولكن ليس عندي نية لاشراكه فيالعدو، سيكون « معياري » . سأنشيء اكبر اسطبل للسباق راته اميركا .

وامر ّ وولتز يده على عرف الجواد وهو يردد على مهل :

ـ خرطوم ، خرطوم ،يا خرطومي .

كان ذلك اشبه بهديل حب ، وكان يبدو على خرطوم انه يفهمه ويستجيب لهذا الحنان . واستطرد وولتز يقول :

ـ انا فارس ماهر ، لو تعرف . ومع ذلك ، فعندما ركبت حصانا للمرة الاولى ، كان عمري خمسينعاما كاملة . (وضحك) ربما كانت احدى جداتجداتي في روسيا قد اغتصبها في الماضي احد القوزاق . ان عندي بالتأكيد نقطة دم قوزاقية !

وداعب بطن خرطوم وقال بنبرة اعجاب مخلصة :

ـ تأمل هذا الجهاز الجميل !

وعاد الرجلان الى المنزل ، كانت تلك ساعة الجلوس الى المائدة ، وقدم العشاء ثلاثة خدم يعملون تحت اوامر رئيس للخدم . وكان بياض المائدة موشى بالذهب ، والاواني من الفضة المصمتة ، ولكن هاجن وجد الطعام اقرب الىالوسط. كان المرء يحدس بان وولتز كان يعيش عازبا وان مباهج المائدة لم تكن تعنيه مطلقا . وحين انتهى الطعام ، قدم وولتز لهاجن سيكار هافان كبيرا واخذ واحدا لنفسه . وكانت تلك هي اللحظة التي انتظرها هاجن ليسأل :

ـ اذن ما هو جوابكبالنسبة لمسألة جوني : نعم ، ام لا ؟

قال وولتز وهو يسحب نفسا :

ـ لا استطيع . حتى ولو كنت اريد ، فاني لا استطيع ان اعطي جوني هذا الدور . لقد وزعتالادوار ، ووقعت العقود ، وسيبدأ التصوير في الاسبوع القادم . وانا لا استطيع ان اغير شيئا بعد .

اجاب هاجن مغتاظا :

ـ اسمع يا سيد وولتز . ان الفائدة ، الفائدة الكبيرة في التعامل مع رجل يطيعه الجميع هي انه لا يستطيع ان يتخفى وراء عذر كهذا العذر . تستطيع ان تفعل كل ما تريد . الا تصدقني حين اقول لك ان زبوني قادر على الوفاءبوعوده؟

اجاب جاك وولتز بجفاف :

ـ ما اعتقده ، وما اعرفه ، هو انني ساواجه المصاعب مع عمالي . وقد تلفن لي « غوف »ذاك الرعاعي ليحذرني . وحدثني بلهجة ... انك اذا سمعته لم يخطر ببالك قط انني ادس له من تحت الطاولة مئة الف دولار سنويا . واعتقد كذلك انكم تستطيعون ، اذا شئتم ، ان تحرموا بطلي الاول من مخدره ، ولكن هذا كله عندي سواء ، واملك الوسائل لتمويل افلامي بنفسي . افهمني جيدا : ان جوني فونتان انسان قذر . انني اتقياه . قل لمعلمك انني لا استطيع ان اقدم

له هذه الخدمة ،ولكن ليطلب مني اي طلب آخر . اي شيء اطلاقا ، وسالبيه.
وفكر هاجن : يا للمنافق المزيف ! لماذا جررتني الى هنا لتبلغني ذلك ؟ وكان وولتز يبدو شاردا . كان يفكر دون ريب بشيء آخر . وقال هاجن بلهجةمحايدة:
ـ يبدو لي ان الوضع يفوتك . ان السيد كورليون هو عرّاب جوني . فاذا كان لديك اي حس ديني ، فستدرك ان القضية هنا قضية رباط مقدس ، غير قابل للانتهاك ، وهو يخلق التزامات لا فكاك منها .
وحنى وولتز راسه ليعبر عن الاحترام الذي توحيه هذه الاشارة التقية . وتابع هاجن :
ـ لقد اعتاد الايطاليون ان يقولوا مازحين ان الحياة في هذا العالم هي من القسوة بحيث ان كل رجل محتاج الى ابوين ليسهرا عليه . من اجل هذا اخترع العرابون . ومنذ موت والد جوني ، يشعر السيد كورليون انه مسؤول مسؤولية مزدوجة . اما ان اطلب منك تقديم خدمة اخرى ، فان السيد كورليون اكثر حساسية من ان يقبل هذه المساومة . ان السيد كورليون لا يطلب شيئا آخر ، حين يرفض طلبه الاول .
فهز وولتر كتفيه . وقال :
ـ متأسف ، ولكني ابقى على رفضي . وبالمناسبة ، ما دمت هنا ، ماذا يكلفك أن تتدبر لي أمر هذا الاضراب ؟ انني ادفع نقدا .
كانت هذه الكلمات تحل لغزا : لقد ادرك هاجن لماذا لم يتردد وولتز في ان يكرس له بضع ساعات من وقته الثمين على الرغم من انه كان قد قرر الاّ يسند الدور لجوني ، وفهم كذلك انه لا حظ اطلاقا لحمل وولتز على العدول عن قراره ، على الاقل هذه الليلة . كان وولتز واثقا من نفسه اكثر مما ينبغي ، ولم تكن سلطة دون كورليون تخيفه . فعلاقاته السياسية العليا ، وصداقته مع رئيس وكالة الاستخبارات ، وثروته الهائلة ، والنفوذ المطلق الذي ينعم به في صناعة السينما ... فكيف تراه سيشعر بأنه مهدد من قبل دون كورليون وهو يملك هذهالاوراق الجميلة كلها ؟ ان كل انسان عاقل ، وتوم هاجن نفسه ، كان يعتبر جاك وولتز حصينا لا يهاجم .ولئن كان مستعدا ان يتقبل الضرر الذي سيجره عليه اضراب عماله ، فان كورليون لم يكن يستطيع ان يفعل شيئا ضده . على ان هذه الفكرة الجميلة كانت مخطئة في نقطة واحدة : كان دون كورليون قد وعد ابنه بالمعمودية انه سيحصل على هذا الدور ، ولا يعرف توم هاجن ان العراب نكث يوما بوعده.
وقال هاجن بصوت هادىء :
ـ انك تتقصد الا تفهمني . وتحاول ان تجعل مني شريكا في عملية غدر . ان السيد كورليون لا يعدك الا بشيء واحد : هو ان يتدخل لصالحك اذا سبب لك عمالك قلقا . سوف يعتبر نفسه مدينا لك بدليل الصداقة هذا عرفانا لما قد تفعله لابنه بالمعمودية . وليست القضية هنا الا تبادل نفوذ ، يا سيد وولتز . لا اكثر . ولكني ارى انك لا تحمل كلامي على محمل الجد . وانا شخصيا ، اعتبر ذلك غلطة .

وانفجر وولتز كما لو انه كان ، منذ بدء السهرة ، ينتظر هذه اللحظة التي تتخذ فيها الامور هذا المجرى :

ـ انني افهمك خير فهم . انه اسلوب المافيا ، اليس كذلك يا سيدي العزيز ؟ انهـم يعطونك المرهم ، وينومونـك بخطب معسولـة . ولكنهم في الحقيقـة يهددونك . اسمح لي اذن ان اكون واضحا ودقيقا . ان جوني فونتان لن يحصل ابدا على هذا الدور ، بالرغم من ان ذلك سيكون فرصة حياته الكبرى . انه ينطبق تماما مع الشخصية الرئيسية ، وبامكانه ان يصبح بين ليلة وضحاها نجما كبيـرا جدا ، ولكنه لن يحصل على الدور ، ياسيدي العزيز ، لانني احتقره . ذلك المتانق الصفير ، ولانني سأتدبر امري بحيث لا يرى الناس بعد ابدا وجهه في السينما . وسأقول لك سبب ذلك . لقد افسد فتاة كنت قد عثرت عليها ، وصنعتها ، فتـاة كانت الآمال كلها معلقة عليها . وطوال خمسة اعوام ، دفعت عنها اجرة دروس خصوصية ، فتعلمت الغناء والرقص والتمثيل . لقد انفقت مئـات الالـوف مـن الدولارات ، وكنت سأصنع منها نجمة حقيقية . ثم ، اسمع ، سأقـول لـك كـل شيء ، لا لشيء الا لاثبت لك انني لست وحشا ، وان ذلك ليس مسألة مال كثير . كانت فتاة رائعة ، اجمل مؤخرة مرت بين يدي ، وانـا خبيـر بالامـر يـا سيدي . لقد عرفت كثيرات ، فيجميع انحاء العالم ، صدقني في ذلك . ثم مر جوني مـن هذه الناحية ، ومعه اغانيهالصفيرة الدبقة ، وسحره سحر الفتى الدخيل ، وكان ان ذهبت .. لقد تخلت عن كل شيء ، لا لشيء الا لتجعلني هـزأة وسخريـة . ان رجلا في وضعي لا يقبل ان يستهزيء به الناس ، ياسيد هاجن . على الاطلاق . وقد استغنينا عن جوني، كانسان قذر .

المرة الاولى ، بلغ وولتز ان يدهش هاجن . ان يستسلم رجل راشد ،رجل ذو وزن اذا كان حقا ذا وزن ، ان يستسلم في احكامه لمثل هذه الحماقات المحزنة، بينما تكون القضية على غاية الاهمية ، هذا ما كان يبدو غير معقول لمستشار دون كورليون . ففي العالم الذي كان يتحرك فيه توم هاجن ، عالم آل كورليون ، لـم يكن للجمال الجسماني ولا لجاذبية المـراة الجنسية اي تأثير علـى « الشؤون الجدية » . ان الحب ومشتقاته قضية شخصية بحت ، الا حين يتعلق الامر طبعا بالزواج او بالشرف العائلي .

وقام هاجن بمحاولة اخيرة :

ـ انت على حق مطلق يا سيد وولتز ، ولكن اتكون شكاويك على هـــذا القدر من العنف ؟ اعتقد انك لم تفهم الاهمية التي يعلقها زبوني على الطلب المتواضع الذي يطلب منك تنفيذه .لقد امسك السيد كورليون جوني على جرن المعمودية. وحين فقد جوني اباه ، اعتبره السيد كورليون مثل ابنه . والحق ان هنـــاك اشخاصا كثيرين آخرين يدعون كورليون « عرابا » ليعبروا عن احترامهم وعرفانهم ازاء الذي حماهم من اخطار الوجود . ان السيد كورليون لا يترك اصدقاءه ابدا .

نهض وولتز فجاة :

ـ لقد بدات تغيظني ، يا سيدي العزيز . ان الاوغاد لم يملوا علي قانونهم

قط . بل انا الذي امليت عليهم قانوني . واذا رفعت سماعة هذا التلفون ، فاستعد لقضاء الليل في السجن ، واذا حاول اميـرك ، امير المافيا ، ان يلعـب معي دورا سيئا ، فسيتعلم على حسابه انني انا لست رئيس عصابة . لقد استمعت اطول مما يجب الى حكاياتك . قل للسيد كورليون انه لن يتاح له الوقت ليعرف اليـد التي تضربه . واذا لزم الامر ، فسيباغ بي الامر ان استخدم نفوذي في «البيت الابيض » .

وفكر توم هاجن : ابله ، ابله مثلث ابن الزانية هـذا ! كيف استطاع بحـق الشيطان ان يصبح قطبا من الاقطاب ؟ أهذا ، مستشار لرئيس الولايـات المتحـدة الاميركية ؟ اهذا ، سيد اكبر استوديوهات العالم ؟ ان هذا الشخص المسكين لم يفهم الا المعنى الاول للكلمات . انه غير قادر ولا جدير بحل رموز المهمة التي ارسلت بها ، صحيح أن على دون كورليون ان يهتم بشؤون السينما . .

— شكرا للعشاء وللسهرة اللطيفة التي قضيناها معا ، ياسيد وولتز . هل تستطيع ان تقودني الى المطار ؟ لا اعتقد أنني سأقضي الليل تحت سقفك (وارسـل لوولتز ، بسمة مثلوجة) ان السيد كورليون رجل يحرص على معرفة الانباء السيئة ، ساعـة فساعـة .

وحين كان هاجن ينتظر سيارته امام الباحة المعمّدة المضيئة ، لمـح امراتين كانتا تستعدان لركوب سيارة طويلة متوقفة عند الممر . وعـرف هاجـن الصبيـة الجميلة ذات الشعر الذهبي تصحبها امها التنين . ولكـن الفم الرائع كـان يبدو منبسطا على الوجه كلطخـة على نشافـة ، وكانت غشاوة خضراء مزرقـة تكـدر الحدقتين اللازورديتين . وحين هبطت الفتاة الصغيرة الدرج ترنحت على ساقيها الطويلتين : مهر جريح . وامسكتها امها من قامتها وساعدتها على الصعود الـى السيارة وهي تصفر في اذنها امرا جافا . لا بد انه مقطع مناسب من درس فـي التماسك . وحين ادارت راسها ، رمت توم هاجن بنظرة قاطعة ، فراى توم في عينها ، الشبيهة بعين الكواسر ، التماع شعاع منتصر . ثم اختفت بدورهـــا في السيارة الكبيرة .

كان هاجن يفهم الآن لماذا لم يدع لركوب طائرة وولتز . ان القـرد المسن القذر لم يسافر وحده : كانت الفتاة الصغيرة وامها ترافقانه . وكان هاجن قـد وصل بعدهم ببضع ساعات . واتيح لوولتز في هذه الاثناء ان يختلي بالبنت وان يرتاح قليلا بانتظار وصول ضيفه . وفي ذلك العالم ، كان جوني يريد ان يعيش؟ حظا كبيرا من السعادة ، ياجوني ، وحظا كبيرا من السعادة ، ياوولتز !

كان بولي غاتو يكره الا يحسن عملا يقوم به ، لا سيما اذا كان عملا شريرا. وكان يحب ان يحكم خططه مقدمـا . وكان بولي في الخدمة ، ذلك المساء . عمـل صغير غير ذي بال ، للوهلة الاولى . ومع ذلك فقد كان معرضا القبض عليه عند ادنى خطأ يرتكبه . وكان بولي ، فيما هو يبلل لسانه بقدح البيرة ، يفتح عينه ، وعينه الجيدة : كان ينظر الى مصطادي الفواني يغازلان مومسين صغيرتين جالستين

امام المشرب . وكان يراقب تقدم المناورة . وكان بولي يعرف كل ما كان بحاجة لمعرفته بصدد هذين الجبانين القذرين . كان احدهما يدعى جيري وغنر ، والاخر كرفين مونان . وكانا في حوالي العشرين ، طويلين، متيني البنية، بشعر اسود ، ووجهين جميلين . وكانا على اهبة مغادرة نيويورك ، بعد اسبوعين ، ليعودا الى الكلية . وكانا مدللين ، وكان لابويهما اصدقاء سياسيون من ذوي المقام الرفيع . وهذه الميزة الاخيرة ، اذا اضيفت الى صفتهما كطالبين ، كانت قد وفرت عليهما، حتى ذلك الحين ، عبوديات التدريب العسكري . وكانت لهما نقطة اخرى مشتركة: حكم مع وقف التنفيذ ، لاستعمالهما وسائل العنف مع الانسة بوناسيرا ، ابنة اميريغو . وكان بولي غاتو يقول بينه وبين نفسه : يا للجبانين الصغيرين القذرين! انهما يتوسلان الوساطة ليتهربا من الخدمة العسكرية ، وينكثان الوعد الذي قطعاه للسيد القاضي الا يتسكعا في البارات بعد منتصف الليل ، ويتصيدان البغايا . وكان بولي غاتو ، هو ايضا ، قد تهرب من الخدمة العسكرية بأن استكتب طبيبه شهادة قانونية تشهد ان زبونه ، من الجنس المذكر ، والعرق الابيض ، الاعزب، البالغ من العمر ستة وعشرين عاما ، كان قد عولج بواسطة الصدم الكهربائي من اختلال دماغي خطير . ولم يكن شيء من هذا صحيحا ، ولكن بولي كان يعتبر نفسه مع ذلك مستحقا هذا الاعفاء . وكان كليمنزا هو من دبر كل الامور بعد ان « اثبت جدارته » في خدمة آل كورليون . وكان كليمنزا قد اوعز لبولي ان عمله الصغير في ذلك المساء كان يجب ان ينفذ على عجل ، قبل ان يتمكن الشابان من العودة الى الكلية . وكان بولي يتساءل لماذا يتوجب عليه ، بحق الشيطان ، ان يقوم بالعملية في قلب نيويورك ؟ كان كليمنزا يكلفه دائما بالمهمات الدقيقة . فاذا خرجت الفتاتان في الوقت نفسه مع الشابين ، فستضيع هذه الامسية ايضا .

وسمع بولي احداهما تقول ضاحكة :

ــ هل انت مجنون ، يا جيري ؟ اتتصور انني ساستقل السيارة معك ؟ ليست بي رغبة لان اجد نفسي في المستشفى كتلك المسكينة منذ اسابيع !

لم تكن قليلة الزهو برفض دعوة المسمى جيري . ولم يكن غاتو يطلب اكثر من ذلك . وقد انهى بيرته وخرج في الليل المظلم . حسنا . بعد منتصف الليل بقليل ، كانت جميع الحوانيت مغلقة . وكانت ترى فقط انوار حانة ، في الجانب الآخر من الشارع . وكان كليمنزا يتولى الحراسة . ان رجال الشرطة لن يظهروا في الجوار قبل ان يكونوا قد تلقوا نداء بالراديو ، وفي تلك اللحظة سيصلون من غير ان يحثوا الخطى .

اقترب بولي غاتو من سيارته الشفروليه ذات المقاعد الاربعة . كان الرجلان الجالسان على المقعدين الخلفيين ــ وكانا يكادان لايريان ــ قويين نشيطين . قال بولي :

ــ اهتما بهما بمجرد ان يخرجا .

وظل يعتقد ان العملية قد اعدت على عجل . كان كليمنزا قد اعطاه صور مطاردي النساء ، تلك الصور الماثلة على بطاقات القياسة الاءناسية التي تخصهما

(وكان قد حصل عليها من اصدقائه في دائرة الشرطة) . وكان قد ارشد بولي الى الحانة التي كان واغنر ومونان يقصدانها كل مساء ليلتقطا الفتيات . وكان بولي قد استدعى رجلين متينين يعملان فيخدمة عائلة كورليون واعطاهما تعليماته . لا ضربات على ام الراس ، ولا على مؤخر الجمجمة . بالاختصار ، لا قتل . فاذا روعي ذلك ، كان بامكان الرجلين ان يضربا بقلب فرح . ولم يوجه بولي لهما الا تهديدا واحدا : « اذا غادر المضروبان المستشفي قبل شهر ، فسوف تطردان يا عزيزي ! »

ترجل الرجلان القويان من السيارة ، وكانا ملاكمين قديمين لم يكونا قد خرجا قط من نوادي الدرجة الثالثة . وكان سوني كورليون قد تعاقد معهماسنويا مقابل راتب متواضع ، ولكنه يؤمن لهما حياة لائقة تقريبا . ولم يكونا يطلبان اكثر من ان يعبرا له عن عرفانهما . وحين خرج جيري واغنروكرفين مونان من الحانة، كانا ناضجين للعراك . كانت اقوال فتاتي الحانة الساخرتين قد أثارت غرورهما كشابين . وقد ناداهما بولي غاتو ، وهو مستند الى واقية الصدمات في سيارته، ضاحكا بهزء :

– واذن ، يا تلميذي دون جوان .. لقد طردتكما البنتان !

فارتد الشابان بنهمعلى بولي غاتو . وكان بولي يبدو المتنفس المرجو ليتلقى طفاح المرارة التي اصابتهما . كان قصيرا ، نحيفا ، ضيق الوجه مدببه . ومع هذا ، كان يسمح لنفسه بان يتخابث ! وعند اول دفعة وجهها اليه واغنر ومونان قبض عليهما من الرسغين رجلان انبثقا من خلفهما . وفي الوقت نفسه ، كان بولي يدس يده اليمنى في نوع من القفاز المزود برؤوس حديدية بطول ملليمترين. وكان ايقاعه جيداً (كان يقصد الملعب الرياضي ثلاث مرات في الاسبوع) وقد ضرب واغنر الشاب على انفه ، فحمله الرجل الذي كان يحاصره ، وابقاه على الارتفاع المطلوب بينما كان بولي يؤرجح ذراعه ويوجه ضربة هائلة الى حالبه . واسترخى واغنر ، فتركه الرجل القوي . وانطرح واغنر على الاسفلت ، لم يستغرق الفصل الاول اكثر من عشر ثوان . والآن ، جاء دور كرفين مونان الذي كان يبدو شديد الرغبة فيالاستغاثة . وكان الرجل الذي يتولى امره قوي العضلات بما يكفي لاحتجازه بذراع واحدة . وبيده الاخرى ، ضغط على حنجرة مونان بما يكفي لمنعه من الصراخ .

وقفز بولي غاتو الى السيارة وادار المحرك . وكان الرجلان القويان قد بدأا بتحويل مونان الى حالة المربّى . كانا يعملان بلا عجلة ، وببرودة مدروسة تثير الخوف ، على موجات بطيئة حسنة التوقيع . وكان كل ثقل جسميهما ينتقل الى قبضتيهما ، وكل ضربة ، وهي تنقض ، كانت تحدث صوت لحم يتمزق . والقى بولي غاتو نظرة على وجه مونان ، فاذا هو فاقد المعالم . وتركه الرجلان ممددا على الرصيف ، ونقلا اهتمامهما الى رفيقه واغنر الذي كان يحاول النهوض ويصيح ببلادة « النجدة » .

خرج شخص من الحانة ، فاضطر الرجلان القويان الى الاسراع في العمل.

وركعا واغنر . ثم لوى احدهما ذراعه وركله ركلـة هائلة على نخاعه الشوكي، بين راسليه . فسمعت فقراته تتحطم . واطلق الفتى واغنر صرخة حادة اضاءت على اثرها نوافذ جميع الواجهات المطلة على الشارع . واخذ الرجلان القويان يعمـلان الآن باقصى سرعة ، فانهض احدهما واغنر وضغط راسه بين يديه ، كما بين فكي سندان . وسحق الاخر قبضته الهائلة على الهدف . وكان عدة زبائن قد خرجوا من الحانة ، ولكن لم يحاول احدهم ان يتدخل . وصاح بولي غاتو :

ـ الراحة ، ياجماعة .. هذا يكفي !

فقفز الرجلان القويان في السيارة واقلع بولي كأنه اعصار . وكان بامكـان شهود الحادث ان يأخذوا رقم السيارة ويصفوها لرجال الشرطة وصفا مفصـلا. ولكن لم يكن لذلك اية اهمية : فان اللوحة المسروقة كانت لوحة سيارة مسجلـة في كاليفورنيا ، وكان يتجول في نيويورك بضع مئات من الوف الشيفروليهالسوداء من الطراز نفسه .

٢

صباح الخميس ، كان توم هاجن وقد عاد من نيويورك ، يدفع باب مكتبه . كان يريد ان ينظم أوراقه ، ليخصص نهار اليوم التالي ، متحررا من كل انشغال، للقاء الذي كان قد حدده مع فيرجيل سولوزو . لقاء على جانب كبير من الاهمية كان قد طلب من دون كورليون ان يخصص له سهرة بكاملها من المحادثات ليحدد الموقف الذي يحسن تبنيه امام الاقتراح الذي كان سولوزو سيعرضه عليهما .

كان هاجن قد عاد من كاليفورنيا في ساعة متأخرة من ليل الثلاثاء ، وقد سارع ينقل الى دون كورليون النتيجة المخيبة لمهمته مع جاك وولتز . ولم يبد الدون اية دهشة ، ولكنه الح على ان يروي له هاجن كل تفاصيل يومه . وقد جعلته قصة الطفلة الجميلة وامها التنين يكشر اشمئزازا . وتمتم بين اسنانه « خساسة » ، ولم يكن في قاموس دون كورليون المعتدل تعبير استنكار أعمق من هذه الكلمة . وفي النهاية ، طرح على هاجن سؤالا بسيطا :

ـ هل لهذا الرجل خصيتان بين فخذيه ؟

ولم يجب هاجن على التو . وتساءل عن المعنى الدقيق الذي كان ينبغي ربطه بهذه الكلمات . كان قد تعلم ، عبر الاعوام ، انه كان لدون كورليون معنى للقيم مختلف جدا عن معنى معظم الناس ، وان الكلمات نفسها كانت غالبا ما تأخذ في فمه معنى خاصا جدا . ما الذي كان الدون يسأل عنه ؟ اذا كانت للوولتز شخصية ؟ ارادة؟ كانت له هذه وتلك ، بلا ريب ، ولكن ليس هذا ما كان يسأل عنه كورليون .أكان وولتز مستعدا لقبول الخسائر المادية الهائلة التي سيجرها كل تأخير في انتاج أفلامه ، ام فضيحة ان يرى اكبر نجومه السينمائيين وقد كشف النقاب انه مدمن مخدرات سامة ؟ كان الجواب : نعم . ولكن مرة اخرى ، لم يكن هذا ما يفكر به الدون . وانتهى هاجن الى العثور على ترجمة دقيقة للسؤال المطروح : اكان جاك وولتز رجلا يجازف بخسارة كل شيء من اجل مسألة مبدئية ، قضية شرف ، ثأر يبلغه ؟

وسمح هاجن لنفسه ببسمة . انه لم يكن يمازح دون كورليون الا نادرا ، ولكنه هنا لم يسع الى كتم الكلمة التي كانت تداعب لسانه .

ـ تريد آن تعرف ان كان صقليا ؟

فهز دون كورليون راسه بمرح . كان يقدر ما كان في هذه الكلمة من اطراء وملق ، كما كان يقدر فيها الدقة والصحة . وقال هاجن :

ـ اذا كان الامر كذلك ، فاني أجيبك : لا .

وكان هذا كل شيء . وفكر دون كورليون بالموضوع حتى اليوم التالي . وبعد ظهر الاربعاء ، استدعى توم واعطاه تعليماتــه . وقد شغل أمر تنفيـذها المستشار الجديد بقية النهار كله وخلّفه منذهلا بالاعجاب . لم يكــن يشك بعد بــان الدون قد وجد حل المسالة . وسيتلفن له وولتز صباح الخميس ليبلغه انه وافق على اسناد الدور المطلوب الى جوني فونتان .

رن جرس التلفون ، ولكنه لم يكن الا اميريغو بوناسيرا . كان دفان الموتى مرتعش الصوت من فرط العرفان . وقد رجا هاجن ان يؤكـد لدون كورليــون صداقته الابدية . وما كان الدون بحاجة الى اكثر من ان يبعث له باشارة ، فان اميريغو بوناسيرا كان مستعدا للتضحية بنفسه في سبيل المحسن اليه ،ليباركه الرب الف مرة . وطمأنه هاجن بان الرسالة ستنقل الى صاحبها ...

وكانت « الديلي نيوز » قد نشرت في نصف صفحة صورة واغنر ومونان مطروحين على اسفلت الشارع . صورة كريهة وفق المراد . وكان المعتديان على الآنسة بوناسيرا يبدوان لحما مخبوصا . وكانت « النيوز » تشرح انهما كانا ، بمعجزة ، على قيد الحياة بعد ، ولكنهما سيظلان بلا شك بضعة اشهر في المستشفى ولا بد لهما من اللجوء الى الجراحة التجميلية . وكتب هاجن مذكرة قصيرة الــى كليمنزا ليقول له ان من الواجب مكافأة بولي غاتو . وكان يبدو انه يتقــن مهنتــه ، بولي هــذا .

وقضى هاجن ثلاث ساعات يدرس ، ببراعته وكفاءته المألوفتين ، التقاريــر المالية للشركتين اللتين كانتا تشكلان رسميا مصدر عائدات دون كورليون : تجارة استيراد زيت الزيتون ومنشأة البناء . لم تكن احداهما مزدهرة ، ولكن انتهــاء الحرب كان لا بد ان يعوّمهما . وكان هاجن قد نسي تقريبــا قضية جوني فونتان حين ابلغته سكرتيرته انه مطلوب مــن كاليفورنيا على التلفــون . فرفــع السماعــة بحركة صغيرة من الرهبة وقال :

ــ هنا ، هاجن .

كان الصوت الذي رد عليه صوت مجنون . كان الهوس والحقد يجعــلان صاحبه غير معروف . كان جاك وولتز يصرخ بصوت ابح :

ــ قذر ! حقير ! سألقي بكم في السجن جميعا . لمدة مئة عام . سأصرف آخر سنتيم عندي لاحطم اصلابكم . سأقطع خصيتيه ، جوني فونتان الذي يخصكم ، اتسمعني يا ايطالي مؤخرتي ؟

فأجاب هاجن بهدوء :

ــ انني جرماني أيرلندي ، يا سيد وولتز !

وسادت فترة صمت ، ثم صوت تعليق السماعة . وابتسم هاجن . لم يكن وولتز قد اصدر اي تهديد لدون كورليون : لقد كوفئت العبقرية .

كان جاك وولتز ينام دائما وحده . وكان سريره من السعة بحيث يؤوي عشرة اشخاص وكانت غرفته من الكبر بحيث كان بالامكــان تصوير مشهد حفلــة راقصة

من حفلات قياصرة روسيا فيها ، ولكن جاك وولتز كان ينام وحده منذ عشرةاعوام، منذ موت زوجته الاولى . ولم يكن ذلك بسبب انه نذر العفة . ان جاك وولتز ، بالرغم من كبرسنه ، لم يكن ينقطع عن اللذات . ولكنه لم يكن ينطنط بعد الا وراء الفتيات الصغيرات . وكان يعرف كذلك ، بالتجربة ، ان ذكورته وصبره لم يكونا يسمحان له بعد باكثر من ساعة أو ساعتين من العمل المناضل في نهاية فترة بعد الظهر .

وصباح ذلك الخميس ، استيقظ جاك وولتز في ساعة مبكرة . وكان الفجر البازغ يغرق الغرفة الواسعة بنور بخاري ، يذكر بالضباب الذي يرف على مرج عند الصباح . وهناك ، على بعد يسير من سريره ، لمح وولتز طيفا اليفا . وانتصب مستندا على مرفقه ليرى على نحو افضل . كان ذلك مشهد راس حصان . ومد وولتز ذراعه ، وهو لايزال ناعسا ، وبحث عن زر مصباح سريره . وما رآه آنذاك اصابه بصدمة هائلة في صدره ، واخذ قلبه يثب كضفدعة مستطارة اللب ، وارتفعت احشاؤه ، ثم تقيأ . فتلطخت سجادة سريره الجميلة .

كان راس « خرطوم » الاسود الحريري مقطوعا عند اسفل العنق ومزروعا في مستنقع كثيف من الدم المتخثر . وكانت ترى اوتار مبيضة ومحمرة ، وكان المنخران يغطيهما الزبد ، وكانت العينان الذهبيتان الكبيرتان كتفاحتين مضرجتين بنقاط من الدم المتجمد كانت تكسبهما لون ثمرة عفنة . واستولى على جاك وولتز هلع حشوي فنادى جماعته بصيحات مجنونة ، ورفع التلفون طالبا توم هاجن في نيويورك ، وهدده كأنه مهرج مجنون . وذعر رئيس الخدم لهذه النوبة من البلاهة فاستدعى طبيب جاك وولتز المعتمد ومساعده الاقرب . وحين وصلا ، كان وولتز قد استعاد هدوءه . ولكن اية صدمة !

الى اي نوع من البشر كان يمكن ان ينتمي المرء ليأمر بذبح حيوان يساوي ستمئة الف دولار ؟ ومن غير كلمة انذار ؟ ومن غير محاولة بذل مسعى اخير ، مفاوضة اخيرة ؟ ان هذا القدر من الوحشية ومن ازدراء القيم المقررة ، انما هو علامة رجل لم يكن يعرف قانونا غير قانونه ، مجنون يعتبر نفسه ربه الخاص . كان هذا الفرل يضع في خدمة ارادته ما يكفي من السلطة والبراعة لتجميد فرقة المراقبة التي كانت تقوم بالحراسة ليل نهار حول اسطبلات وولتز الكبير . ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفوا ان « خرطوم » كان قد نوّم بمخدر فعّال ، فاستطاع جلاده ، بهدوء ، ان يقطع بالفأس العنق الطويل الحريري الاسود . وكان الحرس يؤكدون انهم لم يسمعوا شيئا . وكان وولتز واثقا انهم كانوا يكذبون . ولكن كان بالامكان حملهم على الكلام . انهم جميعا مباعون ، الرعاع ! ولكن كان بالامكان اجبارهم على كشف من اشتراهم .

كان وولتز انانيا الى ابعد حد ، ولكنه لم يكن ابله . كان قد قدر سلطته باكثر من حقيقتها ،وحسب نفسه اقوى من دون كورليون . وكان على خطأ . وقد تكفلت الاحداث بالتدليل على غلطته . وكان قد فهم الدرس . فرغم غناه ،ورغم علاقاته برئيس الولايات المتحدة ، ورغم صداقة رئيس وكالة المخابرات – وهي

صداقة ويتباهى بها امام الجميع ـ فان مستورداً ايطاليا لزيت الزيتون ، كان يستطيع ، اذا شاء ، ان يرسل من يقتله . اجل ، كان يستطيع ذلك بالتأكيد . لمجرد أنه هو ، جاك وولتز ، كان يرفض ان يعطي جوني فونتان دورا ما في فيلم ما ! كان هذا غير معقول . ان المجتمع والعالم كلـه لن يبقيا إذا كان ثمـة اناس يسمحون لانفسهم ان يتصرفوا على هذا النحو . كان هذا بلا معنى . لانه كان يعني ان المرء لا يستطيع بعد ان يفعل ما يشاء بماله الخاص ، ولا ان يقوم بأعمال هو سيدها ، ولا ان يستعمل الحق الذي كان قد اكتسبه بقيادة الآخرين . كان هـذا اسوأ من الشيوعية . اسوأ عشر مرات . ولم يكن محتملا . يجب خنق الفول في بيضتـه .

واستجاب وولتز لوصفة طبيبه بان يتناول مسكنا خفيفا . فأحس بتحسن وهدأ وفكر بمزيد من التعقل . ان ما كان يبدو له ادعى للاستنكار اللامبالاة التي أصدر بها كورليون هذا امره بقتل جواد مشهور عالميا ، جواد كان السيد وولتز قد دفع ثمنه ستمئة الف دولار . كان ذلك يبعث على الارتعاش . وفكـر بالحيـاة التي عاشها . كان غنيا، وكان يستطيع الحصول على أجمل نساء العالم . لم يكن بحاجة الى اكثر من غمزة عين ، او ايماءة اصبع ، او وعد بعقد . كان الملوك والملكات يدعونه الى موائدهم . وكل ما كان يمكن القوة والمال ان يوفراه ، كان يملكه . فأن يجازف بخسارة هذا كله ، من اجل نزوة ، اليس في ذلك حماقة ؟ ايذهب لملاقاة كورليون ؟ ما كانت العقوبة المنصوص عنها لقتل حصان سباق ؟ وانفجـر السيد وولتز ضاحكا . ونظر اليه طبيبه وخدمه بقلق .

وخطرت لوولتز فكرة اخرى . كان ثمة مجهول قد تحدى قدرته الكليـة بوقاحة لا مثيل لها . وسيكون موضع هزء كاليفورنيا كلها . وهذا ما جعله يقرر . وكذلك التفكير بأنه ربما لم يكن ثمة نية لقتله . ربما كان ثمة في الحفظ تعذيب اشد رهافة ، وابطأ ، وأقل قدرة على الاحتمال .

واعطى السيد وولتز اوامره . وسرعان ما دخل في العمل مساعدوه الاقرب اليه ، اولئك الذين كان يطلعهم على اسراره . واستحلف الطبيب والخدم على حفظ السر تحت طائلة التعرض لعداء وولتز وجماعته ، وما اشد ما كان هذا العـداء مخيفا . وابلغت الصحافة ان خرطوم نفق من جراء مرض التقطه على السفينة التي كانت قد حملته من انكلترا . واعطي الامر بدفن الجثة في مكان خفي من امـلاك جاك وولتز الشاسعة . وبعد ست ساعات ، كان جوني فونتان يتلقى مخابـرة تلفونية من سكرتير وولتز طالبا اليه ان يعرج على الاستوديو ، يوم الاثنين التالـي ، ليوقع عقـده .

في المساء ، اتجه توم هاجن الى منزل دون كورليون ليعد مقابلة اليوم التالي الهامة مع فيرجيل سولوزو . وكان الدون قد رجا ابنه الاكبر أن يحضر اللقاء . وكان سوني كورليون يرتشف قدح ماء مثلوج . وكان وجهه الكوبيدونـي الضخـم مثقلا بالتعب . وفكر توم هاجن : « انه منشغل بوصيفة الشرف » : موضوع آخر

من موضوعات اهتمام «العائلة» . وكان دون كورليون مستغرقا في اريكة يدخن سيكارا من نوع دي نوبيلي . وكان هاجن يحرص على ان يكون ثمة دائما علبة من هذا النوع في المكتب. وكان قد حاول ان يقنع دون كورليون بالعدول عنه الى سيكار الهافانا ، ولكن الدون كان يدعي ان هذه كانت تؤلم حلقه . وسأل دون كورليون :

— هل نعرف جيدا كل ما هو ضروري ؟

وفتح هاجن المحفظة التي كانت تحتوي اوراقه . لم يكن في مذكراته اي شيء مورط ، بل كانت رموزا غامضة مهمتها ان تجنبه كل نسيان . قال هاجن :

— ان سولوزو بحاجة الى معونتنا . سيطلب من « العائلة » ان تسلفه مليون دولار على الاقل وان تضمن له نوعا من الحصانة تجاه السلطات والقانون . وبالمقابل، سيعرض علينا قسما من الغنيمة . ليس ثمة من يعرف الى اي حد يتمتع سولوزو بضمانة اسرة تاتاغليا . ربما كان لهم ، هم ايضا ، نصيب من العملية . تجارة الكوكايين . ان لسولوزو علاقات في تركيا . هناك يزرع الخشخاش . ويشحن الافيون الى صقلية . ليس من صعوبة على الاطلاق . وفي صقلية يستخدم سولوزو المنشآت الضرورية لصنع الهيرويين . كل شيء مقدر . وعند الحاجة يمكن اعادة الهيرويين الى حالة المورفين ، والعكس بالعكس . وعلى اية حال ، يبدو ان منشآته في صقلية مموهة الى ابعد حدود التمويه . فالاخطار ، من هذه الناحية ، معدومة. والصعب في الامر هو ادخال الهيرويين الى اميركا ، وتسليمه الى الزبائن . وهناك ايضا مسألة التمويل . ومليون من الدولارات ، نقدا ، هذا شيء لا ينبت على الشجر .

كز دون كورليون على قسمات وجهه . كان يحتقر التعليقات التي لا جدوى منها . وكان هاجن يعرف ذلك . فأخذ يوجز :

— ان لسولوزو لقبا . كانوا يسمونه « التركي » لسببين . فهو اولا قد عاش طويلا في تركيا . وينسب اليه امرأة واولاد اتراك . ويقال ثانيا انه بارع جدا ، او كان كذلك ايام شبابه ، في الاعمال التجارية فقط . انه في ميدانه رجل عظيم الكفاءة وليس له من معلم سوى نفسه . ان له سوابق : اقامتان في السجن ، واحدة في ايطاليا والاخرى في الولايات المتحدة . وله عند الشرطة سجل فهم يعرفون انه يتعاطى تجارة الكوكايين . وقد يكون هذا ذا فائدة بالنسبة الينا، فهو يعني في الحقيقة انه لن يستطيع اذا لزم الامر ان يكتسب الحصانة اذا شهد ضدنا ، ما دام معروفا انه الرئيس ، وخصوصا بسبب سجله العدلي . وهو فوق هذا قد تزوج اميركية انجبت له ثلاثة اطفال . انه اب ممتاز .

سحب دون كورليون نفسا من سيكاره وسأل :

— ما رأيك في ذلك ، يا سانتينو ؟

وكان هاجن يعرف مقدما جواب سوني . كان سوني يتحمل على مضض . فقد بدأت وصاية ابيه تثقل عليه . كانت لديه رغبة بأن يشرف هو نفسه على عملية واسعة النطاق . وقضية سولوزو كانت تناسبه تماما .

جرع سوني جرعة ويسكي كبيرة وقال :

ـ في تجارة المخدرات ربح وفير . ولكنها خطرة . وانا اعرف من كلفتهم عشرين عاما في السجن . ورايي ان التمويل والتغطية من غير التورط ، وخصوصا في البيع ، ربما كان شيئا هاما .

نظر هاجن الى سوني نظرة موافقة . كان قد احسن لعب اوراقه ، حين ركز على الحجة البدائية من غير ان يسعى الى التدقيق ، وكان هذا في رايه خير موقف يتخذ .

واطلق دون كورليون سحابة دخان :

ـ وانت يا توم ، ما رايك في المسألة ؟

كان هاجن قد قرر ان يكون صريحا الى ابعد حد . فبعد ان امعن فيالتفكير طويلا ، اصبح على يقين بان دون كورليون لن يرفض اقتراح سولّوزو . وما كان يقلقه كثيرا هو ان الدون كان يبدو للمرة الاولى في حياته المهنية وكأنه لم«يتعمق» المسألة . لم يكن يرى بعيدا بما فيه الكفاية . وقال الدون بصوت رفيق :

ـ هيا ، يا توم . ان « المستشارين » الصقليين ليسوا هم انفسهم دائما متفقين مع المعلم .

واضحكت هذه الكلمة الثلاثة ، وقال هاجن :

ـ اعتقد ان عليك انتقبل لعدة اسباب تعرفها خيرا مني . ولكن اهمها يبدو لي التالي : ان الربح في المخدرات يفوق الربح في اية تجارة اخرى . فاذا تركنا المكان خاليا ، احتله آخرون : عائلة تاتاغليا مثلا . وبالمال الذي سيربحه هؤلاء ، يستطيعون ان يكتسبوا المزيد من النفوذ في الشرطة وفي الاوساط السياسية . وسيصبحون اقوى منا ، وفي آخر المطاف ، سينقلبون علينا ، ويسعون الى انتزاع كل ما نملك . هذه سياسة عالمية . فاذا صلى جارك بندقيته ، فيجب ان تصلي انت ايضا بندقيتك . واذا اصبح اقتصاديا اقوى منا ، فانه يشكل تهديدا . اننا نشرف على دور القمار والنقابات ، هذا الان افضل شيء . ولكني شبه موقن ان المخدرات هي تجارة المستقبل الكبرى ، اننا لا نستطيع ان نبقى على الحياد . واذا فعلت الاشياء بدوننا ، فاننا نوشك ان نفقد كل شيء . ليس اليوم ، ولا غدا ، ولكن ربما بعدعشر سنوات .

كان دون كورليون يبدو متأثرا الى ابعد حد . وقد سحب نفسا من سيكاره وقال بصوت منخفض :

ـ هذا اهم مافي الامر ، بكل تأكيد .

ونهض عن كرسيه وهو يتنهد :

ـ في اي ساعة سنستقبل هذا الكافر ؟

اجاب هاجن بشعاع من امل :

ـ سيكون هنا في العاشرة من صباح الغد .

قال الدون وهو يمسك بذراع ابنه :

ـ اود ان تكونا كلاكما هنا . وحاول ان تنام هذه الليلة ، يا سانتينو . انلك سحنة ممتقعة صفراء . اهتم بصحتك . فلن تكون دائما شابا .

وتشجع سوني باهتمام ابيه ، فطرح السؤال الذي لم يكن هاجن يجرؤ

على طرحه :

ـ وبم ستجيبه ؟

قال دون كورليون وهو يبتسم :

ـ كيف تريدني ان اعرف ذلك ؟ كيف اكوّن رايا ما دمت اجهل النسبة المئوية التي يعرضونها علينا وتفاصيل اخرى ؟ وانا محتاج بعد الى وقت للتفكير في الآراء التي اعطيتماني اياها هذا المساء . انني لا اعمل على عجل ، تعرفان ذلك جيدا .

واذ تجاوز دون كورليون الباب قال لهاجن باهمال :

ـ هل سجلت في مذكراتك ان «التركي» كان يعتاش من البغاء قبل الحرب، كما تعتاش اليوم عائلة تاتاغليا ؟ سجل ذلك قبل ان تنساه .

ولم يكن في صوت دون كورليون الا ظل تهكم ، ولكن هاجن احمر بعنف . وكان عن قصد قد اهمل الاشارة الى التفصيل الذي كان الدون يذكره به . وكان قد اتخذ لنفسه سببا ان الامر غير ذي بال . والواقع انه كان يخشى ان يتأثر قرار دون كورليون بذلك . كان الجميع يعرفون ان الدون كان متصلبا في موضوع الجسد .

كان فيرجيل سولوزو ، الملقب بالتركي ، رجلا معتدل القامة ، ركين الجسم . وكان لسمرته يمكن الاشتباه بأنه تركي حقا . كان انفه بشكل سيف ضلع ، وعينه سوداء وحشية ، وملبسه ذو لياقة طاغية .

واستقبله سوني كورليون على باب المنزل ورافقه الى المكتب حيث كان دون كورليون وهاجن ينتظرانه . وحين رآه هاجن داخلا ، قال في نفسه انه لم يسبق له قط ان قابل رجلا مخيف الهيئة الى هذا الحد . باستثناء لوكا برازي .

وتصافحوا بود . وقال توم هاجن في نفسه : حين سيسألني دون كورليون اذا كان هذا الرجل يملك خصيتين بين فخذيه ، فسأجيبه : بكل تأكيد . ولم يسبق له ان اكتشف لدى اي انسان مثل هذا الاشعاع للقوة ، حتى ولا عند دون كورليون . والحق يقال ان الدون لم يكن يبدو في حالته الطيبة . كان في طريقة استقباله لسولوزو شيء ما بسيط وقروي اكثر مما ينبغي . وباشر التركي الحديث دون مقدمات . تجارة المخدرات . مشروع في وضع سليم جدا . كانت حقول معينة للخشخاش في تركيا تضمن دخلا سنويا معينا . وكان تحت تصرف سولوزو في فرنسا منشآت مموهة جدا لاستخراج المورفين . وكان له من اجل الهيرويين مختبر صغير في صقلية . وكان التهريب في فرنسا وفي صقلية يقدم جميع ضمانات السلامة التي يمكن للمرء ان يرجوها بشكل معقول في هذا النوع من العمليات . اما بشأن ادخال المخدرات الى الولايات المتحدة ، فكان يجب حسبان خمسة بالمئة من الخسائر : كان على دون كورليون ان يعرف ان وكالة الاستخبارات لن تسمح بشرائها . فاذا اخذنا هذا كله بعين الاعتبار ، فان بالامكان ان نأمل ارباحا هائلة لقاء مجازفة معدومة عمليا .

وسأل دون كورليون بتأدب لذيذ :

ـ اذا كان الامر كذلك ، لماذا تتوجه الي ؟ ماذا فعلت لاستحق كرمك اللطيف؟
قال « التركي » من غير تردد :
ـ انني بحاجة الى مليوني دولار نقدا . وهناك تفصيل آخر ، لا يقل أهمية، فانا بحاجة الى رجل له أصدقاء محليون ، اصدقاء ذوو سلطة . فمع الايام، لا بد من ان يقبض على بعض ناقلي بريدي وموزعيّ . هذا محتوم . فيجب ان أعدهم بان تكون لهم سجلات عدلية نظيفة . وبمنطق معتدل ، يجب الا يحكموا الا بعقوبات خفيفة . انني بحاجة الى صديق يستطيع ان يكفل الا يبقى رجالي، اذا واجهوا المشاكل ، اكثر من عام او عامين في السجن . في هذه الحالة ، سيلتزمون الصمت .اما اذا حكموا بعشر سنوات او عشرين ، فمن يدري ؟ ان في هذه الدنيا كثيرا من الطبائع المنحطة . فمن الممكن ان تتكلم ، وان تورط اسيادها. الحماية القانونية هي في نظري ضرورة . وقد قيل لي ، يادون كورليون ، ان في جيبك من القضاة مثل مافي جيب ماسح للاحذية من قطع الخمسة والعشرين سنتا .
وسأل دون كورليون دون ان يهتم بالتأكيد على المديح :
ـ اية نسب مئوية تعرض على « عائلتي » ؟
فأضاءت عينا سولوزو :
ـ خمسون بالمئة .
وصمت لحظة قبل ان يستطرد بصوت عذب شبيه بالملامسة :
ـ في السنة الاولى ، ستقبضون ثلاثة ملايين دولار او اربعة . واكثر من ذلك ، فيما بعد .
وسأل دون كورليون :
ـ وما هي نسبة عائلة تاتاغليا ؟
للمرة الاولى ، اظهر «التركي» بعض العصبية ، فقال :
ـ سيأخذون من حصتي . اني بحاجة الى بعض المساندة .
استطرد دون كورليون يقول :
ـ هكذا اذن أقبض خمسين بالمئة من الارباح مقابل تمويل بسيط ووعد بحماية قانونية ؟ وليس لي ان اهتم بالعمليات ؟ اليس هذا ما تقوله لي ؟
هزّ سولوزو رأسه وقال :
ـ اذا كنت تعتبر مليوني دولار نقدا « تمويلا بسيطا » فاسمح لي ان ارفع قبعتي ، يا دون كورليون .
عند ذلك قال الدون بصوت هادىء جدا :
ـ لقد قبلت ان القاك اعتبارا مني لعائلة تاتاغليا واعتبارا مني لك شخصيا انت المعروف بانك رجل رصين وحكيم . وانا مضطر ان اجيبك ب : لا ، ولكني حريص على شرح اسبابي . ان الارباح هائلة في تجارتك ، وكذلك المخاطر . والعملية التي تعرضها علينا ربما اضرت بمصالحي الاخرى . صحيح ان لي كثيرا ، كثيرا جدا من الاصدقاء في الاوساط السياسية ، ولكن صداقتهم لي ستضعف اذا

عملت في تجارة المخدرات بدلا من ان اعمل في دور القمار . ان القمار في نظرهم شبيه بالخمرة ، عيب غير مؤذ نسبيا . اما المخدر ، فشيء آخر . انه يعد عملا شنيعا . لا ، لا ، لا تحتج . اقول لك ما يفكرون به ، لا ما افكر به انا . ان الطريقة التي بها يكسب الناس عيشهم لا تعنيني . ولا اقول لك الا شيئا : ان التجارة التي تعرضها علي تحتمل ، بالنسبة لي ، مخاطر تتجاوز الحدود ، ان اعضاء «عائلتي» يعيشون منذ عشر سنوات على نحو رضي جدا ، بمنجاة من الخطر والتقلبات ، ولا يستعني ان اعكر صفو امنهم او افسد وسائل عيشهم بطمع عديم التبصر ، سعيا وراء تكديس الثروات وحبا للمال .

ولم يعبر سولوزو عن خيبة امله بغير قذف الشاهدين بنظرة خاطفة ، كما لو انه كان يأمل في نجدتهما . وحين لم يجد احدا يتكلم ، سأل :

ــ ربما كنت تخاف على مصير مليونيك ؟

فأجاب دون كورليون ببسمة مثلجة « لا » ، وعاد سولوزو الى مهمته :

ــ ان عائلة تاتاغليا مستعدة لضمان تمويلك .

في تلك اللحظة، ارتكب سوني كورليون خطأ في الحكم والاستراتيجية لا يغتفر . فقد سأل بتعجل بعيد عن كل دبلوماسية ، وهو يشي بنفاد صبره بوضوح :

ــ هل تكفل عائلة تاتاغليا رد اموالنا من غير ان تطلب نسبة مئوية ؟

هذه الغلطة الهائلة صعقت توم هاجن ، ورأى دون كورليون يسقط على ابنه نظرة مشحونة بالعدوانية . وبدا سوني ، وقد حجرته هذه النظرة ، انه لا يفهم . والتمع في حدقتي التركي نور رضى . لقد اكتشف شرخا في حصن كورليون . وبدأ الدون يقول :

ــ الشبيبة جشعة ، يا سيدي .

كان صوته قد تغير ، وكان يتكلم بجفاف لم يكن يحتمل ردا . كان التركي قد طرد .

ــ أجل ، ان الشباب في ايامنا لا يعرفون الادب بعد . فهم يقاطعون من يدين لهم الناس بالاحترام . ويتدخلون في كل شيء . ولكن الحنان يجعلني ضعيفا مع اولادي . لقد افسدتهم بالدلال . وبوسعك ان تشاهد ذلك . ان رفضي نهائي ، يا سنيور سولوزو . ولكن اسمح لي ان اتمنى لك حظا سعيدا . ان اعمالك التجارية لا تنافس أعمالي . وانا آسف اذ اجد نفسي مضطرا الى تخييب ظنك .

وانحنى سولوزو فصافح يد دون كورليون . واصطحبه هاجن حتى سيارته . وحين ترك سولوزو هاجن لم يظهر اي انفعال . وحين عاد هاجن الى المكتب ، سأله دون كورليون :

ــ توم ، ما رايك بهذا السيد ؟

فأجابه توم ، من غير تعليق آخر :

ــ انه ... صقلي .

وهز الدون راسه بهيئة تفكر . ثم وجه كلامه الى سوني ، فقال من غير ان يرفع صوته :

ـ اسمع ياسانتينو ، لا تدع قط اجنبيا عن العائلة يحزر أفكارك .انالمسرحية الصغيرة التي تمثلها مع صديقتك الصغيرة تميع الآن عقلك . فكف عن هذا وانتبه قليلا للعمل . هل فهمتني ؟ والان ، اغرب عن نظري .

وراى هاجن تعبير سوني ينتقل من الدهشة الى الغضب . كيف امكنلسوني ان يتصور ان اباه لم يكن مطلعا على مغامرته ؟ وكيف لم يفهم اية غلطة خطيـــرة قد ارتكب ؟ وقالهاجن لنفسه ، مبلبلا ، ان لا رغبة له اطلاقا ان يصبح ذات يوم « مستشارا »لدون سانتينو كورليون .

انتظر دون كورليون ان يخرج سوني من المكتب ليتـداعى الى السقوط في اريكته الجلدية . وبحركة نافذة الصبر ، اومأ الى توم ان يصب له كأس شراب ، فقدم له توم قدحا منالانيسون . واذ ذاك رفع الدون عينيه اليه واكتفى بالقول:

ـ استدع لوكا برازي .

بعد ثلاثة اشهر ، كان توم هاجن يستعجل انجـاز عمل يومه في مكتبـه بنيويورك ، ليخرج باكرا ويقوم ببعض المشتريات لزوجته واولاده ، قبل بضعةايام من عيد الميلاد .وفوجيء بمخابرة تلفونية من جوني فونتان الذي كان يغلي بالمرح والتفاؤل . كان الفيلم قد تم تصويره ، وبعد عرض المشاهد الاولى الرائعة ، كان جوني يرسل الى دون كورليونهدية للميلاد مذهلة ، وكان قد امل ان يحملها له بنفسه ، ولكن كان ما يزال هناك بعض الاشياء الصغيرة في الفيلم يجب انجازها في الاستوديو . بالاختصار ، كان جوني مضطرا للبقاء في كاليفورنيا . ولم يكبت هاجن الا بمشقة عدم نفاد صبره . لم يكن سحر جوني فونتان قد اثر عليه فـي الماضي الا بشكل متوسط . ولكن جوني يثير الآن فضوله ، فسأله :

ـ ما هي هذه الهدية ؟

ـ هذا مالا يكشف ، يا توم . ان هدية ميلاد يجب ان تكون مفاجأة .

ولم يكن الحوار بعد ذا فائدة لتوم هاجن . ومن غير ان يتنكر للمجاملة ، تدبر امره ليعلق السماعة باسرع ما امكنه .

وبعد عشر دقائق جاءت سكرتيرته تبلغه ان كونستانزيا كورليون كانتتطلبه على التلفون . فلم يكبت هاجن تنهده . فقبل الزواج ، كانت كونستانزيا فتـاة لطيفة ، اما بعد ذلك ، فكم اصبحت مزعجة ! انها لم تكن تكف عن الشكوى مـن الزوج الذي اختارته . وفي كل مناسبة ، كانت تهجر المنزل الزوجي لتاتيفتقضي يومين او ثلاثة قرب امها . اما كارلو ريزي ، فكان وضعــه سيئا جدا . كـانت قد قدمت له هدية ،هيعبارة عن تجارة صغيرة طيبة ، فاخذ يبددها بجذل . وهـو فوق هذا كان يقامر ويطارد المومسات ويضرب زوجته عند اللزوم . ولم تكـن كونستانزيا قد اخبرت عائلتها بشيء من ذلك بعد ، ولكن توم هاجن قد اطلع على اعترافاتها . وكان الآن يتساءل اية ميلودراما جديدة كانت تحفظ له .

واكتشف بعزاء ان روح الميلاد كانت على ما يبدو قد اصابتها بنعمتها .كان كل ما تريده من صديقها توم نصيحة بشأن الهدية لكورليون . ولسوني ؟ ولفريدو؟

ولميخائيل ؟ اما لامها ، فكانت قد اختارت . وقدم لها هاجن بعض الاقتراحات التي وجدتها كلها بليدة فرفضتها . ولم تتأخر طويلا على التلفون ، فعاد توم هاجن الى العمل بعد ان تخلص منها .

ورن جرس التلفون ، للمرة الثالثة ! لا سبيل للعمل ، اليوم ! وجمع هاجن ملفاته ورماها في درج ، مصمما على الخروج بعد انهاء المخابرة (لم يسبق له قط ان امتنع عن الاجابةعلى المخابرات التلفونية) وكانت سكرتيرته تقول له ان المخابرة صادرة عنميخائيل كورليون ،فرفع السماعة وقد رقتنفسه : كان يحب ميخائيل. وقال ميخائيل :

ــ توم ، انا قادم غدا بالسيارة الى نيويورك مع كاي . لدي شيء هام اقوله للعجوز ، قبل عيد الميلاد . ايكون في البيت مساء الغد ؟

قال هاجن : ــ بالتأكيد . انه لن يتحرك حتى عيد الميلاد . هل استطيعان اقدم لك اية مساعدة ؟

كان ميخائيل زاهدا مثل ابيه بالكلام ، فقال :

ــ لا ، شكرا . سنتقابل بمناسبة الميلاد ، أليس كذلك ؟ سيكون الجميع في « لونغ بيتش » .هل اتفقنا ؟

ــ اتفقنا .

وعلق ميخائيل السماعة من غير ان يضيف كلمة . وابتسم توم لهذا الاختصار الوراثي . وقبل ان يخرج ، طلب الى سكرتيرتـه ان تتصل بزوجتـه وتخبرها انـه سيتأخر قليلا في العودة الى المنزل ، ولكنه سيتناول العشاء معها . وخرج من المبنى متجهـا بخطوة خفيفة نحـو المخازن الكبرى « ماسي » . فاذا بـه يفاجأ بفرجيل سولوزو يتأثر خطاه ، ثم يمسك بذراعه ويقول له من غير عنف :

ــ لا تخف ، يا هاجن . انا محتاج فقط الى التحدث اليك .

وكانت سيارة واقفة بحذاء الرصيف ، وانفتح بابها ، فقال سولوزو بصوت مستعجل :

ــ اصعد . انني بحاجة الى التحدث معك .

وخلص هاجن ذراعه . لم يكن الخوف قد استولى عليه بعد ، بل كانمنزعجا فحسب ، فقال :

ــ لا وقت عندي .

وفي تلك اللحظة ، انبثق رجلان من خلفه ، فأحس بساقيه ترتخيان. وهمس « التركي » في اذنه :

ــ هيا ، يا هاجن ، اصعد ، لو كانت لي رغبة فـي قتلك ، لكنت قد متّ . قليلا من الثقة .

وصعد هاجن الى السيارة ، بقدر قليل جدا من الثقة .

كان ميخائيل كورليون قد كذب على توم هاجن . وكان موجـودا آنذاك فـي نيويورك ، وقد خابر توم من غرفته في فندق بانسلفانيا ، على بعد خمسمئة متر

من مكتب هاجن . وحين علق السماعة ، وضعت كاي ادامس سيكارتها وقالت :
ـ يا لك من كذاب !
وجلس ميخائيل على السرير الى قربها :
ـ من اجلك انت افعل ذلك ، يا ملاكي الصغير . فلو اخبرت العائلة اننا في نيويورك لاضطررنا الى الذهاب الى البيت على الفور . ولن نستطيع ان نخرج، لا للعشاء في المطعم هذا المساء ، ولا للذهاب الى المسرح ، ولا للنوم معا . في بيت ابي ، قبل الزواج ! هل تتصورين ذلك ، انت ؟
واخذها بين ذراعيه ، وقبلها على فمها . كانت شفتا كاي رقيقتين عذبتين. وتمدد وجذبها اليه على مهل . فأغمضت عينيها ، وانتظرت ان يضاجعها . وكان ميخائيل يحس نفسه سعيدا جدا . كان في سنوات الحرب ، في الباسيفيك وفي الجزر الملعونة ، قد حلم بفتاة تشبه كاي ادامس . كان قد تصور جمالا شبيها بجمال كاي : جسد دقيق ذو بشرة بيضاء كاللبن ، جسم يرتعش بالعشق. وفتحت عينيها فأخذت راس ميخائيل بين يديها وجذبته نحوها . وقاما بفعل الحب حتى ساعة العشاء .
وحين خرجا من المطعم ، تسكعا امام الواجهات المضيئة للمخازن الكبيرة التي كانت تغص بالناس اقبلوا يبتاعون حاجاتهم للاعياد . وسأل ميخائيل كاي :
ـ اية هدية تريدين ان اقدم لك بمناسبة الميلاد ؟
قالت وهي تشده اليها :
ـ انت ، انت . قل لي يا مايك : هل تعتقد ان اباك سيقبلني ؟
قال ميخائيل : ـ المسألة الحقيقية ليست هنا ، يا عزيزتي كاي . الاحرى ان تقولي لي اذا كان اهلك انت سيقبلونني !
قالت كاي وهي تهز كتفيها :
ـ لا اعتقد ذلك .
ـ تعرفين ياكاي ، لقد بلغ بي الامر ان اتساءل اذا لم يكن متوجبا علي ان اغير اسمي قانونيا . هذا في الحقيقة لن يجدي شيئا . هل انت متأكدة إنك راغبة بان تصبحي واحدة من اسرة كورليون ؟
ولم يكن يمزح تقريبا . وقالت كاي ، من غير ان تبتسم : « نعم » . وضم احدهما الاخر . وكانا قد قررا الزواج في اسبوع الميلاد ، زواجا مدنيا سريا في البلدية ، مع صديقين فقط ، كشاهدين . ولكن ميخائيل كان قد افهم كاي ان عليه ان يخبر بذلك اباه . ان دون كورليون لن يعارض الزواج باية طريقة اذا لم يحاول ميخائيل وكاي ان يضعاه امام الامر الواقع . وكانت كاي متشككة ،وقالت لميخائيل ان اهلها هي ينبغي الا يعرفوا الحقيقة الا فيما بعد .
ـ سيعتقدون طبعا انني حامل .
وكز ميخائيل على وجهه :
ـ سيعتقد اهلي ذلك ايضا .
وما لم يجرؤ احدهما على قوله هو ان ميخائيل سيكون مضطرا الى قطع

العلاقات الوثيقة التي كانت تشده الى عائلته . كانا يعرفان جيدا ، كلاهما ، ان ميخائيل كان قد بدأ منذ وقت طويل يبتعد عن اسرته . ومع ذلك ، فقد كانا يحسان نفسهما مذنبين . كانا يريدان ان ينهيا دراستهما الجامعية ، فحتى ذلك الحين ، سيلتقيان يومي السبت والاحد ، وسيقضيان عطلة الصيف معا . وكان ذلك يشبه السعادة تقريبا .

كانت المسرحية التي قصدا المسرح لرؤيتها اوبريت بعنوان « كاروسيل » ، وهي قصة عاطفية للص نفّاج . وطوال المسرحية تبادلا بسمات مرحة . وكان الجو باردا جدا حين خرجا من المسرح ، فتعلقت كاي بميخائيل ، ثم سألته :

– ستضربني ، انت ايضا ، بعد ان نصبح زوجين ، ثم تسرق بعد ذلك نجمة لتقدمها لي هدية ؟

قال ميخائيل ، بلهجة سوقية :

– حين أصبح كبيرا ، سأصبح يا سيدتي استاذ رياضيات . (ثم سألها) اتريدين ان تأكلي شيئا قبل العودة الى الفندق ؟

فهزت كاي راسها نفيا ، ورفعت نحو ميخائيل نظرة بليغة . وتأثر ميخائيل، كما يحدث عند كل لقاء لهما ، لان يلقى كاي نافدة الصبر في شهوتها الى هذا الحد، جائعة لمداعباته الى هذا الحد . فابتسم لها وقبلها في الشارع المثلج ، ولكنه ، هو ، كان جائعا ، فعزم ان يطلب شطائر في غرفة الفندق .

وفي مدخل فندق بنسلفانيا ، اشار ميخائيل الى معرض الصحف ، وقال لكاي :

– سآتي بالمفتاح . وفي هذه الاثناء ، اشتري انت الجريدة .

وكان عليه ان ينتظم بالصف امام مكتب الاستقبال . وبالرغم من ان الحرب قد انتهت ، فان فندق بنسلفانيا لم يكن قد استعاد بعد جميع عماله . وحين اعطوه مفتاحه ، لم تكن كاي قد عادت بعد . ونظر حوله فلمحها واقفة وسط الرواق ، تحدق عيناها بالجريدة التي كانت تحملها . ولحق بها ، فرفعت اليه عينين مليئتين بالدموع ، وقالت :

– اوه ، مايك ! اوه ، مايك !

فأخذ من يديها الجريدة مفتوحة . وكان اول شيء رآه صورة لأبيه مطروحا وسط شارع ، وراسه في مستنقع من الدم . وكان ثمة رجل جالسا على حافة الرصيف ، يبكي كأنه طفل . كان هذا فريدو ، أخاه . واحس ميخائيل كما لو ان جسمه كان يتحول الى كتلة من ثلج . لم يشعر بهم ولا خوف . بل بغضب بارد وقاس . وقال لكاي :

– اصعدي الى الغرفة .

ولكن كان لا بد له من ان يمسكها من ذراعها ويرافقها الى المصعد . وصعدا من غير ان يقولا كلمة . وحين دخلا الغرفة ، جلس ميخائيل على السرير وفتح الجريدة . وقرأ عنوانا :

محاولة اغتيال فيتوكورليون – اصابة رئيس عصابة السلب بجرح بليغ –

اجراء عملية له بحماية الشرطة ـ يخشى من عمليات انتقام ـ يقظة حرب عصابات الاشرار .

أحس ميخائيل بساقيه ترتجفان . وقال لكاي :

ـ لم يمت . لم ينجح الجبناء القذرون في قتله .

واعاد قراءة المقال . كان دون كورليون قد هوجم في الساعة الخامسة مساء. واذن ، فطوال بعد الظهر ذاك ، بينما كان ابنه يقوم بفعل الحب ، وبينما كان يتناول العشاء في المطعم مع كاي ، وبينما كانا يتسليان معا في المسرح ، في اثناء تلك الساعات الطويلة ، كان دون كورليون يراوح بين الحياة والموت . وكان ميخائيل يحس نفسه مذنبا حتى الغثيان .

وسألت كاي :

ـ هل نذهب فورا الى المستشفى ؟

فهز ميخائيل راسه نفيا :

ـ سأتصل اولا بالبيت . ان الذين فعلوا ذلك مجانين . وحين سيعرفون ان العجوز لم يمت ، سيطير عقلهم . اتراهم يعرفون من يجابهون بعد ذلك ؟

كان خطا البيت في « لونغ بتش » مشغولين . وانتظر ميخائيل المخابرة زهاء عشرين دقيقة . واخيرا سمع صوت سوني « آلو » . قال ميخائيل :

ـ آلو ! سوني ، انا ميخائيل .

قال سوني بصوت كان يعبر عن الارتياح :

ـ يا للمسيح ! لقد قلقنا عليك قلقا شديدا ، ايها الصغير . فأين انت ؟ لقد ارسلت أشخاصا الى منطقتك استفسارا عنك .

سأل ميخائيل :

ـ كيف حال العجوز ؟ هل جرحه خطير ؟

ـ نعم . خمس رصاصات في الجلد . ولكنه قاس عنيد . (وكان في صوت سوني افتخار) يقول الاطباء انه سيخرج من ذلك بسلامة . اسمع ، ايها الصغير، انني مشغول . لا أستطيع ان احدثك الآن . اين انت ؟

قال ميخائيل : ـ في نيويورك . الم يخبرك توم انني سأصل ؟

فانخفض صوت سوني :

ـ لقد خطفوا توم . من اجل هذا كنت خائفا عليك . ان زوجة توم هنا . وهي لا تعرف الحقيقة . ولا رجال الشرطة كذلك . وانا افضل الا اقول لهم شيئا . لا شك في ان الذين قاموا بالعملية مجانين . اطلب اليك ان تأتي الى هنا على الفور. وصمتا يا مايك . اتفقنا ؟

ـ اتفقنا . قل لي ياسوني . أتعرف من فعل ذلك ؟

ـ بالتأكيد . انتظر فقط ريثما يتدخل لوكا برازي . ان هؤلاء القرود لن يكونوا بعد الا لحما باردا . سترى ذلك . لا تزال في ايدينا جميع الحظوظ .

قال ميخائيل : ـ سأقفز في سيارة ، وسأكون عندكم بعد ساعة .

واقفل السماعة . وكانت الصحف قد صدرت منذ اكثر من ثلاث ساعات.

ولا بد ان الخبر قد اذيع من الراديو . وكان من شبه المستحيل الا يكون لوكا قد عرف بالنبأ . كان ميخائيل يقلب الامر على وجوهه ، متفكرا . ايـن عساه يكـون ، لوكا برازي ؟ وكان ذلك هو السؤال نفسه الذي كان توم هاجن يطرحه . وهـو السؤال نفسه الذي كان يعذب سوني كورليون ، في لونغ بيتش .

بعد ظهر ذلك اليوم ، في الساعة الخامسة الا ربعا ، فرغ دون كورليون من تقليب الملفات التي كان اعدها له مدير ادارة « جانسو بورا اويـل كومباني » . وارتدى سترته وضرب بسبابته المثنية على رأس ابنه فريدو الذي لم يكـن منذ اكثر من ساعة قد رفع راسه عن جريدته :

– قل لفاتو ان يخرج السيارة . سأكون مستعدا للدخول الى البيت بعـد خمس دقائق .

فدمدم فريدو : – انا الذي سأقوم بالخدمة . لقد تلفن بولي هذا الصباح انه مريض . لقد اصيب مرة اخرى بالبرد .

وصمت دون كورليون مفكرا ، ثم قال :

– انها المرة الثالثة منذ مطلع الشهر . يجب ان تبحث عن فتى اقوى منـه صحة ليتولى امر السيارة . حدث في ذلك توم .

فاحتج فريدو يقول :

– بولي فتى طيب . فاذا قال انه مريض ، فهذا صحيح . ولا يزعجني على الاطلاق ان اجيئك بالسيارة .

وخرج فريدو من المكتب . ورآه دون كورليون ، وهو ملتفت نحو النافذة، يجتاز « الجادة الخامسة » متجها نحو موقف السيارات . واراد ان يتصـل بهاجن في مكتبه ، ولكن لم يكن ثمة من جواب . وحاول ان يتلفن الى منزله في « لونغ بيتش». لا احد . واخذه الضيق ، فرفع عينيه نحو النافذة . كـانت سيارته واقفة امام المبنى ، عند الرصيف . وكان فريدو ينظر الى الناس يدخلون الحوانيت ليبتاعوا حاجات الميلاد ، وقدمه على واقية الصـدمات في السيـارة ، وذراعاه مشتبكتان على صدره . وساعد مدير ادارة « جانسو بورا » دون كورليون على ارتداء معطفه ، فتمتم الدون كلمة شكر ، وخرج من مكتبه هابطا الدرج .

كان النهار قد بدأ ينحسر في مطلع الشتاء ذاك . وكان فريدي مستنـدا باسترخاء على « البويك » الضخمة ، وحين رأى اباه يخرج من المبنى ، تقـدم ليجلس في مقعد السائق . وقبل ان يصعد دون كورليون الى السيارة ، تردد لحظة ثم استدار نحو متجر الفاكهة القائم في الهواء عند زاوية الشارع . كان منـذ حين من الزمن يتوقف عنده كلما جاء الى مكتبه . واصبح ذلك لديه عادة . كان يحب ان ينظر الى الثمار المذهبة في اكياسها الخضراء مذكرة بفصل آخر : الدراقـن الغزير العصارة ، والبرتقال . وهرع البائع اليه . ولـم يكـن دون كورليون يلمس الثمار ، بل كان يومي اليها باصبعه . ومرة واحدة فقط اعترض بائع الثمار علـى اختياره ، وكان ذلك ليريه ان احدى الثمار التي اشار اليها كانت مهترئة من تحت .

وتناول دون كورليون كيس الورق بيده اليسرى ، ومد للبائع ورقة بخمسة دولارات ورد له البائع الباقي . واستدار دون كورليون ليصعد الى سيارته . اذ ذاك لمح رجلين ينبثقان من زاوية الشارع متجهين اليه . وادرك الدون فورا ما سوف يحدث.

كان الرجلان يلبسان معطفين اسودين وقبعتين سوداوين كانتا تخفيان منهما العيون تقريبا ، ليتجنبا ان يتعرفهما الشهود . ولم يكونا يتوقعان سرعة رد فعل دون كورليون الذي ترك كيس الثمار يسقط من يده وانقذف نحو سيارته بسرعة عظيمة تثير الدهشة من رجل في سحنته ، وصاح « فريدو ، فريدو » . واذ ذاك فقط ، اخرج الرجلان مسدسيهما واطلقا النار .

اصابت الرصاصة الاولى دون كورليون في ظهره . واحس الصدمة كأنها ضربة مطرقة ، ولكنه تمكن من الاقتراب من السيارة . وادركته الرصاصتان الاخريان في مؤخرته ، فتدحرج في وسط الشارع . واراد القاتلان ان ينقضا عليه ، ولكن كان لا بد لهما من تجنب التزحلق على الدراقن الذي كان يتدحرج على الرصيف . في تلك اللحظة ، بعد انقضاء خمس ثوان على نداء دون كورليون لابنه ، خرج فردريكو من السيارة . واطلق القاتلان النار مرتين اخريين على الدون المنطرح عند مجرى الماء ، ولكنهما اخطأاه لسرعتهما في التصويب . واصابت رصاصة دون كورليون في الجزء الملحم من ذراعه ، واصابته رصاصة اخرى في ربلته اليسرى . وكانت هذه الجروح الاخيرة اقل الجروح خطرا ، ولكنها نزفت بغزارة . وتشكلت مستنقعات صغيرة من الدم حول الجريح . وفي تلك اللحظة،كان دون كورليون قد فقد وعيه .

لقد سمع فريدي اولا نداء ابيه ، ثم الطلقتين الناريتين الاوليين . فخرج من السيارة مذهولا مشدوها ، ولم يفكر حتى في مسدسه . ولم يكن ثمة ما هو أيسر على القاتلين من صرعه . ولكنهما لم يكونا اقل انشداها من فريدي . كانا يعرفان بالضرورة ان ابن دون كورليون كان مسلحا . وعلى اي حال ، فانهما كانا قد فقدا من الوقت اكثر مما ينبغي . واستدارا عند زاوية الشارع واختفيا ، تاركين فريدي وحده قرب جسد ابيه المدمى . وكان عدد وافر من المارة قد التجأوا الى اروقة المباني، وانبطح آخرون ارضا ، واخرون كذلك كانوا يشكلون فرقا صغيرة مذعورة .

لم يكن فريدي قد اخرج بعد مسدسه . كان يبدو منهكا ، وكان يحدق بنظرة بلهاء في جسم ابيه المنكب الوجه على الارض وسط بركة من الدم المسود . وكان فريدي يترنح : لم يكن يفهم شيئا بعد . وعادت الجموع الى الحركة كنهر تذوب ثلوجه . ورأى احدهم فريدي يكاد يسقط ، فقاده حتى حافة الرصيف وساعده على الجلوس . وكان البعض قد تجمعوا حول جسم دون كورليون . ووصلت سيارة اولى للشرطة وهي تطلق صفارتها ، فانفتحت دائرة الفضوليين لتدعها تمر، وكانت سيارة « الدايلي نيوز » الاذاعية تتبع سيارة الشرطة عن كثب ، وقبل ان تتمكن من الوقوف ، قفز منها مصور وسجل للمستقبل صورة دون كورليون وهو يحتضر . وبعد ذلك بلحظات ، كانت سيارة اسعاف تصل الى المكان . ووجه المصور

اهتمامه الى فريدي كورليون الذي كان الآن يبكي بلا تحفظ . وكان ذلك يشكل لوحة هزلية بشكل غريب . هذا الوجه القاسي ذو القسمات الكوبيدونية الشائخة، وذلك الانف الملحم ، وهذا الفم السميك الملطخ بالدموع والمخاط . واختلط رجال الشرطة بالجموع ، ووصلت سيارات اخرى . وركع احد رجال الشرطة الى جانب فريدي ليستجوبه ، ولكن فريدي الخائر القوى كان عاجزا عن الاجابة . ودس الشرطي يده في معطف فريدي فأخذ محفظته وفتحها . وما ان اكتشف هوية الشخصية الفريدة ، حتى صفر لرفيقه . وبعد لحظات ، كانت مفرزة من رجال الشرطة تنقض على فريدي وتنتزعه بخفة من وسط الجموع . واكتشف رئيس الشرطة مسدس فريدي في جيب سترته الداخلية فصادره ، وبعد ذلك ، اوقف فريدي على قدميه وادخلوه سيارة لا رقم لها اقلعت كالاعصار فأخذت سيارة « الدايلي نيوز » تطاردها على الفور . وظل المصور يصور كل ما كان يمثل امامه: من الاشياء والبشر .

في نصف الساعة الذي تلا محاولة الاغتيال ، جرت خمس مخابرات تلفونية مع سوني كورليون . وكانت الاولى من قبل المخبر السري جون فيليبس (الذي كانت « العائلة » تدفع له مرتبا) . وكان فيليبس ينتمي الى رجال الشرطة المدنيين الذين قدموا الى مكان الجريمة . وقد سأل وهو يرفع السماعة :

— هل عرفت صوتي؟

وكان سوني يأخذ غفوة قصيرة حين ايقظته زوجته قائلة انه كان مطلوبا على التلفون . وقال :

— اوه ، طبعا .

وبلا مقدمة ، قال فيليبس جملة واحدة :

— لقد اطلقوا النار على ابيك امام مكتبه ، منذ ربع ساعة . انه حي، ولكنه مصاب بجراح خطيرة . نقل الى المستشفى الفرنسي . اخوك فريدي في مفوضية شيلسيا . تحسن صنعا اذا استدعيت طبيبا حين يطلقون سراحه . فهو بحاجة اليه . انا مسرع الى المستشفى لاستجوب اباك اذا كان قادرا على الكلام . سأطلعك على ما يجد .

ولاحظت ساندرا ، التي كانت جالسة الى الجانب الآخر من الطاولة ، ان وجه زوجها يحمر فجأة ونظرته تلتمع بالحمى . فقالت بصوت منخفض :

— ماذا هناك ، ياسوني ؟

فطلب منها ، بحركة نافدة الصبر ، ان تصمت ، وانفتل ليخفي عنها وجهه:

— اانت متأكد انه حي ؟

قال فيليبس : — متأكد تماما . لقد فقد دما كثيرا ، ولكني اعتقد ان حالته ليست رديئة بمقدار مايبدو عليه .

قال سوني : — شكرا . كن هنا صباح الغد ، في الساعة الثامنة . اهلا وسهلا .

واعاد سوني السماعة . ولم يحتفظ برباطة جأشه الا بجهد كبير .كان يعرف انه نزّاع الى الغضب اكثر مما ينبغي . وكانت تلك نقطة ضعفه الكبرى . وكان يمكن لغضبه ، في تلك اللحظة بالذات ، ان يكون مشؤوما . اول شيء يعمل : الاتصال بتوم هاجن .ولكن التلفون رن قبل ان يتمكن من طلب توم . وعرف صوت متسلم الرهانات الذي اجازته « العائلة » لممارسة عمله في الحي الذي اقام فيه الدون مكتبه . وكان متسلم الرهانات هذا يتصل بسوني ليبلغه ان اباه قد صرع في الشارع وانه مات .وطرح سوني عدة اسئلة اتاحت له ان يتأكد ان المخبر لم يكن قد اقترب من جسم ابيه ، فاستنتج ان المعلومات كانت غير دقيقة ، وظل على رواية فيليبس . وعلى الاثر ، رن التلفون للمرة الثالثة . مخبر من جريدة « الديلي نيوز » . وما ان عرّف بنفسه ، حتى اغلق سوني السماعة . واستطاع اخيرا ان يتلفن الى منزل توم هاجن وطلب التحدث مع زوجته :

ــ هل عاد توم الى المنزل ؟

ــ لا .. لم يعد بعد .

ولم تكن السيدة هاجن تتوقع عودة زوجها قبل عشرين دقيقة ، ولكنها واثقة انه سيعود لتناول العشاء . قال سوني :

ــ قولي له ان يخابرني . ولا تنسي ذلك .

كان المطلوب الآن اتضاح الرؤية . وحاول سوني ان يتصور ما عساه كان يكون رد فعل ابيه في حالة كهذه . كان يعرف منذ اللحظة الاولى ان الهجوم كان مدبرا من قبل « التركي » . ولكن سولوزو ما كان يجرؤ قط على مهاجمة قائد في مثل قوة دون كورليون ، لو لم تدعمه شخصيات كبيرة . وفيما كان سوني يفكر ، قاطعه جرس التلفون . المخابرة الرابعة . وسمع سوني صوتا رقيقا جدا ، لطيفا جدا :

ــ آلو ! سانتينو كورليون ؟

ــ نعم .

ــ نحن محتجزون توم هاجن . سيطلق سراحه بعد ثلاث ساعات ، وسيحمل لك اقتراحاتنا . لا تقم بأي شيء لا يمكن تعويضه قبل ان تستمع الى ما يجب ان يقوله لك . فانت لن تفعل الا ان تفاقم الوضع . ما تم قد تم . اما الان ، فيجب ان يكون كل انسان عاقلا حكيما . لا تفقد رباطة الجأش ، هذه التي تميزك .

وكان في الصوت نبرة تهكم . ولكأنه صوت « التركي » ، ولكن سوني لم يكن واثقا من ذلك . وخشن نبرة صوته ، وقال كرجل مرهق :

ــ سأنتظر .

وسمع صوت السماعة توضع ، ونظر الى ساعته ذات السلسلة الذهبية الثقيلة ، فسجل على زاوية من الخوان الموعد الدقيق للمخابرة الاخيرة .

جلس سوني امام طاولة المطبخ ، مقطب الحاجبين ، مشدود الفكين . سألته زوجته :

ــ سوني ، ماذا هناك ؟

فأجابها بكل هدوء :
– لقد صرعوا العجوز .
واذ راى تعبير الذعر يرتسم على وجه ساندرا ، اضاف بلهجة خشنة :
– لا تقلقي . انه لم يمت . ولن يحصل لنا اي اذى .
ولم يحدثها عن هاجن . ورن الجرس للمرة الخامسة . كان المتكلم كليمنزا . وكان صوته الفظ لا يكاد يعرف ، فهو اشبه بدمدمة خشنة يقطعها اللهاث المبهور :
– سوني ، هل تعرف ان اباك . . .
قال سوني : – نعم ، ولكنه لم يمت .
وساد صمت طويل ، ثم جاء صوت كليمنزا من جديد ، يقطر تأثرا :
– ليتمجد الرب ! ليتمجد الرب ! ولكن هل انت متأكد على الاقل ؟ لقد قيل لي انه قد مات في الشارع .
– بل هو حي .
كان سوني يدرس باهتمام ادنى تثنيات صوت الرجل الضخم . كان انفعاله يبدو صادقا ، ولكن التمثيل كان جزءا من مهنته .
– انت من يتولى القيادة الان ، يا سوني . قل لي ما تريد مني ان افعل .
– تعال الى منزل ابي ، واصطحب بولي غاتو .
– هذا كل شيء ؟ الا تريد ان ارسل رجالا موثوقين الى المستشفى ، او اليك ، مثلا ؟
– لا ، انني محتاج اليك والى بولي غاتو ، هذا كل ما في الامر .
وسادت فترة صمت ، وكان كليمنزا يسجل الرسالة . وسأله سوني ليرد بعض الطبيعية الى الموقف :
– وفي الواقع ، اين تراه كان ، بولي هذا الملعون ؟ ما الذي كان يفعله ؟
عجبا ! لم يكن كليمنزا الضخم مبهورا . كان سوني يحس انه على حذر . وصرح كليمنزا بصوت واضح جلي :
– كان بولي مريضا . لقد التقط بردا ، فكان مجبرا على ان يلازم بيته . انه منحرف المزاج منذ مطلع الشتاء .
كان سوني متنبها لكل ما كان يسمعه .
– كم مرة بقي في منزله ، هذين الشهرين الاخيرين ؟
– ربما ثلاث مرات او اربع مرات . وقد سألت فريدي عدة مرات اذا كان يريد ان يأخذ فتى آخر ، ولكنه كان دائما يرفض . لم يكن ثمة سبب ، يا سوني . فمنذ عشرة اعوام ونحن نعمل بلا مخاطرات ، اليس هذا صحيحا ، يا سوني ؟
– نعم . انتظر في منزل ابي . ولا تنس خصوصا ان تصطحب بولي . مر على بيته وانت قادم . مريضا كان او غير مريض . هذا عندي سواء . مفهوم ؟
واعاد السماعة بخشونة ، من غير أن ينتظر جواب كليمنزا .
كانت ساندرا تبكي بصمت . وبعد ان راقبها سوني بضع لحظات قال بلهجة خشنة :

ـ اذا اتصل احد من جماعتنا ، قولي له ان يتلفن لي في منزل ابي ، على رقمه الخاص . اما الاخرون ، فانت لا تعرفين شيئا . واما اذا كانت زوجة توم ، فقولي لها ان توم لن يعود على الفور ، فهو مشغول .

وفكر سوني لحظة ، ثم استطرد :

ـ هناك رجلان من جماعتنا سيأتيان ليقيما هنا .

واذ راى ساندرا وقد بدت مذعورة ، قال منزعجا :

ـ لا مبرر هناك للخوف ، فانا محتاج اليهما . هذا كل ما في الامر . افعلي ما يقولان لك . واذا اردت ان تتلفني لي ، فاطلبيني على رقم ابي الخاص ، هذا اذا كان لديك شيء هام تقولينه لي ، لا تقلقي .

وغادر سوني منزله . كان الليل قد هبط ، وكانت ريح ديسمبر المثلجة تسوط اشجار الممر . لم يكن سوني يخشى المغامرة في الليل : فالبيوت الثمانية كانت تخص دون كورليون ، والبيتان الاولان القائمان تجاه الممر ، كان يستأجرهما اتباع لعائلة كورليون . ومن البيوت الستة الاخرى التي كانت تشكل نصف الدائرة ،كان احدها يسكنه توم هاجن وعائلته ، والآخر يسكنه سانتينو . اما الثلاثة الاخرى ، فكانت قد اعطيت مجانا لاصدقاء لدون كورليون كانوا قد انسحبوا من التجارة. ولكن كان من المتفق عليه ان يخلوا البيوت اذا طاب ذلك المحسن اليهم . وهكذا فان الممر المشجر الذي كان بامكان الانسان غير المطلع ان يعتبره واحة امن وبراءة ، كان في الواقع قلعة حصينة . وكانت انوار البيوت الثمانية تضيء عند الحاجة جميع الاراضي المجاورة وتجعل من المستحيل على اي انسان ان يتخفى بين اشجار الممر او في الجوار .

عبر سوني الطريق ودخل منزل ابيه بمفتاحه الخاص :

ـ ماما ، اين انت ؟

وخرجت الام من المطبخ وهي تجر خلفها رائحة فليفلة تثير الشهية . وقبل ان يتاح لها ان تنطق بكلمة ، أمسك سوني بذراعها واجلسها الى قربه :

ـ تلقيت مخابرة تلفونية . لا تقلقي . ان ابي في المستشفى ، وهو مجروح . ارتدي ثيابك واستعدي للذهاب لرؤيته . سيكون عندك سائق وسيارة بعد قليل. اتفقنا ؟

نظرت اليه كورليون الام مدة دقيقة ، ثم سألت بالايطالية :

ـ لقد ارادوا قتله ؟

فهز سوني راسه . ولم تقل شيئا ، بل حنت جبينها ولبثت لحظة جامدة ، ثم عادت الى المطبخ . وتبعها سوني . واطفأت النار تحت مقلاة الفليفلة . وحين صعدت الى غرفتها ، تناول سوني قطعتين عريضتين من الخبز من سلة موضوعة على الطاولة واعد لنفسه شطيرة بالفليفلة مروية بزيت الزيتون . وفيما كان يأكل، سقطت على اصابعه نقط كبيرة من الزيت الفاتر.. وبعد ان جدد قواه ، قصد الى الغرفة الكبيرة المثلثة التي كان ابوه يستعملها مكتبا له ، واخرج من صندوقةمزخرفة مقفلة تلفون دون كورليون الخاص . وكان تركيب هذا الجهاز موضوع احتياطات

استثنائية : فقد سُجّل تحـ تاسم وعنوان خياليين . وبدأ سوني بمخابرة لوكـا برازي ، فلم يتلق جوابا . واذ ذاك ، اتصل في بروكلين برجل النجدة تيسيو ، وهو رجل كان اخلاصه لدون كورليون فوق كل شبهة . وشرح له سوني ماكان يحدث وما كان ينتظره منه . كان على تيسيو ان يقدم له خمسين رجلا يمكن الاعتمادعليهم دون تحفظ . وسيرسل بعضهم الى المستشفى ليسهروا على دون كورليون ، بينما يأتي الآخرون للعمل في « لونغ بيتش » . وسأل تيسيو :

ــ هل أخذوا كليمنزا ايضا ؟

قال سوني : ــ لا افكر باستخدام رجاله الآن .

وفهم تيسيو فورا ، فقال بعد لحظة صمت :

ــ اعذرني يا سوني . اذا قلت لك ذلك ، فلان اباك سيقوله مثلي . لا تستعجل اكثر مما ينبغي . انني لا اكاد اصدق ان كليمنزا يمكن ان يخوننا .

قال سوني : ــ شكرا ، وانا كذلك لا اصدق ، ولكني مضطر ان افتح عيني . اليس هذا صحيحا ؟

ــ هذا صحيح .

قال سوني : ــ هناك شيء آخر . ان اخي الصغير مايك يقوم بدراسته فـي هانوفر ، بنيوها مبشاير . ابحث عنه بواسطة اصدقائنا في بوسطن ، وقل لهـم ان يصطحبوه الى هنا . هنا بالذات . اريده ان يبقى في هذا البيتالى ان تكونالعاصفة قد مرت . سأخبره بذلك بالتلفون . ربما كنت ادقق في النوافل ، ولكن الانسـان لا يخسر شيئا بالمزيد من الحذر .

قال تيسيو : ــ اتفقنا . سأدير محرك الآلة واوافيك الى منزل ابيك . انـت تعرف رجالي ، اليس كذلك ياسوني ؟

قال سوني : ــ نعم .

وأعاد السماعة ، ثم اتجه الى صندق صغير مقفل في جدار ، ففتحهواخرج منه مفكرة مغلفة بجلد ازرق . وعند الحرف « ت » مثل تلفون ، وجد ما كان يبحث عنه : « راي فاريل ، ٥٠٠٠ دولار . عيد الميلاد . » وكان يتبع ذلك رقم تلفون . ورفع سوني السماعة :

ــ الو ، فاريل ؟

ــ هو بنفسه .

ــ هنا سانتينو كورليون . يجب ان تؤدي لي خدمة . ولكن على الفور . فالامر عاجل . راقب خطوط المشتركين الاثنين واخبرني عن جميع المخابرات التي قاما بها او تلقياها في الاشهر الثلاثة الاخيرة . (واعطى لفاريل رقمي بولي غاتو وكليمنزا) هذا مهم جدا . اتصل بي قبل منتصف الليل ، وسوف تتدلل بمناسبة عيد الميلاد.

وقبل ان يستأنف تأملاته ، اتصل سوني مرة اخرى بلوكا برازي . عبثا . وكان هذا الغياب المتطاول يزعجه ، ولكنه جهد الا يفكر فيه بعد ، كان يعرف ان لوكا سيأتي لمقابلته بمجرد ان يعرف النبأ . وجلس سوني على كرسي دوار ، امام مكتب أبيه ، فانقلب الى الخلف وتمطى . بعد ساعة ، سيملأ موظفو « العائلة » المنزل ،

وسيكون على سوني ان يدل كل شخص على ما ينبغي عملـه . واتاحت لـه لحظات التفكير القليلة التي استطاع اخيرا ان يحصل عليها ان يتحقق من خطورة الموقف كلها. للمرة الاولى منذ عشرة اعوام ، كان ثمة من يجرؤ على تحدي سلطة عائلة كورليون. كان سولوزو روح المؤامرة ، فذلك واضح ، ولكنه ما كان يجازف بمحاولة القيـام بمثل هذا العمل الجريء لو لم تكن تسانده واحدة على الاقل من عائلات نيويورك الخمس . وكان سوني واثقا انها كانت عائلة تاتاغليا . ولم يكن للمسألة الا مخرجان: حرب ابادة او اتفاق مباشر بشروط سولوزو . وبسم سوني بسمة ضارية . كـان « التركي » خبيثا ، وكان قد قاد لعبته ببراعة ، ولكنه لم يكن محظوظا : فقد كـان العجوز على قيد الحياة، واذن ، فانها الحرب . ولكن عائلة كورليون ، بما كانت تتمتع به من موارد ، وخصوصا مع لوكا برازي ، كانت لا تقهر . وكان سوني يجد نفسه ، بواسطة درب منحرف ،امام السؤال المغيظ نفسه : اين تراه كان لوكا برازي ؟

٣

كان في السيارة التي تقل توم هاجن اربعة رجال بمن فيهم السائق . وكان توم قد اجلس على المقعد الخلفي بين الشخصين اللذين كانا قد انبثقا خلفه في الشارع ، بعد ان حاذاه سولوزو . وكان « التركي » جالسا في المقدمة ، الى جانب السائق . ومد الرجل الذي كان الى يمين هاجن ، ذراعه ففرز قبعته فوق عينيه ليمنعه ان يرى اين كانوا يأخذونه ، وقال له :

ـ لا تجرب ان تحرك اصبعك . مفهوم ؟

كانت الرحلة قصيرة . عشرين دقيقة تقريبا . وحين ترجل هاجن من السيارة، لم يتعرف الحي : كان الليل قد هبط تماما . واقتيد الى مسكن سردابي ،واجلس على كرسي مطبخ قاسي المسند . وجلس سولوزو تجاهه ، الى الجانب المقابل من الطاولة . وكان وجهه المسمرّ يذكر تذكيرا فريدا بسحنة النسر . وقال لاسيره :

ـ لا تخف ، يا هاجن . اعرف انك لست واحدا من قادة « العائلة » . وكل ما اطلبه منك ان تؤدي خدمة لآل كورليون ـ ولي ايضا بالمناسبة نفسها .

وحمل هاجن سيكارته الى شفتيه بشكل اخرق : كانت يداه ترتجفان ، ووضع احد القرود على الطاولة زجاجة ويسكي وصب له منها جرعة في فنجان قهوة. فشرب هاجن المائع المحرق بهيئة عرفان ، وكفت يداه عن الارتعاش وتلاشى الضعف الذي كان يميع عضلاته .

قال سولوزو : ـ لقد مات معلمك .

وتوقف لحظة وقد ادهشه ان يرى عيني توم هاجن تمتلئان بالدموع ، ثم استطرد :

ـ لقد حصل ذلك امام مكتبه ، في الشارع ، وما ان اخبرت بذلك ، حتى اوقفتك . انني اعتمد عليك لعقد السلام مع سوني .

لم يجب هاجن . كان حزنه طاغيا عليه . وكان يمتزج بالاسى الذي يشعر به الخوف من الموت . واستانف سولوزو يقول :

ـ كان سوني مسحورا باقتراحي . صحيح ؟ وانت ايضا تعرف انها تجارة رابحة . المخدر هو المستقبل . ففيه مجال للربح من السعة بحيث ان اي شخص يستطيع ان يجمع منه ثروة في عامين فقط . كان الدون عجوزا متخلفا ، ولم يكن يدرك ذلك . وقد مات الآن ، ولن يبعثه شيء . وانا مستعد للتفاهم مع سوني . ساعدني . وانصحه . هذا عملك .

قال هاجن : ـ ليس هناك اي امل . ان سوني لن يتركك . ولن يوقفه شيء.

قال سولوزو مفتاظا : ــ هـذا رد فعله الاول . فعليك انت ان تعيده الـى الصواب . ان ورائي عائلة تاتاغليا بكاملها . وباقي عائلات نيويورك ستقبل كل شيء لتتجنب حربا مكشوفة بيننا . ان اي نزاع يقوم يضر بمصالحها وبأشخاصها . فاذا قبل سوني التسوية ، فان سائر عائـلات البلد ، بما فيها اقدم اصـدقاء الدون، ستعتبر ذلك وكأنه لا يعنيها .

نظر هاجن الى يديه من غير ان يجيب . وتابع سولوزو بلهجة تسعى الى الاقناع:

ــ كان الدون على المنحدر . لو كنا في زمن ماض لما تمكنت من الانتصار عليه. كانت العائلات الاخرى تحذره لانه اتخذك مستشاره ، وانت لست حتى ايطاليا واقل من ذلك صقليا . فاذا افضينا الى حرب كلية ، فان عائلة كورليون ستباد ويخسر الجميع ، وانا منهم . ولذلك ، تحدث الى سوني ، وتحدث الى القادة . لنتجنب المذبحـة .

مدّ هاجن فنجان البورسلين طالبا ويسكي وهو يقول :

ــ سأحاول . ولكن سوني عنيد . وحتى هو سيكون عاجزا عن ثني لوكا عن عزمه . احذر لوكا . انه سيقلقني اذا ساندت عرضك .

قال سولوزو بهدوء : ــ سأهتم بلوكا . اهتم انت بسوني والابنين الآخرين . اسمع . قل لهم ان فريدي كان بالامكان ان ينال اليوم نصيبه مع العجوز لو لم يتلق رجالي امرا صارما بتوفيره . لم اكن اريد ايقاظ ما لا ضرورة له من الحقد . قل لهم ان فريدي على قيد الحياة بفضلي انا .

كان هاجن يسترد اخيرا قواه . وللمرة الاولى فكر بان سوني لم يكن ينوي حقا ان يقتله ولا ان يحتفظ به رهينة . واحمر وجهه خجلا من شعوره بالعزاء الذي كان يغمر جسمه المحرر من الخوف . وراقبه سولوزو ببسمة متفهمة . وبدأ هاجن يفكر . اذا لم يقبل مساندة نظرية سولوزو ، فانه يجازف بحياته . وكان سولوزو يريـد ان يقدم عرضه بشكل مقنع ، كما يطلب منه ان يفعل بصفته مستشارا . وعندالتفكير، كان يدرك كذلك ان سولوزو كان على حق . يجب تفادي حرب غير محدودة بيـن آل تاتاغاليا وآل كورليون بأي ثمن . وعلى آل كورليون ان يدفنوا ميتهم وينسوا ويعقدوا ميثاقا . وسوف يصفون حساب سولوزو في الوقت المناسب .

رفع هاجن راسه ففهم ان سولوزو كان يحزر تماما افكاره .

كان التركي يبتسم . وفجاة عرضت لهاجن فكرة . ماذا حدث للوكا برازي حتى يظهر سولوزو هذا القدر الضئيل من القلق ؟ ايكون لوكا قد عقد معه صفقة ؟وتذكر هاجن ان لوكا ، في مساء اليوم الذي ابلغ فيه دون كورليون سولوزو رفضـه ، استدعي الى المكتب لمقابلة خاصة مع الدون . ولكن لم تكن تلك باللحظة المناسبـة للانشغال بمثل هذه التفاصيل . كان علـى هاجن اولا ان يعود الى امن الحصن العائلي لآل كورليون في لونغ بيتش .

قال لسولوزو : ــ اعتقد انك على حق . بل ان هذا ماكان الدون يريدنا ان نفعله لو كان حيا .

فهز سولوزو راسه بهيئة جادة ، وقال :

ـ حسنا ، انني لا احب اراقة الدماء . انا رجل اعمال ، والدم يكلف اغلى مما يجب .

ورن جرس التلفون تلك اللحظة ، فذهب احد الرجلين الجالسين خلف هاجن لكي يرد ، فقال بمجاملة بعد ان أصغى : « حسنا . سأبلغه ذلك . » واعادالسماعة، ثم اتجه الى سولوزو وهمس بضع كلمات في اذن « التركي » . ورأى هاجن وجه سولوزو يصفر وعينيه تلتمعان بالغضب . واحس هو نفسه برعشة ذعر . كان سولوزو ينظر اليه بهيئة تفكر ، وقد فهم هاجن فجأة انه لن يسترد حريته ،وأن حادثا صغيرا غير متوقع ربما كان يعني قرار موته . وتمتم سولوزو :

ـ لا يزال العجوز على قيد الحياة . خمس رصاصات في جلده الصقلي ، وما زال يعيش .

وهز كتفيه هزة استسلام للقدر ، وقال لهاجن :

ـ لا حظ ، لا حظ لي ، ولا حظ لك .

٤

جين وصل ميخائيل كورليون امام بيت ابيه ، في اونغ بيتش ، وجد مدخل المر الضيق مسدودا بسلسلة . كان المر المشجر نفسه مضاء بفيض من الانوار التي كانت البيوت الثمانية تشعها ، وكان ثمة عشر سيارات على الاقل متوقفة عندحاشية المنتزه المملط .

وكان ثمة رجلان لا يعرفهما ميخائيل مستندين الى السلسلة ؛ فساله احدهما بلهجة بروكلين :

ـ من انت ؟

فقال لهما اسمه . وانبثق من اقرب البيوت رجل اخذ يتفحص وجهه ،ثم قال:

ـ انه ابن الدون .

وتبع مايك دليله حتى بيت ابيه حيث فتح له باب الدخول رجلان يقومان بالحراسة .

وبدا له البيت غاصا بالمجهولين حتى دلف الى قاعة الجلوس . وهناك ،تعرف ميخائيل زوجة توم هاجن ، تيريزا ، جالسة متصلبة على الديوان ، تدخن سيكارة. وكان موضوعا على الطاولة المنخفضة امامها قدح ويسكي . وعلى الطرف الآخر من الصوفا كان جالسا كليمنزا المربك . كان وجه الرجل جامدا ، ولكنه كان يرشح عرقا ، وكان السيكار الذي يمسكه بيده يلتمع ، دبقا باللعاب .

واقبل كليمنزا يصافح ميخائيل على سبيل التعزية ، وتمتم :

ـ امك في المستشفى ، قرب ابيك . ستجري الامور على ما يرام .

ونهض بولي غاتو بدوره ، فنظر اليه ميخائيل بفضول . كان يعرف ان بولي كان حارس ابيه الخاص ، ولكنه كان يجهل ان بولي كان مريضا ذلك اليوم فبقي في المنزل ، على انه لاحظ كم كان متشنجا ذلك الوجه الهزيل الداكن . كان يعرف شهرة غاتو المعاون اليقظ السريع الحركة القادر على تنفيذ مهمات دقيقة من غير صعوبات . في ذلك اليوم ، كان قد عجز عن القيام بواجبه ، ولاحظ ميخائيل عدة رجال آخرين في زوايا الغرفة ولكنه لم يعرفهم . لم يكونوا تابعين لقيادة كليمنزا . وربط ميخائيل بين الواقعتين ففهم : كان كليمنزا وغاتو مشبوهين ، وظنا منه بان بولي كان قد حضر الحادثة ، سأل الشاب ذا الوجه النمسي :

ـ كيف حال فريدي ؟ جيد؟

فأجاب كليمنزا : ـ اعطاه الطبيب حقنة . انه ينام .

واقترب ميخائيل من زوجة هاجن فانحنى ليقبل وجنتها . كان كل منهما يكن

المحبة للاخر منذ وقت بعيد . وتمتم :
ـ لا تقلقي ،سيحل كل شيء بالنسبة لتوم . هل تحدثت مع سوني ؟
تعلقت به تيريزا لحظة ، ثم هزت راسها . كانت امرأة ناعمة وجميلة ،اميركية اكثر منها ايطالية ، وكانت مذعورة جدا . وقد اخذ بيدها وجذبها اليه . ثم رافقها الى مكتب ابيه .

كان سوني جالسا على الاريكة ، خلف المكتب ، ممسكا بدفتر اصفر بيد ،وبقلم باليد الاخرى ، اما الرجل الوحيد الآخر الحاضر في الغرفة فكان تيسيو . وعرفه ميخائيل ففهم على التو ان الرجال الحاضرين في المنزل كانوا اتباع تيسيو ، وكانوا يشكلون حرس القصر الجدد . وكان تيسيو ، هو ايضا يمسك قلما ودفترا .
حين لمح سوني القادمين الجديدين ، ترك مكتبه متقدما اليهما ، وضم زوجة هاجن بين ذراعيه ، وهو يقول :
ـ لا تقلقي ، تيريزا ، توم لم يصب بأذى. يريدون ببساطة ان يكلفوه بالمفاوضة. وقد قالوا انهم سيطلقون سراحه . انه لا يقبض على زمام الامور ، فليس هو الا مستشارنا القانوني . وليس ثمة ما يبرر الحاق الاذى به .
وترك سوني تيريزا . وعجب ميخائيل ان يلاحظ انه كان يحق له هو ايضا ضمة وقبلة على الخد . ودفع سوني ، ثم ساله باسما :
ـ الآن وقد تعودت على الهزيمة في معاركي معك ، ايجب ان اقتنع بذلك ؟
والواقع ان الاخوين كانا قد تنازعا وتضاربا كثيرا حين كانا اصغر سنا .
هز سوني كتفيه وقال :
ـ اسمع ، أيها السوقي . كنت قد بدات أقلق عليك . لاحظ انهم لو سلخوا جلدك لما صنعت من ذلك مشكلة ، ولكن فكرة اخبار الام العجوز بذلك لم تكن تروق لي . كان علي ان ابلغها خبر الاب .
سال ميخائيل : ـ كيف تلقت ذلك ؟
قال سوني : ـ لا بأس . كانت قد رات آخرين . وانا كذلك . كنت انت اصغر سنا من ان تستطيع التذكر ، وقد اصبحت الامور سهلة جدا بينما كنت تكبر. (وتوقف لحظة ثم استانف) لقد ذهبت الماما الى المستشفى بالقرب من العجوز .انه سينجو من الموت .
وساله ميخائيل : ـ وما قولك ان نذهب اليه نحن ايضا ؟
فهز سوني رأسه نفيا وقال بجفاء :
ـ لا استطيع ان اترك هذا البيت قبل ان ينتهي كل شيء .
ورن التلفون ، فاخذ سوني السماعة واصغى بتنبه . وفي هذه الاثناء،اقترب ميخائيل من المكتب ورمى نظرة على مفكرة جوني الصفراء . كان قد كتب عليها سبعة اسماء . كانت الثلاثة الاولى هي سولوزو وفيليبس وجون تاتاغليا . واقتنع ميخائيل انه كان قد قطع على سوني وتيسيو عملهما بينما كانا يضعان لائحة الرجال الواجب قتلهم .
وبينما كان سوني يعيد السماعة ، قال لتيريزا هاجن ولميخائيل :

ـ اخرجا ، انتما الاثنين . ان عندي مسالة انجزها مع تيسيو .
سألت المراة الشابة ، بصوت كان وحشيا تقريبا ، ولكنها كانت تبكي خوفا :
ـ أكانت تلك المخابرة بصدد توم ؟
امرّ سوني ذراعه حول كتفي تيريزا واصطحبها حتى الباب وهويقول:
ـ اقسم لك ان كل شيء سيسير على ما يرام بالنسبة لتوم . انتظري في غرفة الاستقبال . سأجيئك بمجرد ان اعرف شيئا .
واغلق الباب خلفها . وكان ميخائيل قد اقتعد كرسيا جلديا كبيرا ، فرماه سوني بنظرة حادة وسريعة ، ثم عاد الى مكانه خلف المكتب ، وقال :
ـ اذا بقيت هنا ، يامايك ، فستسمع أشياء لن تروق لك .
اشعل ميخائيل سيكارة ، وقال :
ـ استطيع على الاقل ان اساعدكم .
فرد سوني :ـ لا ، لا تستطيع . سينتاب العجوز غضب جهنمي اذا ورطتك في هذا كله .
فصاح ميخائيل وهو ينهض :
ـ انه ابي ، اليس كذلك ؟ ان لي رأيا في الوضع . فلا تعتبرني كلة . انني لن اتكفل شخصيا بالتنفيذ، ولكنني قادر على ان اكون مفيدا . انا لست طفلا. لقد اشتركت في الحرب ، وقد جرحت . وقتلت عددا لا بأس به من اليابانيين ،ولن يغمى عليّ لمجرد رؤية الدم .
ابتسم له سوني :
ـ سوف تسطو عليّ في وقت قصير ، ياعزيزي . حسنا ! ابق هنا ان شئت، واهتم بالتلفون .
والتفت الى تيسيو :
ـ المخابرة التي تلقيتها اعطتني المعلومات التي كنا بحاجة اليها .
والتفت الى ميخائيل :
ـ لا شك في ان احدا قد خان الشيخ العجوز ... كليمنزا اوبول غاتو . وقد اتفق ان السيد غاتو مريض اليوم . بعد اليوم ، سأعرف من ذا الذي باع الدون . لنر ان كنت ذكيا ، انت الجامعي ، يامايك . من ذا الذي باع نفسه لسولوزو ؟
عاد ميخائيل الى الجلوس واستغرق في مقعده الجلدي . ووزن كل حجة بعناية ، كان كليمنزا رئيس فرقة في تنظيم « العائلة » ، وكان دون كورليون قد جعله مليونيرا ، وكانا صديقين حميمين منذ عشرين سنة . كان كليمنزا يشرف على مزكز من اهم مراكز التنظيم ، فما عساه يربح بخيانة الدون ؟ مزيدا من المال ؟ كان غنيا بما فيه الكفاية ، ولكن الناس جشعون دائما . مزيدا من السلطة ؟ الرغبة في الانتقام من اهانة خيالية ؟ ام تراه الحسد من رؤية هاجن وقد عين مستشارا ؟ ام اعتقاده كرجل اعمال بان سولوزو هو الذي سينتصر ؟ لا ، من المستحيل ان يكون كليمنزا خائنا . ثم فكر ميخائيل حزينا بانه كان يستسلم دون شك لتعاطفه مع رئيس الفرقة ولم يكن يريد ان يموت كليمنزا . كان صديق ابيه ذلك القديم قد

حمل له دائما هدايا صغيرة في حداثته ، واخرجه في النزهات ، حين كان ابوه مشغولا . ولم يكن ميخائيل يستطيع التصديق بان كليمنزا مذنب بالخيانة .

ولكن ، من جهة اخرى ، كان سولوزو يتمنى بالتأكيد ان يضع كليمنزا في جيبه اكثر من اي عضو آخر من قبيلة كورليون .

وفكر ميخائيل ببولي غاتو . لم يكن بولي غنيا بعد . صحيح انه كان ميسورا، ولكن ترقيه في التنظيم سيستغرق سنوات ، كسائر الاخرين . كان يحلم على الارجح بأحلام سلطة سخيفة ، شأنه في ذلك شأن كثير من الشبان . وكان ميخائيل يوشك ان يدينه حين تذكر انه كان هو وبولي في السنة النهائية في الصف نفسه ، ولم يكن يريد ان يرصد بولي كذلك للموت .

وهز راسه ،وتمتم :

ــ لا هذا ، ولا ذاك .

قال ذلك لا لشيء الا لان سوني كان قد استبق القول انه كان يملك الجواب. ولو كان عليه ان يختار ، لاختار بولي مذنبا . وكان سوني يبسم له ، ثم قال :

ــ لا تقلق . لاغبار على كليمنزا . انه بولي .

وادرك ميخائيل ان تيسيو كان مرتاحا . فبصفته زميلا ارئيس الفرقة ، كان تعاطفه يتجه نحو كليمنزا . ومن جهة اخرى ، فقد كان الوضع الحالي يكون اقل كارثية لو لم تحدث الخيانة الا على مستوى ثانوي ، وسال تيسيو بحذر :

ــ أستطيع اذن ان اصرف رجالي الى منازلهم صباح الغد ؟

فاجاب سوني :ــ بل بعد غد . وحتى ذلك الحين ، لا نفش شيئا . اسمع . اريد ان احدث اخي بشؤون العائلة . انتظرني في غرفة الاستقبال . اتفقنا ؟ سننجز اللائحة فيما بعد . وستعمل فيها مع كليمنزا .

قال تيسيو مبتسما :ــ بكل تاكيد .

سال ميخائيل :ــ كيف تعرف باليقين انه بولي ؟

ــ ان لنا اتباعا في المقسم التلفوني . وقد سجلوا جميع المخابرات التي قام بها بولي او تلقاها . وكذلك مخابرات كليمنزا . ففي الايام الثلاثة التي كان فيها بولي مريضا هذا الشهر ، تلقى مخابرة تلفونية من غرفة عمومية تقوم تجاه مبنى العجوز. وكان الآخرون يتحققون اذا كان بولي في الخدمة او ان احدا كان يحل محله . ربما كان لهم سبب اخر . الامر سيان . (وهز سوني كتفيه) حمدا لله انه كان بولي . سنكون بحاجة ماسة الى كليمنزا .

وسال ميخائيل في تردد :ــ انها الحرب الشاملة اذن ؟

كان في عيني سوني بريق قاس :

ــ تماما ، واعتقد انني ساخوضها . بمجرد وصول توم الى هنا . الى ان يقول ابي العجوز ان اتصرف بشكل آخر .

سال ميخائيل :ــ لماذا لا تنتظر اذن ان يصبح العجوز في حالة تمكنه من ان يقولها لك ؟

تأمله سوني بفضول :ــ كيف تراك بحق الشيطان قد ربحت مداليالك الثناء

الحرب ؟ نحن على خط النار ياعزيزي . فلا بد من القتال . كل ما اخشاه الا يطلقوا سراح توم .

فبدت الدهشة على وجه ميخائيل : ــ ولماذا ؟

استطرد سوني بصبر :

ــ لقد خطفوا توم لانهم كانوا يعتقدون انهم قضوا على العجوز ، وكانوا يأملون في عقد صفقة معي . كانوا سيناقشون اوليات الاتفاق مع توم الذي كـان سينقل اليّ عروضهم . ولكن العجوز بقي على قيد الحياة ، وهم يعرفون انهم لن يحصلوا مني على شيء ، ولن يفيدهم توم في شيء بعد . فبامكانهم ان يطلقوا سراحــه او يتخلصوا منه ، وفق مزاج سولوز . فاذا صفّاه ، فسيكون ذلك لاخافتنا .

سأل ميخائيل بهدوء :ــ ما الذي حمل سولوزو على التفكير ان بامكانه التفاوض معـك ؟

فاحمر وجه سوني ولم يجب على الفور . ثم قال شارحا :

ــ لقد تناقشنا منذ فترة . لقد جاء سولوزو يعرض علينا الاتجار بالمخدرات. ورفض العجوز . ولكن في اثناء الاجتماع لم اضبط لساني ، ففهم سولوزو ان عرضه كان يروق لي . هذا تماما ما كان ينبغي الا افعله . ومع ذلك فان العجوز كان قد غرز في راسي انه يجب الا نترك المجال ابدا للاخرين ان يحزروا اختلاف الاراء الممكن حدوثه في قلب « العائلة » ... والآن ، ها هي الصورة التي يتمثل بهـا سولوزو الوضع . انه اذا تخلص من العجوز فسوف يتشارك معي في تجـارة المخدرات ، لان سلطة العائلة ، من غير الدون ، ستنقص الى النصف وسأكافـح آنذاك عبثا للابقاء على اعمال العجوز التجارية . المخدرات هي المستقبل .وسنكون مجبرين على الوصول الى ذلك . وقتل العجوز ، في راي سولوزو ، انما هو مرتبط بالاعمال التجارية ، وليس له اي طابع عاطفي . واذن ، فسوف اتشارك معسولوزو في الاعمال التجارية . انه بالطبع لن يترك لي ابدا أن اتغلب عليه ، ولكنه يعـرف، من جهة اخرى ، انني حين اقبل الصفقة ، فان العائلات الاخرى لن تدعني ابدا ابدا الحرب لا لشيء الا للانتقام ، حتى ولو بعد عامين . ثم ان عائلة تاتاغليا تدعمه .

سأله ميخائيل : ــ لو نجحوا في القضاء على العجوز ، ما عساك كنت تفعل؟

ــ لو نجحوا لكان سولوزو الان كتلة من لحم ميت . لا يهمني ما سيكلف ذلك. لا يهمني ان يكون عليّ ان احارب عائلات نيويورك الخمس .ان افراد عائلة تاتاغليا سيكنسون . ولا يهمني ان نقتل جميعا .

قال ميخائيل بهدوء :ــ ما كان ابي ليعالج الموضوع على هذا النحو .

فقال سوني بحركة عنيفة :

ــ اعرف انني لست ما كانه . ولكني سأقول لك شيئا وسيقوله لك ايضا . انني في العمل ، اناور كما يناور احسن الناس ، وحتى جسما لجسم.ان سولوزو يعرف ذلك ، مثلمـا يعرفه كليمنزا او تيسيو . لقد تدربت على السلاح في التاسعة عشرة ، في اثناء عام ١٩٣٣ ، وقد ساعدت العجوز كثيرا . انني اذن لا أوخذ على غرة . ان عائلاتنا تملك جميع الحظوظ في عملية كهذه . اود فقط لو استطيـع

الاتصال بلوكا .

سأل ميخائيل مندهشا : ــ ايكون لوكا هذا قويا الى هذا الحد ؟ فعالا الى هذا الحد ؟

فأومأ سوني برأسه ايجابا : ــ انه وحده يساوي فريقا . سأكلفه بأفراد عائلة تاتاغليا الثلاثة . وساصرع سولوزو بنفسي .

تحرك ميخائيل على مقعده منزعجا ، وراقب اخاه الاكبر . كان يتذكر سوني وحشيا بالمصادفة ، ولكنه في جوهره كريم طيب . فتى لطيف . وان يسمعه يتحدث على هذا النحو ، فذلك ما لم يكن يصدقه ، وما كان يشعره بالقشعريرة . ولائحة الاسماء التي كان قد خربشها ، لائحة الرجال الواجب قتلهم ، كانت ترعشه . وكان ميخائيل سعيدا الا يشارك مباشرة في هذه المذبحة ، الا يجد نفسه متورطا في هذا الثأر مادام ابوه على قيد الحياة . سيقدم مساعدته ، ويرد على التلفون ، ويحمل رسائل . كان سوني والعجوز قادرين على العناية بشخصهما ولا سيما ولوكا خلفهما.

في هذه اللحظة،سمعا امراةتصرخ في غرفةالاستقبال المجاورة . وفكر ميخائيل توم : يا الهي ! لكأنها امراة توم . واندفع الى الباب ففتحه . كان الجميع في الغرفة وقوفا . وقريبا من الديوان ، كان توم هاجن يضم تيريزا ، مرتبك الهيئة . وكانت المراة الشابة تبكي منتحبة ، وفهم ميخائيل ان الصرخة التي سمعها كانت صرخة تيريزا المجنونة من الفرح وهي تنطق باسم زوجها . وفيما كان ينظر اليهما ،تخلص توم هاجن من ذراعي زوجته ، ثم مددها على الديوان . ووجه الى ميخائيل بسمة قاسية :

ــ سعيد ان اراك يا ميخائيل ، سعيد حقا .

ثم توجه نحو المكتب من غير ان يلوي على زوجته .

وفكر ميخائيل بفيض من الفخر : ان توم لم يعش عشرة اعوام في عائلة كورليون من اجل لا شيء . وعلى مر الايام ، كان الرجل العجوز قد ترك طابعه على توم ، كما تركه على سوني وحتى (وفكر ميخائيل بدهشة) عليه هو نفسه .

٥

كانت الساعة تقارب الرابعة صباحا . وكانوا جميعا جالسين في المكتب :سوني وميخائيل وتوم هاجن وكليمنزا وتيسيو . وكانوا قد اقنعوا تيريزا هاجن بالعودة الى منزلها : البيت المجاور . وكان بولي غاتو ما يزال ينتظر في قاعة الاستقبال. كان يجهل ان رجال تيسيو كانوا قد تلقوا الامر بمراقبته وبمنعه من الخروج بصورة خاصة .

كان توم هاجن ينقل عرض سولوزو . واوضح ان سولوزو بعد ان علم بان الدون كان ما يزال على قيد الحياة عزم وبكل تأكيد على قتله . وقال وهو يبتسم :

ـ اذا كان عليّ أن اترافع ذات يوم امام المحكمة العليا ، فلن اترافع خيرا مما فعلت ذلك المساء امام هذا التركي القذر . قلت له انني سأقنع « العائلة » بقبول الصفقة بالرغم من ان الدون كان ما يزال حيا . وقلت له ان بامكاني ان أقلبك، يا سوني ، كما اقلب فطيرة ، واننا كنا رفيقي طفولة . واوحيت اليه ، ولا تغضب مني ، انك لن تأسف كثيرا ان ترث اعمال ابيك ، عفا الله عني .

وبسم بسمة اعتذارمن سوني الذي اتى بحركة تعني انه كان يفهم وان ذلك كان بغير اهمية .

وكان ميخائيل منقلبا في مقعده ، والتلفون في متناول يده ، يدرس الرجلين، حين دخل هاجن الى المكتب ، سارع سوني يعانقه ، ففهم ميخائيل ، بنعرة من حسد، ان سوني وهاجن كانا من عدة نواح اشد تقاربا فيما بينهما مما كان هو او سيكون يوما من اخيه بالذات .

قال سوني : ــ الى العمل . لنعدّ خطة للحملة . ألق نظرة على اللائحة التي وضعتها انا وتيسيو . وانت ياتيسيو ، اعط ورقتك لكليمنزا .

قال ميخائيل : ــ ليتنا نضع خططا . كان الواجب ان يحضر فريدي .

فصرح سوني بقسوة : ــ فريدي لا يفيدنا في شيء . ان الطبيب يصرح بان الصدمة من القوة بحيث ينبغي للفتى ان يلتزم الراحة التامة . انني لا افهم ذلك . كان فريدي نتى صلبا دائما . وافترض ان رؤيته العجوز منطرحا ارضا احدث لديه صدمة لا تحتمل . كان الدون ربه ابدا . انه لا يشبهنا ، لا انت ولا انا ، يامايك.

قال هاجن بحيوية :ــ حسنا . لا نهتم بفريدي . لندعه خارج كل شيء . والآن، اعتقد ان عليك يا سوني ان تلزم البيت حتى ينتهي الامر ، اقصد انه يتوجب عليك الا تخرج ابدا : انك هنا في امان . لا تستضعف سولوزو . هو حريص على ان يصبح زعيما . هل المستشفى تحت الحماية ؟

فأومأ سوني براسه ايجابا :

ــ لقد احاط به رجال الشرطة من كل جانب ، وعندي رجال يسهرون على ابي ليل نهار . ما رأيك بهذه اللائحة ، ياتوم ؟

قطب هاجن حاجبيه وهو ينظر الى الاسماء :

ــ يا الهي ! انك تجعل من المسألة ، ياسوني ، قضية اشخاص . ان الدون لن يرى في هذا كله الا صراعا حول الاعمال التجارية . وسولوزو هو مفتاح ذلك . تخلص من هذا التركي فينهار كل شيء . ليس لك ان تهاجم آل تاتاغليا .

نظر سوني الى رئيسي الفرقتين . فهز تيسيو كتفيه وقال :

ــ هذا بارع !

ولم يجب كليمنزا ، فتوجه اليه سوني قائلا :

ــ هناك مسألة يجب تصفيتها قبل كل شيء وبلا مناقشة . لا اريد ان ارى بولي بعد . ضعه في رأس اللائحة .

فوافق رئيس الفرقة الضخم . وسأل هاجن :

ــ ولوكا ؟ لم يكن سولوزو يبدو قلقا بشأن لوكا . ان هذا يقلقني . اذا كان لوكا قد باعنا ، فنحن في ورطة كبيرة . هذا اول شيء يجب ان نعرفه . هل نجح احد في الاتصال به ؟

أجاب سوني : ــ لا . لقد خابرته طوال الليل . ربما كان عند مومس .

قال هاجن : لا . انه لا ينام خارج منزله ابدا . حاول يامايك ان تطلبه حتى تحصل على جواب .

فأخذ ميخائيل التلفون ، بوداعة ، وركب الرقم ، فسمع الجرس ولكن لم يجب احد . والح هاجن :

ــ تابع كل ربع ساعة .

واستطرد سوني يقول بنفاد صبر :

ــ حسنا . انت المستشار ، يا توم . فأية نصيحة تعطينا اياها ؟ ما يتوجب علينا ان نفعل ؟

تناول هاجن زجاجة الويسكي على المكتب وصب لنفسه قدحا ، ثم قال :

ــ نتفاوض مع سولوزو ريثما يسترد ابوك صحته فيتسلم الزمام من جديد . بل نعقد معه صفقة أذا لزم الامر . وما ان يخرج ابوك من السرير ، حتى يصفي كل شيء ، وجميع العائلات ستتبعه .

وسأله سوني بخشونة :

ــ اتعتقد انني لا أساوي سولوزو في الوزن ؟

نظر اليه توم هاجن محدقا في عينيه :

ــ تستطيع يا سوني بكل تأكيد ان تنتصر عليه . ان لعائلة كورليون السلطة . ان عندك هنا كليمنزا وتيسيو وباستطاعتهما ان يجمعا زهاء الف رجل اذا قمنا بالحرب الجدية . ولكنها ستكون مجزرة على طوال الشاطىء الاطنطي ، وستنقم العائلات الاخرى على آل كورليون . سنواجه مصاعب هائلة . وهذا ما حاذره

ابوك دائما .

وفكرميخائيل فيما هو يتأمل سوني انه كان يقبل التناقض عن رضى . واستطرد سوني متوجها الى هاجن .

ـ ولكن لنفرض ان العجوز مات ، فما هي نصيحتك ، يا مستشار ؟

اجاب هاجن بهدوء : ـ اعرف انك لن تعمل بها ، ولكني انصحك ان تعقد اتفاقا حقيقيا مع سولوزو بشأن المخدرات . لولا اتصالات ابيك السياسية ونفوذه الشخصي ، لفقدت عائلة كورليون نصف سلطتها . ولولا ابوك ، لامكن عائلات نيويورك الاخرى ان تتجمع وتساند آل تاتاغليا وسولوزو ، لا لشيء ، الا لتتجنب حربا طويلة تضر الجميع . اذا مات ابوك ، اقبل الصفقة . ثم دع الامور تجري في اعنتها .

كان وجه سوني ممتقعا من الغضب :

ـ هذا كلام سهل . فليس اباك من ارادوا قتله .

فرد هاجن بسرعة وازدهاء :

ـ كنت له ابنا صالحا مثلك ومثل مايك . وانا اعطيك راي محترف خبير . انا شخصيا لا اريد الا ذبح هؤلاء الرعاع .

واحس سوني بالسعادة للتاثر الذي كان يرعش صوت توم ، فقال :

ـ اوه ، يا الهي . لم اكن اقصد الى هذا .

ولكن ذلك حقا ما كان قد قاله : ان الدم النقي لا يستطيع ان يكذب ، ولم يكن ثمة شيء يساوي صوت الدم . وفكر سوني بضع لحظات ، بينما كان الآخرون ينتظرون في صمت ثقيل . ثم تنهد قائلا :

ـ حسنا ، سنلتزم الهدوء الى ان يعطينا العجوز الضوء الاخضر . ولكني، ياتوم ، لا اريدك انت ايضا ان تترك هذا المر المشجر . لا تجازف اية مجازفة . وانت، يا مايك ، كن حذرا . على اني لا اعتقد ان سولوزو نفسه سيحاول ايذاءك ، لا لشيء الا لانك من اسرة كورليون . فايذاء الذين لا يشاركون في اعمال العائلة سيجلب عليه نقمة الجميع . ولكن كن حذرا . وانت ياتيسيو ، ابق رجالك في الاحتياط ، ولكن ليظلوا على رصدهم في كل مكان من المدينة . واما انت يا كليمنزا، فبعد ان تصفي مسالة بولي غاتو ، تدخل رجالك الى البيوت والى المر المشجر ليحلوا محل رجال تيسيو . وتبقى رجالك انت ياتيسيو في حراسة المستشفى . اذن ، ابدأ يا توم المفاوضات مع سولوزو بالتلفون . او ارسل له رسولا في الساعة الاولى من صباح الغد . وانت يامايك ، خذ غدا رجلين من رجال كليمنزا واذهب الى لوكا . انتظره حتى يصل او ابحث عن مخبئه . ان هذا المجنون جدير به ان يذهب فيصرع سولوزو منذ الآن اذا سمع الاخبار من الراديو او التلفزيون . لا استطيع ان اصدق ان يخون الدون ابدا ، مهما كانت عروض « التركي » .

وقال هاجن بتحفظ : ـ ربما كان من الواجب الا يتدخل مايك بهذا كله على هذا النحو المباشر . .

فاستدرك سوني : ـ تماما . دعك من هذا ، يا مايك . على اي حال ، انا محتاج اليك على التلفون ، هنا بالذات . هذا اهم .

لم يقل ميخائيل شيئا . كان يحس نفسه منزعجا ، خجلا تقريبا . ولاحظ وجهي كليمنزا وتيسيو المغلقين ، فأيقن ان هذين الرجلين كانا يخفيان احتقارهما . وتناول التلفون ، فركب رقم لوكا برازي وهو محتفظ بالسماعة على اذنه . رنين بلا جواب

٦

ارق بيتر كليمنزا في نومه تلك الليلة . ونهض باكرا في الصباح فتناول فطوره المؤلف من قدح « غرابا » وقطعة سلامي سميكة وقطعة خبز ايطالي طازج . كان يجد كل صباح خبزه امام بابه ، كما في الايام السابقة . وبعد ان تناول كليمنزا طعامه ، شرب قدحا كبيرا من القهوة المحرقة المعقدة بالانيسون ، ثم اخذ ينتقل من غرفة الى غرفة ، متسربلا بمبذله القديم ، منتعلا خفا من اللبد الاحمر ، كان يفكر في العمل الذي يتوجب عليه ان يقوم به في النهار . وكان سوني كورليون عشية الامس قد افهمه بوضوح ان عليه ان يهتم ببولي غاتو من غير تاخير . وكان لا بد من تنفيذ العمل في اليوم نفسه .

كان كليمنزا متضايقا جدا . وليس ذلك لان بولي غاتو ، محميه القديم ، قد خان ، فهذا ما لم يكن كافيا لافساد فطنته كرئيس فرقة : ان سابقي بولي ، بعد كل حساب ، لم يكونوا خالين من العيوب . كان هو متحدرا من اب وام صقليين ، وقد لعب على الارض نفسها مع ابناء كورليون ، بل كان في الصف مع واحد منهم . وكان قد رقي جميع درجات المهنة من غير تعثر . وحين خضع للامتحان والتجربة ، لم يخيب الظن . وكانت عائلة كورليون قد امنت له عائدا كبيرا ، بالاضافة الى نصيب من الارباح على ميدان سباق للخيل في « الايست سايد » . ولم يكن كليمنزا يجهل ان بولي غاتو كان يقوم ببعض عمليات السلب في الساعات الاضافية ليزيد ثروته ، وكانت عمليات القنص هذه مخالفة تماما لقواعد « العائلة » . ولكن مثل هذه العلامات الاستقلالية كانت تنم عن قوة شخصية : شجاعة جواد اصيل تحت الرحل.

والحق ان بولي لم يسبق له ان اثار فضيحة ، لا بأن نهب حصيلة متجر كبير الملابس في مانهاتن (ثلاثة آلاف دولار) ولا بأن سلب أجرة مصنع صغير للبورسلين في بروكلين . كان العمل معه معدا دائما ادق اعداد ومنفذا بسرية تامة . لا صرخة اطلاقا ، ولا خمشة . ان أي شاب ، في آخر المطاف ، يسعى دائما الى كسب بعض مصروفه ، وليس في هذا ضرر ، ولكن من كان يظن ان بولي سيخون ؟

كان كليمنزا مبلبلا ذلك الصباح بمسالة ادارية . ان قتل بولي غاتو لم يكن الا عملا روتينيا صغيرا . ولكن مسألة جدية ، على نحو آخر ، كانت تطرح نفسها على رئيس فرقة دون كورليون : فمن يسحب من الصف ليحله محل بولي غاتو في « العائلة » ؟ كان لا بد من خريج دفعة هامة . فوظيفة المنفذ لا يمكن ان تسند الى اي شخص ، بل ان على صاحبها ان يكون في الوقت نفسه صلبا وشاطرا ، شخصا موثوقا لا يسارع الى سرد حياته لرجال الشرطة حين تواجهه المصاعب ، انسانا

يملأه حتى العظم قانون الصقليين الاعلى ، قانون الصمت . ولكن أي راتب يتلقى الشخص الجديد المختار من عائلة كورليون ؟ كان كليمنزا قد طالب الدون عدة مرات ان يزيد تعويضات المنفذين الذين هم على غاية الاهميـــة ، لكونهم دائمـا في الخط الاول عند الضربات القاسية . ولكن الدون كان قد تصامم . ولو ان بولي كان يتقاضى من ال كورليون تعويضا اكبر ، لـكان دون شك اشد مقـــاومه وسمودا لاغراءات التركي المكار .

اختصر كليمنزا قائمة المرشحين الى ثلاثة اسماء . الاول عميل كان يشتغـل مع صيارفة اليانصيب السري الواسع الانتشار في هارلم ، وكان رجلا قويا حقيقيا يحرص على اجتذاب الناس . كان له أصدقاء كثيرون ، ولكنه كان يستطيع عنـد الحاجة ان يسبب لهم خوفا كبيرا . ومـــع ذلك ، فان كليمنزا ، بعد نصف ساعة من التفكير ، حذفه من القائمة . ذلك انه كان متطرفا في معاشرة الزنوج ، وكـــان ذلك يوحي بعيب في الطبع لم يكن ممكنا الاغضاء عنه ، كما انــــه كان يترك مجالا للتنبؤ بعيوب اخرى . ثم انه من الصعب جدا احلال غيره محله في المركز الـذي كان يشغله .

والاسم الثاني الذي استوقف رئيس الفرقة والذي حدد عليه اختياره تقريبا ، كان اسم رجل نشيط فعال امين في عمله ، كان مكلفـــا بتعجيل تحصيل واردات مرابي مانهاتن الذين كان يحميهم دون كورليون . وكان قـــد بدأ كأمين صندوق المراهنات في ميدان سباق . وحكم كليمنزا اخيرا بأنه لم يكن مهيأ للمركز الهـــام الذي حلم ساعة باسناده اليه .

واخيرا ، كان روكو لامبون هو من وقع عليه الاختيار . وكان لامبون قد دخل منذ فترة في خدمة « العائلة » ، ولكنه كان قد قام ببداءات مرموقة . كان قد جرح في حملة افريقيا ، فأعيد الى منزله عام ١٩٤٣ . وقد خلفته جراحه مشوها : كـان يعرج بشكل ملحوظ . ومع ذلك ، فقد ضمه كليمنزا اليه ، لعدم وجود غيره : كان الشبان نادرين ، فجميعهم تقريبا كانوا في خدمة العلم ، واستخدم لامبون كوسيط في اعمال السوق السوداء مع الموظفين المكلفين بتوزيع تذاكر التقنين . ولم يلبث ان ترقى . وكان كليمنزا يقدر فيه خاصة صواب احكامه . وكان لامبون قد ادرك ان المرء لا يكسب شيئا في اظهار القسوة في الاعمال التي يمكن ان تكلف جزيـــة أو خمسة اشهر في السجن : وهذا شيء غير مرتفع الثمن بالنسبة لمنافع كبيرة . كان لامبون يملك حسا سليما في ادراك ان الاعـــمال المشابهة تتطلب معالجة بيد صناع . يجب معاملة التهديد برقة ودقة . وكان روكو لامبون يقود عملياته عـــلى الطرز الادنى ، وكان هذا هو المطلوب تماما .

احس كليمنزا بالارتياح ، كمدير موسوس امام حل مسألة صعبة . اجل ، ان روكو لامبون هو الذي سيكون مساعده . وكان كليمنزا ينوي الاشتراك شخصيا في عملية اليوم ، ليس فقط لمعاونة شخص ناقص الخبرة على التمرس ، وانما كـذلك لتصفية حساب شخصي مع بولي غاتو . كان قد دفع بـولي . ورغبة منه في تعجيل

ترقيته ، ابعد رجالا اكثر منه استحقاقا واشد اخلاصا . وبالاختصار ، كان قد فعل كل شيء لتشجيعه . واذن فان بولي لم يكن قد خان « العائلة » فحسب ، بل خان كذلك « بادرونه » ، معلمه بيتر كليمنزا . ومثل هذا الاخلال كان يتطلب تعويضا نموذجيـا .

اما الباقي ، فكان كل شيء مدبرا بشأنــه . كان بولي غاتو قد تلقى أمرا بأن يمر بسيارته ليقل كليمنزا في الساعة الثالثة . ورفع كليمنزا السماعة وركب رقم روكو لامبون ، ولم ينطق باسمه ، بل اكتفى بالقول :

ــ تعال الى البيت . عندي شيء لك .

ولاحظ برضى ان روكو لامبون ، بالرغم من الساعة الصباحية ، اجابه بصوت متيقظ تماما ولم يبد عليه انه اخذ على غرة . وكل ما قاله : « اتفقنا » وهو جواب طيب . واضاف كليمنزا :

ــ لا تستعجل . تناول فطورك ، وغــداءك ، قبل ان تأتـي الي ... ولكن لا تتأخر عن الساعة الثانية .

« اتفقنا » مرة اخرى ، على الجانب الآخر من الخط . واعاد كليمنزا السماعة عند هذا الجواب الموجز . وكان قد اصدر اوامره الــى رجاله ليحلوا محل رجال قائد الفرقة الآخر تيسيو القائمين بالحراسة حول منزل كورليون . وكان لكليمنزا اتباع اكفاء ، اما هو ، فلم يكن يهتم اطلاقا بالتفاصيل الاضافية .

وقرر ان يغسل سيارته الكاديلاك . ذلك انه كان ما يزال يحبها ، سيارتـه الكاديلاك ، كانت تجري بنعومة وهدوء ، وكان فرشها الداخلي غنيا جدا حتى انه احيانا ، حين يكون الجو لطيفا ، كان يجلس على المقعــد الخلفي ويبقى هناك فترة ساعة ، كان يشعر فيها بارتـياح اكبر مما في منزله واثاثه . ثم ان غسل سيارتـه كان ينشط تفكيره . كان ذلك يذكره بأبيه ، اذ كان يقوم سابقا بالعمل نفسه عـلى حميره الصغيرة .

كان كليمنزا يكره البرد ، ولذلك فقد كان ينظف سيــارته في المراب ، حيث الجو حار كما يتمنى . كان برنامج اليوم يتطلب تنظيما دقيقا . وكان لا بد مــن التنبه مع بولي الذي كان مكارا كفأر ، وكان يشتم رائحة الخطر . على اي حــال ، لا بد ان بولي الصلب كان الآخر يوسخ سرواله ، بالنظر الى ان العجوز كان ما يزال على قيد الحياة . فالتماسك من الصعوبة بمقدار ما يستطيـــع حمار ان يتماسك ومؤخرته ملأى بالنمل . ولكن كليمنزا كان يألف مثل هــذه الاوضاع : فذلك هو العمل . يجب عليه اولا ان يلتمس عذرا معقولا لمرافقته اروكو ، ثم ان يتصور مهمة معقولة يمكن ان يكلفوا بها هم الثلاثة .

صحيح ان هذا لم يكن ضروريا على اطلاقه . كان بالامكان تصفية بولي غاتو بلا زخارف . كان تحت المفتاح ولم يكن يستطيع الافلات . ولكن كليمنزا كان مقتنعا تماما ان من المهم الا يخالف عادات عمــله في اية ظروف . ولا ينبغي ان يترك اي تفصيل ، مهما بدا تافها ، للمصادفة . ان المرء لا يعرف ابدا ما عسى ان يطرأ ، وفي المهنة يجازف الانسان بحياته كلما قام بالتمرين .

كان بيتر كليمنزا ، فيما هو يغسل سيارته الزرقاء ، يعد اجوبته ويتخذ السحنة التي سيطلع بها بعد قليل على بولي غاتو . سيقابله بجفاء ليظهر ظلا من الاستياء : وهي اضمن وسيلة لخداع الحذر عند شريك متشكك حساس كبولي . ان ودا مفاجئا سيحمله على الحذر . ولكن كان لا بد كذلك من تجنب كل حركة من حركات الغضب . يكفي نوع من الانزعاج الآلي الشارد . كل شيء متوقف على اللهجة . وحضور لامبون ؟ كيف لبولي الا يحكم بانه مقلق ، لا سيما وان لامبون سيجلس على المقعد الخلفي ؟ ان بولي لا يحب الجلوس في المقعد الامامي ، مشغول اليدين ، ولا يحب ان يحس بوجود لامبون خلفه . كان كليمنزا يلمع مصدات سيارته من غير ان يدخر قواه . لن يكون الامر مناسبا . لن يكون مناسبا على الاطلاق . وتساءل لحظة اليس من الافضل ان يتخذ له معاونا اضافيا ؟ وسرعان ما عدل عن الفكرة بحجة قاطعة (هذه الحجة كانت تطبيقا لواحد من مبادىء المهنة الاساسية) فذات يوم ، لا يدري متى ، يمكن ان تتقلب الظروف بحيث يبدو مفيدا لواحد من شريكيه ان يشهد ضده . اما اذا لم يكن له الا شريك واحد ، فستكون كلمة شرف من احدهما مقابل كلمة شرف من الآخر . وان شهادة شريك ثان ستميل الكفة لغير صالحه . لا ، سيلتزم بالستراتيجية التنظيمية .

وما كان يزعج كليمنزا هو ان تنفيذ العملية كان ينبغي ان يكون « علنيا » . بعبارة اخرى ، يجب ان تكتشف الجثة . وقد كان كليمنزا يفضل كثيرا اخفاءها . (وكانت اكثر المقابر استعمالا الاوقيانوس القريب او بعض مستنقعات في نيو جرسي كان اصحابها من اصدقاء العائلة) وكان يحدث كذلك ان يتم اللجوء الى طرائق اشد تعقيدا . ولكن العمل اليوم كان بغاية العقوبة والعبرة . كان لا بد من جثة لتثبيط النخوة المكنين وافهام العدو ان آل كورليون لم يصبحوا بعد عاجزين ولا مخصيين . والسرعة التي تم بها اكتشاف عميل سولوزو سيجعل هذا الاخير اكثر حذرا ، وسوف تسترد عائلة كورليون التي جعلها الاعتداء على العجوز موضع تهكم ، جزءا من نفوذها .

وتنهد كليمنزا . كانت سيارته الكاديلاك تلمع كبيضة كبيرة من الفولاذ الازرق ، ولكنه لم يكن قد تقدم خطوة واحدة نحو حل مسألته . ثم زاره الوحي ، كأنه البرق : فتصور دفعة واحدة مهمة خيالية ، تكفي لتبرر دفعة واحدة حضور كليمنزا وروكو لامبون وبولي ، وهي سرية في الوقت نفسه .

سيقول للمحكوم عليه ان عمل النهار كان يتلخص بايجاد شقة للعائلة تستخدمها اذا عزمت على استعمال الفراش . فكلما كان الصراع بين عائلتين يتحول الى حرب شاملة ، كان الخصوم ينقلون اركانهم العامة الى شقق كانت عناوينها تبقى طي الكتمان . وكان المنفذون ينامون على فرش تبسط على الارض الخشبية . ولم تكن غاية هذا التدبير تجنيب اللامقاتلين في العائلات الكبيرة الاخطار . صحيح انه لم يحدث قط ان شن هجوم على النساء والاطفال ، فذلك لم يكن واردا ، ولكن كان من الحكمة والعقل مع ذلك الاقامة في مكان سري كانت الحركات والاحداث اليومية تفلت فيه من رقابة الخصم ورقابة الشرطة التي كان يبلغ بها العسف احيانا ان تتدخل

في شؤون المواطنين الخاصة . وفي حالة القيام بالهجوم ، فان الشقة السرية تستعمل كقاعدة استراتيجية .

وكانت العادة ان يكلف رئيس فرقة موثوق باستئجار المكان وتأثيثه بالفرش . واذن ، فان المهمة التي سيعهد فيها كليمنزا الى نفسه كانت مناسبة تماما . وكان طبيعيا كذلك ان يرجو لامبون وبولي غاتو مرافقته وانجاز جميع تفاصيل العملية ، بما في ذلك التأثيث . ثم ان بولي كان قد اعطى دليل تصديقه . وقال كليمنزا لنفسه وهو يبتسم : ان السؤال الاول الذي سيطرحه بولي على نفسه سيكون هذا السؤال : كم سيدفع « التركي » ثمن هذه المعلومات الثمينة ؟

وصل روكو لامبون في ساعة مبكرة . وابلغه كليمنزا برنامج النهار ووزع الادوار . وقد شعّ وجه روكو بعرفان مسحور ، فشكر كليمنزا على الشرف الذي يوليه اياه حين يلحقه بخدمة العائلة . وتيقن كليمنزا ، آنذاك ، انه قد احسن الاختيار ، فربت على كتف روكو لامبون وهو يقول :

ـ ابتداء من اليوم ، ستزداد عائداتك ، يا عزيزي . سنتحدث في الامر مرة اخرى . اما الآن ، فان للعائلة كما ترى هموما ومشاغل اكثر الحاحا .

فقام لامبون بحركة تنم عن كنوز من الصبر . كان يعلم علم اليقين ان ساعة المكافأة آتية .

ودخل كليمنزا الى الغرفة الصغيرة المحولة الى مكتب للعمل وفتح خزنته ، فتناول منها مسدسا قدمه الى لامبون .

ـ استعمل هذا . لن ينجح احد في اكتشاف مصدره . ستتركه في السيارة مع بولي . وبعد ان تنجز مهمتك ، تصطحب زوجتك واولادك في اجازة بضعة ايام تقضونها في فلوريدا . خذ من مالك ، وسوف اسددك فيما بعد . استرح ، وعرّض قلبك وبشرتك للشمس . انزل في فندق العائلة ، في ميامي بيتش ، وعلى هذا النحو ، سأعرف اين اتصل بك حين احتاج اليك .

طرقت امراة كليمنزا باب المكتب وقالت ان بولي غاتو قد وصل . كانت سيارته قد توقفت عند باب المنزل . ومر كليمنزا من المراب ، فتبعه لامبون . وفتح كليمنزا باب السيارة وجلس في المقعد الامامي ، الى جانب بولي ، وهو يدمدم بتحية خشنة . كان يبدو مغتاظا . ونظر الى ساعة يده ، كما لو انه كان واثقا من ان بولي قد وصل متأخرا .

وكان الرجل ذو الوجه النمسيّ يراقبه بالحاح ، باحثا عن علامة ، عن اشارة كاشفة . وحين جلس روكو خلفه استاء قليلا وقال :

ـ ايه ، يا روكو ، اجلس في الجانب الآخر . ان مقاسا مثل مقاسك يجعلني لا ارى شيئا في مرآتي العاكسة .

ولم ينتظر لامبون مزيدا من الالحاح ، بل غيّر مكانه وجلس خلف كليمنزا كما لو ان ملاحظة بولي كانت طبيعية جدا .

عند ذلك ، قال كليمنزا لبولي بلهجة تبرم :

ـ ان صاحبنا سوني خائف الآن . لقد بدا يفكر باللجوء الى الفرش . ونحن

مكلفون بأن نجد له زاوية صغيرة هادئة في « الوست سايد » ، وستهتم انت وروكو بناثيث الشقة ريثما ياتي رجالنا الآخرون للاقامة . هل لديك عنوان مناسب ؟

وكما كان كليمنزا قد توقع ، التمعت حدقتا بولي غاتو بشعاع الطمع . لقد عضّ الصنارة ، بل بدأ يفكر بالثمن الـــذي سيتقاضاه من سولوزو لقاء هـــذه المعلومات . ولم يكن ذلك يترك له بعْد وقتا للتساؤل اذا كان في خطر . ومن جهة اخرى كان لامبون يقوم بدوره خير قيام : كان ينظر الى الخارج بأكبر قدر ممكن مـــن اللامبالاة والهدوء . وكان كليمنزا يهنىء نفسه على حسن اختياره . ورفـــع غاتو كتفيه وقال :

ــ يجب ان افكر بالامر .

فتمتم رئيس الفرقة : ــ فكر فيما انت تسوق . احب ان اصل الى نيويورك قبل صباح الغد .

كان بولي يقود سيارته ببراعة . والحق ان صف السيارات التي كانت تتجه نحو المدينة في تلك الساعة من بعد الظهر لم يكن كثيفا . وحين دخل الرجال الثلاثة نيويورك كان الشفق الشتوي قد بدأ يهبط . ولم يكن قد نبس ببنت شفة تقريبا . وحين وصلوا المدينة قال كليمنزا لبولي ان يسلك طريق « واشنطن هايتز » وسجل أرقام عدة مبان ، الى ان توقفت السيـــــارة قرب « ارثر افينيو » ، فهبط كليمنزا وحده ، ورجا رفيقيه ان ينتظراه في السيارة ، وبعد بضع دقائق ذهب الى مطعم « فيرا ماريو » فحيا بعض اصدقائه ومعارفه . وقدم له عشاء خفيف : شريحـــة باردة من لحم البقر وسلاطة . وبعد ساعة ، مر كليمنزا ببعض كتل البيوت التـــي كانت تفصله عن السيارة ، واستعاد مكانه قرب غاتو ولامبون اللذين كانا ينتظران بهدوء ، ثم قال :

ــ اي ازعاج ! ها هم يطلبون منا ان نعود الى « لونغ بيتش » . ان هناك عمـــلا ينتظرنا على الفور . ويقول سوني ان بالامكـــان تأجيل البحث عن شقة . وانـــت يا روكو تسكن المدينة ، فهل تريد ان نوصلك ؟

أجاب روكو بهدوء :

ــ تركت سيارتي امام باب منزلك . وزوجتي بحاجة اليها صباح الغد ، في ساعة مبكرة .

قال كليمنزا :

ــ حسنا . انت مضطر اذن ان تعود معنا .

وفي طريق العودة لم يكونوا اكثر ثرثرة مما كانوا في المجيء . وقبل ان يصلوا الى « لونغ بيتش » قال كليمنزا فجاة :

ــ ايه ! قف هنا ، يا بولي . اريد ان ابول قليلا .

وكان بولي قد عمل بما فيه الكفاية مع كليمنزا ليعرف ان مثانة رئيس الفرقة الضخم كانت عرضة لنزوات مفاجئة . ولم تكن تلك هي المرة الاولى التي يستوقفه فيها عند حافة طريق . وابطات السيارة ، وانحرفت الى جانب ثم توقفت عند رقعة الارض الممتدة بين الطريق والمستنقع . وترجل كليمنزا متجها نحو دغل . وانتهز

الفرصة ليتبول حقا . وفيما هو يفتح الباب ليأخذ مكانه من جديد الى جانب بولي، القى نظرة سريعة الى اليمين ، ثم الى اليسار ... فلم يلمح اي ضوء . كان الطريق من جانبيه مظلما خاليا . وقال رئيس الفرقة : « هيا ! » وبعد لحظة تردد صوت انفجار في قلب السيارة . وقفز بولي غاتو قفزة الى امام ، فصدم صدره المقود ، ثم ارتد ساقطا الى خلف واسترخى على المقعد . وكان كليمنزا قد تراجع بخفة متفاديا نثار الجمجمة الملطخ بالنخاع والدم .

سارع روكو لامبون بمغادرة السيارة ، والمسدس فييده ، فرماه فيالمستنقع. وبعد ذلك اتجه هو وكليمنزا مسرعين الى سيارة كانت واقفة هناك ، فدس لامبون يده تحت المقعد ووجد المفتاح المتروك لهما . وأدار المحرك ثم اوصل كليمنزا الى منزله . ولكنه سلك طريق « جونس بيتش » ، بدلا من سلوك الطريق نفسها ، فقطع « مريك » متجها الى « نورتن ستايت باركواي » عبر « ميدووبروك باركواي » ومنها الى « لونغ ايسلند اكسبريسواي » مواصلا طريقه الى منزله في مانهاتن .

٧

في الليلة التي سبقت محاولة اغتيال دون كورليون ، كان مساعده الاشد اخلاصا وولاء وكفاءة يتهيأ لملاقاة العدو . وكان لوكا برازي ، لعدة اشهر خلت ، قد قام باتصالات برجال سولوزو بناء على اوامر دون كورليون نفسه . وقد نجح في ذلك بالتردد الى الحانات التي كان يراقبها رجال اسرة تاتاغليا ، وبعقد علاقة حميمة مع غانية مرموقة من غانياتهم . سرّ من اسرار الوسادة : ضقت ذرعا بآل كورليون ، انهم يستغلونني . وبعد اسبوع من هذه التمثيلية ، استمزج لوكا من قبل برونو تاتاغليا ، مدير الحانة . وكان برونو اصغر الابناء ، وهو لم يكن يهتم قطعا بأعمال البغاء المتصلة بالعائلة ، ولكن مرقصه كان بمثابة مدرسة تحسين للراقصات الرشيقات اللواتي كن يتفرغن بعد ذلك نحو عمل اكثر مردودا ، بالنسبة لآل تاتاغليا على الاقل .

وفي اللقاء الاول ، عرض تاتاغليا على لوكا ، بلا مقدمات ، ان يعمل في دائرة اختصاصه لحساب « عائلته » . وظل هذا الغزل الدبلوماسي زهاء شهر . وقد لعب لوكا دوره كرجل مسحور بفتاة جميلة شابة ، بينما لعب برونو تاتاغليا دوره كرجل أعمال يحاول ان يرفع قائدا كفؤا الى مستوى منافسه . وتظاهر لوكا ، في احدى المقابلات ، بأنه متردد ، قائلا :

– لنتفاهم جيدا . انني لن اقوم بأي شيء ضد دون كورليون . فهو رجل احترمه وافهم ان يكون لاولاده الحق بأن يمروا قبلي في شؤون « العائلة » .

كان برونو تاتاغليا ينتمي الى جيل الشباب ولا يخفي على الاطلاق احتقاره لمتخلفي الاجيال القديمة امثال لوكا برازي ودون كورليون وحتى ابيه بالذات . ومع ذلك ، فهو في هذه الحالة الخاصة ، اصطنع اكبر قدر من الاحترام ، فقال :

– ان ابي لن يطلب منك ابدا ان تقوم بأي شيء ضد آل كورليون . ولماذا تراه يطلب ذلك ؟ ان التفاهم الآن قائم بين الجميع ، لا كما كان الحال سابقا . ولكن اذا كنت تبحث عن رزق جديد ، فسأحدث ابي في ذلك . اننا بحاجة الى رجل مثلك في اعمالنا . رجل صلب . ولا بد من رجال اقوياء لتمشي الامور تماما . اخبرني اذا قررت .

قال لوكا وهو يهز كتفيه : – ليست الامور سيئة حيث انا الآن .

وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد .

كان يريد ، بصورة عامة ، ان يفهم آل تاتاغليا انه كان مطلعا على تجارتهم بالمخدرات ، وانه كان يتمنى ان يحصل على نصيبه ، بصورة مستقلة تماما . وعلى

هذا النحو ، سيكون بوسعه ان يعرف شيئا عن خطط سولوزو اذا كان للتركي من خطط ، او يعرف اذا كان يتهيا للاعتداء على اختصاصات دون كورليون . وبعد انقضاء شهري انتظار لم يحدث خلالهما شيء ، أبلغ لوكا الدون ان سولوزو كان يحمل هزيمته بصبر ، من غير شك . فأجابه الدون بأن يتابع اتصاله ، ولكن في أوقات فراغه ، فلم يكن ثمة ما يستدعي العجلة .

ومرّ لوكا بالمرقص عشية وقوع محاولة الاغتيال . وعلى الفور تقريبا ، قصد برونو تاتاغليا طاولته وجلس عليها ، وقال له :

ـ ان احد اصدقائي يريد التحدث اليك .

فأجابه لوكا : ـ ليتفضل . ان اصدقاءك اصدقائي .

ـ لا . انه يريد ان يراك على انفراد .

ـ من هو ؟

ـ صديق ، هذا كل شيء . يريد ان يعرض عليك اقتراحا . هل تريد ان تلقاه هذا المساء ، بعد فترة ؟

ـ طبعا . في اية ساعة ، وأين ؟

وكان تاتاغليا قد اوضح قائلا :

ـ نحن نغلق ابوابنا في الساعة الرابعة صباحا . ابق هنا فتراه بينما ينظف الخدم القاعة .

وفكر لوكا انهم كانوا مطلعين على عاداته : فلا بد انهم قد تعقبوه . كان ينهض عادة في الثالثة او الرابعة بعد الظهر ، فيتناول فطوره ويتسلى بالتراهن مع بعض رفاق « العائلة » او يضاجع مومسا . وكان يقصد السينما احيانا ، في الحفلة الاخيرة ، ثم يخرج فيتناول شيئا من طعام او شراب في احدى الحانات . ولم يكن يأوي الى الفراش قط قبل طلوع الصباح . فاقتراح موعد للقاء في الرابعة صباحا لم يكن بالتالي اقتراحا غريبا كما قد يبدو . قال :

ـ طبعا ، بالتأكيد . سأعود في الساعة الرابعة .

وخرج فاستقل سيارة اجرة ليعود الى مسكنه المؤثث في « الجادة العاشرة » . كان نازلا عند اسرة ايطالية تربطه بها قرابة بعيدة . وكان يدلف الى غرفته من باب خاص ، وكان هذا التدبير يروقه لانه كان يترك له حريته فيما كان يضمن له نوعا من الحياة العائلية وحماية ويجعله اقل تعرضا لهجوم مفاجىء .

وفكر : ان الثعلب التركي الخبيث سيظهر الآن طرف انفه المدبب . فاذا كانت الامور قد استقامت ، واذا قرر سولوزو ان يلتزم هذه الليلة ، فلربما تمّ كل شيء وأتيح له ان يقدم هذا الاتفاق الى الدون كهدية عيد الميلاد . واذ بلغ لوكا غرفته ، فتح الصندوق المخبأ تحت سريره وسحب منه صدرته الواقية من الرصاص . كانت ثقيلة . ونزع لوكا ثيابه ولبس الصدرة فوق قميصه الصوفي ثم ارتدى قميصه وسترته . وخطر له لحظة ان يخابر منزل الدون في « لونغ بيتش » ليطلعه على مجرى الامور ، ولكنه كان يعرف ان الدون لم يكن يتحدث الى احد بالتلفون . كان هذا الاخير قد عهد اليه في هذه المهمة السرية ، فلم يكن راغبا ، بالتالي ، ان

يحدث فيها اي شخص ، حتى ولا هاجن او ابنه الاكبر .

كان لوكا يحمل دائما مسدسا . وكان يملك رخصة بحمل السلاح ، ربما كانت أغلى رخصة أعطيت لاحد في الولايات المتحدة الاميركية : عشرة آلاف دولار ، كانت تجنبه الذهاب الى السجن لو فتشه رجال الشرطة . ولما كان احد المنفذين على اعلى مستوى في « العائلة » ، فقد كان يستحق جيدا هذه الرخصة . في تلك الليلة ، في حالة اضطراره الى انجاز مهمته ، كان بحاجة الى سلاح « امين » ، وبعبارة اخرى سلاح لا يعرفه احد ولا تكون بصماته بصمات مسدسه الذي كان رقمه مسجلا على الرخصة . وبعد التفكير ، قرر ان يكتفي بالاستماع الى العرض الذي سيقدم اليه ثم يرجع فيه الى دون كورليون .

وعاد يسلك طريق المرقص ، ولكنه امتنع عن الشراب . وتسكع في الشارع ٤٨ ، وتناول عشاء متأخرا ، وبلا استعجال ، عند « باستي » مطعمه الايطالي المفضل . وفي ساعة الموعد ، كان واقفا عند مدخل النادي . وحين دخل ، كان البواب قد اختفى . وكانت موظفة حجرة الثياب قد ذهبت ، ولم يكن باقيا غير برونو تاتاغليا ليستقبله ويرافقه الى المشرب الخالي القائم على طرف القاعة . كانت امام عينيه الطاولات الصغيرة الفارغة تحيط بحلبة الرقص الصفراء المبرنقة التي كانت ارضها الخشبية تلمع كاللؤلؤة . وفي الظل ، كانت ترى منصة الجوقة التي كان ينبثق منها عمود مذياع معدني .

جلس لوكا امام المشرب ، وتجاهه برونو تاتاغليا . ورفض لوكا القدح الذي كان يقدمه له واشعل سيكارة . كان يتساءل اذا كان التركي حقا داخلا في العملية ، وفجأة رآه ينبثق من الظل ، في الجانب الآخر من القاعة .

وصافحه سولوزو واتخذ مكانه الى جانبه . ودفع تاتاغليا قدحا امام التركي الذي هز رأسه شاكرا ، وسأل :

— أتعرف من انا ؟

فهز لوكا رأسه ايجابا . وبدا سولوزو يقول :

— هناك ربح هائل في تجارة المخدرات . ملايين للذين يوشكون على النجاح . وانا اضمن لك خمسين الف دولار عند اول تسليمة . المخدرات هي المستقبل .

وسأل لوكا : — وما الذي سأفعله في هذا ، انا ؟ اتريد ان احدث الدون في ذلك ؟

— هذا ما تم . انه لا يريد ان يمس ذلك . لا بأس ، سأستغني عنه . ولكني محتاج الى رجل صلب يحمي العملية جسديا . احسب انني فهمت انك غير سعيد في « عائلتك » . يمكنك ان تغير « العائلة » .

فهز لوكا كتفيه قائلا : — اذا كان ذلك يساوي ثمنه .

وكان سولوزو قد راقبه بتنبه شديد وبدا كما لو انه قرر امرا . وقال :

— فكر في عرضي بضعة ايام ، وسنتحدث ثانية في الموضوع .

ومد يده ، ولكن لوكا تظاهر بأنه لا يراها ، وتناول سيكارة فحملها الى شفتيه . ومن خلف المشرب ، اخرج برونو تاتاغليا ، بما يشبه السحر ، قداحة مد شعلتها

نحو سيجارة لوكا . واذ ذاك حدث شيء غريب . فقد ترك برونو القــداحة تسقط على المشرب ، وتناول يد لوكا اليمنى فضغط عليها .

وكان رد فعل لوكا آنيا سريعا . فقد انزلق عن الكرسي العالي وحاول ان يحرر يده من الفتل . ولكن سولوزو كان قد قبض على الرسغ الآخر . على ان لوكا كان اقدر من ان ينتصر عليه رجلان ، وكان يمكن ان يفلت منهما لو لم ينبثق من الظلمة رجل ثالث ، فأقبل عليه من الخلف وامرّ حول عنقه حبلا حريريا دقيقا . وشد ، وشد ، فنصّ لوكا ، واصبح وجهه قرمزيا ، وفقدت ذراعاه قوتهما . واخضعــه تاتاغليا وسولوزو بسهولة . ولبثا لحظة يراقبانه بهيئة ساذجة سذاجة عجيبة ، بينما كان الآخر ما يزال يضغط . وفجأة اصبحت الارض الخشبية رطبة وزلقة . وكانت عضلات لوكا العاصرة تتراخى وجسمه يفرغ . وخارت قواه ، وانثنت ساقاه وانقصف جسمه . وترك سولوزو وتاتاغليا يديه ، فظل الخانق وحده امام ضحيته وانحنى على ركبتيه ليتابع سقوط الجسم . وشد على الحبل شدا عنيفا جدا حتى انه نفذ الى اللحم واختفى فيه . وكانت عينا لوكا جاحظتين كما تحت تأثير مفاجأة هائلة ، وهذا التعبير كان البقية الانسانية الوحيدة التي ظلت فيه ، لانه كان قد مات.

قال سولوزو :

ـ خذوه ، واخفوا آثاره ، واحرصــــوا خصوصا على الا يعثروا عليه حتى وقت طويل .

واستدار على عقبيه واختفى في الظلام .

٨

انشغلت « العائلة » طوال النهار الذي عقب محاولة اغتيال دون كورليون . وبقي ميخائيل على التلفون ، ينقل الرسائل لسوني . ونشط توم هاجن للعثور على وسيط يقبله الطرفان من اجل عقد اجتماع مع سولوزو . وكان التركي قد اصبح فجأة حذرا ، ولعله كان يعرف ان جميع رجـال كليمنزا وتيسيو كانوا يقومـون بالدوريات في المدينة والجوار بحثا عنه . ولكن سولوزو كان قابعـا في مخبأه ، كجميع افراد اسرة تاتاغليا الكبار . وكان سوني يتوقع ذلك ، ذلك ان العدو لم يكن ممكنا ان يهمل احتياطا بدائيا مثل هذا الاحتياط ، كان يعرف ذلك .

وهنيء كليمنزا على قتل بولي غاتو . اما تيسيو فقد بذل اقصى الجهد للعثور على لوكا برازي او لمعرفة المداخل والمخارج التي سبقت على الاقل اختفاءه . ولم يكن لوكا قد عاد الى منزله منذ الليلة التي سبقت محاولة الاغتيال . وهي علامـة سيئة . ولكن سوني كان يرفض الاعتقاد بأن برازي قد خانه او انه قتل مفاجأة .

وظلت « الماما » كورليون في المدينة ، لدى اصدقاء « للعائلة » ، على مقربـة من المستشفى . وعرض كارلو ريزي ، الصهر ، خدماته ، ولكنـه اجيب بأن يهتم بعمله ، العمل الذي كان دون كورليون قد خلقه له : فقد كان متسلم رهانات في ميدان سباق الحي الايطالي بمانهاتن . واقامت كوني قرب امها لتستطيع ، هـي ايضا ، ان تزور اباها في المستشفى .

وكان فريدي لا يزال يستريح في غرفته ، بمنزل ابويه ، تحت تأثير المسكنات . وقد زاره سوني وميخائيل فادهشهما اصفراره وسوء صحته الواضح . وقال سوني لميخائيل وهما يغادران غرفته :

ــ عجبا ، يبدو وكأنه مصاب اكثر من العجوز !

وهز ميخائيل كتفيه . كان قد رأى جنودا في الحالة نفسها في ميدان القتال، ولكنه لم يكن يعتقد قط ان بالامكان ان يحدث ذلك لفريدي . كان يتذكر ان اصغر اخوته كان جسديا واحدا من اقوى افراد الاسرة حين لم يكونوا بعـد الا اولادا . ولكن فريدي كان كذلك اطوع الابناء للاب . ومع ذلك ، فقد كان الجميع يعرفـون ان الدون قد عدل عن تسليمه مركزا من مراكز المسؤولية في الاعمال . لم يكن ذكيا تماما بما فيه الكفاية ، وبسبب من ذلك ، لم يكن قاسيا بما فيه الكفاية. وبالاختصار، كان ذا طبيعة ضعيفة ، فكان ضعيف الشخصية .

في نهاية بعد الظهر ، تلقى ميخائيل مخابرة تلفونية من جوني فونتان الذي كان يتكلم من هوليود . واخذ سوني الآلة فقال :

ــ لا ، يا جوني ، لا فائدة من المجيء لرؤية العجوز . انه في حالة سيئة جداً ، ولو جئت لاحدث لك ذلك دعاية رديئة . ان الدون لن يوافق على ذلك . انتظر حتى تتحسن صحته . وحين يكون بامكاننا اعادته الى البيت ، سيكون بامكانك ان تأتي لتزوره هنا . حسنا . سأنقل اليه تحيتك .

وعلق سوني السماعة ثم التفت نحو ميخائيل ليضيف :

ــ سيكون ابي سعيدا ان يعرف ان جوني كان يود المجيء من كاليفورنيا .

بعد ذلك بقليل ، نادى احد رجال كليمنزا ميخائيل الى المطبخ : كانت كاي على الطرف الآخر من الخط ، ذلك المذكور في الدليل ، فسألت بصوت قلق كان يبدو غير حقيقي :

ــ ابوك ؟ كيف حاله ؟

كان ميخائيل يعرف انها لم تكن تستطيع تصديق ما حدث : ان اباه كان حقا من تسميه الصحف عضوا في عصابة . واجاب :

ــ سينجو من الخطر .

فسألته كاي : ــ استطيع ان ارافقك حين تقصد المستشفى لزيارته ، اليس كذلك ؟

فانفجر ميخائيل ضاحكا . كانت تتذكر انه كان قد قال لها كم كان هذا النوع من الاهتمام يعني الايطاليين المسنين . وقال :

ــ هذه حالة خاصة . اذا عرف الصحفيون اسمك وسوابقك ، كان لك حق بالصفحة الثالثة من « الدايلي نيوز » . ان ابنة اسرة اميركية قديمة لا تعاشر ابن رئيس كبير من رؤساء المافيا . اتحسبين ان اهلك سيحبون ذلك ؟

اجابت كاي بجفاء : ــ اهلي لا يقرأون « الديلي نيوز » (ومرت لحظة صمت ثقيلة) . كل شيء طيب بالنسبة اليك يا مايك ؟ لست في خطر ، اليس كذلك ؟

ضحك مايك من جديد : ــ انهم يعتبرونني المعة عائلة كورليون ، دواستها تقريبا . لا تقلقي . لن يبذل احد اي جهد لمطاردتي . لقد انتهت تلك القصة ، يا كاي . لن تكون هناك آلام جديدة . اعتبري هذا نوعا من حادث عارض . سأشرح لك حين اراك .

فسألته : ــ ومتى ؟

فكر ميخائيل : ــ هذا المساء ، في ساعة متأخرة ، ما رايك ؟ سنأخذ قدحا ، وسنتناول العشاء في فندقك ، ثم اذهب الى المستشفى لرؤية العجوز . بدأت اتعب من ملازمة هذا المكان لاجيب على التلفون . اتفقنا ؟ ولكن لا تخبري احدا شيئا . لا لزوم للمصورين في لقائنا الفردي . انني لا امزح ، يا كاي . ان هذا مربك بشكل فظيع ، خاصة بسبب اهلك .

اجابت كاي : ــ اتفقنا . سأنتظرك . هل استطيع ان اشتري لك هدية لعيد الميلاد ؟ ام شيئا آخر ؟

قال ميخائيل : ــ لا . بل كوني هناك . هذا كل شيء .

ندت منها ضحكة عصبية صغيرة .

ـ سأكون هنا بكل تأكيد . الست دائما هنا ؟
قال : ـ بلى . ولذلك فأنت المفضلة عندي .
قالت : ـ احبك . هل تستطيع ان تقول لي مثل ذلك ؟
تأمل ميخائيل الاشرار الاربعة الجالسين في المطبخ وقال :
ـ لا ، لا استطيع . الى هذا المساء ، اتفقنا ؟
قالت : ـ اتفقنا .

كان كليمنزا ، وقد عاد من نهاره الكادح ، منهمكا في المطبخ بفتح علبة ضخمة من صلصة البندورة . فاوما له ميخائيل بعلامة من راسه وعاد الى المكتب حيث كان هاجن وسوني ينتظرانه بنفاد صبر . وسأل سوني :

ـ هل كليمنزا هنا ؟
فأشار ميخائيل ايجابا :
ـ انه يطهو السباغيتي لفرقة كاملة .

قال سوني منزعجا : ـ قل له ان يترك ذلك ويأتي الينا . ان عندي له اشياء اهم من الطعام . استدع تيسيو ايضا .

وبعد بضع دقائق ، كانوا جميعا في المكتب ، فسأله سوني :
ـ هل تدبرت امره ؟
فأجاب كليمنزا : ـ لن تراه بعد ابدا .

وفهم ميخائيل ، كما لو انه كان قد تلقى شحنة كهربائية خفيفة ، انهما كانا يتحدثان عن بولي غاتو . وان بولي الصغير قد مات ، قتله كليمنزا ، ذلك البشوش الضحوك الذي كان يرقص بحيوية في عرس كوني . وسأل سوني هاجن :

ـ هل اكتشفت شيئا بصدد سولوزو ؟

هز هاجن راسه نفيا : ـ يبدو انه اكثر برودة بالنسبة للمفاوضات . انه على كل حال لا يبدو قلقا اكثر مما ينبغي . او لعله بكل بساطة حذر جدا . لا بد انه يفكر بمنفذينا . الامر سواء . انني لم اجد بعد وسيطا من الطراز الاول يوحي له بالثقة . ولكن لا بد ان يعرف الآن انه مجبر على التفاوض . لقد اخطأ هدفه ما دام العجوز على قيد الحياة .

قال سوني : ـ انه خبيث . لم يسبق لعائلتنا ان واجهت قتال شخص ذكي الى هذا الحد . ربما كان يتصور اننا نسعى فقط الى كسب الوقت بانتظار ان تتحسن صحة العجوز .

هز هاجن كتفيه : ـ هذا ما يتصوره ، بكل تأكيد . ولكنه مع ذلك مجبر على التفتيش عن ارض للتفاهم . ليس له الخيار . كل شيء سينظم غدا . هذا اكيد .

وطرق احد رجال كليمنزا باب المكتب ، ثم دخل يقول :
ـ اذاع الراديو الخبر . لقد عثر رجال الشرطة على بولي غاتو ميتا في سيارته .

اومأ كليمنزا براسه قائلا : ـ لا تهتم بذلك .

فتأمل المنفذ رئيسه بهيئة مندهشة ما لبثت ان تبعتها نظرة متفهمة ، ثم عاد

الى المطبخ . واستؤنف الاجتماع بلا ادنى تعليق . فسأل سوني هاجن :
ـ هل طرأ اي تغير على حالة الدون ؟
فهز هاجن رأسه : لقد تحسن ، ولكنه سيكون غير قادر على الكلام قبل يومين او ثلاثة ايام . ان « البادرينو » مصروع تماما . وهو يبل الآن من صدمة العملية . وقد قضت امك معظم ساعات النهار الى قربه . وكذلك كوني . ان الشرطة يحاصرون المستشفى ، ورجال تيسيو يقومون كذلك بالدورية ، على سبيل الاحتياط . وما ان ينهض على قدميه حتى نعرف ما ينتظره منا . اما الآن ، فيجب ان نمنع سولوزو من ارتكاب عمل احمق . من اجل هذا ، يجب ان تباشر المناقشة معه .
دمدم سوني : ـ حتى ذلك الحين ، سيبحث عنه كليمنزا وتيسيو . فربما كان لنا الحظ بتصفية القضية دفعة واحدة .
قال هاجن : ـ لن يكون لنا هذا الحظ . فسولوزو اذكى من ذلك (وصمت لحظة) . هو يعرف انه حين يجلس الى الطاولة فلا بد ان يقبل معظم شروطنا . من اجل هذا ، يريد ان يكسب الوقت . وانا اراهن انه يحاول ان يضمن لنفسه مساندة عائلات نيويورك الاخرى حتى لا يصفوا حسابه حين يعطينا العجوز الضوء الاخضر .
قطب سوني حاجبيه وسال :
ـ ولماذا ينبغي للعائلات ان تتدخل في هذه القضايا ؟
ـ لتتجنب حربا ستؤذي الجميع . وسينتهي الامر بالصحافة والحكومة الى ان تتدخلا فيها . وانت تعرف المال الذي ستكسبه المخدرات . ان عائلة كورليون غير محتاجة اليه ، فان لنا القمار وهذه هي التجارة الطيبة الهادئة . ولكن انياب العائلات الاخرى طويلة . ولقد اثبت سولوزو قيمته ، وهي تعرف انه قادر على نشر التجارة على نطاق واسع . فاذا كان حيا ، وضع المال في جيوبها ، واذا مات ، جلب عليها المنغصات .
اتخذ وجه سوني تعبيرا لم يعهده ميخائيل فيه قط . كانت الشفتان المليئتان الشهوانيتان والبشرة البرونزية تبدو كاها رمادية . وصاح يقول :
ـ انني اهزا بحكايات هذه العائلات . ان لها مصلحة في ان تحتاط وتتخذ حذرها .
استغرق كليمنزا وتيسيو في مقعديهما مستاءين ، اشبه بقواد مشاة يأمر جنرالهم ، وهو صريع الهذيان ، بالانقضاض مهما كلف الثمن على تلة لا يمكن الاستيلاء عليها . واستطرد هاجن بنبرة من نفاد الصبر :
ـ كفى ، يا سوني ، ان اباك لن يحب هذا اذا بلغه . انت تعرف انه يستفظع التبذير . اننا لن ندع احدا يضع لنا العصي في الدواليب . اذا قال لنا العجوز ان نصفي سولوزو ، عند ذلك نعم . ولكن القضية ليست قضية اشخاص ، بل هي قضية اعمال . اذا اهتممنا بأمر التركي وتدخلت العائلات فسنتدبر الامر معها . فاذا رات اننا عازمون على سلخ جلد سولوزو ، فستترك ايدينا حرة . ان الدون سيقوم بتنازلات في ميادين اخرى للحد من الخلافات . فلا تطلب حماما من دم

مقابل عمل كهذا . ان الاعمال هي الاعمال . حتى محاولة اغتيال ابيك هي قضية اعمال تجارية . فلا تجعل منها مأساة شخصية . ان عليك الآن ان تدرك ذلك .

كان نظر سوني ما يزال قاسيا حين قال :

— حسنا . انني ادرك بقدر ما تقر انه ينبغي الا يعترض طريقنا احد حين نهتم بأمر سولوزو .

وانفتل سوني نحو تيسيو ، وسأل :

— هل من انباء عن لوكا ؟

فهز تيسيو راسه نفيا وقال :

— لا شيء . لا بد ان سولوزو قد اختطفه .

قال هاجن بهدوء :

— سولوزو لم يكن مهتما بلوكا ، هذا هو شعوري . لقد بدا لي ذلك غريبا . ان شخصا على هذا القدر من المكر كان ينبغي ان يحذر شخصا مثل لوكا على هذا القدر من الخطر . واستنتج من ذلك انه قد جعله يختفي من الطريق ، على نحو او على آخر .

وتمتم سوني : — يا الهي ! اتمنى الا يكون لوكا ضدنا . ان هذا هو الشيء الوحيد الذي يخيفني . ما رايكما بالامر ، يا كليمنزا وتيسيو ؟

قال كليمنزا بهدوء : — ان اي انسان يمكن ان يخطىء السير . تذكر بولي . ومع ذلك ، فان لوكا في رأيي أضيق نظرا من ان يترك الطريق المستقيم . لم يكن يؤمن الا بالعرّاب ، وكان يخافه . ليس هذا كل شيء : فقد كان يحترم اباك اعظم الاحترام ، والحق ان « البادرينو » قد اكتسب احترام الجميع . لا ، لم يخنا لوكا . ولا أستطيع الاعتقاد كذلك ان قائدا كسولوزو ، مهما كان قوادا ، قد حشر لوكا وفاجأه بالقتل . ان صاحبنا لوكا يشك بكل شيء وبكل الناس . وهو دائما مستعد للاسوأ . فلا بد انه متغيب لبضعة ايام ، بكل بساطة . وسنتلقى انباءه بين لحظة واخرى .

استدار سوني نحو تيسيو ، فهز الاخير كتفيه :

— ان اي انسان يمكن ان يخون . ولوكا حساس جدا . ربما يكون الدون قد اهانه عن غير قصد . ليس في ذلك ما هو مستحيل . واعتقد ، وفق ما يقول المستشار ، ان سولوزو قد اخذه مع ذلك على حين غرة . فلننتظر الاسوأ .

تابع سوني متوجها الى الجميع :

— بالنسبة لبولي غاتو ، سيطلع سولوزو سريعا على ما حدث له . اي اثر سيخلفه ذلك في نفسه ؟

اجاب كليمنزا بقسوة : — سيدعوه ذلك الى التفكير . وسيعرف ان عائلة كورليون ليست عائلة حمقى وبلهاء ، وانه اوتي امس حظا كبيرا .

فقاطعه سوني : — ليست المسألة مسألة حظ . لقد اعد سولوزو ضربته طوال أسابيع . ولا بد ان منفذيه قد تعقبوا العجوز الى مكتبه عدة ايام وراقبوا عاداته . وبعد ذلك اشتروا بولي ، وربما لوكا . وخطفوا توم في اللحظة المناسبة . لقد فعلوا

كل ما كانوا يريدونه . فلا تقل انهم اوتوا الحظ ، بل هم لم يؤتوا اي حظ . لا بد من ان يكونوامطلقين بارعين للنار ، مع احتمال ان يشتروا قتلة . ثم ان العجوز كان له رد فعل اسرع مما ينبغي . ولو كانوا قد قتلوه لكنت مجبرا على عقد صفقة، ولكان سولوزو قد ربح . على الاقل آنيا . ربما كان عليّ ان انتظر ، ولكني كنت سأقضي عليه بعد خمس سنوات او بعد عشر . فلا تقل اذن انه اوتي حظا . ان في ذلك انتقاصا من قدره ، وقد بالغنا في ذلك ، هذه الفترة الاخيرة .

حمل احد المنفذين من المطبخ صحنا من السباغيتي وبعض الصحاف والنبيذ. وتحدثوا جميعا وهم يأكلون . وقد راقبهم ميخائيل مشدوها ..ولم يأكل ، وكذلك توم . اما سوني وكليمنزا وتيسيو فقد اكلوا بنهم ومسحوا صحونهم بقطع من الخبز. كان ذلك شبه هزلي . وكانوا يواصلون نقاشهم .

ولم يكن تيسيو يعتقد ان فقدان بولي غاتو سيحزن سولوزو. وبالفعل، فقد كان يعتقد ان التركي كان قد تنبأ بالامر على الارجح وربما كان سيستقبله بالرضى . فم غير مجد ينقص من اعبائه . ولن يذعره ذلك . وربما كان آل كورليون انفسهم في وضع مماثل ؟

واخذ ميخائيل الكلام من غير ثقة كبيرة بنفسه :

ــ اعرف انني هاوٍ في هذه الامور كلها . ولكن ما قلتموه لي عن سولوزو ، بالاضافة الى انه اطلق سراح توم ، يجعلني اعتقد انه ما يزال يحتفظ بلعبة في جعبته . ربما كان يدبر مفاجأة تجعله المنتصر . فاذا عرفنا هذه المفاجأة ، كانت المبادرة لنا .

قال سوني بتحفظ : ــ نعم ، فكرت في الموضوع ، ولا استطيع ان افكر الا بلوكا . وقد اصدرت الامر باحضاره هنا عند وضع اليد عليه ، من غير الاهتمام بحقوقه القديمة في « العائلة » . والشيء الوحيد الآخر الذي استطيع ان اواجهه هو ان يكون سولوزو قد عقد صفقة مع عائلات نيويورك . في هذه الحالة ، سنعلم غدا انها مستعدة لخوض الحرب لانقاذ التركي وتجارته التهريبية . اذ ذاك يجب ان نقبل شروطه . اليس كذلك ، يا توم ؟

فوافق هاجن براسه وقال : ــ هكذا ارى الامور ، انا ايضا . نحن لا نستطيع ان نفعل شيئا ، بدون ارشاد ابيك ، تجاه تحالف يقوم بين العائلات . ان اباك وحده سيكون قادرا على الصمود ازاءهم . ان له علاقات سياسية هم بحاجة اليها من اجل تجارتهم . اجل ، اذا اراد ذلك حقا ، فان بوسعه ان يعارضهم .

ــ ان سولوزو لن يقترب ابدا من هذا البيت ، يا معلم ..

هكذا اكد كليمنزا بلهجة مبالغ في غطرستها بالنسبة لرجل خانهم مساعده .

وقد تأمله سوني مدة لحظة ، ثم سأل تيسيو :

ــ والمستشفى ، هل يؤمن رجالك سلامته ؟

وللمرة الاولى منذ بدء الاجتماع ، بدا تيسيو واثقا من نفسه تماما ، فأجاب :

ــ داخلا وخارجا . اربعا وعشرين ساعة في اليوم . والشرطة يفتحون عيونهم، هم ايضا . والمفتشون ينتظرون عند باب غرفة العجوز ليستجوبوه . ولا يزال

العجوز يفتذي بالامصال ، لا مآكل هناك ، فليس لنا اذن ان نقلق من الطبخ ، لان ذلك كان يكون ينبوعا للهم . مع هؤلاء الاتراك الميالين بشكل عنيف الى وضع السموم. انهم لا يستطيعون اطلاقا الوصول الى الدون .

وتأرجح سوني وهو يقلب كرسيه الى خلف :

ــ انهم لن يسعوا الى التعرض لي لانهم يريدون التفــاوض معي . انا حاليا محرك العائلة (وابتسم لميخائيل) واتساءل اذا كنت انت حقا مفطى ؟ يمكن لسولوزو ان يفكر بخطفك واستبقائك رهينة .

وفكر ميخائيل بحزن انه سيفوت فرصة لقائــه بكــاي اذا لــم يتركــه سوني يغادر المنزل . ولكن هاجن قال بلهجة نافدة الصبر :

ــ لا . كان بامكان سولوزو ان يخطف ميخائيل بلا صعوبة حين كان يبحث عن ضامن . ان الجميع يعرفون ان مايك لا يهتم بأعمال « العائلة » . انه مدني بسيط . فاذا خطفه سولوزو ، استفز جميع العائلات الاخرى في نيويورك . حتى آل تاتاغليا انفسهم سيضطرون للتخلي عنه . لا ، يا سوني ، لا تعقد الامور . غدا ، سيأتــي مبعوث من العائلات الخمس يبلغنا ان علينا ان نتفق مــع التركي لخير الجميع . هذا ما يجب ان نتوقعه . وهذه هي الورقة الرابحة التي سيخرجها من كمه .

وارسل ميخائيل تنهدة ارتياح وقال :

ــ حسنا ، يجب ان اهبط الى المدينة ، هذا المساء .

فسأله سوني بصوت قاطع : ــ ولماذا ؟

ابتسم ميخائيل : ــ لا شك اني سأمر بالمستشفى لزيارة العجوز والماما وكوني. وعندي شأن آخر كذلك .

كان ميخائيل ، شأنه في ذلك شأن الدون ، لا يكشف ابدا مشاغله على نحــو دقيق . والواقع انه لم يكن يريد ان يعرف سوني انه سيقابل كاي ادامس . لم يكن ثمة مبرر ليقول له ذلك . كان ذلك عنده مجرد عادة .

ارتفعت تمتمة الاصوات في المطبخ . فخرج سوني ليرى ما كان يحدث ، ثم عاد حاملا بيده صدرة لوكا برازي الواقية من الرصاص . وكانت سمكة كبيرة ميتة مغلفة بالصدرة . قال كليمنزا بصوت خشن :

ــ لقد عرف التركي بموت جاسوسه بولي غاتو .

واستأنف تيسيو باللهجة نفسها :

ــ ونعرف نحن ما آل اليه لوكا برازي .

اشعل سوني سيكارا وصب لنفسه كأس ويسكي . وكان ميخائيل مشدوها ، فســأل :

ــ ما عساها تعني ، هذه السمكة ، بحق الشيطان ؟

وكان هاجن ، المستشار الايرلندي ، هو الذي اجابه :

ــ تعني ان لوكا برازي ينام في جوف الاوقيانوس . انها رسالة تبليغ عــلى الطرز الصقلي القديم .

٩

حين هبط ميخائيل كورليون الى المدينة ، ذلك المساء ، كان مكتئبا . كان يحس نفسه متورطا اكثر مما ينبغي بارادته في شؤون « العائلة » ، وكان يأخذ على سوني انه استخدمه حتى للاجابة على التلفون . كان يحس باستياء ان يشارك في مجالس الحرب ، وكان يزعجه ان يجعلوه موضع ثقة كاملة للمحافظة على اسرار من مثل عمليات قتل . والآن وهو ذاهب الى كاي كان يحس بأنه مذنب كذلك تجاهها . انه لم يكن قط صادقا ونبيلا على نحو كامل حين حدثها عن ذويه . فهو لم يرو لها من شؤونهم الا حكايات طريفة او قصصا ملونة . وكان ذووه يأخذون في هذه القصص والحكايات مظهر مغامري فيلم بالالوان الطبيعية اكثر من مظهر افراد مشبوهين بقدر ما كان يراهم هو نفسه . والآن صرع ابوه في قلب الشارع . وكان اخوه الاكبر يدبر عملية قتل. ذلك كان هو الموقف معروضا بوضوح وصراحة ، ولكنه لن يقدمه لكاي على هذا النحو . كان قد قال لها بالتلفون ان القضية قضية « حادث عارض » وانه لا مجال بعدللقلق . يا للشيطان ! بل يبدو ان النزاع ما يزال في أوله. وكان سوني وتوم قد ضللهما هذا القرد القذر سولوزو . انهما لا يزالان ينتقصان من قدره ، بالرغم من ان سوني كان ذكيا بما فيه الكفاية ليدرك الخطر . وحاول ميخائيل ان يفكر بالمفاجأة التي يمكن ان يطاع بها التركي عليهم . لقد كان ، بكل تأكيد ، رجلا شجاعا ، ذكيا ، يتمتع بجراة عجيبة . وكان لا بد مع هذا الشخص ان يتوقع مزاحا خشنا مدوخا . ولكن سوني وتوم وكليمنزا وتيسيو كانوا مجمعين على ان ألوضع كان بأيديهم . والحال انهم جميعا كانوا أوفر منه تجربة ، هو ميخائيل. لقد كان مجرد « مدني بسيط » في هذه الحرب ، هكذا فكر وهو يقهقه . والواقع انه ينبغي ان يعطى مداليات اخرى جميلة تختلف عن تلك التي كسبها في الحرب العالمية الثانية ليشارك في مجازر الاشرار واللصوص هذه .

وعند هذه الفكرة ، احس بالذنب ان لا يشعر بمزيد من التعاطف والشفقة ازاء ابيه . لقد ثقب جسم ابيه بخمس رصاصات . ومع ذلك — ومهما بدا ذلك غريبا — فان ميخائيل كان يفهم توم ، اكثر من اي شخص آخر ، حين كان يقول عنه ان القضية لم تكن الا قضية اعمال تجارية وليست قضية اشخاص . وبعبارة اخرى ، فان اباه كان يدفع ثمن السلطة التي كان قد مارسها طوال حياته ، والاعتبار الذي اغتصبه من جميع الذين كانوا يحيطون به .

كان ميخائيل ينشد شيئا آخر ، حياة مستقلة عن جميع هذه القصص . كان يريد ان يعيش حياته على هواه . ولكنه لم يكن يستطيع التحرر من « العائلة » قبل

ان تكون الازمة قد حلت . كان لا بد له ان يقدم العون الذي كان قادرا عليه بصفته مدنيا . وفهم بحدة مفاجئة ان ما كان يزعجه انما هو الدور الذي اسند اليه ، دور اللامحارب الممتاز ، دور المستنكف ضميريا المعفو عنه . من اجل هذا كانت كلمـــة « مدني » تطرق راسه طرقا يثير الغيظ .

حين وصل الفندق ، كانت كاي في المدخل (وكان رجلان من رّجال كليمنزا قد رافقا ميخائيل الى المدينة وتركاه في زاوية كتلة المباني بعد ان تأكدا ان ليس ثمة من يتعقبهم) . وتناولا العشاء معا ، وتناولا بعض المرطبات ، وسألته كاي :

ــ في اية ساعة تريد ان ترى اباك ؟

نظر ميخائيل الى ساعته وقال : ــ الزيارات تنتهي فـــي الثامنة والنصف ، ولكني اريد ان اذهب اليه عندما يكون الجميع قد غادروه . وسيتركونني ادخـل . ان ابي مقيم في غرفة خاصة وله ممرضاته الخاصات . استطيع اذن ان ابقى فترة الى قربه . ولا اعتقد انه اصبح قادرا على الكلام او حتى على ادراك اني هنـاك . ولكن عليّ ان اظهر له احترامي .

استطردت كاي تقول . ــ انني حزينة لما حدث لابيك . لقد بدا لي لطيفا جدا في حفلة العرس . ولا استطيع ان اصدق كل ما تطبعه الصحف بشأنه . انا واثقة ان ذلك غير صحيح .

قال ميخائيل بأدب : ــ وانا مثلك لا اصدقه .

وفوجيء اذ لاحظ تحفظه بالقرب من كاي . كان يحبهـا ، وكان واثقـا بها ، ولكنه لن يقول لها شيئا ابدا عن ابيه او عن « عائلته » . ستبقى أجنبية .

وسألته كاي : ــ وانت ؟ هل تراك ستتدخل في حرب الاشرار هذه التـي تتحدث عنها الصحف بهذا القدر من الجذل ؟

ابتسم ميخائيل وفك ازرار سترته فتركها مفتوحة على سعتها ، وقال :

ــ انظري . ليس هناك من مسدس .

فانفجرت كاي ضاحكة . كان الوقت متاخرا فصعدا الى غرفتهما . واعدّت كوكتيلا لكل منهما ، وجلست على ركبتي ميخائيل بينما كانا يشربان . وتحت ثوبها لم تكن الا حريرا الى ان بلغت يد ميخائيل بشرة الفخذين المحرقة . وانقلبا عـلى السرير ، وقاما بفعل الحب وهما في ثيابهما ، وقد التصق فمه بفمها . وحين انتهيا ، ظلا متمددين ، جامدين ، يحسان حرارة جسديهما اللزجة تحت ملابسهما .

تمتمت كاي : ــ اهذا هو الحب على عجل ، كما يقول الجنود ؟

قال ميخائيل : ــ نعم .

اجابت كاي بصوت حنون : ــ ليس هو رديئا !

ونعسا حتى اللحظة التي قفز فيها ميخائيل فجأة ، ونظر الى ساعته قلقـا ، فصـــاح :

ــ يا ألهي ! انها العاشرة تقريبا . يجب ان اذهب الى المستشفى .

وقصد الحمام ليغسل وجهه ويسرح شعره . فتبعته كاي واحاطت قامتـــه بذراعيها ، ثم سألته :

ــ متى نتزوج ؟
فأجاب ميخائيل : متى تشائين ، بمجرد ان تهدأ حكاية العائلة هذه وتتحسن صحة العجوز . ومع ذلك ، فاعتقد ان من الافضل ان توضحي الامر لذويك .
سألته كاي بهدوء : ــ ان اوضح ماذا ؟
امرّ ميخائيل المشط في شعره :
ــ قولي لهم ببساطة انك التقيت فتى شجاعا وجميـــلا من اصل ايطالي . وهو نقيب في دارتموث . يحمـــل صليب الحرب . شريف . نشيط . ولكن اباه هو احد رؤساء المافيا ، يقتل الاشرار ، ويفسد احيانا كبار الموظفين . وخلال نشاطاته المتنوعة اصيب عرضا بطلقات رشاش . ولكن هذا لا شأن له بابنه المستقيم والجاد. اتظنين انك تستطيعين ان تتذكري هذا كله ؟
تركته كاي يتكلم وهي مستندة الى باب الحمام ، ثم سألته :
ــ اهذا صحيح حقا ؟ هو يفعل هذا كله ؟ هو يقتل اشخاصا ؟
انتهى ميخائيل من تسريح شعره فقال : ــ في الحقيقة ، لست ادري . ليس ثمة من يدري حقا . ولكن ذلك لن يدهشني اذا حدث .
وقبل ان يمضي ، سألته : ــ متى اراك ثانية ؟
فعانقها ميخائيل قائلا : ــ اريد ان تعودي الى منزلك . وان تفكري في هـــذا كله في مدينتك الريفية الصغيرة . على اي حال ، لا أريدك ان تتورطي في هـــذه المسألة . وبعد عطلة الميلاد ، سأعود الى الكلية ، ونذهب معا الى هانوفر ، اتفقنا ؟
قالت : ــ اتفقنا .
ونظرت اليه وهو يغادر الغرفة ويومىء لها بحركة وداع من يده قبل ان يأخذ المصعد . لم تشعر قط مثلما شعرت آنذاك بأنها قريبة منه هذا القرب ، وبأنهـــا تحبه هذا الحب . ولو ان احدا قال لها انها لن تراه قبل ثلاثـــة اعوام ، فما كانت تكون قادرة على تحمل حزنها .
حين ترجل ميخائيل من السيارة التي حملته الى المستشفى الفرنسي ، ادهشه ان يلاحظ ان الشارع كان مقفرا تماما. واذ دخل المستشفى ، زادت دهشته الا يرى احدا في البهو . عجبا ! ما كان يفعل اذن كليمنزا وتيسيو ؟ انهما طبعا لم يسبق لهما قط ان كانا في « ويست بوينت » ، ولكنهما كانا يعرفان ما فيه الكفاية فـــي مادة الستراتيجية ليقدرا أهمية المراكز الامامية . كان على رجلين من رجالهما ان يقوما بالحراسة عند المدخل .
كان آخر الزوار قد ذهبوا ، وكانت الساعة تقارب العاشرة والنصف ليـــلا . ولم يجد ميخائيل حاجة الى التوقف عند مكتب الاستعلامات ، وهو يشعر بذهنـــه متيقظا واعصابه متوترة . كان يعرف رقم غرفة والده في الطابق الرابع . وقـــد شغّل بنفسه المصعد . والعجيب ان احدا لم يوقفه حتى بلغ مكتب المرضات فـــي الطابق نفسه . ومر من غير ان يجيب على السؤال الذي طرح عليه ، وتابع طريقه حتى غرفة والده . لم يكن ثمة احد امام الباب . اين عساهما كانا ، بحق الشيطان، المخبران اللذان كان المفروض ان ينتظرا هناك ليحرسا العجوز ويستجوباه ؟ اين كان

رجال تيسيو وكليمنزا ؟ اكان داخل الغرفة احد ؟ ولكن الباب كان مفتوحا ، فدخل . وكان ضوء قمر ديسمبر ينير الجسم المضطجع في السرير ، ولمح ميخائيل وجه ابيه . كان آنذاك هادئا ، يرتفع صدره في مشقة بانفاسه غير المنتظمة . وكانت انابيب متصلة باعمدة من فولاذ تدخل في أنفه . وعلى الارض ، كان ثمة وعاء زجاجي يتلقى الافرازات التي كانت انابيب اخرى تصبها من معدته . وبقي ميخائيل هناك بضع لحظات ليتاكد ان اباه كان على قيد الحياة ، ثم خرج من الغرفة .

قال للممرضة :

— اسمي ميخائيل كورليون . اريد ان ابقى فترة الى جانب ابي . ماذا حدث للمفتشين الذين كان يفرض فيهم ان يسهروا على سلامته ؟

كانت الممرضة امراة شابة شديدة الثقة باهمية وظيفتها . قالت :

— الواقع ان الزيارات لابيك كانت تتجاوز حدها ، وهذا ما كان يضايق دائرة المستشفى . وقد جاءت الشرطة واخرجت جميع الناس منذ عشر دقائق . وبعد خمس دقائق ، اتصلت بالمفتشين تلفونيا لانهم كانوا مطلوبين على عجل من الاركان العامة ، فذهبوا هم ايضا . ولكن لا تقلق ، فانا ساهرة على أبيك ، واسمع جميع الاصوات الصادرة عن غرفته . من اجل هذا نترك الباب مفتوحا .

قال ميخائيل : — شكرا . سأجلس الى قربه فترة قصيرة . ممكن ؟

فابتسمت : — فترة قصيرة ليس الا . وبعد ذلك ، يجب ان تذهب . هذا هو النظام ، كما تعرف .

وعاد ميخائيل الى غرفة ابيه . وتناول سماعة التلفون وطلب من الموظفة المختصة في المستشفى ان تعطيه رقم الدون السري ، رقم مكتبه . وكان سوني هو الذي رد عليه ، فتمتم ميخائيل :

— سوني ، انا في المستشفى ، وقد وصلته متاخرا . اسمع يا سوني . ليس هنا احد على الاطلاق . ولا رجل من رجال تيسيو . وليس من مفتشين عند باب الغرفة . ان العجوز بلا حماية على الاطلاق .

كان صوته يرتجف . وساد صمت طويل ، ثم سمع صوت سوني منخفضا مليئا بالضيق :

— هذه هي المفاجاة التي كان سولوزو يعدها لنا . لقد كنت صائب النظرة .

— هذا ما فكرت فيه . ولكن كيف تم له اخذ موافقة رجال الشرطة بأن يخرجوا الجميع ، واين ذهبوا ؟ ماذا حدث لرجال تيسيو ؟ عجبا ! هل يضع سولوزو هذا القذر جميع شرطة نيويورك ايضا في جيبه ؟

قال سوني بصوت مطمئن :

— لا ترتعب ، ايها الصبي . لقد كان من حظنا ان تذهب الى المستشفى في هذه الساعة المتاخرة . ابق في غرفة العجوز . تحصن في داخلها . سأبعث لك رجالا في اقل من ربع ساعة ، بمجرد ان اتمكن من القيام ببعض الاتصالات . ابق هادئا ولا ياخذك الجنون . اتفقنا ايها الصبي ؟

قال ميخائيل : — لا ياخذني الجنون ؟

وللمرة الاولى منذ بدا كل شيء ، كان يشعر بغضب كبير يصعد في صدره ، حقد مميت على اعداء ابيه .

وعلق السماعة ، ورن الجرس للممرضة . لقد عزم على اللجوء الى حكمته ونظرته وحدهما دون الاهتمام بأوامر سوني . وقال للممرضة حين دخلت :

ــ لا اريد ان اخيفك . ولكن يجب ان ننقل ابي على الفور ، الى غرفة اخرى ، او الى طابق آخر . هل تستطيعين ان تنزعي جميع هذه الانابيب لنتمكن من دفع السرير ؟

فصاحت الممرضة : ــ ولكن هذا مضحك . يجب استئذان الطبيب .

قال ميخائيل بحيوية : ــ لقد قرات ما تقوله الصحف بشأن ابي ، وقد لاحظت ان ليس هنا من يحميه هذا المساء . وقد علمت ان اشرارا في الطريق الآن لكي يقتلوه هنا بالذات . صدقيني ، ارجوك ، وساعديني .

كان ميخائيل يملك قوة هائلة للاقناع حين كان يريد ذلك . قالت الممرضة :

ــ لا جدوى من نزع هذه الانابيب . فهي موصولة بالسرير .

تمتم ميخائيل : ــ هل عندكم غرفة فارغة ؟

اجابت الممرضة : ــ في نهاية الرواق .

وتم النقل في عدة دقائق ، بشكل سريع جدا وفعال جدا . وقال ميخائيل :

ــ اسهري عليه حتى وصول النجدة. واذا بقيت فيمكتبك ، فانك ستتعرضين لان تجرحي .

في تلك اللحظة ، سمع صوت ابيه ، أجش ولكن مليئا بالقوة :

ــ ميخائيل ، هذا انت ؟ ماذا حدث ؟ ماذا هناك ؟

وانحنى ميخائيل فوق السرير ، فاخذ يد ابيه بيده قائلا :

ــ نعم ، انا مايك . لا تخف . اصغ الي : لا تقم بأية حركة ، خاصة اذا سمعت من ينطق باسمك . ان هناك اشخاصا يريدون قتلك . هل فهمت ؟ ولكنني هنا . اذن ، لا تخف .

كان دون كورليون ، الذي لم يكن قد وعى تماما بعد ما حصل له عشية الامس، يتالم بشكل عنيف . ومع ذلك ، فقد ابتسم لابنه الاصغر ، كما لو انه كان يريد ان يقول له : « ولماذا تراني اخاف الآن ؟ آقد سعى كثيرون الى قتلي منذ كنت في الثانية عشرة » . ولكنه لم يملك القوة على الكلام .

١٠

ذلك المستشفى الصغير الخاص لم يكن له الا مدخل واحد . ونظر ميخائيل من النافذة الى الشارع . وكانت باحة مقوسة ، تحدها بعض الدرجات ، تفضي الى المستشفى . ولم يلاحظ ميخائيل فيها اية سيارة . وكان لا بد لكل من يدلف الى المستشفى ان يمر من ذلك المدخل . وكان ميخائيل يعرف انه لم يكن امامه سعة من الوقت ، فهبط الطوابق الاربعة عابرا باب الطابق السفلي . ولمح الى اليمين الموقف المخصص لسيارات الاسعاف ، فتحقق ان لم يكن هناك ايضا سيارات .

ظل ميخائيل واقفا على الرصيف امام المستشفى واشعل سيكارة . فك ازرار سترته وبقي تحت نور مصباح ليميزوا جيدا قسماته . وكان شاب يهبط الجادة التاسعة بخطوة سريعة ، وتحت ذراعه رزمة . كان يلبس دراعة جندي وكان شعره يشكل دغلا سميكا اسود . وحين وصل الى النور ، احس ميخائيل انه يعرف هذا الوجه ، ولكنه لم يستطع ان يتذكره . على ان الشاب توقف ازاءه ، فمدّ له يده وقال بلهجة ايطالية :

– دون ميخائيل ، هل تتذكرني ؟ انا انزو ، معاون الخباز نازورين وصهره . ان اباك حقق لي السعادة بأن حصل من الحكومة على اذن لي بالبقاء في اميركا .

فصافحه ميخائيل ، وكان يتذكره الآن .

– جئت اقدم آيات احترامي لابيك . فهل يدعونني ادخل الى المستشفى في هذه الساعة المتاخرة ؟

ابتسم ميخائيل وهزّ راسه نفيا :

– لا . ولكن شكرا مع ذلك . سأقول للدون انك قد جئت .

وسرعان ما تنبه ميخائيل لصرير محرك سيارة تهبط الشارع ، فقال :

– اذهب بسرعة . ربما وقعت الآن مشاجرات . ومن الممكن ان تحدث لك مشاكل مع الشرطة .

ورأى ميخائيل الخوف على وجه الشاب الايطالي . مشاكل مع الشرطة . هذا كان يعني الطرد او رفض منحه الجنسية الامبركية . ولكن الشاب تمالك نفسه سريعا ، وقال :

– اذا كان ثمة مشاجرات، فاني باق لاساعدك. انني مدين بذلك «للبرادينو» .

فتأثر ميخائيل . وكان يهم بان يكرر نصيحته للشاب ، ثم فكر . لماذا لا يدعه يبقى ؟ ان رجلين على باب المستشفى يمكن ان يوحيا بالشكوك لكل فريق يرسله سولوزو لانجاز العمل . اما رجل واحد ، فلن يقلق احدا . ومد سيكارة لانزو

واشعلها له . وكان كلاهما واقفا في قلب الضوء ، في تلك الليلة الباردة من ديسمبر . وكانت تنعكس عليهما واجهات المستشفى الصفراء التي كانت مزدانة بزينة عيد الميلاد الخضراء . وكانا قد انهيا سيكارتيهما حين اقبلت سيارة سوداء ، طويلة ومنخفضة من الجادة التاسعة فاستدارت في الشارع الثلاثين ، متجهة اليهما ، متابعة انحناء الرصيف . وتوقفت تقريبا . وحدج ميخائيل الوجوه داخل السيارة ، حانيا جسمه ، على غير ارادة . وزادت السيارة ابطاء ، ثم استعادت سرعتها فجأة. كان ثمة من عرف ميخائيل . واعطى سيكارة اخرى الى انزو ، فلاحظ ان يدي معاون الخباز كانتا ترتجفان . وتحقق ، بشيء من الدهشة ، ان يديه ظلتا ثابتتين.

لم يمض على وجودهما في الشارع اكثر من عشر دقائق بالتأكيد حين مزقت الهدوء الليلي سيارة لرجال الشرطة . ودارت سيارة دورية في الجادة التاسعة على عجلاتها وتوقفت امام المستشفى . وتبعها على الفور شاحنتان من المدد . وبلحظة واحدة اكتسح مدخل المستشفى رجال من الشرطة ومن المدنيين . واطلق ميخائيل تنهدة ارتياح . ان سوني الطيب لم يضيع الوقت . وتقدم الشاب لملاقاة رجال الشرطة .

وامسك به اثنان منهم طويلان قويا البنية ، وفتشه ثالث . وهبط الدرجات نقيب مليء الجسم ، وكبّيته مزدانة بالذهب . وابتعد رجاله باحترام مفسحين له مجال المرور . كانت استدارة صدره تدل على قوته وبأسه بالرغم من الشعر الابيض الذي كان يفيض عن راسه . وجه دموي شديد الحمرة . واقترب من ميخائيل وصاح به :

ــ كنت احسب اني اعتقلتكم جميعا ، ايها الاشرار الخنازير . من انت ، وماذا تفعل هنا ؟

اوضح احد رجال الشرطة ، وكان واقفا قرب ميخائيل :

ــ انه غير مسلح ، يا نقيب .

ولم يرد ميخائيل على السؤال الذي طرح عليه . كان يدرس رجل الشرطة ويتفحص وجهه ببرودة وعينيه الزرقاوين زرقة معدن . وقال مفتش باللباس المدني:

ــ انه ميخائيل كورليون ، ابن الدون العجوز .

وسأل ميخائيل بهدوء : ــ ماذا جرى المخبرين اللذين كان المفروض ان يحرسا ابي ؟ من الذي خلاّهما من مهمتهما ؟

فاستولى على ضابط الشرطة غضب هائل :

ــ يا لك من لص شرير ! اتسمح انفسك بأن ترشدني الى ما يجب ان اعمله ؟ انا الذي صرفت الجميع . وطز بجميع الدخلاء الذين يتقاتلون ، فهم لا يهمونني اكثر مما يهمني الخراء الذي افرزه . لو كان الامر لي وحدي ، لما رفعت بنصري لامنع ان يُصرع عجوزك . والآن ، افرنقع من هنا . اترك الشارع ، يا بوز الشفنين انت ، ولا تضع قدميك في المستشفى خارج ساعات الزيارة .

كان ميخائيل لا يزال يتفحصه تفحصا شديدا . وما كان يقوله النقيب لم يكن يثير فيه اي غضب . كان فكره يعمل بسرعة مجنونة . اكان من الممكن ان يكون

سولوزو موجودا في السيارة الاولى . تلك التي راوه منها واقفا امام المستشفى ؟ اكان ممكنا ان يكون سولوزو قد خابر نقيب الشرطة ليقول له تقريبا : « كيف امكن لرجال كورليون ان يكونوا بعد في المستشفى ، في حين اني دفعت لك لتحاصرهم ؟ امن الممكن ان يكون كل شيء قد دبر بعناية ، كما قال سوني ؟ ان كل شيء متوافق. وصرح ميخائيل ، وهو ما يزال مالكا اعصابه :

– لن اترك هذا المستشفى قبل ان تكون قد امنت حراسة غرفة ابي .

ولم يجد النقيب حاجة للرد ، بل قال للمفتش الذي كان الى قربه :

– فيل ، أقبض على هذا القذر .

فبدأ المفتش يقول بصوت متردد :

– ليس بالامكان تسجيل اي اثبات ضده ، يا نقيب . انه من ابطال الحرب ، ولم يسبق له قط ان اشترك في نهب او ابتزاز . ان الصحف ستجعل من الامر قصة قذرة .

استدار النقيب نحو المفتش منتفخ الاوداج من الغضب :

– اللعنة ! اقول لك ان تقبض عليه !

واذ ذاك سأل ميخائيل بخبث مقصود ، ما يزال صافي الذهن ، هادئا :

– كم يدفع لك « التركي » ، يا نقيب ، لكي تسلمه ابي ؟

فواجهه النقيب ، وامر رجلين قويين من رجال الدورية بقوله : « امسكا به ! » واحس ميخائيل ذراعيه مسمرتين على جنبيه ، وميز القبضة الضخمة ترسم قوس دائرة في الهواء . وحاول ان يتخلص ، ولكن القبضة ادركته في اعلى الوجنة . وانفجرت قنبلة في راسه فامتلأ فمه بالدم وبعظام صغيرة قاسية . وفهم انها كانت اسنانه واحس جانب راسه كله ينتفخ كطوق من مطاط ينفخ بمكبس. وكانت ساقاه مرتخيتين . ولو لم يتداركه رجلا الشرطة لسقط . ولكنه كان ما يزال مالكا وعيه . وكان المفتش المدني قد وقف امامه ليحول دون ان يضربه النقيب من جديد . وقال :

– يا الهي ! لقد شوهته يا نقيب اكثر مما ينبغي .

فأجاب ضابط الشرطة بصوت قوي :

– لم المسه ، لقد هاجمني فسقط . مفهوم ؟ لقد قاوم حين كنا نوقفه .

وعبر ضبابة حمراء ، لمح ميخائيل سيارات اخرى عند حافة الرصيف ، ونزل منها رجال عرف واحدا منهم : محامي كليمنزا . وسرعان ما توجه هذا الاخير الى النقيب يقول بصوت واثق ولهجة عذبة :

– ان عائلة كورليون قد تعاقدت مع شركة للمخبرين الخاصين من اجل حماية السيد كورليون . وجميع هؤلاء الرجال يملكون اجازة بحمل السلاح ، ايها النقيب. فاذا اوقفتهم فعليك ان تمثل صباح الغد امام المحكمة وتشرح السبب .

ونظر رجل القانون الى ميخائيل ، ثم سأله :

– هل ترغب في رفع شكوى على الذي ادماك بهذه الصورة ؟

كان ميخائيل يحس مشقة في الكلام . لم يكن فكاه يلتقيان بعد ، ولكنه

نجح في ان يتمتم :
ــ لقد تزحلقت ،تزحلقت وسقطت .
ورأى النقيب يرميه بنظرة انتصار ، فجهد بأن يرد عليه ببسمة . كان ميخائيل يريد بأي ثمن ان يخفي الغضب اللذيذ، الغضب المثلوج، الذي كان يترك لذهنه رقابة مطلقة ، وفيض الحقد البارد الذي كان يغمر جسمه . كان يريد الا يطلع احـدا في الدنيا على المشاعر التي كانت تحركه تلك اللحظة . كما كان يفعل الدون لو كـان محله . واحس بعد ذلك انهم كانوا ينقلونه الى المستشفى ، ثم فقد وعيه .

حين استيقظ صباح اليوم التالي ، تبين أن فكيه اعيدا الى مكانهما ، وان اربعا من اسنانه ، في الجانب الايسر ، كانت مفقودة . وكان هـاجن جالسا الـى راس سريره ، فسأله ميخائيل :
ــ لقد بنجوني ؟
اجاب هاجن : ــ نعم . لقد وجب استخراج بعض شظايا عظمية من لثتيك ، وقد فكر الاطباء بأن الامر سيكون آلم من ان تتحمله بلا بنج . والحق انك كنت عمليا فاقد الوعي قبل تخديرك .
تابع ميخائيل : ــ هل عندي شيء آخر مكسور ؟
ــ لا . ان سوني يريدك ان تعود الى « لونغ بيتش » . أتظن انك قادر علـى ذلـــك ؟
قال ميخائيل : ــ بالتأكيد . هل تتحسن صحة الدون ؟
فاحمر هاجن وقال : ــ هذه المسألة قد نظمت الآن . لقد استأجرنا خدمات شركة للمخبرين الخاصين والحي كله محشو بهم . سازيدك ايضاحا في السيارة .
كان كليمنزا وراء المقود ، وميخائيل وهاجن على المقعد الخلفي . وكان ميخائيل يشعر بالم واخز في راسه . وسأل :
ــ ما الذي حدث بالضبط ، مساء أمس ؟ هل تعرفانه ، انتما ؟
ــ كان ثمة صديق للعائلة بين رجال الشرطة ، المفتش فيليبس ، ذلك الـذي حاول ان يحميك . لقد شرح لنا كل شيء . ان ماك كلوسكي ، نقيب الشرطة ، رجل كان بالامكان دائما شراؤه بأغلى الاسعار منذ ان كان شرطيا بسيطا . وقد سبـق لعائلتنا ان دفعت له مبلغا طيبا ، ولكن اسنانه طويلة ولا يمكن الوثوق به . ولا بـد ان سولوزو قد اشتراه غاليا جدا . وقد اوقف ماك كلوسكي جميع رجال تيسيـو الذين كانوا في المستشفى او في نواحيه ، مباشرة بعد ساعات الزيارة . ثم استدعى المفتشين المكلفين رسميا بحراسة باب الدون . وقد زعم انه محتـاج اليهما ، وان رجالا آخرين من الشرطة سيحلون محلهما ، ولكن هذا الامر الثاني قد الغي. اكاذيب! كان مشترى ليسلم عجوزنا الى القتلة . ويزعم فيليبس انه قابل جدا لان يعود الى العملية . ولا بد ان سولوزو قد منحه ثروة ليبدأ ووعده بالكثير في حال نجاحه .
ــ هل تحدثت الصحف عن جرحي ؟
اجاب هاجن : ــ لا . لقد اخفينا الامر . ليس هناك من هو راغب في الدعاية،

لا الشرطة ولا نحن .

استطرد ميخائيل :ـ حسنا . هل استطاع الفتى انزو ان ينجو بنفسه ؟

قال هاجن : ـ نعم . كان اكثر منك مكرا . فما ان وصل رجال الشرطة حتى اختفى . وهو يزعم انه كان معك حين مرت سيارة سولوزو . هل هذا صحيح ؟

فأكد ميخائيل : ـ صحيح . انه شاب صفير طيب .

قال هاجن : ـ سوف نهتم به . هل تشعر بالتحسن ؟ (وعبر وجهه عن القلق) انك تبدو مرهقا .

اجاب ميخائيل : ـ لا بأس . ما اسم هذا النقيب ؟

ـ ماك كلوسكي . وبالمناسبة . ربما تشعر بالتحسن اذا علمت ان عائلةكورليون قد سجلت اخيرا اصابة : برونو تاتاغليا ، في الساعة الرابعة من هذا الصباح .

انتفض ميخائيل قائلا : ـ كيف ذلك ؟ كنت اظن ان علينا ان نلتزم السكون ؟

فهز هاجن كتفيه : ـ بعد ما حدث في المستشفى ، نفد صبر سوني ،فاطلق جميع منفذينا عبر نيويورك وجيرسي سيتي . وقد وضعنا لائحة في الليلة الماضية. وانا احاول ان أمسك بسوني . وربما كان بوسعك ، ياما يك ، ان تحدثه . ان المسألة يمكن ان تحل كلها من غير حرب شاملة .

قال ميخائيل : ـ سأحدثه . هل هناك اجتماع هذا الصباح ؟

فقال هاجن :ـ نعم . لقد اتصل سولوزو اخيرا وهو يريد ان يتناقش معنا. وهناك وسيط يضع التفاصيل . وهذا يعني اننا نمسك بالنصر . ان سولوزو يعرف انه قد خسر وهو يريد ان ينقذ جلده (وصمت هاجن لحظة ثم استطرد) ربما يكون قد اعتبرنا أشخاصا مائعين مستعدين ان نبيع انفسنا لاننا لم نرد على الفور . والآن وقد مات أحد ابناء تاتاغليا ، فهو يعرف كيف نعالج الامور ، لقد قام حقا بمخاطرة هائلة حين حاول التعرض للدون . وبالمناسبة ، لقد اطلعنا على موضوع لوكا . فقد قتلوه في الليلة التي سبقت محاولة اغتيال ابيك . في حانة برونو . هل تتصور ؟

أجاب ميخائيل : ـ لا عجب في ان يكونوا قد غدروه .

كان مدخل الممر المشجر في« لونغ بيتش » مسدودا بسيارة طويلة واقفة في عرض الطريق . وكان رجلان متينان مستندين الى غطائها المعدني . ولاحظ ميخائيل ان نوافذ الطابق السفلي للبيتين الاولين القائمين على جانبي الممر كانت مفتوحة . واذن ، فقد كان سوني يلعب اللعبة الكبرى !

اوقف كليمنزا السيارة خارج الممر وتابعوا طريقهم مشيا على الاقدام . وكان الحارسان تابعين لكليمنزا الذي قطب حاجبيه حين الم بهما ، على سبيل التحية. فردا بايماءة من الرأس . لا بسمة ولا تحيات . ورافق كليمنزا كلا من هاجن وميخائيل كورليون الى منزل الدون .

وفتح رجل آخر الباب قبل ان يطرقوه . لا شك في انهم قد رأوهم من النافذة . وتوجهوا نحو المكتب الجانبي فوجدوا فيه سوني وتيسيو اللذين كانا في انتظارهم . وتقدم سوني نحو ميخائيل ، فأخذ رأسه بين يديه وصرح قائلا بلهجة

تنكيد :

ــ رائع ! رائع !

فرماه ميخائيل بلكزة في صدره واقترب من المكتب ليصب لنفسه كأس ويسكي، مؤملا ان يخفف ذلك من الم فكيه .

جلس الرجال الخمسة متحلقين في القاعة ، ولكن الجو كان مختلفا عن جو الاجتماعات السابقة . كان سوني اكثر مرحا وفرحا ، وفهم ميخائيل سبب ذلك : لم يكن ثمة أي شك بعد في ذهن اخيه الاكبر . لقد انخرط ، ولن يستطيع شيء ان يوقفه بعد . كانت محاولة سولوزو الاخيرة ، في الليلة الماضية ، هي التي جعلت الكيل يطفح . لا مكان للهدنة ، بعد الآن . قال سوني لهاجن :

ــ تلقينا مخابرة تلفونية من الوسيط في اثناء غيابك . ان « التركي » يريد ان يقابلنا الآن . (وانفجر سوني ضاحكا) هذا الوغد ، ليس عنده شيء في سرواله. نبعد ان اخفق في ضربته بالليلة الماضية ، يزعم انه مستعجل للمفاوضة : اليوم او غدا . وبانتظار ذلك ، يأمل ان نجلس فلا نفعل شيئا ونقبض حماقاته باسمين . ان له معدة عجيبة !

سأله توم بحذر :ــ وما كان ردك ؟

قال سوني : ــ قلت موافق ، ولم لا ؟ في الساعة التي يشاء . فانا غير مستعجل . ان عندي مئات من المنفذين في الشارع ليل نهار . فاذا اظهر سولوزو طرف انفه ، فانه رجل ميت . دعوهم يأخذوا وقتهم .

سأله هاجن : ــ هل قدموا عرضا معينا ؟

قال سوني : ــ نعم . يريدون ان يذهب مايك ليستمع الى اقتراحاته . والوسيط يضمن سلامة الفتى . ولا يطلب منا سولوزو ضمانة سلامته هو ، فهو يعرف انه لا يستطيع ان يطلبها . فهذا غير وارد . سيكون الاجتماع اذن منظما من قبله . ان رجاله سيمرون لاصطحاب مايك ومرافقته الى مكان الاجتماع. وسيصفي مايك لسولوزو ، ثم يقرران بعد ذلك . ولكن مكان اللقاء سري . ويدعي سولوزو أن العرض سيكون مغريا جدا بحيث لن نستطيع رفضه .

وسأله هاجن : ــ وآل تاتاغليا ؟ ما الذي سيفعلون بشأن برونو ؟

ــ سيكون ذلك عنصرا من عناصر التسوية . والوسيط يؤكد ان عائلة تاتاغليا متفقة مع سولوزو . لن يدخلوا برونو في الحساب . لقد دفع ثمن ما نعلوه مع العجوز . فضربة تمحو ضربة . (وانفجر سوني ضاحكا) ان هؤلاء القذرين لا يشكون بشيء .

قال توم بحذر : ــ لنر على كل حال ما هي اقتراحاتهم .

هز سوني راسه نفيا : ــ لا ، لا ، يامستشار ! ليس هذه المرة !

كان في صوته اثرخفيف من لكنة ايطالية . كان يقلد اباه عن قصد ، على سبيل التسلية فقط :

ــ لا اجتماعات بعد . لا مناقشات بعد . ولا تمثيليات كالتي لعبها سولوزو معنا . حين يعود الوسيط للاتصال بنا ، اريد ان تبلغوه ما يلي : اما راس سولوزو

واما الحرب الشاملة . سنذهب الى الفرش وسنطلق جميع منفذينا في الشارع وسيان عندي ان يعود ذلك بالضرر على مصالحنا .

قال هاجن : ــ العائلات الاخرى لن تساندنا . فالحرب المفتوحة تكلف الجميع اغلى مما يجب .

رفع سوني كتفيه : ــ الامر يسير . لتسلمني التركي او فلتخض حربا ضد آل كورليون . (وصمت سوني لحظة ثم اعلن بخشونة) اسمع ، ياتوم ! لا نصائح بعد عن طريقة ترقيع الامور . لقد اتخذت قراري . وواجبك بعد الآن : مساعدتي للانتصار . مفهوم ؟

فحنى هاجن راسه . وظل لحظة مستغرقا في افكاره ثم إضاف :

ــ تحدثت الى رجلنا في الشرطة . وهو يؤكد ان الرقيب ماك كلوسكي مسجل على اوراق سولوزو مقابل مبلغ ضخم . وليس هذا كل شيء : ان ماك كلوسكي سيتقاضى ايضا نصيبه من تجارة المخدرات . وقد قبل ان يكون حارس سولوزو الخاص . « والتركي » لن يخرج انفه خارج ثقبه بدون ماك كلوسكي . وحين سيلتقي مايك للتفاوض ، سيكون ماك كلوسكي جالسا الى جانبه . بثياب مدنية . والآن ، عليك ان تدرك ياسوني ان سولوزو سيبقى منيعا مادام سولوزو محروسا على هذا النحو . ولم يسبق لاحد ان صرع رقيبا في شرطة نيويورك من غير ان ينال جزاءه . ان الصحافة ورجال الشرطة والكنائس وكل ما تبقى سيحيلون حياتنا الى جحيم . والكارثة الكبرى هي ان العائلات الخمس سوف تتعقبنا . ولن يكون آل كورليون بعد ذلك الا محتقرين منبوذين . وحتى حماة العجوز السياسيون لن يسعوا في هذه الحالة الا الى استعادة اعتبارهم . خذ هذا كله في حسابك .

هز سوني كتفيه : ــ لا يستطيع ماك كلوسكي ان يظل ملتصقا بالتركي الى الابد . وسننتظر .

كان تيسيو وكليمنزا يدخنان سيكاريهما ببعض العصبية ، ولا يجرؤان على الكلام . ولكنهما كانا يرشحان . ان حياتهما هي التي ستتعرض للخطر اذا لم يكن القرار المتخذ هو القرار الصالح . وللمرة الاولى ، تكلم ميخائيل ، فسأل هاجن :

ــ هل بالامكان اخراج العجوز من المستشفى واعادته الى هنا ؟

فهز هاجن راسه نفيا وقال : ــ لا . هذا اول سؤال طرحته . مستحيل ! ان حالته سيئة . سوف ينجو ، ولكنه بحاجة الى كل انواع العناية ، وربما الى عملية جراحية اخرى . مستحيل .

قال ميخائيل : ــ يجب اذن سلخ جلد سولوزو فورا . لا نستطيع ان ننتظر . ان هذا الرجل اخطر مما ينبغي . سيبحث عن اشياء اخرى . لا تنسوا هذا : ان صميم الموضوع هو انه يريد ان يتخلص من العجوز . وهو يعرف ان ذلك الآن خطر جدا . فهو اذن مستعد للمجازفة بحياته نفسها بمئة الف مقابل امل صفير واحد بربح المعركة . انه عنيد . حتى ولو لم يأمل بعد الخروج من الورطة ، فسوف يحاول مرة اخرى قتل الدون . ومن يدري ماذا يحدث ، ومعه هذا الرقيب في جيبه . انما لا نستطيع ان نقبل مخاطرة . علينا ان نتخلص من سولوزو على الفور .

حك سوني ذقنه بهيئة تفكر ، ثم قال :
ــ انت على حق ، ياولد . لا نستطيع ان نترك سولوزو يتآمر ثانية على العجوز .
فسأل هاجن : ــ وماذا تفعلون بالنقيب ماك كلوسكي ؟
التفت سوني نحو ميخائيل ببسمة غريبة وسأله :
ــ نعم ، ياولد ، ماذا تفعل بصديقك النقيب ؟
اجاب ميخائيل بهدوء : ــ حسنا . ان هذا تدبير اقصى ، ولكن هناك حالات تجد فيها التدابير القصوى تبريرها . لنفترض ان علينا ان نقضي على ماككلوسكي. ان افضل طريقة للتأتي الى ذلك هو ان ننزله في المغطس الى ما فوق رأسه . ان نبين انه ليس ضابطا مستقيما مهتما بواجبه ، بل هو موظف محتال متورط بالسلب والابتزاز وانه يدفع ثمن ذلك لانه يستحقه كجميع اللصوص الاشرار . سوف نرشو صحفيين ونعطيهم المعلومات بالادلة لتقف مقالاتهم على قدميها . وسنكون آنذاك مطاردين اقل من ذي قبل . ما رايكم ؟
نظر ميخائيل حوله باحترام . كان تيسيو وكليمنزا في هيئة غم ويرفضان ان يتكلما .
وقال سوني بالبسمة الغريبة نفسها :
ــ هيا ، ياولد . ان كلامك من ذهب . من افواه الاولاد ... هكذا اعتادالدون ان يقول . استمر ، يامايك . نريد ان نعرف منك المزيد .
كان هاجن يبتسم قليلا ، هو ايضا ويدير راسه . واحمر ميخائيل ، ثم قال :
ــ حسنا ! انهم يريدون ان اشارك في اجتماع مع سولوزو . سنكون وحدنا : سولوزو وماك كلوسكي وانا . هيء الاجتماع الى بعد غد . تدبر امرك بحيثيكتشف مخبرونا اين سيعقد الاجتماع . اطلب ان يعقد في مكان عام . لن اوافق على الذهاب الى شقة او منزل ما . فليكن في مطعم او حانة في ساعة الزحام ، اثناء الطعام ، او ما يشبه هذا لاشعر اني حقا في أمان . وسيحسون انهم هم ايضا في منجاة . وحتى سولوزو لن يتصور ان نجرؤ على صرع النقيب . سيفتشونني عند وصولي الى الاجتماع . لن اكون مسلحا . وعليك انت ان تجد وسيلة تمكنني من وضع يدي على مسدس في اثناء الاجتماع . عند ذلك ، أصفي حسابهما ، كليهما.
استدارت الرؤوس الاربعة الى ميخائيل وظلت محدقة فيه . كان كليمنزا وتيسيو مشدوهين . وكان هاجن يبدو حزينا بعض الشيء ، ولكنه غير مفاجأ . وكان يهم بان يتكلم ثم امسك لان سوني ، بوجهه الكوبيدوني الملوي بالمرح ، انفجر فجاة بضحكات صاخبة . ضحك عميق يصدر من البطن ، ضحك صادق وصريح : كان ينفجر حقا . وصوب اصبعا نحو ميخائيل ، محاولا ان يتكلم فيما هو يضحك :
ــ انت يا ولد ، في السنة الخامسة من دراساتك العليا ، انت الذي لم يرد قط ان يتدخل في شؤون العائلة ، تريد ان تقتل نقيبا في الشرطة و « التركي » وكل هذا لان ماك كلوسكي قد ضربك على وجهك . انت تجعل من المسألة قضية شخصية . بينما المسألة قضية اعمال ، قضية امور جدية تجعل منها فاجعة ! انك

تريد ان تقتل هذين الرجلين لانك تلقيت صفعة ! لم يكن ذلك الا خدعة ! كل هذه السنوات الاخيرة لم تكن الا خدعة .

التبست الامور تماما على كليمنزا وتيسيو . واعتقد ان سوني كان يضحك من جسارة اخيه الصغير ، فالتفتا نحو ميخائيل تشق وجههما بسمة عريضة لا تخلو من روح الحماية . وهاجن وحده ، كان محافظا على هدوئه الحذر . ونظر اليهم ميخائيل واحدا بعد الاخر ، ثم حدق في سوني الذي لم ينفك يضحك ويقول :

ــ تقتلهما كليهما ؟ ولكن اسمع ، يا ولد . انهم هذه المرة لن يكافئوك بالمداليات بل سيجلسونك على الكرسي الكهربائي . اتعرف ذلك ؟ ان اعمالا كهذه ليست للابطال . ان الاطلاق على العدو لا يكون على مبعدة كيلومتر . بل يكون الاطلاق حين نري بياض عينيه ، كما علمونا في المدرسة . اتذكر ؟ يجب ان تكون واقفا الى قربهما لتطير لهما نخاعهما . وسيلطخ نخاعهما ثوبك الطلابي . ماذا تقول في ذلك، يا ولد ؟ وانت تندفع في مثل هذا العمل لمجرد ان شرطيا ابله ضربك في وجهك ؟

كان سوني ما يزال يضحك . ونهض ميخائيل يقول :

ــ كف عن الضحك .

كان تغير وجهه قد بلغ من الحدة ما جعل البسمة تتلاشى على وجهي كليمنزا وتيسيو . لم يكن ميخائيل طويلا ، ولم تكن بنيته قوية ، ولكن شخصه كان يبدو وكأنه يشع خطرا . لقد جسّد دون كورليون بذاته في تلك اللحظة . امتقعت عيناه وفقد وجهه الوانه . وكان يظن انه مستعد للارتماء بين لحظة واخرى على اخيه الاكبر الذي كان اقوى منه بأسا بما لا يقاس . وليس ثمة شك : لو كان في يده سلاح ، لكان سوني في خطر . وكفّ سوني عن الضحك ، فقذفه ميخائيل بصوت مثلوج :

ــ تحسبني عاجزا عن ذلك ، ايها الابله الكبير ؟

قال سوني وقد كفكف ضحكته المجنونة :

ــ اعرف انك قادر على ذلك . انني لا اسخر بك . على الاطلاق . كنت اضحك مما آلت اليه الاحداث . لقد قلت دائما انك كنت اعند افراد « العائلة » ، بل اعند من الدوق نفسه . كنت الوحيد الذي تعاند العجوز . انني اذكرك حين كنت صغيرا هكذا . شرير حقيقي ! كنت تنقض عليّ كالوحش لاتفه الاسباب . وكنت من القوة والبأس بحيث كنت ابقيك بعيدا بما فيه الكفاية . ولكن فريدي كان مجبرا على ضربك لانك كنت تحيل حياته جحيما . ما اطرف ذلك ! ان سولوزو يتصور الان انك حمل العائلة لانك لم ترد على ماك كلوسكي امام عشرة شرطيين او عشرين ولانك لم تكن تريد التورط في اعمال العائلة . هو يعتقد انه ليس له ان يخشى شيئا اذا قابلك على انفراد . وكذلك ماك كلوسكي ، فقد اعتبرك جبانا . (وصمت سوني لحظة قبل ان يستطرد) ولكنك واحد من اسرة كورليون ، ايها الحمار الصغير ، بعد كل حساب ! وكنت وحدي من يستشعر ذلك . فهذه الايام الثلاثة الاخيرة ، بقيت هنا جالسا ، انتظر ان تسقط قناعك كجامعي ارستقراطي ، وعسكري مجيد . لقد انتظرت ان تصبح ساعدي الايمن لنباشر العمل بجد . انتظر

قليلا يا صغيري العزيز . سوف نذبح جميع القذرين الجبناء الذين يريدون قتل ابينا وتدمير عائلتنا . لقد كفتك ضربة على الفك . فما رأيك في ذلك ؟ (ورسم سوني ضربة من قبضته ، بصورة مضحكة) ما رايك في ذلك ؟

انفرج الجو قليلا في المكتب . وهز مايك رأسه يقول :

ـ انه يا سوني الشيء الوحيد الذي يعمل . لا استطيع ان اترك لسولوزو فرصة اخرى يقضي فيها على العجوز . انني الوحيد الذي يمكنه ان يقترب منه عن كثب . وقد فكرت . لن تجد شخصا آخر يصرع نقيبا في الشرطة . ربما كنت انت مستعدا يا سوني للقيام بذلك . ولكن لك زوجة واطفالا ويجب ان تدير اعمال العائلة الى ان يستعيد العجوز قواه : يبقى اذن فريدي وانا . وفريدي مرتج مصدوم خارج اللعبة . فلا يبقى غيري ، آخر الامر . ليس هذا الا منطقا محضا . ولا شأن في هذا للضربة على الفك . .

اقترب سوني من ميخائيل وعانقه وهو يقول :

ـ لا اكترث بحججك . انت معنا . هذا ما يهمني . وساقول لك شيئا آخر . انت على حق تماما . ما رايك ياتوم ؟

هز هاجن كتفيه وقال :

ـ تفكير صلب صحيح . اقول هذا لان « التركي » في رايي غير صادق . انه ينومنا بعروضه الموافقة . وانا مقتنع بانه سيحاول مرة اخرى ان يصل الى « البادرينو » . فاذا نظرنا الى ما فعل ، لم يكن لنا ان نواجه الامور على نحو آخر . واذن ، فان ميخائيل على حق : يجب القضاء على سولوزو فورا . هناك الآن نقيب الشرطة . ان من سيسلخ جلده ، هذا ، سيطارد بلا هوادة . فهل ينبغي ان يكون مايك بالذات ؟

قال سوني بصوت رقيق : ـ استطيع ان اتولى ذلك ..

هز هاجن راسه بنفاد صبر :

ـ لن يترك لك سولوزو ان تقترب الى اقل من كيلومتر منه ، حتى ولو كان الى جانبيه عشرة نقباء في الشرطة . ثم انك رئيس العائلة . ومسؤولياتك تمنعك من المخاطرة بحياتك .

وتوقف هاجن ثم سأل كليمنزا وتيسيو :

ـ هل لدى احدكما منفذ بارع ، شخص استثنائي حقا يقبل العمل ؟ لن يكون له ان يقلق بصدد المسائل المالية في ما يبقى من حياته .

تكلم كليمنزا اولا : ـ ان سولوزو يعرف افضل رجالي جميعهم . وسوف يشم رائحة المكيدة فورا . وسيفهم كذلك اذا كنت انا او تيسيو سنشارك فيها .

ـ اليس هناك شخص صلب صغير لم يعط حظه بعد ، مبتديء بارع ؟

فهز رئيسا الفرقتين راسيهما نفيا . وابتسم تيسيو ليخفف من سخرية جوابه :

ـ هذا يشبه ارسال طفل رضيع ليصيد اسدا .

وتدخل سوني بطيبة قلب :

ـ انه مايك ، وليس سواه ، لاسباب كثيرة متنوعة . اهم هذه الاسباب انهم

صنفوه في آخر الدرجات وانه قادر على القيام بالعمل . هـذا ما اضمنه . هـذا مهم لاننا لن تتاح لنا اية فرصة اخرى لقتل هذا « التركي » . يبقى التخطيط لافضل طريقة لمساعدة مايك . اسعوا ، يا توم وياكليمنزا وياتيسيو ، لمعرفة المكان الـذي سيأخذ سولوزو اليه مايك . لا يهمني ما سوف يكلفني ذلك . وحين نحصل على هذه المعلومات ، سنرى كيف نمرر له مسدسا في اللحظة المناسبة . واريدك يـا كليمنزا ان تعثر له في مجموعتك على مسدس « امين » حقا ، اكثر المسدسات التي تملكها غفلية بحيث يستحيل معرفة هويته . طاحونة الالقام فيه قصيرة وقطـر ماسورته كبير . مسدس يطلق النار على احسن وجه . ليست الدقة مهمة: سيطلق مايك عن كثب بل ملامسة اذا امكن . وانت يامايك ، بمجرد ان تستعمل المسدس، اقذفه ارضا . لا تعلق نفسك وهذه الآلة في يدك ، باي ثمن . وانت ياكليمنـزا ، احط القوس والزناد بذلك الشريط اللاصق الذي يحول دون اية بصمة من الاصابع . والآن ، لا تنس ، يامايك ، هذا . نستطيع ان نتدبر كل شيء ، الشهود والباقي . اما اذا اوقفت والسلاح بيدك ، فانك هالك . فاذا فرغت من عملك ، فسنؤمن نقلـك وحمايتك . وستختفي في اجازة طويلة ولذيذة حتى تهدأ الامور . ستغيب طويلا ، يامايك ، ولكني لا اريدك ان تودع صديقتك حتى ولا ان تتلفن لها . حين ينتهي كل شيء وتكون قد غادرت البلاد ، سأبعث لها بكلمة تقول ان كل شيء على ما يرام . هذه اوامر . (وابتسم سوني لاخيه) والآن ، ابق مع كليمنزا ، وتدرب على استعمال المسدس الذي سيختاره لك . تدرب حتى على الاطلاق . سنهتم بكل ما يبقى . بكل شيء . اموافق انت ، ياولد ؟

احس ميخائيل كورليون من جديد برعشة باردة لذيذة تسري في جسمه . وقال لاخيـه :

ـ لم تكن بحاجة الى ان تقول لي تلك الملاحظة التافهة بصدد صديقتي الصغيرة . ما عساك كنت تظن اني فاعل ، بحق الشيطان ؟ اخابرها لاقول لها الى اللقاء ؟

فأسرع سوني يجيب : ـ حسنا . ولكنك لا تزال مبتدئا . من اجل هذا امضغ لك المهمة . انس هذا التفصيل .

فاستطرد ميخائيـل ببسمة صغيرة :

ـ ماذا تعني بمبتديء ؟ لقد أصغيت الى العجوز بمثل تنبهك . وكيف تظن اني أصبحت ذكيا الى هذا الحد ؟

وانفجرا كلاهما ضاحكين .

وصب هاجن شرابا للجميع . وكان يبدو عابسا بعض الشيء : رجل الدولـة المجبر على الذهاب الى الحرب ، والمشرع المجبر على اللجوء الى القانون . وقال :
ـ حسنا . الآن ، على كل حال ، نعرف ماسوف نفعله .

١١

كان النقيب مارك ماك كلوسكي جالسا امام مكتبه يقلب ثلاثة مغلفات منفوخة بلوائح المراهنات . وكان يحاول مقطب الجبين ان يفك رموز الكتابات المسجلة على هذه اللوائح . وكان يهمه جدا ان ينجح . كان رجاله في الليلة الماضية قد قاموا بكبسة على متسلمي مراهنات عائلة كورليون فاستولوا على هذه المغلفات . وكان على المسؤول ان يشتري ثانية هذه اللوائح . والا فان المتراهنين سيدعون انهم تراهنوا جميعا على الجياد الرابحة . وسيكون الامر صحيحا بالنسبة للبعض ، فاذا لم يدفع لهم المسؤول ، فسيفكرون في قتله . وكان النقيب ماك كلوسكي حريصا على فك رموز اللوائح لانه لم يكن يريد ان يكون مخدوعا حين يبيعها ثانية الى المسؤول . فاذا كان فيها ما قيمته خمسون الف دولار ، فربما امكنه ان يطلب منها خمسة آلاف ، اما اذا كان ثمة كثير من المراهنات الكبيرة وكانت اللوائح تمثل مئة الف دولار او حتى مئتي الف ، فان الثمن سيزداد من جراء ذلك زيادة كبيرة . وتسلى ماك كلوسكي بأحد المغلفات ، ثم اعترف بأنه لم يجد الحل وقرر ان يترك المسؤول ينتقع في خوفه ويقدم له عرضا اول . ان ذلك سيرشد الى القيمة الحقيقية للوائح .

القى ماك كلوسكي نظرة على الساعة المعلقة في جدار مكتبه . لقد آن الوقت لكي يمر فيأخذ « التركي » ، ذلك الفني المشبوه ، فيصحبه الى حيث كان عليه ان يلتقي مبعوث عائلة كورليون . واجتاز ماك كلوسكي الغرفة حتى مشجبه المعدني الجداري وارتدى ثوبا مدنيا . وحين انتهى خابر زوجته بالتلفون واخبرها انه لن يعود الليلة للعشاء لان عمله سيستغرقه حتى ساعة متأخرة . ولم يكن يطلع زوجته على شيء قط . وكانت تعتقد انهما كانا يعيشان تلك العيشة المرفهة على راتبه كنقيب في الشرطة . ودمدم ماك كلوسكي بمرح : كانت امه تفكر على النحو نفسه قديما ، ولكنه كان في وقت مبكر جدا بصحبة اكفاء : كان ابوه قد دربه على الحيلة والمكر .

كان ذلك الوالد رقيبا في الشرطة ، وكان الاب والابن كل اسبوع يتنزهان في الحي . وكان ماك كلوسكي الاب يقدم ابنه البالغ من عمره ستة اعوام قائلا لاصحاب الحوانيت : « هوذا ابني الصغير » . فكان اصحاب الحوانيت يصافحونه ويهنئونه ويمدحونه ويفتحون ادراجهم التي كانت ترن بالدراهم . وكانوا يمنحون الطفل الصغير هدية من خمسة دولارات او ستة . وفي آخر النهار ، كان مارك ما كلوسكي الصغير يجد جميع جيوب ثوبه محشوة بالاوراق المالية . وكان ما يجعله فخورا جدا التفكير بأن اصدقاء ابيه يحبونه الى حد انهم كانوا يقدمون له هدية كل شهر . وبالطبع ،

كان ابوه يودع المال في المصرف ليتمكن مارك الصغير من القيام بدراساته العليا فيما بعد ، ولم يكن يترك له كل شهر اكثر من خمسين سنتا .

وفي البيت ، حين كان اعمامه ـ وكلهم من الشرطة كأبيه ـ يسألون عما كان ينوي ان يفعل حين يكبر ، كان يجيب بلطف : « سأكون شرطيا » فينفجر الجميع ضاحكين . وبالطبع ، وبرغم رغبة ابيه ان يراه متجها الى الجامعة اولا ، فقد دخل مارك الى مدرسة الشرطة بمجرد ان انهى دراسته الثانوية .

وكان شرطيا طيبا ، شرطيا شجاعا . وكان اسوا الزعران والسوقة الذين كانوا يرهبون المارة عند زوايا الشوارع يهربون مذعورين ما ان يلمحوه ، حتى من بعيد ، وانتهى بهم الامر الى ان يختفوا نهائيا من قطاعه . كان قاسيا جدا وعادلا جدا. ولم يصطحب ابنه قط الى اصحاب الحوانيت ليحصل على هدايا من النقودالعينية، كان في مقابلها يغض النظر عن المخالفات المتعلقة بالقاذورات وتوقف السيارات ؛ بل كان يأخذ المال مباشرة بيده لانه كان يشعر بأنه كان يستحقه كل الاستحقاق . ولم يكن قط قد اندس في دار للسينما او استراح في مطعم في ساعات الخدمة ، كما كان يفعل كثير من رجال الشرطة ، ولا سيما في ليالي الشتاء . بل كان يقوم دائما بدوراته من طرف الى طرف ، بخطى كبيرة منتظمة . وكان يؤمن لمحلات الحي الحد الاقصى من الحماية والخدمة . وحين كان السكيرون والمعربدون يتسربون من حانة « بواري » ليتسولوا في قطاعه ، كان يتولى امرهم بفظاظة شديدة حتى لم يكونوا يضعون بعد اقدامهم هناك . وكان تجار دائرته يقدرون هذا ويشيرون اليه.

كان يحترم « النظام » . وكان متسلمو الرهان في دائرته يعرفون انه ان يسبب لهم ابدا مضايقات ليبتز منهم مؤونة اضافية شخصية ، بل سوف يكتفي بنصيبه من المبلغ المحفوظ لفوضية الشرطة ، وكان اسمه ماثلا على اللائحة مع اسماءالزملاء ولم يكن يحاول ابدا ان يزيد نصيبه . كان شرطيا مستقيما ، فلم يكن يقبل الا البخشيش الذي لا يوسخ اليد ، وكان ترقيه في مراتب الشرطة منتظما .

على انه كان يربي اسرة كبيرة من اربعة ابناء لم يصبح احد منهم شرطيا . فجميعهم ذهبوا الى جامعة فوردام . ولم يكن يعوزهم شيء ، نظرا الى ان مارك كلوسكي قد تنقل من رتبة الرقيب الى الملازم فالى النقيب . وفي تلك الفترة ذاعت لماك كلوسكي شهرة ضراوته في طلب الربح . وقد دفع متسلمو الرهانات في سباق الخيل التابع لقطاعه اكثر مما دفع جميع الآخرين في الاحياء الاخرى لحمايتهم ربما كان ذلك لان الدراسة الجامعية لاربعة ابناء تكلف غاليا .

ولم يكن ماك كلوسكي شخصيا يرى في هذا البخشيش الشريف اي ضير . لماذا يتوجب على اطفاله ، بحق الشيطان ، ان يذهبوا الى مدرسة رخيصة من مدارس الجنوب ؟ الأن دوائر الشرطة لم تكن تدفع لموظفيها ما فيه الكفاية لتتيح لهم ان يعيشوا ويقوموا بنفقات عائلتهم على نحو مشرف ؟ لقد كان ماك كلوسكي يحمي الاشخاص المسالمين مجازفا بحياته . وكان ملفه يضم دعوات الى المبارزة بالمسدس مع عناصر تمتهن الابتزاز والسلب بالقوة ، او رجال مستعدين للعنف او قوادين . وكان قد سمرهم بالارض في غير هوادة . كان قد حافظ على سلامة الناس كما ينبغي في ركنه

الصغير من المدينة ، وكان يعي انه يستحق اكثر من ورقة المئة دولار الاسبوعيـة، ولكنه لم يكن مغتاظا من راتبه الهزيل ، لانه كان يدرك ان على كل فرد في الحيـاة ان يهتم بشؤونه ويسهر على مصالحه .

وكان برونو تاتاغليا واحدا من اصدقائه القدامى . وكان برونو قد التحق بجامعة فرودهام مع احد ابنائه . ثم فتح برونو مرقصه . وحين كانت اسرة ماك كلوسكي تقضي سهرة في المدينة ـ وهو حادث نادر ـ فقد كانت تتناول العشاء وتشـرب وترقص في المرقص على حساب المؤسسة . وكانت اسرة ماك كلوسكي تتلقى بمناسبة عيد القديس سيلفستر دعوات من ادارة المرقص وتحجز لهم فيه دائما احسـن الطاولات . ولم يكن برونو يفوته قط ان يقدم لهم مشاهير هوليوود ونجومها .كان طبعا يطلب بين الحين والحين خدمة صغيـرة ، وخاصة تبييض السجـل العدلي (الورقة الصفراء) لصديق او صديقة حتى يسمح لها بالعمل في المرقص ، وكـان ذلك يتعلق غالبا بفتاة جميلة لها عند الـشرطة سجل خاص او سبق ان حكمت بتهمة اصطياد المارة او سرقة الزبائن او البغاء بكل بساطة . وكان النقيب ماك كلوسكي يحب ان يؤدي خدمات كهذه .

كانت سياسته تقوم على التظاهر بعدم فهم ما كان الاخرون قادرين عليه .وحين اتصل به سولوزو ليطلب منه ترك العجوز كورليون بلا حماية في المستشفى ، لم يساله ماك كلوسكي : « لماذا ؟ » بل « كم ؟ » . وحين اجابه سولوزو : « عشرة الاف دولار » حزر ماك كلوسكي لماذا . ولم يتردد . كان كورليون واحدا من اهم رجال المافيا ، وكانت له علاقات سياسية لم يكن مثلها قط لكابوني . فكل من يقضي عليه يؤدي خدمة كبيرة للبلاد . واخذ ماك كلوسكي المال مسبقا وقام بما طلب منه.وحين تلفن له سولوزو انه ما يزال هناك رجلان من اتباع آل كورليون امام المستشفى ، استولى غضب شديد على النقيب . كان قد قبض في الواقع على كل رجال تيسيو وسحب المفتشين الذين كانوا يسهرون امام باب كورليون في المستشفى . والآن ، كان عليه ، هو صاحب المبادىء ، ان يعيد العشرة الاف دولار ، هذا المال الطيب المدخر لدروس اطفاله ! وفي تلك السورة من الغضب اتجه الى المستشفى ، وضرب ميخائيل كورليون .

ولكن كل شيء قد انتهى الى خير . فقد راى سولوزو ثانية في مرقص تاتاغليا وعقد معه تسوية افضل . وهذه المرة ايضا لم يطرح ماك كلوسكي اسئلة لانه كـان يحزر دائما الاجوبة . كل ما فعله انه اطمان على السعر . ولم يخطر له قط انه هو نفسه يمكن ان يتعرض للخطر . كان خارج المعقول ان يفكر احد ، ولو لحظة، بقتل نقيب من شرطة نيويورك . ان اكبر شقي من المافيا لن يجرؤ ابدا على ان يقاوم اذا قرر ادنى رجال الشرطة رتبة ان يصفعه . . وليس لاحد مطلقا اية مصلحة في قتـل شرطي ، لان اللصوص سرعان ما يطاردون ويقضى عليهم ـ في كل مكان وباية حجة كانت : تهديد او عنف او محاولة للهرب الخ . . . ومن تراه سوف يعترض ، بحـق الشيطان ؟

تنهد ماك كلوسكي وتهيا لمغادرة المفوضية . مشاكل ، مشاكل دائمة ! كـانت

اخت زوجته قد ماتت في ايرلندا بسرطان كانت تصارعه منذ سنوات ؛ وقد كلف النقيب مبلغا محترما . وها ان الجنازة ستكلفه الان المزيد . وكان اعمامه وعماته في البلدة بحاجة الى مساعدة مالية صغيرة بين الحين والحين لصيانة حقل البطاطا الذي يخصهم ، وكان يرسل بعض المال ، دون مضض . وحين كان هو وزوجته يعودان الى البلدة ، يعاملان فيها كملك وملكة . ربما قاما بهذه الرحلة ايضا الصيف القادم مادامت الحرب قد انتهت ومن المنتظر ان يدخل عليهم بعض المال غيرالمتوقع.

وقال ماك كلوسكي للسكرتير اين يجده اذا كانت هناك حاجة اليه . لم يكن يرى من الضرورة ان يتخذ احتياطات استثنائية . فعند اللزوم ، سيدعي انسولوزو كان مخبرا . هل هناك ما هو اكثر طبعية من ذلك ؟ وابتعد مترجلا عن المفوضية ، عابراً عدة مفارق ، ثم استقل سيارة اجرة لتاخذه الى المكان الذي سيلتقى فيه مع سولوزو .

كان توم هاجن قد فعل كل ما هو ضروري لتأمين هرب ميخائيل الى الخارج: جواز مزور ، بطاقة تسجيل بحرية ، حجز مكان على ظهر سفينة شحن ايطالية تلقي مرساتها في مرفأ من مرافيء صقلية . وذلك اليوم نفسه ، استقل الطائرة مبعوثون الى جزيرة الجدود ليهيئوا ، مع رئيس من رؤساء المافيا ، ، مخبأ للهارب في ذلك البلد الجبلي .

واهتم سوني بالسيارة وبسائق موثوق جدا ينتظر ميخائيل عند باب المطعم الذي سيتم فيه اللقاء مع سولوزو . سيكون السائق هو تيسيو شخصيا الذي تطوع للمهمة . وسيكون للسيارة مظهر سيارة مستعملة ولكن محركها سيكون ممتازا ، وستكون صفائح التسجيل مزورة . بالطبع ، لن تقدم هذه السيارة اية اشارة او ارشاد ، فقد كانت منذ وقت طويل مركونة في الاحتياط انتظارا لمهمة خاصة تتطلب اكبر قدر من الحظوظ .

قضى ميخائيل نهاره بصحبة كليمنزا يتدرب على استعمال المسدس الذي سيقدم له : مسدس ٥ر٥ مليمترا . ان الرصاصات ذات الراس المستدير تحدث ثقوبا مخرزية عند دخولها وتخريبات مريعة داخل الجسم عند خروجها . ولاحظ ميخائيل ان السلاح كان يحافظ على كل دقته على بعد متر ونصف من المرمى .اما بعد ذلك ، فقد كانت الرصاصات تتناثر في كل مكان . كان الزناد قاسيا ولكن كليمنزاً قام بالضروري بواسطة الآته لتطويعه . وقررا ان الصوت لم يكن بذي بال ، بل ان انفجارات مصمة من شانها ان ترشد آرشارا مفيدا اي شخص يوجد في تلك النواحي . (فالافضل الحيلولة دون ان يأتي مار بريء ليتدخل ، غيرمصغ الا الى شجاعته) ان صوت المسدس من شأنه ان يجعل كل شخص على بعدمناسب.

وطوال هذه الجلسة التدريبية ، لم يكف كليمنزا عن ان يردد له :

ـ دع مسدسك يسقط بمجرد ان تنتهي . دع ذراعك بكل بساطة تسقط الى جانبك ، وافتح يدك ، فيسقط المسدس دون ان يحس احد . الجميع سيظنون انك ما تزال مسلحا . وسيحدقون في وجهك . اترك المكان بسرعة ولكن لا تركض .لاتنظر

الى احد في عينيه ، ولكن لا يغرب عـن عينيك احد . تذكر انهم سيخافون منـك، صدقني انهم سيخافون منك . ولن يتدخل احد . وسينتظرك تيسيو عند الباب . استقل سيارته ولا تهتم بالباقي . لا تخف غير المتوقع . سيدهشك ان تلاحظ الدقة التي ستسير عليها هذه الامور . والآن ، جرب هذه القبعة لنرى ماذا تشبه !

ووضع على راس تلميذه لبادة رمادية ، فكان ان كشر ميخائيل ، هو الذي لم يرتد قبعة قط . وطمانه كليمنزا :

ـ هذا ما يجعل التعرف الى هويتك اصعب : مجرد احتياط . وهو على الاخص يعطي الشهود عذرا لتغيير اوصافهم حين نفتح لهم اعينهم . لا تقلق بشأن البصمات . ان القوس والزناد محميان بشريط خاص . ولا تلمس اي جزء آخر من المسدس . حذار من ذلك !

سال ميخائيل : ـ هل يعرف سوني الى اين سياخذني سولوزو ؟

فهز كليمنزا كتفيه قائلا : ـ لا يعرف بعد . ان سولوزو حذر جدا . ولكن لا تقلق : انك لا تعرض نفسك لاي خطر من هذه الناحية . ان الوسيط سيبقى بيـن ايدينا ما لم ترجع سليما معافى . فاذا حصل لـك اي شيء ، فان الوسيـط سيدفع الثمن .

ـ ولماذا يجازف هذا الرجل بحياته من اجلي ؟

ـ لانه يقبض مبلغا محترما : ثروة صغيرة . انه شخص له وزنه في العائلات . وهو يعرف ان سولوزو لا يمكن ان يسمح بتعريضه للقتل . وحياتك انت ، في نظر سولوزو ، لا تساوي حياة المفاوض . الامر بسيط جدا . لن يحدث لك شيء .بل نحن الذين سنكون في الجحيم بعدك مباشرة .

ـ ما الذي سيحدث ؟

اجاب كليمنزا : ـ اسوأ الامور . ستكون الحرب بلا هوادة بين عائلتي تاتاغليا وكورليون . وستنحاز اغلب العائلات الباقية الى جانب آل تاتاغليا . ان القـذره ستتلقى جثثا هذا الشتاء . (وهز كليمنزا كتفيه) ما الحيلة ؟ لا بد من ان يحـدث مثل ذلك كل عشر سنوات تقريبا . وهذا يطهر الدم الفاسد . ثم اننا اذا تركناهم يدوسون على زهورنا ، فسيطمعون بسلبنا كل شيء . يجب ان نوقفهم عند حدهم منذ البداية ، كما كان الواجب ايقاف هتلر منذ ميونيخ . كان ينبغي الا تترك يـده حرة ابدا . وكان ذلك يعني السير باستقامة نحو الصراع .

كان ميخائيل قد سمع اباه يقول الاشياء نفسها في الماضي ، وفي عام ١٩٣٩ انفجرت الحرب فعلا . وفكر ببسمة : لو اعطيت العائلات وزارة الخارجية ، لمـا وقعت اطلاقا حرب عالمية ثانية .

وعادا بالسيارة الى الممر المشجر والى بيت الدون حيث كان سوني ما يزال قائما على مركز القيادة . وتساءل ميخائيل كم من الوقت يستطيع اخوه الاكبر ان يظل محصورا في الحصن العائلي . لا بد له آخر الامر من المجازفة بالخروج منه .

ووجد الرجلان سوني وهو ياخذ سنة من النوم على الاريكة . وكانت بقايا غدائه مطروحة على الطاولة المتنقلة : نثار من اللحم ، وفتات من الخبز ونصف زجاجة من

الويسكي .

كان مكتب ابيه ، النظيف عادة ، يأخذ مظهر غرفة مؤثثة سيئة الصيانة . وهز ميخائيل اخاه ليوقظه ، قائلا :

— انتهى بك الامر الى التسكع والتشرد . انهض ونظف هذه الغرفة .

تثاءب سوني : — من تحسب نفسك ؟ أتظنك تفتش مراقد الجنود ؟ اسمع يا مايك : اننا لا نعرف بعد اين ينوي هذان الوبشان ان يأخذاك . فاذا لم نعرف ذاك ، فكيف لنا أن نمرر لك الالة ؟

سأل ميخائيل : — ان احمله معي ، اهذا حقا غير ممكن ؟ لا شيء يثبت انهم سيفتشونني . وحتى اذا فتشوني فلن يجدوا بالضرورة مسدسا مخفيا جيدا . وحتى اذا وجدوه ، فماذا يحدث ؟ انهم سيأخذونه ، وهذا كل ما في الامر .

هز سوني راسه نفيا وقال : — لا . يجب ان نكون واثقين جدا من ضربتنا مع سولوزو هذا القذر . فبقدر الامكان ، التركي اولا ومن اللحظة الاولى . اما ماك كلوسكي فهو ابطأ وابلد . ومعه تستطيع ان تأخذ كل وقتك . وقد نصحك كليمنزا ان تسقط مسدسك باسرع ما تستطيع .

— قالها اكثر من عشرة الاف مرة .

نهض سوني وتمطى ثم سأله :

— كيف حال فكك ، يا ولد ؟

قال ميخائيل : — سيء .

وكان الجانب الايسر من وجهه يؤلمه ، باستثناء الجزء المخيط الذي كان ما يزال مسترخيا بالبنج . وتناول زجاجة الويسكي على الطاولة وحملها مباشرة الى فمه ، فخف الالم ، وامره سوني بقوله :

— على مهل ، يا مايك . ليست هذه لحظة مناسبة .

قاطعه ميخائيل قائلا : — كفاك تمثيلا لدور الاخ الكبير . لقد حاربت اشخاصا أقسى واعند من سولوزو وفي ظروف اصعب . اين هي ، بحق الشيطان ، مدافعه الهاون ؟ هل هو محمي بالطيران ؟ الديه مدفعية ثقيلة ؟ الغام ؟ انه ليس الا ابن قحبة شاطرا والى جانبه شرطي . وليس هناك من مشكلة مادية بالنسبة لمن هو عازم على اصطيادهما . المشكلة الوحيدة هي العزم . ولقد عزمت . لن يتاح لهم حتى الوقت لفهم ما يجري .

دخل توم هاجن الغرفة ، فحيا الاخوين بايماءة راس بسيطة واتجه توا نحو التلفون السري . وركب عدة ارقام ثم هز راسه وهو ينظر الى سوني قائلا :

— لا همسة . ان سولوزو يحفظ السر ما وسعه ذلك .

ورن التلفون فرد سوني ورفع يده كما ليطلب الصمت ، بالرغم من ان احدا لم يتكلم . وخربش بعض كلمات على مفكرة ، وقال : « حسنا . سيكون هناك » . ثم اعاد السماعة وقال :

— ابن القحبة هذا ، شخصية لئيمة حقا . هذا هو موعد اللقاء : في الساعة الثامنة هذا المساء ، يأخذ سولوزو والنقيب ماك كلوسكي مايك من امام حانة جاك

دامبسي في برودواي . وسيذهبون الى مكان ما ليتحادثوا . واسمع هذا : ان مايك وسولوزو يتحدثان الايطالية حتى لا يفهم الشرطي الايرلندي شيئا . بل هو قد قال لي : « لا تقلق . هذا الرجل لا يعرف الا كلمة ايطالية واحدة : Soldi الفلوس ! » ان سولوزو هذا ماهر في مهنته ، صدقني . بل هو يعرف انك تفهم اللهجة الاقليمية الصقلية .

قال مايك بجفاء : ــ انني صدىء بما فيه الكفاية ، ولكننا لن نتناقش طويلا .

قال توم هاجن : ــ لن ندع مايك يذهب قبل ان نحتجز الوسيط ليكون ضامنا.

قال كليمنزا : ــ لقد تم ذلك . ان الرجل في بيتي ، ينتظر مع ثلاثة من رجالي. وهم ينتظرون مخابرة مني ليتركوه

انقلب سوني في مقعده الجلدي : ــ والان كيف لنا يا توم ان نعرف بحق الشيطان مكان المحادثات ؟ ان لنا مخبرين عند آل تاتاغليا . ولكنهم لا يتحركون . فلماذا ؟

هز هاجن كتفيه قائلا : ــ ان سولوزو ذكي حقا . وهو يلعب بحذر . وهو يفضل ان يستغني عن حارسه الخاص على ان يعرف احد شيئا . انه يتصور ان النقيب سيكفي وان هذا الامان يساوي اكثر من المسدسات . فاذا لم نجد ما هو افضل ، فلنطلق رجلا يتعقب مايك ، ولنأمل ان يجري كل شيء على ما يرام .

نفض سوني راسه : ــ لا . ان اي انسان يمكن ان يفلت من التعقب . ثم ان ماكرا كالتركي سيتحقق ان كان ثمة من يتعقبه .

وعند الساعة الخامسة بعد الظهر لاحظ سوني ، قلقا :

ــ ليس امام مايك ، في آخر المطاف ، الا ان يرش الذين سيأتون لمرافقته بالسيارة .

هز هاجن راسه قائلا : ــ واذا لم يكن سولوزو موجودا فيها ؟ ان مايك في هذه الحالة سيلطخ نفسه من اجل لا شيء . يا للعنة ! يجب ان نكتشف الى اين يأخذه سولوزو .

قال كليمنزا : ــ مسألة تضليل . لنحاول ان نعرف لماذا يحيط التركي نفسه بكل هذه الخفايا .

فقطع ميخائيل نافذ الصبر : لان هذا صالحه . فكلما قل كلامه كان ذلك خيرا له . ثم انه يشم الخطر . ماكر وحذر ، سولوزو هذا . هذا طبيعي . انه يحتاط حتى وهو في ظل نقيب الشرطة .

طقطق هاجن اصابعه : ــ هناك فكرة . المفتش ... المدعو فيليبس . خابره يا سوني ، فربما عرف اين يلتقي بالنقيب . يستحق الامر ان تحاول . ان ماكلوسكي لا يخاف بالتأكيد ان يقول اين هو ذاهب .

تناول سوني السماعة وركب الرقم . وتكلم على مهل ثم اعاد السماعة وهويقول:

ــ سوف يطلبنا .

وانتظروا زهاء نصف ساعة ، ثم رن جرس التلفون . كان هو الشرطي السري فيليبس . ونهض سوني فرفع السماعة بعصبية ، وانتظر الجميع في صمت .

وسجل سوني شيئا على مفكرته . كانت قسماته متوترة . ثم قال :
ــ في الجيب ، يا اولاد . لا بد للنقيب ماك كلوسكي من ان يترك دائما العنوان الذي يمكن موافاته اليه . من الساعة الثامنة حتى العاشرة هذا المساء سيكون في مطعم « لونا ازور » في البرونكس . هل تعرفونه ؟

اجاب تيسيو بثقة : ــ نعم ، وهذا يناسبنا تماما . مطعم صغير للعائلات مع مقصورات صغيرة يمكن التحادث فيها بكل هدوء. طعام جيد . وزبائن قريرو العين. الزاوية المثالية . (وانحنى على مكتب سوني ورسم خطة بأعقاب السكاير) هذا هو المدخل . بعد ان تنهي عملك يا مايك اخرج واستدر يسارا امام الباب ، وكذلك يسارا عند زاوية الشارع . سأتابعك ، وساضيء مصابيح السيارة ثم آخذك على الطائر . اذا واجهت اية صعوبة ، فاصرخ وسأحاول ان اغطي فرارك . وقد آن الاوان ، يا كليمنزا ، للتحرك من اجل اخفاء المسدس . انني اتصور جيدا مراحيض الفندق : بناء على الطراز القديم ، فيه اتساع كبير بين المستودع والحائط . هناك يجب اخفاء السلاح . حين يفتشونك ، يا مايك ، في السيارة فلا يجدون شيئا ، لن يكونوا خائفين بعد . ابدأ بالجلوس ، بل كل بشهية . وبعد ذلك اذهب بهدوء لتاتي بالآلة . لا ، بل الافضل ان تستأذن للذهاب ، فيما انت تتظاهر بانك حاقن ، سيكون ذلك طبيعيا جدا . وعند عودتك ، لا تضيع الوقت ، بل لا تجلس . أطلق النار على الفور . ولكن عن كثب . لا تجازف خصوصا . أطلق عن قرب . في صميم الوجه . قرصان لكل منهما ، ثم اخرج .

كان سوني قد اصغى بهيئة بحاثة ، فقال :
ــ حذار يا كليمنزا . اريد واحدا موهوبا جدا ، موثوقا جدا ليخفي هذا المسدس . انك لا تتصور الولد خارجا من المراحيض فارغ اليدين .

قال رئيس الفرقة بلهجة احتفالية : ــ سيكون المسدس هناك .
اجاب سوني : ــ حسنا .. اذن ، الجميع الى العمل .
خرج تيسيو وكليمنزا . وسأل هاجن :
ــ هل آخذ مايك الى نيويورك ؟

اجاب سوني : ــ لا ، فانا بحاجة اليك هنا . حين ينتهي مايك من مهمته ، ستكون الاعمال كثيرة بين ايدينا ، نحن الاثنين . هل اهتممت برجال الصحافة !
هز هاجن رأسه ايجابا وقال : ــ سأمرر لهم الاخبار بمجرد ان تنطلق الامور .
ونهض سوني ، فانزرع قرب ميخائيل ، وقال :
ــ اذن ، أتى دورك ، يا ولد ، في اللعبة . سأتدبر الامر مع الماما ما دمت ذاهبا من غير ان تراها . وسارسل كلمة الى صديقتك في اللحظة المناسبة . اتفقنا؟
أجاب مايك : ــ اتفقنا . بعد اية فترة من الزمن تعتقد انني استطيع العودة ؟
قال سوني : سنة على الاقل .

وتدخل هاجن : ــ ربما أمكن للدون ان يجعل الامور تجري بأسرع من هذا ، يا مايك ، ولكن لا تعلق على ذلك آمالا كثيرة . ان هذا متوقف على عوامل عديدة ! على نجاح قصصنا مع الصحفيين ، على موقف دوائر الشرطة . على العنف الذي

سترد به العائلات الاخرى . ثق بشيء واحد ، سيترك الامر فقاعات . باستثناء ذلك؛ لا يمكن التكهن بشيء .

صافح ميخائيل يد هاجن وهو يقول :

ـ ابذل ما في وسعك . لا اريد ان اقضي ثلاثة اعوام اخرى بعيدا من هنا .

قال هاجن بلطف : ـ لم يفت الاوان بعد لتتراجع يا مايك . ان بامكاننا ان نجد شخصا آخر ، وبامكاننا ان نعدل عن قرارنا . ربما لم يكن ضروريا تصفية سولوزو.

انفجر ميخائيل ضاحكا : ـ نستطيع كذا ، نستطيع كيت . ونستطيع خصوصا ان نروي شتى انواع الحكايات . لقد اتخذنا قرارنا بعد تفكير ناضج . ولقد توفرت لي وسائل النجاح طوال حياتي ، وآن الاوان ان ادفع ديني .

استطرد هاجن يقول : ـ لا تتأثر لما حصل لفكك . ان ماك كلوسكي حمار . فهو يضرب بدافع العادة والمبدأ . لا تجعل من المسالة قضية شخصية .

وللمرة الثانية رأى وجه ميخائيل كورليون يتجمد في قناع كان يشبه شبها عجيبا سحنة الدون . وقال مايك :

ـ ليس هناك ترهات . كل شيء عاطفي : زيت الزيتون ، والضربات على الوجه ، والفئران ، والسلب والابتزاز ، كل شيء . يسمون ذلك الاعمال . حسنا . ولكن الاعمال شخصية ، شأنها شأن الجحيم . اتعرف ممن تعلمت ذلك ؟ من الدون، من عجوزي . البادرينو . اذا ضربت الصاعقة احد اصدقائه ، جعل العجوز من ذلك قضية شخصية وعاطفية . وعلى هذا النحو اعتبر انخراطي في البحرية . من اجل هذا كان رجلا عظيما : الدون الكبير . ان كل شيء في نظره قضية شخصية ، كما هي بالنسبة للرب . يعرف كل ريشة تسقط من ذنب عصفور ، ويعرف كيف حال العصفور . صحيح ؟ ولا يحدث اي حادث قط للذين يعتبرهم اهانة شخصية. لقد اقبلت متأخرا على العائلة . حسنا . ولكني مقبل عليها كليا . انت على حق تام: لقد اخذت هذا الفك المكسور قضية شخصية ، ويا للعنة ! واعتبر ارادة قتل سولوزو لابي قضية شخصية وعاطفية الى ابعد حد . (وضحك) قل للعجوز انه هو الذي علمني ذلك كله . وقل له ايضا ان هذه في نظري ، فرصة لارد له قليلا مما فعله من اجلي ، وانا بذلك سعيد . لقد كان ابا صالحا ، وانا اصبح ابنا صالحا .

وصمت لحظة ، ثم استتلى بلهجة متفكرة ، متجها الى هاجن :

ـ اتدري .. انني لا استطيع ان اتذكر انه ضربني يوما . ولا انه ضرب سوني او فريدي ، وكذلك كوني . بل هو لم يكن حتى ليصرخ فيها . قل لي الحقيقة ، يا توم ، كم رجلا تعتقد ان ابي قد قتلهم ؟

تردد توم هاجن ، ثم قال : ـ سأقول لك شيئا لم يعلمك اياه ، ما دمت تتكلم الان على هذا النحو . ان المرء يفعل اشياء يجب ان تفعل ، ولكنه لا يتحدث عنها ابدا. انه لا يحاول ان يبررها . يفعلها ، هذا كل شيء . ثم ينساها

قطب ميخائيل كورليون حاجبيه ، ثم قال بهدوء :

ـ بصفتك مستشارا ، اتعترف ان من الخطر على الدون وعلى عائلته ترك سولوزو يعيش ؟

اجاب هاجن : ـ نعم .
قال ميخائيل : ـ حسنا . يجب اذن ان اقضي عليه .
وامام مطعم جاك دمبسي ، في برودواي ، كان ميخائيل كورليون واقفا ينتظر ان يأتوا فيأخذوه . ونظر الى ساعته . كانت الثامنة الا خمسا . سيكون سولوزو دقيقا في موعده . وكان ميخائيل قد وصل متقدما عن قصد منه . كان ينتظر منذ ربع ساعة .

وفي الطريق من لونغ بيتش الى المدينة، كان قد حاول ان ينسى ما قاله لهاجن. والحق انه ان كان يؤمن بما قال ، فهذا يعني ان حياته قد اتخذت مجرى لا عودة فيه . اما اذا لم يكن مؤمنا به ، فكيف تراه سيستعيد حياته السابقة بعد الذي يكون قد قام به هذا المساء ؟ ثم قال لنفسه بأسى ان همومًا كهذه لا نفع فيها ستقوده الى ابعد مما يتصور ، حتى الى الانتحار . بعد الان ، ينبغي الا يفكر الا في مهمته هذا المساء . لم يكن عند سولوزو اية بلاهة ، وكان ماك كلوسكي قردا قذرا . وأحس الالم في فكه المخيط فباركه : ان هذا الالم سيبقيه على حذره .
لم يكن السير في برودواي كثيفا في تلك الليلة الشتوية الباردة ، بالرغم من ان الوقت متأخر : ساعة المسارح تقريبا . وارتعش ميخائيل حين توقفت سيارة طويلة سوداء الى جانب الرصيف فأطل السائق ليفتح الباب وليقول : « اصعد ، يا مايك » ولم يكن ميخائيل يعرف هذا السوقي الشاب ذا الشعر الاسود اللماع والقميص المفتوح . ومع ذلك ، فقد صعد . كان النقيب ماك كلوسكي وسولوزو جالسين في المقعد الخلفي .

ومد سولوزو يده من فوق المقعد ، فصافحها ميخائيل . كانت اليد متينة ، وحارة وجافة . وقال التركي :

ـ انني سعيد بمجيئك ، يا مايك . ارجو ان يكون بامكاننا توضيح الامور . لقد اتخذت مجرى رهيبا . ولم اكن اريد ان تجري على هذا النحو . لم يكن لهذا كله ان يحدث .

قال ميخائيل بهدوء : ـ اتمنى انا ايضا ان نستطيع تصفية كل شيء هذا المساء . انني راغب الا يواجه ابي اية مشاكل بعد .
فأكد سولوزو بحيوية يقول : ـ لن تحدث له مشاكل بعد . اقسم لك على راس اولادي ان هذه المسائل قد انتهت . حاول جهدك ان تبقى هادئا في اثناء النقاش . وارجو الا تكون محتدا احتداد اخيك سوني . من المستحيل ان يتحدث المرء معه حديث الاعمال .

تمتم النقيب ماك كلوسكي وقد مال يربت بشفف على كتف ميخائيل :
ـ اما هذا ، فهو فتى صغير طيب . انسان جيد . وانا آسف لما حدث ، تلك الليلة ، يا مايك . لقد اصبحت اكبر سنا مما يجب بالنسبة لعمل كعملي ، سريع الغضب . ولن البث طويلا حتى اتقاعد . انني لا استطيع بعد تحمل المعاكسات والمضايقات ، وهي كثيرة طوال النهار . انت تعرف ما هي .
وأرسل تنهدة اليمة ، ثم فتش ميخائيل بمهارة واضحة ليتأكد انه لم يكن

يحمل سلاحا .

ولاحظ ميخائيل بسمة خفيفة على شفتي السائق . وكانت السيارة تتجه الى الغرب من غير ان تحاول ظاهرا الافلات من المتعقبين . وسلكت طريق « وليست سايد هايواي » مسرعة تاره ، مبطئة تارة اخرى في السير . وقد كان على كل من يرغب في تعقبها ان يفعل مثلها . ثم اخذت ميخائيل الدهشة ان يراها تغادر المدينة من جسر جورج واشنطن : كانوا متجهين الى جيرسى . ان من دل سوني على مكان الاجتماع كان قد خدعه ، او ربما يكون أخطأ هو نفسه عن نية بريئة . دلفت السيارة انى المنحدرات المفضية الى الجسر ، ثم عبرته مخلفة وراءها المدينة المشعة . وظل وجه ميخائيل هادئا . اتراهما سيقذفان به في المناقع ، ام يكون بكل بساطة تغييرا في اللحظة الاخيرة وضعه سولوزو الماكر ؟ ولكن حين وصلوا الى منتصف الجسر تقريبا ، فتل السائق المقود فتلة مفاجئة ، فقفزت السياره قفزة راعدة فوق السهلة المركزية ، كأنها جواد اصيل . واذا هي تسقط على الطريق المعاكس المؤدي الى نيويورك . ونظر ماك كلوسكي ـوسولوزو ان كان ثمة سيارة اخرى تفعل مثل ذلك. وتابع السائق في طريق نيويورك ، فاجتاز الجسر متجها الى « ايست برونكس » . وسلكوا شوارع صغيرة . لم تكن ثمة اية سيارة تتبعهم . وكانت الساعة انذاك تقارب التاسعة . واشعل سولوزو سيكارة بعد ان قدم علبته لماك كلوسكي وميخائيل، فرفض كلاهما . وقال سولوزو للسائق :

ـ شغل جميل . سأتذكر ذلك .

وبعد عشر دقائق ، توقفت السيارة امام مطعم مزين على الطريقة الايطالية . ام يكن ثمة احد بعد في الشوارع ، وبسبب الوقت المتأخر ، كان الباقون على الطاولات قلة قليلة . وخشي ميخائيل ان يدخل السائق معهم ، ولكنه بقي خارجا في السيارة . والحق ان الوسيط لم يكن قد تحدث عن السائق . لم يكن واردا اي كلام عنه . ولو اشركه سولوزو بالمحادثات ، لكان تكنيكيا قد خالف الاتفاق . وحتى حضوره في الشارع ، على مقربة ، كان امرا مشبوها . ولكن ميخائيل قرر الا يتحدث في الموضوع : كان يعرف انه لو فعل لاتهمه القردان بافتعال المشاكل ، اما بدافع من الخوف او رغبة في عرقلة الاجتماع .

رفض سولوزو الدخول الى مقصورة ، فجلس الرجال الثلاثة الى طاولة مستديرة وسط القاعة ، ولم يكن في المطعم الا شخصان آخران يتناولان العشاء . وتساءل ميخائيل ان كانا على اتفاق مع التركي ، ثم رأى الا اهمية لذلك : سينتهي كل شيء بسرعة ، بحيث لن يتاح لاحد ان يتدخل .

سأل ماك كلوسكي باهتمام غير مصطنع :

ـ ايكون المطبخ الايطالي هنا جيدا ؟

فطمأنه سولوزو : ـ جرب لحمهم العجلي . انه افضل لحم في نيويورك .

وحمل الخادم الوحيد زجاجة نبيذ ففتحها وملأ الاقداح الثلاثة . ظاهرة مدهشة : لم يشرب ماك كلوسكي . وقال :

ـ لا بد اني الايرلندي الوحيد الذي لا يشرب الكحول . لقد رأيت اشخاصا

معتبرين كثيرين يواجهون المصاعب والمشكلات بسبب الكحول الذي لا اتعاطاه .
وصرح سولوزو بلهجة مصالحة للنقيب :

– سأتكلم بالايطالية مع مايك ، لا لنقص في الثقة بك ، بل لاني اسيء كثيرا التعبير بالانكليزية ، والحال اني اريد اقناع ميخائيل باننا سنربح جميعا ربحا متماثلا اذا اتفقنا هذا المساء . فلا تعتبر ذلك اهانة . ان لي ملء الثقة بك ، ولكن الامر هكذا اكثر عملية .

ابتسم النقيب ماك كلوسكي للرجلين كليهما ابتسامة لا تخلو من نوكم وقال :
– بالتأكيد . تفضلا . سأركز اهتمامي على اللحم والسباغيتي .
واخذ سولوزو يخاطب ميخائيل باللهجة الاقليمية الصقلية . تحدث بسرعة قائلا :

– يجب أن تفهم ان ما حدث بين ابيك وبيني محصور تماما بميدان الاعمال . انني اكن لدون كورليون اكبر الاحترام . بل اتمنى ان تتاح لي فرصة الدخول في خدمته . ولكن عليك ان تعترف ان اباك ذو عقلية قديمة متخلفة . انه يعرقل التقدم . والاعمال التي تهمني هي اعمال المستقبل ، اعمال ازدهارها في عالم الغد . ومن المستحيل تصور تلال الملايين من الدولارات التي ستردها علينا جميعا . ولكن اباك يعارضها بسبب بعض الوساوس العارية عن روح الواقعية . من اجل ذلك ، يفرض ارادته على رجال مثلي . نعم ، نعم . اعرف انه يقول لي : امض كما تشاء ، فهذا شأنك . ولكننا نعرف نحن الاثنين ان هذا وهمي . فالواقع انه يسحق بقدميه خططي . ما يؤمن به في الحقيقة هو اني غير قادر على ادارة اعمالي . ان لي حظا من كبرياء ولا استطيع ان احتمل ان يفرض عليّ احد ارادته . والحال ان هذا هو ما كان يفعله . وقد حدث ما كان ينبغي ان يحدث . دعني اقل لك اني حاصل على موافقة جميع عائلات نيويورك . صحيح انها موافقة صامتة ، ولكنها متعاطفة جدا . بل ان عائلة تاتا غليا هي شريكتي في الحياة وفي الموت . واذا استمر النزاع ، فلن تلبث عائلة كورليون طويلا حتى تجد نفسها وحيدة ضد جميع الاسر الاخرى . ولو كان ابوك بصحة جيدة ، فلعلكم كنتم تستطيعون مجابهتها . ولكن الابن الاكبر ليس رجلا كالبادرينو . اقول ذلك من غير ان اكون راغبا في جرحك . وكذلك المستشار هاجن ، فانه لا يشبه جانسو اباندالدو ، يرحمه الله ، فهذا ايرلندي ! انني اقترح اذن سلاما ، هدنة . لنوقف اعمال العدوان حتى يشفى ابوك ويشارك في المناقشات لقد حصلت على موافقة آل تاتاغليا بما بذلته من قوة اقناع وبدفعي التعويض من جيبي الخاص لموت برونو . سنحصل على السلام . وفي انتظار ذلك ، يجب ان نعيش . وسأقوم ببعض الاعمال . انني لا اطلب مساعدتكم ، ولكني اطلب منكم ، انتم آل كورليون ، الا تزعجوني . هذه هي عروضي . وأفترض انك تملك السلطة المطلوبة لتعطي موافقتك ، لنعقد صفقة .
رد ميخائيل باللهجة الصقلية :

– اشرح لي بمزيد من الوضوح كيف تنوي ادارة اعمالك . اي دور ستضطلع به عائلتي بالضبط ، واية فائدة يمكن ان نجنيه منه ؟

ساله سولوزو : ــ هل تريد عرضي كله بالتفصيل ؟
اجاب ميخائيل بجدية : ــ ان اهم نقطة عندي ان اتيقن انه لن تجري بعد اي محاولة لتهديد حياة ابي . اريد ضمانات .
فرفع سولوزو يده بحركة معبرة :
ــ اية ضمانات يمكنني ان امنحها اياك ؟ انا المطارد ، وانا الملاحق في عمليتي . ان لك يا صديقي رأيا في شخصي ارفع مما ينبغي . لست ذكيا الى الحد الذي يبدو انك تتصوره .
في تلك اللحظة ، كف ميخائيل عن الارتياب : ان « التركي » لم يكن يسعى الا الى كسب بضعة ايام ، وسيقوم بمحاولة جديدة لاغتيال الدون . والاجمل من ذلك ان سولوزو كان ينتقص من قيمته ، هو ميخائيل ، ويعتبره قطة صغيرة . وغمرت جسم ميخائيل الرعشة الغريبة اللذيذة . وبلغ الامر به ان وجهه كان يعبر عن سيماء الاسف . فسأله سولوزو :
ــ ما بك ؟
فاخذ ميخائيل هيئة الارتباك ليجيب : ــ لقد هبط النبيذ نوا الى مبولتي . وقد امسكت نفسي . هل تجد مانعا من ان اذهب الى المرحاض ؟
كان سولوزو يتفحص وجهه بعينيه السوداوين . ومد يده فامرها بوحشية بين فخذي ميخائيل ، باحثا عن سلاح بين العجان والعانة . واتخذ ميخائيل هيئة انسان غاضب ، فتدخل ماك كلوسكي مجاملا :
ــ لقد فتشته . فتشت الوف السوقة الشبان . انني اعرف مهنتي . وهو لا يملك سلاحا .
لم يكن ذلك يروق سولوزو . لم يكن يروقه على الاطلاق ، لغير سبب معقول. ورمى بنظره الى شخص امام طاولة قبالتهم ، ورفع حاجبيه ، وباشارة من ذقنه دله على باب المرحاض . فرد الاخر بهزة خفيفة من راسه تشير الى انه قد حقق في الامر ، وانه لم يكن ثمة احد في الداخل . وقال سولوزو على مضض :
ــ لا تبق طويلا هناك .
كانت له شرائط التقاط مدهشة ، وكان يستشعر بوضوح خطرا غير واضح.
ونهض ميخائيل فاتجه الى المرحاض . وكان في المبولة مزيل للرائحة وردي اللون مربوط بشبكة معدنية . ودخل الى المرحاض ، وكانت به حاجة حقيقية للتبويل . كانت احشاؤه تتحرك لحسابها الخاص . ولم يضع وقته ، ثم دس يده خلف صندوق الماء الخزفي الى ان عثر على المسدس الصغير ذي الماسورة القصيرة ملصقا على الحائط بلصقة مشمعة . وانتزع المسدس ، متذكرا ان كليمنزا كان قد قال له الا يهتم بالبصمات التي يخلفها على الشريط اللاصق . ودس السلاح في زناره وزرر سترته فوقه . وغسل يديه ، ثم وضع بعض الماء على شعره ، ومسح بصماته على الحنفية بمنديله ، ثم غادر المرحاض .
كان سولوزو جالسا قبالة باب المرحاض ، وعيناه تبرقان حذرا . فابتسم له ميخائيل ، وقال بتنهدة ارتياح :

ـ الان ، استطيع ان اتكلم .

كان النقيب ماك كلوسكي يأكل شريحة العجل التي جاءوه بها مع السباغيتي . وكان الرجل الجالس قبالتهم ، والذي كان التنبه قد وتره ، كان يبسط اساريره هو ايضـــا

وجلس ميخائيل . وتذكر ان تيسيو كان قد حذره من الجلوس ثانية . كان عليه ان يطلق النار على القردين فور خروجه . فلماذا كان يؤخر اللحظة الحاسمة ؟ بدافع من حدس خاص ، ام لمجرد الخوف ، كان قد انتابه شعور بان ادنى حركـة مشبوهة ستجعله انسانا ميتا . وما ان جلس حتى احس بالامان . لا بد انه قد خاف . لانه كان صعيدا الا يحس نفسه واقفا بعد على ساقيه . كانتا قد اصبحتا ضعيفتين مرتعشتين .

ومال عليه سولوزو . فاصغى اليه بانتباه بعد ان فك ازرار سترته ، وكانت الطاولة تخفي بطنه . والحق انه لم يفهم كلمة واحدة مما كان « التركي » يقوله .. لم يكن ذلك في سمعه الا هذيانا . كان الدم يطرق صدغيه الى حد ان ذهنه لم يكن يسجل شيئا بعد . واقتربت يده اليمنى تحت الطاولة من المسدس المدسوس في زناره فسحبته . وفي اللحظة ، اقبل الخادم يأخذ طلب اللون الثاني من الطعام . وادار سولوزو راسه ليكلمه ، فدفع ميخائيل الطاولة بيده اليسرى ، وباليمنى ضغط المسدس على رأس سولوزو تقريبا . وندت من التركي ، بشكل غريزي ، حركـة تراجع منذ الحركة الاولى لميخائيل . ولكن ردود فعل ميخائيل ، الاصغر سنا ، كانت أسرع . فضغط في الوقت المناسب تماما على الزناد . ودخلت الرصاصة بين عين سولوزو وأذنه ، وكان لخروجها من الجهة الاخرى انبثاق دفقة من دم ونثار عظام لطخت سترة الخادم المتحجر . وسرعان ما عرف ميخائيل ان رصاصة واحدة كانت كافية : كان سولوزو قد ادار رأسه في تلك اللحظة الاخيرة فرأى ميخائيل بريـق الحياه يختفي من عينيه ، كما تنطفيء شمعة .

كانت لحظة واحدة قد مرت فحسب . واستدار ميخائيل على عقبيه ليصوب مسدسه الى ماك كلوسكي . كان نقيب الشرطة يحدق في سولوزو بدهشة بارده ، كما لو ان الحادث لم يكن يعنيه . لم يكن يبدو عليه انه يعي الخطر . فقد كان مـا يزال ممسكا بشوكته وقد علقت بها قطعة لحم حين التفت الى ميخائيل . وكـان تعبير وجهه وعينيه يترجم عن شعور بالمهانة والثقة ـ كما لو انه كان يتوقع ان يرى الان ميخائيل يستسلم او يهرب ـ بحيث ان هذا الاخير قد بسم له وهو يطلــق النار . كانت طلقة فاشلة اذ لم تكن مميتة . فقد سعل النقيب ، حيـن أصابتـه الرصاصة في حلقه ، كما لو ان لقمة من لحم العجل كانت باقية في حلقومه ، وكل سعلة رشحت بخارا من دم ونثارا دقيقا من رئة ممزقة . وبكل برودة ، وبكل هدوء أطلق ميخائيل رصاصة ثانية عمودية هذه المرة على راس الجمجمة المغطاة بالشعر الابيـض .

وانتشر البخار الوردي ، غامرا كأنه ضباب . واستدار ميخائيل نحو الرجـل المجهول الجالس قرب الجدار ، فرآه مسمرا في جمود كلي . كان منذ بدء المجزرة

قد وضع يديه بعناية على الطاولة . وحين استدار ميخائيل اليه ، نظر الى جهة اخرى . وكان الخادم يتراجع خطوة خطوة نحو المطبخ ، وعلى وجهه تعبير مذعور ، يحدق في ميخائيل دون ان يصدق عينيه . وكان سولوزو ما يزال على كرسيه ، وقد حجزت الطاولة جزءا من جسمه . اما ماك كاوسكي فقد جره وزنه فسقط على الارض . وترك ميخائيل المسدس يسقط حذاء ساقه ، فيصل الى الارض دون ان يحدث اية ضجة . وتأكد من ان الرجل المجهول والخادم لم يلاحظا هذه الحركة . وادرك الباب ببضع خطى سريعة ثم خرج . وكانت سيارة سولوزو ما تزال واقفة عند المنعطف ، ولكن لم يكن للسائق من اثر . وانعطف ميخائيل الى الشمال ، ثم مرة اخرى الى الشمال ، عند الزاوية . واضيئت مصابيح ، وتقدمت نحوه سيارة مغلقة ، مفتوحة الباب . فقفز الى داخلها ، واقلعت السيارة بضجيج هائل . ورأى تيسيو عند المقود . كان وجهه الجاف النظيف في مثل قسوة المرمر . وسأله :

ــ سولوزو ، هل امتلكته ؟

فاندهش ميخائيل في تلك اللحظة للعبارة التي استعملها تيسيو : العبارة التي تشير عادة الى الامتلاك الجنسي . ووجد هذا الالتباس غريبا مضحكا ، فأجاب بمرح :

ــ قرطتهما ، كليهما ..

ــ متأكد ؟

فصرّح ميخائيل بصوت قاطع : ــ رايت نخاعهما .

كانت ملابس للتبديل معدة لميخائيل في السيارة . وبعد عشرين دقيقة ، كان على ظهر شاحنة بحرية ايطالية متجهة الى صقلية . وبعد ساعتين ، كانت السفينة مبحرة . ومن كوّة رجال السفينة ، نظر الى انوار نيويورك تلتمع كأنها نيران الجحيم . واحس بارتياح شديد . لقد نجا الآن . وهذا الشعور لم يكن غريبا عليه. لقد تذكر جزيرة من جزر الباسيفيك . كانت فرقة البحرية المنتمي اليها قد انزلت قواتها اليها . كانت المعركة حامية الوطيس ، وكانوا ينقلونه على معدّية ، وقد اصيب بجرح خفيف . وكانت المعركة مستمرة في صخب يثير الجنون ، ولكن المعدّية كانت تبتعد باتجاه سفينة ــ مستشفى . كان قد شعر آنذاك بمثل هذا الارتياح وهو يغادر نيويورك . ربما هاج الجحيم . ولكنه لن يكون فيه .

في اليوم التالي لمقتل سولوزو والنقيب ماك كلوسكي ، اذاع نقباء وملازمو الشرطة في جميع مفوضيات مدينة نيويورك بيانا يقول : يمنع القمار والبغاء والتساهل من اي نوع ما لم يوقف قاتل النقيب ماك كلوسكي . وقامت كبسات كثيفة في جميع انحاء المدينة ، وتجمدت جميع النشاطات غير المشروعة عند نقطة العطالة .

وفيما بعد ، في اثناء ذلك النهار نفسه ، سأل مبعوث للعائلات عائلة كورليون اذا كانت مستعدة لتسليم المذنب ، فأجيب بأن هذهالقضية لم تكن تخص آل كورليون على الاطلاق . وفي ساعة متأخرة من المساء ، انفجرت قنبلة في الممر المشجر

بلونغ بيتش ، قذف بها مجهولون من سيارة توقفت من فوق السلسلة التي كـانت تسد الطريق ثم أقلعت في عاصفة . وفي تلك الليلة ايضا ، صرع منفذان من عائلة كورليون بينما كانا يتناولان العشاء بهدوء في مطعم ايطالي صغير في « غرينـويش فيـــلاج » .

كانت حرب ١٩٤٦ بين العائلات الخمس وعائلة كورليون قد بدأت .

الكتاب الثاني

١٢

صرف جوني فونتان خادمه بحركة مهملة وهو يقول :
ـ الى الغد ، يا بيللي .

فانحنى رئيس الخدم الزنجي وهو يغادر قاعة الطعام ـ الصالون الكبيرة التي كانت تطل على المحيط الباسيفيكي . وكانت حركته بالتحية ودية اكثر منها خدمية. وهو لم يقم بها الا لان جوني فونتان كان يتناول العشاء مع شخص آخر .

كانت رفيقة جوني فونتان ذلك المساء امراة شابة ، شارون مور ، القادمة من غرينوش فيلاج ، بنيويورك ، والواصلة الى هوليوود لتقدم محاولة تمثيلية في دور صغير . وكان الفيلم ينتجه واحد من عشاقها القدامى يعيش حياة باذخة . وكانت قد زارت خشبة المسرح بينما كان جوني يمثل دوره في فيلم وولتز . وقد وجدها جوني شابة ، نضرة ، جذابة ، وفي الوقت نفسه مليئة بحيوية الفكر وروح النكتة ، فدعاها الى تناول العشاء عنده في المساء نفسه . وكانت دعواته للعشاء قد اصبحت مشهورة ، فقبلت الدعوة بالطبع .

وكانت شارون مور تتوقع منه هجوما عنيفا ، لمعرفتها بشهرته ، ولكن جوني كان يحتقر الطريقة الهوليودية في اقتحام المراة كما لو انها قطعة لحم . لم يكن ينام مع فتاة اذا لم يرقه شيء فيها حقا . ما عدا بعض المرات التي كان فيها ثملا الى حد انه كان يجد نفسه في سرير امراة لم يكن يذكر انه التقـاها او لمحها من قبل . اما وقد بلغ الآن الخامسة والثلاثين ، وطلق زوجته الاولى ، وتخاصم مع الثانية ، وعرف زهاء الف عانة تشبثت بزناره ، فانه لم يكن بعد على ذلك الحماس . ولكن شارون مور كـانت تملك شيئـا يثير فيه شعـورا ودودا ، فكـان ان دعاها لتناول العشاء .

لم يكن ياكل كثيرا ، ولكنه كان يعرف ان الفتيات الجميلات الشابات يحرمن انفسهن الغذاء عن طواعية ليشترين ملابس على احدث طراز ، وياكلن كالفيلان حين يكنّ مدعوات . وهكذا كان على المائدة وفرة من الغذاء ذلك المساء . وكثير مـن الكحول كذلك : شمبانيا في دلو للثلـج ، وويسكي اسكتلنـدي ، وويسكي اميركي وكونياك ومشروبات مختلفة على الطبقية . وقدم جوني المآكل والمشروبات معدّة .

وحين انتهيا من الطعام ، رافق المراة الشابة الى قاعة الجلوس الكبرى التي كان جدارها الزجاجي يشف عن مرأى الباسيفيك . ووضـع بضعة اسطوانات لايلا فيتزجرالد على الالكتروفون ثم جلس على الديوان قرب شارون . وتحدث اليهـا مستفهما عن طفولتها : اكانت تحب الصبيان المخنثين ؟ اكانت جميلـة ام قبيحة ،

متوحدة ام فرحة ؟ وكان يجد هذه التفاصيل مؤثرة لانها كانت تستثير دائما الحنو الذي لا بد منه قبل فعل الحب .

قبعا كلاهما على الديوان ، بود وراحة كبيرين . وقبلها في شفتيها ـ قبلة ودية بصراحة . واذ رآها تتوقف هنا ، لم يلح . وفي الجهة الاخرى من الواجهة الكبيرة ، كان يرى أديم الباسيفيك جامدا تحت ضوء القمر . وسألته شارون بصوت منكد :

ـ كيف حدث انك لم تضع ايا من اسطواناتك ؟

فابتسم لها جوني قائلا : ـ لست مدعيا الى هذا الحد .

قالت : ـ ارضاء لي ضع اسطوانة لك ، أو غنّ لي ، كما تغني في افلامك . سأضيع رشدي او كل احتراس كبطلات الشاشة .

فانفجر جوني ضاحكا . حين كان اصغر سنا ، كان يستخدم موهبته لهذه الغاية ويحصل على نتائج مدهشة . فقد كانت الفتيات يصبحن مثيرات رقيقات ، ويدرن عيونا تنبض بالشهوة امام كاميرا وهمية . انه لن يجرؤ بالتأكيد على الغناء امام فتاة ، لانه اولا لا يغني بعد منذ بضعة اشهر ولا ثقة له بصوته ، ولان الهواة لا يدركون الى أي حد يتوقف نجاح المحترفين على المساعدة التقنية للارنان الصوتي ليظهروا بأحسن مظهرهم . كان بامكانه ان يضع اسطواناته على الآلة ، ولكنه كان يحس لسماعه صوته الفتي المندفع بمثل احساس رجل يشيخ ويفقد شعره ويترهل، فيميل الى اطلاع الناس على صوره وهو فتى او وهو يتفتح في سن الرجولة الناضجة .

أجاب جوني : ـ ان صوتي لا يساوي شيئا في هذه الفترة . والحقيقة اني سئمت الاستماع الى غنائي .

وكانا كلاهما يتذوقان قدحي الكونياك بجرعات صغيرة . واستأنفت تقول :

ـ يبدو انك عظيم في هذا الفيلم . اصحيح انك تمثله بمبلغ زهيد ؟

فأوضح جوني يقول : بأجر رمزي فقط .

ونهض ليخدم المرأة الشابة من جديد ، فقدم لها سيكارة تحمل اسما متشابكا مذهبا وأشعل قداحته ليقدم لها النار . وسحبت نفسا ثم شربت جرعة كونياك . وعاد الى مكانه بقربها . وكان قدحه اكثر امتلاء من قدح رفيقته ، وكان محتاجا اليه ليكتسب بعض الحرارة ، وليكون اكثر مرحا ، وليشحن بطاريته من جديد . كان يجد نفسه في وضع معاكس لوضع محب طبيعي . كان عليه ان يسكر نفسه ، لا الفتاة . وكانت في العادة اكثر منه موافقة . كان جوني منذ عامين يعيش حياة جحيم . ولكنه كان بين الحين والحين يلجأ الى هذه الوسيلة الشديدة البساطة ليرفع معنوياته : ينام ليلة مع فتاة شابة ناضرة ، يصحبها للعشاء احيانا ، يقدم لها هدية ثمينة ، ثم يقطع علاقته على نحو ودي جدا حتى لا يجرحها . وبعد ذلك ، كن يستطعن دائما ان يروين انهن كانت لهن مغامرة مع جوني فونتان العظيم . لم يكن ذلك هو الحب الكبير ، بل كان تسلية مقبولة جدا اذا كانت الفتاة جميلة

او لطيفة حقا . كان يحتقر المومسات ، اولئك اللواتي يثبن عليه كالفيلان ويستعجلن لسرد حكاياتهن امام الصديقات بأن جوني فونتان الشهير قد ضاجعهن ، مضيفات دائما بأنه ، في الحقيقة ، لم يكن شيئا هائلا .. وما كان يذهله اكثر من أي شيء في حياته الفنية ، انما كانوا اولئك الازواج المجاملين . فقد كان هؤلاء القذرون يعترفون بصراحة تقريبا انهم كانوا يغفرون لزوجاتهم ، لانهم كانوا يسمحون ، حتى لافضل ربة أسرة ، بأن تخون زوجها مع مغن كبير وفنان شهير كجوني فونتان . كان ذلك يذهله حقا .

كان شديد الاعجاب باسطوانات ايلا فيتزجرالد . كان يحب ذلك الغناء الواضح وهذا النطق الجلي . كان هو الشيء الوحيد في العالم الذي فهمه تماما : وكان يعرف انه كان يفهمه خيرا من اي انسان آخر . والآن ، وهو متمدد على الديوان ، وقد الهب الكونياك حلقه ، كان يحس الرغبة لا في الغناء وانما في الدمدمة مع الاسطوانة في وقت واحد ، ولكن ذلك غير لائق بحضور أجنبية . ووضع يده الحرة على ركبتي شارون ، وهو يتذوق باليد الثانية الكونياك . ومن غير مكر ، ولكن بشهوة صبي يلتمس الدفء ، رفعت اليد الثوب الحريري لتكشف عن فخذين بياضهما بلون اللبن فوق نسيج الجوربين الشفاف . وكما هو شأنه دائما ، ورغم جميع النساء اللواتي امتلكهن ، ورغم سنوات النجاح الكثيرة ، فقد أحس جوني لهذا المنظر موجة الاثارة نفسها تغمر جسمه . كانت المعجزة تحدث مرة اخرى ، ولكن ما عساه يفعل حين يفقد ذلك كما كان قد فقد صوته ؟

الآن ، كان مستعدا . ووضع قدحه على المنضدة الطويلة المنخفضة المرصعة واستدار الى شارون . كان واثقا جدا من نفسه ، وكان يتصرف بلا عجلة ، ولكن برقة ولطف . ولم يكن في مداعباته مكر ولا دعارة . وقد قبلها في شفتيها بينما كانت يداه ترقيان نحو نهديها . ولكن احداهما حطت من جديد على الفخذين الدافئتين اللتين كانت بشرتهما شديدة الملاسة عند اللمس . وردّت له قبلة حنونة ولكنها غير مشفوفة ، وآثر هو ان يكون الامر كذلك في تلك المرحلة . كان يحتقر الفتيات اللواتي تهز أجسادهن نبضات كهربائية اكثر منها عشقية ، كما لو انهن كنّ يتحركن بمجرد الضغط على زر التماس .

وفعل آنذاك ما كان يفعله دائما ، شيئا نجح دائما في فعله .. ففي رقة ، وبأكبر خفة ممكنة ، لامس اصبعه الاوسط ابعد مكان نفذ اليه بين الفخذين . لم تكن بعض النساء يفهمن ما كان يفعله ، ولكن هذه المقدمة كانت تثير جنون اللواتي لم يكن متأكدات من ان المسألة مسألة مداعبة جنسية ، لانه كان يقبلهن في آن معا على افواههن . وكانت أخريات يبدون وكأنهن يسفطن اصبعه او يمتصصنه باندفاعة حوضية . وقد كان من بعضهن ، قبل ان يصبح شهيرا ، ان صفعنه . كان هذا كل تكتيكه ، وكان يخدمه خدمة جيدة ، بصورة عامة .

اما شارون ، فقد كان رد فعلها غير مألوف . لقد قبلت كل شيء ، الملامسة والقبلة ، ثم ادارت رأسها وابتعدت قليلا الى الوراء ، على الديوان . وتناولت قدحها . كان ذلك رفضا باردا ونهائيا . وكان هذا يحدث احيانا . نادرا ، ولكنه

كان يحدث . واخذ جوني قدح الكونياك واشعل سيكارة .

كانت تكلمه بعذوبة ، وبلطف كبير :

— ليس ذلك لانك لا تروق لي ، يا جوني . انك الطف جدا مما كنت اظن . ولن اقول لك كذلك : « يا للاسف ، لست تلك التي تظن » وانما لانني بحاجة لأن اتدرب لكي افعل هذا مع شاب . أتفهم ما اعنيه ؟

ابتسم جوني فونتان لها . لم يكن قط منزعجا . وسألها :

— أو لم ادربك ؟

فبدت مرتبكة بعض الشيء : — اسمعني . حين كنت مغنيا كبيرا ، لم اكن بعد الا طفلة . لقد فوتك اذن ، على نحو ما ، فأنا انتمي الى الجيل التالي . بأمانة ، ليس لانني فتاة بريئة . فلو كنت جيمس دين او شخصا آخر من مثل سني ، لنزعت سروالي في لحظة .

كانت تروق له الآن اقل من ذي قبل . كانت جذابة ، وكانت خفيفة الروح ، وكانت ذكية . لم تكن قد وقعت بين ذراعيه ولم تحاول ان تعجل الاحداث على أمل ان تساعدها علاقة ما في نجاحها الفني . كانت حقا صبية صادقة . ولكن كان لديها كذلك شيء آخر عرفه لانه سبق ان التقى مثله . كانت الفتاة قادمة الى موعد لقاء وهي مصممة على الا تنام معه ، حتى ولو كان يروق لها ، وذلك لتستطيع ببساطة ان تقول لصديقاتها ، واكثر من ذلك لها هي نفسها ، انها فوتت الفرصة التي اتيحت لها بأن تمتلك جوني فونتان . كان يفهم ذلك منذ ان تقدمت به السن . ولم يكن يحس من هذا اية مرارة . كل ما هنالك انه لا يحب بعد شارون كثيرا ، بينما كانت الى لحظة مضت قد راقت له حقا . وما دام لا يحب بعد كثيرا ، فقد ازداد انفراجا . وترشف قدح الكونياك وهو يتأمل الباسيفيك .

— ارجو الا تكون قد غضبت ، يا جوني . اعتقد انني العب لعبة صريحة . وافترض ان الفتيات في هوليوود يستسلمن على الدواوين بمثل السهولة التي يقبلن بها قبلة وداع في آخر السهرة . لم يمض عليّ هنا وقت طويل .

ابتسم لها جوني ولامس خدها . وهبطت يده ثانية على الفخذين لترد التنورة بتحفظ على الركبتين الحريريتين . وقال :

— لست غاضبا . فان لقاء من زمن الفضيلة القديم ليس شيئا كريها .

ولم يقل لها ما كان يشعر به : ارتياحا كبيرا لانه لن يكون مجبرا على انجاز مآثر حيوانية لينافس الصورة المؤلهة للشخصية التي كانها على الشاشة . ولن يكون بحاجة كذلك للاستماع الى قصائد الثناء حين تتصرف كما لو انه كان على مستوى تلك الصورة وتقوم بقصص كثيرة لا تحتملها حفلة تافهة على وسادة !

وتناولا قدح كونياك آخر ، وتبادلا بعض القبلات الاخرى المتباعدة ، ثم اعتزمت الذهاب . وسألها جوني بداعي الادب :

— هل استطيع ان ادعوك الى العشاء ذات مساء ؟

وأتمت لعبتها الصريحة الى نهايتها ، فأجابت :

— اعرف انك لا تملك وقتا تضيعه مع فتيات مثلي يخيبن الامل . شكرا لهذه

الامسية الرائعة . سأروي ذات يوم لاولادي انني تعشيت على انفراد مع جوني فونتان الشهير ، في شقته .

وبسم لها قائلا : ـ وانك لم تستسلمي .

وانفجرا ضاحكين كلاهما ، ثم اضافت :

ـ انهم لن يصدقوني !

فاجاب جوني مازحا بدوره : ـ سأوقع لك على شهادة بذلك (فهزت راسها) واذا ارتاب احد بذلك ، خابريني لازيل عنه اوهامه فورا . ساروي له انني طاردتك من غرفة الى غرفة ، كانني ستير (١) وانك انقذت شرفك . اتفقنا ؟

في نهاية المطاف ، كان هذا المزاح اقسى من ان يحتمل ، وقد غمه ان يرى على وجه شارون انه كدرها . لقد اراد ان ينبهها انه لم يبذل اكثر مما ينبغي من جهود ، وكانت تفهمه على هذا النحو . كان يحرمها من فرحة نصرها العذبة . ستبقى لها بعد الآن ذكرى هزيمة تعزى الى نقص لديها في السحر او الاغراء . واذا اخذت شخصية هذه الفتاة بعين الاعتبار ، فانها حين تروي كيف قاومت جوني فونتان الشهير ، فستضيف ببسمة مقتصرة : « انه طبعا لم يبذل جهودا كثيرة » . من اجل هذا ، احس ببعض شفقة عليها ، فاضاف :

ـ اذا احسست يوما بضجر ، فاتصلي بي . اتفقنا ؟ انني لا اطلب ان انام مع جميع الفتيات اللواتي اعرفهن .

فاومات براسها : « اتفقنا » . واتجهت الى الباب .

كانت ليلة طويلة متبقية امامه . وكان بامكانه ان يستعمل ما كان جاك وولتز يدعوه « معمل اللحم » ، اسطبل الكواكب الصغيرة الموافقة ، ولكنه كان بحاجة الى رفقة حقيقية ، رفقة كائن بشري يتحدث اليه . وفكر بزوجته الاولى ، فيرجينيا . الآن وقد انجز الفيلم ، فان بامكانه ان يكرس وقتا اطول لابنتيه . كان يريد أن يشاطرهما حياتهما من جديد . وكان قلقا كذلك على فيرجينيا . لم تكن مسلحة لتصمد في وجه متانقي هوليوود الذين يمكن ان يطاردوها . لا لشيء الا ليتبجحوا بانهم قد ضاجعوا زوجة جوني فونتان الاولى . لم يكن ثمة من يستطيع ان يتباهى بذلك ، على ما يعرف . ولكن الجميع ، بالمقابل ، يستطيعون ان يقولوا ذلك عن الثانية ـ هكذا فكر وهو يكشر وجهه . ورفع سماعة تلفونه .

وعرف فورا صوت فيرجينيا ، ولم يكن في ذلك ما يدهش . كان قد سمعها للمرة الاولى حين كان في العاشرة ، وقد ترعرعا معا .

قال : ـ الو ، جيني ، هل انت مشغولة هذا المساء ؟ هل استطيع ان اقضي فترة قصيرة عندك ؟

قالت : ـ حسنا . ولكن البنتين قد نامتا ، ولا اريد ان توقظهما .

قال : اتفقنا . اريد فقط ان اتحدث اليك .

ولحظ في صوتها ترددا خفيفا ، ثم سالت :

ـ هل عندك شيء هام تقوله لي ؟

---

(١) الستير Satyre شخص خرافي عند الوثنيين نصفه الاعلى بشر والاسفل ماعز (م) .

اجاب جوني : ـ لا . لقد انهيت اليوم فيلمي ، ففكرت ان بامكاني ان القاك فأثرثر معك قليلا . وربما كان بامكاني ان القي نظرة على صفيرتي من غير ان اوقظهما .

قالت : ـ حسنا . انا مسرورة ان تكون قد حصلت على الدور الذي كنت راغبا فيه .

ـ شكرا . سأكون عندك بعد نصف ساعة .

حين وصل جون فونتان الى « بيفرلي هيلز » امام المنزل الذي كان منزله ، بقي جالسا بضع لحظات امام مقود سيارته وعيناه تحدقان في البيت . كان يتذكر ما سبق ان قاله له عرّابه : « تستطيع ان تصنع بحياتك ما تشاء » تماما ، ولكن ينبغي ان نعرف ما نريد ان نصنع بها .

كانت زوجته الاولى تنتظره على عتبة البيت . كانت جميلة ، وقصيرة وسمراء ، الايطالية اللطيفة ، الفتاة التي لن تذهب ابدا لتتسلى مع رجل آخر ! اكان يشتهيها بعد ؟ طرح على نفسه السؤال واجاب عليه نفيا . اولا ، لانه لم يكن يستطيع بعد ان يفعل معها الحب : فان عاطفتهما كانت اقدم مما ينبغي . ثم كانت هناك بعض الامور ـ لا علاقة لها بالسرير ـ التي لن تستطيع ان تغفرها له ابدا . ومع ذلك ، فكانا قد كفا ان يكونا عدوين .

صنعت له قهوة قدمتها اليه في قاعة الجلوس مع بسكوت من صنع البيت . قالت :

ـ تمدد على السرير . يبدو عليك التعب .

ونزع سترته وحذاءه ، وفك عقدة رقبته بينما كانت تجلس قبالته وعلى شفتيها بسمة صفيرة رصينة .

قالت : ـ هذا غريب .

ـ ما هو الغريب ؟

سألها وهو يشرب قهوته بجرعات صغيرة . وترك بعض نقاط تسقط منها على قميصه .

ـ جوني فونتان الشهير بلا موعد غرامي !

ـ جوني فونتان الشهير محظوظ ان باستطاعته بعد ان يفعل الحب .

في العادة ، لم يكن مباشرا الى هذا الحد . وسالته :

ـ هل عندك حقا هموم ؟

فبسم لها جوني بسمة صغيرة وقال :

ـ كنت على موعد مع فتاة في شقتي ولم تستسلم . كان هذا ما عزاني . اتصدقين ذلك ؟

وفوجىء بأن يرى التماعة غضب في عيني جيني ، ثم قالت :

ـ لا تهتم بهذه القحاب الصغيرة . يعتقدن انهن يثرن الاهتمام حين يرفضن . حيلة لهز الشص من اجل التقاط السمكة .

ولاحظ جوني بمرح ان جيني كانت حقا مغتاظة من الفتاة التي استبعدته .

واستطرد يقول : ــ وماذا في ذلك ؟ لقد سئمت من هذا كله . لا بد من ان ينتهي بي الامر الى ان اصبح راشدا . والآن وانا لا استطيع بعد ان اغني ، ساواجه اياما صعبة بلا شك مع الفتيات . تعلمين انني لم اكن واثقا يوما بجسمي .

اجابت باخلاص وامانة : ــ لقد كنت دائما بطبيعتك افضل منك بالصورة .

هز جوني راسه : ــ انني اسمن واصلع . فاذا لم اصبح نجما كبيرا بفضل هذا الفيلم ، فلن يبقى امامي بعد الا ان اطبخ البيتزا . الا ان اقذفك في السينما . انك تبدين في احسن وضع لذلك .

كانت جيني تبدو في الخامسة والثلاثين . خمسة وثلاثون ناضجة ، ولكنها مع ذلك خمسة وثلاثون . وفي هوليوود تســـ ـاوي، الخمسة والثلاثون مئة . ان الفتيات الصبيات والجميلات ينغلن في المدينة كالجرذان في زمن الطاعون ، ويبقين سنة واحيانا سنتين . وبعضهن من الجمال بحيث ان قلب الرجل يتوقف عن الخفقان في حضورهن الى ان يفتحن فمهن ، الى ان تضع شراهتهن للنجاح غشاوة على سحر عيونهن . ان النساء العاديات لن يستطعن منافسة هذه الظواهر على صعيد الاجسام . ان بالامكان سرد كل شيء عن سحر زوجة او ذكائها او اناقتها او مشيتها ، ولكن جمال هؤلاء الفتيات المدوخ يتجاوز كل شيء . ولو لم يكن عديدات الى هذا الحد ، فربما كان ثمة حظ في النجاح لامراة عادية جميلة . والحال ان جوني فونتان كان يستطيع ان يمتلكهن جميعا او كلهن تقريبا . وقد ادركت جيني انه انما كان يقول لها ذلك على سبيل المجاملة والملق . كان دائما لطيفا معها من هذه الزاوية . كان متادبا ابدا مع النساء ، حتى وهو في اوج مجده ، كان يملأهن مديحا ويعطيهن نارا لاشعال سكائرهن ، ويفتح لهن الابواب . ولكنه لم يكن يفعل ذلك من اجلها . كانت تلك حيلة له ليؤثر على جميع الفتيات ، حتى فتيات ليلة واحدة لم يكن يعرف اسماءهن .

ابتسمت له جيني بسمة ودية ، وقالت :

ــ لقد امتلكتني يا جوني ، وطوال اثني عشر عاما . فمن غير المفيد اذن ان تجتذبني بطعم وعود السينما .

تنهد وتمطى على الديوان : ــ انا لا امزح يا جيني ، فانت جديرة بذلك . اود لو كنت املك انا ايضا مثل مظهرك .

وفهمت انه كان سئما ، وبدلا من ان تجيبه ، سالته :

ــ اتعتقد ان فيلمك جيد ؟ اتراه سيكون مهما في نظرك ؟

هز جوني كتفيه قائلا : ــ نعم . فمن المكن ان يجعلني اصعد المنحدر كليا . لئن انتزعت اوسكار الاكاديمية واذا لعبت جيدا لعبتي ، فبامكاني ان اصبح ثانية نجما كبيرا ، حتى بدون غناء . وربما اصبح بامكاني آنذاك ان اعطيك مزيدا من المال ، انت والفتاتين .

قالت جيني : ــ نملك من المال اكثر من الكفاية .

واستانف جوني : ــ اريد كذلك ان ارى ابنتي اكثر من ذي قبل . اتمنى ان استقر قليلا . لماذا لا آتي لتناول العشاء هنـــا مساء الجمعـــة ؟ انني اقسم الا

اغيب يوم جمعة ابدا ، مهما كنت بعيدا ومشغولا . وبعد ذلك ، كلما كان باستطاعتي قضيت هنا نهايات الاسبوع ، وربما كان بامكان الطفلتين ان تأتيا معي في قسم من عطلتهما .

وضعت جيني منفضة سكاير على صدره ، واجابت :

— لا ارى في ذلك اي مانع . انا لم اتزوج ثانية لاني كنت اريد ان تبقى اباهما الوحيـــد .

تلفظت بهذه الكلمات بلا اي لون من شغف او حماســـة . ولكن جوني ادرك وعيناه مسمرتان في السقف انها كانت تقولهما لتمحو كلمات اخرى ، تلك التـي نطقت بها سابقا حين تحطم زواجهما ، وحين بدات شهرته في الانحدار .

قالت : — بالمناسبة ، احزر من تلفن لي ؟

ولم يرد جوني ان يبحث . لم يكن يريد ذلك قط ، فسالها : — من ؟

قالت : — يمكنك على الاقل ان تقترح اسما . عرابك .

اصيب جوني بالدهشة حقا :

— ولكنه لا يحدث احدا بالتلفون قط . ماذا قال ؟

— نصحني الا اتركك تماما . هو يعتقد ان بامكانك ان تعـــود فتصبح النجم الكبير الذي كنته ، ولكنك بحاجة الى تشجيع اولئك الذين يؤمنون بك . وسألته : « ولماذا اكون انا ؟ » فاجابني : « لانه ابو ولديك » . انه انسان رائع حقا . مـن اللؤم حقا ان تروى عنه مثل تلك الحكايات الكثيرة البغيضة .

كانت فيرجينيا تحتقر التلفون . وكانت قد امرت بانتزاع جميع الخطـوط الاضافية ولم تحتفظ الا بواحد في غرفتها وآخر في المطبخ . وفي تلك اللحظـة ، سمعت التلفون ، فذهبت لترد عليه . وحين عادت ، كان وجهها يعبر عن الدهشة. وقـالت :

— انه لك ، يا جوني . انه توم هاجن . وهو يدعي ان ذلك مهم .

وذهب جوني الى المطبخ فاخذ السماعة : — نعم ، يا توم .

قال له توم بصوت جاف : — اسمع يا جوني . ان العرّاب يريد ان آتي لاراك ولانظم شيئا يمكن ان يفيدك بعد ان انتهى الفيلم . يريدني ان استقل الطائرة صباح الغد . فهل تستطيع ان تاتي فتاخذني من لوس انجليس ؟ عليّ ان اعود الى نيويورك في المساء نفسه ، فلن يكون لك اذن ان تكون حرا في المساء بسببي .

— بكل تاكيد استطيع ، يا توم . ولا تحزن لامسيتي الضائعة . ابق واسترح قليلا . سأدعو اصدقاء وستتعرف الى بعض رجال السينما .

كان دائما يقدم هذا الاقتراح حتى لا يتهمه رفاق الماضي بانه يخجل منهم .

قال هاجن : — شكرا ، ولكن عليّ ان استقل الطائرة التي تعود بي الى هنا في اليوم التالي منذ الساعة الاولى . انتظرني عند وصـــــول الطائرة التي تغادر نيويورك في الحادية عشرة والنصف صباحا . اتفقنا ؟

فاكد جوني : — اتفقنا .

وأوضح هاجن : — ابقَ في سيارتك . وارسل احدا يلقاني عند نزولي مـن

الطائرة ويرافقني اليك .
ــ اتفقنا
عاد جوني الى قاعة الجلوس حيث سألته جيني بنظرها ، فقال :
ــ ان لدى البادرينو مشاريع لتحسين وضعي . انه هو الذي حصل لي على الدور في الفيلم ، لا ادري كيف . ولكني كنت اتمنى الا يهتم بعد بشؤوني .
وعاد الى مكانه من الديوان . كان يحس نفسه متعبا . قالت جيني :
ــ اقض الليلة هنا . تستطيع ان تنام في غرفة الاصدقاء . وتستطيع ان تتناول طعام الفطور مع البنتين ، وتتفادى قيادة السيارة في هذه الساعة المتأخرة. وعلى اي حال ، اكره ان اعرف انك وحيد في شقتك . الا تحس بأنك متوحذ اكثر مما ينبغي ؟
قال جوني : ــ لا الازم الشقة غالبا .
فضحكت واضافت : ــ انك اذن لم تتغير كثيرا (وصمتت لحظة قبل ان تستأنف) اتريد ان اهيىء لك الغرفة ؟
ــ ولماذا ؟ سأكون مرتاحا اكثر في غرفتك .
ــ لا .
قالت ذلك وهي تحمر خجلا . وبسمت له فبادلها بسمتها . كانا صديقين الآن ، بعد ان مات الحب .
وحين استيقظ جوني صباح اليوم التالي ، كان الوقت متأخرا . وقد عرف ذلك من نور الشمس المتسرب عبر الستائر المغلقة . وكانت كثافة النور تدل على ان النهار قد انتصف . وصاح قائلا :
ــ ايه ، يا جيني ، الا يزال لي الحق بالفطور ؟
وسمع صوتها يجيبه من بعيد : ــ لحظة .
ولم تتأخر . لا شك في انها ابقت الفطور حارا في الفرن . وما كاد يفرغ من تدخين سيكارة النهار الاولى حتى كان باب غرفته ينفتح فتدخل ابنتاه الصغيرتان وهما تدفعان الطاولة المتنقلة .
كانتا جميلتين جدا حتى ان قلبه انقبض لمرآهما . يا لوجهيهما المشرقين ، وعيونهما المتألقة بالفضول وبرغبة حية في الاندفاع اليه ! كان شعرهما معقودا بشكل ذيل حصان ، كما في السابق . وكانتا ترتديان فستانين على الطراز القديم وحذاءين جلديين ابيضين مبرنشين . وبقيتا واقفتين قرب الطاولة بينما كان يطفىء سيكارته منتظرتين ان يفتح لهما ذراعيه على سعتهما . واذ ذاك ، اندفعتا . وضغط وجهه على خدودهما النضرة المعطرة ، ولكن ذقنه وخزتهما فأخذتا تصرخان. وظهرت جيني على باب الفرفة فدفعت الطاولة المتنقلة حتى يستطيع ان يتناول فطوره . وجلست الى قربه ، على طرف السرير ، فصبت له القهوة ووضعت الزبدة على الشطائر . كانت الفتاتان الصغيرتان جالستين كذلك على السرير تنظران اليه. كانتا قد كبرتا الآن بالنسبة للعبة الوسائد او لقذفهما في الهواء . كانتا قد بدأتا تفكران برفع شعرهما على شكل كعيكة . وفكر : يا الهي ! عما قليل تترعرعان

فيطاردهما زعران هوليوود .

وتقاسم الشطائر ولحم الخنزير معهما ، واعطاهما جرعات من القهوة . كان قد الف هذه العادة في الفترة التي كان يغني فيها مع الجوقة . كان آنذاك نادرا ما يأكل معهما ، وكان يتناول طعامه في اوقات غريبة : فطور الصباح في منتصف بعد الظهر مثلا ، او العشاء عند الفجر . وكانتا تحبان آنذاك ان تقضما معه الطعام. كانت تغييرات مواعيد الطعام تلك تسحرهما : ان تأكلا شريحة من لحم البقر وبطاطا مقلية في الساعة السابعة صباحا وبيضا مع شحم الخنزير في منتصف بعد الظهر !

وحدها كانت جيني ، مع بعض الاصدقاء الخلص ، يعرفون الى اي حد كان يحب ابنتيه . وهذا ما كان يجعل طلاقه ومغادرته البيت الزوجي اشق الامور عليه. ولم يكافح الا ليبقى اباهما . وكان قد جعل جيني تفهم ، بطريقة لبقة جدا ، انه لم يكن يتمنى ان يراها تتزوج مرة اخرى ، لا لغيرة منه عليها ، بل لانه كان يغار على دوره كأب . وكان قد حرص على ان يجعل النفقة التي ستدفع لها ذات امتيازات مالية كبيرة اذا لم تتزوج ثانية . كان من المفهوم ضمنا ان بامكانها ان تتخذ لها عشاقا ، شريطة الا يتدخلوا في حياتها العائلية . ومن هذه الزاوية كان يثق بها ثقة مطلقة . كانت جيني دائما حيية في الحب ومتخلفة . وحين كان عشاق هوليوود يدورون حولها ، يغريهم منها وضعها المالي وما كانوا يحسبون انهم سيسحبونه من زوجها الشهير ، كانوا يضيعون وقتهم سدى .

ولم تكن تخشى كذلك ان يرغب في مصالحتها لانه اراد ان ينام معها في الليلة السابقة . لم تكن لدى اي منهما الرغبة في عقد علاقات الزواج السابقة مرة اخرى. كانت تفهم تعطشه للجمال ، واندفاعه الذي لا يقاوم نحو نساء اجمل منها جدا . وكان معروفا انه كان ينام دائما مرة على الاقل مع بطلات افلامه . انهن لم يكن اكثر مقاومة لسحره الطفولية ، منه لجمالهن .

قالت جيني : — يجب الا تتأخر في ارتداء ثيابك . ان طائرة توم على وشك ان تصل .

وصرفت ابنتيها . واجاب جوني : — نعم . بالمناسبة ، يا جيني . تعرفين انني سأطلق . سأعود رجلا حرا .

وتأملته بينما كان يرتدي ثيابه . كان يترك دائما عندها ثوبا للتبديل منذ ان توصلا الى ترتيب بعد زواج ابنة الدون كورليون .

وقالت : بعد اسبوعين ، يحل عيد الميلاد . هل يجب ان اتوقع زيارتك في تلك الفترة ؟

كانت تلك هي المرة الاولى التي يفكر فيها بالعطلة . حين كان صوته ما يزال جميلا ، كانت فترة الاعياد هي اكثر الفترات عملا ، واوفرها ربحا . ولكن نهار الميلاد ، حتى في تلك الفترة ، كان مقدسا . واذا كان غير قادر على قضاء ذلك اليوم مع ابنتيه ذلك العام ، فستكون هذه هي المرة الثانية . في السنة الماضية ، كان يغازل زوجته الثانية في اسبانيا ويستعجلها ان تتزوجه .

قال : نعم . سهرة الميلاد ويوم الميلاد .

ولم يتحدث عن عيد راس السنة . ستكون تلك ليلة من الليالي المجنونة التي كان يمنحها لنفسه بين الحين والحين ليسكر فيها مع اصدقاء له فقط ، من غير ما نساء . ولم يكن ذلك يعود عليه بأي شعور بالذنب .

وساعدته في ارتداء معطفه ونظفت ظهره بالفرشاة . كان دائما في غاية الاناقة . وقد راته يقطب حاجبيه لان القميص الذي يرتديه لم يكن مكويا على ذوقه. ثم ان ازرار الاكمام كانت افقع لونا مما ينبغي بالنسبة للطراز الذي كان يتبناه تلك الايام . وضحكت جيني وقالت :

ـ بالتأكيد ، لن يهتم توم بها !

ورافقته اناث العائلة الثلاث الى الباب ، ثم الى الجادة التي كانت سيارته مركونة عندها . كانت الفتاتان الصغيرتان تمسكان بيديه ، وزوجته تمشي خلفهم. ولاحظ جوني برضى انه كان سعيدا . وحين وجد نفسه امام السيارة ، استدار على عقبيه وقذف كلا من ابنتيه في الهواء عاليا ، ثم انحنى فقبلهما وهو يريحهما على الارض . ثم عانق زوجته وجلس وراء المقود . لم يكن يحب قط اطالة لحظات الوداع .

كانت التدابير الضرورية قد اتخذت من قبل السكرتير الرئيسي والملحق المكلف بالعلاقات العامة . كانت سيارة مستأجرة مع سائقها تنتظر جوني امام منزله . وكان الرجلان والسائق جالسين فيها . وصف جوني سيارته ، وصعد قرب الآخرين ، واتخذوا وجهة المطار . وكان الملحق بالعلاقات العامة هو المكلف باستقبال توم هاجن عند هبوطه من الطائرة . وحين اخذ توم مكانه في السيارة ، صافحه جوني وسلكا طريق العودة .

كان الجو يعوزه الود : لم يكن جوني قد غفر لهاجن قط ان يكون قد اقام سدا بينه وبين الدون ، حين كان البدرينو مستاء منه قبيل زواج كوني . ولم يقدم له هاجن قط اعتذاراته للطريقة التي تصرف بها آنذاك . لم يكن يستطيع ذلك . كان جزءا من عمله ان يجعل نفسه دافعا للصواعق . وكان الاشخاص الذين كاناحترامهم للدون فوق ان يحسوا نحوه بأي ضغينة ـ ضغينة يستحقها ـ يفرغون حقدهم على هاجن .

قال هاجن : ـ ان عرابك يرسلني لاساعدك . وأود ان ابت بهذا قبل عيد الميلاد .

رفع جوني فونتان كتفيه : ـ انتهى الفيلم . كان المخرج طيبا ، وعاملني باخلاص . ان المشاهد التي اظهر فيها اهم من ان تجعلني ابقى على خشبة قاعة المونتاج ويعطيني وولتز حسابي . انه لا يستطيع ان يفسد فيلما يكلفه عشرة ملايين دولار . واذن ، فكل شيء يتوقف الآن على رأي المشاهدين بي .

وسأل هاجن بحذر : ـ والاوسكار ، اصحيح انها مهمة جدا بالنسبة لمستقبل ممثل ؟ ام انها مجرد خدعة دعائية لا اهمية لها ؟ (وتوقف ثم اسرع يقول) : « هذا اذا استثنينا المجد طبعا . ان الجميع متعطشون للمجد » .

ابتسم له جوني فونتان بسمة صغيرة وقال : ـ ما عدا العرّاب . وانت ايضا ، يا تومي المتحفظ . ولكن لا . ليس في الامر خديعة . ان بامكان الاوسكار ان تؤمن عشرة اعوام في المهنة . انها تتيح للممثل ان يختار ادواره . والجمهور يذهب الى السينما ليرى النجم المكافأ كما يشتري لحمه لدى الجزار الذي قطع البقرة السمينة . ان المكافأة هي التي يعول عليها الفنان . وارجو ان احصل عليها . لا بسبب مزاياي الاستثنائية ، ولكن لانني اصبحت معروفا كمغنّ ولان الدور جيد . وانا فيه جيد كذلك ، اذا وضعنا المزاح جانبا .

هز توم هاجن كتفيه قائلا : ـ يرى البادرينو ، بعد المجرى الذي اتخذتـــه الامور ، ان لا حظ لك اطلاقا في الفوز بالاوسكار .

غضب جوني : ـ ماذا تقول ؟ ان الفيلم لم تجر منتجته بعد ، فضلا عـن انه لم يعرض . والدون لا يفقه شيئا في صناعة السينما . وقد قطعت حضرتك ثلاثة آلاف كيلومتر لتنطق بحماقات ؟ ام ماذا ؟

كان من شدة غيظه على وشك ان يبكي . وسارع توم يقول :

ـ اسمع يا جوني . انا لا افقه شيئا في هذه الامور . تذكر انني رسول الدون ، هذا كل ما في الامر . ولكننا ناقشنا هذا الموضوع كثيرا . وهو قلق عليك . ان مستقبلك يشغله . ويخيل اليه انك ما تزال بحاجة الى معونته وهو يريد ان يصفي مشاكلك مرة والى الابد . من اجل هذا تجدني هنا الآن ، لانجز المسائل . لقد آن ان تسلك سلوك الرجال ، يا جوني . يجب الا تحلم بعد بان تكون مغنيا او ممثلا . ان الدون يعتقد ان عليك ان تنطلق في المشاريع الجدية . يريدك ان تكـون محرك اعمال ، قائدا .

انفجر جوني فونتان ضاحكا ، وملأ قدحه :

ـ اذا لم أفز بهذه الاوسكار ، ستكون قيادتي مثـل قيادة ابنتي . ليس لي بعد من صوت . ولو كان يعود لي صوتي لامكنني ان ادافـــع عن نفسي . ثم طز ! كيف يعرف العرّاب انني لن افوز بالاوسكار ؟ حسنا . اقر انه مطلع على الامور . انه لم يخطـىء قط .

اشعل هاجن سيكارة ثم قال :

ـ لقد علمنا ان جاك وولتز لا ينفق درهما واحدا ليدعم ترشيحك . والواقـع انه اوعز الى جميع اعضاء لجنة التحكيم : انه لا يريد ان تحصـــل على الاوسكار . والحق انه يكفيه ان يوفر من ميزانية الدعاية عنده . هذا يكفي . ثم انه يقوم بحملة ليمكن شخصا آخر من الحصول على اكبر عدد من الاصوات . انه يستعمل كـــل شيء ليفسد المحكمين : وظائف ، مال ، مومسات ، كل شيء . انه يبذل كل جهد ليتلفك انت ، من غير ان يهدم الفيلم او على الاقل ليهدمه اقل ما يمكن .

هزّ جوني فونتان كتفيه ، وملأ قدحه بالويسكي ثم كرعه مرة واحدة ، وقال مشمئزا : « لقد ُبعصت اذن ! » .

وتأمله هاجن وقد ارتسمت على ملتقى شفتيه تكشيرة لا هوادة فيها ، وقال :

ـ انك لن تحسّن صوتك بادمان السكر !

اجاب جوني : ــ رح انبعص !
وسرعان ما اصبح وجه هاجن هادئا هدوء الحجر ، وقال :
ــ سألتزم بحدود العمل وحده .
ووضع جوني فونتان قدحه ، ثم اتى ينزرع امام هاجن ، وصرح بقوله :
ــ آسف اني قلت لك هذا ، يا توم . يا الهي ! انا آسف جدا . انني عاتب عليك لاني كنت اريد استئصال ذلك القذر جاك وولتز ، ولانني لم اكن اجرؤ ان اقول للدون ان يتركني وشأني . ولذلك اتعزى بأن اشتمك .
كان في عينيه دموع . وقذف قدح الويسكي الفارغ الى الجدار ، ولكن القذفة كانت من الضعف بحيث ان القدح ، وقد كان سميكا ، لم ينكسر ، بل تدحرج على الارض الخشبية وعاد عند قدميه . وحدق جوني فيه بغضب رجل محروم ، ثم انفجر ضاحكا ، وقال :
ــ يا الهي ! ما أشد بلاهتي !
وعبر القاعة ليجلس قبالة هاجن ، وقال :
ــ اسمع . لقد سارت الامور سيرا جيدا مدة طويلة . ثم طلقت جيني ، فبدأ الإندحار . فقدت صوتي . واخفقت اسطواناتي . ولم اعد اجد عملا في السينما . ثم كرهني البادرينو ولم يرد حتى ان يرد علي بالتلفون ولا ان يستقبلني حين ذهبت الى نيويورك . وكنت انت دائما تعترض طريقي ، فنقمت عليك . ومع ذلك فقد كنت اعرف جيدا انك انما كنت تطيع اوامر الدون . ولكن المرء لا يستطيع ان يغضب منه اكثر مما يغضب من الرب الطيب . وفي آخر المطاف ، احتقرتك لانني مغفل ولانك كنت دائما على حق . ولكي اثبت لك خضوعي ، اقبل نصيحتك . لا كحول بعد حتى استعيد صوتي . اتفقنا ؟
كانت اعتذاراته صادقة . ونسي هاجن غضبه . وفكر بأن هذا الفتى البالغ الخامسة والثلاثين لا بد ان يملك شيئا ما في جوفه ، والا ما احبه الدون هذا الحب .
قال : ــ لننس هذا كله ، يا جوني .
ثم عاوده شك بصدق عواطف جوني ، واتهمها بأنها مستوحاة من خشية ان يحرض الدون عليه . طبعا لا يستطيع احد ان يصرف الدون بسهولة ايا كان السبب . كان هو وحده يملك الحق بالتصرف بصداقته . كان يمنحها ويسحبها وفق ارادته وحدها .
قال هاجن : ــ ليست الامور سيئة الى الحد الذي تظن . ان الدون يؤكد ان بامكانه ان يعارض كل ما يقوم به وولتز ضدك ، وانك ستحصل عليها بما يشبه التأكيد ، جائزتك الاوسكار . ولكن هذا في رايه ليس هو حل مشكلاتك . يريد ان يعرف اذا كنت قادرا على ان تصبح منتجا ، ان تنتج افلامك الخاصة منذ البدء حتى النهاية ؟
وسأل جوني غير مصدق : ــ وكيف تراه ، بحق الشيطان ، سيعمل ليمنحني الاوسكار ؟

— انت في هذه الحالة تتصور ان السيد وولتز يتصرف بجوائز الاوسكار وليس البادرينو . اي خطأ هذا ؟! يجب ان تثق بالدون ما دمت ستتعامل معه . وسأقول لك شيئا جديا ، ولكن احتفظ به لنفسك . ان العر ّاب اقدر جدا من جاك وولتز . بل هو كذلك في قطاعات ادق . كيف يستطيع ان يغير منح الاوسكار؟ انه يسيطر ، او بالاحرى يسيطر على من يسيطر على جميع نقابات صناعة السينما، ويشرف على جميع السادة الذين يمنحون هذه الجائزة . بالطبع ، يجب ان تكون على المستوى ، وان تدلل على الاستحقاق والموهبة . ثم ان عر ّابك هو اذكى من جاك وولتز . انه لن يذهب لمقابلة هؤلاء الاشخاص مصوبا عليهم مسدسه قائلا لهم : « صوّتوا لجوني فونتان او اصرعكم ! » انه لا يستعمل وسائل العنف حيث لا تجدي، وحيث تخلف كثيرا من الحقد والضغينة . بل هو يتصرف بحيث يصوت هؤلاء الاشخاص لانهم يرغبون في التصويت . ولكنهم لن يرغبوا في ذلك اذا لم يجعلهم يعرفون الاهمية التي يوليك اياها . اقسم لك ان بامكانه ان ينتزع لك هذه الاوسكار. ولكن لن تكون مدينا بها الا له . فاذا لم يهتم بها ، فلن تنالها .

قال جوني : — حسنا . انني اصدقك . انني املك قدرا كافيا من المادة السنجابية لاجعل من نفسي منتجا ، ولكني لا املك المال . ولن يقبل اي مصرف ان يمولني . لا بد من ملايين لانتاج فيلم .

— بانتظار ان تحصل على جائزتك ، اعد ّ نفسك لانتاج ثلاثة افلام . تعاقد مع افضل الممثلين ، وافضل التكنيكيين ، وافضل ما في عالم السينما . بل واجه امكانية انتاج اربعة الى خمسة افلام في المجموع .

صاح جوني : — لقد سقطت على راسك ! ان اربعة افلام او خمسة ، في ايامنا هذه ، يمكن ان تكلف زهاء عشرين مليونا من الدولارات !

— بصدد المال ، اتصل بي عندما يحين الوقت . سأدلك على اسم المصرف الكاليفورني الذي تتوجه اليه لتمويلك . لا تقلق ، فهذا المصرف لا يفعل شيئا آخر غير ذلك تقريبا . اطلب المال ، بكل بساطة ، بالطريقة الطبيعية ، مع التبريرات المناسبة ، من مثل اتفاق تجاري عادي . وسيوافق سادة المصرف على طلبك . ولكن عليك اولا ان تقابلني لتنقل الي مشاريعك وتكاليفها . اتفقنا ؟

بقي جوني فترة طويلة صامتا . واخيرا سأل بهدوء :

— اهذا كل شيء ؟ اليس من شيءٍ آخر ؟

ابتسم هاجن : — تسألني ان كانت عليك التزامات مقابل قرض بعشرين مليونا من الدولارات ؟ بكل تأكيد .

وانتظر عبثا جوابا ، ثم استطرد :

— ليس من شيء مخجل ، يا عزيزي جوني . ان كل ما يمكن الدون ان يطالبه منك ، تفعله بدون هذا .

— ان على الدون ان يطالبه مني بنفسه اذا كانت المسألة مسألة خطيرة . اتفهم ما اعنيه ؟ انني لن اثق بكلمتك ولا بكلمة سوني ، بصدد امر رئيسي .

فوجىء هاجن بهذا الحس السليم . ان فونتان ، بعد كل حساب ، لم يكن

ابله . كان يفهم ان الدون يحبه اكثر مما ينبغي ، وانه اذكى مما ينبغي ليطالب منه ان يقوم بشيء خطير جدا ، في حين ان سوني قادر عليه . قال :

ـ اسمح لي ان اوضح شيئا سيعيد اليك الطمانينة . ان عرّابك قد اعطانا ، سوني وانا ، تعليمات صارمة بألا نجعلك ابدا تتورط في اي شيء يسيء الى سمعتك . وهو نفسه لن يفعل ذلك . انني اضمن لك ان تكون مستعدا لمنحه جميع الحظوات التي يطلبها منك ، قبل ان يتاح له وقت التكلم فيها . اتفقنا ؟

ابتسم جوني وقال : اتفقنا .

واستطرد هاجن : ـ ثم انه واثق بك . هو يعتقد ان في راسك شيئا ما . ويتكهن بأن هذا التوظيف للمال سيكون مثمرا للمصرف ، وبالتالي له . انه اذن عمل تجاري ، لا تنس هذا ابدا . لا تحاول ان تبذر المال . ربما كنت ابنه بالمعمودية المفضل ، ولكن عشرين مليونا من الدولارات مبلغ ضخم . والدون يتعرض للمجازفة حين يستدينها لك .

اجاب جوني : ـ قل له ألا يقلق . اذا كان بامكان احمق كجاك وولتز ان يكون منتجا عبقريا ، فان الامر في متناول الجميع .

ـ هذا تماما ما انتهى اليه البادرينو . هل تستطيع ان تقلني الى المطار ؟ لقد قلت كل ما عندي لك . وحين تأخذ في توقيع العقود ، اختر مستشارك القانوني الخاص . لا تعتمد عليّ لان اسمي يجب الا يظهر على ملفات عملك التجاري . على اني احب ان القي عليها نظرة ، اذا كنت موافقا . لن تكون لك مشاكل قط مع النقابات . وهذا ما سوف يخفض الى حد ما سعر التكلفة في افلامك . واذا حاول المحاسبون ان يجعلوك تدفع مثل هذه النفقات ، فلا تحسب لذلك اي حساب .

سأله جوني بحذر : ـ هل ينبغي ان اسألك موافقتك على نقاط اخرى ، على نصوص السيناريو او الممثلين او اشياء اخرى ؟

فهز هاجن راسه نفيا وقال : ـ لا . اذا كان الدون لا يوافق على اي شيء ، فانه سيقدم اعتراضاته بنفسه . ولكني لا اتصور الامور التي يمكن ان يحدث فيها ذلك . ان السينما لا تهمه . كل ما يمكنك ان تفعله سيكون بالنسبة اليه سواء . وبالاضافة الى ذلك ، استطيع ان اقول لك بالتجربة انه اقل الناس اقلاقا وازعاجا وتدقيقا .

قال جوني : ـ حسنا . سأرافقك انا نفسي الى المطار . واشكر البادرينو عني . سوف اتلفن له بكل رضى . ولكنه لا يرد ابدا على التلفون . فلماذا ؟

هز هاجن كتفيه : ـ انه لا يتكلم ابدا على التلفون . فهو لا يريد ان يسجل صوته ، حتى حين ينطق بعبارات بريئة للغاية . هو يخشى ان ينجح الآخرون في وصل بعض العبارات فيما بينها ليتهموا بقول ما لم يقله . اعتقد ان هذا هو السبب . ومهما يكن من امر ، فان اشد ما يخشاه ، هو ان تضبطه العدالة يوما بسبب شهادات زور . فهو لا يريد اذن ان يمكنها من ذلك .

استقلا سيارة جوني متجهين الى المطار . وكان هاجن يفكر بان جوني يساوي

اكثر مما يتصور . كان اللقاء قد بدا يؤتي ثماره . وكان ما يثبت ذلك انه كان يرافقه بنفسه الى المطار . كانت المجاملة فضيلة يؤمن بها الدون شخصيا . وكذلك الاعتذارات التلقائية . وكانت اعتذارات جوني صادقة بجلاء . كان هاجن يعرفه منذ زمن طويل ، وكان يعرف ان الخوف ما كان قط ليدفعه الى الاعتذار . لقد كان جوني دائما ذا قلب كبير . من اجل هذا كانت له مصاعب مع معلميه ومع النساء . وكان كذلك واحدا من القلة الذين لم يكن الدون يخيفهم . ربما كان فونتان وميخائيل الشخصين الوحيدين اللذين يمكن ان يقال عنهما ذلك. واذن ، فقد كانت الاعتذارات صادقة . وكان توم يتقبلها على هذا الشكل . وسوف يلتقي هو وجوني كثيرا في الاعوام التالية . وكان على جوني ان يقدم الاختبار الثاني بنجاح . وسنرى آنذاك درجة ذكائه . سوف يأتي يوم تتاح له فيه الفرصة ليؤدي خدمة لعرّابه . قد لا يطلب اليه الدون ذلك ، واذا فعل ، فسيكون ذلك بالايماء ، ومن غير الحاح. وبالتأكيد لم يكن يقدم ذلك بصورة صفقة اعطِ تعط . وتساءل هاجن عما اذا كان جوني فونتان من الذكاء بحيث فكر في هذا المظهر من اتفاقهما .

بعد ان اوصل جوني المستشار هاجن الى المطار (لم يكن توم يريد ان يُرافق حتى الطائرة) عاد جوني بالسيارة الى منزل جيني . وقد فوجئت بذلك . ولكنه كان حريصا على قضاء فترة عندها ليفكر ويوضح مشاريعه . كان يدرك اهمية لقائه مع هاجن ، ان حياته كلها سوف تتغير . كان مرهقا في الخامسة والثلاثين ، بالرغم من شبابه ومن كونه نجما كبيرا قديما . لم يكن على وهم في هذا . حتى ولو فاز بالاوسكار كأفضل ممثل ، فما عسى ذلك ان يعني ، بحق الشيطان ؟ لن يعني شيئا ما لم يسترد صوته . لن يكون الا ممثلا من الصف الثاني ، من غير نفوذ حقيقي ، وبلا قيمة حقيقية . وحتى تلك الفتاة التي صرفها ، والتي كانت لطيفة ومجاملة ، اكانت تكون عاقلة الى هذا الحد لو كان بعد في مجده ؟ اما الآن ، بعد ان يدعمه مال الدون ، فقد كان باستطاعته ان يصبح من جديد اشهر من اي شخص في هوليوود . ان بامكانه ان يكون ملكا . وابتسم جوني . يا للشيطان ! بل ان بامكانه ان يكون دونا !

ان يعيش من جديد بضعة اسابيع مع جيني ، وربما اكثر ، سيكون هذا الديذا. سوف يأخذ الطفلتين كل يوم في نزهة ، وربما يدعو بعض الاصدقاء . سينقطع عن الشرب والتدخين ، وسيعنى حقا بصحته . وربما استعاد صوته ؟ لو حدث ذلك ، فسيكون شخصا لا يقهر ، مع مال الدون . ان وضعه سيكون حقا قريبا من وضع ملك او امبراطور من اباطرة الماضي بالقدر الذي يمكن فيه ذلك في اميركا . ولن يتوقف هذا الوضع فقط على صوته او على النجاح الذي سيحرزه كممثل . ستكون امبراطوريته قائمة على المال ، وعلى السلطة التي يطمح اليها العظماء .

ووضعت جيني غرفة الاصدقاء تحت تصرفه . وكان التفاهم ضمنيا انه لن يشاطرها سريرها ، ولن يعيشا كزوجين . لن يستطيعا بعد ابدا ان يكون لهما هذا النوع من العلاقات . كان العالم الخارجي والمخبرون الصحفيون و « المعجبون » قد نسبوا اليه ، وحده ، سبب اخفاق زواجهما ، ولكنهما كانا يعرفان ، كلاهما ،

بصورة غريبة ، انها كانت اكثر مسؤولية منه على طلاقهما .

حين اصبح جوني فونتان اشهر مغن وممثل للافلام والمسرحيات الموسيقية ، لم يفكر اطلاقا في ترك زوجته وابنتيه . كان شديد التعلق بايطاليته ، شديد الوفاء للتقاليد . طبعا ، كان فرفارا ومتقلبا . كان يستحيل عليه ان يقاوم جميع الاغراءات التي كان يتعرض لها بلا انقطاع : وبالرغم من انه كان دقيقا ناعم المظهر ، فقد كان يملك الصلابة العصبية لعدد كبير من اللاتينيين ، على صغر هيكله . ثم ان النساء كن يسحرنه بما يملكن من مفاجآت . كان يحب ان يخرج مع فتاة ذات وجه عذب ومتواضع ، ذات مظهر عذري . ثم ان يكشف نهديها فيجدهما كبيرين بصورة مدهشة وغنيين وثقيلين بشكل غير محتشم ، متناقضين مع الوجه الدقيق . كان يحب كذلك ان يلاحظ الخجل والتحفظ الجنسيين لدى فتيات ذوات مظهر مثير ، وحركاتهن كانت في مثل تصنع حركات لاعب حاذق من لاعبي كرة السلة . وكانت تسليه كذلك تلك اللواتي يمثلن دور المغويات كما لو انهن قد ضاجعن مئات من الفتيان ، فاذا انفردن به اجبرنه على الكفاح طوال ساعات ، بل لقد كن احيانا عذراوات .

كانت هوليوود كلها تسخر من ميله الى الابكار . كانوا يرون في ذلك ذوق ايطالي قديم متخلف . حين نعرف الوقت الذي يتطلبه فض بكارة فتاة ، وما يشكل ذلك من عمل ، بصرف النظر عن التعقيدات والمخاوف المختلفة ، فاننا نتساءل : ما جدوى ذلك ؟ والاسوا من ذلك كله ان الفتاة ليست بالضرورة شيئا جيدا : فغالبا ما تكون مجنونة مخيبة . ومع ذلك، فقد كان جوني يحب الفتيات النضرات ويحسب انه يحسن التصرف معهن . اي شيء اروع واعظم من فتاة تتذوق للمرة الاولى اللذائذ الجسد وتقدرها ؟ كان كل شيء يسحره في هذا الكشف : الاندفاع الذي به يطبقن سيقانهن حول الذكر ، قبة المؤخرة الشديدة التنوع ، جوهرتهن التي لا تشبه ابدا جوهرة واحدة اخرى ، برغلة البشرة ، ومذاقها ورائحتها واختلاف الوانها ، اضواء الحنايا ، والمذهب مما لا يخفيه البيكيني . فتاة « ديترويت » تلك الزنجية مثلا : طفلة جذابة ، ليست مومسا على الاطلاق ، ابنة مغني جاز في نفس برنامجه في المرقص الذي كان يغني فيه . لقد تكشفت عن انها واحدة من الذ المخلوقات التي عرفها . كان لشفتيها حقا مذاق العسل الفاتر مع نكهة فلفل ، وكانت بشرتها السمراء الداكنة غنية وعذبة . وكانت عذراء ، تلك المراة الرائعة التي لم يخلق الله اجمل منها ولا اعذب .

كان الشبان الآخرون يمتدحون اللذائذ المعقدة والاوضاع والطرق الغريبة . اما جوني فلم يكن يقدر هذا الى ذلك الحد . ان الفتاة تكف عن ان تروق له كثيرا حين يكونان قد مثلا تلك الالعاب معا ، ولم يكن يبلغ من ذلك قط الرضى والكفاية . ولم يكن يتفاهم هو وزوجته الثانية لان مارغو تلك القحبة كانت مسعورة بالعاب الفم ، الى درجة انها لم تكن تريد شيئا آخر ، بحيث كان مجبرا على اغتصابها . وكانت تسخر منه ، وتتهمه باستعمال طرق بالية بشكل مخجل . ولانه كان يقوم بفعل الحب على نحو شريف ، فان الشائعة العامة التي اشاعتها مارغو ، كانت تدعي انه

كان يتأتى للامر كأنه مراهق . العل هذا هو السبب في ان تكون شارون الصغيرة قد تخلت عنه في الليلة الماضية ؟ اذن ، فليأخذها الشيطان ! انها في الحق ما كانت لتساوي شيئا عظيما في السرير !

كان يعرف من النظرة الاولى الفتيات اللواتي كن يحببن الحب ، وكن دائما افضل الاناث ، وخاصة اولئك اللواتي لم تكن لهن تجربة متطرفة . اما اللواتي كان يختقرهن حقا ، فكن اولئك الفتيات اللواتي بدأن يزنين وهن في الثانية عشرة ، فكان ان فقدن مذاق ذلك حين يلغن العشرين . لم يكن يستسلمن بعد الا لظاهر من العمل الجنسي يدعو للرثاء . ومن اسف انهن كن أحيانا اجمل الفتيات .

حملت جيني القهوة والبسكويت الى غرفته ووضعتهما على الطاولة الطويلة في زاوية الصالة ، وكشف لها انه ، بفضل هاجن ، سيتصرف بالاموال الضرورية لانتاج الافلام . وتحمست لهذا المشروع : انه سيسترد اهميته السابقة . ولكنها لم تكن تملك اية فكرة عن سلطة دون كورليون ، ولم تكن تفهم سبب مجيء هاجن من نيويورك . وأوضح لها ان هاجن سيمحضه كذلك نصائحه من اجل تفاصيل العقود .

بعد ان تناولا القهوة ، اخبرها انه سيعمل طوال الليل ، وسيقوم بمخابرات هاتفية ويضع مخططات للمستقبل . وقال لها :

– سيكون نصف العائدات باسم البنتين .

فوجهت اليه بسمة عرفان ، وقبل ان تغادر الغرفة ، قبلته وهي تتمنى له ليلة سعيدة .

كانت سكايره المفضلة ذات العلامة المذهبة موضوعة على صينية زجاجية ، وعلى مكتبه كانت علبة سيكارات كوبا السوداء الدقيقة كاقلام رصاصية . وانقلب جوني في اريكته ، وبدا مخابراته التلفونية . كان ذهنه يدندن كقطة سعيدة .

اتصل بمؤلف الرواية الرائجة التي سيقتبس منها فيلمه الاول . كان رجلا في مثل سنه ، وكان قد عانى شظف العيش قبل ان يبلغ الشهرة في عالم الادب . وكان قد وصل الى هوليوود وهو يرجو ان يستقبل فيها بالاعتبار الذي تستحقه شخصية عظيمة ، فلم يلتفت اليه احد ، شأنه في ذلك شأن معظم الكتاب . وقد كان جوني شاهدا على مهانته ذات مساء في « براون دربي » . كان المسكين على موعد في المدينة مع نجمة صغيرة معروفة ، وكانت الليلة في السرير تبدو وكأنها في جيبه . ولكن الفتاة تركته في اثناء تناول العشاء لان ممثلا هزليا ذا وجه جرذوني اومأ اليها باصبعه . وهكذا كوّن الكاتب فكرة صحيحة عن نظام التسلسل في مجتمع هوليوود . لم يكن مهما ان يكون كتابه قد جعله مشهورا في العالم . فقد كانت نجمة صغيرة تفضل عليه ابشع ممثلي السينما واعجزهم .

اتصل جوني بالكاتب في منزله بنيويورك ليشكره على الدور الهام الذي كان قد حفظه له في كتابه . ولم يتملقه . ثم سأله ، متصنعا عدم الاهتمام ، عن روايته القادمة ، ما موضوعها واين بلغ فيها . واشعل سيكارا بينما كان المؤلف يشرح له فصلا مثيرا للاهتمام بشكل خاص . وحين انتهى من الشرح صاح به :

ـ عجبا ! اريد ان اقرا الرواية حين تفرغ منها . ابعث لي باحدى نسخهـا الاولى . ربما اقتبستها لك بشروط مغرية ، اشد اغراءً من شروط وولتز !

وكشف له الالحاح الذي عبر عنه صوت الكاتب ما كان قد حزره تماما . كان وولتز القذر قد نهب الرجل ولم يترك له الا الفتات . واخبره جوني انه قد يقصد نيويورك مباشرة بعد عطلة الميلاد ، وانتهى الى القول :

ـ نتناول العشاء معا ، برفقة بعض الاصدقاء ، ماذا تقول ؟ اني اعرف فتيات لذيذات القضم كأنهن البسكوت !

فانفجر الكاتب ضاحكا واعطى موافقته .

ثم اتصل جوني بالمخرج وبمدير الفيلم الذي انتهى منه لتوه ليشكرهما على انهما ساعداه على المسرح . واسر اليهما انه كان يعرف ان وولتز كان معاديا لـه ولهذا فهو يقدر مساعدتهما مضاعفة . واذا كان بامكانه ان يقدم لهما اية معونـة ، فما عليهما الا ان يتصلا به .

وبعد ذلك ، قام بالمخابرة الاصعب ، فاتصل بجاك وولتز ، وشكره على الدور الذي كان قد اسنده اليه في الفيلم واكد له انه سيكون سعيدا بان يعمل له مـن جديد . فعل ذلك على سبيل التضليل ليس غير . كان دائما مستقيما ، شريفا . وبعد ايام سيكتشف وولتز مناورته وستخدعه ثنائية هذه المخابرة . وكان هـذا بالضبط ما يرغبه جوني .

جلس بعد ذلك الى مكتبه ودخن سيكاره . كان ثمة زجاجة ويسكي عـلى الطاولة المجاورة ، ولكنه كان قد عاهد نفسه ـ وعاهد هاجن كذلك ـ ان ينقطع عن الشرب . بل كان عليه ان يمتنع عن التدخين . كان ذلك بليدا ! ان الانقطاع عـن الشرب او عن التدخين لن يرد له صوته على الارجح . لا فائدة من المبالغة . بحق الشيطان ! ان منشطا ما لن يضيره . كان يريده ان يضع جميع الحظوظ الى جانبه ، الآن وقد اتيحت له فرصة القتال .

في البيت النائم ، حيث تستريح زوجته وابنتاه المعبودتان ، عاد يفكر بالايام الرهيبة التي اضطر الى ان يتركهن فيها . ومن اجل قحبة ، مومس منحلة ! ومعذلك، فقد ابتسم وهو يفكر فيها . بغي ، نعم ، ولكنها بغي لذيذة من عدة جوانب . ولئن كان ثمة ، بالاضافة الى ذلك ، تاريخ ذو شأن في حياته ، فقد كان تاريخ اليوم الذي قرر فيه الا يحقد على امراة قط ، او بصورة اخص ، اليوم الـذي قـرر فيه انه لا يستطيع ان يحقد لا على زوجته الاولى ولا على ابنتيه ، ولا على صديقاته الصغيرات القادمات ، بمن فيهن شارون مور التي كانت قد فشلته ليكون لها ان تتبجح بأنهـا رفضت عروض جوني فونتان العظيم .

حين كان مغنيا ، رافق جوقة في رحلة . ثم اصبح نجما اذاعيا ، ثم نجمـا للمتنوعات التي تقدم في فترات استراحة ، واخيرا نجما سينمائيا . وطوال هذا الوقت ، عاش على هواه ، وامتلك النساء اللواتي اشتهاهن ولكن من غير ان يؤثـر ذلك على حياته الشخصية . وفي تلك الفترة سقط في حب تلك التي ستصبح بعد ذلك زوجته الثانية ، مارغو اشتون . كان قد جن بها كليا . وقد هدم مستقبلـه

وهدم صوته وهدم حياته العائلية ، حتى جاء اليوم الذي وجد فيه نفسه صفر اليدين .

كان يجب عليه ان يعترف انه كان دائما كريما ومستقيما . كان قد اعطى زوجته الاولى كل ما يملك حين تم بينهما الطلاق . وكان قد ضمن لابنتيه حظهما من كل ما سيقوم به ، من كل اسطوانة من اسطواناته ، ومن كل فيلم من افلامه ، ومن كل رواتبه . ولم يكن قد منع عن زوجته شيئا ، حين كان غنيا ومشهورا . وكان قد ساعد اصهاره واولاد عمه وحماه وحماته ورفاق صبا جيني ، من غير ان ينسى عائلاتهم . وكان قد غنى في حفلتي عرس شقيقتي زوجته الصغيرتين ، وهذا ما كان يكرهه . لم يكن قد رفض لها شيئا ، ما عدا استرداد شخصيته كاملة.

وحين بلغ القاع ، ولم يعد يجد عقودا ، وحين كف عن الغناء وخانته زوجته الثانية ، ذهب يقضي بضعة ايام قرب جيني وابنتيه . واستمع ذات يوم الى احدى اسطواناته ، فبدا له صوته كريها جدا حتى انه اتهم التكنيكيين بتخريب التسجيل. واخيرا ، ادرك انه كان حقا صوته لفرط ما كان ابح . وقد حطم الاسطوانة ورفض ان يغني اكثر من ذلك . وبلغ به الخجل انه لم يغن بعد ذلك قط ، الا مع نينو في عرس كوني .

ولم ينس قط التعبير الذي اكتساه وجه جيني حين اطلعت على جميع مصائبه. كانت ثانية واحدة كافية لتجعل جوني لا ينسى ابدا تلك الشرارة من الفرحة الهائلة. وكان بامكانه ان يستنتج منها انها لم تكنّ له منذ سنوات الا الحقد والاحتقار . وكانت قد استدركت نفسها بسرعة واظهرت له تعاطفا باردا وبعيدا. وتظاهر يومذاك بأنه قبل ذلك . وخلال الايام التي تلت ، زار ثلاثا من الفتيات اللواتي كان قد نام معهن ، ولا يزال ينام معهن كرفيقات ، وهن فتيات قد ساعدهن بكل ما كان يملك من وسائل ، واعطاهن ما يعادل مئات الالوف من الدولارات كهدايا او وسائل دعم. وقد قرأ على وجوههن السرور الخفي نفسه .

عند ذلك ادرك ان عليه ان يتخذ قرارا . كان بامكانه ان يصبح شبيها بكثير من مشاهير هوليوود ، بالمنتجين الناجحين وكتاب السيناريو والمخرجين والممثلين الذين كانوا ، بدافع من شراسة شهوانية ، يعتبرون جميع النساء طرائد . سيكون بامكانه اما ان يستخدم نفوذه او ماله على مضض ، مستعدا دائما للخيانة ، مستعدا دائما للاعتقاد بأن النساء سوف يخدعنه ويتركنه ، وانهن كن خصوما يجب ان يقارعهن . واما ان يرفض الحقد على النساء وان يستمر في الثقة بهن .

كان يعرف ان من المستحيل عليه الا يشتهيهن ، وان جزءا من روحه وفكره سيموت اذا كفّ عن حب النساء ، بالغا ما بلغن من الخداع والخيانة . كان ذا اهمية ضئيلة ان تكون هاتيك اللواتي احبهن اكثر ما احبهن سعيدات برؤيته مسحوقا ، مهانا بصروف القدر . ولم يكن مهما انهن قد خنه ابشع خيانة ، وليس فقط في الميدان الجنسي . كان لا بد ان يقبلهن كما هن . لم يكن له الخيار . وهكذا ضاجع الجميع ، وقدم لهن الهدايا ، واخفى الجرح الذي خلفه في نفسه فرحهن لمصائبه . لقد صفح عنهن عالما ان خيبته كانت تعوض الحرية المطلقة التي تمتع بها معهن .

ولكنه لم يكن يحس بعد ذلك بالذنب حين كان يكذب عليهن . لم يكن يحس اي ندم بصدد موقفه من جيني . ومع ذلك ، فقد كان متطلبا بشكل استبدادي : فلكي يبقى الاب الوحيد لابنتيه ، كان يمنعها من ان تتزوج ثانية ، من غير ان يواجه امكانية انزواج بها من جديد ، ومن غير ان يخفي عنها ذلك . ولعله لم ينقذ الا هذا المظهر في اثناء تحلله . وبعد ذلك ، اصبح جلده اقسى من ان يقاق للاذى الذي قد يضطر الى مواجهة النساء به .

كان متعبا ، وكان مستعدا للجوء الى سريره حين خطرت له فكرة : ان يغني مع نينو فالنتي . وادرك فجأة كل السرور الذي سيحدثه ذلك للدون كورليون . وتناول السماعة وطلب من الموظفة ان تعطيه نيويورك . وخابر سوني طالبا منه رقم تلفون نينو . ثم اتصل بنينو الذي بدا له ثملا بعض الشيء ، كعادته :

ــ الو ، نينو ، ما رايك ان تأتي هنا ، لتعمل لحسابي ؟ انني محتاج الى فتى استطيع ان اعتمد عليه .

قال نينو مازحا : ــ يا للشيطان ، لا ادري ، يا جوني . ان عملي في الشاحنة جيد . انني احصل على مئة وخمسين دولارا في الاسبوع ، واقرط مدبرات منزل لذيذات في طريقي . هل تستطيع ان تقدم لي افضل من ذلك ؟

ــ خمسمئة دولار ، في البداية ، ومواعيد مع كواكب سينمائية ، ما تقول ؟

قال نينو : ــ دع لي الوقت للتفكير . دعني احدث في ذلك مستشاري القانوني ، ومحاسبي ، وزميلي على الشاحنة !

استطرد جوني : ــ لا تمزح ، يا نينو . انني بحاجة اليك هنا . استقل الطائرة صباح الغد ، وتعال الى هنا فوقع عقدا شخصيا بخمسمئة دولار في الاسبوع لمدة عام . وبعد ذلك ، اذا سلبتني احدى دجاجاتي فطردتك من الباب ، فستقبض راتب سنة على الاقل ، على سبيل التعويض . اتفقنا ؟

وسادت فترة صمت طويلة ، وظل صوت نينو هادئا :

ــ ايه ، جوني ، هل تمزح ؟

اجاب جوني : ــ على الاطلاق ، يا ولد . اذهب فقابل وكيلي في نيويورك . فسوف يعطيك تذكرة الطائرة وبعض الفلوس . سأعطيه تعليماتي صباح الغد . اذهب اليه بعد الظهر . اتفقنا ؟ سينتظرك شخص على المطار ويرافقك الى منزلي .

وسادت من جديد فترة صمت ، ثم اجاب صوت نينو ، خافتا ، غير متأكد :

ــ حسنا ، يا جوني .

ولم يكن يبدو بعد ثملا على الاطلاق .

واعاد جوني السماعة ، واستعد للنوم . لم يشعر بملء الارتياح الذي يشعر به الآن ، منذ حطم اسطوانته .

١٣

جلس جوني فونتان على أحد المقاعد في ستوديو المزامنة (١) ، وقدر نفقاته على دفتر من الورق الاصفر . كان الموسيقيون يدخلون واحدا واحدا . وكانوا جميعا اصدقاءه ، فقد عرفهم عندما كان مغنيا صغيرا في الجوقات . واخذ ايدي نيلز ، رئيس الجوقة ، وهو اخصائي في الموسيقى الشعبية ، وقد بدا مسعفا في الايام الصعبة ، اخذ يوزع توليفات وتعليمات شفهية . وكان قد قبل هذا التسجيل خدمة لجوني ، بالرغم من ان وقته كان مثقلا بالعمل .

وكان نينو فالنتي جالسا الى البيانو ، وكانت اصابعه تركض بعصبية على الملامس . وكان يشرب كذلك جرعات صغيرة من قدح ويسكي كبير . ولم يكن لجوني ما يقوله في ذلك . كان يعرف ان نينو يغني غناء صحيحا ، سواء كان ثملا او على الريق ، وما كانوا سيقومون به ذلك اليوم لم يكن يتطلب من جانب نينو مزايا موسيقية خاصة .

وكان ايدي نيلز قد ضبط توزيعات موسيقية خاصة وفق الحان ايطالية وصقلية قديمة ، وكذلك الاغنية الثنائية الهزلية التي كان نينو وجوني قد قدماها في عرس توني كورليون . وكان جوني يسجل هذه الاسطوانة قبل كل شيء ، لانه كان يعرف ان الدون كان يحب هذه الاغاني وان ذلك سيكون هدية ممتازة لعيد الميلاد . وكان يتوقع كذلك ان تذيع شهرة هذه الاسطوانة . لا الى حد المليون طبعا . وكان يعتقد ان مساعدة نينو كانت الطريقة المطلوبة لوفاء دينه . لقد كان نينو هو ايضا ، بعد كل حساب ، ابنا للبادرينو بالمعمودية .

وضع جوني مفكرته الصفراء على الكرسي القابل للطي القائم الى جانبه ونهض متجها الى البيانو . ورفع نينو راسه محاولا ان يبتسم . كان يبدو مريضا بعض الشيء . وانحنى جوني فربت على ظهره .

— أرح نفسك ، يا ولد . اذا عملت جيدا ، اخذت لك موعدا مع اشهر واللذ مؤخرة جميلة في هوليوود !

شرب نينو جرعة ويسكي وسأل : من ؟ لاسي ؟

فانفجر جوني ضاحكا : — لا . بل ديانا دن . انني اكفل البضاعة .

لم يستطع نينو الامتناع عن سؤاله بتكشيرة ابن مدلل ، رغم انه تأثر بعرضه

— بالنسبة للاسي ، اليس ممكنا ؟

---

(١) Synchronisation مزامنة الصور والاصوات في فيلم سينمائي .

بدات الجوقة افتتاحية الاغنية . واصغى جوني فونتان باهتمام . سيعزف ايدي نيلز جميع الالحان بتوزيعاتها الخاصة . وبعد ذلك فقط يجري تسجيل الاغنية مع المصاحبة . وفكر جوني ، وهو يستمع ، بالطريقة التي سيغني بها عند كل جملة موسيقية ، وكيف سيتدخل في كل نغم . كان يعرف ان صوته لن يحتمل جهدا طويلا ، ولكن نينو هو الذي سيتولى الدور الاول ، وسيكتفي جوني بمصاحبته. الا في الحوار الثنائي الذي يحتفظ فيه لنفسه بدور خاص .

ولكز نينو فنهض ، ووقفا معا ازاء المذياع . وفوّت نينو البداية مرة ومرتين، فسأله جوني :

ــ انت تتباطأ لتكسب ساعات اضافية ؟

فأجاب نينو : لا احسني مرتاحا بدون ماندوليني .

وفكر جوني لحظة ، ثم قال : ــ خذ قدح الكحول هذا بيدك .

وبدا ذلك ملائما للمطلوب . فاستمر نينو يشرب وهو يغني ، ولكنه نجح في ذلك نجاحا كبيرا . وغنى جوني بسهولة ، وبلا جهد ، ومن غير ان ينحرف كثيرا عن طريقة نينو في الغناء . صحيح انه لم يكن يحس بأي رضى عاطفي في هذا النوع من الغناء ، ولكن جودة تقنيته اذهلته : ان عشرة اعوام من التنغيم قد علمته شيئا ، رغم كل المصاعب .

وحين وصلا الى الحوار الثنائي الذي كان ينهي التسجيل ، بسط جوني مدى صوته على سعته . وحين انتهيا ، كانت حباله الصوتية تؤلمه . وكان الموسيقيون قد تحمسوا بالاغنية الاخيرة ، وهو امر نادر عند شيوخ المهنة هؤلاء ، فطرقوا آلاتهم الموسيقية ودقوا الارض بأقدامهم بدلا من التصفيق . واخرج الطبال قرعة ضخمة من آلتـه .

اشتغلوا اربع ساعات طويلة ، تقطعها استراحات ومناقشات . واقبل ايدي نيلز يلقى جوني ويقول له ببساطة :

ــ كان ذلك جيدا جدا ، يا ولد . اذا كنت راغبا في تسجيل اسطوانة ، فعندي اغنية جديدة تلائمك تماما .

هز جوني راسه وقال : ــ كفي ، يا ايدي . لا تحدث لي المشاكل . بعد ساعتين اخريين ، ستمنعني البحة في صوتي حتى من الكلام . اتعتقد ان علينا ان ننظم كثيرا ما قمنا به اليوم ؟

اجاب ايدي متفكرا : ــ يجب على نينو ان ياتي الى الاستديو غدا . ان في غنائه بعض الثغرات . ولكنه افضل جدا مما كنت اظن . اما بالنسبة اليك ، فسأقول لمهندسي الصوت ان يتدبروا كل ما لا يروق لي . اتفقنا ؟

اجاب جوني : ــ اتفقنا . متى استطيع ان اسمع ذلك ؟

قال ايدي نيلز : مساء الغد . في منزلك ؟

فاجاب جوني : اتفقنا . شكرا يا ايدي ، والى الغد .

واخذ نينو من ذراعه فغادرا الاستديو . وذهبا الى منزله ، لا الى منزل جيني. كان المساء يوشك ان يهبط . وكان نينو اكثر من نصف سكران . ونصحه

جوني ان يمر تحت المرشة قبل ان يأخذ سنـــة من النوم . كان امامهما حفلة استقبال كبرى في الحادية عشرة ، تلك الليلة نفسها .

وحين استيقظ نينو ، شرح له جوني :

ـ انها سهرة ناد للقلوب المتوحدة لا يشارك فيها الا نجوم الشاشة . هذا المساء سترى كثيرات ممن تعرضهن السينما كملكات للجاذبية الجنسية . ملايين من الرجال يقطعون يدهم اليمنى مقابل مضاجعة واحدة منهن . انهن سيأتين الى النادي بهدف واحد : التفتيش على من يعلوهن او البحث عن نزوة على هواهن . اتعرف السبب ؟ ان لهن الرغبة في ذلك ، ولكنهن بدأن يكبرن قليلا . وكجميع السيدات ، يردن اجمالا ان يضعن حولهن قليلا من الزهور .

سأله نينو : وصوتك ، ماذا دهاه ؟

كان جوني لا يكاد يتجاوز الهمس : ـ يحدث هذا كلما غنيت اكثر مما ينبغي . لن يكون بامكاني الآن ان اغني قبل انقضاء شهر . ولكن بعد يوم او يومين استطيع ان اتكلم بشكل طبيعي .

قال نينو مفكرا : ـ كم هو مزعج ذلك ؟

رفع جوني كتفيه قائلا : ـ اسمع ، يا نينو . لا تفرط هذا المساء في الشراب . يجب ان تظهر لنساء هوليوود المدعيات ان « صديقي » عشيق حقيقي . وليس هذا فحسب . ان البعض منهن طويلات الباع في عالم السينما ، ويستطعن ان يجدن لك عقودا . فلا تحرمهن من شيء . وحتى بعد العملية ، قليل من السحر والرقة يبعث الحرارة في قلوبهن الكهلة .

كان نينو قد بدأ يصب لنفسه الشراب ، فرد قائلا :

ـ يا عزيزي ، انا دائما ساحر . (وافرغ قدحه ثم سأل باسما) : اصحيح انك تستطيع ان تجمعني بديانا دن ؟ اليست هذه مزحة ؟

قال جوني : ـ لا تقلق (ثم انفجر ضاحكا واضاف) : لن يحدث شيء على الصورة التي تتصورها !

كان نادي القلوب المتوحدة لنجوم سينما هوليوود (كما سماه ابطال السينما الذين كان حضورهم يفرض نفسه كواجب محتم) ينعقد مساء كل جمعة في ستوديو روي ماكلروي ، الملحق الصحفي او على الاصح مستشار العلاقات العامة لشركة افلام وولتز العالمية . والواقع ان فكرة هذا النادي انما نبتت في ذهن جاك وولتز شخصيا بالرغم من انه كان استقبالا لماكلروي يستطيع الجميع ان يحضروه . كانت بعض نجومه النسائية التجارية يكبرن سنا ، وكان ذلك فاضح الوضوح لولا انوار المسلاط الخاصة والمطر ّون العباقرة . كانت لديهن مشكلات . ذلك ان النجاح كان الى حد ما ، قد قتل عندهن الحساسية ، جسميا وروحيا . كان من المستحيل عليهن ان « يقعن عاشقات » ، ولم يكن ّ يستطعن ان يلعبن دور النساء اللواتي يطاردهن الرجال . فالمال والشهرة وجمالهن القديم ، كل ذلك قد جعلهن مفرطات التعالي . وكان وولتز يمنحهن هذه السهرات كميدان لصيد عشيق لليلة واحدة . فاذا كان

الرجل يملك قماشة ، فان بوسعه ان يرقى الى رتبة شريك ، مما كان يسهل نجاحه المهني . ولما كان الحدث ينتهي احيانا الى اعياد قصف وتهتك صاحب مع تدخل الشرطة ، فقد كف وولتز عن الاستقبال في منزله ليتم ذلك في منزل مستشاره للعلاقات العامة . واذ يكون موجودا ، فانه كان يتدبر الامر برشوة الصحفيين ورجال الشرطة .

بالنسبة لعدد من الممثلين الشبان ذوي الرجولة الذين كانت اسماؤهم قد بدأت تدر بعض المال وان لم يكونوا قد وصلوا بعد الى الادوار الاولى ، فان حضورهم سهرات الجمعة لم يكن دائما واجبا لذيذا . كان عرض فيلم قبل عرضه على الجمهور يتخذ ذريعة لهذا النشاط الاجتماعي ذي الطابع الخاص . كان المنافقون يقولون : « لنذهب الى رؤية فيلم كذا الجديد » . وكان ذلك يكفيهم ، لان المسألة كانت تأخذ وجهة مهنية .

لا جدوى من ايضاح ان النجوم الشابة كانت مستبعدة عن هذه الإجتماعات . صحيح انه لم يكن ثمة اعلانات على الباب ، ولكنهن كن يعاملن كدخيلات بالحاح شديد بحيث كن لا يرجعن ابدا ويتناقلن كلمة السر .

كان عرض الافلام الجديدة يتم في منتصف الليل . وقد وصل جوني ونينو في الساعة الحادية عشرة . وكان روي ماكلروي يبدو بأناقة ملبسه على غاية اللطف للنظرة الاولى . وقد استقبل جوني فونتان بصيحة دهشة مأخوذة ، فقال بعجب لم يكن يبدو مصطنعا :

ــ ماذا تفعل هنا ، بحق الشيطان ؟

فصافحه جوني وقال : ــ انني ارشد ابن عمي الريفي !

وقدم احدهما للاخر ، فحدج ماكلروي نينو بنظرة خبير ، وقال لجوني :

ــ سوف يقرضنه نيئا !

وقادهما نحو صحن الدار الخلفي . وكانت ببساطة سلسلة من القاعات الواسعة كانت ابوابها الزجاجية تفضي الى حديقة ومسبح . وكان زهاء مئة شخص يتسكعون فيها ، والاقداح في ايديهم . وكانت الاضاءة المنظمة بشكل فني تداعب وجوه النساء . وكانت وجوه اولئك النساء التي كان نينو قد رآها في مراهقته على شاشات السينما غارقات في الظلام . كان لهن مكان في احلامه العشقية الفتية ، ولكنهن يبدون له بلحمهن وعظمهن ممرهات من اجل فيلم من افلام الرعب . لم يكن ثمة ما يستطيع اخفاء ارهاقهن الجسدي والروحي . كان الزمن قد بَشَر فيهن مفاتن انصاف الالهات . كن يتخذن اوضاعا ويتنقلن برشاقة تذكر انه شاهد مثلها لديهن، ولكن ذلك بدا من شدة التصنع لنينو بحيث داخله الاحساس بأنه عاجز . وشرب ، وتاه هنا وهناك حتى استقر الى جانب طاولة قريبة من مستودع زجاجات ــ وتبعه جوني ، فشربا حتى اللحظة التي رن فيها خلفهما صوت ديانا دن السحري .

كان هذا الصوت محفورا الى الابد في ذاكرة نينو ، مثله في ذاكرة ملايين غيره من الرجال . وكانت ديانا دن قد فازت بجائزتي اوسكار وامنت اكبر دخل عرفته هوليوود . وكان سحرها السنوري على الشاشة لا يقاوم بالنسبة للجميع . ولكن

الكلمات التي نطقت بها لم يسبق ان ترددت قط على الشاشة الفضية :

– جوني ! يا لك من ازعر ! لقد وجب عليّ ان اراجع طبيبي النفسي مرة اخرى لانك تخليت عني بعد الليلة الاولى. واذن ، اليس من مباراة لاخذ الثأر ؟

وقبل جوني الخد الذي كانت تمنحه اياه . ثم اجاب :

– لقد استنفدتني لمدة شهر . اسمحي لي ان اقدم لك ابن عمي نينو . شاب ايطالي متين ربما كان على المستوى .

قاست ديانا دن بنظرة متعالية نينو من راسه الى قدمه ، وسألت :

– هل يحب ان يتفرج على العروض التمهيدية ؟

فاجاب جوني ضاحكا : – لا اعتقد انه قد شاهد احدها قط . فعليك ان تدربيه على هذا الشيء الجديد .

اضطر نينو الى صب قدح كبير حين اصبح وحيدا مع ديانا دن . وحاول ان يبقى متطلقا مرحا ، ولكن ذلك كان صعبا . كان انف ديانا دن خانسا ، وقسماتها قسمات الجمال الانكلوساكسوني الكلاسيكية النظيفة ، وكان يعرفها جيدا ! كان قد رآها وحيدة في غرفتها ، محطمة القلب ، تبكي موت زوج طيار تركها مع يتيمين . وكان قد رآها في سورة الغضب ، مجروحة مهانة ، ومحتفظة مع ذلك بحس كرامة عظيم حين اغتصبها ذلك السوقي كلارك غيبل ثم تركها عند مومس (لم تكن ديانا دن تمثل قط دور المومسات على الشاشة) . وكان قد رأى اعترافا غراميا يضرج وجهها . وكانت ، تحت ناظريه ، قد تلوت من الحمى بين ذراعي الرجل الذي كانت تعبده . بل لقد رآها تموت موتا رائعا زهاء ست مرات . وكان قد اعجب بها واستمع اليها وحلم بها ، ولكنه ما كان ليتوقع قط الطريقة التي باشرت بها الحديث .

– ان جوني واحد من رجال هوليوود يملك خصيتين بين فخذيه . اما الآخرون فجميعهم لواطيون او معتوهون . ولكي ينتعظوا مع امراة فيجب ان يضخ في مؤخرتهم ملء شاحنة من مسحوق الكانتاريد المهيج . وحتى هذا لا ينفع !

وامسكت نينو من يده وجرته الى زاوية من القاعة ، بعيدا عن الجمع والمنافسة. ثم طرحت عليه ، وهي ما تزال على سحرها وتماسكها ، اسئلة عن شخصه . وفهم مرة واحدة انها كانت ما تزال تمثل دورا : دور الفتاة الفنية المنتمية الى اعلى طبقة، اللطيفة ، التي تتنازل للتحدث مع خادم الاسطبل او السائق. لو كان ذلك في الفيلم، لعرفت كيف تشبط هذا العاشق العاطفي (اذا كان الدور يمثله سبنسر تراسي) أو كيف تتخلى عن كل شيء برغبة مهووسة في مشاطرة حياتها (اذا كان الدور يمثله كلارك غيبل) ولكن الامر كان سواء عند نينو . فقد فاجأ نفسه وهو يروي لها كيف ربي هو وجوني معا في نيويورك ، وكيف غنيا معا في حفلات مدرسية صغيرة او في نواد . وتظاهرت بالاهتمام بالامر بقدر من التفهم المسكر العطوف وسألته عرضا :

– اتعرف كيف حصل جوني على دوره من هذا السوقي جاك وولتز ؟

فقطب نينو حاجبيه وهز راسه نفيا . فلم تلح .

ثم حانت ساعة العرض الاول لفيلم وولتز الجديد . وقادت ديانا دن نينو

بيدها الفاترة التي تحبس يد الشاب الايطالي الى قاعة بالمنزل لا نافذة لها ولكنها ملأى بزهاء خمسين ديوانا صغيرا لشخصين ، موضوعة بشكل يضمن لكل ديوان جزيرة صغيرة من الحميمية .

ولاحظ نينو انه كان بجانب الديوان طاولة صغيرة عليها دلو من الثلج واقداح وزجاجات شراب وكذلك صينية من السكاير . واعطى سيكارة لديانا دن واشعلها ثم صب لها قدحا وصب لنفسه كذلك قدحا . ولم يتكلما . وبعد دقائق ، اطفئت الانوار .

كان نينو يتوقع شيئا فاضحا . كان يعرف الشائعات والاساطير حول الانحلال السائد في هوليوود . ولكنه لم يكن قد توقع ما حدث له : فمن دون اية مقدمة ، غطست ديانا دن عليه ... بنهم . وظل يشرب وينظر الى الفيلم ، ولكن من غير ان يتذوق شيئا او يرى شيئا . ولم يسبق له قط ان بلغ تهيجا بمثل هذه الحدة ، ولكن ذلك كان يعزى الى ان المراة التي كانت تبذل كل جهودها لارضائه في الظلام كانت في السابق موضوع احلامه مراهقا .

ومع ذلك ، فقد احس نفسه مهانا في رجولته . ولذلك ، وبعد ان انتهت ديانا دن الشهيرة جدا من تهدئة اشواقها ، قدم لها من غير ازعاج قدحا جديدا في الظلام ، واشعل لها سيكارة اخرى ، وقال لها بأهدأ صوت يملكه :

ــ هذا الفيلم ، ليس رديئا ، اليس كذلك ؟

واحسها تتشنج على الديوان الى جانبه . اتراها كانت تنتظر تهنئة ما ؟ وصب نينو لنفسه قدحا مترعا من اقرب زجاجة في متناوله . الى الشيطان هذا كله ! كانت قد عاملته كآخر المومسين . ومن غير سبب مفهوم ، احس غضبا باردا يصعد فيه على جميع النساء . ونظرا الى الفيلم مدة ربع ساعة اخرى ، ثم انحنى ليبتعد عنها ويتجنب مس هذا الجسم الذي اعجب به سابقا . وقالت اخيرا في همس خشن :

ــ لا تتباله ! لقد اعجبك ذلك . كنت تضرب كالحمار .

شرب نينو جرعة واجاب بلامبالاته المعتادة :

ــ هو دائما هكذا . يجب ان تريه حين انتعظ .

وبعد ضحكة قصيرة ، تسمرت في الصمت حتى نهاية الفيلم . ولم يلبث النور ان اضيء . ورمى نينو بنظرة حوله ، فتأكد من ان باليه ذات وجوه متنوعة الى ما لا حد له قد مثلت في الصمت والظلام . كانت لبعض هاتيك السيدات عين لامعة قاسية لنسوة اشتغل بهن باجتهاد . وقد غادرن قاعة العرض في غير استعجال . وذهبت ديانا دن على الفور لتلحق برجل اكبر سنا وتثرثر معه ، عرف نينو فيه ممثلا مشهورا . آنذاك فقط ، حين رآه بلحمه وعظمه ، ادرك انه كان لوطيا . وشرب نينو جرعات صغيرة ، وهو يفكر .

وانضم اليه جوني فونتان ، فسأله : ــ واذن ، ايها الصديق القديم ، اراك تأخرت ؟

اجاب نينو بتكشيرة مرتابة : ــ لا ادري ، هذا مختلف . اذا عدت الى بلدي ،

استطيع ان اقول ان ديانا دن قد امتلكتني .
انفجر جوني ضاحكا وقال : ــ هي قادرة على ان تفعل حيرا من ذلك في بيتها. هل دعتك ؟

هز نينو راسه نفيا وقال : ــ لقد استغرقني الفيلم اكثر مما ينبغي !
انفجر جوني ضاحكا وقال : ــ لا تتحامق . ان امراة مدعية كهذه تستطيع ان تقدم لك خدمات كثيرة . كنت سابقا تأخذ الخليط . يا للشيطان ! لا ازال اعاني الكوابيس وانا اذكر اللواتي كنت تأخذهن !
وتناول نينو قدحه بخرق انسان ثمل وقال بصوت راعد :
ــ نعم ، قبيحات ، صحيح ، ولكنهن « نساء » !
في الجانب الآخر من القاعة ، ادارت ديانا دن راسها نحوه ، فرفع نينو كأسه في اتجاهها بمثابة تحية لها . وتنهد جوني فونتان يقول :
ــ حسنا ! لست الا ايطاليا مسكينا من الصعيد !
فأجاب نينو ببسمة سكير لطيفة : ولا نية عندي في التغيُّر .
كان جوني يفهمه تماما . كان يعرف ان نينو اقل سكرا مما كان يزعم لغاية واحدة ، هي ان يقول الاشياء التي يعتقد انها غير لائقة اذا نطق بها وهو في وضعه الصاحي امام « بادرونه » الهوليوودي الجديد . واخذ نينو من رقبته وقال له بشغف :

ــ تعرف اكثر مما ينبغي ان لك عقدا ضد كل محنة لمدة عام . فبامكانك ان تقول وتفعل كل ما يخطر في راسك ، راس الفشاش الشاطر الذي لا ينفع لشيء ، وانا لا استطيع حتى ان اصرفك !
سأله نينو بخبث سكير : ــ الا تستطيع ان تطردني ؟
قال جوني : ــ لا .
ــ اذن ، رح انبعص !
فانتفض جوني انتفاضة غضب ، ثم لاحظ بسمة نينو اللامبالية . لا شك في ان السنوات الاخيرة كانت تجعله اعقل (او هو انحلاله الــــذي كان يجعله اكثر حساسية) لانه فهم نينو فهما افضل . لقد ادرك لماذا لم يحرز صديقه القديـــم النجاح ، لماذا يبدو ضاريا في افساد جميع فرص النجاح . وحزر ان نينو كـــان يظهر رد فعله ضد النتائج المتوقعة للنجاح ، وانه كان يحس نفسه ، على نحو ما ، مهانا بما كان يفعل من اجله .
امسك جوني بنينو من ذراعه ورافقه الى منزله . كان نينو يمشي بصعوبـــة كبيـــرة .
وحدثه جوني بلطف ورقة ، فقال :
ــ حسنا ، يا صديقي الصغير . ستغني فقط لحسابي . اريد ان اكسب مالا معك . ولن احاول ان افرض عليك وصايتي . ستفعل كل ما تريد . اتفقنا ؟ لن يكون لك ان تغني الا لحسابي وتكسب لي المال ، الآن وقد عجزت عن الغناء . مفهوم، يا صديقي القديم ؟

فاستقام نينو وقال وهو يتمتم بحيث كان يصعب فهم ما يقول :
ـ سأغني لحسابك . انا افضل منك غناء الآن . وقد غنيت دائما افضل منك. اليس صحيحا ؟

توقف جوني متفكرا . هكذا يصبح نينو . ومع ذلك ، فقد كان جوني يعرف انه حين كان يملك صوته ، كان نينو دونه بمئة ذراع . كان الامر كذلك في سنوات الشباب تلك حين كانا يغنيان معا . وادرك ان نينو كان ، وهو ثمل يترنح في ضوء القمر ، ينتظر منه جوابا ، فقال له بملاطفة ، بدوره :
ـ رح انبعص !
وانفجرا ضاحكين ، كما كانا يفعلان في ايام الصبا .

حين علم جوني فونتان بمحاولة الاغتيال التي كان ضحيتها دون كورليون ، استولى عليه قلق كبير تجاه عرّابه . وتساءل كذلك اذا كان تمويل فيلمه لا يزال قائما . واخذته الرغبة بالاسراع الى نيويورك ليقدم آيات احترامه الى الدون في المستشفى ، ولكنه اجيب بالا يجازف بسمعته ، وان دعاية سيئة من هذا القبيل ستزعج العجوز اكثر ما تزعجه . فكان ان اخذ ينتظر .

وبعد ذلك باسبوع ، بعث اليه توم هاجن برسول : لا يزال التمويل قائما ، ولكن لفيلم واحد .

في هذه الاثناء ترك جوني لنينو ان يذهب على هواه في هوليوود وكاليفورنيا. وتفاهم نينو جيدا مع النجمات الشابة ، وكان جوني يدعوه احيانا لقضاء امسية معه ، ولكن من غير الحاح . وبصدد محاولة اغتيال الدون ، قال نينو لجوني :
ـ اتدري انني طلبت ذات يوم من الدون عملا في تنظيمه ولكنه رفض . كنت قد سئمت من قيادة شاحنة وكنت اريد كسب المال . اتعرف ما قاله لي ؟ ان ليس للانسان الا قدر واحد ، وان قدري هو ان اكون فنانا . واذن ، فقد كنت غير جدير بالسلب والابتزاز .

وفكر جوني بهذه الحادثة . فبدا له ان عرّابه آنذاك اذكى رجل في العالم . لقد اكتشف ان نينو لن يكون ابدا شريرا ناجحا ، وانه لن يجر على نفسه الا المصاعب او انه سيصرع من اجل كلمة صغيرة . ولكن كيف كان الدون يعرف ان نينو سيكون فنانا ؟ لانه ، وحق الرب ، كان قد حدس بأنني سأساعد نينو ذات يوم . وكيف حدس بذلك ؟ لانه سيوحي اليّ بهذا ، وسأحاول ان اثبت له عرفاني للجميل . انه طبعا لم يطلب مني قط ان افعل ذلك ، بل اكتفى باعلامي انه سيكون سعيدا بان افعله . وتنهد جوني فونتان . ان عرّابه الآن جريح ، في وضع خطر ، وكان بامكانه هو ، تجاه عداء وولتز له وانعدام من يساعده ، ان يودع جائزة الاوسكار . كان الدون وحده من يملك الاتصالات الشخصية التي ترجح الكفة . وعند « العائلة » الآن هموم اخرى . وعرض جوني مساعدته ، فشكره هاجن بأدب .

استغرق جوني عميق الاستغراق في تمهيد الطريق لفيلمه . كان مؤلف الكتاب الذي كان بطاله على الشاشة قد فرغ من روايته الجديدة . وقدم الى كاليفورنيا بناء

على دعوة جوني ليناقشه بلا علم الوكلاء الادبيين والاستديوهات . وكان الكتاب الثاني يستجيب كل الاستجابة لما كان يرغبه جوني . لم يكن له ان يفني ، وكانت القصة جيدة مع كثير من النساء والاحداث الممتعة . وعلى الفور ، اكتشف جوني دوراً مفصلا على مقاس نينو . كان البطل يتكلم كنينو ، ويتصرف مثله ، بل انه يشبهه . كان ذلك غريبا . لم يكن لنينو من عمل الا ان يظهر على الشاشة وان يكون هو نفسه .

وانطلق جوني مسرعا في مهمته . ولاحظ انه كان يعرف من شؤون الانتاج اكثر مما كان يظن . ومع ذلك ، فقد تعاقد مع مدير للانتاج كان يتقن عمله ، ولكنه كان يجد المصاعب للعثور على عمل لانه كان مسجلا على لائحة اصحاب العمل السوداء . ولم يفد جوني منه ، وعقد معه اتفاقا شريفا ، قائلا له :

– ارجو ان توفر عليّ مزيدا من المال ، بهذه الطريقة .

من اجل هذا اخذته الدهشة حين ابلغه مدير انتاجه ان عليه ان يدفع لمندوب النقابة مبلغ خمسين الف دولار . وكانت الساعات الاضافية والالتزامات تثير كثيرا من المشكلات ، وستنفق الخمسون الف دولار بشكل مفيد . وتساءل جوني اذا كان مديره يخدعه ، فقال له :

– ارسل لي هذا الممثل للنقابة .

كان ممثل النقابة يدعى بيلي غوف ، فقال له جوني :

– كنت احسب ان هذه المسائل قد دبرها اصدقائي . وقد اوصوني بالا انشغل بها قط .

فسأل غوف : – من قال لك هذا ؟

– انت تعرفه مثلي . لن انطق باسمه ، ولكنه حين يقول لي شيئا ، فهو امر محقق .

قال غوف : – لقد تغيرت الظروف . ان صديقك يعاني مصاعب ، واوامره لم تعد تصل الى كاليفورنيا .

وهز جوني كتفيه وقال : – عد لتراني بعد يومين . اتفقنا ؟

ابتسم غوف وقال : – بالتاكيد ، يا جوني . ولكن الاتصال بنيويورك لن يجديك شيئا .

ومع ذلك ، فان الاتصال بنيويورك اجداه شيئا . فقد تحدث جوني مع هاجن الذي كان في مكتبه ، فقال له هاجن ، بلا مداورة ، الا يدفع ، واوضح قائلا :

– ان عرّابك سيغضب غضبا شديدا اذا دفعت سنتيما واحدا لهذا الرعاعي . سيفقد الدون ماء وجهه . وهو لا يستطيع ان يسمح بذلك ، في هذه الفترة بالذات .

سأله جوني : – هل استطيع ان اكلمه ؟

– لا . انه ما يزال في المستشفى .

– اشرح له اذن وضعي . يجب ان ينطلق فيلمي .

– سأحدث سوني في ذلك ، وسيتدبر الامور ، كما ساهتم بها كذلك . لا تدفع درهما واحدا لهذا القذر الماكر . وساتصل بك عند اللزوم .

واعاد جوني السماعة وهو شديد القلق : ان المصاعب مع النقابات يمكن ان تكلف ثروة ، وان تزيد نفقات الفيلم وان تعطل العمل . وتساءل جوني لحظة اذا كان لن يدفع هذه الخمسين الفا لفوف من غير ان ينبس بكلمة . ان ما كان يقوله الدون، وما يقوله هاجن،هما بعد كل حساب شيئان مختلفان. ولكنه عزم ان ينتظر بضعةايام.

وهذا الانتظار وفر عليه خمسين الف دولار . فبعد ليلتين ، عثر على غوف مقتولا في منزله في غلاندال . ولم يعد احد يحدث جوني بمصاعب قائمة معالنقابة. وقد انفعل جوني قليلا لحادث القتل . فتلك كانت هي المرة الاولى التي يمتد فيها باع الدون الطويل ليضرب ضربة قاتلة على مثل هذا القرب منه .

وعلى مر الاسابيع ، زاد استغراق جوني في سيناريو الفيلم وتوزيع الادوار وتنظيم تفاصيل الانتاج . ونسي جوني فونتان الهموم التي كان صوته يخلفها في نفسه ، وعجزه عن الغناء . ومع ذلك ، فحين ظهرت الترشيحات للاوسكار ووجد نفسه في عداد المتنافسين ، احس نفسه حزينا الا يختار للغناء في الحفلة التي ستذيعها قناة وطنية للتلفزيون . ولكنه هز كتفيه لامباليا وتابع عمله . ولم يكن يامل بعد في ان يفوز بجائزة الاكاديمية ، ما دام عرابه لا يستطيع بعد ان يمارس تاثيره . كان الترشيح بحد ذاته عزاء طيبا .

وكانت الاسطوانة التي سجلها هو ونينو ، حاملة الاغاني الايطالية ، تباع اكثر من جميع الاسطوانات التي سجلها مؤخرا . ولكنه كان يعرف ان ذلك ينسب الى نجاح نينو اكثر منه الى نجاحه . واقر هو ذاته انه لن يكون بعد قادرا ابدا على الغناء كمحترف .

وكان يذهب مرة في الاسبوع لتناول العشاء مع جيني وابنتيه . لم يكن يفوت هذا الواجب ، بالغا ما بلغت مشاغله . وفي هذه الاثناء ، كانت زوجته الثانية قد دبرت طلاقا مكسيكيا ، فألفى نفسه من جديد أعزب . وبشكل يثير الفضول وجد نفسه انه لم يعد يصطاد النجمات الصغيرات اللواتي كان بالإمكان ان يكن طرائد سهلة . كان اوفر كبرياء من ان يستغل ميزاته كرب عمل . واما الكواكب الشابة والممثلات التي كن في عز مجدهن ، فلم يكن يعرضن انفسهن عليه . وكان هذا يشق عليه ، ولكن ليس بشكل عنيف ، لان العمل كان يكفي لاستغراقه . وكان يقضي معظم الليالي وحده في منزله ، فيستمع الى اسطوانات قديمة وهو يدمدم ببعض الانغام ، والقدح في يده .

لقد كان مغنيا ممتازا ، ممتازا جدا . ولم يكن قد ادرك مزاياه الى هذا الحد . فاذا وضعنا جانبا صوته الفريد ـ ولكن اي انسان يمكن ان يوهبه بلا ادنى استحقاق ـ فانه كان قد ربى موهبة حقيقية من غير ان يشعر بذلك : فهو لم يعرف قط الى اي حد كان يحب ممارسة فنه . ثم انه كان قد افسد صوته بالكحول والتبغ والنساء ، حين احس نفسه في اوج مهنته .

وكان نينو يقصده احيانا ليشرب كاسا ويصغي اليه. وكان جوني يقول له باحتقار:

ـ اسمع ايها الايطالي القذر ! انك لم تغن في حياتك مثل هذا الغناء .

فكان نينو يرد عليه ببسمته الفاتنة ويهز رأسه مجيبا :

– لا ، ولن ابلغ ذلك ابدا .

واخيرا ، قبل اسبوع من بدء الفيلم الجديد ، حلت ليلة منح جوائز الاوسكار. وقد دعا جوني اليها نينو ، فرفض ، فقال له جوني :

– يا عزيزي الصغير ، لم اطلب منك قط خدمة . اليس هـــذا صحيحا ؟ فكن هذا المساء لائقا ، وتعال معي . ستكون الرجل الوحيد الذي يشاطرني خيبتي.

وبدا نينو مندهشا لحظة . ثم اجاب : – بكل تأكيد ، يا عزيزي . سأذهبمعك.

وصمت ثانية ثم استطرد : – اذا لم تحصل عليها ، اوسكارك هذه ، فلا تهتم. اسكر سكرة عظيمة وسأسهر عليك . اسمع ! لكي تكون واثقا من انك ستتعلق بعمود متين ، فانني لن اشرب قطرة واحدة طوال السهرة !

فصاح جوني : – يا عزيزي ! انك رفيق حقيقي !

واتت ليلة الاوسكار ووفى نينو بوعده ، فأقبل يصطحب جوني من غير انيكون قد شرب قطرة وقصدا المسرح معا . وكان نينو يتساءل لماذا لم يدع جوني احدى تلك الدجاجات او احدى زوجتيه السابقتين الى عشاء الاكاديمية . وبالاخصجيني. اكان يعتقد ان جيني لن تشجعه ؟ كان نينو يود ان يشرب قدحا . قدحا واحدا . فانها كانت ليلة تنذر بأنها طويلة وكئيبة .

والواقع ان نينو وجد كل هذا الصخب مفثيا الى ابعد حد ، حتى اللحظـــة التي اعلن فيها اسم افضل ممثل من الرجال . وحين سمع اسم « جوني فونتان » قفز فرحا وصفق حتى كاد يغمى عليه . ومد له جوني يده ، فصافحها نينو بكـل عاطفة قلبه . كان يحدس بأن رفيقه كان بحاجة الى تماس بشري مع واحد يثق به. وحزن اذ فكر ان جوني فونتان العظيم كان يستحـــق رفيقا المع منـــه في تلك اللحظة من المجد .

وتبع ذلك كابوس حقيقي . كان فيلم جاك وولتز قد فاز بالجوائز الرئيسية. وفي حفلة الاستديو ، تدفق الصحفيون مرفقا لمرفق بصحبة نصابين ومحترفيـــن ينتمون الى الجنسين او الى سواهما . وبقي نينو على وعده ، فلم يشرب قطرة ولم يغب عن صديقه الا حين كانت فتيات مهتاجات يجررن جوني فونتان الى زوايـــا صالحة للاحاديث الصغيرة . وكان جوني يزداد سكرا .

وفي تلك الاثناء ، كانت الممثلة التي فازت بالاوسكار لافضـــل دور نسائي ، تتعرض للمصير نفسه ، ولكنها كانت تجد في ذلك متعة اكبر ومن غير ان تكفلحظة عن السيطرة على الموقف . ووحده نينو كان من طردها من جميع الذين اصطادتهم.

وفي النهاية ، خطرت لاحدهم فكرة عبقرية : تضاجع الفائزين تحت انظـــار جميع الحضور . وعريت الممثلة ، وتولت نساء اخريات تعريـــة جوني فونتان . واذ ذاك ، اسرع نينو ، وهو الشخص الوحيد الذي لم يكن ثملا ، فقبض على جوني الذي كان قد اصبح نصف عار ، فحمله من فوق كتفه ، وشق لنفسه طريقا نحـو الباب ، ثم نحو سيارتهما . وفكر نينو ، وهو يقود جوني الى منزله ، بانه غير راغب في النجاح ، ان كان هذا هو النجاح .

الكتاب الثالث

١٤

كان الدون ، وهو بعد في الثانية عشرة ، رجلا حقيقيا صغيرا . كان يدعى آنذاك فيتو اندوليني ، وكان يعيش في قرية من قري صقلية ذات مظهر موريتاني غريب . كان شديد السمرة ، رشيقا . وفي تلك الفترة ، اغتيل ابوه . وبعد ذلك ، اخذ الذين قتلوه يتعقبون فيتو الصغير ليخضعوه للمصير نفسه ، فبعثت به أمه الى اميركا ، لدى بعض الاصدقاء . وحين وصل الى هذه البلاد الجديدة تبنى اسم كورليون ليحتفظ بصلة مع مسقط راسه . كان ذلك مظهرا نادرا من مظاهر عاطفيته .

كانت المافيا في مطلع قرننا تمارس في صقلية حكومة موازية اقوى جدا من حكومة روما . وكان والد فيتو ماندوليني قد وقع في خصام مع ساكن آخر من سكان القرية لجأ الى المافيا . ورفض السيد اندوليني الخضوع ، وعمد في اثناء نقاش علني تحول الى نزاع ، الى قتل الرئيس المحلي لهذا التنظيم السري . وبعد أسبوع ، وجد جسمه ممزقا بعدة شحنات من « اللوبارا » . وبعد شهر من الدفن ، اقبل بضعة قتلة من المافيا يستعلمون عن الصبي ، وقرروا انه بسبب سنه لن يلبث طويلا حتى يرغب في الانتقام لابيه ، ومن اجل هذا عزموا على تصفيته هو ايضا . وقد اخفاه بعض الاهل ثم سفروه الى اميركا حيث نزل عند اسرة ابانداندو التي اصبح ابنها جانسو فيما بعد مستشارا للدون .

وعمل الفتى فيتو في تجارة البقالة التي كان آل ابانداندو يقيمونها في الجادة التاسعة ، في حي نيويورك الذي كان يسمى آنذاك « مطبخ الجحيم » . وحين بلغ فيتو الثامنة عشرة تزوج فتاة وصلت في تلك الفترة من صقلية . لم تكن تتجاوز السادسة عشرة ، ولكنها كانت تطبخ جيدا ، وكانت قادرة على ادارة منزلها . وقد اقام الزوجان الشابان في شقة بمسكن رخيص في الجادة العاشرة ، بالقرب من الشارع الخامس والثلاثين ، على مقربة من مخزن البقالة الذي كان يعمل فيه فيتو . وبعد عامين بورك زواجهما بمولد ابن اول ، سانتينو ، سماه الجميع سوني (ولد افرط ما كان يحب اباه .

كان ثمة شخص يدعى فانوكسي يعيش في الحي نفسه . كان فتى ايطاليا متينا ذا هيئة ضارية يرتدي ملابس فاتحة ولبادة زبدية اللون . وكان يعتبر عضوا في « اليد السوداء » المتفرعة عن المافيا ، التي كانت تبتز المال من العائلات والتجار وهي تهددهم بأعمال العنف الجسدية . وبالنظر الى ان اشخاصا عنيفين كانوا يعيشون في تلك النواحي ، فان تهديدات فانوكسي لم تكن تخيف الا الازواج الشيوخ

الذين لم يكن لهم اولاد ذكور يدافعون عنهم . وكان بعض اصحاب الحوانيت يدفعون له قليلا من المال تبسيطا للامور . وكان فانوكسي يفرض بطريقة اسهل اولئك الذين كانوا يتعاطون التهريب الممنوع : باعة تذاكر اليانصيب الايطالي والمشرفون على مقامر صغيرة في البيوت . وكانت بقالة ابانداندو تدفع له جزية صغيرة . ولم يكن الفتى جانسو يجد هذا موافقا لهواه . وقد كان يفضل ان يرد فانوكسي الى طريق الصواب لولا ان اباه كان يمنعه من ذلك. وكان فيتو كورليون يراقب هذا كله من غير ان يحس نفسه معنيا .

وذات يوم ، وثب ثلاثة شبان اقوياء على فانوكسي فجزوا رقبته من الاذن الى الاذن ، من غير نية في قتله ، ولكنهم ضغطوا بما فيه الكفاية لينزف بغزارة وليرهبوه . ورأى فيتو فانوكسي يهرب دامي الحنجرة . ولم ينس قط مشية الرجل الضخم منحنيا الى امام ، ممسكا بلبادته الزبدية اللون تحت عنقه ليتقي الدم في اثناء فراره . العله كان بذلك يريد ان يوفر بذلته الجميلة الفاتحة ؟ ام انه كان يكره ان يخلف على قدميه آثارا قرمزية ؟

واتفق ان قضية فانوكسي تطورت الى صالحه . ذلك ان مهاجميه الثلاثة لم يكونوا قتلة ، وانما شبانا معتزمين ان يخرسوه . اما فانوكسي نفسه ، فكان مجرما حقيقيا . فبعد بضعة اسابيع ، كان من نصيب الشاب الذي استعمل السكين ان صرع برصاص مسدس . ودفعت عائلتا الشابين الآخرين تعويضا لفانوكسي حتى لا يواصل انتقامه . ومن ذلك التاريخ ، اصبح فانوكسي اشد جشعا ، وبدلا من ان يكتفي بجزية خفيفة ، تشارك مع مدراء القمار السري في النواحي . اما فيتو كورليون ، فلم يكن ذلك يعنيه . وقد نسي هذه القصة على الفور .

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى ، حين اصبح زيت الزيتون المستورد نادرا ، تدبر فانوكسي امره ليقدم لبقالة اباندادو ليس فقط زيتا ، بل كذلك سلامي ولحم خنزير واجبانا ايطالية . وبفضل ذلك ، تشارك مع المعلم وعين احد احفاده في المتجر . وهكذا آل فيتو كورليون الى البطالة .

في هذه الاثناء ، ولد ابن آخر هو فردريكو ، فاصبح لفيتو كورليون اربعة افواه للاطعام . وحتى ذلك التاريخ ، كان قد عاش بهدوء شابا متحفظا لا يثق باحد. وكان جانسو اباندادو ، ابن البقال ، صديقه الحميم . وفوجىء كلاهما بأن فيتو اخذ على جانسو الاذى الذي كان ابوه قد الحقه به . فاحمر جانسو خجلا ووعد فيتو بالا يكون له ان يهتم بشأن طعامه : فانه ، هو جانسو ، سيختلس من مخزن البقالة ما كان صديقه بحاجة اليه . ولكن فيتو رفض بقسوة ، لان صورة ابن يسرق اباه كانت تبدو له صورة كريهة .

ومع ذلك ، فقد اخذ فيتو يغذي حقدا مثلوجا على فانوكسي المخيف . ولم يظهر من ذلك شيئا ، بل انتظر ساعته . وقد عمل بضعة اشهر في السكك الحديدية . وفي نهاية الحرب ، تباطأت الاعمال ، فكان فيتو لا يقبض كل شهر الا اجرة بضعة ايام . وبالاضافة الى ذلك ، كان معظم رؤساء العمال ايرلنديين او اميركيين يسيئون معاملة العمال الايطاليين ويستعملون معهم لغة فظة . وكان

فيتو يتلقى هذه الاهانات بهدوء حجري ، كما لو انه لم يكن يفهمها . ومع ذلك ، فقد كان يحسن الانكليزية بالرغم من انه يتكلمها بلكنة بلاده .

ذات مساء ، بينما كان فيتو يتناول العشاء مع اهله في المطبخ ، سمع طرقات على النافذة التي كانت تطل على ساحة صغيرة هي بالاحرى بئر تهوية . وازاح فيتو الستار فراى بدهشة شابا من الجيران ، هو بيتر كليمنزا ، منحنيا على النافذة المقابلة ، يمد له رزمة مغلفة بقماش ابيض .

قال كليمنزا : ــ ايه ، يا صديق ! احفظ لي هذا عندك بعض الوقت . بسرعة.

فأخذ فيتو الرزمة آليا . كان كليمنزا يبدو قلقا وعلى عجلة من امره . كان واضحا انه في ورطة ، فأنجده فيتو غريزيا . وحين فتح الرزمة في مطبخه ، وجد فيها خمسة مسدسات كان شحمها يلطخ القماش الابيض . واخفى الرزمة في خزانة غرفته ثم انتظر . وعلم ان رجال الشرطة اوقفوا كليمنزا . وقد كانوا يطرقون باب بيته ، دون شك ، حين تخلص من المسدسات بواسطة نافذة الساحة .

لم يتحدث فيتو بكلمة في الموضوع امام احد ، وامتنعت زوجته المذعورة عن الثرثرة في الامر ، خشية توقيف زوجها . وبعد يومين ، ظهر بيتر كليمنزا مرة اخرى في الحي ، وسأل فيتو بهيئة شبه شاردة :

ــ هل عندك رزمتي ؟

هز فيتو راسه ايجابا . كان يتكلم قليلا . وأتاه كليمنزا الى منزله ، فقدم له فيتو قدح نبيذ وذهب ليحمل له الرزمة من خزانة غرفته . وشرب كليمنزا . كان فتى ضخما ذا مظهر طيب . وتأمل فيتو بتنبه ثم ساله :

ــ هل نظرت ما في الرزمة ؟

رفع فيتو راسه نفيا وقال : ــ انني لا أهتم بما لا يعنيني .

وقضيا بقية السهرة يشربان ، واعجب احدهما بالآخر . كان كليمنزا يسرد بتلقائية وفيتو يستمع بتلقائية مثلها . وارتبطا ، ولكن ليس بوثوق .

بعد ذلك ببضعة ايام ، سأل كليمنزا زوجة فيتو كورليون اذا كانت راغبة في سجادة جميلة لصالونها ورجا فيتو ان يصحبه لمساعدته في حملها .

واخذه كليمنزا الى مبنى كان مدخله مزينا بعمودين من مرمر على راس سلم ذي درجات من مرمر كذلك . كان يملك مفتاح شقة فخمة ، فدخلها في غير كلفة. ثم قال لصديقه :

ــ اذهب الى الجانب الآخر من الغرفة ، وساعدني على لف هذه .

كانت سجادة جميلة من صوف احمر سميك . ودهش فيتو بسخاء كليمنزا. ولفاها معا ، ثم حملها كليمنزا من طرف وفيتو من الآخر واتجها بها الى باب الشقة .

وفي تلك اللحظة قرع جرس الباب ، فاسرع كليمنزا يترك السجادة ويتجه نحو النافذة . وازاح الستائر قليلا ، وما رآه جعله يتناول مسدسا مخفيا تحت سترته . واذ ذاك فقط ادرك فيتو كورليون البريء انه كان يسرق سجادة من بيت

لم يكن له حق في دخوله .

وقرع الجرس ثانية ، فاقترب فيتو من كليمنزا ليرى ، هو ايضا ، ما كان بحدث . كان شرطي بثوبه الرسمي واقفا امام الباب . وقد راياه مرة اخرى يضغط على زر الجرس ، ثم يهز كتفيه فيهبط درجات السلم ويمضي .

ودمدم كليمنزا فرحا ثم قال : « هيا بنا ! » ورفع طرف من السجادة ، فاخذ فيتو الطرف الآخر . وما كاد الشرطي يختفي في زاوية الشارع حتى عبرا الباب الخارجي الضخم وانتقلا الى الرصيف تفصل السجادة بينهما . وبعد نصف ساعة، كانا يقطعان هذه السجادة ليطبقاها على ابعاد غرفة الاستقبال . وُبقي لهما منها قطعة تكفي غرفة النوم . كان كليمنزا بسّاطا بارعا ، وكان يملك في جيبه معدات مهنته . وبالرغم من انه لم يكن سمينا جدا ، فقد كان ممتلئا وكان يرتدي ملابس فضفاضة كان يقول انه يفضلها على هذا النحو لانها كانت تريحه .

ومر الوقت ولم تستقم الامور . لم تكن اسرة كورليون تستطيع ان تأكل سجادتها الجميلة . لا عمل هناك . وكانت زوجته واولاده على وشك معاناة الجوع. وبدافع من العوز ، قبل فيتو الاغذية التي كان جانسو يقدمها له ، فيما هو يلتمس تدبير امره . واخيرا ، عرض عليه كليمنزا وتيسيو – وهو فتى آخر متين من فتيان الحي – اقتراحا محددا . كانت لهما عنده فكرة طيبة لانه كان قد تصرف معهما تصرفا طيبا ، وكانا يعرفان انه في البؤس . وفي تلك الاثناء ، كانا قد تخصصا بالقرصنة على شاحنات التسليم ، وكانا يهاجمان خاصة العربات التي كانت تحمّل امام مخزن للملابس الجاهزة في الشارع الواحد والثلاثين . وكانا يقولان له : ليس هناك اي خطر . ذلك ان السواقين ، وهم اشخاص عاقلون ، كانوا يقفزون الى الرصيف برشاقة ملائكية بمجرد ان يروا مسدسا . وكان القراصنة يذهبون فيفرغون الشاحنة في مستودع صديق ، وكانوا يبيعون قسما من البضاعة الى تاجر ايطالي بالجملة ، ويتجولون بالباقي في الاحياء الايطالية : جادة ارثر ، وبرونكس ، وملبوري ستريت وضواحي شلسيا في مانهاتن . وكانت العائلات الايطالية الفقيرة تفيد من الفرصة لان فتياتها ما كانت تستطيع ان تبتاع اثوابا جميلة باسعار المحلات . كان كليمنزا وتيسيو بحاجة الى فيتو الذي كان سائقا لشاحنة بقالة اباندادو . وفي عام ١٩١٩ كان السواقون الطيبون يسيطرون على سوق العمل .

وبدافع من العوز كذلك ، قبل فيتو كورليون عرض جاريه . وقد جعله يقرر ذلك امله بان يحصل على الف دولار على الاقل من هذه العملية ، ولكن طرق هذين الرفيقين الشابين كانت تبدو له فاقدة النظام ، معرضة للمصادفات منذ البدء ، ذات جراة لا معنى لها بشأن اعادة البيع . ذلك كله لم يكن يجد عنده صدى الرضى . على ان الشابين مع ذلك كانا يقعان من نفسه موقع القبول . كان بيتر كليمنزا السمين يوحي بالثقة بقدر ما يوحي بها تيسيو الهزيل الصموت .

تمت سرقة الشاحنة بلا ادنى مشكلة . وعجب فيتو كورليون الا يحس اي خوف حين راى رفيقيه يشهران مسدسيهما ، فاخذ المقود بلا ارتباك . كان هدوء كليمنزا وتيسيو يؤثران فيه . لم تثر اعصابهما ، بل تمازحا مع السائق وهنآه

بسهولة المراس ، ووعدا بارسال عدة اثواب الى زوجته . ورأى فيتو انه سيكون بليدا اكثر مما ينبغي اذا حمل شخصيا اثوابا مسروقة فتنازل عن حصته في الغنيمة الى مخبىء السرقة . ولم تعد عليه العملية باكثر من سبعمئة دولار . ولكنه كان مبلغا محترما في عام ١٩١٩

في اليوم التالي ، حاذى فانوكسي فيتو كورليون في الشارع ، مرتديا ثوبه الفاتح ولبادته الزبدية اللون . ولم يكن هذا الوحش الكبير قد عمل شيئا لاخفاء اثر الجرح الهلالي الذي كان يطبع رقبته من الاذن الى الاذن . كان له حاجبان كثان وقسمات سميكة كانت تضفي عليه ، مع ذلك ، هيئة لطيفة حين كان يبتسم. كان يتكلم بلهجة صقلية فاقعة . وقد قال لفتى :

ــ قل لي ، يا صديقي الصغير . يروون لي انكم اغنياء ، انت وصديقيك . ولكن الا تظن انكم عاملتموني ببعض الاستخفاف ؟ ان هذا الحي ، بعد كل حساب ، هو حيي ، ويجب أن تتركوا لي ان ابلل منقاري .

واذن ، كان فانوكسي يطالب بنصيبه ! ولم يجب فيتو كورليون ، على عادته. لقد فهم تماما ولكنه انتظر طلبا دقيقا . وابتسم فانوكسي مفترا عن اسنان ذهبية، فوسعت البسمة الجرح تحت وجهه . ومسح جبينه بمنديله ، وفك ازرار سترته، كما لو كان يتمنى الابتراد ، ولكن في الواقع ليظهر عقب المسدس المنزلق تحت الزنار الذي كان يشد بنطاله . ثم تنهد وقال :

ــ اعطني خمسمئة دولار وسأغفر لك هذه الاهانة . يجب تعليم الشباب المجاملة الواجبة تجاه رجل بمثل اهميتي .

ابتسم له فيتو كورليون . وبالرغم من انه شاب وبريء بعد ، فقد كانت بسمته ثلجية جدا حتى ان فانوكسي تردد لحظة قبل ان يتابع :

ــ والا فان رجال الشرطة سيزورونك . وستفرق زوجتك واولادك في العار والبؤس . ولو كانت معلوماتي غير صحيحة عن ارباحك ، لمددت منقاري اقل . ولكن ليس اقل من ثلاثمئة دولار . لا تحاول ان تخدعني .

وقرر فيتو كورليون اخيرا ان يتكلم . ولم يتكشف صوته كفتى عاقل عن ادنى غضب ، بل تحدث حديثا يليق بشاب يتوجه بالحديث الى رجل ناضج السن معتبر كفانوكسي .

ــ لقد استودعت صديقيّ المال . فيجب ان احدثهما في الامر .

استرد فانوكسي طمأنينته : ــ قل لهما انني انتظر منهما مبلغا مماثلا . لا تخف ان تحدثهما . فانا وكليمنزا يعرف احدنا الآخر جيدا ، وهو يفهم هذا النوع من الاشياء . اتبع نصائحه . هو اكثر خبرة منك لمثل هذا اللون من الاعمال .

رفع فيتو كورليون كتفيه وبذل جهده ليبدو منفعلا متأثرا ، وقال :

ــ بالتأكيد . ولكنك تدرك ان هذا كله ، بالنسبة لي ، جديد . شكرا لك انك تحدثني « كبادرينو » .

قال فانوكسي مسرورا : ــ انك فتى طيب (وشدّ يد فيتو بين راحتيه المشعرتين) ان لك عقلية جيدة . ويسر المرء ان يرى شبانا مثلك . ولكن في المرة

القادمة ، فكر بي اولا . اليس كذلك ؟ ربما كان بامكاني ان اعطيك نصائح طيبة .
فيما بعد ، فهم فيتو كورليون لماذا عمد الى خطة ذكية كهذه التي استعملها مع فانوكسي : لقد سبق للمافيا ان قتلت اباه لان راسه كان اسخن مما ينبغي . ولكنه على التو لم يشعر الا بغضب بارد تجاه هذا الرجل الضخم الذي كان يريد ان يحرمه من المال الذي ربحه معرضا للخطر حياته وحريته . لم يكن قط خائفا ، ومنذ اللحظة الاولى اعتبر فانوكسي مسكينا ابله . ووفقا لما كان يعرفه عن كليمنزا ، كان هـذا الصقلي الصلب يفضل ان يقتل على ان يتنازل عن درهم من غنيمته . الم يسبق له ان رآه مستعدا لقتل شرطي لا لشيء الا ليسرق سجادة ؟ واما تيسيو الهزيل ، فقد كان يبدو خطرا كالافعى .

وفي المساء نفسه ، في شقة كليمنزا ، من الجهة الاخرى من ساحة التهوية ، تلقى كورليون درسا آخر في المادة التي كان يبدأ في دراستها . لقد جدف كليمنزا، وقطب تيسيو حاجبيه ، ولكن سرعان ما تناقشا بعد ذلك ليعرفا اذا كان فانوكسي سيكتفي بمئتي دولار من كل حصة . كان تيسيو يعتقد ذلك .
اما كليمنزا فقد صرح بحسم : ــ لا . ان هذا المشجوج القذر قد علم ولا بد باي ثمن اشترى منا مخبيء المسروقات البضاعة . فلن يقبل اقل من ثلاثمئة دولار من كل منا . ولا بد من الدفع .
ودهش فيتو ، ولكنه اجتهد بان يظهر ساذجا حين سال :
ــ ولماذا ندفع له ؟ ما عساه يستطيع ان يفعل لنا نحن الثلاثة ؟ نحن اقـوى منه ، وعندنا مسدسات . لماذا يجب علينا ان نعطيه المال الذي كسبناه ؟
شرح كليمنزا بصبر : ــ ان لفانوكسي اصدقاء ، وحوشا حقيقيين . وهـــو متواطيء مع الشرطة . وقد طلب منك ان تحدثه اولا ليعرف نواياك فينقلها الـــى رجال الشرطة ويضمن بذلك عرفانهم . هكذا يتصرف . وبالاضافة الى ذلك ، فان مارانزيلا شخصيا تنازل له عن هذا الحي .
وكان مارانزيلا الشرير الذي كانت تذكره الصحف غالبا في تلك الفترة يعتبر رئيس عصابة تمارس الابتزاز والسرقة المسلحة والتهديد لسلب المقامر .

قدم كليمنزا نبيذا كان قد صنعه بنفسه . وبعد ان وضعت زوجته على الطاولة صحفة من السلامي والزيتون ورغيفا من الخبز الايطالي ، هبطت وهي تحمل كرسيا لتجلس عند مدخل المبنى وتثرثر مع الجارات . كانت هي ايضا ايطالية ، ولم تصل الى الولايات المتحدة الا منذ بضع سنوات ، ولم تكن تفهم الانكليزية بعد .

بقي فيتو كورليون يشرب مع صديقيه . وفكر . لم يكن حتى ذلك اليوم قد طالب ذكاءه بمثل هذا ، وادهشه وضوح حججه . وراجع كل ما كان يعرفه بصدد فانوكسي . تمثل هذا الفظ وهو محزوز الرقبة ، يركض على الرصيف ، مائلا الى امام ، ولبادته تحت ذقنه ليتلقى بها الدم . وتذكر مقتل الشاب الـذي كـان قـد استعمل السكين ، والعفو الذي منحه فانوكسي للشابين الآخرين مقابل تعويض .
وفجاة ، ايقن فيتو كورليون بان فانوكسي لم تكن له علاقات هامة ، ولا يمكن ان تكون له مثلها . لا . ليس هو مخبرا له صلة بالشرطة . وليس رجلا يمتنع عن الثار مقابل

فدية . لا . بل ان فانوكسي انما قتل احد مهاجميه الثلاثة بضربة حظ ، ولكنه كان قد ادرك انه لن يحصل على جلد الآخرين لان قتل رفيقهما قد جعلهما على حذر . فكان ان اكتفى بتعويض مادي . كان هذا الرجل يجبي بقوته الوحشية وحدها ضريبة من التجار ومن اولئك الذين كانوا يشرفون على ابأس المقامر في البيوت . ولكن فيتو كان يعرف ان احدى هذه المقامر لم تدفع قط سنتيما واحدا لفانوكسي وانه لم يحدث فيها مع ذلك شيء .

واذن ، فقد كان فانوكسي متوحدا . ربما كان يلجأ احيانا الى القتلة المأجورين فيدفع لهم على الراس . وهذا الاستنتاج افضى بفيتو كورليون الى عتبة قرار : كيف سيوجه حياته ؟

منذ تلك اللحظة وهو يردد غالبا ان كل انسان ليس له الا قدر واحد . كان بامكانه في تلك المناسبة ان يدفع لفانوكسي ، وان يعود فيعمل في مخزن للبقالة، وربما يشتري من عرق جبينه بعد حين دكانه الخاص . ولكن القدر كان قد قضى بان يصبح « دونا » . وهذا القدر نفسه كان يستخدم فانوكسي ليضعه على طريقه .

حين افرغ الرفاق الثلاثة زجاجة النبيذ ، قال فيتو بلهجة حذرة لكليمنزا وتيسيو :

ـ اذا شئتما ، ليعطني كل منكما مئتي دولار وانا اتولى الدفع لفانوكسي . اؤكد لكما انه سيكتفي بذلك ، ان كنت انا من يدفع له . اتركا لي اذن ان ابت بهذه المسألة وستكونان مسرورين .

التمع شعاع من الشك في عيني كليمنزا ، فقال له فيتو ببرودة :

ـ انا لا اكذب قط على الذين اتخذتهم اصدقاء . تحدث غدا الى فانوكسي. فسيطالبك بالمال . لا تدفع له ، ولكن لا تختصم معه . قل له انك لا تملك مالا ، وانك ستعطيني اياه لادفعه له . دعه يفهم انك مستعد لدفع ما يطلب . لا تساوم. فانا الذي سأناقشه . اذا كان خطرا الى الحد الذي تشير اليه ، فلا جدوى من استشارته .

وتبنى الآخران خطة فيتو . وفي اليوم التالي تحدث كليمنزا مع فانوكسي ليتأكد من ان كورليون لم يكن قد اخترع القصة . ثم ذهب يحمل المئتي دولار الى فيتو . وقد سأله وهو يحدق في عينيه :

ـ كيف تراك ستعمل لحمله على قبول مئتي دولار ؟ لقد قال لي ثلاثمئة دولار لا تنقص سنتا واحدا .

اجاب فيتو بيقين عاقل : ـ لا تهتم بالامر . اكتف بتذكر الخدمة التي أؤديها لك في هذا الموضوع .

واتى تيسيو بعد ذلك يحمل المبلغ نفسه . كان اشد تحفظا واكثر دهاء من كليمنزا ، ولكنه كان اقل حيوية ونشاطا . كان يحس شيئا ما مشبوها في مشروع فيتو ويقلق لذلك .

ـ كن حذرا مع هذا القذر المنتمي الى « اليد السوداء » . انه اشد مكرا من

خوري صغير . اتريد ان اكون حاضرا حين تدفع له ، بصفة شاهد ؟

هز فيتو كورليون راسه نفيا ولم يجد حاجة حتى الى الاجابة . واكتفى بالقول :

— اخبر فانوكسي انني ساعطيه المال هنا ، في منزلي ، الساعة التاسعة مساء اليوم. ساقدم له قدح نبيذ ، وسأقنعه بقبول تخفيض .

قال تيسيو وهو يهز راسه سلبا : — لا اعتقد انك ستنجح . ليس فانوكسي رجلا يقبل التنازلات .

— بل سأقنعه .

هذه العبارة اصبحت اسطورية فيما بعد . فقد اتخذت انذارا قبل التصفيات المميتة للحسابات . وحين اصبح فيتو « دونا » وعرض على محدثيه ان « يتعقلوا » فهموا انه كان يعرض عليهم ان يبتوا الامر بلا اغتيال ، وحتى بلا عنف .

ذلك المساء قال فيتو كورليون لزوجته ان تصحب ابنيهما — سوني وفريدو — الى الشارع بعد العشاء والا تدعهما يعودان الى الشقة تحت اية حجة قبل ان يأذن لهما . وكان عليها ، كالعادة ، ان تجلس امام الباب وتثرثر مع الجارات . فقد كان لا بد له من حسم قضية سرية مع فانوكسي ، ولم يكن يريد ان يزعجه احد . وقد اغتاظ لتعبير الذعر الذي بدا على وجه زوجته ، ولكنه قال لها بهدوء :

— أتظنين انك تزوجت شخصا ابله ؟

لم تجب لانها كانت خائفة . لم يكن فانوكسي ، بل زوجها ، هو من تخشاه . كانت تراه يتغير من ساعة الى ساعة تحت ناظريها وتحس قوة مرعبة تشع منه . وحتى ذلك التاريخ ، لم يكن فيتو الا رجلا هادئا ، رقيقا دائما ، قليل الكلام ، عاقلا ابدأ ، وهو شيء نادر في الشبان الصقليين . كانت تراه يتجرد من التفاهة التي كانت تجعل منه انسانا غير ذي قيمة . وكانت هذه الظاهرة قد بدات في اللحظة التي اعتزم فيها ان يتبع قدره . وكان متأخرا في ذلك : في الخامسة والعشرين . ولكنه سيبدأ بضربة صاعقة .

كان فيتو كورليون عازما على قتل فانوكسي ، وذلك ما كان يزيد ثروته سبعمئة دولار : الثلاثمئة التي كان عليه ان يدفعها لارهابي « اليد السوداء » والاربعمئة التي كان صديقاه تيسيو وكليمنزا قد سلماه اياها . فاذا لم يتخلص من فانوكسي ، فيتوجب عليه ان يدفع هذه الدولارات السبعمئة نقدا . والحال ان حياة هذا الرجل لم تكن تساوي ، في نظر فيتو ، مبلغا كبيرا كهذا . انه ما كان بالتأكيد ينفق سبعمئة دولار لانقاذ حياة فانوكسي . كما انه ما كان له ان يقرضه اياها ليدفع اجرة طبيب جراح عند الاقتضاء . لم يكونا قريبين ، ولم يكن يحبه ولم يكن مدينا له . فلماذا اذن يجب عليه ان يدفع سبعمئة دولار لفانوكسي ؟

بالتدريج ، كان يفكر هكذا : ما دام فانوكسي ينوي ان يسلبه هذه الدولارات السبعمئة بالقوة ، فلماذا يمتنع عن قتل هذا الاحمق ؟ لا شك في أن الارض ستبقى تدور بعد موت هذا الشخص التافه . ولم يكن فيتو يهمل المظهر العملي من المسالة. كان من الممكن ان يكون لفانوكسي اصدقاء اقوياء سيسعون الى الانتقام له . كان

فانوكسي انسانا خطرا ليس من اليسير قتله . ثم انه كان ثمة رجال الشرطة والكرسي الكهربائي . ولكن فيتو كورليون كان منذ موت ابيه ، وهو في الثانية عشرة ، يعيش في ظل حكم بالموت عليه . كان قد هرب من قتلته ، فعبر المحيط وغيّر اسمه ليعيش في بلد اجنبي قبل بداية مراهقته . وكانت سنوات من المراقبة الصامتة قد اقنعته بانه كان اذكى واشجع من الآخرين ، بالرغم من انه لم تتح له قط فرصة اظهار ذكائه وشجاعته .

ومع ذلك ، فقد تردد قبل ان يخطو الخطوة الاولى على درب قدره . وضع رزمة من سبعمئة دولار في جيب بنطاله الايسر . ولكنه وضع كذلك في الجيب الايمن المسدس الذي كان كليمنزا قد سلمه اياه مساء سرقة شاحنة الملابس الجاهزة .

وحضر فانوكسي في الساعة التاسعة تماما . ووضع فيتو كورليون ابريق النبيذ البيتي الذي كان كليمنزا قد اهداه اياه . ووضع فانوكسي لبادة زبدية اللون على الطاولة ، الى جانب الابريق . وفك ربطة عنقه التي كانت الوانها الزاهية تموه لطخات من عصير البندورة . كان ذلك في ليلة صيف حارة . وكان ضوء المصباح لا يكاد ينير الغرفة . ولم يكن في الشقة اي صوت . وبهدوء مثلوج ، قدم فيتو كورليون رزمة السبعمئة دولار الى فانوكسي ليثبت له صدق نيته . وعدّ الفظ الكبير الاوراق بتنبه ، وسحب من جيبه محفظة جلدية فدس فيها المال . وشرب جرعة او جرعتين من النبيذ قائلا :

ــ ما تزال مدينا لي بمئتي دولار .

ولم تكن عيناه تحت حاجبيه الكثين تعبران عن اي شيء واضح . واجابه فيتو بلهجة متعقلة :

ــ انني الآن في البطالة .سأدفع لك الباقي بعد بضعة اسابيع .

كان ذلك اقتراحا مقبولا . ان فانوكسي الذي اطمأن الى ما في جيبه، سينتظر، بل لعله سيميل الى الاقتناع بألا يطلب اكثر من ذلك او ان ينتظر فترة اطول . وقهقه الرجل الضخم ، والكأس في يده ، ثم قال :

ــ انت خبيث . كيف حدث اني لم الاحظك بعد ؟ انك مفرط في التكتم . وهذا ما يضرك . ان بامكاني ان ادلك على طرق تعود عليك باموال كثيرة .

وعبر فيتو عن اهتمامه بأن هز رأسه بأدب .وملأ من جديد كأس محدثه . وبدا فانوكسي على اهبة الاستطراد ، ولكنه تدارك نفسه ونهض وهو يشرب ، فصافح يد فيتو قائلا :

ــ مساء الخير ، يا صاحبي . بلا ضغينة ، ارجو ذلك . اذا كان لي ان اقدم لك خدمة ، فلا تتردد بأن تطلبها مني . لقد احسنت التصرف هذا المساء .

وصاحب كورليون زائره حتى سطيحة السلم ، ثم تركه يهبط الدرج وحده . وكان يعرف انه في تلك الساعة سيكون جمع غفير على الرصيف وفي الشارع ، وان كثيرين ، بالتالي ، يمكن ان يشهدوا بأنهم رأوا فانوكسي يغادر المبنى الذي يسكنه كورليون سليما معافى . ونظر فيتو من النافذة ، فرأى فانوكسي يتجه الى

مفترق الجادة الحادية عشرة ، فحدس بانه يقصد بيته ، لكي يضع ، على الارجح ، غنيمته في مكان امين قبل ان يخرج ثانية . وربما كذلك ليتخلص من المسدس الذي كان من غير شك يحمله .

وخرج فيتو كورليون من منزله ، ولكنه ارتقى اربعا اربعا السلم المفضي الى السطيحة السقفية . وانتقل من مبنى الى مبنى ، عن طريق السطوح ، حتى بلغ آخر كتلة في البيوت . ودلف الى علية فارغة ، ثم اخذ سلم النجدة وهبط حتى ساحة خلفية كانت هناك . وبركلة منه ، فتح الباب ، فاجتاز الرواق ووصل الى الرصيف ، بمواجهة المبنى الذي كان يسكن فيه فانوكسي .

ولم يكن مجموع المباني المستعملة للسكنى تمتد باتجاه الغرب الا حتى الجادة العاشرة . اما في الجادة الحادية عشرة ، فلم تكن توجد الا مستودعات مؤجرة الى مؤسسات تصدر بضائعها بواسطة سكة حديد نيويورك سنترال ، وكانت بذلك تنفتح على الطرق المتفرعة في كل اتجاه منذ الجادة الحادية عشرة حتى الهدسون . وكان مبنى فانوكسي واحدا من المباني الاخيرة المسكونة في ذلك القفر . وكان يعيش فيه بصورة خاصة عمال في سكة الحديد عازبون وموسسات بائسات . ولم يكن اولئك الاشخاص يجلسون على الرصيف ليثرثروا على غرار الايطاليين الطيبين ، بل هم يبذرون مالهم في الخمارات .

واذن ، فقد اجتاز فيتو كورليون الجادة من غير ان يراه احد ، ونفذ بلا اي تعقيد الى الرواق المقابل . وسحب من جيبه المسدس الذي لم يكن قد استعمله قط . وانتظر فانوكسي .

وكان الباب الزجاجي يتيح له ان يراقب الخارج . وكان يعرف ان فانوكسي سيصل من الجادة العاشرة . كان كليمنزا قد ارشده كيف كان يعمل السلاح ، وكيف يرفع فرضة الامان ويضغط على الزناد . وكان فيتو منذ كان في التاسعة من عمره ، غالبا ما صحب اباه في صقلية الى الصيد ، فكان يعرف استعمال بندقية الصيد الثقيلة التي تدعى « لوبارا » باللغة الصقلية . وبراعته الباكرة في اطلاق « اللوبارا » هي بالضبط ما حملت قتلة ابيه على اتخاذ قرارهم بالحكم عليه بالموت .

وفي ظلام الرواق ، شاهد طيف فانوكسي المبيض يجتاز الطريق متجهـا نحوه . وتراجع فيتو مستندا الى الباب المفضي الى السلم . وصوب سلاحه نحو الباب الزجاجي الذي انفتح فتأطر فانوكسي بين مصراعيه ، ابيض ، عريضا يرشح عرقا . واطلق فيتو النار .

ولا بد ان الانفجار قد سمع في الشارع ، لان الباب كان مفتوحا . ولكن الصوت تردد اقوى واعنف في المبنى . وتشبث فانوكسي باحدى يديه بالباب ليبقى واقفا ، ومد يده الاخرى نحو مقبض مسدسه ، بحركة مباغتة انتزع معها ازرار سترته . وظهر مقبض السلاح ، ولكن ظهرت ايضا سحابة حمراء كانت تسيل على قميصه الابيض ، عند اعلى معدته . وبتنبه كبير ، كما لو أن فيتو كورليون كان يغرز ابرة في عرق ، اطلق رصاصة ثانية فوق هذه النقطة .

سقط فانوكسي على ركبته وهو ما يزال يحاول التشبث بالباب . واطلق انة

هائلة ، اتّة انسان هو فريسة ضيق جسماني عظيم ، ثم نخر عدة مرات نخرا اصبح مضحكا . وقد تذكر فيتو ، فيما بعد ، انه سمع ثلاث انات قبل ان يسند ماسورة مسدسه على الصدغ المغطى بالعرق ويطلق رصاصة في الراس . ولم تنقض اكثر من خمس ثوان بالمجموع بين اللحظة التي فتح فيها فانوكسي الباب واللحظة التي تمدد فيها عند العتبة .

وبحركة دقيقة تناول فيتو بهدوء المحفظة من سترة القتيل ودسها تحت قميصه ، ثم خرج من الرواق فاجتاز الشارع ، وعاد يمر عبر الطابق السفلي للمبنى المقابل ليصل الى الباحة ويصعد من سلم النجدة الى السطح . وحين بلغ هذا ، انحنى لينظر ما كان يجري في الشارع . كانت الجثة متمددة على العتبة ، ولكن لم يكن ثمة احد هناك . وكانت نافذتان مضاءتين في المبنى ، فرأى فيتو رؤوسا في الظل . واذ لم يميز قسماتها ، فقد تأكد ان لم يكن ثمة من عرفه هو ايضا ، وهكذا لن يتمكن السكان هناك من ارشاد الشرطة . كان من الممكن ان يبقى فانوكسي ممددا هناك حتى صباح اليوم التالي ، الا ان يرى شرطي يقوم بالدورية جثته هناك . ولن يذكر اي ساكن من سكان المبنى ليعرض نفسه طوعا للشكوك واستجواب رجال الشرطة . ان كل شخص سيبقى في بيته ، ثم يدعي انه لم يسمع شيئا .

وعاد فيتو ، وهو على غير عجلة من امره ، من سطح الى سطح ، حتى بلغ شقته ، فأقفل على نفسه بالمفتاح ، وافرغ محفظة ضحيته ، فلم يجد فيها ، بالاضافة الى الدولارات السبعمئة التي كان قد اعطاه اياها ، الا ورقة واحدة من فئة الخمسة واثنتين او ثلاثا من فئة الدولار . وفي اصغر جيب بالمحفظة ، كانت ثمة قطعة ذهبية من فئة الخمسة دولارات : هي بلا شك تذكار . لو كان فانوكسي لصا غنيا ، فانه لم يكن يحمل ثروته في جيبه ، وذلك ما كان يؤكد بعض ظنون فيتو .

كان « دون » المستقبل قد بدأ يعرف انه كان عليه ان يتخلص من كل شيء : المحفظة والمسدس وحتى القطعة الذهبية الصغيرة . وقد صعد ثانية الى السطح ، فألقى المحفظة في فتحة تهوية ، وافرغ خزان المسدس ، فرمى الرصاصات في فتحة اخرى ، ثم صدم السلاح بحافة السطح ، فلم تنكسر طاحونة الالقام . وامسك فيتو المسدس من ماسورته وضرب المقبض على زاوية مدخنة ، فانشق قسمين . وضرب من جديد ، فانفصلت الطاحونة عن الماسورة . وهكذا انشطر المسدس الى ثلاثة اجزاء قذف فيتو كلا منها في فتحة تهوية مختلفة ، ومد اذنه ليتأكد من انها لن تحدث صدى حين تبلغ القاع . ولم تحدث اي صدى ، لانها سقطت على قاذورات وبقايا تراكمت من جراء كسل المستأجرين . في اليوم التالي ، ستغطيها فضلات اخرى . فاذا وافى الحظ ، فسيختفي كل شيء على هذا النحو . وعاد فيتو الى منزله .

كان يرتعش قليلا، ولكنه يحافظ على رباطة جأشه. ونزع ملابسه خشية ان تكون ملطخة بالدم . فرمى بها في غسالة زوجته وملاها بالماء ، ثم اضاف اليها بعض كربونات السوديوم وصوبنها بنشاط . ثم اخذ لوح الغسيل من تحت الحوض وفرك

ثيابه . وبعد أن شطفها ، نقعها في ماء نظيفة ، وغسلها من جديد ثم عصرها لتجف. وانتقل الى غرفة النوم ، فوضع اللابس المغسولة في كيس كان يحتوي غسيلا رطبا لا شك في ان زوجته ستكويها في اليوم التالي . وعند ذلك ، ارتدى فيتو كورليون قميصا نظيفا ، وبنطالا آخر ، وهبط ينضم الى زوجته وولديه والجيران على رصيف المبنى .

وكشف تطور الاحداث أن هذا القدر من الاحتياطات لم يكن ضروريا . لقد اكتشف رجال الشرطة الجثة صباح اليوم التالي ولم يستجوبوا قط فيتو كورليون. كانت الشرطة تجهل ظاهرا ان فانوكسي كان قد زاره عشية مقتله . كان يعتمد طبعا على حجة الدفع بالغيبة ، باعتبار ان فانوكسي كان قد خرج من بيته سليما معافى. وفيما بعد فقط علم ان موت فانوكسي لم يحدث اي مشقة لدى رجال الشرطة الذين لم يفرطوا بالاهتمام في مطاردة قتلته . كانوا يعتقدون ان المسألة مسألة تصفية حسابات بين اللصوص ، واكتفوا باستجواب المجرمين المحكوم عليهم سابقا والذين كانوا على صلة بفانوكسي ، او الذين كانوا يمارسون مثله الابتزاز بالتهديد. واسم كورليون ، الحسن السلوك الذي كان يجهله رجال الشرطة ، لم يرد حتى مجرد ورود في هذه القضية .

ولكن اذا كان قد خدع رجال الشرطة ، فان شريكيه لم يخدعا . فلقد تجنبه كليمنزا وتيسيو طوال اسبوع ، ثم اسبوعا آخر ، ثم عزما اخيرا على زيارته . وحضرا اليه ذات مساء بمراعاة واضحة . واستقبلهما فيتو كورليون بمألوف برودته المجاملة وقدم لهما نبيذا .

وقرر كليمنزا ان يكون اول المتكلمين : ــ ليس ثمة بعد من « يحمي » أصحاب حوانيت الجادة التاسعة . ولم تعد مقامر الحي السرية تدفع الجزية لاحد .

ونظر فيتو الى صديقيه من غير ان ينبس . قال تيسيو :

ــ نستطيع ان نرث فانوكسي . فسيدفع لنا زبائنه .

هز فيتو كتفيه : ــ افعلا ما تريدان . ولكن لماذا تتجهان اليّ ؟ ان طرقا كهذه لا تهمني .

انفجر كليمنزا ضاحكا . كان حتى في شبابه ، قبل ان يكون له كرش هائل ، يضحك كرجل سمين :

ــ المسدس الذي اعطيتك اياه يوم قصة الشاحنة .. ما دمت لن تحتاج اليه بعد ، تستطيع أن ترده لي .

وبهدوء كلي ، اخرج فيتو كورليون رزمة من الاوراق النقدية من جيبه وعد منها خمسا من فئة العشرة دولارات ، وقال :

ــ لقد رميت هذا المسدس بمجرد ان انتهينا من عمليتنا تلك . ارجو الا يتجاوز ثمنه خمسين دولارا ؟

وابتسم لصديقيه . وفي ذلك الوقت ، لم يكن فيتو يقدر تأثير بسمته : كانت تخيف بمقدار ما كانت تخفي من تهديد . كان يبدو وكأن ثمة مزحة تسليه يحتفظ بها لنفسه لانه لم يكن ثمة شخص آخر يستطيع تقدير نكهتها . ولكن بالنظر الى انه

لم يكن يحتفظ بالمزاح لنفسه وان نظرته لم يكن فيها اي شيء باسم ، وبالنظر اخيرا الى انه كان في العادة كثير الهدوء والتعقل ، فان تلك التكشيرة كانت تكشف عن أعماق طبعه . كان يثير الخوف .

نفض كليمنزا راسه قائلا : ــ لا اريد هذا المال .

فأعاد فيتو الاوراق الى جيبه . كانا متفاهمين تماما ، كلاهما . كان رفيقاه يعرفان انه قد قتل فانوكسي . ولم ينطقا بكلمة حول ذلك امام احد . ومع ذلك ، فقد عرف الحي كله بعد بضعة اسابيع ، واخذ كل انسان يعامل السيد كورليون بمجاملة واحترام . على انه لم يهتم مع ذلك بان يرث فانوكسي .

وما حدث ، بعد ذلك ، كان لا مناص منه . ذات مساء ، رافقت السيدة كورليون الشابة الى منزلها احدى الجارات : ايطالية كانت تعيش عيشة لا غبار عليها . كانت تعمل بقسوة لتربي اولادها اليتامى . وكانا بنها الكبير ، وهو في السادسة عشرة من عمره ، يأتيها كل اسبوع بأجرته في مغلف كان يختمه بعد ان يكون قد عد ما يحتويه ، كما يفعل الناس تماما في مسقط الراس . وكانت ابنته البالغة السابعة عشرة تحذو حذوه . وفي المساء ، بل حتى ساعة متأخرة من الليل ، كانوا ثلاثتهم يخيطون ازرارا على قطع ورق مقوى لقاء اجرة بائسة . كانت تلك المراة « السنيورة » كولومبو .

قالت السيدة كورليون لزوجها : ــ السيدة تعاني مصاعب . هل تستطيع ان تقدم لها خدمة ؟

وظن فيتو انها ستطلب منه مساعدة مالية . وكان مستعدا ان يعطيها مالا ، ولكنها كانت حكاية اكثر تعقيدا . كان لدى السيدة كولومبو كلب يحبه ولداها حتى الجنون ، ولكنه كان ينبح في الليل . وكان بعض الجيران قد اشتكوا من ذلك الى المالك الذي فرض على السيدة كولومبو ان تتخلص من الحيوان . وكانت قد وعدت بالامتثال ، ثم ادعت انها فعلت ذلك . واكتشف المالك انها كانت تخدعه ، فأنذرها بترك البيت . ووعدت مرة اخرى بان تتخلص من الكلب ، ووفت بوعدها هذه المرة ولكن غضب المالك كان شديدا بحيث كان يصر مع ذلك على طردها . كان عليها ان تترك المنزل والا ابلغ الشرطة . وقد بكى ابنها الصغير بكاء شديدا حين اقتادوا الكلب الى منزل اقارب كانوا يعيشون في « لونغ ايسلند » ، وكل ذلك من غير جدوى ! فقد كان سيلقى بهم في الطريق !

وسألها فيتو كورليون يلطف : ــ ولماذا تتوجهين الي ؟

فأومأت السيدة كولومبو بذقنها الى زوجته قائلة : هي التي نصحتني بذلك .

وعجب لذلك . فانه لم يسبق لزوجته قط ان سألته عن موضوع الثياب التي غسلها عشية مقتل فانوكسي . ولم تسأله كذلك قط عن مصدر المال الذي كان في حوزته منذ انقطع عن العمل . وحتى في تلك اللحظة ، كانت جامدة باردة . وقال فيتو للسيدة كولومبو :

ــ استطيع ان اعطيك بعض المال لتنقلي بيتك اذا كان هذا ما تتمنينه .

فهزت برأسها نفيا واخذت تبكي : ــ جميع صديقاتي يسكن هنا ، جميع

اللواتي كبرت معهن في ايطاليا . لا اريد ان اذهب فاعيش في منزل آخر بين اجانب . اود ان تتحدث الى المالك ليسمح لي بالبقاء في منزلي .

هز فيتو راسه قائلا : ــ اذا كان الامر كذلك ، فاعتبريه منتهيا . لن تكوني بحاجة الى الانتقال . سأكلمه منذ صباح الغد .

وابتسمت له زوجته ، فتصنع انه لم يلاحظ ذلك ، ولكنه كان به سعيدا . ولم يبد على السيدة كولومبو انها استعادت طمانينتها ، فقالت :

ــ هل انت واثق من انه سيقول نعم ، هذا المالك ؟

قال فيتو : ــ السنيور روبرتو ! ولكن طبعا يا سيدتي . ان له قلبا طيبا . حين اشرح له وضعك ، سيهتم بالامر . لا تخافي . انك بحاجة ان تبقي في صحة طيبة من اجل اولادك .

كان المالك السنيور روبرتو يطوف كل يوم بالمباني الخمسة التي كان يملكها . كان « بادرونا » : كان يبيع عمالا ايطاليين يعثر عليهم في المحطات ، عند المرافىء . وما كانت تدفعه له مؤسسات المنطقة التجارية الكبرى اتاح له ان يشتري واحدا بين هذه المباني . كان ايطاليا من الشمال مثقفا ، يحتقر مواطنيه في الجنوب ، الصقليين والنابوليين الذين كانوا ينغلون كالدود في المنازل ، ويرمون بالاقذار في فتحات التهوية ، ويتركون الحشرات والجرذان تقرض الجدران من غير ان يرفع اصبعه لحماية ممتلكاته . لم يكن شيطانا رديئا . بل كان زوجا طيبا وابا طيبا ، وكان يحرص على الحفاظ على ملك عائلته . وكان المال الذي يكسبه ، والنفقات التي تلزمه بها ملكية المباني تخلف لديه الهموم وتهد اعصابه ، حتى كان يظل ثائر الاعصاب ابدا . وحين حاذاه فيتو كورليون في الشارع وطلب ان يتحدث اليه ، اساء استقباله ، ولكنه امتنع عن اية فظاظة لان رجال الجنوب هؤلاء كان جديرا بهم ان يشهروا مدية لمجرد ان يعاكسهم الانسان . على ان ذلك الشاب كان هادىء المظهر .

قال فيتو : ــ يا سينور روبرتو ! هناك صديقة لزوجتي ، ارمل مسكينةليس لها بعد زوج ليحميها ، قالت لي انك قد امرتها باخلاء شقة في مبنى من مبانيك . انها بائسة . فهي لا تملك مالا ، ولا اصدقاء ، باستثناء الذين يعيشون هنا . وقد وعدتها ان اتصل بك ، وقلت لها انك رجل عاقل ، وان في الامر سوء تفاهم ، ولا بد . لقد تخلصت هذه المسكينة من الحيوان الذي هو مصدر متاعبها . فلماذا اذن لا تبقى ؟ اني اتكلم اليك من ايطالي الى ايطالي ، واطلب منك ذلك كخدمة .

حدج السنيور روبرتو الشاب : شخص قصير القامة ولكنه متين البنية ، فلاح ولكنه ليس لصا . شيء واحد مضحك : كانت لديه وقاحة ان يدعي انهايطالي!

هز روبرتو كتفيه قائلا : ــ لقد اجرت الشقة لاسرة اخرى بسعر اغلى . ولا استطيع ان اخيب هؤلاء الناس ارضاء لصديقتك .

اومأ فيتو كورليون براسه ايجابا ليشير الى انه كان يفهم ، ثم سأله :

ــ ما هي الزيادة في الشهر ؟

ـ خمسة دولارات .

كان السيد روبرتو يكذب . هذا المسكن المؤلف من اربع غرف لم يكن يساوي اكثر من الاحد عشر دولارا التي كانت تدفعها الارمل ، والمستأجرون الجدد كانوا يرفضون دفع سنتيم زيادة .

وسحب فيتو كورليون من جيبه اوراقا مالية ملتفة واستخرج منها ثلاثا من فئة العشرة .

ـ هذه ستة اشهر زيادة مدفوعة سلفا . ولا جدوى من اطلاع هذه السيدة على ذلك . فذلك ما سيجرح كرامتها . وسنلتقي بعد ستة اشهر . ولكنك تسمح لها طبعا باستبقاء كلبها .

صرخ السيد روبرتو : ـ رح انبعص ! من تحسب نفسك ؟ هانت ذا تصدر الى الاوامر ، الآن ؟ انتبه لما تقول ، والا قذفت بك على مؤخرتك الصقلية وسط الشارع.

رفع فيتو كورليون ذراعيه مندهشا متألما : ـ انما انا اطلب منك خدمة ، هذا كل شيء . لا يعرف أحد اذا كان لن يحتاج ذات يوم الى صديق . هيا ، اقبل هذا المال الذي اقدمه لك علامة على الارادة الطيبة ، وستتخذ قرارك بهدوء اعصاب. انني لن اجرؤ بالتأكيد على مخاصمتك . (ووضع الاوراق في يد السيد روبرتو) امنحني هذه الحظوة . خذ هذه وفكر . وصباح الغد ، اذا رغبت في أعادتها لي ، فلا تتردد. اذا طردت هذه المراة من بنايتك ، فكيف لي ان امنعك من ذلك ؟ انت المالك . اذا لم تكن تريد كلابا فيمساكنك . فاني افهمك . انني انا ايضا لا احب الحيوانات .

وربت على كتف السنيور روبرتو : ـ انك حين تقبل ، تجعلني مدينا لك .ولن انسى . اسأل عني اصدقاءك في الحي ، وسيقولون لك اني صديق اعترف بالجميل واعرف التدليل على ذلك .

كان السيد روبرتو قد بدأ يفهم . وقد استعلم في اليوم نفسه عن فيتوكورليون، ولم ينتظر حتى صباح اليوم التالي ، بل كان في المساء نفسه يطرق باب الصقلي الشاب . وقد بدأ بالاعتذار ان يحضر في تلك الساعة المتاخرة وقبل قدح النبيذ الذي قدمته له السيدة كورليون . وقد اكد لفيتو ان هذه الحكاية كلها لم تكن الا سوء تفاهم مريعا ، وان بامكان السنيورة كولومبو ان تبقى في شقتها ، وانتحتفظ كذلك بكلبها طبعا . لقد كانوا وقحين حقا اولئك المستاجرون المساكين الذين كانوا يشتكون من ضجةذلك الحيوانالمسكين ،هم الذين يدفعون مثل تلك الاجورالبائسة! وفي النهاية ، وضع على الطاولة الدولارات الثلاثين التي كان فيتو كورليون قد اعطاه اياها ، في الصباح ذاته وقال بصدق لا صدق بعده :

ـ ان طيبة القلب التي تظهرها لمساعدة هذه الارمل المسكينة قد اخجلتني ،وأود ان اثبت لك انني انا ايضا امارس الاحسان المسيحي . انها ستدفع مثل الاجرةالسابقة فقط . لقد لعب كل شخص دوره بنجاح في هذه المسرحية . وصب فيتو شرابا وطلب الى زوجته ان تقدم الحلوى ، ثم صافح بقوة يد السيد روبرتو وهناه على سخائه . وتنهد المالك وقال انه يستعيد ثقته بالطبيعة البشرية منذ ان تعرف على السيد كورليون . واخيرا انتزع كل منهما الآخر من نفسه ، فذهب السيد روبرتو

وقد تحولت عظامه الى حالة العصير لفرط ما كان خائفا . وقفز الى الترام ليعود الى بيته في البرونكس ونام على الفور . ولم يره احد مرة اخرى في الحي طوال ثلاثة ايام .

كان فيتو كورليون يصبح اكثر فاكثر « رجلا محترما » في حيه . وكانوا يتهامسون انه كان ينتمي الى المافيا الصقلية . وجاءه ذات يوم مشرف على طاولة قمار في غرفة مؤثثة فأعطاه عشرين دولارا واعدا ان يعطيه مثلها كل اسبوع مقابل « صداقته » . واذا كان له من طيبته ان يمر مرة أو مرتين في الاسبوع بعض دقائق على المقمرة ، فان المقامرين سيدركون انه كان يحميهم .

وطلب اليه التدخل أصحاب حوانيت كان بعض السوقة من الشبان يرهقونهم . فتدخل وكوفيء على ذلك . وفي مدة قصيرة ، ارتفع دخله الى مئة دولار في الاسبوع ، وهو مبلغ هائل في ذلك الوقت ، وفي ذلك الحي . وبالنظر الى ان كليمنزا وتيسيو كانا صديقيه وحليفيه ، فقد اعطاهما طرفا من الغنيمة ، من غير ان ينتظر مطالبتهما اياه . ثم قرر ان يقيم تجارة أستيراد لزيت الزيتون بالاشتراك مع رفيق طفولته جانسواباندوندو . سيأخذ جانسو على عاتقه ان يشتري الزيت من ايطاليا بأفضل الاسعار فيودعه في مستودع ابيه . وكانت له خبرة في اعمال من هذا النوع . وسيتولى كليمنزا وتيسيو البيع بالجملة، فيزوران جميع بقالي مانهاتن الايطاليين ، ثم بقالي بروكلين، ثم بقاليي البرونكس ليمتدحا امامهم مزايا زيت الزيتون « جانسوا بورا » ويرجو منهم شراء كميات منه (وكمثال نموذجي لتواضع فيتو كورليون رفضه استعمال اسمه الخاص كماركة تجارية) وكان فيتو يدير المسالة نظرا الى انه كان صاحب الجزء الاكبر من راس المال . وكان يتدخل عند بائعي المفرق الذي كانوا يسيئون فهم كليمنزا وتيسيو ويتحدث اليهم حديثا مقنعا الى ابعد الحدود .

خلال بضع سنوات تالية ، عاش فيتو كورليون حياة رجل عمل صغير سعيد يكرس وقته كله وطاقته لترويج تجارته في اقتصاد شهد ازدهارا كبيرا . كان زوجا وابا ممتازا ، ولكن اعماله مع ذلك كانت من الوفرة بحيث لم تكن تبقي وقتا لذويه . وفرضت « جانسو بورا » نفسها على السوق ولم تلبث ان بزت جميع ماركات زيت الزيتون المستورد من ايطاليا . وبيع في جميع اطراف الولايات المتحدة، ونمت التجارة كأنها الفطر . ولم يتردد فيتو ، شأنه في ذلك شأن جميع رجال الاعمال ، في كسر أسعار منافسيه ومحوهم من السوق بثني بائعي المفرق عن شراء بضائعهم . وكجميع رجال الاعمال كذلك ، كان يقصد الى الاحتكار باجبار منافسيه على ترك السوق له او على مشاركته . ولكن نظرا الى انه كان قد انطلق من الصفر ، وانه لم يكن يؤمن بالدعاية ، وانه كان يثق فقط بالاعلان من الفم الى الاذن ، وان زيته لم يكن يفضل زيت الآخرين ، فانه لم يكن يستطيع أن يلجأ الى غير وسائل رجال الاعمال الآخرين . وإذن ، فقد كان يعتمد خصوصا على قوة شخصيته وشهرته « كرجل محترم » .

وكان فيتو قد عرف ايضا ، منذ حداثته ، بأنه « عاقل » . لم يكن يصدر قطاي تهديد ، ولا يعمد الى منطق كان يبدو انه لا يقاوم . كان يحرص على ان يكون لمنافسه هو ايضا حصته من الربح . لم يكن احد ليخسر معه . وكان يستخدم وسائل على غاية البساطة . وكجميع الموهوبين في الاعمال التجارية ، كان يعتبر المنافسة الحرة ربكة او ورطة ويهدف الى الاحتكار الاكثر جدوى . واهتم بضمان احتكار زيت الزيتون . وقد رفض بعض تجار الجملة او نصف الجملة في بروكلين — وهم أشخاص نزقون عنيدون بعيدون عن التعقل — رفضوا مشاطرة السنيور كورليون وجهات نظره الاقتصادية . وقد بذل جهدا كبيرا في عرض هذه الوجهات بالتفصيل وبصبر كبير . وحين كان فيتو كورليون يتبين عبث جهوده ، كان يرفع يده بحركة يأس ويرسل تيسيو الى بروكلين لتسوية الامر . واحترقت مستودعات ، ورؤيت مستنقعات من زيت الزيتون على بلاط المحطات . وكان ثمة ميلاني ذو رأس قاس ووقح ، بالاضافة الى ذلك ، يولي الشرطة من الثقة مثلما يؤمن قديس بالمسيح. وقد بلغ به الامر ان رفع شكوى ضد مواطنيه الايطاليين ، خارقا بذلك عشرة قرون من « الاوميرتا » . وما كاد التحقيق يبدأ حتى اختفى تاجر الجملة هذا . ولم ير بعد ذلك ابدا . وقد خلف زوجة مخلصة وثلاثة اولاد ، وكان هؤلاء قد ادركوا ولله الحمد سن الرشد ، وهذا ما اتاح لهم ان يرثوا اباهم وان يعقدوا اتفاقا عاقلا مع «جانسو بورا اويل كومباني » .

ولكن الرجال العظام لا يولدون في العظمة : انهم يعظمون . هكذا عاش فيتو كورليون . وحين حظر الدستور تقطير الكحول وبيعها ، عبر فيتو العتبة الاخيرة . لم يكن حتى ذلك الحين الا رجل اعمال ، بارعا دون ريب ، ولكن من طراز تافه . ولكنه ابتداء من تلك اللحظة ، اصبح « دونا » في العالم الذي لا يحترم فيه القانون . ولم يكن ذلك قضية يوم حتى ولا سنة . وانما طوال مدة « تحريم الخمر » والازمة الاقتصادية الكبرى اصبح فيتو كورليون « البادرينو » ، الدون الكبير . بالاختصار دون كورليون .

ويميل المرء الى الظن بأن الحظ قد تدخل في البدء ، فقد كانت « جانسو بورا اويل كومباني » تملك في تلك الفترة باحة لست شاحنات للتسليم . وقد اتصل ايطاليون كانوا يهربون الكحول والويسكي الى الولايات المتحدة ، اتصلوا بكورليون عن طريق كليمنزا : كانوا بحاجة الى شاحنات وسائقين لتوزيع بضاعتهم في مدينة نيويورك . وقد كان المفروض بهؤلاء السائقين ان يكونوا رجالا موثوقين ، متكتمين ، اقوياء . وكان المهربون مستعدين لان يدفعوا مقابل الرجال والشاحنات ثمنا طيبا . وكان العرض هائلا جدا حتى ان فيتو انقص تجارة الزيت ليضع شاحناته وموظفيه في خدمة المهربين . على ان هؤلاء السادة كانوا قد طعّموا عرضهم بتهديد ضمني . ولكن فيتو كان قد اصبح منذ تلك الحقبة رجلا ناضجا بما فيه الكفاية حتى لا يعتبر ذلك بمثابة اهانة فيرفض تجارة مثمرة من اجل سبب تافه كهذا . وقد فكر بذلك التهديد ، فتبين انه كان يعوزه الحزم والصلابة وحكم بان شركاءه الجدد كانوا قليلي الذكاء . لماذا تراهم ، بحق الشيطان ، كانوا يهددون حيث لم يكن مفيدا ان يفعلوا ؟

واحتفظ لنفسه بهذا الاستنتاج ، مع التحفظ بان يعود اليه فيما بعد .
ونما رخاؤه وربحه ، ولكنه اكتسب خصوصا معارف وخبرة وعقد صداقات . وقد راكم المنافع كما يراكم صاحب مصرف قراطيس مالية . وبدا بوضوح في السنوات التالية ان فيتو كورليون لم يكن فحسب رجلا موهوبا ، بل عبقريا من العباقرة ، على الاقل في ميدانه .

لقد بسط حمايته على جميع العائلات الايطالية التي كانت تقيم في منازلها خمارات سرية صغيرة وتبيع الويسكي بخمسة عشر سنتا للقدح . وحين ثبّت اصغر ابناء السيدة كولومبو في سر الميرون ، كان فيتو عرابه في التثبيت وقدم لابنه بالمعمودية هدية جميلة : قطعة ذهبية من ذوات العشرين دولارا . على انه حدث ان اوقف رجال الشرطة بعض شاحناته . كان هذا لا مفر منه . وتفاهم جانسو اباندادو مع محام ممتاز كان ذا صلات وثيقة برجال الشرطة والقضاء . وفاوض رجل قانون هذا على اساس نظام للبرطيل . وسرعان ما اضيفت الى حسابات كورليون التجارية « ورقة » على غاية الاهمية . كانت هذه الورقة بكل بساطة لائحة الشخصيات التي كانت تقبض اجرا شهريا . وحين كان المحامي يجهد في اختصارها ويعتذر بان يكون مسؤولا جزئيا عن مثل هذه النفقات ، كان فيتو كورليون يهدّيء وساوسه عن رضى . كان يقول :

– لا ، لا . سجل عليها اكبر عدد ممكن من الاشخاص ، حتى اولئك الذين لا يستطيعون ان يكونوا نافعين لنا حاليا . انني اؤمن بالصداقة . وانا مستعد ان اقوم بالخطوات الاولى وان اعطي عرابين لهذه الصداقة .

ومع الايام ، كانت مملكة دون كورليون تتسع وعدد شاحناته يزداد و «ورقته» تتطاول . واصبح لكليمنزا وتيسيو مزيد من المساعدين تحت اوامرهما . فنتج عن ذلك بعض الفوضى وغير فيتو تنظيمه : فمنح كليمنزا وتيسيو لقب « رئيس فرقة» وللموظفين عندهما صف جندي . واصبح جانسو اباندادو « كونسفليوريه »، اي مستشاره. ووسّط عناصر حاجزة متتالية بين منفذيه وبينه، من غير ان يصدر امرا الا لجانسو او لواحد من رئيسي فرقتيه ، ودائما من غير شاهد . ثم وضع فريق تيسيو على حدة مكلفا اياه بأعمال بروكلين . وفصل كذلك تيسيو عن كليمنزا وافهمهما بوضوح ، ولكن بصبر ، ان عليهما الا يلتقيا ، حتى ولو تحت شعار الصداقة الا في حالة الضرورة القصوى . وشرح الامر خاصة لتيسيو ، وهو اذكى الاثنين، الذي ادرك على الفور لماذا كان « البادرينو » يتصرف على هذا النحو . كان فيتو يعتقد القضية حماية ضد الشرطة وضد العدالة . ومع ذلك فقد فهم تيسيو ان الدون كان يقصد الى القضاء على كل فرصة للتآمر عليه . ولكن الامر كان فقط بدافع الاحتياط التكتيكي وبلا ادنى حذر في الوقت الحاضر . وبالمقابل ، اطلق فيتو الحرية لتيسيو في حي بروكلين ، محتفظا بكليمنزا تحت متناول يده ، في اقطاعته بالبرونكس . وقد كان كليمنزا ، بالرغم من مرحه الظاهر ، اشجع الرجلين وكذلك اقساهما ، فكان يتوجب ابقاؤه مشدودا محصورا .

وزادت الازمة الاقتصادية الكبرى من سلطة فيتو . بل ان لقب دون كورليون

انما اطلق عليه في تلك الفترة بالذات . كان ثمة في المدينة كلها اشخاص شرفاء يستعطون عبثا عملا شريفا . كان اشخاص معتزون بأنفسهم حتى ذلك الحين ، يذلون انفسهم ، هم وذووهم ، بقبول صدقات كان يوزعها موظفون محتقرون . اما رجال دون كورليون ، فقد كانوا يذرعون الشوارع عالي الرؤوس كما يليق بحاملي الاوراق المصرفية والقطع النقدية في جيوبهم . لم يكونوا هم يخشون ان يؤولوا الى البطالة . ولم يسع دون كورليون ، رغم تواضعه كله ، ان يمتنع عن الاحساس بشعور الزهو والفخر . كان يسهر على رخاء رجاله . لم يكن يقصر قط تجاه الذين كانوا متعلقين به ، والذين كانوا يعطونه عرق جباههم ويجازفون بحريتهم ، بل حتى بحياتهم ، في خدمته . وحين كان احد مأجوريه يوقف او يرسل الى السجن على اثر مصيبة استثنائية ، فقد كانت عائلته تقبض احيانا ليس هو معاشا يوميا بائسا يعطيه بخيل على مضض ، بل هو مجموع الراتب الذي كان يتقاضاه القريب لو كان يتمتع به بحريته .

وبالطبع ، لم يكن ذلك عمل احسان مسيحي فحسب . فحتى افضل اصدقاء دون كورليون لم يكونوا يعتبرونه قديسا من قديسي الجنة . كان كرمه مبنيا على حس دقيق لمصالحه . كان يكفي المعتقل ان يبقى مخيط الفم ليؤمن معاش زوجته واولاده . كان يعرف ، بالاضافة الى ذلك ، انه ان كان يرفض ارشاد الشرطة ،فانه سوف يستقبل بحرارة عند خروجه من السجن . ان الاصدقاء والاقرباءسيجتمعون عنده ليحتفلوا باطلاق سراحه متذوقين طعاما مختارا ، رافيولي من صنع البيت وحلوى ونبيذا جيدا . وفي اثناء السهرة ، سيمر المستشار جانسو اباندادنو، وربما الدون شخصيا ، لتحية بطل الحفلة ، ويشربان نخبه ويدسان في يده ما يمكنه من قضاء اسبوع الى اسبوعين في اجازة مع عائلته قبل ان يستأنف مهمته اليومية . على هذا النحو كان يتبدى تعاطف دون كورليون وتفهمه الرقيقان .

في تلك الفترة ، خطرت للدون فكرة : كان يحكم عالمه الصغير افضل جدا مما كان يفعل اعداؤه ، اولئك الذين كانوا يشرفون على المجتمع كله الذي كان يصطدم به في كل خطوة . وقد ايده في هذه الفكرة اشخاص الجوار المساكين الذين كانوا، في كل لحظة ، يطلبون معونته . كان يتدخل لتسجيل هذا على لائحة بلدية للمساعدة ، او ليجد لذاك عملا ، او ليخرج ذلك من السجن . وكان يقدّم عن رضي على سبيل الدين مبلغا صغيرا تحتاجه اسرة ما امس الحاجة ، لان مالكي المنزل كانوا بصرف النظر عن اية حجة ، يطلبون ان يواصل العاطلون عن العمل دفع اجارهم .

كان دون فيتو كورليون يساعدهم جميعا . بل اكثر من ذلك ، كان يقدم نجدته بلفتة طيبة ترافقها كلمات مشجعة ، حتى لا تأخذ هذه النجدة طابعا جارحا . افلم يكن طبيعيا ، والحالة هذه ، ان يطلب هؤلاء الايطاليون الذين لم يكونوا. قادرين على معرفة من ينتخبون لمجلس النواب او لمجلس الشيوخ او للمكاتب البلدية* او لكونغرس الولايات المتحدة ــ ان يطلبوا النصح من صديقهم دون كورليون « البادرينو » ؟وهكذا اصبح سلطة سياسية . وقد استشاره رؤساء الاحزاب ، بدافع من حس الواقعية . وقد مكّن هذه السلطة الجديدة باتخاذ تدابير كانت تثبت سعة في النظر يؤتاها

رجال الدولة الحقيقيون ، اذ كان يساعد خاصة الشبان الايطاليين الاكثر مواهبعلى مواصلة دراستهم حتى حين كانت عائلتهم تعجز عن تأمين ذلك لهم . سوف يصبح هؤلاء الشبان محامين ، او وكلاء نيابة ، او مدعين عامين ، او حتى قضاة . كان يعمل على تأمين مستقبل مملكته بحس من التبصر لم يكن يملكه جميع السياسيين.

حين ألغي قانون تحريم الخمر، كان ذلك ضربة قاسية على دون فيتو كورليون. ولكنه كان قد اتخذ احتياطاته . ففي عام ١٩٣٣ ، كان قد ارسل بعثة الى رئيس العصابة الذي كان يشرف على جميع مقامر مانهاتن . وكان رئيس العصابة هذا يحمي كذلك المرابين الذين كانوا يملأون ملاعب البيسبول وميادين السباق وينتشرون حول المقامر التي يلعبون فيها البوكر وبؤر هارلم التي كانت تباع فيهااوراق اليانصيب اليومي . كان هذا الرجل يدعى سلفاتور مارانزانو ، وكان زعيم أشرار الوسط النيويوركي . وعرض عليه مبعوثو كورليون شراكة تفيد الطرفين .كان فيتو كورليون، بفضل تنظيمه وعلاقاته بالشرطة والعالم السياسي ، مستعدا لتقديم مظلة صلبة لعمليات مارانزانو اللاشرعية وإتاحة الفرصة لمد هذه العمليات الى بروكلين والبرونكس. ولما كان مارانزانو رجلا قصير النظر ، فقد رفض هذا العرض باحتقار. وكان آل كابوني الشهير صديقا لمارانزانو الذي كان يفخر بذلك مثل فخره بتنظيمه وبجيشه وبكنز حربي هائل . فهو لن يشجع بداءات دساس كانت له ، في نظره، شهرة خطيب برلماني ، لا شهرة « مافيوزو » حقيقي . وقد اشعل رفض مارانزانو حرب ١٩٣٣ الكبرى التي هزت الوسط النيويوركي كله .

للنظرة الاولى ، لم تكن معركة بسلاح متكافيء . كان تنظيم مارانزانو يضم طائفة من المنفذين الاشداء . كان متعلقا بكابوني ، فكان بامكانه الاستنجاد به ، وكان مرتبطا كذلك بعائلة تاتاغليا التي كانت تشرف على البغاء في نيويورك وكذلك على مجاري المخدرات التي كانت تسيل في تلك الفترة . بل الاسوأ من ذلك انه كان على صلة بشخصيات قوية في عالم الاعمال كانوا يستخدمون منفذيه ليرهبوا النقابيين اليهود المشرفين على صنع الالبسة الجاهزة والمناضلين الفوضويين الايطاليين التابعين لمنظمات البناء العمالية .

لم يكن دون كورليون يستطيع مجابهته الا بالفرقتين اللتين كان يراسهماكليمنزا وتيسيو . كانت علاقاته بالشرطة والسياسيين متوازنة بعلاقات مارانزانو برجال الاعمال . ولكن العدو ، من جهة اخرى ، كانت تعوزه المعلومات عن تنظيمه . لم يكن احد في الوسط قادرا على تقدير عدد جنوده . بل لقد كان الاعتقاد سائدا ان تيسيو كان يقود في بروكلين عمليات مستقلة تماما .

كان كورليون يبدو اذن اضعف الاثنين ، حتى اللحظة التي ساوى فيها الحظوظ بضربة معلم .

طلب مارانزانو الى كابوني ان يرسل له أفضل قاتلين من قتلته المأجورين للقضاء على الوافد الجديد . وكان قد اصبح لعائلة كورليون اصدقاء في شيكاغو اخبروها عن انطلاق القاتلين بل عينا القطار الذي سيصلان فيه . وأوفد كورليون لوكا برازي ليتلقاهما معطيا اياه تعليمات جدير بها ان تحرر من غرائز هذا الشخص الغريب

اكثرها وحشية .

ونظم برازي الاستقبال مع ثلاثة من رجاله . فحصل احدهم على سيارة اجرة جعلت تدور حول المحطة . وكان ان رافق الحمّال، الذي كان احد اعضاء الفريق، القاتلين الى هذه السيارة بالذات فأفرغ عليها متاعهما . وما كادا يدخلانها حتى دلف اليها برازي واحد معاونيه ، والمسدسان في ايديهما ، فأجبرا الرجلين على التمدد على ارض السيارة . وانطلقت السيارة الى مستودع قريب من احواض السفن كان برازي قد أعده لهما .

وربطوا رجلي كابوني ودسوا في فميهما فوطة صغيرة لمنعهما من الخوار . ثم تناول برازي فأسا موضوعة على جدار واخذ يقطع احدهما تقطيعا . بدأ اولا بالعرقوبين ثم قطع الساقين على مستوى الركبتين ثم الفخذين عند الحالب . وكان برازي رجلا شديد الصلابة ، ولم يدخر جهوده لانجاز هذه المأثرة . وقد اسلمت ضحيته الروح قبل نهاية العملية ، وكان برازي يدعس في الدم وقطع اللحم . وحين التفت الى الآخر ، لاحظ ان هذا الاخر لن يحدث له اي هم . ذلك ان الخوف الذي كان قد اطار لبه دفع به الى ابتلاع الفوطة الصغيرة . وقد عثر عليها في معدته عند التشريح .

وبعد بضعة ايام تلقى آل كابوني في شيكاغو رسالة من فيتو كورليون يقول فيها ما معناه : « انت تعرف الآن كيف اعامل اعدائي . فلماذا يتدخل نابولي في نزاع بين صقليين ؟ اذا اردت ان اعتبرك صديقا ، فسأقدم لك خدمة حين تطلب مني ذلك . ان على رجل مثلك ان يعرف ان صديقا قادرا على حماية مصالحه وعلى الوقوف بجانبك عند الحاجة خير من صديق يستنجد بك . اما اذا لم تكن راغبا في صداقتي فليكن ذلك . وفي هذه الحالة ، علي ان انذرك ان اقليم نيويورك رطب وغير صحي على النابوليين وتحسن صنعا بألا تضع فيه قدميك ابدا . »

وكان الدون قد حرر هذه الرسالة بفطرسة محسوبة لانه كان يحتقر عائلة كابوني ، بل كان يعتبرهم ذباحين اغبياء . وكان يعرف ان كابوني كان قد فقد كل نفوذ سياسي باستعراض ثروته المكسوبة بطرق غير شرعية وبازعاج الاقوياء . ولم يكن يجهل ان من اليسير سحق تنظيم كتنظيم كابوني لاسند سياسيا له ، وكان كل شيء يدل على ان كابوني كان يمضي الى هلاكه . وكان كذلك قد قدر هذا : ان تأثير النابولي ، على رغم قوته في شيكاغو ، لم يكن يتجاوز حدود هذه المدينة .

واعطت الخطة نتائج طيبة . وكان ذلك يعزى الى السرعة الهائلة التي رد بها الدون اكثر منها الى ضراوتها . ولئن كان مطلعا على الامور بالمقدار نفسه ، فان اية محاولة اخرى ضده ستكلف غاليا جدا . فالافضل اذن قبول صداقته والمساعدة التي كان يعرضها . وردت عائلة كابوني بانها لن تتدخل .

منذ ذلك الحين اصبح الخصمان يقاتلان بسلاح متكافيء . ثم ان فيتو كان قد ضمن لنفسه « احترام » الوسط الاميركي كله باذلال عائلة كابوني . وطوال ستة اشهر ، أرهق مارانزانو . فقام رجاله بكبسات على جميع المقامر التي كان يحميها عدوه ، وتدبروا امر اكبر مراب سري في هارلم ، فخلصوه من ثروته ومن ملفاته

كذلك . وجند اعداءه على جميع الجبهات . وارسل كليمنزا وفرقته يحاربون الى جانب نقابيي صناعة الالبسة الجاهزة ضد لصوص مارانزانو وضد اصحاب العمل . وقد أمن له تفوق بمعلوماته وعلاقاته النصر في كل مكان . واسهمت ضراوة كليمنزا المرحة التي كان كورليون يستخدمها بمعرفة في قلب تيار هذه المعركة . وبعد ذلك فقط ، أطلق دون كورليون ضد مارانزانو نفسه فرقة تيسيو الذي كان قد احتفظ بها للاحتياط .

وكان مارانزانو قد بدأ يفاتحه بطلب الصلح . وكان فيتو كورليون يرفض باعذار مختلفة ان يستقبل مبعوثيه . وبدأ رجال مارانزانو يخونونه لانهم لم يكونوا راغبين قط في ان يموتوا من اجل قضية خاسرة . وكان المرابون ومتسلمو الرهانات يدفعون جزية الحماية لكورليون .

واخيرا وصل تيسيو ، في عيد القديس سلفستر عام ١٩٣٣ ، الى حصن العدو نفسه . لم يكن ملازمو مارانزانو يطلبون الا التفاوض . ووافقوا على تسليم قائدهم الى قاتليه . لقد وعدوه بان يصطحبوه الى لقاء مع كورليون في مطعم ببروكلين ، ورافقوه اليه كحرس شخصيين . وتركوه امام طاولة كان مبسوطا عليها خوان ذو مربعات منسقة . وكان مارانزانوا يمضغ بحزن لقمة خبز حين تركوا المطعم بشكل عاصف ، فدخله تيسيو مع اربعة من رجاله بالشكل العاصف نفسه. اعدام سريع ووثيق : لقد ثقب مارانزانو بالرصاص ، وفمه ممتلىء باللقمة التي لم يتم مضغها . وانتهت الحرب .

وضم دون كورليون اليه ، بكل بساطة ، مملكة مارانزانو . وبلغ من براعته انه ترك كل شخص في مكانه ، مكتفيا بتحصيل جزية . وبالاضافة الى ذلك ،كانت هذه الحرب قد اتاحت له ان يضع قدمه في نقابة الملابس الجاهزة ، مما عاد عليه بفائدة عظيمة في السنوات التالية .

ولكن الدون واجه بعض المتاعب العائلية ، حين فرغ من تنظيم اعماله . كان سانتينو كورليون ، المدعو سوني ، في السادسة عشرة ، وكان قد بلغ قامة مدهشة بالنسبة لصقلي شاب : متر وثمانون ! كان عريض الكتفين ، بارز القسمات شهوانيها، فلم يكن فيه اي شيء مخنث . ولكن بينما كان فريدو فتى هادئا وميخائيل ما يزال طفلا ، كانت لسانتينو متاعب. كان يتضارب مع رفاقه ويتكاسل في مدرسته. واخيرا جاء كليمنزا الذي كان بصفته عرابا يضطلع ببعض المسؤوليات تجاه الفتى ، فأخبر دون كورليون ذات مساء ان ابنه كان قد شارك في سرقة مسلحة ، عملية بليدة كان ممكنا ان تؤول الى نتائج سيئة . وأسوأ ما في الامر ان سوني هو نفسه من نظم العملية ، ولم يكن الآخرون الا ثانويين .

وكانت تلك من المرات النادرة التي غضب فيها فيتو كورليون . وكان توم هاجن يعيش في منزله منذ ثلاثة أعوام . وقد سأل الدون كليمنزا اولا اذا كان اليتيم مشاركا في العملية . فهز رئيس الفرقة رأسه نفيا . وارسل دون كورليون سائقا ليقل سانتينو ويأتي به الى مكتبه في « جانسو بورا اويل كومباني » .

وكانت تلك اول هزيمة للدون . فقد اطلق لغضبه العنان امام ابنه وشتمه

باللهجة الصقلية التي تتيح اكثر من الانكليزية التعبير عن الغضب. وانتهى بهذه الاسئلة:
ــ من سمح لك بان تتصرف هكذا ؟ ماذا دفعك الى ارتكاب هذا العمل ؟
لم يجب سوني ، فقال الدون : ــ عملية بليدة ! ماذا ربحتم في تلك الليلة خمسين دولارا لكل منكم ؟ عشرين دولارا ؟ جازفتم بحياتكم من اجل عشرين دولارا ؟
وبنظرة تحدّ ، اجاب سوني كما لو انه لم يكن قد سمع هذه الكلمات الاخيرة:
ــ لقد رايتك تقتل فانوكسي .
فنفخ الدون وهو يرتمي على كرسيه : ــ !آه !
تابع سوني : ــ نعم . حين خرج فانوكسي من المبنى ، سمحت لي الماما بالصعود . وقد رايتك تتسلق السطح فتبعتك . وشاهدت كل ما فعلته . لقدبقيت هناك ، فوق ، ورايتك بعد ذلك ترمي بالمحفظة وتتخلص من المسدس .
وتنهد الاب قائلا :ــ في هذه الحالة ، لا استطيع ان اوبخك أو اعظك . الا تريد ان تنهي دراستك ؟ الا تريد ان تصبح محاميا ؟ ان محاميا بارعا يسرق بملفاته من المال اكثر من ألف لص بمسدساتهم وكاغولياتهم .
ابتسم سوني وقال بمهارة :ــ اود ان اعمل معك بأعمال العائلة ، يابابا .
واذ رأى اباه ملتزما الجمود من غير ان يضحك لهذه المزحة ، سارع يضيف:
ــ انني قادر على ان اتعلم بيع زيت الزيتون .
بعد صمت طويل ، هز الدون كتفيه قائلا : ــ ان لكل انسان قدرا واحدا .
ولم يضف ان قتل فانوكسي هو الذي قرر قدر سوني . بل اكتفى بالالتفات والقول بهدوء :
ــ تعال هنا في الساعة التاسعة من صباح الغد . سيقول لك جانسو ما يجب عليك ان تفعل .
وحزر جانسو اباندادو برغبة الدون الحقيقية ، بحدسه الذي كان ينبغيلكل مستشار ان ينعم بمثله . واستخدم سوني حارسا خاصا لابيه ، بصورة شبهدائمة، مما اتاح له ان يتعلم دقائق مهنة الدون . وقد اكتشف الاب لنفسه موهبة المربي واعطى كثيرا من الدروس لابنه عن فن النجاح في كثير من الميادين وطرائق بلوغه.
وكان لا يفتأ يأخذ على سوني قلة صبره وهدوئه ، مستندا دائما الى النظرية التي تنص على ان كل فرد ليس له الا قدر واحد . وكان الدون يعتبر التهديد اسوا انواع الشجاعة ، ومظاهر الغضب اللاارادية اخطر انواع الضعف . ولم يسبق لاحد قط ان سمع الدون يصدر تهديدا واضحا ، او رآه يفقد رشده . واذن ، فقد جهد في ان يعدي سوني برباطة جأشه وبرودة اعصابه . وكان يردد على مسمعه ان علينا دائما ان نحثّ العدو على المبالغة في تقدير نقائصنا ، والاصدقاء على المبالغة في تقدير مزايانا .
وتكفل رئيس الفرقة كليمنزا بتعليم سوني في ميادين اخرى : اطلاق المسدس واستعمال المخنق . وكان سوني ، لفرط تأمركه ، يسيء تقدير مزايا الحبل الايطالي ، فكان يفضل المسدس البسيط ، المباشر ، المغفل ، الانكلوسكسوني ، مما كان يثير اسف مرشده ، ولكن سوني اصبح رفيقا لابيه ممتعا وشبه دائم . كان

يقود سيارته ، ويساعده في اموره . وفي العامين التاليين اعطى صورة مبتذلة عن الابن الذي يدخل في الاعمال العائلية من غير ان يكون لامعا جدا ولا مجتهدا جدا ، مكتفيا بعمل مضمون ويسير .

في هذه الأثناء ، كان توم هاجن رفيق طفولته واخوه بما يشبه التبني ، يدخل الجامعة . وكان فريدو ما يزال في الكلية ، وميخائيل ، اصغر الاخوة ، في المدرسة الابتدائية ، واختهم الصغيرة كوني طفلة في الرابعة من عمرها . وكان قد انقضى وقت طويل على اقامة الاسرة في شقة جيدة بالبرونكس . وكان دون كورليون يفكر في شراء بيت في « لونغ ايسلند » ، ولكن هذا المشروع كان يندمج في خطة عامة كان ما يزال يتأملها .

كان فيتو كورليون يملك حس المستقبل . وكانت الحروب المحلية تخرّب جميع مدن الولايات المتحدة . وكانت المعارك تنشب بالعشرات ، وكان اصغر مبتدىء يسعى الى امتلاك اقطاعته . اما المحنكون في المهنة ، امثال كورليون نفسه ، فقد كانوا يسهرون جاهدين على حدود مملكتهم ليؤمنوا سلامة مواردهم . وقد لاحظ ان الصحف والاوساط الرسمية كانت تستغل الفوضى والاضطراب لتطالب بقوانين اشد صرامة وطرق بوليسية اشد قسوة . وكان يخشى ان يؤدي الاستياء العام الى تعليق الطرق الديموقراطية ، مما كان يعود على امثاله وعليه بالاذى الشديد . وبالرغم من انه لم يكن يخاف كثيرا على اعماله الخاصة ، فقد قرر ان يفرض السلام على جميع العصابات النيويوركية ، ثم يشيعه في البلاد كلها .

وكان يعرف الخطر الذي تتحمله المهمة التي كان يريد الاضطلاع بها . وقد كرس سنة للاجتماع والتحدث الى مختلف قادة العصابات النيويوركية ، ليسبر نواياهم ويعرض عليهم اقتسام دوائر النفوذ ويرسي اسس نوع من الاتحاد الحر . ولكن العصابات كانت اكثر عددا مما ينبغي ، وكانت مصالح كثيرة تفصل بينها . ولما تبين ان اتفاقا عاما كان مستحيلا ، اتخذ دون كورليون القرار نفسه الذي اتخذه جميع كبار المشرعين في التاريخ : اقامة النظام بتخفيض عدد الاطراف المعنية .

كان ثمة خمس « عائلات » او ست هي اقوى من ان يفكر بالقضاء عليها . اما الآخرون ، ارهابيو الاحياء ، واعضاء « اليد السوداء » المزعومون ، والمرابون المستقلون ، ومتسلمو الرهانات في ميادين السباق غير المستقيمين او العاجزون عن تأمين حماية الشرطة ، جميع هؤلاء كان ينبغي ان يعودوا الى الصواب او يختفوا. وقد انطلق ضدهم في نوع من الحملة الاستعمارية مجندا جميع مواردتنظيمه.

واستغرقت تهدئة المنطقة النيويوركية ثلاثة اعوام من جهده، وكان لها ردود فعل غير متوقعة . فقد كان الحظ اولا ضده . فان فريقا من الايرلنديين الساخطين الخبراء في الهجوم اليدوي المسلح ، والذين كان الدون قد رصدهم للاستئصال ، كادوا ينتصرون عليه . فقد تمكن احدهم خدمته المصادفة وخصوصا جراة اطفال جزيرة الزمرد الانتحارية ، من اختراق نطاق الحرس الخاص وثقب صدر الدون برصاصة من عيار ٩ مليمتر . ولا جدوى من القول انه قد اعدم على الفور . ولكن الاذى قد تم .

على ان هذه المصيبة خدمت سانتينو كورليون . كان ابوه خارج اللعبة ، فتولى قيادة فريق من الجنود ، هم فرقته الخاصة ، ومنح نفسه رتبة « رئيس فرقة » وكشف عن عبقرية في حرب الشوارع اقل صخبا وضجيجا من عبقرية نابوليون في « فالامبير » ولكنها في مثل فعاليتها . كان ذا عنف خارق ، فأظهر وحشية لا هوادة فيها لم يكن قد بلغها ابوه حتى ذلك الحين وكانت تبدو لا غنى عنها للفاتحين العظام .

واكتسب سوني كورليون من ١٩٢٥ الى ١٩٣٧ شهرة المنفذ الامكروالاصلب الذي عرفه وسط الاوباش حتى ذلك الوقت .ولكن كان ثمة شخص مخيف يدعى لوكا برازي كان يكسف شمسه في مادة الارهاب . ولوكا برازي هو الذي انطلق في اعقاب من تبقى من العصابة الايرلندية وصفاهم بمفرده . وحاولت احدى « العائلات » الست القوية ان تتدخل لصالح المستقلين ، فردها برازي وحده الى الصواب باغتيال « دونها » على سبيل الانذار . وبعد قليل ، شفي كورليون من جرحه وعقد السلام مع هذه العائلة .

وابتداء من عام ١٩٣٧ ساد نيويورك سلام منسجم تقطعه بين الحين والحين احداث صغرى ومنازعات مميتة احيانا ، بالطبع .

وعلى غرار سادة المدن القديمة الذين كانوا في الماضي يراقبون القبائل البربرية الشاردة حول الحصون ، كان دون كورليون يتابع يقظة العالم الغريب عن مملكته . وقد لاحظ صعود هتلر وسقوط الجمهورية الاسبانية وطرق الابتزاز التي استعملها هتلر في ميونيخ . ورأى بوضوح حربا عالمية تقترب وسرعان ما ادرك نتائجها . ستكون مملكته اكثر عزلة من قبل ومحمية بشكل افضل . وبالاضافة الى ذلك ، فان الاشخاص المهرة النشيطين القادرين على ان يروا ابعد من انوفهم، ستتاح لهم الفرصة لتجميع ثروات ضخمة . ولكن هذا كله لن يكون ممكنا الا اذا كان وسط الاوباش يعيش في سلام حين يكون العالم الخارجي في حرب .

واراد دون كورليون ان يذيع رسالته على جميع زملائه في الولايات المتحدة فتحادث مع صقليي لوس انجلس وسان فرنسيسكو وكليفلاند وشيكاغو وفيلادلفيا وميامي وبوسطن . وقد نجح رسول سلام البيئة هذا اكثر مما نجح البابوات ، وابتداء من عام ١٩٣٩ توصل الى اقامة طريقة للعيش بين اقوى رجال العصابات في الولايات المتحدة . وقد كان هذا الاتفاق ، كالدستور الفدرالي ، يحترم السيادة المطلقة لكل عضو من اعضائه على دولته او على مدينته . وكان يحدد ببساطة مناطق النفوذ وينص على نظام للتحكيم ليؤمن التفاهم الطيب .

وهكذا فانه حين نشبت عام ١٩٣٩ الحرب العالمية الثانية وجرت اليها الولايات المتحدة عام ١٩٤١ ،كان عالم دون كورليون ينعم بالنظام والسلام اللذين كانا يجعلانه جديرا بقطف نصيبه من قرن الخصب على قدم المساواة مع باقي الصناعات في بلد مزدهر اقتصاديا . وكانت عائلة كورليون ،بفضل علاقاتها ،قادرة على ان تمنح السوق السوداء بطاقات اعاشة ، وطوابع بنزين وحتى افضليات تنقل . وكانت تسهل الحصول على عقود توريدات حربية ، ثم كانت تقدم المواد

الاولية لمصانع الالبسة الجاهزة التي لم تكن تتلقى كميات كافية منها للقيام بتعهداتها او لم يكن لها في ذلك اي حق لانها لم تكن تعمل للدولة . بل لقد نجحت العائلة في تجنيب جميع الشبان الذين كانوا يعملون لصالحها امر التجنيد . وطلب دون فيتو كورليون من الاطباء نصائح عن المخدرات التي ينبغي اخذها قبل الزيارات الطبية ، او وظف محمييه في الصناعة الحربية بصفة معبأين مدنيين .

كان بوسع الدون ، هذه المرة ايضا ، ان يفخر بتنظيمه . كان اولئك الذين قد اقسموا له يمين الولاء في منجى ، بينما كان الاخرون — اولئك الذين كانوا يؤمنون بالقانون والعدالة والشرطه — يموتون بالالوف على ساحات القتال . على انه كان ثمة استثناء واحد : ميخائيل كورليون ، ابنه الاصغر ، الذي رفض ان ينقذ وأصر تماما على الانخراط كمتطوع للدفاع عن وطنه . ولدهشة الدون الكبيرة ، سلك نفس المسلك بعض الشبان الآخرين في تنظيمه . وقد اوضح احدهم موقفه لرئيس فرقته بقوله : « كان هذا البلد طيبا معي » . وحين نقلت هذه العبارة الى دون كورليون صاح مفتاظا : « وأنا ، اتراني لم أكن طيبا معه ؟ » ولا شك في انه كان سيقمع هذاالهرب لو لم يغفر لابنه ميخائيل هربه . من اجل ذلك ، غض النظر عن جميع الشبان الذين كانوا يسيئون الى هذا الحد فهم واجبهم تجاه عرابهم وتجاه انفسهم .

حين أشرفت الحرب العالمية الثانية على نهايتها ، ادرك كورليون ان عليه ان يغير نشاطه ليدمج بشكل اوثق عالمه الصغير مع مجتمع الكل . ولكنه كان يعرف انه لن يخسر في ذلك شيئا . كانت تجربته تتيح له ان يكون واثقا من ذلك .

كان حادثان صغيران من حوادث بدايته قد وضعاه على الدرب . ففي مطلع حياته ، كان نازورين — وكان آنذاك عامل خباز شابا على وشك ان يتزوج — قد طلب معونته . وكان قد اقتصد مع خطيبته ثروة من ثلاثمئة دولار فدفعاها لبائع اثاث بالجملة نصحوهما بالتعامل معه . وكان هذا التاجر قد رافقهما لزيارة مستودعاته ، فأتاح لهما اختيار كل ماكانا يصبوان اليه لتأثيث مسكنهما الصغير : غرفة نوم متينة مع طاولتين ومصباحين ، وصالون يتكون من صوفا وارائك مبطنة تبطينا جيدا ، وكلها مغطى بنسيج غني ذهبي الخيوط . كان نازورين وخطيبته — وهي فتاة طيبة مولودة في ايطاليا — قد قضيا نهارا ممتازا يختاران ديكور مستقبلهما في المستودع الضخم الذي كان يغص بالاثاث . ووعد تاجر الجملة ان يسلم الاثاث في اثناء الاسبوع للشقة المؤجرة واخذ مالهما : الثلاثمئة دولار التي اقتصداها وكسباها بعرق الجبين .

وفي الاسبوع التالي ، افلس التاجر ، فختم على مستودعه بالشمع الاحمر ضمانا لتسديد دائنيه . واختفى المفلس طوال الوقت الذي كان يحتاجه دائنوه ليعبروا عن غضبهم بلا اذى . وقصد نازورين محاميا لاستشارته ، فعلم ان ليس بوسعه ان يفعل شيئا مالم تبت المحكمة بالقضية لصالح جميع الدائنين . وكان هذا يقتضي ثلاثة اعوام ، وسيكون حظ نازورين كبيرا اذا استرد عشرة بالمئة من المبلغ الذي كان قد دفعه .

لم يصدق دون كورليون اذنيه حين سمع هذه القصة . اكان القانون يستطيع ان يسمح حقا بسرقة صريحة كهذه ؟ كان تاجر الجملة هذا يعيش في قصراميري في« لونغ ايسلند » ، ويملك سيارة فارهة ويضع اولاده في الجامعة . فكيف كان يستطيع ان يحتفظ بدولارات عامل الخباز نازورين المسكين ويرفض تسليمه الاثاث الذي دفع ثمنه ؟ كان هذا يتجاوز كل حد ! وطلب فيتو من جانسوابانداندو ان يستشير محامي شركة « جانسو بورا » فثبتوا قصة نازورين . كان تاجرالجملة قد وظف ماله كله باسم زوجته . وكانت تجارته بالاثاث شركة مساهمة لم يكن هو شخصيا مسؤولا عنها . ولا شك في انه حين قبل مال نازورين ، بينما كان يعلم انه على وشك الافلاس ، انما اقام الدليل على نيته السيئة . ولكن ذلك كان تصرفا شائعا لم يكن القانون يعاقب عليه .

وتدبر دون كورليون المسألة برشاقة . فقد ارسل مستشاره جانسو ابانداندو ليحدث تاجر الجملة . وكما كان متوقعا ، فهم رجل الاعمال على الفور وتدبر أمره ليحصل نازورين على اثاثه . ومع ذلك ، فقد كان درسا مفيدا لفيتو كورليون الشاب . ان ما أثار استنكاره اثار اهتمامه وتسليته .

اما الحادث الثاني ، فقد كانت له نتائج ذات مدى ابعد . ففي عام ١٩٣٩ ، أسكن دون كورليون اسرته خارج المدينة . وكان يتمنى ، كجميع الاهل الصالحين، ان يلتحق اولاده بأحسن المدارس ويرتبطوا بصداقة ابناء العائلات الميسورة . وفيما كان يخصه شخصيا ، كان يميل الى اختيار ضاحية غفل لم يكن احد فيها مطلعا على اموره . فاشترى في « لونغ بيتش » ملكا يخترقه ممر مشجر . وفي تلك الفترة، لم يكن قائما في ذلك الممر سوى اربعة منازل ، ولكن كان بالامكان بناء كثير غيرها. وكان المفروض ان يقيم في احد هذه المنازل ابنه الاكبر سوني الذي كان قد خطب ساندرا رسميا . وسيقيم باقي الاهل في منزل آخر ، وجانسو ابانداندو وعائلته في ثالث . اما الرابع فيبقى مؤقتا فارغا .

وكانت اسرة كورليون قد انتقلت منذ اسبوع حين هبط ثلاثة عمال من شاحنة امام البيت ، بشكل بريء . وقدموا انفسهم بصفة مفتشين بلديين لتمديدات التدفئة المركزية . وقد فتح لهم الباب شاب صلب من رجال الدون بينما كانت اسرة الدون تستريح في الحديقة وتستمتع بهواء البحيرة . وقد قادهم هذا الاحمق الى الطابق الارضي الذي كانت تقوم فيه سخانة التدفئة المركزية. وبعد قليل ، اتى الحارس يرافق الدون الى الطابق الارضي ايضا . وكان العمال الثلاثة ، وكلهم متين البنية ، قد فكوا السخانة والموقد والقوا بقطعهما على الارض المملطة . وقال رئيسهم للدون بلهجة قاطعة : « ان تمديداتك بحالة يرثى لها . فاذا شئت ان نعيد تركيبها ، فسيكلفك هذا مئة وخمسين دولاراً ، اجرة يد عاملة وقطع غيار . وبعد ذلك فقط ، نعمد الى التفتيش » وسحب من جيبه بطاقة حمراء واضاف يقول: «سنضع هنا ضربة ختم فتصبح ضمن القانون مع ادارة المقاطعة.»

وكان الدون قد قضى اسبوعا مضجرا ، وجب عليه فيه ان يهمل اشغاله ليهتم بجميع تفاصيل الانتقال . وقد سلته ادعاءات هؤلاء المفتشين ، فسألهم

بخجل ، وهو يجهد في التحدث بلهجة انكليزية رديئة : « واذا لم ادفع ، فما يكون مصير تمديداتي ؟ » فهز رئيس الرجال الثلاثة كتفيه وقال مشيرا الى القطع المعدنية المنثورة على الارض : « سنبقيها على هذه الحالة ..» واجاب الدون ، باللهجة الحية نفسها : « انتظروا ، سآتيكم بالمال . » وعاد الى الحديقة ، فقال لابنه سوني : « هناك اشخاص يتكسبون بالتدفئة المركزية . لا افهم مايريدون. اذهب فاهتم بهم . » ولم يكن في الامر مزاح قط . فقد كان الاب ينوي آنذاك ان يجعل سوني ساعده الايمن . ان على اولاد نقباء الصناعة ان يقدموا براهينهم.

لم يكن حلّ سوني يساير تماما ذوق الدون . كان حلا مفرط المباشرة ، فكانت تعوزه حدة الذهن الصقلية . كان ذلك الفتى يعمل بالمقمعة ، لا بالخنجر. فما ان سمع سوني انذار رئيس المفتشين ، حتى سحب مسدسا من جيبه وامر حراسه بضرب الدخلاء الثلاثة ، ثم اجبرهم على اعادة تركيب السخانة والموقد وتنظيف الارض . وحين فتشهم ايقن انهم كانوا يعملون حقا لحساب مؤسسة لتمديد التدفئة المركزية يقوم مركزها في مقاطعة سوفولك . وسجل اسم المدير، ثم اقتاد الرجال الثلاثة ركلا حتى شاحنتهم : « اذا رايتكم ثانية في لونغ بيتش ، فسوف تغادرونها وبيضاتكم معلقة بآذانكم ! »

كان هذا هو طبع سانتينو الشاب ، قبل ان تجعله سنه اكثر وحشية ،وقبل ان يبسط حمايته على المجتمع الذي كان يعيش فيه . وقد قام شخصيا بزيارةمدير مؤسسة التدفئة المركزية ليوصيه بالا يرسل رجاله بعد الى لونغ بيتش . وما ان اقامت عائلة كورليون مع الشرطة المحلية علاقاتها التجارية المألوفة حتى اخذت تطلع على الشكاوى المتعلقة بالمخالفات المماثلة ، وكذلك على الاضرار التي كان يرتكبها محترفو الجرائم والجنح . وفي اقل من عام ، أصبحت لونغ بيتش مركز التجمع الاهدا والآمن في الولايات المتحدة . وتلقى خبراء الاعتداء اليدوي المسلح والنصابون المختلفون انذارا وحيدا . لم يكن مقبولا منهم غير ذنب واحد . وبعد الثاني ، كانوا يختفون بكل بساطة . وعرف المفتشون البلديون والمحليون للتدفئة المركزية والكهرباء والنشالون الصفار انهم كانوا غير مرغوب فيهم في لونغ بيتش . اما المتفائلون الذي استخفوا بالانذار فقد ضربوا ضربا شديدا حتى كادوا يفقدون جلودهم . واما زعران حانات النبيذ الذين كانوا يظهرون استقلالية مبالغا فيها تجاه القانون والسلطات القائمة فقد استحقوا تأنيبا ابويا : اذا ثابروا على السلوك الرديء ، فعليهم ان يغادروا منازلهم . وهكذا اصبحت لونغ بيتش مدينة نموذجية.

كانت جميع هذه الاحتياطات تسحر دون كورليون لان القانون كان يتساهل فيها . وقد لاحظ اذ ذاك ان مواهبه كانت تتيح له ان يتخذ له مكانا في العالم الآخر لو لم يعش في عهد شبابه المستقيم حياة منعزلة اكثر مما ينبغي . وقد اتخذ التدابير ليستدرك هذا التأخير .

عاشت عائلة كورليون سعيدة على ممر لونغ بيتش المشجر ، وثبت الدون أركان مملكته حتى نهاية الحرب . واذ ذاك فقط اتى « التركي » سولوزو يفسد هذا الامن ، فدفع بعالم الدون الى آلام الحرب ، وارسل فيتو كورليون شخصيا الى المستشفى .

الكتاب الرابع

١٥

في تلك القرية من مقاطعة نيوهامبشاير ، لاحظت ربات البيوت اللواتي يحدقن دائما من النوافذ ، كما لاحظ اصحاب الحوانيت المستندون الى ابوابهم وصول شخص اجنبي ، كما لو ان ذلك ظاهرة من الظواهر . وحين توقفت سيارة سوداء مسجلة في نيويورك امام منزل آل آدامس ، عرف الناس كلهم ذلك في بضع دقائق .

كانت كاي ادامس ، رغم ثقافتها الجامعية ، قد بقيت ابنة القرية . وفيما كانت تتهيأ لامتحانها في غرفتها ، قبل ان تهبط لطعام الغداء ، كانت تلقي بين الحين والحين نظرة عبر النافذة . وما ان شاهدت السيارة تسلك طريقهم ، حتى شعرت غريزيا بان هناك امرا غريبا . ولم تعجب ان تراها تتوقف امام حديقة اهلها الصغيرة . وهبط منها رجلان : شابان قويان مخيفان كانهما لصان من لصوص السينما . وهبطت السلم لتصل الباب بسرعة لانها كانت واثقة انهما كانا قادمين من قبل ميخائيل او اسرته ، ولم تكن تريد ان يتحدثا الى ابيها او الى امها بغير حضورها . صحيح انها لم تكن تخجل من ميخائيل ولا من اصدقائه ، او لعلها كانت تؤمن بذلك على الاقل ، ولكنها كانت تعتبر والديها من اميركيي نوفيل انكلترا ، وهما اكبر سنا واقدم عقلية من ان يفهما ان تعاشر اشخاصا من هذا الطراز .

وبلغت الباب في اللحظة نفسها التي رن فيها الجرس فصاحت لامها : «انا ذاهبة لافتحه » ، واذا بها وجها لوجه امام رجلين ضخمين . وادخل احدهما يده في جيب سترته الداخلي كما ليأخذ منه مسدسا . وباغتت هذه الحركة كاي حتى انها اطلقت صرخة صغيرة . ولكنه بسط حاملة بطاقة فتحها ليريها هويته قائلا :

ـ انا المخبر السري جون فيليبس ، من الشرطة النيويوركية .

ثم اشار الى رفيقه ذي السحنة الداكنة والحاجبين الكثيفين الاسودين ، واضاف :

ـ زميلي المخبر سيراني . انت طبعا الآنسة كاي ادامس ؟

فأومأت كاي برأسها وقال لها المخبر :

ـ هل نستطيع ان ندخل لنتحدث اليك بضع دقائق في موضوع ميخائيل كورليون ؟

فابتعدت لتدعهما يدخلان . وفي تلك اللحظة ، ظهر ابوها على عتبة مكتبه

وقـــال :
ـ ما القضية ، يا كاي ؟
لم يكن السيد ادامس ، وهو رجل رشيق متميز الملامح ذو شعر بلون الفلفل والملح ، راعي الكنيسة المعمدانية للقرية الصغيرة فحسب ، بل كانت شهرته تعالم تمتد الى الاوساط الدينية في المنطقة كلها . ولم تكن ابنته تعرفه قط . كان يثير دهشتها ، ومع ذلك فقد كانت تعرف انه كان يحبها رغم انه كان يوحي بانه لايجدها مثيرة للاهتمام . واذن ، فقد كانت تثق به رغم ضعف علاقتهما الحميمة . واجابته ببساطـة :
ـ هذان السيدان هما مخبران نيويوركيان يريدان ان يستجوباني حـول شاب أعرفه .
واقترح الراعي ادامس من غير ان تظهر عليه اية دهشـة : ـ لندخل الى مكتبـي .
قال المخبر فيليبس : ـ نفضل ان نتحدث الى ابنتك على انفراد .
اجاب السيد ادامس بادب : ـ هذا يتوقف على كاي . او هذا ما اعتقده على الاقل . هل تفضلين ياعزيزتي ان تتحدثي مع هذين السيدين على انفراد ام بحضوري ؟ الا ان تفضلي حضور امك ؟
هزت كاي راسها وقالت : ـ بل وحدي .
قال السيد ادامس لفيليبس : ـ ستكونون اكثر ارتياحا في مكتبي . هـل تبقيان لمشاركتنا الغداء ؟
فهز المخبران راسهما نفيا . ورافقتهما كاي الى مكتب ابيها فجلسا بتحفظ على حافة المقعد ، واتخذت مجلسها في الاريكة الجلدية الكبيرة العزيزة علـى السيد ادامس ، وباشر المخبر فيليبس الحديث :
ـ هل رأيت ميخائيل كورليون خلال الاسابيع الثلاثة الاخيرة ؟ او هل تلقيت من انبائه على الاقل ؟.
كانت هذه الكلمات تكفي لتجعل كاي على حذر . كانت صحف بوسطن قـد اذاعت قبل ذلك بثلاثة اسابيع ، تحت عناوين صاخبة ، مقتل نقيب في الشرطة النيويوركية وشخص آخر يدعى فيرجيل سولوزو ، تاجر مخدرات . وكان الخبر يربط بين هذه الجريمة وبين حرب للعصابات كان يعتقد ان عائلة كورليون تشارك فيهـــا .
اجابت كاي : ـ لا . اعتقد انني لم اره مرة اخرى منذ شهر . حين افترقنا، كان ذاهبا لرؤية ابيه في المستشفى .
قال سيراني بلهجة قاسية : ـ نحن مطلعون على لقائكما ذلك اليوم . هل رايته ثانية منذ ذلك التاريخ ، او بلغتك أنباؤه ؟
اجابت كاي : ـ لا .
وتدخل فيليبس بصوت دمث : ـ اذا عاد فاتصل بك ، فاننا نتمنى ان تخبرينا. يهمنا جدا ان نجتمع به . ان واجبي يفرض علي ان احذرك من هذا : ان علاقاتك

مع هذا الشاب يمكن ان تؤدي بك الى وضع شائك جدا . واذا قدمت له اية مساعدة ، فستلحق بك متاعب خطيرة .

وانتصبت كاي في مقعدها وسألت : ــ ولماذا لا اساعده ؟ اننا سنتزوج . والازواج ملتزمون بالحب والتعاون .

وكان المخبر سيراني هو الذي رد عليها : ــ اذا ساعدته تصبحين شريكة في جريمة . اننا نبحث عن صديقك لانه قتل نقيبا في شرطة نيويورك ومخبرا كان يرشد هذا النقيب . نحن « نعرف » انه صرع هذين الرجلين .

انفجرت كاي ضاحكة بقدر من الصراحة وعدم التصديق ترك اثره في نفس المخبرين :

ــ ان مايك لن يفعل شيئا كهذا . انه لم يسبق له قط ان تدخل في شؤون العائلة . حين ذهبنا الى عرس اخته رايت بعيني كيف كان يعامله اهله كأنه غريب ، كأنه دخيل ، مثلي انا . واذا كان الآن مختبئا ، فلكي يتجنب ببساطة مزج اسمه بفضيحة . ان مايك ليس لصا شريرا . انني اعرفه خيرا منكما ، بل خيرا من جميع الناس . انه شاب الطف من ان يرتكب عملا حقيرا كعمل القتل . وانا لا اعرف من يحترم القانون اكثر منه ، ولم افاجئه قط وهو يكذب .

سألها فيليبس بهدوء : ــ منذ متى تعرفينه ؟

اجابت كاي ــ منذ عام .

وادهشها ان ترى محدثيها يبتسمان . وقال فيليبس :

ــ ارى من واجبي ان أطلعك على بعض التفاصيل . ذلك المساء الذي حدثتنا عنه ، حين تركك ليذهب الى المستشفى حيث كان ابوه ، تنازع مع نقيب في الشرطة كان واجبه يدعوه الى ذلك المستشفى نفسه . وقد قام ميخائيل كورليون باعتداء على هذا الموظف ، ولكنه لم يتغلب عليه . واوضح انه خرج من ذلك بكسر في فكه وخسارة بعض اسنانه . وقد رافقه اصدقاؤه الى منزل عائلة كورليون في لونغ بيتش . ومساء اليوم التالي ، قتل نقيب الشرطة الذي كان قد تضارب معه واختفى ميخائيل كورليون . نعم ، اختفى . ان لنا علاقات ومخبرين ، وجميعهم يقولون ان ميخائيل كورليون هو القاتل . ولكننا لا نملك بعد الادلة لاحالته على القضاء . ان خادم المطعم الذي شاهد عملية القاتل لم يتعرف مايك في الصورة . ولكنه يستطيع ان يتعرفه اذا رآه بلحمه وعظمه . وسائق سولوزو يرفض ان يتكلم ، ولكنه سيصبح اكثر فصاحة اذا وضعنا يدنا على ميخائيل كورليون . واذن ، فان شرطة نيويورك كلها تبحث عنه ، وكذلك جميع عملاء وكالة الاستخبارات . انه مطارد . حتى الآن لم يسعفنا الحظ ، ولكننا كنا نأمل ان تضعينا على أثره .

اجابت كاي ببرودة : ــ انني لا اصدق كلمة من هذه القصة كلها .

ومع ذلك ، فقد انقبض قلبها حين قيل لها ان مايك قد تحطم فكه . ولكنها كانت مقتنعة انه لن يرتكب عملية قتل من اجل هذا السبب التافه .

وسألها فيليبس : ــ اتوافقين على ابلاغنا اذا اتصل بك مايك ؟

فنفضت كاي راسها سلبا . وقال المخبر الآخر ، سيراني ، بصوت قاس :

– نحن نعرف انكما تنامان معا . ان عندنا سجلات فنادق وشهودا . فاذا عرفت الصحف ذلك ، وتسرب الانباء ممكن دائما ، سيكون ابوك وامك منزعجين جدا . ان شخصين محترمين مثلهما لن يفخرا بفتاة تتعامل مع عضو في عصابة. واذا لم تعترفي على الفور ، ناديت اباك واخبرته .

حدجته كاي بنظرة مذعورة ، ثم نهضت فاتجهت الى الباب وفتحته . ورات أباها يدخن غليونه قرب نافذة الصالة فنادته :

– هل تستطيع ان تأتي معنا ، يابابا ؟

فابتسم لها وانضم اليهم . وفيما كان يجتاز عتبة الباب وضع يده على خاصرة بنته ثم واجه المخبرين وسألهما : « نعم ، يا سيدي ؟ » واذ لم يرد احدهما، قالت كاي ببرودة لسيراني :

– أخبره ، يا سيدي !

فاحمر رجل الشرطة ، ثم قال : – ياسيد ادامس ، اكلمك في صالح ابنتك. لقد تورطت مع رجل شرير ارتكب ، وفقا لمعلوماتنا ، جريمة قتل ذهب ضحيتها موظف في الشرطة . وانا اقول لها انها اذ ترفض التعاون معنا ، فمن الممكن ان تواجه متاعب خطرة . ولكن لا يبدو عليها انها تدرك ان الامر خطير . فلعل بامكانك ان تقنعها .

قال السيد ادامس بأدب : – يبدو لي هذا غير قابل للتصديق .

تقدم فك سيراني السفلي الى الامام وقال :– ان ابنتك وميخائيل كورليون يخرجان معا منذ اكثر من عام . وقد قضيا عدة ليال في الفنادق وتسجلا فيها كزوجين .ونحن نبحث عن ميخائيل كورليون بتهمة قتله موظفا في الشرطة . وترفض ابنتك ان تعطينا اية معلومات يمكن ان تفيدنا . هذه هي الوقائع ، وانت حر ان تعتقد انها غير صحيحة ، ولكننا نستطيع ان نثبتها لك .

قال السيد ادامس بهدوء : – لست اشك بكلامك ياسيدي . ولكن ما يبدو لي غير قابل للتصديق ان تواجه ابنتي متاعب خطرة . الا ان يكون في كلامك ما يوحي بان تكون ابنتي ... (واعترف الاب بتعبيره بأنه غير عالم بعلم المصطلح)عضوة في عصابة ؟ او ربما كانت هناك كلمة اخرى ؟

كانت كاي تراقب اباها ، متحجرة . كانت تعرف انه كان يسخر من رجلي الشرطة على طريقته ، ولكنها ما كانت لتتصور قط ان يحمل قضية خطيرة كهذه على محمل الاستخفاف .

واستطرد السيد ادامس بلهجة حاسمة : – مهما يكن من امر ، كونا على ثقة بأنني سأبلغ السلطات فورا اذا ابرز هذا الشاب طرف انفه هنا . وستفعل ابنتي مثل هذا ايضا . والآن ، ارجو ان تعذرانا لان غداءنا يبرد .

ورافق الشرطيين الى الباب بمجاملته المألوفة واغلقه بالرتاج ، ثم اخذ كاي من ذراعها ليتجها الى المطبخ ، في الطرف الآخر من الرواق وهو يقول :

– تعالي يا حبيبتي . انامك تنتظرنا .

حين دخلت كاي المطبخ ، كانت تبكي بصمت لفرط ما وجدت في محبة ابيها

وتكتمه من عزاء . وبدا على السيدة آدامس انها لم تلاحظ دموع ابنتها ، فاستنتجت كاي ان اباها كان قد اطلعها على امر زيارة المخبرين السريين . وجلست فقدمت لها امها الطعام بلا كلام . وحين جلسوا الى المائدة ، ضم ابوها يديه وخفض عينيه ليتلو « صلاة المائدة » .

كانت السيدة ادامس ، القصيرة اللحيمة ، دائمة الزينة والتزوق . ولم يسبق لكاي قط ان لاحظت اقل اهمال في مظهرها . وكان يخيل اليها كذلك ان امها لم تكن تهتم بها قط ، بل تتحفظ في علاقتها بها . وقالت السيدة ادامس :

ـ لا جدوى من جعل القصة مأساة ، يا كاي . لا بد ان ذلك ضجيج كثير بلا فائدة . لقد قام هذا الشاب بدراسته في دار تـ رث ، فلا يمكن ان يتورط بعملية قذرة كهذه .

انتفضت كاي : ـ دارتسموث ؟ من قال لك ان مايك كان فيها ؟

اجابت امها بهدوء يكاد يكون ساخرا :ـ تعتقدون انتم الشبان انكم خبثاء حين تحيطون انفسكم بالاسرار . لقد كنا على معرفة بالامر منذ البداية ، ولم نقل عنه شيئا لاننا لم نكن ننوي التحدث فيه قبلك .

سألت كاي :ـ ولكن كيف عرفتماه ؟

ولم تكن تجرؤ بعد على النظر الى ابيها منذ عرف ، بحضورها ، انها كانت تنام مع مايك . فلم تره يبتسم وهو يقول :

ـ اننا بالطبع ، نفتح رسائلك .

استفظعت كاي الامر . ان ما فعله هنا ادعى للخجل من اثمها بالذات . وجرؤت في سورة غضبها على مواجهته ، بالرغم من انها لم تكن تصدق الامر تماما :

ـ لا ، لم تفعل ذلك ، يابابا ، هذا مستحيل .

ابتسم لها السيد ادامس قائلا :ـ صدقيني انني لم اتصرف بخفة . كنا امام اشكال : اما ان نفتح رسائلك او لا نعرف شيئا من الاخطار التي كان يمكن لابنتنا الوحيدة ان تتعرض لها . وقد قمنا باختيار بسيط وفاضل .

وقالت السيدة ادامس بين لقمتين من فروج مسلوق :

ـ اذا حسبنا كل حساب ، فانت ياحبيبتي بريئة براءة فظيعة بالنسبة لسنك . كان يجب ان نقف على الوضع . ولم تكوني تحدثيننا عنه قط .

بريئة ! وتذكرت كاي آنذاك كم كان ميخائيل متحفظا في رسائله . من حسن الحظ ان ابويها لم يكونا قد فتحا الرسائل التي كانت تكتبها له . اية حماقات لم تستسلم لها في تلك الرسائل !

ـ لم اكن احدثكما عنه لاني كنت أخشى ان تحدث عائلته ذعرا عندكما .

قال السيد ادامس بفرح :ـ خوفاً ، على الاقل ، صدقينا . وبعد كل حساب ، هل اتصل ميخائيل بك ؟

ـ لا . ولكني واثقة من انه غير مذنب على الاطلاق .

ورات ابويها يتبادلان نظرة لم تفهم مغزاها . ثم قال لها الأب بحنان :

ـ اذا لم يكن مذنبا وقد اختفى ، فربما يكون قد حدث له شيء .
لم تفهم كاي على التو ، ثم نهضت عن المائدة وركضت تحتمي بغرفتها .

بعد ثلاثة ايام ، ترجلت كاي من سيارة اجرة عند مدخل الممر المشجر لآل كورليون في لونغ بيتش . وكانت قد جابرتهم فقالوا انهم في انتظارها . وكان توم هاجن هو الذي استقبلها عند الباب . فخاب ظنها وحدست على الفور انه لن يقول لها شيئا . وقد صحبها الى غرفة الاستقبال وقدم لها شرابا . وكانت لمحت شخصين او ثلاثة في تلك الانحاء لم يكن بينهم سوني . وسألت توم بلا مقدمات:
ـ اتعرف اين هو مايك ؟ كيف استطيع ان اتصل به ؟
ـ نعرف فقط انه في حالة جيدة ، ولكننا نجهل مكانه الآن . ومنذ ان علم بمقتل النقيب ، خشي ان يتهم به ، فقرر ان يتخفى . وقد وعدني ان يوافيني بأنبائه خلال بضعة اشهر .
لم تكن هذه الرواية كاذبة فحسب ، ولكن هاجن كان يقصد الى افهامها انه لن يقول لها اكثر من ذلك . وسألته كاي :
ـ أصحيح ان هذا النقيب قد حطم فكه ؟
ـ اخشى ان يكون هذا صحيحا . ولكن مايك لم يسبق له قط ان كان حقودا . ولا شأن لتلك المنازعة بما حدث بعد ذلك ، انا واثق من هذا .
فتحت كاي محفظة يدها واخرجت منها مغلفا : ـ هل لك ان توصل اليه هذه الرسالة بمجرد ان تعرف مكانه ؟
هز هاجن رأسه سلبا وقال :ـ اذا قبلتها ورددت انت ذلك امام القاضي ، فهذا يعني انني مطلع على روحاته وغدواته . الافضل اذن ان تنتظري قليلا . انني واثق انه سيعلن عن حياته .
افرغت كاي قدحها ونهضت . فرافقها هاجن الى الباب . وحين فتحته ، دخلت امراة ، قصيرة سمينة ، وكانت تلبس السواد . وعرفت كاي فيها ام ميخائيل فمدت لها يدها وقالت :
ـ صباح الخير ايتها السيدة كورليون . كيف حالك ؟
تأملتها عينا السيدة كورليون الصغيرتان السوداوان لحظة من زمن ثم جعدت بسمة نصفية وجهها الذي كانت بشرته تشبه جلدا مفروكا بزيت الزيتون . ولم تكن تلك البسمة ، على تحفظها ، تفتقر الى الحرارة . وقالت بلكنة ايطالية لم تكد كاي تفهمها :
ـ انت صديقة ميخائيل الصغيرة ؟ هل تأكلين شيئا ؟
فأومأت كاي نفيا لتعبر عن انها لا تريد شيئا ، ولكن السيدة كورليون أخذت ترعد ضد توم بالايطالية وانهت بالانكليزية :
ـ لماذا لا تقدم القهوة الى هذه الفتاة المسكينة ؟
واخذت كاي من يدها بحيوية مدهشة وقادتها الى المطبخ :
ـ خذي قهوة وتناولي شيئا ، ثم يوصلك بعضهم الى بيتك . فتاة لطيفة

مثلك لا تركب الترام .

واجلست كاي ، ووضعت معطفها وقبعتها على مسند كرسي ، وبعد لحظات وضعت المائدة والخبز والجبن والسلامي ووضعت ركوة من القهوة في زاوية الموقد . قالت كاي بخجل :

ــ جئت اطلب اخبارا عن كاي . لا ادري ما آل اليه . ان السيد هاجن يقول لي ان ليس ثمة من يعرف مكانه ، ولكنه سيعود الى الظهور بعد حين .

وتدخل توم هاجن بسرعة :ــ لا نستطيع أن نقول اكثر من ذلك ، يا « ماما ».

فصفعته السيدة كورليون بنظرة مليئة بالاحتقار :

ــ انت الآن تقول لي ما يجب ان اعمله ؟ ان زوجي لا يقول لي ماذا يجب عليّ ان افعل . شفاه ألله ! (ورسمت اشارة الصليب)

وسألت كاي : ــ كيف حال السيد كورليون ؟

ــ جيد . ولكنه شاخ . واصبح شاردا . لقد اصابته مصيبة .

وربتت على جبينها بلا اي احترام ، وصبت القهوة واجبرت كاي على ان تأكل خبزا وجبنا . وبعد ان انتهيا من شرب القهوة ، اخذت السيدة كورليون يدي كاي بين يديها الاثنتين السمراوين المجعدتين وقالت لها :

ــ ان مايك لن يكتب . ولن تحصلي على اخباره . سوف يختبيء عامين ، ثلاثة اعوام . وربما اكثر . عودي الى أسرتك وابحثي لك عن شاب طيب فتزوجيه.

ومن جديد ، سحبت كاي الرسالة من محفظة يدها :ــ هل تريدين انترسلي له هذا ؟

فأخذت السيدة العجوز الرسالة وربتت على خد كاي وهي تقول « بالتأكيد بالتأكيد » وهم هاجن بان يحتج ، ولكنها ردعته بالايطالية . ثم اقتادت كاي حتى الباب وقبلتها في خدها قبلة صغيرة وهي تقول :

ــ انسي مايك . انه ليس زوجك بعد .

كان في انتظارها سيارة جلس رجلان في مقعدها الامامي . وقد اوصلاها حتى فندقها في نيويورك من غير ان ينبسا بحرف . ولزمت كاي الصمت .كانت تحاول ان تتعود على واقع انها كانت تحب رجلا قادرا على الاغتيال بكل رباطة جأش . وقد عرفت ذلك من اقل المصادر قابلية للنقاش : ام ميخائيل .

١٦

كان كارلو ريزي يجتر حقدا معمما على العالم كله : حقد الاحمق الابله حقا. انه لم يكد يتزوج ابنة من آل كورليون ، حتى الفى نفسه مبعدا الى طريق مرائب : وظيفة بائسة في مكتب لتسلم الرهانات في ميدان سباق بالحي الشرقي من مانهاتن . وكان قد وعد نفسه ببيت من بيوت الممر المشجر ، في لونغ بيتش ،لانه كان يعرف ان بوسع الدون ، اذا شاء ، ان يجعل بعض السكان هناك ينصرفون عن رضى . وكان قد تصور انه سينفذ الى جميع أسرار « العائلة » حين يقيم هناك. ولكن العراب كان يرفض ان يعطيه حقه . ولم يكن الدون الكبير يبدو له كبيرا بعد على الاطلاق . لم يكن يرى فيه بعد الا عجوزا مسكينا ثقبه الرصاص في عرض الشارع ، كسمكة شبوط . وكان يرجو ان يقضي القرد القديم نحبه من ذلك .ولقد كان سوني رفيقه في الماضي ، فاذا أصبح سيد « العائلة » ، فلا شك في انه سيوافق على ترقية كارلو .

ونظر الى زوجته وهي تصب القهوة . اية كارثة هذه المراة ! انها بعد خمسة اشهر فقط من الزواج ، كانت منتفخة الى حد الانفجار . ايطالية الشرق الحقيقية!

ومد يده فجس فخذ كوني السمينة ، فابتسمت له ، فقال لها باحتقار:

ــ انك أسمن من سمكة تروتة !

وابتهج اذ رأى الى اي حد كان يحزنها : لقد سالت الدموع على خد زوجته. انها برغم كونها ابنة الدون الكبير ، زوجته كذلك ، ملكه . وقد كان بامكانه ان يعاملها على كيفه . وكان الدوس على امرأة من آل كورليون كأنها ممسحة يمنحه شعورا من قوة .

كان قد استولى عليها منذ البدء ، بل حتى منذ ليلة العرس . كانت قد ارادت ان تحتفظ لنفسها بكيس النقود الذي كان يحتوي الهدايا العينية لمدعوي العرس . ولم يعترف لها قط بما فعله بهذا المال . كان ذلك يسبب له متاعب . ومع ذلك ، فانه لم يكن يحس من ذلك بأي ندم ، حتى بعد مرور خمسة اشهر ، كان قد فرقع زهاء خمسة عشر الف دولار على حلبة سباق الخيل وعلى مؤخرات المشلات .

واذ أحس بان كوني كانت تراقبه ، أبرز عضلاته وهو يمد ذراعه الى صحن الفطائر الذي كان موضوعا على الطرف الآخر من الطاولة . كان قد التهم صحن البيض بلحم الخنزير ، ولكنه كان رجلا متين البنية ، وكان بحاجة الى طعام وافر. وكان كارلو ريزي يعي انه كان يمنح زوجته وجها استثنائيا : ليس هو وجه

الايطالي ذي البشرة السمينة السمراء ، بل وجه اشقر ذي شعر ذهبي مقصوص واقفا ، وذراعين مشعرين ، وكتفين عريضتين فوق قامة دقيقة . كان يعرف انه كان جسديا اقوى من جميع الصلبين المزعومين الذين كانوا يعملون في خدمة العائلة : اشخاص ككليمنزا وتيسيو وروكو لامبون وذلك الاحمق بولي الذي صرع . وتساءل عن سر هذه الحكاية . ثم فكر بسوني ، من غير سبب مفهوم . لم يكن سوني يخيفه كرجل ، بالرغم من انه كان اطول منه قليلا واثقل . بل ان ماكان يذعره ، انما هي شهرة ابن عمه . ومع ذلك ، فلقد كان يراه دائما خفيفا مرحا طيب المزاج . أجل ، كان صديقه . ولعل الامور ان تترتب عند موت الدون .

احتسى كارلو قهوته بهدوء . كان يشمئز من منزله ، فقد كان معتادا على منازل الغرب الاوسع . سيكون مجبرا عما قليل على عبور المدينة ليذهب فيشرف على تسلم المراهنات ظهرا ، وهي لحظة اطلاق الرصاصة . وكان اليوم يوم احد، وكان الرهان يجري خصوصا على البيسبول . ولكن كان هناك ايضا مفضلو السلة وهواة القفز على الجياد . وتنبه تدريجيا لروحات كوني وغدواتها وادار اليها رأسه ليرى ماكانت تفعل .

كانت تلبس على طراز الايطاليين النيويوركيين ، وهذا ماكان ينفر منه : ثوب حريري ذو عروق كبيرة ، مشدود على الوسط بزنار ، مع كمين منتفخين . وكانت تضع ايضا اساور واقراطا شديدة اللمعان . وكان ذلك يجعلها تشيخ عشرين عاما . وسألها :

ــ الى اين تنوين الذهاب ؟

فأجابته ببرودة : ــ لرؤية ابي في لونغ بيتش . انه لا يستطيع بعد ان ينهض، وهو محتاج الى رفيق .

سألها بدهشة : ــ الا يزال سوني هو الذي يدير الحفلة ؟

اجابت وهي تصطنع هيئة مذعورة : ــ اية حفلة ؟

صرخ وقد جن جنونه : ــ ايتها القحبة الصغيرة المقملة ! لا تحدثيني بهذه اللهجة والا اجهضتك بركلات حذائي !

استولى عليها الخوف فزاد غضبه . ونهض بقفزة واحدة فصفعها . وتركت الضربة الاولى اثرا احمر على خدها . ثم صفعها بسرعة ودقة ثلاث صفعات اخرى. ورأى شفتها العليا المشقوقة تنتفخ وتنزف . وهدأه ذلك . لم يكن يريد ان يترك اثرا على وجهها . وهرعت الى غرفتها ، فصفقت الباب وسمع المفتاح يدور . انفجر ضاحكا وعاد الى الجلوس لينهي قهوته .

ودخن حتى ساعة ارتداء الملابس . اذ ذاك طرق الباب وصرخ :

ــ افتحي والا كسرت الباب . (لا جواب) هيا افتحي ، يجب ان ارتدي ثيابي .

وسمعها تنهض فتأتي الى الباب وتدير المفتاح . وحين دخل ، كانت توليه ظهرها . وعادت الى السرير فاستلقت عليه ، مديرة وجهها الى الجدار .

ولبس بسرعة فلاحظ آنذاك انها لم تكن مرتدية بعد الا سروالها . كان

حريصا على ان تذهب لرؤية ابيها ، على امل ان تحمل له من لونغ بيتش بعض المعلومات :

ــ ماذا دهاك ؟. ان صفعة صغيرة لم تقتلك ، يابلهاء ؟!

ــ لا اريد ان اخرج .

كان صوتها منتحبا . وازعجه ذلك فقبض على كتفها واجبرها على الالتفات. وادرك اذ ذاك لماذا لم تكن تريد الخروج ، وفكر أن ذلك افضل : لا شك في ان صفعاته كانت اقوى مما ظن ، فقد كان خدها الايسر مبقعا وشفتها متورمة مبيضة، بحيث كانت هيئتها خشنة فظة ..

وقال : ــ حسنا .ولكني سأعود متأخرا . ان عندي عملا يوم الاحد .

وهبط السلم ، فوجد ورقة مخالفة بخمسة عشر دولارا بين المساحة والدرّاءة في سيارته ، فوضعها مع كثير غيرها في صندوق القفازات . كان منطلق المزاج ، فقد كان صفع هذه الصبية المدللة الحمقاء يعود عليه دائما بالخير . كان ذلك يمحو جزئيا الكبت الذي كان يحسه لسوء معاملة آل كورليون له .

كان قد قلق في المرة الاولى التي ترك فيها أثرا على وجهها . فقد مضت توا الى لونغ بيتش لتذهب فتري أباها وامها عينها المكدومة . وحين عادت ، اظهرت رقة مدهشة : الزوجة الايطالية الصغيرة الممتازة . وفي الاسابيع القليلة التالية جهد هو ايضا ليكون الزوج الممتاز ، وليعاملها معاملة جيدة ، وان يدللها ويضاجعها صباح مساء . واخيرا ، ظنا منها انه كان قد اصبح عاقلا ، إعترفت له بما حدث مع ذويها : انهم لم يظهروا لها اي تعاطف ، بل لقد بدا وكأن ما اصابها كان يسليهم. وبعد أن هزئوا بها ، أشفقت امها عليها ، بل طلبت من الاب ان يرد كارلو ريزي الى الصواب ، فرفض قائلا : « صحيح انها ابنتي ، ولكنها متزوجة وزوجها يعرف واجباته . في البلد ، حتى الملك لا يسمح لنفسه بالتدخل في العلاقات بين الزوج وزوجته . عودي الى منزلك ، يا ابنتي ، وحاولي ان تتصرفي تصرفا حسنا حتى لا يكون ثمة بعد مبرر لضربك . » وسألت كوني اباها ، مغتاظة : « هل سبق لك ان ضربت زوجتك ؟ » كانت الولد المدلل للدون وكانت وحدها تسمح لنفسها بمثل هذه الجراة . واجابها : « لا ، لانها لم تعطني اي سبب لتأديبها . » ووافقت الام على كلامه وهي تبتسم .

وكشفت كوني لذويها ان كارلو كان قد سلبها هدايا المدعوين الى العرس ورفض أن يشرح لها ماذا فعل بذلك المال . وهز الاب كتفيه وقال : « لو تبدّت زوجتي مزهوة بنفسها الى هذا الحد ، لفعلت معها مثل ذلك . » وعادت الى منزلها مذعورة مستاءة . لماذا كان الاب باردا هكذا مع ابنته الحبيبة ؟

ولكن الدون لم يكن قد اخذالقضية بالاستخفاف الذي جعل ابنته تعتقده. فقد استعلم وعرف ما كان يفعل كارلو ريزي بالوف الدولارات المهداة الى العروسين. وقد كلف رجلين من رجاله الموظفين في ميدان رهانات كارلو ريزي ان يطلعا هاجن على حركات صهره وتصرفاته . ولكنه لم يتدخل ، موقنا انه لن يستطيع ابدا ان يغير موقف زوج يخاف عائلة زوجته ، وآثر الاستنكاف ، نظرا الى ان الوضع

لا يمكن الامساك به . وحين علم ان كوني حامل ، ابتهج لتحفظه ، لانه لم يكن ثمة بعد ما يفعل حقا .واشتكت كوني بعد ذلك الى امها من عدة ضربات اخرى نالتها، فانتهى الامر بالسيدة كورليون ، وقد احذها القلق ، الى مفاتحة زوجها بذلك. بل تحدثت كوني بأمر الطلاق ، فكان ان غضب من ابنته للمرة الاولى : « ان كارلو هو ابو ولدك . ما مصير هذا الصغير على الارض ان لم يكن له اب ؟ »

حين عرف كارلو ذلك ، استرد ثقته : ليس له ما يخشاه . بل لقد تفاخر امام « كاتبي » مكتب رهاناته – سالي راغز وكوش – بما كان يوجه الى زوجته من ضرب وتقريع حين كانت ترفع اليه انفا وقحا اكثر مما ينبغي . وكانت هيئتهما المذهولة لما يسمعانه من انه كان يجرؤ على اساءة معاملة ابنة الدون كورليون الكبير تجعله يطير فرحا .

ولقد كان من شأن ريزي ان يقلق اكثر من ذلك لو انه عرف نوبة الغضب التي استبدت بسوني كورليون حين اطلع على هذه الوقائع . وقد كان لابن عمه ان يعامله على طريقته لو لم يكن الدون قد منعه بقسوة كبيرة كان سوني نفسه يخافها. ومع ذلك ، فقد كان سوني يتجنب ريزي منذ ذلك الحين خشية ان يفقد برودة دمه . وعلى اي حال ، فقد اجتاز كارلو ريزي المدينة ، في ذلك الصباح الجميل من يوم الاحد ، حتى الشارع السادس والتسعين ، في الايست سايد . ولم يلمح سيارة سوني متجهة في الاتجاه المعاكس ، نحو منزله .

كان سوني كورليون قد ترك حماية الممر المشجر مساء اليوم السابق وقضى الليل في المدينة مع لوسي مانسيني . وكان يتحرك آنذاك بحماية اربعة حراس خاصين : اثنان منهم في سيارة تسبق سيارته والآخران في سيارة ثالثة تتبعه . ولم يكن بحاجة الى احد بجانبه لانه كان يستطيع وحده ان يجابه خصما منفردا . وكان بعض رجاله يسكنون في شقتين قائمتين في الطابق نفسه الذي كانت لوسي تسكنه . فهو لم يكن اذن يخاطر كثيرا حين يزورها ، شريطة الا يتردد عليها كثيرا. وحين استقل سيارته ، صباح ذلك الاحد ، فكر بأن يقصد منزل اخته كوني ليصحبها الى لونغ بيتش . وكان يعرف ان كارلو سيكون في مكتب الرهانات ، وان هذا القمل لم يكن قد قدم سيارة لزوجته . واذن فسيتكفل هو بنقلها .

واعطى الوقت لرجلي السيارة المتقدمة ان يدلفا الى المبنى ودخل وراءهما. ورأى رجلي السيارة الثالثة يقفان خلف سيارته ويراقبان ما حولهما . وهو نفسه كان متنبها . لم يكن ثمة حظ على مليون ان يعرف اعداؤه انه كان في المدينة،ولكن المرء ليس دائما يقظا بما فيه الكفاية . كانت حرب ١٩٣٣ قد علمته ذلك .

ولم يكن يستعمل قط المصعد الذي كان يعتبره شركا للقتل . فكان ان رقي ثماني دورات من الدرج بكل سرعته وطرق باب اخته . وكان قد شاهد كارلو يستقل السيارة وانها ستكون وحدها . ليس من جواب . وطرق الباب ثانية، فسمع اذ ذاك اخته تسأل بصوت خائف :

– من هناك ؟

واذهلته تلك اللهجة . كانت ابنة كورليون قد تبدت حتى ذلك الحين في مثل صلابة سائر افراد العائلة. فما عساه يكون قد حدث لها؟ وقال : « انا سوني » وزلق المزلاج في القفل ثم انفتح الباب وارتمت كوني بين ذراعيه وهي تبكي. وقد شلته المفاجأة لحظة . ثم ابعدها عنه ، ورأى وجهها المتورم وسرعان ما فهم .

وشنج الغضب وجهه . وكان يهم بالتهام السلم ليلحق بالزوج ، ولكن كوني تشبثت به واجبرته على الدخول الى الشقة . ولم تكن بعد تلك اللحظة تبكي من الشقاء بل من الخوف . كانت تعرف طبع اخيها الكبير ، وكان يذعرها. من أجل هذا لم تكن تشكو اليه كارلو قط . اما هذه المرة ، فقد كان يعرف كل شيء .

قالت : ــ انها غلطتي . لقد بدات أوجه أليه المآخذ ، وصرخت ، وحاولت ان اضربه . ولم يكن ينوي تأديبي على هذا النحو ، ولكنني هجت اكثر مما ينبغي .

واستردت سحنة سوني البلدية بعض الطبيعية في التعبير ، فسألها :

ــ هل تريدين ان تري العجوز اليوم ؟

فلم تجب ، وكان ان اضاف : ــ كنت احسب انك ستزورينه ، فرايت ان امر لارافقك . كنت في المدينة .

قالت وهي تهز راسها نفيا : ــ لا اريد ان يراني البابا والماما في هذه الحالة. سأذهب اليهما في الاسبوع القادم .

قال سوني : ــ حسنا . (ورفع سماعة التلفون في المطبخ وركب رقما) انني استدعي طبيبا . فسوف يفحصك ويعالجك . يجب ان تكوني حكيمة ، وانت في هذا الوضع . متى يولد طفلك ؟

ــ بعد شهرين . ولكن ابتهل اليك يا سوني ، لا ترتكب حماقات .

فانفجر سوني ضاحكا . وكانت القسوة تشوه قسماته حين اجاب :

ــ لا تخافي . لن يكون طفلك يتيما ، بسبب غلطتي ، قبل ان يولد .

وقبل خد اخته السليم ، ومضى .

كانت السيارات شرقي الشارع المئة والاثني عشر واقفة في صف مزدوج امام متجر الحلويات الذي كان كارلو ريزي يتخذ فيه مكتب الرهانات . وكان الآباء يلعبون لعبة القط مع اطفالهم الذين كانوا قد اصطحبوهم صباح ذلك الاحد. وحين راوا كارلو ريزي يطل ، كفوا عن التسلية وابتاعوا المثلوجة ليجعلوا اطفالهم هادئين . ثم اخذوا يدرسون الصحف على امل معرفة الفرق التي ستربح اشواط البيسبول في النهار .

اجتاز كارلو المخزن متجها الى الدكان الخلفي . وكان « كاتباه » سالي راغز ، وهو رجل عصبي قصير ، وكوش ، وهو شاب سمين متين ، مستعدين للعمل . وكانا قد وضعا سجلاتهما الكبيرة امامهما لتسجيل الرهانات . وكانت اسماء الفرق الرئيسية الست عشرة التي كانت تلعب البيسبول ذلك اليوم مكتوبة على

اللوح الاسود القائم على حمالة . وكانت لوائح المقامرين تشير الى الفرق المتبارية . وكان حيّز حر يسمح بتسجيل حظوظ الفوز .

سأل كارلو كوش : ـ هل التلفون موصول بجهاز التنصت اليوم ؟

قال كوش وهو ينفي براسه : ـ لا ، ليس اليوم .

فاتجه كارلو الى الجهاز الجداري وركب رقما . وتأمله سالي راغز وكوش دون حراك ، بينما كان يسجل حظوظ الفوز بالبينسبول ذلك النهار . وراقباه كذلك حين ذهب يكتبها على اللوح . ولم يكن كارلو يعرف ذلك ، ولكنهما كانا قد سجلا حظوظ الفوز ، وكانا يكتفيان آنذاك بمراقبته . ففي الاسبوع الاول الذي اخذ فيه كارلو مكتب الرهانات هذا ، ارتكب غلطة وهو ينقل التقديرات على اللوح الاسود ومنح اللاعبين بذلك « نصف » ما يحلمون به . ان « نصفا » يسمح للهاوي ان يراهن اكيدا شريطة ان يغطي نفسه برهن معاكس لدى متسلم رهانات آخر. ووحده الذي ارتكب الخطأ يمكن ان يخسر في ذلك . وقد كانت غلطة كارلو ، تلك المرة ، بستة الاف دولار . وكانت تلك الغلطة هي ما ثبت لدى الدون حكمه المتشائم على صهره . ومنذ ذلك اليوم ، اصدر أمره بمراقبة كل ما كان يقوم به كارلو.

ولم يكن اعضاء عائلة كورليون يهتمون عادة بمثل هذه التفاصيل التافهة . فقد كانت خمسة حواجز متعاقبة تفصلهم عن ميدان العمليات . ولكن بالنظر الى ان مكتب الرهانات ذاك كان بمثابة ارض اختبار للصهر . فان توم هاجن كان قد اخذه تحت رقابته المباشرة ، وكان « الكاتبان » يقدمان له تقريرا يوميا .

ونظرا الى ان حظوظ الفوز كانت مسجلة ، فقد تدفق المقامرون الى الدكان الخلفي لمتجر الحلويات ليقيدوها على جرائدهم مؤشرين على اسماء القاذفين المحتملين الاول . وكان البعض يمسكون بايدي اولادهم فيما هم يراجعون اللوح الاسود . وقد سال احدهم ابنته الصغيرة ، وكان ممن يراهنون بمبالغ كبيرة :

ـ من تفضلين اليوم ، ياحبيبتي ، « العمالقة » ام « القراصنة » ؟

فاجابت الفتاة ، وقد سحرتها هذه الاسماء الفاقعة : ـ هل « العمالقة » اقوى من « القراصنة » ؟

فضحك الاب. وتشكل صف الانتظار امام الكاتبين . وحين كان احدهما يملأ صفحة ، كان ينتزعها ويطويها على المال الذي كان قد قبضه ويسلمها الى كارلو الذي كان يخرج من الساحة ويصعد الى الطابق الاعلى حتى يبلغ شقة تاجر الحلوى . وكان ينقل تلفونيا المراهنات الى مكتب التعويض المركزي ويضع المال في صندوق صغير مخبا خلف ستائر النافذة . وكان يهبط بعد ذلك الى الدكان الخلفي بعد ان يكون قد احرق ورقة المراهنات واخفى رمادها في المرحاض .

ولم تكن مباريات الاحد تبدأ قبل الساعة الثانية بعد الظهر . وبعد جمع آباء الاسر الذين كانوا يراهنون في ساعة مبكرة ليتاح لهم بعد ذلك أن ياخذوا اولادهم الى الشواطىء ، وصل العزّاب والمهووسون الحقيقيون الذين ، بدافع من شغفهم بالقمار ، يحكمون على عائلاتهم بقضاء نهار الاحد في المدينة . وكان

هؤلاء يراهنون بمبالغ اضخم ، وكان عدد منهم يعودون حوالي الساعة الرابعة ليراهنوا من جديد على مباريات الثأر التي كانت تقام في نهاية النهار . صحيح ان بعض الازواج الصالحين كانوا يتلفنون من الشواطيء ليحاولوا التعويض عن خسائرهم ، ولكنهم العزّاب هم الذين كانوا يشغلون كارلو يوم الاحد .

حوالي الواحدة والنصف خف ضغط العمل بما يكفي كارلو وسالي راغز ليخرجا فيتنشقا الهواء ، جالسين على درجات سلم المبنى ، الى جانب متجر الحلويات . ونظرا الى الاطفال يلعبون لعبة الجوكاري . ومرت سيارة شرطة ، فلم يهتما بها . كان مكتبهما للرهانات يتمتع بحماية مفوضية الشرطة ، ولم يكونا عرضة لاي وشاية من سكان الحي . ولم تكن كبسة من رجال الشرطة ممكنة الا باوامر عليا ، وحتى في هذه الحالة ، سيبلغ متجر الحلويات في الوقت المناسب.

وخرج كوش بدوره . وثرثر الثلاثة فترة حول البيسبول والنساء . وقال كارلو بفرح :

— لقد وجب عليّ ان اؤدب زوجتي الشرعية اليوم لأريها من هو السيد .

قال كوش بتحفظ : — لا بد انها الآن منتفخة بما فيه الكفاية .

قال كارلو : — لم اعطها الا بعض الصفعات ، من غير ان اتلفها (وقطب قليلا ثم قال) هي تتصور انها ستجرني من انفي . وهذا لا يصح معي .

كان ثمة بعض المقامرين المنتشرين في الانحاء . كانوا يذرعون الرصيف وهم يتبادلون آراءهم عن البيسبول . وكان اخرون قد جلسوا على درجات السلم فوق كارلو وكاتبيه . وفجأة ، قفز الاطفال الذين كانوا يلعبون في الطريق الى الرصيف. كانت ثمة سيارة قادمة بمثل العاصفة . وقد توقفت توقفا مفاجئا امام متجر الحلويات حتى ان عجلاتها هدرت . وما كادت تقف حتى انبثق منها رجل .انه سوني كورليون .

لم يكن وجهه الكوبيدوني ذو الفم الشهواني الا قناعا من غضب . وبلحظة واحدة ، قبض على كارلو ريزي من عنقه فرفعه محاولا ان يجره الى الشارع . ولكن كارلو امرّ ذراعيه العضلتين حول حاجز السلم وتشبث به وهو يفرق راسه بين كتفيه المرفوعتين . وبقي نصف قميصه بين اصابع سوني.

وتبع بعد ذلك مشهد يثير الاشمئزاز : اخذ سوني يطرق راس كارلو بكلتا قبضتيه شاتما اياه بصوت كان يجعله الغضب اجش . وبالرغم من قوة كارلو الجسمانية الهائلة ، فانه لم يحاول القيام بأية حركة للمقاومة ولم يطلق اية صرخة احتجاج ، حتى ولو ليطلب الصفح . وامسك كوش وسالي راغز عن التدخل . كانا مقتنعين بان سوني سيقتل صهره ، فلم تكن لديهما رغبة بان يشاركاه مصيره. وتحجر الاولاد الدين كانوا قد اقبلوا ليشتموا سائق السيارة الذي بث فيهم الرعب. كانوا صغارا اشقياء ، ولكن وجه سوني الغاضب احالهم على الصمت . وفي هذه الاثناء ، توقفت سيارة اخرى خلف سيارة سوني وخرج منها قردان . واذ رايا ما كان يحدث ، لم يجرؤا على التدخل ، ولكنهما بقيا على استعداد ليحميا رئيسهما اذا جاء احد لنجدة كارلو .

كان خضوع كارلو التام هو ما يجعل القضية منفرة . وربما كان ذلك ايضا هو ما انقذ حياته . كان متشبثا بحاجز السلم . فكان يحول بذلك دون ان يجره سوني حتى الشارع ويضربه في وجهه . لم يدافع عن نفسه بالرغم من انه كان في مثل قوة سوني ، وترك الضربات تهطل على راسه ورقبته ، مؤملا ان ينتهي الامر بجلاده الى الهدوء . واخيرا انحني سوني نحو صهره ، وقد اخذه التعب، فقال لـه :

ــ اذا ضربت اختي مرة اخرى ، فسوف اقتلك ايها الخنزير القذر .

وعند هذه الكلمات استرد الجميع سكينتهم ، لان سوني ماكان ليطالق التهديدات لو كان فينيته حقا ان يقتله . كان يتكلم على هذا النحو بدافع من غيظ انه لا يستطيع ان يصفي صهره . ولم يتحرك كارلو . لقد ظل جامدا ، متشبثا بالحاجز بكلتا يديه . الى ان هدرت سيارة سوني . وقال له كوني بلهجة ابوية غريبـة :

ــ كفى ، ياكارلو ، تعال الى الحانوت . لا نبق تحت الانظار .

واذ ذاك فقط ، ترك كارلو الحاجز وانتصب واقفا . فراى الاولاد ينظرون اليه بهيئة من آلمهم ان يشهدوا اذلال اخ لهم في البشرية . كان يحس بعضالدوار، ولكن سبب ذلك كان الصدمة والخوف اكثر منه الضربات . لم يكن مصابا بجروح خطيرة . وقاده كوش من ذراعه حتى الدكان الخلفي ووضع له ثلجا على جبينه. لم يكن جلد الراس ولا الرقبة مصابين بجروح ، ولكن كانت له حدبات كبيرة في كل مكان . واذ تلاشى خوف كارلو احس بمذلته فأخذه منها الغثيان . وامسك كوش براسه فوق المغسلة ثم ساعده على الصعود الى الشقة ، كما لو كان ثملا . ومدده في احدى غرف النوم . ولم يلاحظ كارلو اختفاء سالي راغز . كان هذا قد اسرع الى الجادة الثالثة ليتلفن الى روكو لامبون عما حدث . ولم يظهر روكو اي دهشة ، ونقل الخبر الى رئيس فرقته ، بيتر كليمنزا ، الذي دمدم : «يا لسوني هذا ولطبعه الفظ ! » ولكنه كان قد وضع اصبعه على التلفون بحيث ان روكو لم يسمع عبارته هذه .

واتصل كليمنزا بهاجن في لونغ بيتش . وفكر توم لحظة ثم قال :

ــ إرسل بعض رجالك واكبر عدد ممكن من السيارات الى طريق لونغبيتش، باقصى سرعة ، لمواجهة الموقف اذا أعيق سوني بالسير او بوقوع حادث . حين يكون في تلك الحالة ، لا يعرف بعد ماذا يفعل . وربما عرف بعض اصدقائنا نبأ وجوده في المدينة .

اجاب كليمنزا بلهجة شك : ــ سيصل سوني قبل ان يتحرك رجالي.وكذلك الشأن بالنسبة لاسرة تاتاغليا .

قال هاجن ضابطا اعصابه :ــ أعرف ذلك . ولكن اذا حدث شيء استثنائي، فان سوني سوف يتأخر . حاول جهدك ، يابيتر .

واتصل كليمنزا على مضض بروكو لامبون وامره بارسالرجال في سيارة ليقوموا بالدورية على طريقلونغبيتش.اما هو شخصيا فقد ركبسيارته العزيزة الكاديلاك

مع ثلاثة من قروده كانوا يقومون عنده بدور حامية . واتجه الى نيويورك مارا بجسر اتلنتيك بيتش .

كان أحد المراهنين الذين كانوا يتسكعون حول متجر الحلويات مخبرا مأجورا لعائلة تاتاغليا ، وقد خابر من كان على اتصال معه ، ولكن عائلة تاتاغليا لم تكن قد عرفت أن تستعد للحرب . وقد كان لا بد لصاحب النبأ ان يجتاز جميع الحواجز قبل ان يبلغ رئيس الفرقة الذي نقل النبأ الى رئيس « العائلة » وفي تلك اللحظة، كان سوني كورليون قد وصل الى منزل ابيه ، في لونغ بيتش ، وكان في وضع حرج لان الدون سيقابل ذلك العمل الطائش باستياء بالغ .

١٧

بدت حرب ١٩٤٧ بين عائلة كورليون والعائـلات الخمس المتحدة مكلفـة للمعسكرين .وكانت الشرطة تفاقـم الامور وتعقدها من جـراء اغتيال النقيب ماكلوسكي . وقد كان كبار موظفي الشرطة يتقبلون « نصائح » السياسيين الذين كانوا يحمون القمار والقوادة . ولكن هؤلاء السياسيين بالذات وجدوا انفسهم في هذه الحالة الخاصة ، مضطربين حائرين كضباط اركان حرب كان جيشهم يقـوم بعمليات السلب والنهب مع مباركة ضباط ثانويين .

وقد أصاب غياب الحماية عائلة كورليون بأقل مما اصاب خصومها . ذلـك ان معظم مواردها كانت تأتي من المقامر ورهانات سباق الخيل واليانصيب السري. وقد اغار رجال الشرطة على بائعي التذاكر بالتهريب او من باب لباب ، فضربـوا وسجنوا . بل لقد عثرت الشرطة كذلك على بعض اماكن لسحب اليانصيب كانت تدعى « مصارف » فهاجموا بكبسات مدمرة . وكان ان اشتكى « أصحاب المصارف» الذين كانوا يعتبرون انفسهم مزدوجي العيار الى رؤساء الفرق . ونوقشت القضية في مجلس « العائلة » الاستشاري . لم يكن ثمة من علاج . وهكذا نصح «اصحاب المصارف » بأن يوقفوا نشاطهم بانتظار مناسبات افضل . وورث بعض الزنـوج العمل لمصلحتهم الخاصة في هارلم ، الحي الذي كان يعود باكبر الموارد في اليانصيب وقد عملوا بشكل متوزع حتى ان الشرطة لم تستطع ان تقبض عليهم الا بصعوبة.

وبعد موت النقيب ماكلوسكي ، نشرت بعض الصحف مقالات تتهمه بانـه كان متواطئا مع سولوزو . بل ذهبت الى التأكيد ، مستندة الى البراهين ، بأن ماكلوسكي هذا كان قد قبض براطيل كبيرة من المال قبل موته بقليل . وكان توم هاجن هو الذي يقدم هذه المعلومات خفيـة الى الصحف . وقـد رفضت ادارة الشرطة ان تؤكد او تنفي ، ولكن هذه الاتهامات فعلت فعلها . وردد مخبرو «العائلة» وشرطتها السرية امام الجميع ان ماكلوسكي كان نصابا . وقد كان موظفو الشرطة، في مجموعهم ، يجدون من الطبيعي ان يقبل احدهم الرشوة شريطة الا يكون للمال رائحة . ولكن يبدو ان ماكلوسكي كان قد قبض مالا قذرا جدا : هو الذي يأتي من المخدرات او من الاغتيالات . وكان هذا شيئا لا يغتفر في اخلاقيات الشرطـة المألوفـة .

وكان هاجن يفهم عقلية الشرطة . ان الشرطي يحترم القانون ولكن بسذاجة غريبة . وهو يوليه من الاهمية عادة اكثر مما يوليه الجمهور ، لان القانون ، بعـد كل حساب ، هو مصدر سلطته . والحال ان كل فرد حريص على المحافظة علـى

سلطته الشخصية . ومن جهة اخرى ، فان الشرطي هو في خدمة الجمهور ،وهو يغذي الضغائن تجاه من يستغله . ان الجمهور هو في الوقت نفسه معلمه وفريسته فهو بصفته معلما ، عاق ، ويتطلب منه اكثر مما يجب . وهو بصفته فريسة ، خطر ، غادر ، هرّاب . فما ان يحرك الشرطي العادي او الشرطي السري الآلة التي يودعها اياه المجتمع ليحمي الجمهور ، حتى يجند هذا الجمهور كل موارده ليحرمه من نصره . هناك سياسيون فاسدون وقضاة يطبقون الحد الادنى من العقوبة ، ويمنحون وقف التنفيذ لاسوا النصابين . وحكام الولايات ورئيس الولايات المتحدة نفسه يوقعون على قرار العفو عن الذين لم يستطع افضل المحامين ان يبرئوا ساحتهم ويطلقوا سراحهم .

ان الشرطي ، بعد ان يكون قد قضى فترة من الزمن وهو يفكر في مصاعب المهنة ، يطرح على نفسه اسئلة . لماذا لا يقبض حصته من الجزية التي يدفعها اللصوص ؟ انه اشد حاجة اليها من السياسيين والقضاة . لماذا لا يذهب اولاده الى الجامعة ؟ لماذا لا تتبضع زوجته من أحسن المحلات ؟ ولماذا لا يذهب هو نفسه فيذهّب بشرته في فلوريدا حين يموت بردا في نيويورك ؟ انه اكثر حاجة الى ذلك ، وهو يتعرض لاخطار اكبر . ان حياته في خطر . وليس في الامر مزاح .

ومع ذلك ، فان الشرطي يضع عادة خطا فاصلا واضحا بين البرطيل المقبول والاستنتاج القذر . انه يقبل مال رهانات سباق . ويقبل كذلك مال شخص يستفظع دفع المخالفات الناتجة عن موقف ممنوع او افراط في السرعة . ولقاء حظوة صغيرة مناسبة ، يترك المومسات يقمن باعمالهن على الارصفة وفي الحانة او المواعيد التلفونية . ان هذه ليست الا خطايا غير مميتة ، هي جزء من الطبيعة البشرية . ولكنه بالاجمال لا يتورط في عمليات مخدرات او سرقة مسلحة او اغتصاب أو قتل او افساد من كل نوع . ان هذه الجرائم في ذهنه تلغم سلطته الشخصية ، فلا يمكن اذن قبولها .

واغتيال نقيب في الشرطة يأخذ في نظره خطورة قتل ملك . ولكن حين علم ان ماكلوسكي كان بمعية مهرب مشهور للمخدرات ساعة قتله ، وانه كان متهما بالتواطؤ في محاولة قتل ، سقطت شهية الانتقام لدى رجال الشرطة . ثم ان الوضع لم يكن قد تغير . كان لا بد كالسابق من دفع اقساط الرهونات السنوية وكمبيالات السيارات ، واطلاق الاولاد في العالم . ولولا مال « الورقة » ، ما كان بوسع رجال الشرطة ان يقوموا بمصروفهم الا بمشقة كبيرة . لم يكن المخالفون الصغار يؤمنون الا دخلا تافها ، وهكذا فان رجال الشرطة الذين كانوا يشعرون بالضيق الشديد في امر معاشهم يستفيدون من ملفات المشبوهين المسجونين (الشاذين جنسيا والاشقياء الذين قبض عليهم وهم يمارسون اعمال العنف) . وبدأ الرؤساء انفسهم يتغاضون ، ولكنهم رفعوا تعرفتهم ليتركوا « للعائلات » مجال العمل . ومن جديد ، ضربت « ورقة » مفوضية الشرطة على الآلة الكاتبة ، وقيد المكلف بهذه المهمة المدفوعات اليومية التي كان يقدمها أولئك الذين كانوا يتمنون الحماية ، وهكذا

استطاع كل شرطي ان يحسب ما سوف يقبضه في آخر الشهر . وبالاختصار ، تمت العودة الى ظاهر من النظام الاجتماعي .

كان هاجن هو الذي اقترح اللجوء الى شرطة سرية خاصة لضمان سلامة الدون في غرفته بالمستشفى . وقد قدم لهم يد المعونة طبعا اشرس قاتلي فرقة تيسيو الأجورين . ولكن هذا لم يكن يكفي سوني . وحين اصبح بالامكان نقل الدون ، حوالي منتصف شباط ، اعادته سيارة اسعاف الى منزله في الممر المشجر . وكان البيت قد اعيد ترتيبه ، وكانت جميع المعدات الضرورية لعملية مستعجلة قد هيئت في غرفة النوم التي حولت الى غرفة مستشفى . واختيرت ممرضات جرى تحقيق دقيق بشأنهن لتأمين خدمة مستمرة طوال اربع وعشرين ساعة في اليوم . وقبل الدكتور كندي ، مقابل راتب ضخم ، لقب الطبيب الخاص المقيم للدون ، حتى يدخل هذا الاخير دور النقاهة على الاقل .

كان سوني قد جعل الممر المشجر أشبه بحصن لا يقهر . وكان سكان جميع البيوت قد ذهبوا في اجازة الى مسقط راسهم بايطاليا ، مدفوعة لهم كل الاجور ، ليخلوا مكانهم للمنفذين . وكان فريدي كورليون قد ارسل الى لاس فيغاس ليسترد صحته وليتعرف كذلك الى ارض العمليات التي كانت « العائلة » تنوي استغلالها في الفنادق ــ الكازينوات الفاخرة التي كانت قد بدأت تنتشر فيها . وكانت لاس فيغاس تشكل جزءا من مملكة الشاطيء الغربي الذي كان ما يزال محايدا . وكان « دون » تلك المملكة قد ضمن سلامة فريدي . ولم تكن العائلات النيويوركية الخمس لتضيف الى اعبائها عبئا جديدا بمطاردة فريدي حتى لاس فيغاس . كان عندها ما يكفيها من العمل في نيويورك .

ومنع الدكتور كندي اي نقاش حول الاعمال بحضور الدون الذي لم يول ذلك اية اهمية واصدر امرا بان تنعقد المجالس الحربية الاستشارية في غرفته . ومنذ المساء الاول لعودته ، اجتمع امام سريره سوني وتوم هاجن وكليمنزا وتيسيو .

كان دون كورليون ما يزال اضعف من ان يتكلم ، ولكنه كان يريد ان يصغي وان يعبر أحيانا عن معارضته . وحين علم ان فريدي كان قد توجه الى لاس فيغاس ليتدرب على اسرار الفنادق ــ الكازينوات ، وافق بايماءة من راسه . ولكن حين اخبر بان برونوتاتاغليا كان قد قتل على يد احد منفذي عائلة كورليون ، هز راسه نفيا وتنهد . وكان اكثر ما اثر في نفسه ان يكون ميخائيل قد صرع سولوزو والنقيب ماكلوسكي وان يكون متخفيا ، منذ ذلك الحين ، في صقلية . فما كان منه الا ان طرد الجميع من غرفته ، بحركة من يده . واستؤنف الاجتماع في مكتب عمله المزود بكثير من كتب الحقوق .

استرخى سوني كورليون في الاريكة الضخمة ، خلف مكتب أبيه وقال :

ــ ارى ان نترك العجوز يرتاح مدة خمسة عشر يوما ، الى ان يقرر الطبيب انه اصبح قادرا . (وصمت لحظة) واود ان احرك الاشغال قبل شفائه . ان رجال الشرطة يعطوننا الضوء الاخضر . الهدف الاول : اعادة عمليات مصارف اليانصيب

في هارلم . لقد انتهز الزنوج فرصتهم الذهبية . فعلينا الآن ان نلعب دورنا . لقد اتلفوا كل شيء ، كعادتهم دائما حين يهتمون بأمر من الامور . وهناك موزعون كثيرون لم يدفعوا للرابحين حقوقهم . انهم يشاهدون وهم يتنزهون بسياراتهم الكاديلاك ويروون للمقامرين انهم سيقبضون مالهم فيما بعد ، او انهم لا يدفعون الا نصف الربح . انني لا اريد ان تظهر على محترفينا مظاهر الغنى الفاحش . لا اريدهم ان يتأنقوا في ملابسهم اكثر مما ينبغي ، ولا ان تكون لهم سيارات جديدة . اريد ان يفوا كل ديونهم واريد خاصة ان احذف القناصة الذين يسيء عدم استقامتهم الى سمعتنا . ابدأ العمل ، يا توم . ويكفي ان تعلم الناس ان الشرطة ترخي لنا العنان حتى يعود كل شيء الى النظام .

قال هاجن : — ان في هارلم بعض الاقوياء الصلبين . لقد تذوقوا الكعكة الكبيرة ، فلن يقبلوا بعد بالفتات .

قال سوني بهدوء : — أعط كليمنزا اسماءهم ، فسيعيدهم الى الصواب . هذا من اختصاصه .

قال كليمنزا لهاجن : — ليست هناك مشكلة .

وكان تيسيو هو الذي اثار اهم مسألة : — ما ان نبدأ السير حتى تضع العائلات الخمس العصي في دواليبنا . ان رجالهم سينهبون مصارفنا في هارلم ومكاتب رهاناتنا في الايست سايد . بل ربما ارهقونا في نقابات الملابس الجاهزة التي نحميها . ان هذه الحرب ستكلفنا غاليا .

قال سوني : — ربما لا . ان العدو يعرف اننا سنرد ضربة بضربة . وقد اقترحت مفاوضات سلام . ولعل بامكاننا ان نتدبر الامور بدفع تعويض عن مقتل الفتى تاتاغليا .

وتدخل هاجن : — لم تبدأ المفاوضات بعد . وهؤلاء السادة ينظرون من عل الى مبعوثينا . لقد خسروا مالا كثيرا في الاشهر القليلة الماضية ويلقون مسؤولية ذلك علينا ، وهم على بعض الحق . وهم يريدون ، في رايي ، ان نشترك بتهريب المخدرات ليستغلوا نفوذنا السياسي . وبعبارة اخرى ، يريدوننا ان نقبل اقتراح سولوزو ، بلا سولوزو . ولكنهم لن يعلنوا اتجاههم قبل ان يكبدونا بعض الخسائر . فهم يأملون ان نصبح اكثر تعقلا حين تكون الضربات القاسية قد اضعفتنا .

قال سوني بجفاء : — لا فائدة من الكلام بالمخدرات . لقد قال الدون لا ، وسيظل الامر لا حتى يغير هو نفسه رايه .

فرد هاجن : — يجب اذن ان نواجه مسألة تكتيكية خطيرة . ان مصادر دخلنا قابلة للجرح : مكاتب الرهانات واليانصيب . وعائلة تاتاغليا تعيش على البغاء ونقابات عمال الاحواض . فكيف نهاجمها في هذه الميادين ؟ صحيح ان العائلات الاخرى تستفيد من القمار ، ولكنها تضخ المال خاصة من النقابات والربى والسمسرة على طلبات الادارات . بالاختصار ، ان مواردهم ليست في متناولنا ، بينما مواردنا معروضة في الشارع . وحانة عائلة تاتاغليا اكثر شهرة من ان نستطيع لمسها . ولو فعلنا لانبعثت رائحتها الكريهة . وما دام الدون خارج اللعبة ، فان نفوذ الخصوم

السياسي يساوي نفوذنا . هذه هي المسألة ، وهي خطيرة .

قال سوني : ـ ولكنها مسألتي انا ، يا توم . سأجد الحل لذلك . تابع جس النبض لاجتماع صلح ، وواصل تحريك الاعمال . وسنرى آنذاك ما يحدث فتكون ردود فعلنا وفق الظروف . ان كليمنزا وتيسيو يملكون من الجنود ما يكفي ليواجهوا العائلات الخمس مفرقعة بمفرقعة . واذا ارادوا الحرب ، انتقلنا الى الفرش .

ولم تكن ثمة صعوبة في الزام القناصة الزنوج في اليانصيب حدودهم . فقد كفى ارشاد الشرطة اليهم فتولت امرهم . في ذلك الوقت ، لم يكن الزنجي يستطيع ان يرشو شرطيا كبيرا او سياسيا ليؤمن حمايته . كانت تلك الظاهرة تعزى الى الافكار المسبقة المتعلقة بالعرق والى الحذر القائم بين الاجناس . ولكن علي اي حال لم تكن هناك هموم كثيرة بالنسبة لهارلم .

وقد ضربت العائلات الخمس في ارض غير متوقعة . فقد اغتيل قائدان قويان من قادة نقابات الملابس الجاهزة الذين كانوا في خدمة عائلة كورليون . وطرد من حي عمال الاحواض متسلمو الرهانات ومرابو العائلة . وكانت نقابات عمال الاحواض قد هجرت عائلة كورليون لتنضم الى العائلات الخمس . وفي كل مكان من المدينة ، طورد متسلمو رهانات كورليون وارهقوا بالتهديدات لاجبارهم على تغيير معسكرهم . وكذلك اغتيل اكبر صاحب مصرف في هارلم ، وهو صديق قديم وحليف لعائلة كورليون . لم يكن ثمة خيار بعد ، وكان ان امر سوني رؤساء فرقه بالذهاب الى الفرش .

استأجر كليمنزا وتيسيو شقتين لم يضعا فيهما الا الفرش وبرادا لحفظ المآكل . ولكن هاتين الشقتين ملئتا كذلك بالاسلحة والذخائر . وقد عسكر فيها المنفذون ، واصبح كل مكتب لتسلم الرهانات تابع للعائلة محميا بفريق من الاشداء . ولكن الاوان كان قد فات بالنسبة ليانصيب هارلم : كان اصحاب « المصارف » قد انتقلوا الى صفوف العدو ، وكان لا بد من انتظار تغير اتجاه الريح لاسترداد تلك الارض .

كانت جميع هذه التدابير تكلف عائلة كورليون غاليا ، بينما كان الدخل ضعيفا . وبعد بضعة اشهر اتضحت الامور ، فتبين خاصة ان عائلة كورليون كانت تتعرض لمخاطر جسيمة . وكان لذلك عدة اسباب : كان الدون ما يزال اضعف صحة من ان يهتم بالاعمال ، فنتج عن ذلك انحسار لجزء كبير من نفوذه السياسي . وكانت عشرة اعوام من الحياة الهادئة قد اوهنت بشكل واضح مزايا كليمنزا وتيسيو القتالية . صحيح ان كليمنزا كان ما يزال مديرا ومنفذا من طراز اول ، ولكنه كان قد فقد حيوية الفتوة التي كانت تفعل العجائب سابقا وهو على راس فرقة . وكذلك تيسيو ، فانه بسبب تقدمه في السن ، كان قد فقد بعض شراسته . ولم يكن توم هاجن ، بالرغم من مزاياه ، المستشار الصالح لزمن الحرب ، خاصة وانه لم يكن صقليا .

كان سوني كورليون يدرك ما يلحق بالعائلة من مظاهر الضعف . ولكنه لم يكن يستطيع ان يعالجها ، بالرغم من حالة الحرب . ولم يكن يحق له ، وهو لا يقوم

مقام الدون الا موقتا ، ان يستبدل رؤساء الفرق ولا المستشار . ومن جهة اخرى ، فان مسألة الفصل او الابعاد مسألة على غاية الخطورة ، لان الضغينة تدفع احيانا الى الخيانة . وفي اول الامر ، كان سوني قد فكر ان يقوم بمعركة مؤخرة لاعاقة تقدم العدو الى ان يتمكن الدون من العودة الى القيادة . ولكن ارتداد اصحاب مصارف هارلم والارهاب الذي كان يثقل على مكاتب متسلمي الرهانات في المدينة كلها كانا يجعلان الوضع ضعيفا . وعزم ان يضرب ضربة كبيرة

في الضربات الكبيرة ، كانت الفعالية تكمن في بلوغ العدو في صميم راسه . وقد دبر عملية معقدة ليقتل في وقت واحد رؤساء العائلات الخمس . ولهذه الغاية ، جعل يتعقبهم ويراقبهم . ولكن العدو اكتشف الامر ، فلجأ الرؤساء الخمسة الى التخفي ، ولم يروا بعد بين الناس .

كانت الحرب بين العائلات الخمس ومملكة الكورليون قد دخلت في طريق مسدود .

١٨

كان اميريفو بوناسيرا يعيش على مقربة من متجر شؤون الجنائز الذي كـان يشرف عليه ، في مالبوري ستريت . وكان يعود دائمـا ليتناول العشاء في منزله. ثم كان يرجع الى متجره ليشارك في السهرة الجنازية للموتى الراقدين في غرف صالاتـه .

كان يفتاظ من النكات التي كان يسمعها في موضوع مهنته ، ولا سيما فـي التفاصيل التقنية التي لا اهمية لها . ولم يكن ثمة احد من اصدقائه او من اعضاء اسرته او جيرانه يسمح لنفسه بمثل هذه التجاوزات معه . ليست هناك مهنـة بليدة ، وجميع المهن التي تؤمن الخبز اليومي بعرق الجبين ، تستحق الاحترام ابدا.

وها نحن نجد بوناسيرا في شقته الفاخرة الفنية الاثاث المليئة بتماثيـل العذراء مريم تحت اجراس زجاجية تشتعل امامها بلا انقطاع شمعدانات صغيرة . ويشعل بوناسيرا سيكارة « كامل » ويتمدد وهو يشرب كاس ويسكـي اميركيـة . وتحمل زوجته حسائية حارة فتضعها على الطاولة . انهما وحيدان بعد الآن . فقد ذهبت ابنتهما تعيش عند عمتها ، في بوسطن . فهناك سوف تنسى بشكـل أيسر مغامرتها الرهيبة والجروح التي اصابها بها شقيان عرف كورليون كيف يعاقبهما .

وسألته الزوجة فيما هي تشرب الحساء : ـ هل تعود للعمل هذا المساء ؟

اجاب اميريفو : نعم .

كانت السيدة بوناسيرا تحترم مهنة زوجها ، ولكنهـا تسيء فهمها . وكانت لا تدرك بصورة خاصة ان العمليات التقنية كانت أقل العمليات أهمية . وكانت تتصور كمعظم الجهلة ، ان الناس كانوا يدفعون لزوجها لقاء البراعة التي يستعملها في اظهار الجثث وكأنها حية في توابيتها . والواقع ان موهبته في ذلك كانت اسطورية . ولكن حضوره بلحمه وعظمه في سهرات الموتى كان ذا وزن اكبر . فان كل عائلة محزونة حين كانت تدخل مساء الى غرفة الموتى لتستقبل الاهل والاصدقاء عنـد الجثمـان الممدد ، كانت محتاجة الى اميريفو بوناسيرا .

كان يفمّي الموت بقسوة . ومع ذلك ، فقد كان وجهه الحاد يعكس قوة مشجعة. وكان يقود الطقوس الجنائزية بصوت خافت ولكنه آمر . وكان يهدّيء ببراعة الآلام الصاخبة اكثر مما ينبغي ، ويعيد الى الصواب الصبيان الوقحين الذين لم يكن الاهل يجرؤون على تهذيبهم . ولم يكن يلح قط الحاحا ثقيلاً في التعازي ، ولكنه كـان يتحفظ من كل لا مبالاة . وحين يكون بوناسيرا قد ارسل ميتا للدفن ، فان الاسرة كانت تعدو اليه دائما في اللاحقين . لم يكن يترك قط زبائنه خلال آخر ليلة لهـم

رهيبة على الارض .

وكان غالبا ما يأخذ لنفسه سنة من النوم بعد العشاء . ثم كان يغتسل ويحلق بسرعة ويكثر من ذرور الطلق على وجهه ليخفي الآثار السوداء في ذقنه . وكان يغسل فمه ، ويغير دائما ثيابه : قميص ذو بياض لماع وربطة عنق سوداء وجوربين اسودين . ثم كان يرتدي بذلة مكوية حديثا وحذاء ذات سواد خشن . وهذه الهيئة تبدو كئيبة بما فيه الكفاية ، ولكنها كانت مهدّئة . وكان بوناسيرا يصبغ شعره بالاسود : خفة غريبة بالنسبة لايطالي من جيله . ولكن ذلك لم يكن بدافع من غرور . ذلك ان شعره كان مع الوقت قد اتخذ لون الفلفل والملح ، وهو لون بلدي جدا بالنسبة لمهنته .

وبعد الحساء قدمت له زوجته شريحة من لحم البقر مع عدة ملاعق من الاسبانخ السابح في زيت مذّهب . كان يأكل بخفة . وحين انتهى الطعام شرب فنجان قهوة ودخن سيكارة اخرى ، وهو يفكر بابنته الشقية . انها لن تكون بعد ابدا هي نفسها . صحيح ان جراحين بارعين قد اعادوا لها جمالها ، ولكنها كانت تحتفظ بنظرة حيوان مطارد لم يكن ابوها يحتملها . وهكذا ارسلها ابواها الى بوسطن لفترة من الزمن ، ولا بد في اخر الامر ان تشفى تماما . وكان بوناسيرا في مكان مناسب ليعرف ان الالم والذعر كان يخشى منهما اقل مما يخشى من الموت . كانت مهنته تجعله متفائلا .

وكان قد انهى فنجان قهوته الاخير حين رنّ جرس التلفون في الصالة . ولم تكن زوجته تردّ قط اذ يكون هو في المنزل . ونهض وهو يسحق سيكارته . وحين كان متجها الى التلفون حل ربطة عنقه وبدأ يفك ازرار قميصه تمهيدا لاستراحته اليومية القصيرة . ورفع السماعة وقال بادب : « الو » .

كان الصوت ، في الطرف الآخر من الخط ، قاسيا : ــ هنا توم هاجن . اني اخابرك من قبل دون كورليون .

احسّ اميريغو بوناسيرا بطعم قهوته يصبح مرّا في معدته واخذه من ذلك ما يشبه الغثيان . هذا اكثر من عام يمضي على دينه للبادرينو . وقد كان ينسى هذا الدين . وحين كان قد رأى وجهي الشابين الداميين ، كان مستعدا ليقوم باية تضحية من اجل الدون . ولكن قرض الزمن اسرع على العرفان منه على الجمال . وفي تلك اللحظة استشعر بوناسيرا استياء شخص تتهدّده كارثة ، فدمدم :

ــ نعم . انني استمع .

وادهشته لهجة هاجن الباردة . كان المستشار قد بدا دائما مجاملا ملاطفا بالرغم من انه ليس ايطاليا . ولكنه في ذلك اليوم كان يتحدث بخشونة :

ــ انك مدين بخدمة للدون . وهو لا يشك في انك ستردّها له ، وستكون سعيدا ان تتاح لك فرصة ذلك . انه بعد ساعة ، لا قبلها ، سيكون في متجرك ويطلب منك مساعدة . فكن هناك لاستقباله . كن وحدك . اصرف جميع الذين يشتغلون معك . ابعثهم الى منازلهم . اذا كان لديك اعتراض ، فقله حالا لانقله الى

دون كورليون . ان هناك اصدقاء اخرين يمكـن ان يؤدوا له هذه الخدمة .
اوشك اميريفو بوناسيرا ان يئن من الخوف : ـ ولكن كيف يخطر ببالـك انني سأقصر بحق العرّاب ؟ انني طبعـا سأفعل اي شيء من اجله . انني لم انس ديني . انني عائد توا الى مركز عملـي .
وتكلم هاجن بلهجة اهدأ ولكـن بصورة غريبة مع ذلك فقال :
ـ شكرا . ان الدون لم يشك يومـا بك . اخدمه هذا المساء . وبامكانك في حال الضيق ان تتوجه اليّ ، فانك بذلك ستحصل على صداقتي الشخصية .
هذه الكلمـات زادت في رعب بوناسيرا ، فتمتم :
ـ ايكون الدون بشخصه هو الذي يأتي ليقابلني هذا المساء ؟
ـ نعـم .
ـ هذا يعني انه شفي تماما من جروحه ؟ حمدا لله .
كان هذا سؤالا اكثر منه تأكيدا . وبعد لحظة قال هاجن : « نعم » . واعاد السماعة . وكان بوناسيرا يرشح عرقا . وقد دخـل غرفته فغيّر قميصه وغسل فمه ، ولكنه لم يحلق ذقنه ولم يغيّر ربطة عنقه . فتلك التي كان قد وضعها ذلـك اليوم بدت له كافية . وخابر مساعده ليأمره ان يبقى مع الاسرة الحزينة وان يقيم الجلسة في الصالة الاماميـة لانه كان مشغولا في المختبر وكان يريد ان يكون هادئا فيه . وطرح المساعد اسئلة ، ولكـن بوناسيرا الزمه حدّه وامره بتنفيذ طلبه .
وارتدى معطفه ثم عاد الى قاعة الطعام . وكانت زوجته ما تزال تتناول عشاءها، ففوجئت بمظهره ، وقال بلهجة كئيبة « عندي شغل » فلم تجرؤ على سؤاله . وخرج بوناسيرا واتجه الى متجره سيرا على الاقدام .
وكان المبنى يقوم منفردا وسط ارض يحيط بها حاجز مدهون باللون الابيض. وكانت طريق ضيقة تفضي من الشارع حتى ما وراء المبنـى . وكانت تكفـي فقط لسيارات الاسعاف والتوابيت . وفتح بوناسيرا الباب الكبير ، وتركه مفتوحا ، ثـم استدار حول المبنى ليدخل من الباب العريض الذي يفضـي الى الاروقة . ورأى اعضاء عائلته بثياب الحداد يدخلون من الامام ليؤدوا التحية لزبون النهار .
وكان قد سبق لبوناسيرا منذ سنوات ان اشترى هذا المتجر مـن متعهد كان يريد ان يتقاعد . وفي ذلك الوقت ، كان الناس يبلغـون المدخل الفخم من سلّم ذي عدة درجات . وكان ذلك يطرح مشكلة. فقد كان العجائز والعجز لا يصعدون الدرج الا بمشقـة كبيرة ، وكان السابق على بوناسيرا قد حلّ المشكلـة بان اتاح لهم الصعود بواسطـة رافعـة الاحمال التي كانت ترتفع حتى مستوى غرفة الاموات . كانت هذه الآلـة تستعمل عادة لرفع التوابيت والاجسام ، وكان العجوز او العاجز ، بعد انتهاء السهرة الجنائزية ، يتخذان مكانهما على الرافعة فتهبط بهمـا من جديد الى الارض.
كـان اميريفو بوناسيرا يستنكر هذه المظاهر من الظهور والاختفاء التي تذكر بافلام الرعب او مخرقات المسارح . وكل ذلك توفيرا لبعض المال ! هكذا الغى درجات السلم ليحلّ محلها سطحا مائلا يمتد امـام المبنى ليتيح منحدرا سهلا . ولكن الرافعة كانت ما تزال تستعمل لنقل التوابيت .

وفي الجانب الخلفي من المبنى ،كانت المكتبة وقاعة التحنيط ومخازن التوابيت مفصولة عن غرف الموتى بجدران لا تنفذ الاصوات . وكانت المواد الكيماويـة والآت العمل المريعـة موجودة في المختبر داخل خزانة مقفلة بالمفتاح . وقد اتجه بوناسيرا مباشرة الى مكتبه ، فجلس في اريكته واشعل سيكارة بالرغم مـن انـه لم يكن قط يدخـن اثناء العمل . ثم انتظـر دون كورليون .

واستغرق ، منذ بداية الانتظار ، في هوّة من اليأس . كـان يحدس بالخدمـة التي ستطلب منه . كان افراد عائلة كورليون ، منذ عام ، يحاربون عائلات نيويورك الاجرامية الخمس . وكانت المجزرة تحتل مكانا كبيرا في الصحف اليومية . وكـان عدد كبير من المحاربين قد سقطوا من كلا المعسكرين . ولا شك في ان آل كورليون قد صرعـوا شخصا مهمـا جدا كانوا يتمنون اخفاء جثته . واي شيء ، اسهل من دفنه رسميـا بهوية مزورة على يد متعهد للمواكب الجنائزية حاصل على شهادة رسمية ؟ ان اميريغو بوناسيرا لم يكـن لديه اي وهم حول خطورة العمـل الذي سوف يرتكبه والذي سيجعله « متواطئا بعد الجريمة » في الاغتيال . اذا اكتشفت الحكاية ، فانه سيقضي اعوامـا في السجن . وستنتهي زوجته وابنته الـى البؤس ، وسيسقط اسم اميريغو بوناسيرا المحترم في وحل الحروب الدامية بين عصابات المافيا .

واستسلم لتدخين سيكارة اخرى . ثم فكر بما هـو ارهب وافظع . لئن عرفت العائلات الاخرى انه قدم مساعدته لكورليون ، فستعامله كعدوّ . وتمثل بوناسيرا نفسه وقد اغتيل . فلعـن اليوم الذي ذهب يلتمس فيه الثار على يد البادرينو ،ولعن اليـوم الذي ربط بيـن زوجته وزوجـة فيتو برباط الصداقـة . ولعـن ابنته ، واميركا كلها ونجاحه بالذات . وبعد ان غسل ذهنه بهـذه اللعنات كلها ، استردّ تفاؤله . ان الامور يمكـن ان تنتهي على خير ، بعد كل حساب . لقـد كـان دون كورليون رجلا بارعا ، وهو بالتأكيـدسيتخذ تدابير ناجعة للحفاظ على السرّ . كان يكفي ان يحتفظ المرء برباطـة جأشه . وعلى اي حال ، فـان اسوأ مـا يمكـن ان يحدث له ، هـو ان يتعرّض لغضب الدون .

وسمع عجلات تسحق حصى الطريق ، فأعار اذنه وادرك ان سيارة توشك ان تقف خلف المبنى . وفتح باب المراب . فدخل رجل ذو كرش عظيمة ، يتبعه شخصان بسحنة شاحبة ففتشوا جميع الغرف الخلفية دون مـا كلمـة . ثم ذهب السمين ـ كليمنزا ـ وبقي الشابان الاخران مع قبّار الموتى .

وبعد ذلك بقليل ، سمع بوناسيرا صرير شاحنة النقل على حصى الطريق . كانت بلا ريب سيارة اسعاف . وظهر كليمنزا ثانية يتبعه رجلان كانا يحملان نقّالـة. كانت اسوأ تكهنات بوناسيرا تتحقق : فقد كـان على هذه النقالة جسم مسربل بغطاء رمـادي ، وكانت القدمـان المصفرّتان العاريتان تنفذان من الطرف الاخر .

وقاد كليمنزا حاملي النقالـة الى مختبر التحنيط ، ثم خرج شخص اخر مـن ظلام الباحة ليدخل في النور . ـكان هو دون كورليون .

كان « البادرينو » قد ضعف وهزل ، وكان يسير بتصلب غريب . كان يمسك قبعته بيده ، وكان شعره يبدو مبعثرا على راسه . كان يبدو اكبر سنا ـ ذابـلا

تقريبا ـ مما كان بوناسيرا قد رآه في حفلة العرس ، ولكنه كان ما يزال يشع القوة . واذ طبق قبعته على صدره سأل بوناسيرا :

ـ اذن ، يا صديقي القديم ، هل انت مستعد لتقديم خدمة لي ؟

فأومأ بوناسيرا برأسه ايجابا . وانضم الدون الى حاملي النقالة في مختبر التحنيط فتبعه بوناسيرا ، خائر الساقين . وكان الجثمان قد وضع على طاولة للتشريح . واشار دون كورليون باشارة خفيفة من قبعته ، فانصرف جميع الاخرين.

همس بوناسيرا : ـ ماذا تريد مني ؟

كان الدون يحدّق في الطاولة : ـ اريد ان تستعمل كل موهبتك ، كل فنك ، كل براعتك ، الى جانب كل صداقتك لي . لا اريد ان تراه امه في الحالة التي هو فيها .

واتجه الى الطاولة ، فازاح الغطاء الرمادي . وبالرغم من ان بوناسيرا كان قد راى كثيرا من هذا المشهد منذ سنوات طويلة وهو في مهنته ، فقد خنق صرخة استفظاع . لقد كشف الدون وجه سوني كورليون ،او بالاحرى ما كان قد بقي منه. كانت رصاصة خارجة من العين اليسرى قد حطمت الوجه ولحمه . وكان ضلع الانف والوجنة اليسرى قد تحولا الى عجينة .

ومدّ الدون يده ليستند لحظة الى بوناسيرا ، وقال :

ـ انظر كيف اثخنوا ابني .

١٩

لعل سوني كورليون كان يريد انتزاع الحرب عن الطريق المسدود الذي آلت اليه ، حين ارتمى باندفاع وبلا تردّد في حمّام الدم الذي انتهى بمصرعه شخصيا . ولعله كذلك انما تصرّف على هذا النحو ليحرّر ما كـان في طبعه من سواد وعنف . وايـا ما كـان ، فقد نظّم في الربيع والصيف ضربات مجنونة ضد اتباع اعدائه . فكانت مذبحة القوادين الذين تحميهم عائلة تاتاغليا ، وخاصة في هارلم ، وعملائه في احواض السفن . وتلقى المسؤولون النقابيون المتواطئون مع ايـة عائلة من العائـلات الخمس تهديدات بأشد انواع الانتقام اذا لم يلتزموا حيادا تاما . ولـمـا كان العدو يمنع متسلمي الرهانات ومرابي العائلـة من دخول احواض السفن ،فقد ارسل سوني كليمنزا وفرقته لنهب جبهة البحر .

لم يكـن لسفك الدماء هذا راس ولا ذنب ، لانه لـم يكـن يستطيـع ان يؤمن النجاح . صحيح ان سوني كان يفوز بالنصر تلو النصر ، بفضل مزاياه كمخطّط بارع، ولكن الامر كان يحتاج الى عبقرية دون كورليون الستراتيجية ليحرز النصر النهائي . ومن قتل الى قتل ، آلت العملية الى حرب عصابات وحشية ابتلـع فيه المعسكران كلاهمـا جزءا كبيرا من مواردهما وكثيرا من الحيوات البشرية ، بلا ادنى نتيجـة . واخيرا اضطرت عائلة كورليون الى اغلاق بعض مكاتب الرهانات الاكثر عائدات ، بما فيهـا المكتب الذي كان يعتاش منه كارلو ريزي ، فأخذ يشرب الخمر ويطارد الممثلات ويزيـد حياة كوني ارهاقا . صحيح انه منذ عمليـة التاديب التي اخضعه سوني لها لم يعد يجرؤ على لمس زوجته ، ولكنه انتقاما منها ، لم يعد يمسها على الاطلاق . وكانت كوني قد ركعت على قدميه ، فدفعها عنه باحتقار ، وبحركات كان يحسبهـا مقتبسة عن متمرّسي الماضي الروماني .

ـ اذهبي فتشكّي لاخيك ! اذهبي فاخبريه اني لا اضاجعك بعد ! فلعله يوسعني ضربا لاشرع في العمل !

ولكنه كان يخاف سوني مع ذلك . انهمـا لا يكادان يتبادلان كلمة حين كانـا يلتقيان ، واذا فعلا فبادب مثلج . وكان كارلو من الذكاء بحيث يعرف ان سوني كان قادرا على قتله لانه كان يذبح انسانا بمثل اليسر الذي يذبح به حيوانا ، بينما لم يكن هـو ، كارلـو ، يستطيع تقرير القتل الا اذا استدعى شجاعته كلها . ولم يخطر لـه على بال قط انه ، في هذا الباب ، كـان خيرا من سوني . على العكس ، كان يحسد ابن عمه ، ويأسف انه لم يكـن موهوبا بوحشية مريعة الى ذلك الحد . وفي تلـك الاثناء ، كانت هذه الوحشية قد اصبحت اسطورية .

كان المستشار توم هاجن ينكر تصرفات سوني . ولكنه لم يكن قد اعتزم بعد ان يطلع الدون عليها لان تخطيط الابن الاكبر كان ينتهي مع ذلك الى اعطاء نتائجه . وكان يبدو ان العائلات الخمس تلوي صلبها تحت ضربات سوني القاتلة . وقد ضعفت ردودها ثم انقطعت تماما . ولم يستسلم هاجن اولا لهذا الظاهر من الهدنة ، ولكن سوني كان متهللا . وكان يقول لهاجن :

ـ اريد ان ارديهم اكثر فاكثر . وسيأتي اولئك القذرون يطلبون مني الصفح وهم يزحفون .

ولقد كانت لسوني هموم اخرى ، كانت زوجته قد سمعت ان لوسي مانسيني كانت قد سحرته . وبالرغم من انها كانت تهزا بمزايا سوني الطبيعية وبنقص خبرته ، فانه كان يهملها منذ وقت طويل . وكانت لسخطها على ضعف حبه لها، تقلقه في كل لحظة .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان سوني يعيش في ظلّ حكم عليه بالموت ، وقد كان هذا يؤثر في النهاية على اعصابه . كان يحيط نفسه باحتياطات هائلة ، وكان يعرف ان العدو مطلع على زياراته للوسي مانسيني ، فأخذ مزيدا من الحيطة بهذا الصدد ، لان الرجال غالبا ما يكونون في هذا الميدان قابلين للانجراح . فلم يكن جنود من فرقة سانتينو يهملون لوسي لحظة رغم انها لم تعرف من الامر شيئا . فكانوا يتسللون شيئا فشيئا ليقيموا في جميع الشقق التي كانت تخلو في المبنى وحتى في المبنى المقابل ، ليسهروا على النوافذ . وكان رجال هذه الفرقة مختارين بدقة .

في هذه الاثناء كانت جراح الدون تلتئم وكان يستعد لتسلم القيادة من جديد. وكان ينبغي لعائلة كورليون في تلك الفترة ان تكون قد تغلبت حقا على اعدائها . وكان سوني واثقا انهم سيبلغون ذلك ، وانه بهذا يكون قد انقذ المملكة العائلية واكتسب ثقة ابيه ، وهذا ما كان يهمه جدا لان الخلافة ، في مثل هذا النوع من العمل لم تكن بالضرورة وراثية . واذن ، فقد كان الابن الاكبر حريصا على تقديم براهينه لتبرير مطامحه .

ولكن العدو كان يرسم خططه ، وان كان لا يتحرك بعد . كان رؤساء العائلات الاخرى قد حللوا هم ايضا الاوضاع ، وتوصلوا الى هذه النتيجة : لكي يتجنبوا هزيمة تامة ، يتوجب عليهم ان يقضوا على سوني كورليون . وكانوا مقتنعين بانهم سيتمكنون من التفاوض مع الدون بفضل فكره الواقعي .وكان الامر قد افضى بهم الى احتقار سوني لبربريته الدموية ولافتقاره الواضح لحس الاعمال . كان الجميع يتمنون ان تنتهي الاضطرابات والفوضى المدمرة .

ذات مساء رنّ جرس التلفون في منزل كوني كورليون . وسأل صوت امراة عن كارلو ، فقالت كوني :

ـ من يسأل عنه ؟

فضحكت الفارة على الطرف الاخر من الخط واجابت :

ـ انا صديقة لكارلو ، واريد ان ابلغه فقط ان الامر غير ممكن هذا المساء لان علي ان اذهب الى المدينة .

فصاحت كوني : ـ قحبة مقملة (ثم خارت في السماعة من جديد) : قحبة باربعة دراهم مليئة بالقمل !

كان كارلو قد ذهب الى السباق بعد ظهر ذلك اليوم ، وحين عاد في المساء ، كان غاضبا لانه كان قد تعرّض لخسائر ، وكان نصف ثمل لفرط ما شرب من الزجاجة التي كان يحملها دائما في جيبه .وما ان دخل ، حتى اوسعته كوني شتائم ، فاحتقرها وذهب ليغتسل ، ثم جفف جسمه العاري امامها وبدأ يرتدي ثيابه .

وصرخت به كوني ، وقد وضعت يديها على خاصرتيها واصبح وجهها كابيا متشنجا بالغضب :

ـ لن تخرج هذا المساء . لقد تلفنت مجنونتك انها مشغولة . ياللقذر الشقي الذي يملك الشجاعة ليعطي قحباته رقم تلفوني . سوف اقتلك !

وهجمت عليه منشبة اظافرها في وجهه ، وركلته بعض الركلات . فأبعدها بذراع عضلة وقال ببرودة :

ـ اتكونين مجنونة حقا ؟

ولكنها رات انه كان قلقا كما لو انه كان يعرف ان فتاة تلك المرحلة كانت خليقة بارتكاب مثل تلك الحماقة :

ـ ربما كانت فتاة لا اكاد اعرفها ولا اذكرها . حمقاء ارادت ان تمزح ..

واندست كوني تحت ذراعه وخمشت له وجهه . واخذتها الفرحة انها انتزعت بظفرها قطعة من اللحم ، وبصبر عجيب ، دفعها عنه ، فاستنتجت انه كان حذرا نظرا لانها كانت حاملا . وهذا ما شجعها فاطلقت لسورة غضبها العنان . وكانت تضيع رشدها لسبب اخر : انها عما قليل لن تكون بعد حرة ، لان الطبيب كان قد حظر عليها فعل الحب في الشهرين الاخيرين من حملها . وكان الموعد المشؤوم يقترب ، وكانت تخشى ان تبقى ملتهبة الشهوة . وكانت من جهة اخرى تحس حاجة ضارية لتعذيبه جسميا .

واتجه الى الفرفة فتبعته ، وحين لاحظت انه كان خائفا ، احسّت باحتقار لذيذ له ، فقالت :

ـ ستبقى في البيت ، ولن تخرج .

قال : ـ حسنا ، اتفقنا .

ولبس سرواله ، ولم يلبس شيئا غيره . كان يحب ان يتجوّل في منزله بهذا اللباس لانه كان فخورا بقامته التي تأخذ شكل V وببشرته المذهبة . وكانت كوني تنظر اليه بهيئة جائعة . وحاول ان يمزح فقال لها :

ـ الا تعطيني ما آكله ، على الاقل ؟

وهداها قليلا ان يذكرها بالواجب ، بأحد واجباتها الزوجية على الاقل . كانت طبّاخة جيدة ، بفضل دروس امها . وراحت تقلي بعض لحم العجل مع الفليفلة ، وطرّت بعض الخبز على الموقد لتمزجها بالسلطة.وكان كارلو في هذه الاثناء مستلقيا على سريره ، يقرأ برنامج سباق اليوم التالي . وكان قد وضع في متناول يده قدح ويسكي كبيرا كان يشرب منه بلا تحفظ .

وظهرت كوني على عتبة الباب وهي تمثل لنفسها مسرحية صغيرة متصنعة انها لا تجرؤ على الاقتراب من السرير من غير ان تدعى اليه . قالت :
ـ الطعام جاهز للسيد .
اجاب من غير ان يرفع بصره عن الجريدة :
ـ لم اجع بعد .
ـ الطعام على المائدة .
قال : ـ ادخليه في مؤخرتك !
فأفرغ قدحه ثم امال الزجاجة ليملأه من جديد من غير ان يتنازل بالقاء نظرة الى زوجته .
وعادت كوني الى المطبخ ، فجمعت الاواني من على الطاولة وكسرتها فوق الحوض . واجتذب الضجيج كارلو الى الباب ، فراى لحم العجل والفليفلة وقد لطخا الجدران ، فاحسّ بانه مهان في حبه للنظافة . وصفر بصوت مسموم :
ـ ياللايطالية الصغيرة المدالة القذرة ! نظفي هذا فورا والا كان لك معي شان !
اجابت وقد مدّت يديها الى الامام ، وشنجت اصابعها كأنها مخالب ، مستعدة لتمزيق ثوبها على صدرها العاري .
وعاد كارلو الى الفرفة ، ثم رجع وهو يحمل زناره الجلدي مطويا ، وامرها بصوت متهدّد : « نظفي هذا » ولكن كوني رفضت ، فضربها على كشحيها بزناره ، من غير ان يوجعها كثيرا ، فتراجعت نحو خزانة المطبخ ، متناولة من الدرج سكين الخبز .
وانفجر كارلو ضاحكا : ـ الان ، حتى النساء يقتلن في عائلة كورليون ؟
ووضع زناره على الطاولة ، متقدما نحو زوجته . وهجمت عليه ، مصوّبة السكين الى حالبه ، ولكن الامومة كانت تثقل جسمها ، فنزع منها السلاح بيسر . واذ ذاك اخذ يصفعها بانتظام ، محاذرا ان يترك اثرا على وجهها . وتراجعت حول المائدة وارادت ان تحتمي بغرفة النوم ، ولكنه لحق بها . وحاولت ان تعضّ يده ، فأمسكها من شعرها ليرفع راسها وصفعها حتى بكت كطفلة صغيرة ، الما ومهانة . والقى بها على السرير بحركة احتقار وشرب كرعا من الزجاجة التي كانت ما تزال على طاولة الليل . وكان يبدو اذ ذاك ثملا جدا . وكان في عينيه ومضات جنون اثارت خوف كوني .
وباعد كارلو بين ساقيه ، مرتدا براسه الى الخلف ، وشرب المزيد . ثم قرص فخذها ولواها حتى صاحت مستنجدة ، فقال بلهجة اشمئزاز : « يا للخنزيرة الضخمة ! » وغادر غرفة النوم .
بقيت كوني على السرير ، مشلولة بالخوف . ولم تكن تجرؤ حتى على الذهاب لترى ما كان يفعل في الغرفة الاخرى . ونهضت اخيرا ، فتقدمت بخطى خفية حتى بلغت الباب . كان كارلو قد فتح زجاجة ويسكي اخرى وتمدّد على الصوفا . لن يمضي وقت طويل حتى يتعتعه السكر . واملت ان تستطيع انذاك ان تدلف الى المطبخ لتخابر عائلتها في لونغ بيتش . ستطلب من امها ان ترسل من

يصحبهـا ، وكانت ترجـو الا يكون سوني هو المجيب على التلفون وكانت تتمنى ان تتحدث الى توم هاجن او الى امها .

كانت الساعـة تقارب التاسعـة مساء حين رن جرس التلفون في مطبـخ دون كورليون ورفع السماعـة حارس خاص ثم قدّمها الى « الماما » بحركة احترام. ولكـن الام لم تكـد تفهم ما كانت تقوله لهـا ابنتها التـي كانت اكثر عصبية من ان تتكلم بوضوح وكانت مجبرة على ان تتكلم بصوت خافت حتى لا توقظ زوجها الذي كان نائمـا في الغرفة المجاورة . ثم ان شفتيها كانتا متورمتين ، مما كان يثقل النطق عليها . واومأت الماما الى الحارس ان يذهب فينادي سوني الذي كان فـي المكتبـة مع تـوم هاجـن .

ولم يلبث سوني ان وافى امه في المطبخ ، فتناول السماعة قائلا : ــ نعم ، الو، كونـي ؟

فزاد تلعثمها لزيادة خوفها من ردود فعل اخيها الممكنة وردود فعل زوجهـا كذلـك .

قالت : ــ ارسل لي يا سوني سيارة . هذا كل شيء . سأشرح لك في البيت. ليس هناك شيء ، يا سوني . لا تجيء . ارسل توم ، ارجوك . ليس الامر بذي بال اريد فقط ان اجيء الى البيت .

كان هاجن قد جاء الى المطبخ كذلك . وكان الدون نائما تحت التبنيج فـي غرفته . ولم يكن توم يترك سوني بعينيه ، وخاصة في لحظات الازمة هذه . وكان في المكـان حارسان خاصان . كان الجميع يراقبون سوني ، والسماعة على اذنه .

كان عنف سوني يصعد بلا شك من بئر خفية مفروزة في روحه . وقد رأوا جميعـا باعينهم دمه يضرّج وجهه ، واعصاب عنقه تتمـدد ، وقسماتـه تتشنج ، وغشاوة رماديـة تضبّب نظره . كـان آنذاك اشبه بمحتضر . ولكنـه نجح فـي ضبط صوته وقال لاخته بصوت خافت :

ــ انتظري ، لا تتحركي . نحن قادمـون .

ووضع السماعة . وكان هاجن قد اعتاد اكثر ممـا ينبغي تغيرات مزاج سوني، ففهم انه لم يكـن ثمـة سبيل الى ردّه الى التعقل والحكمة . في تلك الحالة ، كان سوني جديرا بفعل كل شيء ، وكان توم يعرف كذلك ان المسافـــة الى المدينـة ستهدّيء الغاضب ، وتعيد اليه بعض صوابه . والحق ان ذلك لم يكن اكثر تطمينا، لانه بقدر ما يكـون واعيـا متبصرا يكون مخيفا ، مع هذا العنصر الملطّف رغم ذلك : وهو ان استعادة الهدوء كانت تجعله اقدر على حمايـة نفسه من نتائـج غضبه . وسمع هاجن محرّك سيارة ، فقال للحارسين : « الحقا به » .

ثم ذهب الى التلفون ، وقام بعدة مخابرات . وقد ارسل بعض رجال فرقـــة سوني الذيـن يقيمون في المدينة ليذهبوا فيأخذوا كارلو من شقته حتى لا يقع بين يدي ابن عمه . وامر اخريـن بالبقاء مع كوني حتى وصول سوني . كان بالطبـــع يتقبل بعض المخاطـر وهو يعارض سوني على هذا النحو ، ولكنه كان واثقا من ان الدون سيقره على ذلك حين يعرف التفاصيل . وكان اكثر مـا يخيفه ان يقتل الابن

الاكبر كارلــو بحضور آخريــن . ولم يفكــر بالاعداء لان العائلات الخمس كانت تلتزم الهدوء ، منذ وقت طويل وتطمح بكل تأكيد الى تسوية مــا .

قبل ان يصل سوني الى نهايــة الممر المشجر وهو في سيارته البويك ، كــان قد استعاد كل وعيه . ولاحظ ان حارسين خاصين كانا يستقلان سيارة ليتبعاه ، وسرّ لذلك . على انه لم يكــن يفكر بالخطــر لان العائلات الخمس كانت قد كفَّت عــن الردّ ولم تكــن تحارب بعد بجدّية . وكــان ثمة مسدس في صندوق القفازات السرّي في السيارة التي كانت مسجلة باسم احد افراد فرقته ، بحيث انه لم يكن له ان يخاف شخصيا متاعب تأتيه من الشرطــة بصدد هذا السلاح . والحق انه لم يكــن يعرف ان كان سيحتاج اليه ، لانه لم تكــن لديه ايــة فكــرة عما سيفعلــه مــع كارلــو ريزي .

ومنذ اصبح قادرا على التفكير بهذا ، قرر سوني انه لم يكن يستطيع ان يقتل ابا لطفل لم يولد بعد ، وهــو خاصة زوج اخته . وعلى اي حال ، لا بسبب خلاف زوجي . على ان الامر لم يكــن كذلك فقط . كان كارلــو شخصا قذرا ، واسوأ مــا في الحكايــة انه كــان قد تعر ف على كوني بواسطته هو .

كان ثمــة شيء متناقض عند سوني . فذلك الوحش القاتل كــان عاجزا تماما عــن ان يضرب امرأة ، ولم يسبق له ان فعل ذلك . ولم يكن يستطيع كذلــك ان يؤذي طفلا او اي كائن لا يملك وسائل الدفاع عن نفسه . وكان كارلــو قد انقذ جلده حيــن لــم يدافع عــن نفسه ،يوم ضربه سوني : كــان خضوعه الكامل قد فلّ سلاح خصمه . ومن الصحيح ان سوني كان في طفولته صبيا ذا قلب رقيق . والقدر هــو الذي جعــل منه قاتــلا .

وفكر سانتينو : « اريــد ان ارتب هذه المسألة مرة والى الابد » فيمــا هـــو يخرج بسيارته البويك الى الطريق التي كانت تمر فوق الماء بين لونغ بيتش والطرف الاخر من جونس بيتش. وكــان يسلك دائمــا هذا الطريق ليقصد نيويورك لانـــه كــان اقــل ازدحاما .

وصمّم ان يعيد كوني الى منزل ابويها بصحبة الحارسين وان يجلس مع صهره على انفراد . ولم يكن يعرف بعد شيئا ممــا قد يحدث آنذاك . اذا كان القذر قــد جرح كوني حقا ، فانه سوف يشوّهه . ومع ذلك ، فان النسيم البحري الذي كان يكنس الطريق قد بدأ يهدىء من غضبه . وانزل زجاج الباب تماما . وكان بامكانه ان يجري بكل سرعته حتى يبلــغ طريق السيارات في الطرف الآخر . وحتى في ذلك المكان ، سيكــون الازدحام ضعيفا . وهو سيصيب بعض الهــدوء ، اذا ساق سيارته سرعــة كبيرة ، وكان هــذا يبهجه لانه كــان يعرف كم كان توتر اعصابه خطرا . كان حرسه الخاص يحيط بسيارته احاطــة كاملــة .

لم تكن ثمة سيارة واحدة على الطريق السيئة الاضاءة . ورأى سوني من بعيد القمع الابيض لمرقب دفع الرسوم . وكان ثمة عدة مراقب مشابهة في الطريق،ولكنها تكون مشغولة فحسب عند ازدحام السير . وابطأ سوني بسيارته فيمــا هو يبحث في جيبه عن المال . فلم يجــد مالا . وفتح محفظته بيد واحدة ، وسحب منها ورقة.

وحيـن بلغ المنطقـة المضاءة القريبة من المرقب ، ادهشه قليـلا ان يجد سيارة تسدّ الطريق امـام المرقب الوحيد الذي كان يعمل . لعلّ سائقها ، على الارجح ، كـان يطلب من قاطع التذاكـر ان يرشده الى وجهته . واطلق سوني زموره فاقلعـت السيارة لتترك له المكان بين مرقبين .

ومدّ سوني ورقة الدولار الى قاطع التذاكر وانتظر ان يردّ له الباقي . كـان مستعجلا ليغلق الزجاج لان ريح الاطلنطي كانت قـد ثلجت داخل السيارة . ولكن قاطع التذاكـر لم يحسن عدّ المال ، وها هو ذا المغفل يترك القطع النقدية تسقط منه ! ثم اختفى جسمه كله تحت النافذة ، تلمسا للارض بحثا عن القطع .

ولاحظ سوني في تلك اللحظـة ان السيارة الاخرى لم تكن قد تابعت سيرها. كانت واقفـة على بضع خطى منه ، لا تزال تسدّ له الطريق . وفي اللحظة نفسها لمح شبح رجل في المرقب المظلم القائم الى يمينه . ولم يتح له الوقت حتى للالتفات، لان رجلين اخرين كانا يهبطـان مـن السيارة ويتجهان اليه . ولم يكن قاطع التذاكر قد ظهر بعد . وقبل ان يحدث اي شيء ، فهم سانتينو كورليون ، فـي جزء من ثانية ، انه اصبح ميتا .واذ ذاك ، وبذهن صاف غاية الصفاء ، تخلّص من اية فكـرة عنف ، كما لو ان خوفا مكبوتا ، ولكنه حاضر دائما ، كان يرعبه .

ومع ذلك ، فان جسمه الهائل قام بردّ فعل اخير للمحافظـة على النفس . فاذا هو ينقذف الى الباب بعنف شديد انفتح معه القفل . وفتح القاتل المختبـىء في المرقب المظلم النار عليه . وادركت الرصاصات سوني في رقبته وقذالـه فـي اللحظة التي كان يسقط فيها من السيارة . ورفع المطلق سلاحه ، فكان الآخران يصلان ، وبيد كل منهما مسدس . كان جسم سوني ينطرح على الاسفلت ، مـا تزال قدمـاه عالقتيـن بارض السيارة . واطلق كل من القاتلين رصاصة في راس سوني . ثم سحقا وجهه بحذائيهما ليزيدا من تشويهه ، وليتركا كذلك آثارا اكثر « انسانية » مـن اثار الرصاص .

بعد ذلك بلحظات ، كان القتلة الثلاثة وقاطع التذاكر المزّيف يهربون بسيارتهم نحـو ميدوبرول باركواي ، من الطرف الاخر لجونس بيتش . كانت سيارة سوني وجثته يسدان باب المرقب المفتوح . واذن فان القتلة لم يتعرضوا للمطاردة . والحق ان حارسي سوني الخاصين حين وصلا بعد دقائق ، لم تكن لديهما الرغبـة في الجري وراء القتلـة ، فاستدارا في الشارع وعادا على طريق لونغ بيتش . وتوقفا عند اول تلفـون عمومي . فهبط احدهمـا ليخابر توم هاجن قائلا له بكل بساطـة وجفـاف :

ـ لقد مات سوني . نصبوا له كمينا في مرقب الرسوم بجونس بيتش .

اجاب هاجن بصوت هاديء تماما : ـ اذهبا الى بيت كليمنزا وقـولا له ان ياتي على الفور وسيقول لكما ما ينبغي أن تفعلا .

وكان هاجن قد تلقى المخابرة في المطبخ حيث كانت الماما كورليون مشغولـة باعداد الطعام لابنتها ، وقد حافظ على رباطـة جاشه بحيث ان السيدة العجوز لم تلاحظ شيئا . ولو ارادت لفهمت . ولكنهـا بعد ان عاشت فترة طويلة مع الدون،

كانت تعرف ان الافضل دائمـا الا تعرف ، لانهـا اذا وجب عليها ان تعرف شيئـا شاقا ، فسيقولونه لهـا بوقت مبكر بمـا فيه الكفاية . اما اذا كان بالامكان توفير هذه المشقة عليها ، فانهـا ستستغني عن معرفة النبأ برضى . ولماذا ينبغي لهـا ان تقاسم هموم الرجال الذيـن لا يقاسمون النساء همومهن ؟ اعدّت القهوة بهدوء ، ووضعت الخبز والجبن والسلامي على المائدة . كانت تعرف بالتجربة ان الالـم والخوف لا يهدئان الجوع ، بل ان الاكل ، على العكس ، يخفف الالم . وما كـانت اتقبل ان يعطيهـا طبيب دواء مهدّئا ، ولكـن لقمة خبز وفنجان قهـوة ، شـيء اخـر تمامـا .

وتركت هاجن يذهب الى مكتب زوجها في زاوية البيت . وحين وصل توم الى هناك ، اخذ يرتجف بعنف شديد حتى وجب عليه الجلوس ، ويضم ركبتيه احداهما الى الاخرى ، ويغرق راسه بين كتفيه المرفوعتين ويضغط يديه بين فخذيه ، كما لو انه كـان يصلي للشيطـان .

لا ، لم يكن يشك بعـد الان في الامر ، ليس هو بعد مستشار حرب صالحا. لقد خدعوه . لقد انخدع بما كانت تظهره العـائلات الخمس مـن انعـدام رد الفعل . لم يكـن العدوّ يتحرك بعد ، لم يكـن يهاجم بعد ، ولكنه كـان يدبر كمينه. كـان ينتظر وهـو يعدّ ضربته . كانت ايديه الدامية لا تتحرك بعـد رغم جميـع الاستفزازات ، حتى اللحظـة التي ستتمكـن فيها مـن توجيه ضربة هائلة . وقد قامت بها . لو كـان العجوز جانسو اباندادو لما وقع في الفخ . كان سيشعر بالخطر، فيتحاشاه . كـان سيضاعف احتياطاته ثلاثة اضعاف . وكان هاجن ، فيمـا هـو يفكـر على هذا النحو ، يحسّ غمـا كبيرا . كـان سوني اخاه الحقيقي ، ومنقذه، وبطله حين كان صبيا . ولم يحاول سوني قط ان يسيطر عليه او ان يقلقه ، وعامله دائمـا بمحبة ، وعانقه بيـن ذراعيه حيـن اعاد له رجال سولوزو حريته . وفي تلك اللحظة ، كانت فرحة سوني صادقة . صحيح ان سوني هذا الشيطان ، كان قد اصبح حيـن تقدم به العمر عنيفا ،قاسيا ، دمويا ، ولكـن ذلك كان غير ذي شـأن في نظر هاجـن .

كان قد فرّ من المطبخ . انه كان يحس بعجزه عن ابلاغ الماما كورليون ان ابنها قد مـات . انه لم يعتبرهـا قط كام، بينمـا كـان الدون في نظره اباه الحقيقي ، وسوني اخاه الحقيقي . وكان يكـنّ لهما من الود مثل ما كان يكنّ لفريدي وميخائيل وكوني ، الود الذي يكنـه المرء لاشخاص كانـوا دائمـا لطفاء ، لا محبين . ومع ذلك، لم يكـن يستطيع ان يبلغهـا شيئا مماثلا . ففي بضعـة اشهر ، كانت هـذه الام المسكينة تفقـد اولادهـا الثلاثة : فريدي منفيا الى النيفادا ، وميخائيل لاجئا هناك بعيدا ، في صقلية ، تحت خطر كبير . وها هـو الان سانتينو ميتا . ايهـم كـان احبّ اليهـا ؟ انهـا لم يسبق لها قط ان عبّرت عن ايثارها احدهم على الاخر .

استمرت حالة الصدمة بضع دقائق . ثم تدارك هاجن نفسـه ، فتناول التلفون وركّب رقم كوني . وظل الجرس يرنّ مدة طويلة ، وحين ردت همسا ، قال لهـا بهدوء :

ـ كوني ، انا توم ، ايقظي زوجك . يجب أن اكلمه .

فسألته مذعورة : ـ توم ! هل يأتي سوني الى هنا ؟

ـ لا . لن يأتي سوني . لا تقلقي لذلك . ايقظي كارلو وقولي له انني اريد ان اكلمه . الامر هامّ جداً .

فانتحبت كوني : ـ توم ، لقد ضربني . واخشى ان يؤذيني كذلك اذا عرف اني خابرت البيت .

ـ لن يعرف شيئا . سأتحدث اليه واتدبّر الامور . وسيجري كل شيء ، كما ينبغي . قولي له ان الامر هامّ ، هام جدا . يجب ان اكلمه . اتفقنا ؟

وانقضت خمس دقائق تقريبا قبل ان يرنّ صوت كارلو في السماعة . وكانت الويسكي والنوم يجعلانه دبقا . وتكلم هاجن بجفاء ليوقظ تنبّهه . قال :

ـ اسمع ، يا كارلو . سأقول لك شيئا فظيعا . فاستعدّ لسماعه ، لانني اريد ان تجيبني بطريقة طبيعية . لقد قلت لكوني ان عندي شيئا هاما اقوله لك ، فيجب أن تخترع لها حكاية . قل لها ان العائلة قد قررت ان تنزلكما انتما الاثنين في بيت من بيوت المر المشجر وان تعهد اليك في مهمة هي من الاهمية في المكان الاول . قل لها ان الدون قد قرر اخيرا ان يمنحك فرصتك لتكون حياتكما الزوجية افضل . مفهوم ؟

اجاب كارلو بصوت يرن فيه الامل : ـ نعم . حسنا جدا .

ـ بعد دقائق ، سيطرق بابك رجلان من رجالي ويطلبان منك ان تتبعهما . قل لهما ان يخابراني فورا . لا تشرح لهما شيئا . لا كلمة . سآمرهما بان يتركاك هناك مع كوني . اتفقنا ؟

ـ نعم ، نعم ، اتفقنا .

قالها كارلو ببعض الاحتداد . وكان يبدو ان صوت هاجن قد وضعه في حالة تنبه وانه على وشك ان يطلعه على شيء هام .

ولم يلبس هاجن القفاز : ـ والان ، لا كلمة . لقد قتلوا سوني هذا المساء . خابرته كوني حين نمت ، فذهب ليصطحبها . ولكني لا اريد ان تعرف ذلك . واذا حزرت هذا ، فلا تقل شيئا ، ولا تفعل شيئا لتأكيد الامر . انها ستتصور ان ذلك كان بسببها . وانا حريص على ان تبقى معها هذا المساء ، والا تقول لها شيئا ، وان تتصالح معها . انني اطالبك بان تكون زوجا ممتازا ومحبا . وسوف تستمر على ذلك حتى مولد الطفل على الاقل . وصباح الغد ،ستعلم كوني من شخص ما ، ربما كنت انت او اباها او امها ان اخاها قد اغتيل . واريد في تلك الساعة ان تكون الى جانبها . اعمل معي هذا المعروف ، وسأهتم بك في المستقبل . مفهوم ؟

اجاب كارلو بصوت مرتعش بعض الشيء : ـ بالتأكيد ، يا توم . بالتأكيد . اسمع . لقد كنا دائما متفاهمين ، نحن الاثنين . انني ادين لك بالعرفان . هل تفهمني ؟

قال هاجن : ـ نعم ،لن يؤاخذك احد على نزاعك مع كوني . ولن تتهم بانك مسؤول عما حدث . لا تقلق لهذا . سأهتم بالامر . (وصمت لحظة ثم ختم بصوت

مشجع) والان اذهب ، وكن لطيفا مع كوني .

كان هاجن قد تعلّم ان لا يهدّد ابدا . وكانت هذه احدى قواعد الدون . ولكن توم كان قد فهم الشيء الجوهري : ان حيـاته لم تكن متعلقة بعد الا بشعرة .

وخابر توم هاجن تيسيو فأمره ان يتوجه الى الممر فورا . ولم يعطه ايّ شرح، ولم يسأله تيسيو عن شيء . وبقي عليه الاصعب . كـان مجبرا علـى ان يوقظ الدون ، ان ينتزعه من النوم الاصطناعي . كـان عليه ان يقول للرجل الذي كان يحبه اكثر مـن اي انسان في العالم انه لم يكـن على مستوى مهمته ، وانه لم يكن جديرا بالحفاظ على مملكته، وخاصة على حياة ابنه الاكبر. كان عليه ان يبلغ الدون ان كل شيء سيفقـد ان لم يكـن قادرا على النهوض فورا ليتسلم من جديد دفة المعركة .والواقع ان هاجـن لم يكـن على وهم . فالدون الكبيـر شخصيا يستطيع على الاقـل ان ينقذ الباقي بعد هزيمة مريعة كهذه . ولم يجد حاجة حتى لاستشارة طبيب . كان ذلك بلا جدوى . حتى ولو كان الطبيب يحظـر على الدون ان ينهض ، تحت طائلة التعرض للموت ، فعليه هـو ان يقول الحقيقة لابيه المتبني وان يطيعه بعد ذلـك. ولن يتصرّف الدون الا بوحي من ذاته . ولن يكون لراي الاطباء اهمية في نظره . والحق انه لم يكـن ثمة بعد مـاهـو ذو اهمية . فيجب اللجوء الى الدون ، مهمـا كلف الامر . وسيكون عند ذلك احدامرين : فامـا ان يتسلم القيادة من جديد وامـا ان يأمر هاجن بتسليم سلطة عائلة كورليون للعائلات الخمس .

بالرغم من جميع هذه الامور اليقينية ، وعلى اقتناع هاجن بانه يقوم بواجبه، فقد كـان يخاف الساعـة التالية . وقـد فكر بطريقـة مواجهتها . انه اولا لـن يعبّر عـن شيء من ندمه واسفه . فـان ذلك لن يزيـد الا في عبء الـدون . ان أسى الابه سيصبح اكثر حدّة اذا عبّر هو عـن اساه . والالحاح على عدم جدارتـه كمستشار حرب سيؤدي بالدون الى مؤاخذة نفسه على سوء الاختيار بالنسبة لهذا المركـز الرئيسي .

وبالاختصار ، قرر هاجن ان يبلـغ النبأ ، وان يقدّم رايه بالطريقة التي يمكـن ان تقوّم الوضع ، وليس غير . وبعد ذلك سيكون ردّ فعله مرتبطا بردود فعل الدون. فاذا آخذه على اخطائه ، فسيعترف بانه مذنب . واذا ترك الدون حزنـه ينفجر ، فسيحذو تـوم حذوه .

ورفع هاجن راسه وهو يسمع صوت سيارات على الممر المشجر . كان رؤساء الفرق هم الذين يصلون . وقرّر ان يطلعهم على الامر قبل ان يذهب فيوقظ الدون. ونهض فاتجـه الى المشرب القريب من المكتب ، فأخذ منه زجاجة وقـدحا . ولكنه ظلّ لحظة مشلولا ، اعجز مـن ان يصبّ السائل في قدحه ، لفرط عصبيته .وسمع بابا ينغلق خلفه ، فاستدار على عقبيه فرأى الدون ، مرتديا ثيابه كاملة للمرة الاولى منذ اليـوم الذي هوجم فيـه في الشارع .

اجتاز الدون القاعـة ليذهب فيجلس على اريكته الجلدية الكبيـرة . كانت مشيته متصلبة بعض الشيء ،وملابسه اوسع قليـلا مما ينبغي ، ولكنه بدا في عيني هاجـن شبيهـا بمـا كانه ابدا ، كمـا لو ان الدون بقوة ارادته وحدها ، كان يمحو

كل اثر لضعفه . كان وجهه هادئا ، قاسيا ، وكان يشعّ قوته العادية . وقــد استقام على كرسيــه وقال لهاجــن :
ــ اعطني قطرة من الانيسون .
وغيّر هاجن الزجاجة فملأ لكل منهما قدحا صغيرا من هذا المشروب الحارق. كـان الانيسون مصنوعا على الطريقة القروية ، فكـان اقوى من مشروب المخازن . وكان صديق قديم يرسل منه الى الدون ملء شاحنة كل عام .
قال دون كورليون : ــ كانت زوجتي تبكي قبل ان تنام . وقد رايت من النافذة سيارات رؤساء الفرق تصل . الوقت متاخر . فقل لي ، يا مستشاري ، ما يعرفه الجميــع الان .
اجاب هاجن بهدوء : ــ لم اكشف للماما عن شيء . وكنت اهمّ بايقاظك لابلغك النبــأ بنفسي . وكنت على وشك الدخول عليك .
قال دون كورليون بهدوء أعصاب : ــ وكنت بحاجة الىشرب قدح قبل ذلك .
ــ نعــم .
ــ لقد شربت الان ، فتكلم .
لم يكن فيلهجة الرجل العجوز الا اثر عتاب ضئيل لضعف هاجن .
قال هاجن : ــ لقد اغتيل سوني على طريق جونس بيتش . وقد مات .
طرف دونكورليون باجفانه . وفي لحظــة خاطفة ، انهارت جدران ارادته . وبدا الارهاق الجسمي على وجهه ، ولكنه تماسك . وضم يديه امامه على المكتب ، فنظر الى هاجن في عينيه وقال له :
ــ ارو لي كل ما حدث (ورفع يده) لا ، بل انتظــر حتى يصل كليمنزا وتيسيو، وبهذا لا تكــون بك حاجة الى ترديد الكلام .
وبعد لحظة ، ادخل حارس خاص رئيسي الفرقتين . وحيــن رأيــا الدون ينهض لاستقبالهما ، ادركا انه مطلع على خبر موت ابنه . وعانقاه كما هو مالــوف بيــن الاصدقاء القدامى . ثم شربا الانيسون الذي قدمه لهما هاجن قبل ان يروي قصــة تلــك الليلة .
ولم يطرح دون كورليون ، في النهاية ، الا سؤالا واحدا :
ــ هل انتم متاكدون ان ابني قد مات ؟
قال كليمنزا : ــ نعم . كــان الحارسان الخاصان تابعين لفرقة سانتينو ،وانا الذي آخترتهما . وقد استجوبتهمــا حين وصلا الى منزلي . فاخبراني انهما فحصا جسمه على ضوء مرقب الرسوم . لا يمكن لسوني ان يكون حيًا مع الجراح التي راياها . انهمــا يؤكدان ذلك .
قبل دون كورليون هذا الحكم النهائي من غير علامة انفعال الا لحظة صمت . ثم صرح قائــلا :
ــ لا يهتم أحد منكم بهذه القضية . ولا يرتكب احد منكم اي عمل انتقامي .ولا يقم احد منكم بأيّ تحقيق للعثور على قتلة ابني ، الا على امر واضح مني . فاذا لــم أعط الامر شخصيا ، فاني احظــر اي عمل عنف ضد العائلات الخمس . ان «عائلتنا»

توقف جميع عملياتهـا ولا تحمي احدا ولا شيئا الى مـا بعد دفن ابني . وعند ذلك، سنجتمع ثانيـة لنقرر مـا ينبغي عمله . هذا المساء ، لا يبقى لنـا بعـد الا ان نتخذ تدابيرنـا ليدفـن سانتينو مسيحيا . وسيتدبر الامور مع الشرطة والسلطـات اصدقاء لي . ابق انت يا كليمنزا الى جانبي دائمـا بصفة حارس خاص مع رجال فرقتك . اما انت يا تيسيو فاسهر انت ورجالك على باقي اعضاء العائلة . وانت يا توم ، خابر اميريغو بوناسيرا وقل له انـي سأحتاج الى خدمـاته في اثناء الليل. فلينتظـرني في متجره . سيكون ذلك بعد ساعـة او اثنتيـن او ثلاث . هل فهمتم جميعـا ؟

هزّ المتحدثون الثلاثة رؤوسهم ، فاستطرد دون كورليون يقول :

ـ اجمع يا كليمنزا السيارات والرجال وانتظرني . ساكون مستعدّا بعد بضع دقائق . وانت يا توم ، لقد تصرّفت جيدا . اريد ان تكون كونستانزيا قرب امهـا منذ صباح الغد . تدبر الامر لكي يقيم زوجها وهي في احد بيوت الممر . واستدع صديقات ساندرا حتى يبقين الى قربها . وستذهب اليهـا زوجتي ايضا بعـد ان اكـون قد حدثتها . فهي التي ستتولى ابلاغها خبر المصيبة . وسيتدبران الامر مع الكنيسـة من اجل القداس والصلوات .

وقام الدون عـن اريكته ، فحذا الاخرون حذوه . وعانقه كليمنزا وتيسيو من جديد . وفتح هاجن الباب للدون الذي توقف ونظر اليه لحظة ، ثم امسك العجـوز بخد هـاجن وجذبه اليه ليقبله ، وليقول له بالايطالية :

ـ لقد تصرّفت تصرف ابن صالح . انك تشدد عزمي .

لم يصدق هاجن مسمعه ، لانه كـأن يحسّ بانه لم يحسن التصرف . وصعد الدون الى غرفـة النوم ليحدّث زوجتـه . وعند ذلك خابر هاجن اميريغـو بوناسيرا ليذكره بالخدمة التي يدين بها لعائلة كورليون .

٢٠

أحدث موت سانتينو كورليون تلاطم امواج تدفق على اطراف البلد كلها . وحين عرف الناس ان دون كورليون قد نهض من سرير مرضه ليشرف من جديد على اعمال العائلة ، وحين اذاع الجواسيس الموفدون الى الجنازة ان الدون كان يبدو وكأنه شفي تماما ، هاج رؤساء العائلات الخمس وماجوا كالشياطين ليعدّوا دفاعهم ضد عمليات الانتقام التي لا بد ان تتبع ذلك بالتأكيد . ولم يرتكب احد خطأ الافتراض بان دون كورليون يمكن الاستخفاف به بسبب مصائبه الاخيرة . فهو لم يرتكب الا اخطاء قليلة خلال حياته وكل خطأ كان له درسا وعبرة .

وهاجن وحده هو من حزر نوايا الدون الحقيقية ولم يدهش حين ارسل مبعوثين يعرضون السلام على العائلات الخمس . ولم يكن اقتراح اللقاء موجها الى العائلات النيويوركية وحدها ، بل الى عائلات الولايات المتحدة كلها . وبالنظر الى ان عائلات نيويورك هي الاقوى ، فقد كان مفهوما ان رخاءها كان يؤثر على رخاء العالم السفلي كله .

وقد ايقظ هذا المسعى الشكوك ، اول الامر . الم يكن دون كورليون ينصب فخا؟ الم يكن يسعى الى مباغتة اعدائه ؟ لربما كان يعدّ كذلك مذبحة عامة لينتقم لابنه. ولكن فيتو كورليون ما فتيء ان اعطى ادلة واضحة على اخلاصه . فهو لم يقتصر على دعوة جميع العائلات الاخرى الى محادثات السلام ، بل هو لم يتخذ ايّ تدبير لوضع رجاله على هبة الحرب او لجمع حلفائه . ثم قام بخطوة اخرى حتمية ليثبت صفاء نيته ويضمن سلامة المجلس الاستشاري الذي كان يدعوه للانعقاد : ذلك انه طلب خدمات عائلة بوكشيشيو .

وكانت عائلة بوكشيشيو تقدّم ميزة فريدة : فهي التي كانت في الماضي عضوا ضاربا من اعضاء المافيا في صقلية ، قد اصبحت آلة سلام في اميركا . وبعد ان كسبت حياتها بوحشيتها ، كانت تعيش الان بصورة اقرب الى القدسية . والمزية الرئيسية للعائلة كانت تكمن في علاقات وثيقة قائمة بين جميع الاهل ذوي المجد الواحد وفي ولاء عائلي لا يتزعزع ، حتى بالمقارنة مع المجتمعات الصقلية التي يتغلب فيها الولاء بين الاقرباء على الولاء بين الرجل وزوجته .

واذا عددنا الاقارب حتى الدرجة الثالثة ، فقد كانت عائلة بوكشيشيو تضمّ مئتي رجل كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية لمقاطعة صقلية الجنوبية . وكانت وارداتها مضمونة من اربع طواحين او خمس لم تكن مملوكة للمجموع ، ولكنها كانت تقدم العمل والخبز وحدا ادنى من السلامة لاعضاء العائلة . وكانت

تلك الامـوال المضمونـة بزيجات عصبيـة ، تتيح لهـا ان تواجه اعداءها .

وكان يضاف الى الموارد التي تؤمنهـا المطاحـن بيـع الماء المحجـوز لتدوير الدواليب . لم يكونوا يسمحون لاحـد ان يبني طاحونـة ولا ان يحتجز مجرى مـاء في منطقتهم . وقد حـدث ان حاول اقطاعي ـ مالك عقاري ـ ان يبني طاحونـة لاستعمالـه الخاص . فاحترق البناء . واستنجد السيد بالقربينيين وبالسلطات العليـا التي اعتقلت ثلاثة رجال من عائلـة بوكشيشيو . ولم يكد الحكم يصدر حتى كـان قصر السيد الريفي يشتعل . وتركت النيابة العامـة التهمـة واطلقت سراح الموقوفين الثلاثة . وبعد بضعة اشهر ، وصل الى صقلية احد كبار موظفي الحكومة الايطاليـة ليدرس وسائل ازمة الماء المستديمة التي كانت الجزيرة تعانيها . فاقترح اقامة سد هائل ، ووصل المهندسـون والتقنيون من رومـا ليقومـوا بوضع بيانات طوبوغرافية ودراسات على الطبيعة . فأخذ رجال من البلد ، اعضاء من عصبـة بوكشيشيو يراقبونهم عن كثب . واكتسح رجال الشرطة المنطقة ، بل لقـد اقيمت مخيمـات لايوائهـم .

وكان يبدو انه لم يكن ثمة شيء سيحول دون بناء السد . كانت الآلات والمواد والتجهيزات تتدفق على شواطىء باليرمو . ولكن العملية لم تذهب الى ابعد من ذلك . ذلك ان عائلـة بوكشيشيو اتصلت برؤساء اخريـن للمافيا لتضمـن مساعدتهم ، فتعرضت الآلات الثقيلة على المرفأ للتخريب وسرق الباقي . وشنّ نواب المافيا في البرلمان الايطالي هجومـا بيروقراطيا وقضائيا على مناصري السدّ . وظلت الاعمال الحربيـة قائمـة طوال سنوات ثم تولـى موسوليني السلطـة في ايطاليا فاصـدر امراً بوجوب بناء السدّ . ولكـن العمليـة لم تتقدم اكثر من ذلك . ولاعتباره المافيا كانت تتهدد حكمه لانهـا كانت تشكل دولة ضمـن الدولة ، اعطى الديكتاتور بطاقـة بيضاء لموظف كبيـر في الشرطـة حلّ المشكلة بسرعـة بان اعتقل او نفى الجميع تقريبا الى جزر صغيرة محروسة جيدا وحكمهم بالاشغال الشاقة . وفي بضعـة اعوام ، حطم اصلاب المافيا بان وضع في الظل كل شخص كان يشتبه بانتمائه الـى هذا المجتمع السري . وهكذا حمل الخراب والاحزان الى كثير من العائلات البريئة .

كان آل بوكشيشيو شجعانا بما فيه الكفاية ليهاجموا صراحة سلطة كانت تتفوق عليهم كثيرا . وقد قضى نصف اعضاء العائلة والسلاح بيدهم ، ونفي النصف الآخر الى جزر اصلاحية . ولم يبق منهم الا قبضة نجحت في الفرار الى اميركا بطرق سرية ، عبر كندا . كانوا زهاء عشرين شخصا اقاموا في مدينة صغيـرة شمالي نيويورك ، على مجرى الهدسون . وقد انطلقوا من الصفر في عمل الكناسـة البلدية ، ثم تمكنوا من شراء عربات نقل وانتهى بهم الامر الى احتكار مصلحة الطرق ولم يجرؤ احد على منافستهم لان عربات منافسيهم كانت تحترق او يجري تخريبها دائما . واختفى رجل معاند كان يكسر الاسعار ، ثم عثر على بقايا جسمه مقطعـة تحت الاقذار التي كان قد جمعها خلال يوم عمله الاخير .

ولا حاجة الى القول ان آل بوكشيشيو رزقوا اولادا كثيرين حين تزوجـوا الصقليات . ولم تكن مصلحة الطرق كافية لان تضمن معيشة العائلة الا ببعض

الضيق ، من غير ان تتيح لها التنعم بملذات الحياة الاميركية . واضطر افرادالعائلة الى تنويع نشاطاتهم ، كجميع التروستات الكبرى ، فاصبحوا مفاوضين ورهائن محترفة خلال محادثات السلام بين مختلف العائلات الصقلية .

كان افراد عائلة بوكشيشيو يورثون اولادهم واحفادهم جينات بلادة ، او لعلهم لم يكونوا الا بدائيين . ومهما يكن من امر ، فقد كانوا يعون حدودهم ويعرفون انهم لم يكونوا يستطيعون منافسة عائلات المافيا الاخرى في معاركهم لتنظيم الاعمال التجارية الاشد تعقيدا كالبغاء والقمار والمخدرات والتهريب على اختلافه. كانوا بسطاء مستقيمين ، قادرين ان يتصدقوا على شرطي من الاوباش ، ولكنهم لا يعرفون كيف يتصلون برجل سياسي ، مهما بلغ من الفساد . لم يكونوا يملكون الا استقامتهم وضراوتهم .

لم يكن رجل البوكشيشيو يكذب او يغش ، لان هذا كان معقدا عليه اكثر مما يجب . ولكنه لم يكن كذلك لينسى الاهانة ، وكان يستمد منها الثأر مهما كلف. وهكذا اتاحت لهم المصادفة ما سوف يصبح نشاطهم الاكثر ربحا .

حين كانت « عائلة » ما في الحرب تصبو الى عقد الصلح وتبدأ محادثاتلهذه الغاية ، كانت تتوجه الى اسرة بوكشيشيو التي كان رئيسها يتخذ ترتيبات اولية ويقدم رهائن . وهاكم مثلا : حين ذهب ميخائيل ليتفاوض مع سولوزو ، كانت اسرة بوكشيشيو قد سلمت ، على سبيل الرهينة ، فردا من افرادها الى عائلة كورليون ضمانا لسلامة ميخائيل ، وكان سولوزو هو الذي دفع اجرة هذه الخدمة .ولو قتل سولوزو ميخائيل ، فان الرهينة التي كان يحتجزها آل كورليون كانت ستقتل فورا . ولكن في هذه الحالة ، ينتقم رجال بوكشيشيو من سولوزو ، المسؤول عن فقد احد افرادهم . وقد كانت عقلية آل بوكشيشيو تفرض عليهم بألا يتراجعوا قط عن تنفيذ الثأر ، من غير ان يهتموا بالعقاب . وقد كانوا مستعدين لتقديم حياتهم بالعشرات . واذن ، فان من كانوا يخونون ثقتهم لم يكونوا يستطيعون قط ان يكونوا بمنجاة من ضرباتهم. وكانترهينة يقدمها آل بوكشيشيو تعنيضمانةللسلامة.

وحين توجه دون كورليون الى عائلة بوكشيشيو وطلب منها ان تقدم رهينة لكل « عائلة » من العائلات التي ستشترك بمحادثات السلام ، لم يشك احدبصدقه واخلاصه . لم يكن الغش اذن واردا . وسيكون الاجتماع هادئا كأنه العرس .

وحين تمت قضية الرهائن هذه ، عقد الاجتماع في قاعة مصرف تجاري صغير كان رئيسه مدينا لدون كورليون الذي كان يملك عددا معينا من اسهم ذلك المصرف ، بالرغم من ان السندات كانت مسجلة باسم الرئيس المدير العام. كان ذلك القطب المالي يتذكر دائما بانفعال اللحظة التي كان قد قدم فيها لدونكورليون ملفا يثبت صاحب تلك الاسهم ، ويجعل اي غش بينهما مستحيلا ، فكان ان قال له الدون مذعورا :

– ولكني يا عزيزي مستعد أن اودعك ثروتي كلها . انني افوض اليك أمر حياتي وسعادة اولادي . ويبدو لي غير معقول ان تغش او ان تخونني . ان مفهومي للعالم وثقتي بنفسي ، بالطريقة التي احكم بها على الشخصية الانسانية ، كلذلك

سوف ينهار في تلك الحالة . ان عندي بالطبع مستنداتي المكتوبة ، بحيثاني اذا اصابتني مصيبة فان ورثتي سيعرفون آن بين يديك قسما من مالي ، ولكني على كل حال اعرف انك ، حتى ولو لم اكن بعد على قيد الحياة لاسهر على مصالح اهلي، ستبقى امينا لي وستسهر على حاجاتهم .

وبالرغم من ان رئيس المصرف لم يكن صقليا ، فقد كان يتمتع بحساسية دقيقة . وقد فهم الدون تماما ان رغباته بعد الآن ستكون اوامر . وهكذا وضع مكتب ادارة المصرف وقاعة الاجتماعات تحت تصرف « العائلات » ذات سبت ، بعد الظهر .

وامّن سلامة المجتمعين نخبة لبس افرادها ثوب حرس المؤسسة المعتادين. وفي العاشرة صباحا ، بدأ رؤساء العائلات يصلون مع رؤساء اركانهم . وبالاضافة الى رؤساء عائلات نيويورك الخمس ، كان ثمة رؤساء عائلات الولايات المتحدة العشر ، باستثناء رؤساء شيكاغو : شياه البيئة الجرباء . كان ميئوسا من تمدين هؤلاء ، ولم يكن ثمة مبرر لدعوتهم للمشاركة بمؤتمر على مثل هذه الاهمية .

وكان قد اقيم هناك مشرب ومقصف صغير . ولم يكن يحق لكل مشارك الا مساعد واحد . وكان معظمهم قد اصطحبوا مستشاريهم ، من اجل هذا كان ثمة في القاعة بعض الرجال الشبان ، وخاصة توم هاجن ، الوحيد الذي لم يكن صقليا . فكان طبيعيا ان ينظر اليه بفضول ، كما لو انه ظاهرة في معرض .

كان هاجن يحسن التصرف . لم يقل كلمة ، بل هو لم يبتسم ، وظل تحت تصرف سيده يظهر له احترام غلام اثير يسهر على راحة مليكه . اتاه بالشراب ، واشعل له سيكاره ، ووضع منفضة في المكان المناسب ، كل ذلك بمراعاة ، ولكن من غير تزلف . وكان هاجن وحده كذلك يعرف من كانت تمثل الصور المعلقة على الجدران الملبسة بخشب السنديان الداكن : صور الشخصيات الاسطورية التي كانت قد جمعت الثروات في ميدان المال او البترول . بل كان فيها سكرتير الخزانة هاملتون ، ولم يستطع هاجن ان يمتنع عن التفكير بان هذا السكرتير القديم لواشنطون كان سيستحسن ان ينعقد مؤتمر صلح في مقر مصرف ، لانه ليس كالمال يهدىء ويدفع الى العقل المحض .

كان المنهاج يلحظ وصول الاعضاء تدريجيا من التاسعة والنصف حتى العاشرة . وما دام دون كورليون هو صاحب المبادرة في اللقاء وكان يقوم على نحو ما بدور المضيف ، فقد كان اول الواصلين . كانت الدقة في المواعيد احدى مزاياه الكثيرة .

ثم وصل كارلو ترامونتي الذي كان قد اقام مملكته على جنوب الولايات المتحدة . كان رجلا تصفا ، ذا قامة وهيئة مؤثرتين ، طويلا بالنسبة اصقلي ، مسمرا جدا ، وكان يرتدي بذلة رائعة التفصيل . لم يكن يشبه ايطاليا قط ، بل كان يوحي بانه احد رجال الملايين اولئك الذين يرون في المجلات وهم يصطادون السمك على يخوتهم . وكانت عائلة ترامونتي تحصل على مواردها من القمار . وحين يرى المرء « دونها » لا يشك بأية ضراوة كسبت مملكتها .

كان قد وصل من صقلية في حداثته ، فأقام في فلوريدا وعمل في شبابه لصالح نفاية من سياسيي الجنوب المحليين كانت تجبي الضرائب على القمار . كان هؤلاء جماعة بلا ضمائر ، مدعومين بشرطة لا هوادة فيها . ولم يكن اولئك ولا هؤلاء يخطر ببالهم ان مهاجرا باهتا سيقلب سلطتهم ويستولي عليها . ولم يكونوا يتوقعون خاصة ان يتعرضوا لهجومات عنيفة كتلك وقاتلة . والحق انهم اذا لم يظهروا ردود فعل فلان العائدات التي كان القمار يؤمنها لهم لم تكن تعادل اهراقا للدم معمما . واكتسب ترامونتي تواطؤ الشرطة بأن خصها بقسم من قالب الحلوى اكبر . وحين زال السياسيون ، استأصل اللصوص الاغبياء الذين كانوا يديرون قاعات القمار المنافسة . ثم اقام ترامونتي علاقات له في كوبا مع رجال باتيستا . وانتهى به الامر الى توظيف رساميل ضخمة في اماكن اللذة في هافانا :الكازينوات ودور البغاء وجميع الاماكن التي كانت تجتذب مقامري الولايات المتحدة . وكان ترامونتي ، في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، مليونيرا كبيرا ، وكان يملك ، مما يملك ،واحدا من افخم فنادق ميامي بيتش .

حين دخل ترامونتي قاعة الاجتماع يتبعه مستشاره الاشد سمرة منه ،عانق دون كورليون ، ثم عبر بتكشيرة اسى عن تعازيه لموت سانتينو .

ووصل الدونات الآخرون بالتعاقب . كانوا متعارفين اذ سبق لهم ان اجتمعوا احيانا في السابق اما بداعي الصداقة او لاعمال تجارية . وكانوا قد تعاملوا دائما بمجاملة حرفية ، وتبادلوا الخدمات الصغيرة في اثناء شبابهم . وكان ثاني من وصل جوزيف زالوشي ، من ديترويت .

كانت عائلة زالوشي تملك ، عبر وسطاء مسخرين وتحت مختلف الاغطية، ميدانا لسباق الخيل قريبا من ديترويت ، وكانت لها مصالح في معظم مقامر المنطقة. وكان زالوشي ذا وجه مستدير وهيئة حفية ، وكان يعيش في منزل بمئة الف دولار يقع في « غروس بوينت » ، حي ديترويت الثري . وكان احد اولاده قد تزوج ابنة اسرة اميركية مشهورة وعريقة . وكان جوزيف زالوشي ، كدون كورليون ، رجلا ذكيا . وكانت ديترويت اقل المدن التي تسيطر عليها « العائلات » عنفا ، اذ لم يحدث فيها خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة اكثر من عمليتي قتل اثنتين . وكان يستنكر تهريب المخدرات .

كان يرافق زالوشي مستشاره ، وقد عانق كلاهما دون كورليون . وكان لسيد ديترويت صوت اميركي رنان وكان يتكلم بلكنة خفيفة . وكان لباسه ، لباس رجل اعمال ، وكانت له كذلك ارادة طيبة وودية . وقد قال لدون كورليون :

ــ ان صوتك وحده كان يستطيع ان يأتي بي الى هنا .

فحنى دون كورليون راسه علامة الشكر . كان يعرف ان بامكانه ان يعتمد على مساندة زالوشي .

اما الرجلان التاليان اللذان وصلا معا في سيارة واحدة من شاطيء الباسيفيك، فكانا يعملان شريكين . وكانا أصغر رؤساء العائلات الحاضرين ، لان سنهما كانت اقل من خمسين عاما . كان فرانك فالكون وانطوني موليناري يرتديان لباسا اقل تحفظا

من لباس الآخرين ويظهران حيوية مفرطة تبدو بعض الشيء ناشزة . وكان فرانك فالكون رئيس نقابات صناعة السينما وكذلك نقابات المقامر السرية المقامة حتى داخل الاستديوهات . وكان بالاضافة الى ذلك يدير شبكات البغاء التي كانت تقدم الفتيات لجميع الاماكن السرية في الشرق الاقصى. ولقد كان الدخول في « اشغال السينما» يبدو في نظر معظم الدونات خارج نطاق الامكانات ، ولكن فالكون كان يتمتع بحس خاص في المهارة . من أجل هذا كان سائر الدونات يحذرونه .

اما انطوني موليناري فكانت له اليد العليا على احواض سفن سان فرنسيسكو، وكان يمارس سلطته على المراهنات المتعلقة برياضات الهواء الطلق . وكان متحدرا من عائلة صيادي سمك صقليين ، فكان يملك مطعم سان فرنسيسكو الذي كان يقدم افضل انواع السمك وثمار البحر . وقد بلغ اعتزازه بذلك انه ، على ما قيل ، كان يخسر المال ، اذ يقدم وجبات رائعة بأسعار رخيصة جدا . وكان وجهه يملك هدوء وجوه المقامرين المحترفين وكان معروفا انه يشرف على تهريب المخدرات عبر الحدود المكسيكية وفي سفن الخطوط التي تصل سان فرنسيكو بالبلاد الشرقية . وكان مستشاراهما الشابان المتينا البنية اقرب الى الفوريلا منهما الى المستشارين ، ولكن لن يكونا لهما طبعا ان يلجأ ا الى السلاح في ذلك الاجتماع .وكان معروفا ان هذين الحارسين الخاصين يمارسان الكاراتيه . والحق ان سائر الدونات كانوا يستطرفون ذلك ، ولكنهم لا يقلقون له باكثر مما كان يقلق زميلاهم الكاليفورنيان أو حملا تعاويذ مباركة من البابا . لنلاحظ مع ذلك ان بعض هؤلاء السادة كانوا يؤمنون بالرب ويمارسون شعائر دينهم .

ووصل بعد ذلك دومنيك بانزا ممثلا عائلة بوسطن . ولم يكن زملاؤه يحترمونه قط . كان معروفا انه يستغل « رجاله » دون ما شفقة ، ولكنه كان معذورا لان كل انسان يحكم عليه بالنسبة لقابلياته . وكان يؤخذ عليه خاصة انه كان عاجزا عن اقامة النظام في مملكته . كان ثمة في بوسطن كثير من عمليات الاغتيال وحروب العصابات والمنافسات القاتلة والنشاطات اللامشروعة غير المراقبة من قبل المافيا . كان تحدي القانون فيها يتجاوز حدوده في الصراحة . وهكذا لم يكن رجال بوسطن الا لصوصا ارديا قوادين . اما دومنيك بانزا ، فكان رجلا سمينا قصير القامة ، وكان اشبه بالسارق ، كما يصفه دون آخر .

ولعل نقابة كليفلاند كانت اقوى النقابات التصاقا بجميع مقامر الولايات المتحدة. وكان دون هذه المدينة ، الملقب « باليهودي » لان الذين كانوا يحيطون به يهودا اكثر مما هم صقليون ، كان طويلا هزيلا ذا وجه طويل وهيئة رقيقة وشعر اشيب. وكان هناك من يهمس انه كان يؤثر اسناد مهمة المستشار ليهودي لو كان يجرؤ . وعلى اي حال، فكما كانت عائلة كورليون تعتبر العصابة الايرلندية لان هاجن كان جزءا منها ، فان عائلة دون فانسان فورلنزا تعتبر العائلة اليهودية ، عن استحقاق . ولكنه كان يدير تنظيما فعالا للغاية ، وبالرغم من انه يوحي بأنه ذو حساسية كبيرة ، فان احدا لم يزعم انه كان قد أغمي عليه لمرآى الدم . كان يسيطر بيد من حديد تلبس قفازا سياسيا من مخمل .

وكان ممثلو العائلات النيويوركية الخمس آخر من وصل . كانوا رجالا اشد تأثيرا ومهابة من الريفيين . وقد لاحظ هاجن هذا بسرعة وادهشه ذلك . ان الدونات النيويوركيين كان لهم كرش واضح ، وفق التقاليد الصقلية القديمة ، وهم من الذين يوصفون في جزيرتهم الاصلية ، بانهم « رجال مبطنون » ، مما كان يعني : اقوياء، جسورين ، يملكون لحما صلبا ، كما لو ان ثمة علاقة ما بين الحيوية والنجاح . واذن فقد كان رؤساء العائلات النيويوركية رجالا صلبين ، جسيمين ، ذوي رؤوس ضخمة، بل حتى اسدية ، وانوف صفيقة من الطراز الامبراطوري ، وملامح ثقيلة ، وافواه ملحمة وخدود مجعدة بأثلام عميقة . ولم يكن ثمة اي تصنع في هيئتهم ، سواء من حيث الملبس او الحلاقة . كان لهم مظهر الرجال المشغولين ، الذين قلما تهمهم سفاسف الامور .

كان ثمة انطوني ستراكي ، سيد نيوجرسي والاحواض الواقعة على طرف مانهاتن الغربي . ولكونه قد ركز نفسه في جهاز الحزب الديموقراطي ، فقد كان مشرفا على جميع مقامر جيرسي سيتي . وكان بين ما يملك عدد كبير من الشاحنات التي تشكل ثروته ، خاصة وانها لم يكن يعترض طريقها مراقبو السير ، فكانت تسير زائدة الحمولة ، فتدمر الطرق . وبالنظر الى ان ستراكي كان يحصل كذلك على عائدات من مؤسسات الاشغال العامة ، فقد كان يربح على الجانبين . وتلك هي حالة تخلق فيها الاعمال التجارية اعمالا تجارية اخرى ، وهذا من طبيعته ان يدفيء قلب كل رجل اعمال ، كان مشربا بالتقاليد القديمة . فلم يكن يهتم قط بالبغاء . ولكن بالنظر الى ان مملكته كانت تمتد على حافتي الهدسون ، فانه لم يكن يستطيع الامتناع عن ملامسة تهريب المخدرات . ومن بين العائلات النيويوركية الخمس المعادية لعائلة كورليون ، كانت عائلته اضعفها ، ولكنها كذلك افضلها وضعا تجاه الخصم .

وكانت العائلة التي تسيطر على شمال ولاية نيويورك تبسط سلطتها على جميع مقامر المدن الصغيرة وكذلك على تهريب المهاجرين الايطاليين عن طريق كندا . وكان رئيسها اوتيليو كونيو يمارس حق النقض على توزيع الشهادات على مالكي ميادين السباق . وكان وجهه المستدير الضحوك ، الشبيه بوجه خباز قروي ، يضفي عليه مظهرا مهدئا تماما . اما من جهة التغطية المالية ، فقد كان يشرف على تجارة البان ضخمة . وكان كونيو مشغوفا بالاطفال ، وكانت جيوبه محشوة دائما بالحلويات . وكان اقصى سعادته ان يوزعها على احفاده او على صبية اقاربه . وكان يضع على راسه لبادة مستديرة منخفضة الطرف ، كتلك التي تضعها النساء لاتقاء الشمس . وكانت هذه القبعة تتوج وجهه القمري بهالة وتجعله قناعا الجذل . وهو لم يسبق له قط ان أوقف ، وتلك حالة نادرة بين الدونات ، ولم تكن الشرطة تعرف نشاطاته الاساسية . بل هو قد كان عضوا في اللجان المدنية ، وكانت فرقة التجارة قد انتخبته « رجل اعمال السنة لولاية نيويورك » .

كان الحليف الاول لعائلة تاتاغليا هو دون اميليو بارزيني ، صاحب مقامر بروكلين وكونيز . وكان يشرف كليا على « ستاتن ايسلند » ، وكان بالاضافة الى ذلك يشارك في جميع النشاطات غير المشروعة التي يتخيلها العقل : من البغاء الى

تهديد الحماية الى التجارة بالمخدرات . وكانت علاقات وثيقةمع عصابةالشاطيءالغربي توسع افقه . وكان يُعد احد الرجال البارعين القلة الذين يهتمون بلاس فيفاس ورينو مدينتي نيفادا المفتوحتين . وكانت مصالحه تمتد حتى ميامي بيتش وكوبا . ولعل عائلته كانتَ ، بعد عائلة كورليون ، اقوى عائلة في نيويورك ، وبالتالي في البلاد كلها. وكان يمارس تأثيره حتى صقلية . وكانت له حصة في جميع قوالب الحلوى السرية بل كان الهمس يدور بأن له قدما في وول ستريت . وكان منذ بدء « الحـرب» قد ساند عائلة تاتاغليا بماله ونفوذه . وكان دون بارزيني يطمح الى الحلول محل دون كورليون بصفته اقوى رؤساء المافيا على جميع اراضي الولايات المتحدة وان يستولي على مملكة آل كورليون . وكانت له مشابه كثيرة مع دون كورليون ، ولكنه كـان اكثر منه عصرية وتكلفا ، وكان يبزه كرجل اعمال . وما كان لاحد قط ان يصفه بأنه انسان رجعي . بل لقد كان الجيل الجديد ، الاكثر طموحا والاقل حكمة ، يعتبـره رئيسه . كان رجلا قويا جدا ، باردا ، ولم يكن يملك حس الود الذي كان يتمتع به دون كورليون ، وربما كان ، في اللحظة التي بدات فيها المحادثات ، اكثر من «يُخشى» في عالم الاوباش .

وكان آخر من وصل دون فيليب تاتاغليا ، رئيس العائلة التي سبق ان تحدت دون كورليون بمساندتها لسولوزو ، وأوشكت ان تقضي على الدون العجوز .وكان الآخرون يحتقرونه بعض الشيء ، مهما بدا ذلك غريبا . لانه استسلم اولا لسلطة التركي الماهر سولوزو الذي جره من انفه ، كما كان يعرف الجميع . ثم لانه كـان مسؤولا عن الصدمات والاضطرابات التي كانت تعاني منها الاعمال التجارية اليومية لهؤلاء السادة منذ بدء الحرب بين العصابات . ثم انه اخيرا كان يمثل ، وقد تجـاوز الستين ، دور المتأنقين الفنادرة ، وكان زير نساء .

وكان تخصصه يمنحه امكانيات عريضة لارضاء هذا الضعف فيه ، لان اسرة تاتاغليا كانت تعتاش من الرق الابيض ، وكانت تشرف على معظم الحانات والمراقص، وكانت من القوة بحيث تجند اية موهبة في اي مكان . ولم يكن فيليب تاتاغليا يتردد في اللجوء الى التخويف ، بل الى العنف ، ليضع يده على مغنين او ممثلين مبتدئين، ولكن واعدين ، او ليفرض نفسه على طابعي الاسطوانات . ولكن عائلته كانت تعيش خاصة على البغاء بجميع اشكاله : من الرصيف حتى الكهوف .

كان طبع فيليب تاتاغليا ينفّر الاشخاص الجادين . فقد كان بدناءلايني يشتكي من النفقات العامة . كانت قوائم غسل الثياب ـ الخوانات وفوط الطاولات والمغاسل والبياضات ـ تلتهم ارباحه . ولكنه كان مالكا كليا او جزئيا للمغاسل التي كانت تقوم بالعمل . وكان يتهم الفتيات بالكسل وعدم الثبات وحب الهرب . وكانت تلك القحاب يبلغ بهن الامر حد الانتحار ! اما القوادون فلم يكونوا في نظره افضل . فجميعهـم غشاشون ، سيئون ، بعيدون عن الاستقامة . وكان يستحيل على المرء ان يطلب منهم خدمة . وقد كان الصقليون الشبان يتظاهرون بالانفة ، فقد كانوا يجدون بيع النساء والحط من شأنهن شيئا غير مشرف . ومع ذلك ، فان اولئك الداعرين لم يكونـوا يترددون في حز رقاب اعدائهم ، والبسمة على شفاههم ، وهم يكادن يغنون، وعلى

صدورهم كتفئية الرهبان ، بل حتى صليب الفصح على قفا معاطفهم . ذلك كان هراء فيليب تاتاغليا . وكان محدثوه يجدونه كريها بل حقيرا . وكان يخور خصوصا ضد السلطات التي تمنح او تمنع شهادات بيع الكحول في الحانات وعلب الليل . وكان يقسم انه خلق من رجال الملايين اكثر مما خلقت وول ستريت ، لكثرة ما دفع الرشاوى لوزراء العدل الاشرار .

ولم يكن يزيد في نفوذه انه كان قد اوشك ان ينتصر على عائلة كورليون. كان زملاؤه يعرفون انه كان قد اعتمد اولا على سولوزو ثم على عائلة بارزيني . ثم انه، بالرغم من امتياز المفاجأة ، لم يكن جديرا باحراز نصر نهائي ، وكانت تلك نقطة رديئة ضده : ان من ينطلق في مشروع جريء ، الى هذا الحد ، عليه ان يهيء نفسه له بفعالية فيجنب الناس كلهم المشاكل . وان موت دون كورليون ، لو تم ، لوضع حدا للحرب منذ الاراقة الاولى للدماء .

وبالنظر الى ان كلا من دون كورليون ودون تاتاغليا قد فقد احد ابنائه في هذه الحرب ، فلم يكونا يستطيعان طبعا ان يتصافحا ، فضلا عن ان يتعانقا ، ولهذا اكتفيا بتبادل هزة راس رسمية . وراقب الجميع باهتمام رئيس عائلة كورليون ليروا اذا كانت جروحه قد خلفت عليه آثار ضعف . وكانوا يتساءلون خاصة لماذا كان هذا الرجل يطلب الصلح بعد موت ابنه الاثير . لقد كان بذلك يعترف بهزيمته وسيتعرض من جراء هذا الى ضعف في قوته . غير انهم لم يكونوا بعد واثقين من شيء .

وتبودلت التهاني والمجاملات والانخاب ، وبعد انقضاء نصف ساعة ، جلس دون كورليون على طرف الطاولة الطويلة المصنوعة من خشب الجوز الملمع . وجلس هاجن الى يساره ، متخلفا عنه بعض الشيء . وكان الدون العجوز يشير بذلك ان قد آن الاوان لبدء المحادثات . وجلس الجميع بدورهم ، وخلفهم مستشاروهم الذين كانوا مع ذلك قريبين بما فيه الكفاية ليدلوا بالنصائح عند اللزوم .

وكان دون كورليون اول من تكلم بلهجة عادية جدا كما لو انه لم يحدث شيء. ومن كان يسمعه كان يظن انه لم يجرح جراحا خطيرة ، وان ابنه الاكبر لم يمت . وان مملكته لم تكن على انهيار ولا اولاده متفرقين . فريدي في الغرب تحت حماية عائلة موليناري ، وميخائيل منفيا على ارض معزولة في صقلية . وقد تحدث طبعا باللهجة الصقليـــة :

— اود اولا ان اشكركم جميعا لمجيئكم . واعتبر حضوركم خدمة تؤدونها لي شخصيا وانا مدين بها لكل منكم . واقول كذلك منذ البدء انني لست هنا لاتنازع او اقنع اي شخص ، وانما لاتكلم بتعقل وابذل كل ما في وسعي لنفترق كأصدقاء . واعاهدكم على ذلك . ان من يعرفني منكم يعرف انني لم اتصرف يوما باستخفاف . وبعد هذا ، لندخل صميم الموضوع . اننا جميعا اشخاص محترمون ، ولسنا بحاجة الى ان نتبادل التأكيدات كما لو كنا محامين .

وتوقف لحظة . ولم ينبس احد بكلمة . كان البعض يدخنون السيكار، وآخرون يشربون اقداحهم . كانوا جميعا معتادين على الاستماع بتنبه وصبر . وكانت لهم كذلك قسمة مشتركة : كانوا قد رفضوا تقبل قواعد المجتمع المنظم والاستسلام

لسيطرة رجال آخرين ، وهذا نادر في الكائن البشري . لم تكن ثمة قوة ولا حي بقادرين على صرف ارادتهم باتجاه لا يروقهم . كانوا جميعا مصممين على الحفاظ على حرية تصرفهم بجميع الوسائل ، بما في ذلك القتل . والموت وحده او قوة قاهرة كانا يستطيعان اخضاع عزيمتهم .

وتنهد دون كورليون وتساءل بلهجة بليغة :

ــ كيف حدث أن بلغت الامور هذا المبلغ البعيد ؟ الامر سواء . لقد ارتكبنا كثيرا من الحماقات اللامجدية ، وهذا ما يؤسف له . ومع ذلك انا اطلعكم على الاحداث كما اراها .

وتوقف لحظة اخرى ليتيح لاحد الدونات ان يقدم اعتراضاته على المشروع ان كان له من اعتراض . ثم استطرد :

ــ الحمد لله انني استعدت صحتي ، وربما امكنني بذلك ان اساعد على استتباب النظام والتفاهم . ربما كان ابني اعنف واعند مما ينبغي . انا لا انكر ذلك. ولكني اريد ان أوضح ان سولوزو جاء يعرض علي عملية يطلب من اجلها مالي ونفوذي وصرح لي انه كان يمثل كذلك مصالح عائلة تاتاغليا . وكانت تلك العملية تتناول المخدرات التي لا تهمني . انني انسان هادىء ، والمشاريع المماثلة مفرطة التحرك في نظري . وقد شرحت ذلك لسولوزو بكل المجاملة الواجبة ، له ولعائلة تاتاغليا . وقلت له « لا » بكل مراعاة . واضفت ان هذه الاعمال لا تنافس اعمالي واني لذلك لا ارى اي مانع بأن يكسب حياته على هذا النحو . وبعد ان أصغى الي ، اطلق الكوارث علينا جميعا . ان هذه لعمري هي الحياة ايها السادة . وان بامكان كل واحد منا هنا ان يروي قصة مصائبه وهمومه ، ولكن ليس هذا هو مقصدي .

واشار كورليون لهاجن ان يأتيه بشراب بارد فامتثل المستشار بخفة . ورطب الدون فمه واستطرد :

ــ اريد ان اعقد الصلح. لقد فقد تاتاغليا ابنا وفقدت انا ابنا . فنحن متعادلان. ما عساه يصبح العالم اذا ظل الناس فيه يغذون الضغائن فوق كل تعقل ؟ كانت تلك مصيبة صقلية حيث يكرس الناس للانتقام من الوقت مالا يبقي لهم فرصة لكسب خبز عائلاتهم . ان هذا لجنون . من اجل هذا اقول لكم الآن : لنعد الى الوضع الذي كنا فيه سابقا . انني لم اتخذ اي تدبير لمعرفة من خاننا ومن قتل ابني . اذا منحت السلام ، فلن افعل شيئا . ان لي ابنا آخر لا يستطيع ان يعيش حاليا بعد في منزلي. وانا بحاجة الى ضمانات بشانه . وحين اكون قد رتبت الامور ليمكنه ان يعود في امان ، فأريد الا يتدخل احد في الامر ولا يجعل السلطات خطرة عليه . وبعد ان نبت في هذا الموضوع ، يمكننا ان نتداول في شؤون اخرى هامة ، وهكذا نتبادل اليوم جميعا خدمات مفيدة . (واتى كورليون بكلتا يديه حركة معبرة عن الخضوع) انني لا اطلب اكثر من ذلك .

هوذا ما قيل بمهارة . وكان فيه دون كورليون المعروف سابقا ، عاقلا ، مرنا ، هادئا في تماسكه ، مباشرا ومتحفظا في كلامه ولكن جميع مستمعيه لاحظوا هذا: كان يعلن انه في صحة جيدة ، وكان هذا يعني انه يجب الا يستخف به بالرغم من الضربات

التي اصابت عائلة كورليون ، وان مناقشة الاعمال الاخرى ستكون غير مجدية قبل الحصول على الصلح الذي كان يطلبه . كان يطلب العودة الى « الوضع القائم » اي انه لن يخسر شيئا رغم الهزائم التي لحقت به في العام الاخير .

ورد عليه اميليو بارزيني بدلا من تاتاغليا ، فتكلم بجفاء ، متقيدا بالموضوع ، في غير فظاظة ولا شتائم . قال :

— كل هذا صحيح . ولكنها ليست الحقيقة كلها . ان دون كورليون مفرط التواضع . والواقع ان سولوزو وتاتاغليا لم يكونا يستطيعان ان ينخرطا في العملية المقصودة بلا مساعدة دون كورليون . فهو اذن قد يضر بها حين لا يقرهما عليها . طبعا ، ليست هذه غلطته ، ولكن الامور تبدو على هذا النحو : ان القضاة والسياسيين الذين سيقبلون هدايا من دون كورليون ، حتى من اجل عمليات مخدرات ، لن يخضعوا لتأثير احد غيره في هذا الصدد . وكان سولوزو لا يستطيع ان يتصرف مالم يتأكد من ان هؤلاء الاشخاص سيعاملونه برحمة وتسامح ، وهذا ما نعرفه جميعا والا كنا مساكين . والآن وقد ازدادت العقوبات ضد تجارة المخدرات ، فان القضاة ووكلاء النيابة يبدون اشد جشعا حين يقبض على احد رجالنا . ان الصقلي حين يحكم بعشرين سنة اعتقال قد يحطم « الاوميرتا » ويفرغ جعبته . هذا قد يحدث. ان دون كورليون هو المتصل بالجهاز القضائي . وهو حين يرفض ان يضع علاقاته تحت تصرفنا ، لا يتصرف كصديق ، بل هو ينتزع اللقمة من فم عائلاتنا .لقدتبدلت الازمان . وبعد اليوم لا يستطيع احد بعد ان يتدبر أمره بوسائله الخاصة . وما دام دون كورليون قد وضع في جيبه قضاء نيويورك ، فعليه ان يقاسمنا هذا المورد. ان بوسعه طبعا ان يقدم لنا قائمته مقابل هذه الخدمات . اننا بعد كل حساب لسنا شيوعيين . ولكن عليه ان يتركنا نستخرج الماء من البئر . الامر على غاية البساطة.

ظل الحضور صامتين حين انهى بارزيني كلامه . لقد اتخذ المعسكران موقفهما الآن ، وليس واردا بعد العودة الى الوضع السابق للاشياء . ولكن ما هو اهم من ذلك ان بارزيني حين تولى الكلام كان يعني انه سينحاز بصراحة الى عائلة تاتاغليا في حربها ضد عائلة كورليون ، اذا لم يعمل للوصول الى تسوية . وبالاضافة الى ذلك كان يربط مصير جميع الآخرين بمصيره اذ يظهر ان حياتهم واملاكهم كانت تتوقف على الخدمات التي كان ينبغي ان يتبادلوها . وكان رفض تقديم خدمةلصديق يعني بعد الآن في نظره عملا عدوانيا . ان المرء لا يطلب حظوة ما باستخفاف ، فلا ينبغي رفض هذه الحظوة باستخفاف .

وتمهل دون كورليون قبل ان يجيب :

— يا أصدقائي ، انني لم ارفض عرض سولوزو بدافع من احتقار او نكاية . انكم جميعا تعرفونني . فمتى حدث ان رفضت تسوية ما ؟ ان هذا يخالف طبعي. ولكني كنت مضطرا تلك المرة ان ارفض . لماذا ؟ لاني اعتقد ان عمليات المخدرات هذه ستحطمنا بعد سنوات . ان الرأي العام في البلاد معاد تماما لهذه السموم . فليست هي كالويسكي او القمار او حتى النساء التي يرغب فيها جميع الناس رغم حظر رجال الكنيسة والدولة . ان المخدرات خطر على جميع من يلمسها . والمتاجرة بها

يمكن ان تقضي على جميع اعمالنا الاخرى . واسمحوا لي ان اقول لكم انكم تتملقوني حين تتصورون انني امارس سلطة كبيرة الى هذا الحد على القضاة والمحاكم . كنت اتمنى لو كان ذلك صحيحا . قد يكون لي بعض النفوذ ، ولكن كثيرين ممن يهتمون بنصائحي سيكفون عن احترامي اذا مزجت المخدرات بعلاقاتنا .ان هؤلاء الاشخاص يخشون ان يتورطوا ، حتى من بعيد ، في عمليات من هذا النوع .وهم شديدو العناد في هذا الامر . حتى رجال الشرطة الذين يمدون لنا يد المساعدة في موضوعات القمار وسواها سيرفضون مساعدتنا في موضوع المخدرات . وطلب خدماتي في هذا الميدان يعني مطالبتي بايذاء نفسي . على اني مستعد مع ذلك ان افعل هذا اذا كنتم ترونه ضروريا للتفاهم على امور اخرى .

انفرج الجو بعد هذه الكلمة الثانية من دون كورليون . وسرى الهمس والاحاديث الجانبية . لقد قام بتنازل رئيسي : انه سيمضي حتى منح حمايته لاعمال الاتجار بالمخدرات . وبعبارة اخرى ، كان يقبل كل القبول عرض سولوزو الاصلي كما لو انه مقدم له الآن من مجموع الدونات المجتمعين امامه . كان مفهوما انه لن يشارك في العمليات، وانه لن يوظف في ذلك امواله ، وانه لن يستخدم الا نفوذه الحامي على الجهاز القضائي . ولكن هذا كان مع ذلك شيئا هائلا .

ورد عليه فرانك فالكون ،دون لوس انجلس ، فقال :

ــ لا سبيل هناك لمنع رجالنا من ممارسة هذه العمليات . انهم يفعلون ذلك لحسابهم الخاص ويضعون انفسهم في المغطس . ان المخدر اكثر مردودا من ان يقاومه المرء . واذن فسيكون اخطر علينا من الا نشارك فيه . اذا اخذنا هذه التجارة بايدينا ، فسنخفيها بشكل افضل ، وسنغطيها بشكل افضل ، وسننظمها بشكل افضل ، وسنتأكد بذلك من انها ستحدث فوضى اقل . والمشاركة فيها ليست سيئة الى هذا الحد . فيجب ضبطها وحمايتها وتنظيمها . اننا لا نستطيع ان نترك الجميع يصيحون « حا ! دي ! » على هواهم ، كما يجري بين عصبة من الفوضويين .

وتدخل دون ديترويت ، الذي كان اكثر الناس تأييدا لكورليون ، تدخل ضد صديقه لمصلحة التعقل ، كما قال :

ــ انني احذر المخدرات واتوقاها . وانا منذ سنوات ادفع اجورا اضافية لرجالي حتى لا يشاركوا فيها . ولكن بلا جدوى . فقد اتى من يقول لهم : « عندي بعض المسحوق . فاذا سلفتني ثلاثة اربعة آلاف دولار امكننا ان نستخرج منها خمسين الفا بالمفرق . » فمن هو القادر على مقاومة مثل هذه الامكانية ؟ وعند ذلك، انشغل رجالي بهذا المبلغ الاضافي الصغير الى حد ان أهملوا المهمات التي ادفع لهم من اجل انجازها . ان المخدرات تؤمن ربحا ضخما وتجارتها تزدهر شيئا فشيئا . فمن المستحيل وقفها . فعلينا اذن ان نتولاها بيدنا ونجعلها طاهرة . انني لا اريد ان اراها حول المدارس ، واحظر بيعها للاولاد . سيكون ذلك « عملا شائنا » ! وسأجهد في مدينتي لجعل توزيعها محصورا بالملونين . انهم افضل الزبائن واقلهم ازعاجا ، ثم انهم على كل حال حيوانات لا يحترمون زوجاتهم ولا عائلاتهم ولا انفسهم . فليخسروا اذن نفوسهم في المخدرات ! ولكن يجب ان نهتم بالامر . اننا لا نستطيع

ان ندع كل شخص يتصرف على هواه ويحدث اضطرابات تضر بجميع الناس .
استقبلت كلمات دون ديترويت بهمسات تأييد . كان قد ضرب راس المسمار في الصميم . حتى ولو دفع المرء ، لا يستطيع منع أحد من الاتجار بالمخدرات . اما ملاحظاته بشأن المدارس والصبية ، فيجب ان تعزى الى حساسيته . فلا حاجة لاحد ان يكون رقيق القلب مثله ليعرف كم هو عبث محاولة بيع المخدر للاولاد . فأين تراهم سيجدون المال ليشتروه ؟ وما كان يقوله عن الملونين لم يكن اكثر قيمة من ذلك . لقد كانت عالم الاوباش يعتبر الزنوج مجردين من كل اهمية لانهم مجردون من السلطة . ان يكونوا قد سمحوا للمجتمع بان يطحنهم الى حد التدمير ، كان ذلك يثبت كم كانوا بلا قيمة . وحين اشار دون ديترويت الى مسترقي المجتمع هؤلاء ، فهو انما كان يثبت انه ميال الى الترهات .

وتكلم جميع الدونات . وقد اشتكى الجميع بل فضحوا المتاجرة بالمخدرات كسبب للقلق ، ولكنهم أجمعوا على استحالة وضع حد لها . كانت هذه التجارة تعود، بكل بساطة ، بالمال الكثير . وكان يترتب على ذلك بالضرورة ان الرجال الجسورين سيهتمون بها ، لان تلك هي الطبيعة البشرية .

وانتهى الامر بالاتفاق . ستكون تجارة المخدرات بعد الآن امرا مسموحا بـه في عالم الاوباش. وسيمنحها دون كورليون حمايته في منطقة الشرق. وسيتولى آل بارزيني وآل تاتاغليا العمليات على نطاق واسع . وبعد الاتفاق على ذلك ، انتقل المؤتمر الى موضوعات ذات اهمية عامة لان هناك مسائل معقدة تحتاج الى حلول . وتقرر اعتبار لاس فيغاس وميامي مدينتين مفتوحتين لاعمال جميع العائلات . وكان الجميع يعترفون بأهمية مستقبل هاتين المدينتين . واتفقوا كذلك على الا يسمح فيهما بأي عنف وأن يقضي على المجرمين الصغار من كل نوع . وتم التفاهم على انه، بالنسبة للاعمال الرئيسية ، وخاصة عمليات القتل التي لا بد منها والتي يمكن ان تثير الراي العام ، فلن يتصرف احد بلا موافقة المجلس الاستشاري كما اجتمع ذلك اليوم . وتفاهموا ايضا على هذه النقطة : سيمتنع المنفذون والجنود الآخرون عن الجرائم العنيفة واعمال الانتقام فيما بينهم بسبب مسائل شخصية . وستتعاون العائلات في المستقبل بان تتبادل المنفذين والمساعدة التقنية في بعض الميادين من مثل تبعية المحلفين . ان هذه ، في بعض الحالات ، ضرورات حيوية .
تناولت المفاوضات هذه الموضوعات ببساطة ولكن بجدية كبيرة ايضا . وقد استغرقت وقتا وقطعت بغداء بارد قدمه المقصف . وسعى بارزيني اخيرا للحصول على رفع الجلسة قائلا :

– لقد ترتب كل شيء . اننا في سلام . فاسمحوا لي ان اقدم آيات احترامي الى دون كورليون الذي نعرفه جميعا منذ سنوات وفيا لعهده . واذا طرات بيننا خلافات اخرى فبامكاننا ان نجتمع من جديد ، وعلينا خاصة الا نسقط بعد في مثل الحماقات التي ارتكبت في الاوقات الاخيرة . وبالنسبة لي ، فاني أسلك طريقا جديدا وانا مسرور جدا باتفاقاتنا .

ووحده فيليب تاتاغليا كان ما يزال قلقا . كان مقتل سانتينو كورليون يجعل

منه الرجل المهدد اكثر من سواه من الحاضرين اذا اندلعت الحرب من جديد . وللمرة الاولى تكلم على مهل :

ـ انني اقر كل ما اتفقنا عليه ، وانا مستعد لان انسى مصائبي الخاصة ولكني اود ان احصل على تأكيدات واضحة من قبل كورليون . هل سيسعى الى ثأر شخصي ؟ حين يصبح ، مع مرور الايام ، اقوى ، أتراه سينسى اننا تعاهدنا على الصداقة ؟ كيف لنا ان نعرف اذا لم يعاوده الشعور ، بعد ثلاثة اعوام او اربعة ، بأنه كان مخدوعا ومجبرا على قبول اتفاقاتنا بالقوة ؟ اولا يعتقد آنذاك انه حر بنقضها ؟ اينبغي ان نظل الى الابد واقفين على حذر ؟ ام ان بامكاننا حقا ان نعيش حياة هادئة ، والفكر في أمان ؟ ايكون كورليون مستعداً ان يعطينا جميعا هذا التأكيد كما اعطيتكم اياه ؟

وآنذاك فقط ، القى دون كورليون الخطاب الذي لا بد أن يتذكره الجميع وقتا طويلا والذي اكد على مزاياه كرجل دولة قادر على ان ينظر الى ما وراء أفق الساعة . والحق انه تبدى متفوقا على الجميع بالحس السليم وبطريقته في ان يتحدث من صميم القلب عن عقدة المشكلة . وفي تلك اللحظة كذلك اطلق تعبيرا جديدا اشتهر مثلما اشتهر تعبير تشرشل « الستار الحديدي » . ولكن الجمهور لم يعرف هذا التعبير الا بعد عشر سنين او تزيد .

للمرة الاولى نهض واقفا ليتوجه الى المجلس . كان « مرضه » قد أهزله بعض الشيء وكانت اعوامه الستون اكثر ظهورا . ولكن احدا لم يشك في ان هذا الرجل القصير كان قد أسترد كل قوته الجسدية والروحية .

ـ اي نوع من الافراد عسانا نكون اذا لم نستطع الامتثال للعقل ؟ اننا لن نساوي اكثر من وحوش الغاب ، اذا كان الامر كذلك . ولكننا عاقلون ، وبوسعنا ان نفكر بتعقل بعضنا مع البعض الآخر وان نهدي انفسنا الى الصواب . لاية غاية تراني اشن كل آيات العنف والفوضى والاضطراب هذه ؟ لقد مات ابني وهذه مصيبة . ولكن يجب ان اتحملها من غير ان اجعل الناس الابرياء حولي يتألمون بسببها . انني اذن اعاهدكم عهد شرف انني لن اسعى الى الثأر . لن اسعى ابدا الى معرفة اكثر للاحداث التي وقعت ، وسأترك هذه القاعة صافي القلب . انني حريص على ان اقول لكم ان علينا دائما ان نهتم بمصالحنا . لقد رفضنا جميعا ان نكون دمى راقصة على هدى الشخصيات الكبيرة التي تسحب الخيوط . لقد بسم لنا الحظ في هذا البلد . ومعظم اولادنا يعيشون الآن حياة افضل . ان لبعضكم هنا أولادا من الاساتذة والعلماء والموسيقيين . ان لكم حظا ! وربما كان احفادنا مرصودين ليصبحوا اقطاب المستقبل . وليس بيننا من يرغب في رؤية اولاده يعيشون مثل حياتنا . انها مفرطة القسوة . سيكون بامكانهم ان يعيشوا كسائر الاميركيين لان شجاعتنا ستكون قد ضمنت وضعهم وسلامتهم . ان لي احفادا وآمل ان يصبح اولادهم ـ من يدري؟ ـ حكاما او حتى رؤساء جمهورية !لا شيء هنا ، في اميركا ، مستحيل . ولكن يجب ان نتبع تقدم زماننا وتطوره . ان زمن المسدسات والقتل والذهب قد انقضى . ان علينا ان نكون بعد الآن في مثل براعة رجال الاعمال . سنربح بذلك مالا اكثر ،

وسيكون هذا افضل لاحفادنا .

« اما بشأن ما قد فعلناه ، فليس لنا ان نقدم حسابا للاقطاب الذي يسمحون لانفسهم بان يقرروا ما يجب ان نفعل بحياتنا ، والذين يعلنون الحرب على هواهم ويريدوننا ان نحارب لنحمي املاكهم . من يجرؤ على الادعاء ان علينا ان نطيع قوانين مصنوعة لصالحهم وعلى حسابنا ؟ وبأية صفة يجرؤون على منعنا من السهر على مصالحنا الخاصة ؟ انها اعمالنا . وسنحكم عالمنا لانفسنا لانه عالمنا نحن . فيجب اذن قبل كل شيء ان نتساند لندافع عن انفسنا ضد الدخلاء . والا ادخلوا حلقة في انوفنا كما فعلوا للملايين من النابوليين وبعض ايطاليي هذا البلد الآخرين .

« هذا هو السبب الذي من اجله اتخلى عن كل فكرة بالثأر لولدي القتيل . وانا اتصرف على هذا النحو للصالح المشترك . انني اقسم في هذه اللحظة اننا لن نرفع اصبعا ضد اي شخص من الحاضرين هنا ، الا جوابا على استفزاز صريح ، ما دمت مسؤولا عن اعمال عائلتي . بل اذهب الى ان اعرض للمخاطر مصالح عائلتي لحاجات الجميع . انني اعاهدكم على ذلك . واعتبر هذا كلمة شرف . وبينكم من يعرف اني لم انكث يوما بعهد .

« ولكن لي ايضا مصلحة انانية . لقد اضطر اصغر ابنائي الى الفرار بعد اتهامه بقتل سولوزو وقتل نقيب في الشرطة . يجب ان آخذ الآن التدابير ليعود سليما معافى الى قلب العائلة ، بريئا من هذه التهمة الخادعة . سأجعل هذه قضيتي وانا الذي سأتخذ هذه الترتيبات . ربما وجب عليّ ان اجد المذنبين الحقيقيين ، وربما استطعت ان اقنع السلطات ببراءته ، وربما عاد الشهود والمجندون عن اكاذيبهم ، ولكني اكرر لكم ان هذا يعنيني واعتقد انني سأتدبر الامر .

«ولكن اسمحوا لي ان اقول لكم هذا : انني موسوس . هذه نقيضة مضحكة، ولكن يجب ان اعترف بها لكم. وبالتالي ، اذا حدث اي حادث مؤلم لابني الصغير ، اذا صرعه شرطي ما ، حتى على غير ارادته ، واذا شنق نفسه في زنزانته ، واذا مثل من جديد شخص آخر ليشهد ضده ، فان وسواسي سيوحي لي بان هذا الحدث ينسب الى نية الايذاء لدى واحد من الحاضرين هنا في هذه القاعة . بل اذهب الى ابعد من ذلك : اذا ضربت الصاعقة ابني ، فسأدين احدا منكم . اذا سقطت طائرته في البحر ، اذا غرقت سفينته تحت امواج الاوقيانوس ، اذا اصابته حمى قاتلة ، اذا سحق قطار سيارته ، فانا من الوسواس بحيث اعتبر واحدا منكم مسؤولا عن ذلك . انني لن اغفر ، ايها السادة ، هذا النحس ولا نية الايذاء هذه . وبعد ان اوضحت ذلك ، اقسم بروح احفادي انني لن انقض ابدا الصلح الذي عقدناه . انني اتساءل ، بعد كل حساب ، انكون او لا نكون افضل من الاقطاب المسؤولين عن ذبح ملايين الكائنات البشرية في اثناء حياتنا ؟

واثر هذه الكلمة ، نهض دون كورليون متجها نحو دون فيليب تاتاغليا الذي نهض ايضا ليستقبله ، فتعانقا وتبادلا قبلة على الخد . وصفق الدونات الاخرون ونهضوا بدورهم ليتصافحوا ويهنئوا كورليون وتاتاغليا على صداقتهما الجديدة . ربما لم تكن اخلص صداقة في العالم ، ولعلهما لن يتبادلا هدايا الميلاد ، ولكنهما على

الاقل لن يتقاتلا . وهذا يكفي في هذه الحياة الدنيا كصداقة ولم يكونا يطلبان المزيد.

وبالنظر الى ان ابنه فريدي كان يعيش في « الغرب » ، بحماية عائلة موليناري، فقد ظل دون كورليون فترة بعد الاجتماع مع دون سان فرنسيسكو ليشكره . وقال موليناري ما فيه الكفاية ليفهم دون كورليون ان فريدي كان قد اتخذ مكانه هناك، وانه كان يعيش سعيدا ويصبح نوعا من الدون جوان كان موهوبا بعبقرية ادارة الفنادق ، كما يبدو . وهز دون كورليون راسه مفتونا ككثير من الآباء الذين يكشف لهم عن مواهب ابنائهم غير المنظورة ..اليس صحيحا ان اكبر مصيبة تحمل احيانا جزءا من السعادة ؟ لقد اجمع كلاهما على ان هذا صحيح . وشرح كورليون بوضوح لموليناري انه كان يحس نفسه مدينا له بالخدمة الكبرى التي يؤديها لـه بحماية فريدي . واخبره انه سيستخدم كل نفوذه لكي تظل خطوط البرق تحت تصرف رجاله ، ايا كان التغير الذي قد يحدث في المستقبل في بنية البلد السياسية . وكان ذلك هاما جدا ، لان استعمال البرق كان مصدر الم لمكاتب متسلمي الرهانات، وكانت يد اشرار شيكاغو الثقيلة تفاقم المصاعب . ولكن دون كورليون كان ذا نفوذ، حتى على هؤلاء البرابرة . واذن ، فقد كان وعده يساوي ذهبا .

كان المساء يهبط حين وصل دون كورليون وتوم هاجن والسائق الحـارس الخاص الى الممر المشجر في لونغ بيتش . وحين دخل الدون الى منزله قال لتوم:

ـ سائقنا هذا ، لامبون ، اهتم به . يبدو لي انه يساوي اكثر مما يفعل حاليا .

هذه الملاحظة ادهشت هاجن . لم يكن لامبون قد نطق بكلمة واحدة طـوال النهار ، بل هو لم يلق نظرة واحدة نحو الرجلين الجالسين على المقعد الخلفي . كان قد فتح الباب للدون ثم مثل على مقوده امام المصرف ، في نهاية الاجتماع . بالاختصار ، كان قد فعل كل شيء بدقة ، ولكن ليس افضل من اي سائق يحسن مهنته . واذن ، فان عين الدون كانت قد لاحظت شيئا لم يره هاجن .

وصرف دون كورليون هاجن ، وطلب اليه ان يعود بعد العشاء ، على ان يكون قد اخذ وقته واستراح قليلا ، لان حديثهما قد يستغرق جزءا من الليل . وقال له ايضا ان يستدعي كليمنزا وتيسيو للساعة العاشرة ليلا ، وليس قبل ذلك . وكان على هاجن كذلك ان يطلع تيسيو وكليمنزا على ما حدث بعد الظهر .

وانتظر دون كورليون في الساعة العاشرة رجاله الثلاثة في مكتبه القائم عند زاوية البيت ، وبعبارة اخرى في المكتبة الفنية بكتب الحقوق . وهناك ايضا كان تلفونه الخاص . وكانت زجاجات ويسكي وثلج وماء سلتز موضوعة على صينية . وحين وصلوا ، اعطى الدون تعليماته :

ـ لقد عقدنا الصلح بعد ظهر هذا اليوم . واعطيت كلمة الشرف بان القضية قد انتهت بالنسبة لنا . ولكننا لا نستطيع ان نثق اكثر مما ينبغي باصدقائنا . فلنبق اذن على حذر . اننا لا نريد بعد مفاجآت صغيرة سيئة . (والتفت الى هاجن) هل حررت رهينتنا ؟

ـ لقد تلفنت لكليمنزا بمجرد وصولي الى البيت .

فالتفت كورليون الى كليمنزا الضخم الذي هز رأسه : ـ لقد اعدت له حريته.

قل لي ، يا عرّاب ، أمن الممكن حقا ان يكون صقلي على مثل البلادة التي يتظاهر افراد بوكشيشيو بها ؟

– انهم يملكون ما فيه الكفاية من الذكاء ليكسبوا عيشهم بصورة مناسبة . فلماذا يكونون اذكى من ذلك ؟ ليس آل بوكشيشيو هم من يزدعون الاضطراب .ومع ذلك ، فمن الصحيح انهم لا يشبهون الصقليين .

وابتسم الدون . كانوا جميعا منفرجي الاسارير منذ وضعت الحرب اوزارها. واعد دون كورليون المشروب بيديه وقدمه لكل رجل من رجاله . وتذوق هو كأسه بجرعات صغيرة ثم أشعل سيكارا .

– اريد الا تتخذوا اية تحقيقات لكشف ما حصل لسوني . هذه قضيـــة منتهية ، ويجب ان تنسى . اريد ان نتعاون مع العائلات الاخرى ،حتى ولواصبحت جشعة بعض الشيء فلم تترك لنا حصتنا العادلة من الاشياء . وما دمنا لا نجـد الوسيلة لاعادة ميخائيل الى هنا ، فاني اريد المحافظة على الصلح ، بالرغم من كل تحد واستفزاز . واريد ان يكون هذا هو تفكيركم الثابت . لا تنسوا انه يجب ان يعود بكل أمان ، ليس فقط بمنجى من مكر عائلتي تاتاغليا وبارزيني ، بل من مكـر الشرطة ايضا . ان بامكاننا طبعا ان نبطل الحجج التي تلعب ضده . ان خادم المطعم لن يشهد . ولا ذلك الشخص الذي كان موجودا هناك . ان الحجج الحقيقية هي الاقل اقلاقا لي لاننا نعرفها . بل يجب ان نهتم بالحجج المزيفة التي يمكن للشرطة ان تخترعها لان مخبريها يؤكدون لها ان ميخائيل قد قتل نقيبها . حسنا . يجب ان نطلب من العائلات الخمس ان تضع كل امكاناتها لتصحح راي الشرطة . ان جميع مخبريهم يجب ان يقدموا الى الشرطة رواية جديدة للحادث . وبعد كلما قلته بعد ظهر اليوم ، سيفهم اصدقاؤنا ان لهم مصلحة كبرى ان يقوموا بذلك . ولكن هـذا لا يكفي . علينا نحن ايضا ان نجد شيئا يسمح لميخائيل بالا يهتم بعد بهذه القصة ، والا فان عودته ستكون غير مجدية . فكروا جميعا بذلك كما افكر فيه . هـذا هو الاهـم .

« يجب ان يكون لكل انسان الحق بان يرتكب حماقة في حياته . وهذه هي حماقتي . انني انوي ان اشتري جميع البيوت المحيطة بالمر المشجر . اريد الا يتمكن احد من رؤية ما يحدث في حديقتي ، حتى ولا من بعد الف وخمسمئة متـر دائريا . سيكون المر كله مغلقا بحاجز ومحروسا طوال الوقت. ولن يكون في الحاجز الا بوابة واحدة يسهر عليها بعض رجالنا . وبالاختصار ، انوي ان اعيش بعد الآن في قلعة حصينة . واعلموا كذلك انني لن اذهب للعمل في المدينة. انني اتقاعد نصف تقاعد . واحس بحاجة الى العناية بالحديقة والى صنع بعض النبيذ حين ينضـــج عنبي . انا راغب ان اعيش في بيتي . ولن اخرج الا في اجازات قصيرة او لمعالجة بعض الاعمال ذات الاهمية الكبرى . وسيتم ذلك وانا احيط نفسي بكل الاحتياطات. لا تسيئوا تفسير ذلك . انني لا اهيىء اي شيء ، ولكني حكيم وحذر كما كنت دائما. وليس ما هو ابعد عن ذوقي من اللامبالاة . ان النساء والاطفال وحدهم يستطيعون ان يسمحوا لانفسهم بها . افعلوا هذا كله على مهل . لا استعدادات محمومة تضع

اصدقاءنا في موضع الشك والحذر . ان بالامكان تدبير الامور بحيث يبدو ذلك طبيعيا .

« انني بعد الآن سافوّض امري شيئا فشيئا الى كل منكم . ان فرقة سانتينو ستحل وسيندمج رجاله في فرقكم . ولا بد ان يطمئن ذلك أصدقاءنا اذ يؤكد لهم انني افكر حقا بالسلام . واريدك يا توم ان تختار رجالا يصحبونك الى لاس فيغاس وان تقدم لي تقريرا كاملا عما يجري فيها . ستحمل اليّ اخبار فريدو وما الذي آل اليه هناك . لقد قيل لي انني لن اعرف بعد ابني . بالظاهر ، جعل نفسه طباخا وهو يتسلى مع الفتيات اكثر مما يناسب شابا راشدا . لقد كان ، لعمري ، مفرط الجدية في حداثته وهو لم يخلق قط لاعمال العائلة التجارية . وبالاختصار ، لنحاول ان نعرف ماذا نستطيع ان نفعل هناك .

سأله هاجن : ــ لماذا لا ترسل صهرك الى هناك ؟ لا تنس ان كارلو مولود في النيفادا وانه يعرف البلاد .

هزّ دون كورليون راسه سلبا : ــ لا . ان زوجتي تعاني الضجر بلا اولاده . اريد ان تقيم كونستانزيا وزوجه في بيت من بيوت الممر ، وان يسند الى كارلو مركز يتحمل فيه المسؤولية . ربما كنت معه اقسى مما ينبغي . (وكشّر دون كورليون) ثم انني مشتاق الى الابناء . سوف يسحب من أعمال القمار ليلتحق بالنقابات . انه جدير بأعمال المكتب وبالكلام الكثير . انه متكلم بارع ..

وكان صوت الدون يعبّر عن ظلّ من احتقار .

قال هاجن : ــ حسنا . سنراجع ، كليمنزا وانا ، لائحة رجالنا لنشكل الفريق الذي يذهب الى لاس فيغاس . اتريد ان ابعث لك بفريدي في العطلة لقضاءبضعة ايام الى جانبك ؟

رفع الدون راسه نفيا وقال : ــ وما الفائدة ؟ ان زوجتي ما تزال طباخة ماهرة فليبق اذن هناك .

وتململ الرجال الثلاثة على مقاعدهم متضايقين . انهم لم يكونوا قد ادركوا ان فريدي يثير هذا القدر من الاستياء ، وكانوا يشعرون بان هناك سببا يفوتهم . وتنهد دون كورليون قائلا :

ــ انوي ان ازرع بندورة وبعض الفليفلة الخضراء في حديقتي هذا العام . اكثر من حاجتي . وسأعطيكم بعضه . انني بحاجة الى السلام والهدوء والسكينة لايام شيخوختي . هذا ، لعمري ، كل شيء . خذوا قدحا آخر اذا شئتم .

كان ذلك اذنا بالانصراف . فنهض الرجال الثلاثة . ورافق هاجن كليمنزا وتيسيو حتى سيارتيهما وتواعد معهما على اللقاء ليضعوا تفاصيل ما سوف ينفذونه وفق رغبات الدون . ثم عاد الى البيت حيث كان ينتظره المعلم .

كان دون كورليون قد انتزع سترته وربطة عنقه وتمدد على الاريكة . وكان وجهه القاسي ، على انفراج قسماته ، يعبر عن التعب . وقد دلّ هاجن على كرسي وسأله :

ــ اذن ، يا مستشار ، هل تنكر عليّ ما فعلته اليوم ؟

تمهّل توم قبل ان يجيب . ــ لا . ولكن هذا لا ينسجم مع صبعك . تقول انك لا تريد ان تعرف كيف اغتيل سانتينو وترفض ان تثار له . انا لا اظن ذلك . لقد التزمت بالصلح واعطيت كلمتك . انك اذن ستحافظ عليها . ومع ذلك فانني لا استطيع ان اتصور انك ستمنح اعداءك النصر الذي يبدو انهم ظفروا به اليوم . لقد ابتكرت احجية رائعة لا اجد لها حلا ، فكيف تريدني اذن ان اقرّ او ان انكر ؟

عبّر وجه الدون عن الرضى : ــ حسنا . انت تعرفني خيرا من اي شخص. وبالرغم من انك لم تولد صقليا ، فقد اصبحت صقليا بالقرب مني . ان كل ما تقوله صحيح ، ولهذه الأحجية حلّ ستجده قبل ان تلامس القضية نهايتها . ولكني اكرر لك ، يا توم ، ان اهم الامور هو ان نعيد ميخائيل الينا في اقرب فرصة . ليكن ذلك شغلك الشاغل . استغلّ جميع الوسائل المشروعة . ولا اهمية عندي للثمن . ان ابني يجب ان يكون بمنجى من كل تهمة . استشر افضل المحامين المتخصصين في الشؤون الجنائية . وسوف اعطيك اسماء بعض القضاة الذين سيستمعون اليك على انفراد . وبالانتظار ، لنحاذر كل خيانة .

ــ ان قلقي ، مثل قلقك ، ينصبّ على البراهين التي يمكن ان تخترع اكثر مما ينصب على البراهين الحقيقية . واخشى ايضا ان يغتالوا ميخائيل بعد القبض عليه. ان بامكان شرطيّ ان يقتله في زنزانته او يحرض على قتله معتقلا آخر . فاذا امعنا التفكير في الامر ، فنحن لا نستطيع ان نسمح لانفسنا اتاحة الفرصة لاعتقاله او توقيفه .

تنهد دون كورليون قائلا : ــ اعرف ذلك . اعرفه . بل هذه هي الصعوبة الرئيسية . ويجب ان نسرع في العمل . ان في صقلية اضطرابات . فالفتيان هناك لا يصغون بعد الى من يكبرونهم سنا ، وهناك فئة كبيرة من اللصوص المنفيين من اميركا يحيلون حياة الدونات الشيوخ الى جحيم . ومن الممكن ان يُحشر ميخائيل بين المعسكرين . وقد اتخذت احتياطات بهذا الصدد . انه ما يزال في حمى ، ولكن لفترة ما فقط . وهذا احد الاسباب التي اجبرتني على عقد الصلح مع بارزيني الذي له في صقلية اصدقاء بداوا يتعقبون ميخائيل . هذه اذن بداية للجواب على احجيتك. لقد عقدت الصلح لأؤمن سلامة ابني ، ولم يكن لديّ حلّ آخر .

لم يكلف هاجن نفسه عناء سؤال الدون عن مصدر معلوماته . فقد بدت له بداية الجواب على الأحجية صحيحة ولم تدهشه . والقى سؤاله :

ــ حين اتصل برجال تاتاغليا لتنفيذ التفاصيل ، هل ينبغي لي ان الحّ على ان يكون جميع موزعي المخدرات هؤلاء اشخاصا لا غبار عليهم ؟ ان القضاة سيكونون متشددين بشأن هذه الاعمال ، ولن يمنحوا بسهولة احكاما خفيفة على مجرمين محكومين سابقا .

هزّ كورليون كتفيه قائلا : ــ لا بد ان اصدقاءنا خبثاء بما فيه الكفاية ليفهموا ذلك . تستطيع ان تقول ذلك من غير الحاح . سنبذل ما في وسعنا ، ولكنهم اذا استخدموا ممنوعين من الاقامة فتعرضوا للاعتقال ، فلن نحرك ساكنا . سنكتفي بالقول ان ليس ثمة ما يُفعل . ولكن بارزيني سيعرف ذلك من تلقاء نفسه ، لاحظ

انه لم يسبق له ان تورّط قط ، فهو لن يثير الشكوك . هوذا رجل لا يدع نفسه يسقط في معسكر الخاسرين .

سأله هاجن مذهولا : ــ ايكون بارزيني ، في نظرك ، وراء سولوزو وتاتاغليا منذ البداية ؟

ــ بالتأكيد . ليس تاتاغليا الا قوادا . ولم يكن له قط ان يتغلب على سانتينو. من اجل هذا لست بحاجة لان أعرف اكثر مما عرفت في موضوع ما حدث .يكفيني ان اعرف ان بارزيني كان مشتركا .

وسجّل هاجن هذا الجواب . كان الدون يعطيه عناصر حلّ ، ولكن كان ما يزال ناقصا عنصر منه هام جدا . وكان هاجن يعرف ما هو ، ولكنه امسك عن السؤال . وتمنى ليلة سعيدة للعرّاب . وكان على وشك ان يغادره حين وجه الدون اليه توصية اخيرة :

ــ استعمل كل ذكائك لايجاد وسيلة لاعادة ميخائيل . وشيء آخر . اتفق مع مخبرنا التلفوني لكي يعطيني كل شهر قائمة بالمخابرات التي يقوم بها او يتلقاها كليمنزا وتيسيو . انني لا اتهمهما بشيء . وانا مستعد ان اقسم بأن احدا منهما لن يخونني ابدا . ولكن من الافضل دائما عدم اهمال الامور الصغيرة المفيدة قبل ان يفوت الاوان .

اومأ هاجن برأسه ومضى . وتساءل اذا لم يكن الدون يراقبه هو ايضا . ثم اخذه الخجل من هذا الارتياب . وايا ما كان ، فقد كان واثقا ان فكر العرّاب الدقيق المتعرّج كان قد وضع خطة عمل طويلة النفس ، وانه بدأ يشغلها وان احداث اليوم كان يمكن اعتبارها انسحابا تكتيكيا . يبقى واقع لم يكن احد قد اشار اليه ، ولم يستطع هو ان يسأل الدون عنه ، وربما كان البادرينو لا يعرفه بعد معرفة اكيدة . وكان كل شيءيدلعلى ان ساعة تصفية الحسابات ستدق يوما بلا هوادة .

- ٢١ -

انقضى زهاء عام اخر قبل ان يتمكن دون كورليون من ارجاع ميخائيل خفية الى الولايات المتحدة . وفي هذه الاثناء كان جميع افراد عائلة كورليون قد حفروا اذهانهم لايجاد وسيلة مقبولة . ـولقد استمعوا حتى الى نصائح كارلو ريزي، منذ ان اتى يعيش مع كوني على المر المشجر (وكانا قد رزقا في تلك الاثناء ابنا آخر). ولكن الدون لم يكن يوافق على اي من هذه المشروعات .

واخيرا ، حملت حل المشكلة مصيبة وقعت لعائلة بوكشيشيو . فقد كـان ثمة آنذاك قريب شاب من هذه العائلـة يدعى فليكس ، مولود في الولايات المتحدة، وكان لـم يبلغ الخامسة والعشرين بعد . وكان يملك من الذكاء ما لم يكن يملكه اي فرد اخر من افراد العشيـرة . وكان قد رفض الانجرار الى حكايات جمع القاذورات وتزوج فتاة لطيفة انكليزية الاصل ليطبع بمزيد من القوة انفصاله عن « العائلة ». وقد درس الحقوق في محاضرات المساء فيما كان يعمل نهارا كموظف صغيـر . ورزق ثلاثة اولاد . وكانت زوجته ربة بيت ماهرة ، فنجحت فـي اعالـة البيت الصغير براتب فليكس حتى نال شهادة الحقوق .

وكان فليكس بوكشيشيو ، ككثير من الشبان الذين تعلموا بجهد كبير ،يعتقد ان اهليته ستكافأ فورا ، بعد ان اتقن استعمال آلات عمله المهنية . وانه سيكسب حياته بشكل مناسب . ولكن الامور لـم تجر في هذا المجرى . وبدافع من كرامة، رفض مساعدة عشيرته . ولكن زميـلا لاصدقائه ، وهو شاب كثير العلاقات يدين بنجاحـه في مهنته الى صداقات له في مكتب كبير للقضايا الحقوقية ، طلب يوما خدمة صغيرة من فليكس . كانت امرا معقدا جدا ومشروعا في الظاهر ، وهـو مرتبط بافلاس احتيالي . وكان ثمـة حظ واحد من الف للقبض على فليكس .وقد قبل هذه المجازفة . وبالنظر الى انه كان فيهذه العملية يستعين بما كان قد تعلمه في الجامعة ، فانها لم تكـن تبدو لهجنائية حتى ولا مستوجبة اللوم .

ولكي نختصر هذه القصة الحمقاء ، لنقل ان السر قد كشف ورفض المحامي الذي كان قد جر فليكس الى هذه العملية المشبوهة ان يساعده في اي شيء ولم يجب حتى على مخابراته التلفونية . وكان المذنبان الرئيسيان في عملية الاختلاس رجلي اعمال ماكرين ومسنين بعض الشيء . وقد اخذا على فليكس بوكيشيشيو ان يكون قد سبب بقلة درايته سقوطهما ، فترافعا على اساس الاعتراف بالذنـب ليذلا فليكس الذي اتهماه بانه المحرض على الجنحة . بل ذهبا الى اتهامه بانـه هددهما بالعنف لكي يضع يده على تجارتهما ويجبرهمـا على قبول مشروعـه

الاحتيالي . واتى شهود يشيرون الى علاقات القربى بين فليكس واخوان له وابناء عم من عائلة بوكشيشيو محكومين بجرائم التهديد واعمال العنف . وكانت كارثة بالنسبة للمعتقل . واستفاد رجلا الاعمال من وقف التنفيذ . اما فليكس فقد عوقب بالسجن من سنة الى خمس . ولم تطلب العشيرة مساعدة اي من العائلات الخمس ولا مساعدة دون كورليون لان فليكس لم يكن قد توجه الى ذويه ، فكان لا بد من اعطائه درسا : ان الخلاص لا يأتي الا من « العائلة » لان « العائلة » هي دائما اشرف من المجتمع ، وبهايجب ان يوثق .

واطلق سراح فليكس بوكشيشيو بعد ثلاثة اعوام من السجن ، فعاد الى منزله وعانق زوجته واولاده الثلاثة وعاش في هدوء طوال عام . ثم اثبت انه، بعد كل حساب ، كان ينتمي الى عشيرة بوكشيشيو .

ومن غير ان يتخفى ، حصل على مسدس ، فقتل صديقه المحامي ثم راح يفتش عن رجلي الاعمال حتى التقاهما فأحرق مخيهما كليهما وهما خارجان من مطعم تناولا فيه الغداء . وترك الجثتين على الرصيف ، ثم دخل الى المطعم فطلب فنجان قهوة شربه بانتظار وصول الشرطة .

حكم سريع لا هوادة فيه . فرد من الاوباش ، اغتال برباطة جأش شهود الاثبات الذين كانوا قد استصدروا عليه حكما بعقوبة يستحقها ! ان في ذلك تحديا للمجتمع مع غطرسة فاضحة . وكان ان اجتمعت اصوات الجمهور والصحافة والسلم الاجتماعي وحتى ذوي النزعة الانسانية والراس الضعيف والقلب الرقيق، اجتمعت للمطالبة باعدام فليكس بوكشيشيو على الكرسي الكهربائي . ولم يفكر حاكم الولاية بمنح عفوه اكثر مما يفكر حارس مَحشر حيوانات بتوفير كلب مسعور . كانت هذه كلمات مساعد الولاية . وانفق آل بوكشيشيو مبالغ طائلة من استئناف الى استئناف . فمنذ ان اثبت فليكس انه كان ينتمي حقا الى العشيرة ، كان هؤلاء البدائيون فخورين بعلمه . ولكن جميع جهودهم ذهبت سدى . كان فليكس مرصودا للكرسي الكهربائي رغم جميع الخزعبلات القضائية التي كانت تسمح له ان يكسب بعض الوقت فحسب .

وطلب احد افراد عائلة بوكشيشيو من هاجن ان يلفت نظر الدون الى هذه القضية حتى يتدخل لصالح الشاب . فرفض دون كورليون ذلك على الفور . انه لم يكن ساحرا ، وقد كانوا يطلبون منه المستحيل . ولكن الدون استدعى هاجن في اليوم التالي الى مكتبه وحثه على دراسة القضية في ادق تفاصيلها . وحين فرغ توم من ذلك ، طلب منه دون كورليون أن يستدعي رئيس عشيرة بوكشيشيو الى الممر المشجر ليتحدث معه .

كانت التتمة ذات بساطة عبقرية . فقد طمأن دون كورليون رئيس عائلة بوكشيشيو بان زوجة فليكس واولاده سيتلقّون نفقة كافية ، وان الراسمال المرصود لذلك سيسلم فورا الى العشيرة . وبالمقابل ، كان على فليكس ان يعترف بانه قاتل سولوزو ونقيب الشرطة ماكلوسكي .

كان لا بد من تركيز بعض التفاصيل . كان على اعترافات فليكس بوكشيشيو

ان تكـون مقنعة ، اي ان عليه ان يعرف بعض التفاصيل الحقيقية ليمكنه انيعترف بها . وكان عليه كذلك ان يتهم النقيب بالاتجار بالمخدرات . وبعد ذلك ، كان علـى خادم مقهى لونا ان يوافق على تعرّف فليكس وعلى التأكيد بانه القاتل . وكـــان محتاجا الى شجاعة لان اوصاف المجرم لم تكـن هي نفسها على الاطلاق ، باعتبار ان المحامي بوكشيشيو كان اقصر واسمن من الشخص الذي وصفه خادم المطعم يوم الجريمة . ولكن دون كورليون جعل القضية قضيته .

وبالنظر الى ان المحكوم كان يؤمن بالتعليم العالي ، فقـد كان يتمنى طبعا ان يلتحق اولاده فيمـا بعد بالجامعة . وقد كان المبلغ الذي دفعته عائلة كورليون يسمح لهم بمتابعـة دراستهم الى الحد الذي يريدون . يبقى اقناع عائلة بوكشيشيو بـان فليكس لم يكن يؤمل في ايّ تسامح او رحمـة بصدد الاغتيالات الثلاثة التـــي ارتكبها ، وان الاعترافات الجديدة ، بالتالي ، ان تغير شيئا في مصير المحـامي الشـاب الذي اصبح محتومـا .

وترتبت كل الامور . دُفع المال وتم الاتصال بالمعتقل في سجنه لافهامهوتقديم النصح له . وانفجرت القضية اخيرا في وضح النهار واستحقت عناوين كبيرة في الصحف . ونجح كل شيء على ما يرام . ومع ذلك ، فان دون كورليون الحذر دائما انتظر اعدام فليكس الذي تم بعد اربعة اشهر ، قبل ان يصدر امره باعادة ميخائيل كورليون الـى البـلاد .

٢٢

ظلت لوسي مانسيني تحنّ لسوني حتى بعد عام من موته . وكانت تتحسر عليه اشدّ مما تحسّرت اية بطلة روائية على عشيقها . ولم يكن في عذابها ما يشبه احلام الفتيات التافهة ولا احزان زوجة وفية . انها لم تكن تبكي فقدان « رفيق حياتها » ولا غياب شخص وهبته الطبيعة فضائل استثنائية . وهي لم تكن تهفو الى ذكريات غرام عاطفي وحماسة مراهقة ، ولا تكاد تتذكر ابتسامات سوني وشعاع المرح في عينيه حين كانت تهمس له بشيء رقيق او مضحك .

لا ، وانما كانت تحنّ اليه لسبب اهمّ . فمعه وحده ، كان جسدها يرضي رغباته في عمل الحب . وكانت براءة شبابها تدفعها الى الاعتقاد بان اي رجل اخر لن يكون قادرا على ذلك ابدا .

وها هي ذي ، بعد مرور عام ، تبرنز جسدها بانفاس نسمة بلسمية ، في النيفادا . وكان ثمة شاب اشقر ، رشيق ، متمدّد عند قدميها ، يداعب اصابع رجليها . وكانا قريبين من حوض السباحة في الفندق ، بعد ظهر يوم احد . وبالرغم من حضور اشخاص كثيرين حولهما ، فقد زلق الشاب يده يلامس بها فخذيها .

وقالت لوسي : ـ اوه ، جول ، كفّ عن هذا ! كنت اظن ان الاطباء اقل بلادة من الرجال الاخرين .

اجاب جول باسما : ـ انا طبيب من لاس فيغاس .

ثم دغدغ بشرتها الملساء داخل الفخذين . واذهله ان يلاحظ الى ايّ حد كانت مداعبة خفيفة كهذه تهيج لوسي . وكانت تجهد ان تخفي اهتياجها ، ولكن تعبير وجهها كان يفضح ذلك . وحكم عليها ـ بانها بدائية جدا وبريئة . ولكن اذا كان الامر كذلك ، فلماذا لم تكن تستسلم ؟ انه يتساءل عن ذلك منذ فترة . كانت قصة عشيق ميت وغير قابل للنسيان تبدو له حكاية سخيفة . كان يحسّ تحت يده نسيجا حيا يحتاج الى نسيج حيّ اخر . وقد قرر الدكتور جول سيغال ان يجرّب اللعبة الكبرى ذلك المساء نفسه في منزله . كان ينوي التغلب على هذه الفتاة الجميلة بلا غشّ . ولكن اذا كان لا بد من الغش ، فقد كان مستعدا لذلك . لمصلحة العلم ، طبعا ! وبالاضافة الى هذا ، فقد كانت الشقيّة تموت رغبة في ذلك .

وتمتمت لوسي مرتعشة الصوت : ـ كفى ، يا جول ، ارجوك ، كفى !

وبدا جول مضطربا فقال : ـ حسنا ، يا لطيفتي !

ووضع رقبته على فخذي المراة الشابة ليأخذ سنة من النوم على تلك الوسادة . واضطربت قليلا ، فتلذّذ بالحرارة التي كانت تشع من حالبها . ومدّت يدها

لتداعب شعره ، فامسك بمعصمها ، على سبيل الملاعبة ، واحتفظ به كما يفعل العاشق ، ولكنه كان يريد في الحقيقة ان يجس نبضها . وكان النبض يعدو بسرعة . نعم بالتأكيد ، سيمتلكها هذا المساء وسيجلو السر ، ايا كان . واغفى الطبيب جول سيفال ، واثقا من نفسه .

نظرت لوسي الى السابحين حولها . انها ما كانت لتتصور قط ان تتغير حياتها هذا التغير في اقل من عامين . هي لم تندم قط على الحماقة التي ارتكبتها في عرس كوني كورليون ، فلم يسبق ان حدث لها ما هو اروع من ذلك ، وقد كانت تعيش بلا انقطاع ،في احلامها منذ اشهر ، تلك اللحظة العجيبة .

بعد تلك السعادة ، اخذ سوني يزورها مرة في الاسبوع ، واحيانا اكثر من مرة ، ولكن ليس اقل . وصبيحة اليوم التالي لكل لقاء من تلك اللقاءات ، كانت تفيق محطمة الجسم . كانت عاطفتهما المتبادلة بدائية تماما ، عارية عن اية شاعرية وعن اي مظهر فكري . كان هو لون الحب الفج ، الحب الجسدي ، انجذاب نسيج عضوي الى نسيج اخر ، كما كان يفكر الدكتور سيفال .

وحين كان سوني يتلفن لها بانه قادم لرؤيتها ، كانت تتثبت من وجود ما يكفي من الشراب والطعام للعشاء وفطور الصباح لانه كان قد اعتاد على مغادرتها صباح اليوم التالي . كان يريد الحصول على كل ما يشتهي ، وكانت هي ايضا تريد ان ترتوي . وكان معه مفتاح الشقة . وحين كانت تسمعه داخلا ، كانت تطير الى الباب وترتمي بين ذراعيه القويتين.كانا متشابهين في المباشرة والبدائية الوحشية. وكانا منذ القبلة الاولى يستعدان التعري . وكان يرفعها ، فكانت تشد فخذيه بين فخذيها . وكانا يقومان بفعل الحب واقفين ، في الرواق ، كما لو ان تدريبا عاما كان ضروريا لهما ، ثم كان يحملها الى غرفة النوم .

وبعد ذلك كانا يعيشان جنبا الى جنب في تلك الشقة ، عاريين تماما ، طوال ست عشرة ساعة متتالية ، ومعظم الوقت في السرير . وكانت تعد له ايضا وجبات عظيمة ، واحيانا كانوا يتلفنون له بشأن الاعمال . ولم تكن تصغي الى ما كان يقول ، لانهماكها المفرط بمداعبة جسم سوني والتربيت عليه وملامسته ودس قطع كبيرة من الطعام في فمها . وحين كان ينهض ليصب الشراب ويمر بالقرب منها ، لم تكن تستطيع الامتناع عن لمس جسده العاري والامساك به والتحبب اليه . وكانت تتعلق خاصة ببعض اجزاء من الجسم ، كما لو انها كانت دمى معقدة ولكنها بريئة كانت تلتمس فيها سر النشوات التي كانت ما تزال تفاجئها . كانت اولا قد بدات بالاحمرار خجلا من هذه التجاوزات ، ولكنها لم تلبث ان لاحظت انها كانت تروق لعشيقها ، وكأن غروره كانت تثيره عبوديتها الكاملة للحب . وكان لذلك كله براءة الحياة الحيوانية . كانا سعيدين معا .

وحين تلقى والد سوني خمس رصاصات مسدس ،في قلب الشارع ، فهمت ان عشيقها ربما كان في خطر ، هو ايضا . ولم تبك وهي وحدها في شقتها ،بل خارت خوار الثور . وفي تلك الفترة لم يزرها سوني طوال ثلاثة اسابيع تقريبا. ولم تعش الا على الكحول والمنومات والضيق . كانت تعاني وجعا جسديا حقيقيا .

كـان جسمها كله يؤلمها . وحين ظهر مرة اخرى ، ظلت متشبثة به منذ وصوله حتى ذهابهِ ، وبعد ذلك ، عاد بانتظام كل اسبوع ، كما في السابق ، واستمر ذلك حتـى مقتلـه .

وقد قرات نبأ الاغتيال في الجريدة ، وفي المساء نفسه تناولت جرعة كبيرة من المنوّم لم تكـن مع ذلك كافية لتكون قاتلة . وقد خرجت ، فاقدة نصف وعيها، الى سطح الدرج امام شقتها فاغميَ عليها عند باب المصعد . وهنـاك وجـدوهـا ونقلوها الى المستشفى . ولم يكن ثمة احد تقريبا يعرف علاقتها بسوني . فلم تستحق حالتها اكثر من بضعـة اسطر في الصحف .

وقبل ان تغادر المستشفى ، ذهب توم هاجن ليعزيها . وهو الذي وجد لهـا عملا في لاس فيغاس ، في فندق يديره فريدي ، اخو سوني . وقال لها توم كذلك ان عائلة كورليون ستخصص لها دخلا لان سوني كان قد اتخذ ترتيبات لهذهالغاية. وسألها توم ان كانت حاملا ، وان كان ذلك هو سبب محاولتهـا تنـاول السم ، فطمأنته . وسألها كذلك ان كان سوني قد زارها ليلة الجريمة او اذا كان قد تلفن ليبلغهـا عن زيارته ، فأجابته نفيا : لم يتصل بهـا سوني تلك الليلة . كانت تسارع الى بيتهـا ، مـا ان تنهي عملها، لتنتظره . وصارحت هاجن بالحقيقة :

ـ انه الرجل الوحيد الذي يمكنني ان احبه ابدا .

فرات على شفتيه بسمة خفيفة وفي عينيه بريق دهشة ، فاضافت :

ـ يبدو لك هذا غير قابل للتصديق . ومع ذلك ، فهو الذي تقبلك في عائلته حين كنت طفـلا !

ـ نعم . ولكنه لم يكـن بعد هو الرجل نفسه . لقد تغير وهو يكبر بالسن.

قالت لوسي : ـ لا بالنسبة لي . ربما بالنسبة للاخرين .لا بالنسبة لي .

وكانت ما تزال اضعف من انتشرح كم كان سوني لطيفا معها : لم يغضب يوما، وكـان دائمـا طيب المزاج ، بلا ادنى نزق او عصبية .

وتكفل هاجن باقامتها في لاس فيغاس ، واستاجر لها شقة فيها ، ورافقها الى المطار واخذ منهـا وعدا بانها ستتصل به اذا احست انها متوحـدة او شقية او ان شيئا ما كـان يزعجها . فهـو سيساعدها ما وسعه ذلك . وقبل ان تصعد الطائـرة سالته بصوت متردّد :

ـ هل يعرف والد سوني ما تفعله من اجلي ؟

ـ انني اتصرّف باسمه واسمي معا . تعرفين ان له عقلية متخلفةبما فيهالكفاية بالنسبة لامور من هذا النوع ، وان من يقام له وزن في نظره انما هي امراة ابنـه الشرعيـة . ومع ذلك ، فهو يرى انك صبية ، وان سوني ما كـان له انيغويك،ثم انك اقلقت الجميع بتناول ذلك القدر الكبير منَ المنوّمات .

ولم يشرح لها ان الانتحار ، في نظـر رجل كالدون ، كان امرا غير معقـول على الاطلاق .

وبعد ان قضت لوسي ثمانية عشر شهرا في لاس فيغاس ، ادهشها آن تكـون سعيدة تقريبا . كانت ما تزال تحلم غالبا بسوني في الليل . وحين كانت تنهض قبل

طلوع النهار ، كانت تواصل حلمها وهي تداعب نفسها ، فكانت تعود الى النوم . ولم تكـن قد تعرّفت منذ ذلك الحين الى رجال اخرين ، ولكـن حياتها في لاس فيغاس كانت تناسبها . وكانت تسبح في مسابح الفندق ، وتجذّف على بحيرة ميد وتجتـاز الصحراء بالسيارة في ايام الاجازات . وقد رقّ عودهـا واصبحت قامتهـا اكثـر جاذبية . وكان مظهرها على شهوانيته ، ولكـن على الطريقة الاميركية اكثر مما هـو على الطريقـة الايطاليـة . وكانت تعمل كمستقبلة في العلاقات العامة بالفندق ولم تكن لها اتصالات مهنية مع فريدي . وحيـن كانا يلتقيان كانا يثرثران قليلا ، بشكل ودي . وكـان تغير فريدي يدهشها . كـان قد اصبح دون جوانا ، شديد الاهتمام بمظهره ، وكان يبدو انه خلق ليدير فندقـا من هذا الطراز . لم يكن يعنى بالقمار ، بل بالمطعم ، وهذا ما لم يكـن يفعله عادة مالكو مؤسسات من هذا النوع . وكانت فصول الصيف ، الاطول والاشد حرارة في النيفادا ، ومزيد من النشاط المهني ومن العمـل الجنسي كذلك ، كل هـذا كان قـد اهزله هو ايضا . وكان خياطو هوليوود يجعلون منه نموذجـا لـ « بروميل » تهيم به الفتيات كثيرا .

وبعد ستة اشهر ذهب توم هاجن ليقف عن كثب علـى الحياة التـي كانت تعيشها . كانت قد تلقت بانتظام ستمئة دولار شهريا بالاضافة الى راتبها . وشرح لها هاجن انه توجب عليه حتى ذلك الحين اللجوء الى بعض المداورات الحسابية ليبعث لها بهذه النفقة . وطلب اليها ، تفاديا لهذه المصاعب ، ان توقع له ورقة توكيل . واخبرها كذلك ان اسمها سيوضع ، شكليا ، على لائحة مالكي الفندق ، كحاملة عشرة اسهم . وكان ذلك يقتضي شكليات قانونية وفقا لقوانين النيفادا ، ولكنه سيقوم بجميع المساعي ولن يكون لها ان تهتم بها . واوصاها كذلك الا تطلع احدا على شيء من هذا ، بغير اذن منه . ووعدها بأن يؤمن لها حماية قانونية كاملة ودخلا شهريا منتظما كالسابق . واذا اقلقتها سلطة ما ، فلتتستّر بمحاميها فلا تواجه اية صعوبة .

وقبلت لوسي . كانت تدرك انهّم يستغلونها ، ولكنها لم تكن تجد في ذلك مانعا . بل لقـد كان ذلك مجزيا لها ، بعد كل حساب . ولكن حين طلب اليهـا هاجن ان تراقب مـا كان يحدث في الفندق ، وان تتابع بعينيها فريدي ومعلمه ، اي مالـك الفندق بالسند ، بسبب عدد الاسهم المسجلة باسمه ، صاحت قائلة :

ــ كيف ذلك يا توم ! تريدني ان اتجسس على فريدي ؟

قال هاجن باسما : ــ ان اباه قلق . ان « مو غرين » شخص خطر بما فيه الكفاية ، ونريد ان نطمئن الى انه لن يجرّ فريدي الى قصص مزعجة .

ولم يتكلف عناء ان يكشف للوسي ان الدون كان قد موّل الفندق في صحـراء لاس فيغاس ، ليس فقط بقصد تامين ملجا لابنه الاكبر ، بل كذلك بقصد وضع قدمه في المنطقة ، تمهيدا للقيام بعمليات اهـم .

بعد فترة قصيرة من هذه المحادثة بين لوسي وتوم ، وصل الدكتور جول سيغال ليعمل في الفنـدق بصفة طبيب . كان فتى جميلا ، رشيقا ، جذابا ، فكان يبدو اصغر سنا من ان يكون طبيبا ، على الاقل في نظر لوسي . وقد تعرّفت اليه حين نبت لهـا نوع من الورم فوق معصمها . وقد اقلقها هذا الشيء الغريب طوال ايام ، ثم حضرت

ذات صباح الى مكتب الطبيب في الفندق . وكانت راقصتان من راقصات المؤسسة تثرثران في قاعة الانتظار . كانتا شقراوين ، وكانت وجنتاهما مورّدتين كالخوخ، وكانتا جميلتين جمالا تحسدهما لوسي عليه . ولقد بدتا لها ملائكيتين حتى اللحظة التي قالت فيها احداهما للاخرى :

ـ اذا أصبت مرة اخرى بالانتفاخ ، فانني سأترك هذا العمل .

وحين فتح الدكتور جول سيفال الباب واومأ الى احدى الراقصتين بالدخول، ساورت لوسي الرغبة بالذهاب . بل لقد كانت ستفعل ذلك لو كانت مصابة بمرض اشد خفاء او خطورة . كان الطبيب يرتدي بنطالا من كتّان وقميصا ذا ياقة مفتوحة. وبالرغم من نظارتيه الانيقتين وهيئته المتميزة ، فقد كان يبدو مفرط الاهمال . وكانت لوسي تعتقد ، ككثير من الاشخاص المتخلفين للغاية ، ان ممارسة الطب كانت تتطلّب أبهة خاصة في المظهر .

وحين استقبلها اخيرا في عيادته ، تلاشى هذا الحكم المسبق لفرط ما اوحى لها بالثقة في تصرّفه . ولم يكن يتكلم قط . ولكنه لم يكن عنيفا . وكان متمهلا . وحين سألته ما سبب هذا الورم ، شرح لها بصبر انه كان زائدة ليفية تافهة ، خالية من اي خبث وما كان لها ان تقلقها . وتناول مجلدا طبيا ضخما وقال لها :

ـ مدّي ذراعك .

فاطاعت بخجل . وقال لها وهو يبتسم للمرة الاولى :

ـ ساحرم نفسي تعويضات الجرّاح . سأسحق ورمك هذا بهذا الكتاب وسوف يزول . ربما عاد الى الظهور ، ولكني اذا لجأت الى عملية استئصال ، فلن يكون معك مال كاف . وسيتوجب عليك انتضعي ضمادات وتخضعي لالوان من العناية الخ .. اتفقنا ؟

فابتسمت له. ومن غير ان تدري السبب ، كانت تفوض اليه امرها كله ، وقالت: « اتفقنا » . وما لبثت ان ارسلت صيحة: ذلك انه كان قد اسقط المجلد الطبي الضخم على ذراعها وكان الورم قد زال تقريبا .

وسألها : ـ هل اوجعتك الى هذا الحدّ ؟

قالت : « لا » ، ونظرت اليه ينجز ملء بطاقة الاستشارة ، فسألته :

« هذا كل شيء ؟ » فهزّ راسه ايجابا من غير ان يوليها اهتمامه . فمضت .

وبعد اسبوع ، كانت تتناول فنجان قهوة في المشرب ، فجلس الى قربها ، وسألها :

ـ وذراعك ، كيف حالها ؟

اجابت وهي تبتسم : ـ حسنة جدا . ان لك طرقا غريبة بما فيه الكفاية ، ولكنها ناجعة .

ـ انت لا تعرفين كم انا غريب وناجع . وانا ، لم اكن اعرف انك كنت غنية الى هذا الحدّ . لقد نشرت جريدة « سن » قائمة مالكي الفندق ، فلاحظت ان لوسي مانسيني تملك رزمة من عشرة اسهم . لو كنت عرفت ذلك ، لكان ورمك الصغير قد عاد عليّ بثروة .

وتذكرت توصيات هاجن ، فلم تجب بكلمة . واستطرد هو يقول :
— لا تقلقي . فانا اعرف المعزوفة . انت اسم مستعار . ومثل هذا كثير في لاس فيغاس . ما تقولين ان نذهب الى المسرح هذا المساء ؟ انني ادعوك الى العشاء بل اقدم لك ايضا بعض القسائم لتلعبي الروليت.
لم تكن لها اية رغبة في القبول . والحّ . فانتهت الى ان تقول له :
— سيسرّني ذلك . ولكنـي اخشى ان اخيّب ظنك . انني لست متحررة تحرّر فتيات لاس فيغاس ، ولن تنتهي السهرة كما قد تؤمل ان تنتهي .
قال بمرح : — من اجل هذا بالذات ، ادعوك . لقد عاهدت نفسي على ليلة نوم.
ابتسمت لوسي وسألت بلهجة لا تخلو من حزن : — ايكون هذا مغريا الى ذلك الحـدّ ؟
فهز براسه ايجابا ، واضافت هي : — اقبل الدعوة للمسرح والعشاء ، ولكنـي ادفع ثمـن قسائمي للروليـت .
انقضت السهرة كما هو مقرّر . وسلاّها جول باستعمال مصطلحات طبية فـي وصف الافخاذ والنهود على المسرح، كل ذلك بمزاج طيب وبلا تهكم . ثم لعبا على الروليت نفسها وربحـا اكثر من مئة دولار . وبعد ذلك قامـا بنزهة تحت ضوء القمر حتى « بولدر دام » . وشرع يداعبها ، ولكنها قاومته بعد بضع قبلات . واذ راى انهـا صادقة ، كفّ عنها وتلقّى هزيمته بمزاج رضيّ .
قالت لوسي وهي تحسّ انها مذنبة تقريبا : — لقد حذّرتك .
قال :— ولكنك كنت تكونين مغتاظة جدا لو لم احاول .
فانفجرت ضاحكة لان ذلك كان صحيحا .
وفي الاشهر التالية اصبحا صديقين ممتازين . لم يكن الحب واردا ، لانهمـا لم يكونا يقومان بممارسته . كانت لوسي ترفض . وكانت ترى ان جول مندهش لذلك، من غير ان يكون منكّدا كمـا هـو شأن معظم الرجال الاخرين . وقد جعلها هـذا تزداد ثقـة به . واكتشفت ان خلف الطبيب المولع بمهنته ، كان ثمـة انسان بشوش مرح مغامر ، ميّال الى التسلية. وكان في عطلات نهاية الاسبوع يقود سيارة من طراز ام . جي في مباريات سباق الهواة بكاليفورنيا . وكان يقضي اجازاته فـي اقاصي المكسيك ، في صميم الريف . وعند عودته ، كان يروي لهـا ان الناس هناك كانـوا يعيشون حياة بدائية تمامـا ، كالف سنة سابقة ، وان سكان البلد لا يترددون فـي سلخ جلد اجنبي لا لشيء الا لسرقة حذائه . وعلمت بمحض المصادفة ان جول كـان جرّاحا وانه سبق له ان اجرى عمليات جراحية في اشهر مستشفيات نيويورك .
وجميع هذه التفاصيل ادهشتها بدورها . وسألته ذات يوم لماذا كـان قد قبل وظيفـة طبيب فندق . فاجابها :
— حين تكشفين لي عن اسرار قلبـك السوداء ، سأسائلك اسراري .
فاحمرّت ولم تلحّ . وكان جول متكتّما مثلها ، وبقيت علاقتهما على مستوى الصداقة الحارة نفسه . كانت اهميته عندها اكبر مما كانت تظن .

ونجدهما ثانية قرب المسبح ، راس جول على فخـذي لوسـي السمراوين .

وتحسّ هي فجأة بفيض حيّ من الحنان . ان راسه يثقل على فخذيها ، وهذا مـــا يؤلمهـــا . ومن غير ان تعي ، تحسّ لذّة جسدية بمداعبة رقبته . ويبدو انه ينـــام من غير ان يلاحظ ذلك . انهـــافريسة تهيج شديد ، لمجرّد ان تحسه عليهـــا .

ونهض فجأة ، فأخذ يدها وساعدها على القيام ، ثم اقتادها فيمـــا وراء المرج على الممـــر المملط . وتبعته بوداعة حتى بلغـــا واحدا من تلك البيوت الريفية حيـــث كـــان يتخذ مسكنا خاصا له . وصبّ لها شرابا وشرب هو كذلك . بعد فترةطويلة في الشمس ولحظة حلم شهواني ، صعد الشراب الى راسها فاحدث لها الدوار . اذ ذاك اخذها جول بين ذراعيه ، فالتصق جسماهما شبه العاريين ، وتمتمتلوسيلا، لا ، ولكـــن بقلة اقتناع لم يلق اليها جول بالا . فنزع ... حاملة نهديها ليداعـــب نهديها ويقبلهما ثم انتهى الى تعريتها فقبّل بطنها وباطـــن فخذيها . ونزع سروالـــه بيد فيما ظلّ يضمها اليه بذراعه الاخرى ، وارتميا متمدّدين على السرير . واحسّت انهـــا محترقة ، وكـــان هذا الاتصال كافيا لحملها الى ذروة النشوة . وبعد لحظة ، كشفت حركات جول لهـــا عن دهشته . وكماحدث قبل ان يعرفها سوني ، احسّت بخجل هائل . ولكن جول كان يطوي جسمها على حافة السرير ويرفع ساقيها . فتركته يفعل مستسلمة له جسما واعضاء . واخترقها من جديد وهو يعانقها . وهذه المرة ، احست به احساسا افضل ، واسعدهـــا خاصة انه كـــان شديد الاحساس باتصالهمـــا وانه كـــان يبلغ هو ايضا نشوته .

وحين انقلب الى جانب ، قبعت لوسي في ركن من السرير واخذت تبكي . مـــا اشدّ ما كانت خجلى ! وصدمها ان تسمعه يضحك بصوت خافت ويقول لها :

ــ ياللايطالية المسكينة الجاهلة ! امن اجل هذا ترفضين منذ اشهر ؟ يا لـــك مـــن بلهـــاء !

وتلفظ بكلمة « بلهاء » بشغف شديد حتى انها استدارت اليه ، فجذب جسمها العاري الى جسمه .

ــ ايها الوحش المتخلف . انك حتما من القرون الوسطى !

وكان صوته من الرقة بحيث انها لم تكن تبكي بعد خجـــلا او حزنا بـــل حنانا . واشعل جول سيكارة ودسّها بين شفتيها . فابتلعت الدخان جانبيا ، فكان انسعلت واختنقت وكفّت عـــن البكاء . وقال :

ــ ولكن الان ، اصغي اليّ . لو كنت قد ربّيت في عائلة اكثر تطورا ، عائلـــة مندمجة في القرن العشرين ، فـــان تفرّدك الصغير كان قد نسي منذ سنوات . انـــه ليس مسالة خطيرة كما لو كنت قبيحـــة او كـــان لك جلد كريه او كنت حولاء ، او كان لك اي عيب لا تستطيع الجراحة تعويضه . ان ما بك ليس اخطر من النوابت او من شامة على الذقن او من اذن مشوّهة الكفاف ، فكفّي اذن عن اعتبارها مشكلـــة جنسية ، وكفي خاصة عن اقناع نفسك بان ليس ثمة رجل يشـــتهيك لانك اكثـــر انفتاحا من ان تمنحيه اللذة . انك بكـــل بساطـــــة مصابة بتشوّه خفيف يسميـــه الجراحون هبوط العجان . وهذا لا يحدث عادة الا بعد الوضع او هو معزوّ الـــى تشوّه في الهيكل . ولكني اؤكـــد لك ان هذا تافه . ان كثيرا من النساء يعشن حياة

شقيـــة بسبب ذلك ، في حين ان عملية بسيطة تعيدهن الى حالة حسنة . بل هناك من يبلغ بهن الامر حدّ الانتحار . وما كـــان لي قط ان افكر بمثل هذا بالنسبة اليـــك لان لك جسدا ممتازا . بل كنت افكر بشيء نفسيّ ، وذلك طبيعـــي لفرط ما حدثتني عن حسرتك على سوني . اسمحي لي بفحص طبيّ كامل وسأقول لك تماما اهمية العمليـــة التي يجب اجراؤها لك . هيّا ، اذهبي فخذي حماما .

واطاعت لوسي . ثم احتجّت حيـــن طلب منها ان تتمدّد وتباعد بين فخذيها . ولكنه لم يبال بها . كان في شقته عدّة طبيب وطاولة صغيرة ذات سطح زجاجي على مقربة من سريره كان موضوعا عليها آلات اخرى . وفي تلك اللحظة تصرّف تصرّف طبيب . لقد نظر ولمس وحرّك اصابعه في جسمها . وبدات تحسّ من ذلك المذلّـــة حين قبّل عانتها وقال بشرود تقريبا : « هي المرة الاولى التي اجد فيها هذا العمـــل مسليا » . ثم قلبها ودسّ اصبعا في شرجها وعيّث فيه ، ولكنه كان يلامس باليـــد الاخرى رقبتهـــا ملاطفا . وحين انتهى من ذلك ، أعادها على ظهرها ، وقبّل شفتيها بعذوبة وهو يقول :

ــ يا صغيرتي ، سأرتب لك هذا . ثم اجرّبك شخصيا . وسيكون ذلك عرضا طبيا اول ، يا عزيزتي ، وسأكتب بلاغا تنشره صحف مهنتي .

كان جول يقوم بهذا كله بشغف واقبال كانت لوسي تحسّ معهما انها محبوبة، مما كـــان يهدّيء خجلها وارتباكها . وذهب يتناول كتابا طبيا من احد الرفوف ليقرأ لهـــا دراســـة عـــن حالة مماثلة لحالتهـــا وكذلك تقريرا عن العملية التصحيحية ، فاهتمت لذلك كثيرا .

وقال : ــ انها ايضا مسألة صحية . فاذا لم تجر هذه العملية فستنشأ لديـــك تعقيدات بسبب جهاز التمديدات ذاك . وهذه العلـــة ستتفاقم . انه معيب حقا ان يمنع تحشم بال كثيرا من الاطباء من تشخيص حالة كحالتـــك وتصحيحها ويمنع كذلك كثيرا من النساء من التشكي ممـــا يعانين .

ــ كفّ عن هذا الحديث ، ارجوك . اصمت .

ولاحظ انها ما تزال تخجل من سرّها ، وانهـــا كانت تعدّه « نقيصة قبيحة» . وبالنظـــر الى ثقافة جول سيغال الطبية ، فقد كـــان يعتبر ذلك نهاية الحماقة ،ولكنه كـــان كذلك حساسا بما يكفي لتفهم لوسي .

وقال لها ليردّ لها طمأنينتها : ــ انني الان اعرف سرّك . وسأكشف لـــك عن سرّي . لقد سألتني عمـــا افعله هنا ، انا الجرّاح الشاب المليء بالمستقبل الذي قام ببدايات لامعة في نيويورك ؟ (كان يردد ، بسخرية ، مـــا نشرته الصحف بصدده) هذه هي الحقيقـــة : انني مجهض نساء . ليس هذا بالخطير . ان نصف الاطبـــاء يمارسون الاجهاض . اما انا ، فقـــد قبض عليّ . ومن حسن الحظ ان زميلا لي في القسم الداخلي ، يدعى كندي وهو شخص مستقيم ، قدّم لي مساعدته . واحسبني قـــد فهمت ما يلي : كـــان توم هاجن قد قال له من قبل انه سيكـــون بتصرفـــه اذا احتاج الى اي شيء ، لان عائلـــة كورليون كانت تعتبر نفسها مدينة له . وهكذا توجه كندي الى هاجن . ولم اكن مطلعـــا على مسعاه ، فعلمت فجأة ان النيابة العامة تخلت

عـن ملاحقتها لي . ومن سوء الحظ ان زملائي ، وبخاصة كبار اطباء« الشرق » ، سجلوني على اللائحة السوداء . وآنذاك عرضت عليّ عائلة كورليون العمل الذي اقوم به الان . ان فتيات المسرح يحبلن عدة مرات في السنة ، فأتدبر امرهن .. ان الامـر شديد السهولة اذا جئنني بمجرد احساسهن بالحمل . انني اشتغل معهن بالمكحتة كما تحكّين مقلاتك . والذي يثير رعبي ، هو فريدي كورليون . لقد حبّل ، علـى ما اعرف،خمس عشرة فتاة منذ مجيئي الى هنا . وانا افكر جديا بان القي عليه محاضرة حول الامور الجنسية ، كمـا يفعل اب مع ابنه ، لا سيمـا واني عالجته ثلاث مرات من التعقيبة ومرة من السفلس . ان فريدي لا يحرم نفسه من شيء . انه يركـب عاريـا وبلا سرج .

كان جول يتقصّد افشاء هذه الاسرار ، خرقا لعادته . ولكنه كان يحـرص على ان يري لوسيان اشخاصا اخرين ،بمن فيهم اولئك الذين كانت تعرفهموتخافهم، كفريدي كورليون ، كانت لهم اسرار « مخجلة » . وقد استطرد يقول :

ـ فيما يخصك ، فكري بان قطعة مطاطـة من جسمك قد فقدت مطاطيتها . فيكفي اقتطاع جزء منها لجعلها اصلب واقوى .

قالت لوسي : ـ سأفكر بذلك .

كانت تعرف انهـا ستقرر ذلك لانها كانت تثق بجول ثقـة تامـة . ثم فكرت بشيء اخـر :

ـ كم يكلف هذا ؟

قطب جول حاجبيه ثم قال : ـ لست مجهزا هنا لعمليات مـن هـذا القبيل، ولست اخصائيا في هذا الموضوع . ولكن عندي في لوس انجلس صديقا بارعا فـي هذا الميدان ، وهو يجري عملياته في افضل مستشفى . حين تدرك كواكب كبيرة ان استرخاء في الوجه او في الصدر لا يستجيب لسعادة من يحببنهم ، فهويشدّهن. وقد اديت له بعض الخدمـات فلن يكلفك هذا شيئا على الاطلاق . انني انا الذي اتولى اجهاضاته . اسمعي ، يا حبيبتي ، فلو لـم يكن في ذلك نكث لسرّ المهنة ،لقلت لك اسماء اشهر الكواكب ذوات الجاذبية الجنسية اللواتي خضعن لهذه العملية.

وصرخت قائلـة : ـ قل لي هذه الاسماء ! قلها لي ! هيّا ! سيكون ذلك ثرثـرة لطيفـة .

وكانت احدى متع جول انه لم يكـن يهزأ قط بنزعته النسوية للثرثرة والقيل والقـال .

ـ اذا تعشيت وقضيت الليلة معي ، قلت لك ذلك . ان حماقتك اضاعت علينا الوقت، فيجب ان نستدركـه .

تأثرت لوسي للحب الذي كـان يوحيه اليها . واحتاجت الى انقضاء لحظـة قبل ان ترد على هذا اللطف ، فقالت :

ـ هذا لا فائدة منه ، يا جول.انك لن تصيب اية متعة في الحالة التي انافيها.

قال وهو ينفجر ضاحكا : ـ يا للحمقاء ! لا يحق لامراة ان تكون بلهاء الى هذا الحد ! الم تسمعي قط بطريقـة اخرى لفعل الحب ، كانت تمارس منذ القدم وهي اكثر تحضّرا ؟ اتكونين ساذجة الى هذا الحدّ ؟

قالت : هكذا اذن !

فكرر متهكما : ــ هكذا اذن ! ان الفتيات اللطيفات لا يفعلن ذلك . والرجال الحقيقيون لا يفعلون ذلك . حتى في ١٩٤٨ ! ولكني يا جميلتي استطيع ان ارافقك الى منزل سيدة صغيرة عجوز ، هنا في لاس فيغاس ، كانت اصغر مشرفة على اكبر مبغى شعبي في « الغرب » في الاوقات البطولية ، حوالي ١٨٨٠ ، على ما اعتقد. انها تحب ان تتحدث عن بداياتها . اتدرين ما الذي روته لي ؟ ان رجال ذلك الزمن الهائلين ، رعاة البقر الاشداء الذين يسارعون الى اشهار مسدساتهم الضخمة ، كانوا يطلبون دائما من الفتيات تدليعا على الطريقة الفرنسية هو ما تسميه انت « هكذا اذن ! » الم تفكري ابدا بفعل هكذا اذن مع عزيزك سوني ؟

للمرة الاولى ، ادهشته حقا . فقد اهدته بسمة على طريقة الموناليزا (وتسلل ذهنه العلمي على الفور فتساءل عما اذا لم تكن هذه البسمة هي الكلمة الفاصلة لسر قديم قدم الزمن) وقالت له بهدوء :

ــ مع سوني ، فعلت كل شيء !

لم يسبق لها ان كشفت مثل هذا لاي انسان .

بعد خمسة عشر يوما ، كان جول سيغال الى جانب الدكتور فردريك كلنر في قاعة للعمليات بلوس انجلس . كان كلنر يعمل في اختصاصه . وقبل ان يضع المبنّج قناعا على وجه لوسي تمتم جول في اذنها :

ــ لقد قلت له انك محظيتي ، وهو سيعالجك من اجل سعادتي .

ولكن الاقراص المهدّئة كانت قد همّدتها نصف تهميد ، فلم تضحك ولم تبتسم ، ولكنها مع ذلك سمعت ، فخفف هذا التنكيد من خوفها .

واجرى كلنر الشرط بثقة مقامر ممتهن يلقي زهر النرد . وكانت هذه العملية ترمي الى غايتين : تجديد جراحي للعجان وبتر طولاني للمهبل ، مع دفعه الى الامام . وبعبارة ثانية : رفو العجان وشد المهبل . وقد قدر جول مهارة الدكتور كلنر الذي عمل باكبر قدر من التنبه حين بلغ اللحظة الاشد خطرا ، ان شرطا اعمق مما ينبغي يوشك ان يخرق الشرج . على ان العملية لم تكن بالاجمال معقدة . وكان جول قد درس الصور الشعاعية ونتائج الروائز . كان المفروض بشكل طبيعي ان يجري كل شيء على ما يرام ، الا اذا تعقد شيء متوقع في الجراحة .

كان ملقط للجنين يبعد فتحة المهبل ، وكانت الشرطة تكشف الغلاف الذي يحيط بالشرج . وكان الجرّاح يبعد باصابعه المغطاة بالشاش الانسجة الضامة المنفصلة بالشرط . ولم يكن جول ينزع بصره عن اعماق الجرح ، خشية ظهور عرق يدل على ان الشرج قريب اكثر مما ينبغي. ولكن كلنر البارع كان يعرف شغله . كان يجدد المهبل بمثل السهولة التي يجمع بها نجار عناصر سقف . ثم لأم كلنر الجرح بدرزات مضمومة ليغلق الشرطة باحكام ، تفاديا من تشكل نوابت يمكن ان تكون مقلقة في ذلك الموضع . وبعد ذلك حاول ان يدس ثلاثة اصابع في الفرج المضيّق فلم يستطع . وبجهد ادخل اصبعين . وقد غرزهما بعمق ثم رفع نحو جول عينيه البورسليتين الزرقاوين اللتين كانتا تلمعان فوق قناع

الشاش . وبدا وكانه يسأله ان كانت الانسة ، بعد الان ، ضيقة بما يكفي ذوقه .

وانتهت العملية . ودفعوا بلوسي حتى قاعة الانعاش ، وتحدث جول الى كلنر الذي كان منطلق المزاج : علامة على ان كل شيء جرى كما ينبغي . وقال :

ــ ليس هناك اي تعقيد ، يا عزيزي . لم تكن القضية قضية حثل اغتذائي على الاطلاق . وهي مع ذلك حالة مدهشة . ان هذه المرأة تتمتع بحيوية رائعة ، وقد كانت مصابة بتشوّه يدل عادة على نقص في الحيوية . وعلى اي حال ، فستكون الان رفيقة مثالية في الملذّات . وانا اغبطك ، يا ولدي . طبعا ، لا بدّ من انقضاء فترة انتظار ، ولكني اضمن لك النتيجة .

ــ انت بيجماليون حقيقي . لقد رأيتك تجري العملية ، كان ذلك مدهشا .

ــ لعب اطفال ، يا عزيزي ، كاجهاضاتك . لو كنا في مجتمع اكثر واقعية ، فانّ اشخاصا مثلي ومثلك ذوي مواهب ، كنا نقوم بالاشياء الجادة ونستطيع ان نترك للمبتدئين عمليات صغيرة كهذه . وبالمناسبة ، سأرسل لك مريضة في الاسبوع القادم : فتاة لطيفة جدا . ان امثال هذه الفتاة هنّ اللواتي يضعن انفسهن في المغطس . وهكذا تكون متعادلين .

وصافحه جول وهو يقول : ــ شكرا . تعال لزيارتنا ذات يوم . سأحرص على ان تقدم لك المؤسسة كل ما هو افضل .

فأجاب كلنر ببسمة مواربة : ــ انني العب هنا لعبا ضخما بما فيه الكفاية ،بلا روليت ولا زهر . انني كل يوم اجابه القدر . ولكنك انت ، يا جول ، ستفقد براعتك هناك . لا بدّ انتنسى ، بعد عامين ، الجراحة الجادة ، ولن تكون قادرا عليها بعد .

واستدار على عقبيه ومضى . ولم يحمل جول عبارته الاخيرة على محمل التانيب ، ولكن الانذار مع ذلك قد ايأسه . ولم يكن المفروض ان تترك لوسي قاعة الانعاش قبل الساعة الثانية عشرة . وهكذا هبط الى المدينة وسكر ، طلبا للانشراح لا للنسيان ، لان نجاح العملية كان يعزّيه .

في اليوم التالي ، حين ذهب يعودها في المستشفى ، ادهشه ان يجد الغرفة ملأى بالزهور ورجلين قرب السرير . وكانت لوسي مستندة الى الوسائد ، مشعة. وكان سبب دهشة جول انها كانت قد قطعت علاقتها بأهلها وكان هو قد طالب بعدم اخبار احد ، الا في حالة وقوع كارثة . وكان فريدي كورليون يعرف طبعا انها ستجرى لها عملية صغيرة في هذا المستشفى . كان لا بد من اخبارهلكي يتمكنا كلاهما من التغيب في وقت واحد ، وكان فريدي قد قال لجول بان يرسل قائمة التكاليف الى الفندق .

وقامت لوسي بواجب التعريف ، وتعرّف جول احد الحاضرين فورا ، جوني فونتان الشهير . وكان الاخر ايطاليا ضخما ، عضلا ، ذا وجه مشحم ، يدعى نينو فالانتي . وبعد المصافحة ، لم يولهما جول ايّ انتباه قط . وكانا ينكدّان على

لوسي ويحدثانها خاصة عن الحي الذي قضوا فيه طفولتهم في نيويورك ، وعن اشخاص واحداث لم يكن الطبيب يعرف عنها شيئا . وانتهى الى ان يقول للوسي :
ــ سأعود فيما بعد . يجب ان ارى الدكتور كلنر .
ولكن جوني فونتان صاح وهو يبذل كل فتنته : ــ اوه ، ايها الرفيق ! نحن مضطران للذهاب ،فابق الى جانب لوسي ، واعتن بها جيدا ، يا دكتور !
ولاحظ جول ان فونتان كان ابحّ الصوت بصورة غريبة . وتذكره فجأة.انهذا الفنان لم يغنّ في الجمهور منذ اكثر من عام ، وانه كان قد فاز بجائزة اوسكار لدور البطولة في احد الافلام . ايمكنلصوتهان يتغيّر في مثل هذه السنّ ؟ ومع ذلك، فان الصحف لم تكن قد قالت عن الامر شيئا ، ولم يكن يتحدث عنه احد . كان الامر سرا . وكان جول يحبالقيل والقال عن المشاهير ، واصغى بتنبه الى فونتان محاولا ان يشخّص سبب هذه الغرابة في صوته . كان يمكن ان تكون المسألة مسألة تعب وسكاير وكحول وحتى نساء . على اي حال ، لم يكن في رنة صوته بعد ما هو عذب ، ولم يكن ممكنا اعتبار فونتان مطربا رقيقا .
قال جول : ــ يخيّل اليّ انك مزكوم .
فأجاب فونتان بأدب : ــ لا ، ولكنني تعب فقط . حاولت ان اغني مساء امس، وارهقت صوتي . (واضاف ببسمة خضوع) لقد تغيّر صوتي مع السنّ ، ولا افهم سببا لذلك .
سأله جول : ــ هل استشرت طبيبا ؟ ربما كان في الامكان معالجته .
ففقد الممثل الشهير سحره وتأمل جول بعين باردة : ــ لقد انقضى زهاء عامين على استشارتيافضلالاطباء . وطبيبي الخاص مشهور بانهافضل اطباءكاليفورنيا. الجميع ينصحونني بالراحة ، بالراحة الكثيرة . ولست اشكو شيئا ، سوى انني اشيخ . ان الصوت يتغير مع العمر .
واذ فرغ فونتان من كلامه ، انفتل عنه وبدا وكأنه يتجاهله عن قصد . وتفنّن في سحر لوسي كما كان يفعل مع جميع النساء . وظل جول يستمع الى صوته . كانت لديه بكل تأكيد نوابت على حباله الصوتية . ولكن بماذا يحدّدها الاطباء الاخصائيون ؟ اكانت ورما خبيثا او غير قابل للعملية ؟ ثم انه كان ممكنا ان تكون ثمة اسباب اخرى .
وقاطع فونتان بأن سأله : ــ متى قابلت اخصائيا للمرة الاخيرة ؟
استاء فونتان من هذا السؤال ، ولكنه جهد ان يبقى متأدبا اعتبارا منه للوسي:
ــ منذ زهاء ثمانية عشر شهرا .
ــ وهل يفحصك طبيبك بين حين وحين ؟
اجاب فونتان منزعجا : ــ بكل تأكيد . انه ينصحني بقلي الافيون ، وهذا كل شيء . ويردّد لي ان صوتي يشيخ ، واني افرط في الشراب والتدخين .وتجاوزات اخرى . لعلك اعرف منه بالموضوع ؟
ــ ما اسمه ؟
اجاب فونتان بظل من غرور : ــ توكر ، الدكتور جيمس توكر . ما رايك فيه ؟

انه اسم معروف ، وغالبا ما يذكــر مع اسماء نجوم السينما ، الرجال والنساء، وهو على صلة كذلك بطب ما تطبيقي ريفي ، مرتفع الاجر جدا .

قهقه جول قائلا : ــ انه رقيق الذوق في ملبسه !

ولم يخف فونتان استياءه ، فسأله : ــ اتحسب انك ابرع منه ؟

ــ وهل تغني انت افضل من كارمن لومباردو ؟

وادهشه ردّ فعل نينو فالانتي . فقد ضرب رقبته بمسند المقعد ، وانطــوى ينفجر بضحك مبالغ فيه . ولم تكــن المزحة تساوي هذا كله . ثم شمّ جول رائحة خمر فادرك ان السيد فالانتي هذا ــ ان كان اسمه كذلك ــ كان نصف سكران في تلــك الساعــة الصباحية . وابتسم فونتان لصديقه وقال له بجذل :

ــ قل لي ! اتراك تضحك لمزاحي انا ، وليس لمزاحه ؟

في تلك الاثناء ، امسكت لوسي بيد جول وجذبته قرب سريرها ، قائلةللاخرين:

ــ انه يبدو غبيا ، ولكنه جرّاح لامع ، فاذا قال عن نفسه انه اقدر من الدكتور توكر ، فهو كذلك . لا تشك بالامر يا جوني ، واصغ اليه .

دخلت احدى المرضات لتقول لهم ان المرضة الداخلية ستقدم للوسي بعض الخدمات فعليهم ان يخرجوا . ولاحظ جول ان لوسي ادارت راسها حيــن انحنى جوني ونينو ليقبّلاها . لم تقدم لهمــا الا خدها ، بينمــا كانا عازمين ، كمــا يبدو ، على تقبيل شفتيها ، ولكنها مدت فمها لجــول قائلــة : « عد بسرعــة ، فهمت ؟ » فهزّ براســه .

وفي الرواق سأله فالانتي : ــ ما كانت هذه العملية ؟ ليست بشيء ذي بال ؟

اجاب جول وهو يهز راسه : ــ مسألة صغيرة في جهاز التمديدات النسوي. شيء تافه جدا ، صدّقاني . وهذا يهمني اكثر منكمــا لانني آمل ان اتزوجها .

وحدجاه بمزيد من الاهتمــام ، كما لو انهما كانا يحاولان تقدير جدارتـــــه بالزواج من لوســـي .

ــ كيف عرفتما انها كانت هنا ؟

قال فونتان : ــ تلفن لنا فريدي بذلك . لقد كبرنا جميعا في الحي نفسه . وكانت لوسي وصيفة الشرف في عرس اخت فريدي .

قال جون : « فهمت » . ولم يضف انه كان مطلعا على القصة كلهــا التي انتهت الى العلاقــة بين سوني ولوسي ، وكان لديه احساس بان هؤلاء الايطاليين كانــــوا يعتبرون ذلك نوعا من اسرار الدولــة .

وفيما هم يسيرون في الرواق ، قال جول لفونتان :

ــ ان هذا المستشفى يمنحني امتياز استعمال قاعاتـــه . فدعنــي افحص حنجرتــك .

اجاب جوني : ــ لا وقت عندي لذلك .

قال نينو فالانتي : ــ ايه ، اسمع ! ان حنجرته تساوي مليون دولار ، فهــو لن يريها الى طبيب يساوي اربعة دراهم !

قالها ببسمة مواربة تدل على انه لم يكن يشك بجول ، بل كان يسخر مـــن

ادعاءات فونتان .

ـ لست طبيب اربعة دراهم . بل لقد كنت واحدا من المع الجراحين والمشخصين على الشاطىء الشرقي قبل ان يقبضوا عليّ في عملية اجهاض .

وكما توقع ، كان من شأن هذا الاعتراف ان اخذا ينظران اليه نظرة جدية . ان الاعتراف بعمل سيء يبرر ادّعاء الكفاءة . وكان فالانتي اول من تخلى عن دهشته فقال :

ـ اذا كان جوني لا يرغب في استشارتك ، فان لي انا زميلة تستطيع ان تفحصها . ولكن ليس في الحنجرة .

وسأله فونتان مترددا : ـ كم يستغرق ذلك من الوقت ؟

قال جول :« عشر دقائق » وكانت تلك اكذوبة . ولكنه كان يكذب على المرضى عن قصد . ان الطب والحقيقة في نظره لا يتفقان ، الا في الحالات القصوى ، وحتى هذه ..

قال فونتان : ـ في هذه الحالة ، اتفقنا .

وكان الخوف يزيد في بحة صوته .

وأمن جول احدى المرضات وقاعة للفحص لم تكن معدة لامراض الحنجرة ، ولكنها كانت مع ذلك كافية . وفي اقل من عشر دقائق ، حدّد وجود نوابت على الحبال الصوتية . والحق ان الامر كان سهلا . فما بال توكر ذاك ؟ ذلك الفتى ابن القذر ـ الذي ليست لديه اية كفاءة والذي كان انيق اللباس ؟ طبيب السينما ذاك ، لماذا لم يقم بتشخيص سهل كهذا ؟ لعله لم يقم حتى بدراسة الطب ؟ اذا كان قد قام بها ، فيجب المبادرة فورا الى سحب شهادته . ومن غير ان يهتم جول بالايطاليين الواقفين امامه رفع السماعة وطلب من اخصائيّ المستشفى ان يوافيه . ثم التفت الى نينو فالانتي وقال له :

ـ ربما طال الامر ، فتستطيع انت ان تنصرف .

فقفز فونتان وصرخ : ـ ولكن قل لي : يا طبيب مؤخرتي ! اتتصوّر انك ستحتفظ بي هنا لتتسلى مع حنجرتي ؟

وبلذّة لم يكن يتصورها ممكنة الى هذا الحد ، صارحه جول بخشونة :

ـ افعل اذن ما يروق لك . ان عندك نوابت على الحبال الصوتية . في الحنجرة . فاذا بقيت هناك بضع ساعات، فسنعرف ان كان في الامر ورم خبيث ام لا ، وسنتمكن من اتخاذ قرار : جراحة ام معالجة . ستعرف اين انت من هذا . ان بوسعي ان اعطيك اسم افضل اخصائي في الولايات المتحدة وان نستدعيه الى هنا بالطائرة هذا المساء بالذات . على نفقتك ، طبعا . وهو الذي سيقرر الامر . اما اذا كنت تفضل ان تذهب لترى دجالك الهوليوودي او تستشير طبيبا اخر يرسلك الى شخص اخر غير كفؤ .. فكما تشاء ، واذا كانت المسألة مسألة ورم خبيث ، فان القضية تنطرح بشكل اخر : اما استئصال الحنجرة بشكل كامل ، او الموت . ابق معي وسنبت الامر خلال ساعات . الديك ما هو اهمّ من هذا ؟

وتدخل فالانتي فقال : ـ لنبق يا جوني ، بحق الشيطان ! سأخابر الستوديو .

وسأكتفي بالقول اننا مشغولان ، بلا شرح اخر ، وسأعود لابقى الى جانبك .

وابطأ بعد ظهر ذلك اليوم ، ولكنهم لم يندموا عليه . وقد قام اخصائي المستشفى بتشخيص اولي قبله جول بعد دراســة الصور المشعاعية والمخاط الذي اخذت عينة منه من الحنجرة . وحوالي الساعــة الثالثة ، كان فم جوني فونتان مدهونا باليــود وفريسة للغثيان . وقد اغلق فمه هذا واراد ان يذهب . فقبض عليه نينو فالانتي من كتفيه واجبره على الجلوس . وحين انتهى الفحص ، ابتسم جول لفونتان قائلا له:

ــ نوابت تافهــة .

فلم يفهم فونتان ، واستطرد جول يقول : ــ انها شبيهــة بالنباتات ، وليس اكثر . وسننزعهــا بمثل السهولة التي ننزع بها جلدة سجق . وبعد بضعــة اشهر ستشفى تمامــا .

اطلق فالانتي صرخة فرح ، ولكن فونتان كان ما يزال قلقا :

ــ والغناء ، بعد ذلك ؟ ايكون بامكاني أن اغنّي ؟

فهزّ جول كتفيه : ــ ليس هناك اية ضمانة ، ونظرا الى انك لا تغني بعد ، فما عسى ذلك ان يجديــك ؟

نظر اليه فونتان باشمئزاز : ــ انك ، ايها الفتى الوقح ، لا تعرف ما تقول . تحسب انك تعطيني خبرا سارا ، ولكنك تضيف انني ربما لا استطيع بعــد ان اغنّي . اليس هذا ما تقوله ؟ ربما لن استطيع بعد ان اغني ؟

واشمأز جول بدوره . لقد تصرّف تصرف طبيب ظيب واحس من ذلك بالرضى . كان يقدم خدمة لهذا الاحمق الذي كــان يسمح لنفسه بالاحتجاج والاعتراض كمــا او انه قد خدع . وقال له ببرودة :

ــ استمع اليّ ، يا سيد فونتان . انا دكتور في الطب . فيجب ان تدعونــي اذن طبيبا ، وليس فتى وقحا . ولقد اعطيتك خبراً سارا جدا . كنت اخشى وانــا اهبط الى هذه القاعــة ان يكــون في الحنجرة ورم خبيث . كان امامنا اما ان ننزع علبتك الموسيقية كلها او ان نتركك تموت . وحين نطقت بكلمة « نوابت » كنت في غايــة السعادة ، لاني كنت احب اغانيك . فقد ساعدتني على اغواء الفتيات حيــن كنت اصغر سنا . ثم انك فنان حقيقي . ولكنك كذلك شخص لا يحتمل ، ولد مدلل فاسد . اتعتقــد ان جوني فونتان الشهيــر غير قابل للاصابة بالسرطان ؟ بورم في النخاع لا يمكــن استئصاله ؟ بسكتة قلبية ؟ اتعتقــد انك لن تموت ابدا ؟ ليست الحياة موسيقى عذبة فحسب . اذا كنت تريد ان تعرف ماذا يترصــدنا جميعا ، تنزّه في هذا المستشفى ، وسوف تسبّح بحمد النوابت . فكفاك اذن حماقات ، وافعل ما يجب ان تفعله . ربما كــان بامكــان طبيبك ان يجد لك جرّاحا ماهرا . اما اذا دخل غرفــة العمليات ، فأنصحك ان تعمل للقبض عليه بتهمة محاولة القتل.

كان جول قد وضع يده على زر الباب حين صاح فالانتي :

ــ مرحى ، يا دكتور ! هكذا يجب ان تكلمه !

واستدار جول على عقبيه فسأل :

ــ هل انت دائما ثمل قبل الفطور ؟

ــ بكــل تأكيــد!

قالها فالانتي بقدر من الانطلاق والمرح جعل جول يحدّثه بألطف مما كان يرجو :
— في هذه الحالة ، يجب اذن ان تستسلم . ستموت بعد خمسة اعوام اذا تابعت ذلك .

ومشى فالانتي متعرّجا مترقوصا نحو الطبيب فعانقه بكلتا ذراعيه . كانت تنبعث منه رائحة ويسكي البوربون ، وسأله ضاحكا :
— خمسة اعوام ؟ هل يطول الامر الى هذا الحد ؟

بعد انقضاء شهر على العملية ، كانت لوسي مانسيني جالسة من جديد قرب المسبح في الفندق ، بلاس فيغاس ، في احدى يديها كأس كوكتيل ، واليد الاخرى في شعر جول الذي كان راسه يستريح على ركبتيها .

وقال ، على سبيل التنكيد : — لا جدوى من شرب هذا التماسا منك للشجاعة. ان عندي شامبانيا .

— الا تعتقد ان هذا ابكر مما ينبغي ؟

— انا هو الطبيب . ان العملية النهائية ستحدث هذا المساء . انني اول جرّاح في تاريخ الطب جرّب شخصيا نتائج مثل هذه العملية ، في الكائن البشري . سأكتب بلاغا الى الصحف المهنية على طراز الاعلانات : قبل وبعد . شيء من هذا انقبيل : بالرغم من ان « القبل » كان لذيذا جدا لاسباب نفسية ، ومع اخذ دعارة الجرّاح المدرّب بعين الاعتبار ، فان المضاجعة بعد العملية تبدت مثمرة الى ابعد الحدود من وجهة النظر العصبية .. اي ! اوي !»

كانت لوسي تشد له شعره . ثم رفعت راسه وقالت باسمة :
— بعد هذا كله ، اذا لم تكن مسرورا هذا المساء ، فستكون هذه غلطتك .
— انا واثق من شغلي . وبالرغم من اني تركت المهامّ اليدوية لصديقي القديم كلنر ، فأنا الذي وضعت مشروع العملية المفصل . والان ، لنسترح ، لان امامنا ليلة طويلة من الابحاث والتنقيبات .

وحين وصلا الى الشقة التي كانا قد بدأا يعيشان فيها معا ، وجدت لوسي هناك مفاجأة : كان عشاء شهيّ مهيأ ، وكان الى جانب قدح الشمبانيا المعدّ لها علبة جواهر ، كانت تحتوي خاتم خطبة رائعا .

قال جول : — ان هذا يبرهن لك اني واثق من شغلي . وسنرى ان كنت تستحقينه .

وكان لطيفا ورقيقا جدا معها . وقد خافت قليلا في اول الامر ، وقاومت دوافع مفاجئة للفرار ، كما لو انها كانت تخاف هذا الامتحان اكثر من عذراء . ثم عاودها الاطمئنان ، فأحست عاطفة جديدة لم يسبق ان احست بمثلها تصعد في كيانها كله . وبعد المرة الاولى ، همس جول لها :

— هل اشتغلت جيدا ؟

فأجابت بصوت خافت مثل همسه : — آه نعم ! نعم ، نعم !

وكانا يضحكان وهما يتعانقان من جديد .

الكتاب الخامس

٢٣

بعد خمسة اشهر من الاقامة في صقلية ، انتهى ميخائيل كورليون الى فهم طبع ابيه وقدره . وفهم كذلك اشخاصا مثل لوكا برازي ، وكليمنزا رئيس الفرقــة، والخضوع الذي كانت امه تقبل به دورها . والواقع انه رأى في صقلية ما كــان الجميع سيؤولون اليه لو لــم يقرروا التمرّد على المصير . وفهم لماذا كان الدون يردد طوعا : « ليس لكل انسان الا قدر واحد » . اصبح مفهومــا لــديــه احتقار السلطة ، والحكومة الشرعية ، والحقد على اولئك الذين ينقضون « الاوميرتا » ، قانــون الصمت .

كان ميخائيل قد نقل من محطة باليرمو حتى قلب صقلية وهو في لباس السفر: ثوب قديم رثّ وقبعــة ذات مقدّم طويل . وهكذا أقام في منطقة تسيطر عليهــا المافيا التي كــان رئيسها مدينا لابيه بدين ثقيل . ففي ذلك الريف ، كانت تقــوم قرية « كورليون » التي اخذ الدون اسمها حين وصل الى الولايات المتحدة ، بعد ذلك بسنوات . ولم يكن باقيا فيها بعد اي قريب على قيد الحياة . كانت النساء قــد ماتت بالشيخوخة ، وكان الرجال قد هلكوا في معارك انتقاميــة او هاجروا الــى الولايات المتحدة والبرازيل او حتى الى مناطق اخرى من ايطاليا . وعلم ميخائيــل فيمــا بعــد ان قريــة كورليون البائسة كان لهــا نسبة مــن الاغتيالات تفوق ايــة نسبة في اي مكــان اخر من العالم ، صغيرا كان ام كبيرا .

كان ميخائيل ضيفا على طبيب يبلــغ من العمر سبعين عامــا ، وهــو خــال اعزب لرئيس المافيا . اما هذا الاخير الــذي يناهــز الستين ، وكــان اسمــه دون تومازينو ، فقد كان يشرف على استغلال املاك قروية كبيرة تملكها عائلةصقلية من الاشراف القدامى . ولم يكــن هذا المديــر يكتفي بالسهر على حسن سير العمل في الاملاك ، بل كــان يمنع الفلاحين الذيــن لا ارض لهم او الذين يشكون العوز من ان يعتدوا على املاك السيد او ان يفلحوها بصفتهم واضعين يدهم عليها . وبعبارة اخرى ، كان المدير ، مقابل مبلــغ معيــن من المال ، يحمي املاك الغني.من اي مطلب مشروع او غير مشروع للفقير .واذا استشهد فلاح معوز بالقانــون الذي كان يسمح له بشراء ارض بور ، فقد كــان المديــر يرهبه بان يهدده بالموت او بالتشويه . لــم تكن الامور اشــد تعقيدا من ذلك .

وكانت لدون تومازينو ايضا اليد العليا على ريّ المنطقة ، وكان يعارض حكومة رومــا في بناء السدود ، بحجة ان هذه السدود ستقضي على التجارة الرابحــــة الناتجــة عن مياه الآبار الارتوازية . وكان الاقتصاد المحلي قائما ، منذ مئات السنين،

على غلاء المياه ، وقد كـان من شأن تخفيض ثمنه ان يؤدي الى انهيار اقتصادي .على ان دون تومازينو كان ، رغم كل شيء ، امينا على تقاليد المافيا ، بمعنى ان تجـارة المخدرات والنسـاء كانت تنفره ، وكانت وساوسه تسبب له المتاعب مع قادة الجـيل الجديد من المافيا الذين كانوا قد بداوا يتحركون في المدن الكبرى ، كمدينـــة باليرمو ، تحت تأثير الحياة العصرية وخاصة تأثير رجال العصابات الاميركيين ذوي الاصل الايطالي المطرودين الى بلادهم .

كان رئيس المافيا هذا رجلا ضخم الجثة ، رجلا « مبطنا » بكل معنى الكلمة ،اي متكرشا وقادرا في الوقت نفسه على بث الرعب لدى الاخرين . ولم يكن لميخائيـل، تحت حمايته ، ان يخشى شيئا ، ومع ذلك فقـد وجد من المستحسن حفظ السر حول هويته . وهكذا امتنع ابن كورليون ، في البدء ، عـن مغادرة املاك الدكتور تازا ،عمّ الدون ، المحاطـة بالاسـوار .

وكان الدكتور تازا طويلا بالنسبة للصقليين اذ كان يبلغ زهاء متر وثمانين . كانت سحنته ملونة ، وشعره شائبا . وبالرغم من كبر سنه ، فقد كان يذهب كـل اسبوع ليحيي اصغر مومسـات باليرمو سنا . وكانت المطالعـة عيبه الثاني . كـان يقرأ كل شيء ، ويتحدث عـن كل مـا قرا الى جيرانه او مرضاه ، وكلهم فلاحـون أميون ، وكذلك الى الرعاة الذيـن لميكونوا اكثر ثقافة . وكان ذلك يكلفه شهـــرة محليـة بانـه مجنون . فما عسى ان تعنيهم قصص الكتب تلك ؟

وفي المسـاء ، كـان دون تومازينو والدكتور تازا وميخائيل يثرثرون بامان في الحديقـة الواسعـة المسكونة بتماثيل من مرمر كانت تبدو وكأنهـا تنبت في صقلية بمثل القوة السحرية التي تنبت بهـا الاعناب السوداء ذات النسغ المسكر . وكـان الطبيب الشيخ يحب ان يروي حكايات عن المافيا التي كانت مآثرها تعـود الى قرون عديدة خلت . وكان يجد في ميخائيل مستمعا يقظا . واحيـانا كان اريج الحديقة او النبيذ المفكه ، او حتى السن وحدها ، تدفع دون تومازينو الى سرد واحدة مـن مغامراته الشخصية . كـان الطبيب يكتفي منهـا بالاسطورة والدون بالواقع .

في تلك الحديقة العريقة ، عرف ميخائيل جذور اجـداده . كانت « مافيا » تعني في الاصل ملجأ او ملاذا . ثم تبنت هذه الكلمة التنظيمـات السرية التي نشأت تلقائيـا لتقاوم اسيـاد البلاد . وهؤلاء الاسياد كانوا دائمـا يتغيرون عبر التاريخ . كانت محاكم التفتيش قد عذّبت الاغنياء والفقراء على السواء . وكان الاعيان سـادة الارض وامراء الكنيسـة الكاثوليكية يمارسـون سلطـة مطلقـة على الرعاة والفلاحين، وكانت الشرطة آلة سلطتهم ، وكانت تندمج بالاعيان اندماجا كليا حتى انـه ليس ثمـة شتيمة في صقليـة اسوأ من كلمـة « شرطيّ » .

وتعلّم الشعب ، وقد ارهقه اعيان لا شفقـة عندهم ، الا يعبّر قط عن غضبـه او حقده بالخوف من الانتقام . وتعلم كذلك ان ادنى تهديد يجعل المرء قابلا للانجراح لانه يضع الخصم على حذره ويسبب اعمـالا انتقاميـة معجّلة . وكان الصقليون الذيـن تعاديهم البنيـة الاجتمـاعية لا يتوجهـون ابدا الى العدالـة ، وحين كان يدركهم الظلم ، فانمـا كانـوا يحملون شكاواهم الى المافيا السرية المتمردة . وثبتت

المافيا سلطتها بان فرضت قانون الصمت : « الاوميرتا » . ففي الريف الصقلي ، لم يكن يحق للاجنبي الذي يطلب معرفة الطريق الى اقرب مدينة ان يتلقى جوابا مؤدبا . واسوأ جرم يمكن لعضو من المافيا ان يرتكبه هو ان يكشف للشرطة عن اسم العدو الذي اطلق عليه النار او جرحه على نحو ما . واصبح « الاوميرتا » دينا شعبيا . والمرأة التي قتل زوجها لا تعطي الشرطة اسم القاتل ، وكذلك اذا قتل طفلها او انتهك حرمة ابنتها .

ولان السلطات لم تكن تصدر احكام العدل باستقامة وشرف ، كان الصقليون يفوضون امرهم الى الخارجين عن القانون في المافيا ، كما كان يحدث قديما في انكلترا حين كان يلجأ القرويون الساكسون والدنمركيون الى « روبين دي بوا ». وظلت المافيا تلعب هذا الدور ، الى حد ما . عند الضرورة ، كان الصقليون ما يزالون يلجأون الى قادة المافيا في منطقتهم . وكانت نشاطاتها المتنوعة تساوي على نحو ما نشاطات مفوض في الشرطة ، او مساعدة اجتماعية ، مستعدين ان يقدّما سلة مؤن او عملا ما . وبالاختصار ، كانت المافيا هي الحامية .

ولكن الدكتور تازا لم يكن يصرح بما عرفه ميخائيل فيما بعد تلقائيا : كانت المافيا قد اصبحت السلاح اللاشرعي للغنيّ ، بل حتى الشرطة المساعدة للقادة السياسيين والقضائيين . كانت قد تحلّلت فاصبحت تدعم الرأسمالية ،وتحارب الشيوعية ، بل وحتى الافكار الليبرالية . وكانت تقتطع ضرائبها الخاصة على كل لون من النشاط الاقتصادي ، مهما قلّ شأنه . وفهم ميخائيل كورليون اخيرا لماذا اصبح رجال كأبيه لصوصا واشرارا وقتلة بدلا من ان يندمجوا في المجتمع المشروع. كان الانحطاط الناتج عن البؤس والخوف يبلغ في صقلية درجة لم يكن ليحتملها الانسان الطيب . وحين كان المهاجرون الصقليون يصلون الى اميركا ، كانوا يفترضون طبيعيا انهم سيتعرضون فيها لسلطات ظالمة ووحشية كسلطات بلدهم .

وعرض الدكتور تازا على ميخائيل ان يصطحبه في زياراته الاسبوعية الى مباغي باليرمو . ولكن ميخائيل رفض . كان هربه الى صقلية قد منعه من معالجة فكّه المكسور ، فكان وجهه ما يزال يحمل الاثر الذي خلفته قبضة النقيب ماك كلوسكي . كانت العظام قد التأمت بانحراف ، مما كان يضفي على جانبيته اليسرى هيئة تشوّه . ونظرا الى انه كان دائم الاعتزاز بجمال مظهره ، فقد كان يعاني من ذلك اكثر مما كان يظنه ممكنا . وكان يتألم كذلك ماديا من هذا الجرح ، من غير ان يقلق لذلك ،لان الدكتور تازا كان يعطيه اقراصا لتهدئة الالم .

وعرض عليه تازا ان يجري له عملية ، ولكن ميخائيل رفض ذلك ايضا . كان قد عاش في صقلية بما فيه الكفاية ليعرف ان تازا ربما كان اردأ طبيب في البلد . والواقع ان الشيخ كان يقرأ كل شيء ما عدا كتب الطب ومجلاته . وكان يعترف بانه لم يكن يفهم منها حرفا. وكان مدينا بنجاحه في امتحانات كلية الطب الى وساطة احد قادة المافيا الصقليين الرئيسيين كان قد قصد باليرمو ليحدّد للاساتذة العلامات التي كان يجب عليهم ان يضعوها له . وهذا التفصيل كان يظهر كم كانت المافيا ضارة بصقلية التي كانت تتآكلها كالسرطان . لم يكن

الاستحقاق ولا الموهبة ولا الجهود تساوي شيئا . كان « بادرينو » المافيا يمنح كل انسان مهنة على سبيل الهدية .

واتيح لميخائيل ، المتعطل ، وقت كامل للمراقبة والتفكير والفهم .و بعد فترة من الزمن ، اخذ يتنزه في النهار عبر الريف ، يرافقه دائما راعيان ملتحقان باملاك دون تومازينو . ورعاة الجزيرة كانوا غالبا ما يوظفون كقتلة مأجورين من قبل المافيا وينفذون هذه المهمات لكسب حياتهم فقط . وبعد التفكير ، استنتج ميخائيل ان بامكان تنظيم ابيه ان يصبح اذا ازدهر في الولايات المتحدة ، مؤذيا وخبيثا كالمافيا في صقلية . كانت الجزيرة قد اصبحت ارضا للاشباح . وكان سكانها ، لكي يعيشوا حياة طبيعية ، يهاجرون الى جميع بلدان العالم ، املا منهم بان يكتسبوا خبزهم من غير ان يتعرضوا للقتل اذا افادوا من حرياتهم السياسية والاقتصادية .

وما استلفت نظر ميخائيل في اثناء نزهاته الطويلة ، جمال البلاد الفزير . كان يتفق له ان يعبر بساتين برتقال مثقلة يحس المرء فيها بنداوة الظل كما يحسه في كهوف . وكانت تخترق البلاد اقنية مياه قديمة ذات فتحات متقنة الصنع ، وكان بعضها قد نقش قبل العهد المسيحي . وكان ثمة مقصورات رومانية قديمة ذات بوابات مرمرية رائعة وقاعات مقببة واسعة تتداعى للسقوط او تتخذها الشياه الشاردة ملجأ لها . وكانت الاكمات المجففة التي تسد الافق تلتمع كأكوام من الجماجم المبيضة مركومة بعضها فوق بعض تحت الشمس . وكانت الحدائق والحقول والبساتين تبقع بالخضرة المنظر الصحراوي ، كأحجار عقد من زمرد على بشرة بيضاء . وكان ميخائيل يمضي احيانا حتى كورليون . وكان سكانها الالف والثمانمئة يقبعون في بيوت مستندة الى صخرة جبل اجرد ، ومشيدة بحجارة مقدودة من هذا الجبل نفسه . وكان قد وقع ، في السنة السابقة وحدها ، اكثر من ستين عملية قتل في كورليون ، وكان شبح الموت يبدو مخيما على تلك البلدة . وفيما وراء ذلك ، كانت تمتد غابة فيكوزا التي كانت تكسر التعاقب الرتيب للسهول المزروعة والصخور الجرداء .

كان الراعيان اللذان يحرسانه يحملان دائما بندقيتهما « اللوبارا » حين يرافقانه . انه السلاح المفضل لدى المافيا : بندقية صيد بسيطة . وكان قائد الشرطة الذي اوفده موسوليني لطرد المافيا من صقلية قد امر بهدم جميع الاسوار التي كانت تتجاوز ثلاثة امتار ارتفاعا ليمنع القتلة من ان يكمنوا وراءها ببنادقهم . ولم يفد ذلك كثيرا ، وانتهى الامر بذلك الموظف الى تبسيط الامور بنقل جميع الصقليين الذكور المتهمين بالانتماء الى المافيا الى مستعمرات اصلاحية .

وحين اكتسحت جيوش الحلفاء صقلية ، كان موظفو الادارة العسكرية الاميركية يتصورون ان اي شخص كان مسجونا في العهد الفاشي لا يمكن ان يكون الا ديموقراطيا صالحا . وهكذا عينوا عددا كبيرا من زعماء المافيا مخاتير او رؤساء بلديات او تراجمة للحكم العسكري . وبفضل هذا الحظ السعيد ، عادت المافيا فتكونت من جديد واصبحت اقوى مما كانت من قبل .

كانت النزهات الطويلة ، وزجاجة نبيذ قوي في المساء مع صحن كبير من االحم والمعجنات ، تؤمن لميخائيل نوما عميقا . وكانت مكتبة الدكتور تازا تضم كتبا بالايطالية وبالرغم من ان ميخائيل يتكلم اللهجة الصقلية منذ حداثته وانه تابع دروسا بالايطالية في الجامعة ، فانه كان يجد مشقة كبيرة في قراءة هذه الكتب . وبعد بضعة اشهر ، اخذ يتكلم بلا لكنة تقريبا ، ولكن ما كان يمكن اعتباره كأنه مولود في المنطقة ، بل كان يظن انه احد ايطاليي الشمال الذين يعيشون قرب الحدود السويسرية او النمسوية .

ولكن مظهر خده الايسر كان يكسبه مظهرا باديا . والصقليون المشوهون كثيرون لانهم قلّما يعالجون جروحهم ولو كانت طفيفة . وكثيرون من الاطفال والرجال يحملون اثار جروح او تشوّهات كان من اليسير ازالتها في الولايات المتحدة بعملية بسيطة او حتى بمعالجة طبية مناسبة .

كان ميخائيل يفكر غالبا بكاي وببسمتها وبجسدها . وكان يحس دائما بشعور من الندم لانه تركها على تلك الصورة المفاجئة ، من غير كلمة وداع . ولكنه لم يكن يعاني قط اي تبكيت في الضمير اذ يفكر بالرجلين اللذين قتلهما . الم يحاول سولوزو ان يقتل اباه ؟ او لم يشوّهه النقيب ماك كلوسكي مدى الحياة ؟

وكان الدكتور تازا لا يني يلاحقه لاجراء عملية في فكّه تعيد اليه مظهره الطبيعي . وكان يلحّ خاصة حين كان ميخائيل يطلب منه المسكنات . وكان الالم في الواقع يتفاقم وتزداد نوبات الوجع . كان تازا يشرح له ان العظام الرديئة الالتئام تضغط على عصب تحت العين تتفرع منه شبكة كاملة من الاعصاب .وكان جلا دو المافيا انفسهم يعرفون جيدا هذا العصب ، وكان يتفق لهم ان يفزّوه بالابرة ، تحت خدّ ضحيتهم . وكان تازا يعتقد ان العظام كانت تضغط عليه او ان شظية كانت قد اندسّت فيه ، وان عملية في مستشفى باليرمو من شأنها ان تقضي نهائيا على الالم .

كان ميخائيل يرفض باصرار . وحين ساله الطبيب عن السبب ، اجابه باسما :

ـ انه تذكار من البلد .

والحق ان الالم لم يكن يهمه كثيرا ، اذ كان معظم الوقت غير حادّ ، ولم يكن يصبح واخزا الا بين الحين والحين.

على ان ميخائيل بدأ ، بعد انقضاء سبعة اشهر ، يملّ هذه البطالة الرعوية. وفي تلك الفترة طرات على دون تومازينو اعمال كثيرة فلم يعد يظهر في المقصورة الا نادرا . وكانت له متاعب مع المافيا الجديدة التي كانت تتكون في باليرمو .وكان الاقبال على البناء ، بعد الحرب مباشرة ، قد اتاح لبعض الشبان ان يجمعوا ثروة. وبفضل اموالهم ، كانوا يحاولون الاعتداء على اراضي زعماء المافيا القدامى وكانوا يصفونهم بانهم متخلفون . وكان دون تومازينو ينوي الدفاع عن مملكته ، فحرم ميخائيل من صحبته واضطره الى الاكتفاء بقصص الدكتور تازا الذي كان قد بدأ يكررها .

وعزم ميخائيل ذات صباح ان يقوم بنزهة طويلة حتى الجبال ، فيما وراء

كورليون . وقد رافقه طبعا حارساه الراعيان . ولم يكن ذلك في الواقع لحمايته من اعداء عائلة كورليون ، وانما لانه كان خطرا على المرء ، حتى ولو كان ساكنا محليا ، ان يشرد وحده في الريف. فقد كان الاشرار ينفلون في المنطقة ،وكانت المعارك القائمة بين مختلف فروع المافيا تعرّض جميع الناس للخطر . وقد كان بالامكان كذلك الاشتباه بانه نهّاب « باجلياو » . و«الباجلياو » كوخ يغطيه القش، يقام وسط الحقول لايواء العمال الزراعيين وآلاتهم تجنيبا لهم من القيام غالبا بقطع المسافة بين منازلهم ومكان عملهم . والفلاح في صقلية لا يعيش على الارض التي يفلحها ، فالعزلة اخطر من ان تفري بذلك . فهو اذن يقيم في القرية ويتجه الى مقر عمله ، وهو غالبا بعيد جدا ، منذ شروق الشمس ، كما يذهب ساكن الضاحية الى المدينة . ولكن الفلاح الصقلي يقطع المسافة مشيا على الاقدام .واذا وصل الى العمل فوجد كوخه « الباجلياو » منهوبا ، فانه يتعرض لضرر كبير ينتزع من فمه خبز نهاره . وقد دفع عجز السلطات المافيا الى اخذ الاكواخ تحت حمايتها والى حسم هذا الموضوع على طريقتها . فطاردت وقتلت كل من كانوا يسلبونها ، وبينهم بعض الابرياء . ولئن حدث لميخائيل ، وهو يتنزه في الريف ، ان يفاجأ بالقرب من « باجلياو » سبق ان نهب ، فبالامكان قتله في المكان نفسه . اما الراعيان فقد كانا مستعدين ان يضمنا حياته .

وهكذا مضى عبر الحقول ذات صباح مشمس ، يتبعه الراعيان . كان احدهما شخصا بسيطا صموتا ، شبه ابله ،في مثل صمت الميت . وكان قصيرا وجافا ، كجميع الصقليين قبل ان يتكرشوا في سن النضج، وكان اسمه كالو . اما الاخر ، فكان اصغر منه واكثر انفتاحا ،ويقظة لانه كان قد سافر قليلا عبر العالم. كان مجندا في البحرية الحربية ، فلم يكد يجد الوقت لطبع الوشم على صدره قبل ان تفرق سفينته على ايدي البريطانيين الذين التقطوه واسروه . وكان وشمه قد جعله شهيرا في القرية ، لان الصقليين الموشومين قليلون اما لانهم لم يكونوا يحبون ذلك ، او لانهم لا يجدون فرصة لذلك . (وكان هذا الراعي ، فابريزيو ، قد خضع لهذه العملية لاخفاء وصمة حمراء على بطنه) . ومع ذلك ، فان العربات التي كان القرويون يستعملونها لنقل نتاجهم الى السوق كانت في العادة مزدانة بالمنمنمات الجميلة المزخرفة بشغف .

على اي حال ، حين عاد فابريزيو الى قريته ، لم يكن فخورا جدا بهذه الفريدة بالرغم من انها تمثل مشهدا ينم عن مفهوم الصقليين لشرفهم. فمن اعلى الصدر حتى اسفل المعدة المشعر ، كان يرى زوج وهو ينفذ بخنجره رجلا وامراة عاريين . وكان فابريزيو يمازح ميخائيل ويساله عن الولايات المتحدة . والواقع انه لم يكن بالمستطاع اخفاء جنسية اللاجيء ، ولكن الراعيين كانا يعرفان انه كان مختبئا وانه كان ينبغي عدم الثرثرة بصدده . وكان فابريزيو يقدم بين الحين والحين قطعة جبن لميخائيل ما تزال تنضح لبنا .

وساروا طويلا في مخارف مغبرة ،والتقوا عربات مدهونة تجرها حمر صغيرة وكانوا يشاهدون حولهم في كل مكان ادغالا من زهور وردية وبساتين برتقال

وزيتون وشجر لوز ، وجميع هذه الاشجار كانت مبرعمة . وكان غنى المناظر يدهش ميخائيل الذي كان ، لدى وصوله الى صقلية ، يتوقع ان يجد ارضا جرداء لانه كان يعرف فقر الصقليين الاسطوري . ولكنه وجد بلدا خصبا مكسوا بالزهور العبقة ، وبعضها مسكر كبراعم اشجار الليمون . وكان يتساءل ازاء هذا الغنى والوفرة كيف فكر ذووه بالفرار . وبدت له فظاظة الانسان تجاه شبيهه في التناقض بين جنة عدن هذه وبين هجرة الصقليين الكثيفة .

وكان قد اعتزم السير حتى قرية « مازارا » الشاطئية ، ثم يعود منها بالسيارة الى كورليون في المساء . وكان جديرا بهذه المسيرة الطويلة ان تتعبه بما فيه الكفاية لتضمن له ليلة نوم مريحة . وكان الراعيان يحملان كيسين على الظهر يحتويان خبزا وجبنا للطريق ، ولم يكونا يخفيان بندقيتهما اكثر مما كانا يفعلان لو كانا ذاهبين للصيد .

كانت صبيحة رائعة . وكان ميخائيل يستشعر الجذل نفسه الذي كان يحسه في طفولته حين كان يخرج في ساعة مبكرة ، في الصيف ، ليذهب الى لعب الكرة . في ذلك الوقت ، كان العالم كله يبدو له مصبوغا من جديد كل صباح . وقد داخله الشعور نفسه ذلك اليوم ازاء سجاجيد الزهور التي كانت تفوح بعطر اشجار البرتقال والليمون فتسكره رغم عاهة وجهه التي كانت تضغط على جيوبه الانفية. صحيح ان كسر حنكه الايسر كان قد زال تماما ، ولكن الالتئام السيىء لعظامه كان يضغط على جيوبه ويؤلمه في عينه اليسرى ويسبب له زكاما مستمرا . كان يوسخ كميات من المناديل ، وبعد اشهر من الحياة القروية في صقلية ، انتهى الى التمخط باصابعه كالفلاحين .وكان الايطاليون المسنون يثيرون في السابق اشمئزازه لانهم كانوا يحتقرون المناديل بصفتها ترّهة انكليزية ، فيتمخطون فوق الاقنية ، في الشارع .

كان يحس راسه ثقيلا ، بالاجمال . وكان الدكتور تازا قد قال له ان هذا يعزى الى ضغط العظم غير الملتئم على الجيوب الانفية . وكان الطبيب يدعو ذلك كسرا ، بشكل قشرة البيض في الناتئة الوجنية . ولو كان قد عولج قبل الالتئام لتجنب هذا السوء . ان عملية بسيطة بآلة تشبه ملعقة كانت كفيلة باعادة العظم الى مكانه . ولكن عليه الان ، كما يقول الطبيب ، ان يخضع لعملية اهمّ في جراحة الوجه ، بمستشفى باليرمو .وسيبدا الجراح بكسر العظم في الموضع نفسه . وهذه الامكانية كانت كافية لحمل ميخائيل على الرفض . ومع ذلك فقد كان احساس الثقل في وجهه اكثر من الم العين او سيلان الانف .

في ذلك اليوم ، لم يبلغ الشاطيء . فبعد ان اجتاز مع الراعيين زهاء خمسة وعشرين كيلومترا ، توقف تحت ظلال بستان برتقال ليكسر الصفرة ويشرب نبيذا . وتأتأ فابريزيو حول رحلته الى اميركا . وبعد ان اكلوا وشربوا ، اخلدوا الى الراحة . وفك فابريزيو ازرار قميصه ثم قلّص معدته ليحرّك رسمه الموشوم ، فتلوى الرجل والمرأة في غمرات الحب ، وكان خنجر الزوج يبدو وهو يرتفع وينخفض ليقضي عليهما . وفي اثناء هذا المشهد ، اصيب ميخائيل بصعقة

الحب ، وهو حدث ياخذ اهمية كبرى عند الصقليين . كان يمتد وراء بستان البرتقال مرج مخضوضر هو جزء من املاك مولوية . وعلى طرف الطريق التي كانت تنطلق من الفيضة ، كانت تقوم مقصورة رومانية شبيهة بالمقاصير التي ترى في خرائب بومبيي : قصر صغير ذو بوابة من مرمر مزدانة بأعمدة يونانية مشيقة . وبدا بين هذه الاعمدة سرب من القرويات تواكبهن سيدتان قويتان ترتديان السواد . كن قادمات ، كما يوحي المظهر ، من القرية المجاورة ليقمن بنوع من السخرة التافهة في منزل سيد المنبذ : اما تنظيف المقصورة او تهيئتها لاقامته الشتوية . وكن في تلك اللحظة منتشرات في البستان ليقطفن زهورا تبث المرح في الغرف . كن يجمعن وستاريات بنفسجية يمزجنها ببراعم من زهر البرتقال والليمون . وكن يزددن اقترابا من شجرات البرتقال ، جاهلات حضور الرجال تحتها .

كن يرتدين اثوابا صغيرة رخيصة الثمن ولكنها ذات تعريقات كبيرة بألوان فاقعة ، وكانت ملتصقة بأجسامهن . لم تكن الا مراهقات ، ولكنهن كن قد بدأن ينضجن بشمس صقلية الحارة ، وكانت اجسامهن قد اكتسبت امتلاء انثويا . وكانت ثلاث منهن او اربع تطاردن واحدة باتجاه بستان البرتقال . وكانت هذه الاخيرة تحمل بيدها اليسرى عنقود عنب ضخما ، وبيدها اليمنى كانت تنتزع حباته فترمي بها المطاردات . وكان شعرها المسرح بشكلات اسود خبازيا بمثل لون العنب ، وكان جسمها يبدو وكأنه على وشك ان يتفجر خارج جلدها .

وتوقفت فجأة عند طرف بستان البرتقال ، مذهولة لانها ميزت لون قمصان الرجال ، فانتصبت على رأس قدميها كأنها ظبية في حالة انذار . وكانت آنذاك قريبة جدا ، فتميزوا ملامح وجهها .

كان كل ما فيها بيضوي الشكل : الوجه والعينان وحتى الوجنتان واستدارة الجبين . وكان لبشرتها لون قشدي لذيذ . وكانت عيناها الواسعتان بلون كستنائي كامد او بنفسجي غامق . وكانت رموش طويلة جدا تظللهما . اما فمها فكان سخيا على غير افراط ، رقيقا على غير استرخاء . وكان عصير العنب يصبغ شفتيها بلون السواد .

وبالاختصار ، كانت من الروعة بحيث ان فابريزيو تمتم مازحا :

ـ ايها الرب العظيم ، خذ روحي ، فانا اموت !

وتكلم بصوت أجش . وكما لو ان الفتاة سمعته ، فاذ بها تستقر بقدميها على الارض وتستدير على عقبيها وتفر باتجاه اللواتي كن يطاردنها . وكان لجسمها ، تحت ثوبها الضيق ، حركات ذات براءة وشهوانية جاهليتين . واذ بلغت رفيقاتها، التفتت . فبدا وجهها اذ ذاك اشبه ببقعة سوداء فوق خضرة الحقل . ومدت نحو بستان البرتقال عنقود العنب ، وسرعان ما هربن جميعا ضاحكات ، توبخهن السيدتان السمينتان .

نهض ميخائيل من غير ان يشعر . وكان قلبه يخفق خفقات كبيرة في صدره، واخذه الدوار . واحس دمه ينبض في جميع اطراف جسمه : اطراف اصابع يديه

وقدميه . وغمرته جميع عطور الجزيرة كأنها الدوامة : البرتقال والليمون والزهور. وخيل اليه ايضا ان جسمه ايضا كان يطير خارج جلده . ثم سمع الراعيين يضحكان .

قال فابريزيو وهو يربت على كتفه : ــ انها صعقة الحب ، اليس كذلك ؟

وحتى كالو ، اظهر له تعاطفا وهو يربت على كتفه قائلا : ــ على مهل ،ياعزيزي على مهل .

لكأن ميخائيل كان ضحية حادث ، كأن سيارة قد صدمته . ومد فابريزيو له ابريق الخمر ، فزرنق ميخائيل كرعة طويلة ، مما هدأ دواره .

وسأل : ــ عمّ تتكلمان ، يا راعيي النحس ؟

فانفجر الآخران ضاحكين. وقال له كالو ــ الشريف ــ باكبر قدر من الجدية :

ــ انها صعقة الحب . ان من يصاب بها لا يستطيع ان يخفيها . فالجميع يلاحظونها . وليس في ذلك ما يستوجب الخجل . اني اعرف من يصلون لكي يحدث لهم هذا . فأنت محظوظ .

وساء ميخائيل ان يكون ثمة من لاحظ انفعاله . ولكنها كانت المرة الاولى التي يحدث له فيها مثل ذلك . لم يكن ذلك يشبه في شيء دفقات الشهوة عندمراهق، ولا الحب الذي احسه لكاي بجمالها وذكائها وعذوبتها وسحر الشقرة على السمرة. كان فريسة لرغبة لا تقهر في امتلاك هذه الفتاة التي ظلت صورتها مطبوعة في ذهنه بشكل لا يمحي . وكان قد بدأ يعرف انه ان لم يمتلكها ، فستعمر خياله حتى نهاية ايامه . وكان هذا الحادث يبسط حياته التي كانت تتجه بعد الآن في اتجاه واحد ، ولم يكن شيء بعد يستوقف انتباهه . كان منذ بداية نفيه يفكر بكاي بلا انقطاع ، معتقدا انه لن يكون بعد ابدا حبيبها ، بل حتى الصداقة لم تكن بعد ممكنة بينهما . انه بعد كل حساب لم يكن الا قاتلا ، عضو مافيا قام بامتحانه . وها ان كاي قد تلاشت تماما من ذاكرته ، منذ لحظة قصيرة .

قال فابريزيو بحماسة : ــ انني ذاهب الى القرية . سنعرف من هي . ربما كانت أقرب الى التناول مما نظن . فمن يدري ؟ على كل حال ، ليس هناك الا دواء واحد لصعقة الحب . اليس كذلك ،ياكالو ؟

فهز الآخر راسه برصانة . ولم يقل ميخائيل شيئا بل تبع حارسيه حين اتجها الى القرية التي اختفت فيها الفتيات .

كانت جميع المنازل ملتمة حول الساحة التي يتوسطها ينبوع . اما السوق فكانت تقع على الطريق . وكان ثمة بضعة مخازن وباعة خمر ومقهى صغير على سطيحته ثلاث طاولات . ولم يكن ثمة اية فتاة ، ولا أثر لحضورهن . وكانت القرية تبدو قاحلة ، باستثناء صبي وحمار شارد .

واقبل صاحب المقهى يخدمهم . كان رجلا قصيرا سمينا ذا وجه متفضن كوجه قزم . وسلم عليهم بفرح ووضع صحن حمص على الطاولة ، قائلا :

ــ لستم من القرية . فاسمحوا لي اذن ان انصحكم . تذوقوا نبيذي . ان اولادي بالذات هم الذين يصنعونه من عنب كرمتي نفسها ، ويضيفون اليه عصير

البرتقال والليمون . انه افضل نبيذ في ايطاليا .
واتبعوا النصيحة . وحمل الرجل النبيذ في ابريق ، فوجدوه افضل مما وصفه ومسكرا كالكونياك . وقال فابريزيو لصاحب المقهى :
ــ انت تعرف جميع فتيات القرية ، وانا واثق من ذلك . وقد راينا عدة فتيات جميلات على الطريق . وقد سببت احداهن صعقة الحب لصديقنا (واشار الى ميخائيل) .
وحدق صاحب الحانة بميخائيل بمزيد من الاهتمام . وللنظرة الاولى ، لم يكن قد اولى كبير انتباه الى الخد المتورم الذي كان يبدو له تافها تماما . ولكن رجلا مصعوقا بالحب ، قضية أخرى . وقال :
ــ خذ بعض زجاجات النبيذ الى بيتك ، يا صديقي ، فستحتاج اليها لتنام هذه الليلة .
وسأله ميخائيل :ــ هل تعرف فتاة ذات شعر مسرح شكلات وبشرة قشدية؟ ان لها عينين واسعتين داكنتين جدا . هل ترى من هي ؟
أجاب الآخر بجفاء :ــ لا ، لا أعرف اي فتاة من هذا الطراز في القرية .
وترك السطيحة ، واختفى داخل المقهى .
وشرب المتنزهون الثلاثة خمرهم بهدوء . وافرغوا الابريق ثم نادوا طالبين المزيد . ولكن صاحب الحانة لم يظهر ثانية . ودخل فابريزيو الى القاعة ثم عاد مكشرا :
ــ انها ابنته ، كما كنت اتوقع . وهو الآن في خلفية المقهى يأخذه الهياج سائلا نفسه اي عمل شرير يمكنه ان يوقعه بنا . فخير لنا ان نذهب .
بالرغم من الشهور الطويلة التي قضاها ميخائيل في الجزيرة ، فانه لم يكن يستطيع ان يفهم حساسية الصقليين في هذا الميدان . والحق ان هذه الحالة كانت متطرفة ، حتى في هذا البلد ، ولكن الراعيين كانا يجدانها طبيعية . وانتظر ان ينهض ميخائيل . وقال له فابريزيو :
ــ قال لي القرد العجوز ان له ابنين ، شابين قويين طويلين سيهرعان عند اول نداء . فلنمض من هنا .
حدجه ميخائيل بنظرة مثلوجة . وكان حتى ذلك الوقت قد بدا هادئا ورقيقا مثال الاميركي المهذب . ومع ذلك ، فقد كان لا بد له ، وقد لجأ الى صقلية ، ان يتصرف على نحو رجولي . ولم يكن قد سبق للراعيين ان رايا العين الضارية لفرد من عائلة كورليون . وكان دون تومازينو الذي يعرف هويته الحقيقية ومآثره قد حاذره دائما . وكان يصفه بأنه « رجل محترم » . اما الراعيان البعيدان عن كل مكر ، فكانا قد كونا رأيهما الخاص بصدد ميخائيل ، وكانا على خطأ جسيم : ذلك ان نظرته المثلوجة ، ووجهه الشاحب الهادىء ، والغضب الذي كان يبدو منبثقا منه كبخار من كتلة من ثلج ، كل ذلك خنق ضحكاتهما ووضع حدا لرفع الكلفة عندهما ، وحين لاحظ ميخائيل انه اكتسب احترامهما اليقظ ، قال لهما :
ــ اذهبا فأتياني بهذا الرجل .

ومن غير تردد ، دخلا الى القاعة الباردة وبندقيتاهما تحت ذراعيهما .وبعد لحظة ، عادا بصاحب المقهى بينهما ، ولم يكن الرجل القصير السمين يبدو مذعورا على الاطلاق ، ولكن غضبه كان يتبدى بشكل اكثر حذرا .

استند ميخائيل الى كرسيه ، وحدق بمحدثه ، ثم قال بهدوء كبير :

ــ علمت انني جرحتك بالتحدث عن ابنتك . اقدم لك اعتذاري . انا غريب في هذا البلد ، ولا اعرف عاداتكم معرفة كافية . فاسمح لي ان اقول لك هذا : انني لم اكن اقصد انتقاص احترامك ولا احترام ابنتك .

وتأثر الحارسان الخاصان بهذا . انه لم يسبق لميخائيل قط ان حدثهما بهذه اللهجة . كان يقدم اعتذاره باكثر من اللياقة ، كان يقدمه بسلطة . وهز صاحب المقهى كتفيه . لقد راى انه لم يكن امام فلاح بلدي ، فأجاب بمزيد من الحذر :

ــ من انت ؟ ولماذا تهتم بابنتي ؟

واجاب ميخائيل ، بلا تردد ــ انا اميركي لاجيء الى صقلية لاني مطلوب من شرطة بلادي .اسمي ميخائيل . باستطاعتك ان تشي بي لدى الشرطة فتصبح غنيا . ولكن بدلا من ان تربح ابنتك في ذلك زوجا ، فانها ستفقد اباها . وايا ما كان فاني اريد ان اتعرف الى ابنتك . مع اذنك طبعا ، وتحت رقابة اسرتك ، بكل احترام وشرف ، لانني رجل شريف ، وليست بي اية رغبة لتلويث ابنتك . اريد ان اراها ، واتحدث اليها ، فاذا اعجب واحدنا بالآخر ، فسنتزوج . وفي الحالة المعاكسة ، لن تراني بعد ابدا . انها قد تجدني كريها ، وليس لهذا من علاج . اما اذا رقت لها ، فسأطلعك في الوقت المناسب على كل ما يجب على والد زوجتي ان يعرفه عني .

ففر الصقليون الثلاثة افواههم ذهولا . وتمتم فابريزيو بما يشبه الخوف :

ــ انها حقا صعقة الحب .

وبدا صاحب المقهى اقل ثقة بنفسه وبغضبه من ذي قبل . وسأل اخيرا :

ــ هل انت صديق للاصدقاء ؟

نظرا لان الصقليين لا ينطقون قط بكلمة « مافيا » ، فلم يكن بوسع صاحب المقهى ان يستعمل صيغة اوضح من هذه ليسأل ميخائيل ان كان ينتمي اليها . على هذا النحو كان سكان الجزيرة يتساءلون بهذا الصدد ، ولكنهم اجمالا لايطرحون السؤال مباشرة على من يعنيه الامر .

قال ميخائيل ــ لا . انا غريب في هذا البلد .

تأمل صاحب المقهى الخد المجروح والساقين الطويلتين اللتين ليستا معهودتين في صقلية . والقى نظرة على الراعيين اللذين كانا يحملان بندقيتهما وتذكر كيف دخلا عليه ليبلغاه أن « بادرونهما » كان يرغب في التحدث اليه . كان قد أجاب آنذاك باحتقار انه لم يكن يريد ان يبقى ابن القذر ذاك على سطيحة مقهاه . وقد رد عليه احد الراعيين : « صدقني انك تحسن صنعا اذا خرجت اليه فحدثته شخصيا . » ولم يكن يدري حقا لماذا استجاب ، ولم يفهم كذلك تماما لماذا آثر ان يعامل هذا الغريب بلباقة ومجاملة ، فقال له :

ــ عد بعد ظهر يوم الاحد . اسمي فيتيلي ، وانا اسكن هناك عاليا على التل، فوق القرية . ولكن تعال الى هنا فأصحبك الى البيت .

وبدأ فابريزيو يتكلم ، ولكن ميخائيل حدجه بنظرة بلغ من قسوتها ان لسان الراعي تسمر في فمه . ولاحظ فيتيلي ذلك . ولذلك ، فقد صافح يدميخائيل باسما ، حين نهض ومدها له . كان سيستعلم . فاذا لم يلائمه ما سيعرفه عنه، فانه سيستطيع ان يستقبل ميخائيل بصحبة ابنيه وبنادقهم في ايديهم . ولم يكن صاحب المقهى تعوزه الصلات مع « اصدقاء الاصدقاء » . ولكن شيئا ما كان يوحي اليه بان هذا الغريب كان يمثل واحدة من ضربات القدر تلك التي كان الصقليون يؤمنون بها دائما . كان يؤمل ان جمال ابنته ستؤمن الثروة لها والامان لعائلتها . والحق ان هذا كان جيدا جدا ، لان بعض شبان القرية كانوا قد بدأوا يطنون كالنحل حول الصبية . وهذا الميخائيل ذو الفك المكسور سيلزمهم حدودهم. وتدليلا على حسن نيته ، قدم فيتيلي للغرباء الثلاثة زجاجة باردة من افضل خمره. ولاحظ ان احد الراعيين كان يدفع ثمن الشراب ، فزاده ذلك تأثرا : كان ميخائيل اذن سيد رفيقيه .

لم تكن النزهة تهم ميخائيل بعد . ووجد الراعيان مرابا استأجرا فيه سيارة بسائقها للعودة بهم الى كورليون . وقبل موعد العشاء بقليل ، عرف تازا من الراعيين قصة ما حدث . وفي المساء ، حين التقى الدكتور تازا ودون تومازينو والاميركي الشاب في الحديقة ، قال الطبيب للدون :

ــ لقد اصيب صديقنا بصعقة الحب اليوم .

فلم تبد على دون تومازينو الدهشة ، بل تمتم :

ــ لو اصيب واحد من اولئك في باليرمو بصعقة حب ، فربما حصلت على السلام .

كان يقصد طبعا واحدا من رؤساء المافيا المنتمين الى المدرسة الجديدة الذين بدأوا في المدن الكبرى كباليرمو يضعفون سلطة الشيوخ امثاله .

قال ميخائيل لتومازينو :ــ اريد ان يتركني الراعيان وشأني يوم الاحد. ابلغهما ذلك . سأتناول العشاء عند هذه الفتاة ، ولا اريد ان يدورا حولي .

فرفع تومازينو راسه نفيا وقال :ــ انا مسؤول عنك امام ابيك ، فلا تطلب مني ذلك . ثم اني قد علمت أنك بدات بالتحدث عن الزواج . ولست استطيع السماح لك بذلك الى ان ارسل احدا يتحدث في الامر الى ابيك .

وتكلم ميخائيل بحذر شديد لانه كان يتوجه الى رجل محترم ، فقال :

ــ انت تعرف ابي ، يا دون تومازينو . فهو يصبح اصم حين يقول له احدهم لا ، ولا يسترد السمع الا حين يسمع نعم . ومع ذلك ، فقد سمعني غالبا اجيبه لا . بالنسبة للحارسين الخاصين ، انا اقبل. فلا اريد ان احدث لك متاعب . فليأتيا اذن معي يوم الاحد . ولكني اذا قررت ان اتزوج ، فسأتزوج . افهمني جيدا يا دون تومازينو : فما دمت لا اسمح لابي ان يتدخل في حياتي الخاصة ، فان السماح لك بذلك سيكون اهانة له .

تنهد رئيس المافيا قائلا : ـ سيكون الزواج اذن . لا بد من ذلك . لقد تلقيت صعقة الحب ، وهي فتاة طيبة من اسرة محترمة . اذا لوثت شرفها ، فسيسعى الاب الى قتلك ، وسيكون ذلك اراقة للدم . والحق اني اعرف العائلة جيدا ، ولا أستطيع ان ادع الامور تمضي الى ذلك الحد .

ـ ربما كرهتني . انها صغيرة ، وربما وجدتني كهلا . (ورأى الرجلين يبتسمان له) انني بحاجة الى مال لاقدم لها هدايا ، وسأكون محتاجا الى سيارة.

هز الدون رأسه ايجابا وقال : ـ سيهتم فابريزيو بالامر . انه خبيث ، ذلك الفتى ، وقد علموه الميكانيك في البحرية . سأعطيك مالا صباح الغد ، وسأبلغ اباك ما يجري . انني مضطر الى القيام بذلك .

سأل ميخائيل الدكتور تازا : ـ اليس عندك دواء يجفف أنفي ؟ لا اريد ان تراني هذه الفتاة وانا أتمخط طوال الوقت .

ـ سأعطيك مرهما لمنخريك . استعمله قبل الذهاب لرؤيتها . سيصبح وجهك بلا حساسية . ولكن لا تقلق ، فانت لن تقبّلها قبل انقضاء وقت طويل .

وابتسم الطبيب والدوق لهذه المزحة .

ويوم الاحد استقل ميخائيل سيارة الفاروميو واضحة القدم ، ولكنها قابلة للاستعمال . وكان قد ذهب الى باليرمو وعاد منها بالكار ليشتري هدايا للفتاة وللعائلة . وكان قد عرف اسمها : ابولونيا . كان يجده جميلا ويحلم به كل مساء وكذلك بوجه الفتاة الفاتن . وكان لا بد له من ان يشرب كثيرا حتى ينام . وأمرت خادمات البيت العجائز أن يضعن كل مساء زجاجة نبيذ بارد على طاولة سريره . وكانت في الصباح فارغة .

وبينما كانت اجراس جميع كنائس صقلية تقرع يوم الاحد ، اوقف سيارة الالفا روميو امام سطيحة المقهى . وكان كالو وفابريزيو جالسين على المقعد الخلفي مع بندقيتيهما « اللوبارا » . وامرهما ميخائيل ان ينتظراه في القرية ولا يرافقاه الى التل . كان المقهى مغلقا ، ولكن فيتيلي كان ينتظره مستندا الى حاجز السطيحة القاحلة .

وتصافحا . وأخذ ميخائيل رزم الهدايا الثلاث وتبع فيتيلي على الممر المؤدي الى منزله . وكان البيت اوسع من معظم البيوت الصقلية . لم يكن آل فيتيلي معوزين . وفي داخل البيت ، رأى ميخائيل تماثيل المادون تحت اجراسها الزجاجية مع شمعدانات نذرية تحترق عند اقدامها . كان الابنان حاضرين هناك بثياب الاحد السوداء . وكانا شابين صلبين لا يتجاوزان العشرين ،ولكنهما يبدوان اكبر سنا من ذلك لان العمل قاس على ارض صقلية . وكانت الام امراة قوية ، في مثل صلابة زوجها . ولكن الفتاة لم تكن حاضرة .

بعد التعريف الذي لم يكد ميخائيل يسمع فيه الاسماء ، جلسوا في غرفة ربما كانت الصالة او غرفة طعام ذات ابهة . كانت مفرطة التأثيث على غير كبر . ولكنها بالنسبة لصقلية منتهى الروعة التي يحلم بها افراد الطبقة الوسطى .

قدم ميخائيل هداياه الى « السنيور » فيتيلي والى « السنيورة » فيتيلي:

للاب قاطعة سيكار ذهبية ، وللام قطعة من ارق القماش الموجود في باليرمو . وكان باقيا معه رزمة صغيرة للفتاة . وشكروه بلا افراط ، لان هداياه كانت قبل اوانها. فما كان له ان يقدم شيئا قبل زيارته الثانية .

وقال له الاب بصراحة قروية :ـ لا تتصور اننا نستقبل بمثل هذه السهولة الاجانب عن بيتنا . ولكن الدون تومازينو كفلك شخصيا . وليس في مقاطعتنا من يضع كلمة هذا الرجل الممتاز موضع الشك . فأهلا وسهلا بك . ولكن علي ان ابادرك القول بانك ان كانت لك نيات جادة بموضوع ابنتي ، فيجب ان نعرف المزيد عنك وعن عائلتك . وانت تفهم ذلك ، مادام اهلك من سكان هذا البلد الاصليين .

أجاب ميخائيل بأدب :ـ سأروي لكم ما يروق لكم ، عندما يروق لكم .

ورفع السنيور فيتيلي يده :ـ انني متحفظ . لنر اولا ان كان الامر ضروريا. انني ارحب بك حاليا في بيتي كصديق لدون تومازينو .

وبالرغم من المرهم الذي كان يبطن انفه ، أحس ميخائيل بحضور ابولونيا في القاعة . والتفت . كانت واقفة عند عتبة الباب المقبب المفضي الى داخل البيت . كان يتضوع منها عبير الزهر النضر وبراعم الليمون . ومع ذلك فلم يكن ثمة شيء في شعرها الفاحم الذي كان مسرحا ذلك اليوم جدائل راجفة .ولم يكن ثمة شيء كذلك على ثوبها الاسود ذي البساطة الصارمة ، وهو دون ريب ثوب الاحد . ورمته بنظرة خاطفة ولم تكد تبتسم ، ثم خفضت عينيها بهيئة رزينة وجلست قرب أمها .

ومن جديد ، أحس ميخائيل من ذلك انقطاع انفاسه . وشعر بدفقة شهوة او على الاصح بحاجة للامتلاك لا معنى لها . وفهم للمرة الاولى حسد الايطاليين . ففي تلك اللحظة ، كان مستعدا لقتل اي شخص يلمس هذه الفتاة او تكون له فيها رغبات او يسلبه اياها . كانت الرغبة في امتلاكها أشد ضراوة عنده من حرص البخيل على قطعه الذهبية ، واشد تسلطا من حب الفلاح للارض . ان شيئا لن يمنعه من أخذ هذه الفتاة ، وامتلاكها ، وحبسها في بيت ، وجعلها اسيرة له وحده . بل هو لن يحتمل ان يراها احد غيره . وحين ابتسمت لاحد اخويها ، نظر اليه ميخائيل بهيئة وحشية حتى من غير ان يشعر بذلك . ولم تقلق العائلة لهذا : فهذا عارض مألوف من عوارض صعقة الحب . سيبقى هذا الشاب حتى الزواج وديعا وداعة مطلقة بين يدي ابنتهم . وسيتغير الامر بعد ذلك ، ولكن هذا سيان .

كان ميخائيل قد ابتاع ملابس جديدة عند ذهابه الى باليرمو ، فلم يبق عليه من مظاهر الفلاح شيء . وعرفت فيه العائلة دونا من طراز مجهول . ولم يكن تشوه وجهه يعطيه هيئة رديئة ، مهما كان رأيه في ذلك . فقد كان الجانب الايمن جميلا الى حد ان اللاتساوق كان يجعله مثيرا للاهتمام . والحق ان عدد الرجال المشوهين في هذا البلد كبير الى حد ان حالته كانت تبدو هينة .

نظر ميخائيل الى الفتاة وتأمل وجهها البيضوي الرائع ، وكان الدم الذي

يجري في عروقها داكنا الى حد ان شفتيها كانتا سوداوين تقريبا . ومن غير ان يجرؤ على النطق باسمها قال لها :

– رايتك قرب بستان البرتقال ، ذلك اليوم . وقد لذت بالفرار . آمل الا اكون قد اخفتك ؟

رفعت الفتاة جفنيها. واكتفت بهز راسها نفيا . كانت عيناها جميلتين ألى حد ان ميخائيل لم يستطع الصمود لنظراتهما . وتدخلت الام بخبث :

– ابولونيا ، تكلمي مع هذا الشاب المسكين . لقد قطع كيلومترات لكي يراك.

ولكن الاجفان الطويلة رفت على الخدين ، أرق من جناحي يمامة . ومد لها ميخائيل هديتها المغلفة بورق مذهب ، فوضعتها على ركبتيها .

قال الاب :– افتحيها ، يابنية .

ولكن اليدين ظلتا جامدتين . وكانتا صغيرتين سمراوين كيدي طفل . واستولت الام على الرزمة بحركة نفاد صبر ففتحتها ، حريصة مع ذلك على الا تمزق الورقة الثمينة . وشلتها العلبة المخملية الحمراء . انها لم يسبق لها قط ان امسكت بيدها شيئا جميلا كهذا ، ولم تكن تعرف كيف تفتحها . ولكن غريزتها هدتها الى المكان الذي ينبغي ان تضغط عليه ، فانفتحت العلبة الصغيرة ،واخرجت منها الهدية .

كانت سلسلة ذهبية ثقيلة تلبس كالعقد . واعجبت العائلة بها ، لا لسبب قيمتها الكبيرة فحسب ، بل لان هدية من ذهب كانت تؤكد ، كما هو مألوف،ارصن النيات واصدقها . كان ذلك بمثابة طلب للزواج او مقدمة لهذا الطلب . ولم يكن ثمة شك بعد الآن ان هذا الغريب مهتم بالفتاة لغاية نبيلة . وكان هناك يقين بان القضية قضية رجل يملك وسائل غنية .

وظلت ابولونيا على امتناعها عن لمس الهدية ، فشهرتها الام امام وجهها ، فاذا بها ترفع أجفانها الطويلة ، وتنظر الى ميخائيل بعينيها الكستنائيتين الرصينتين الشبيهتين بعيني ظبية . وقالت « غرازيا » (شكرا) وسمع اخيرا صوتها . وكان في ذلك الصوت عذوبة الصبا المخملية وحياؤه . وقد اصيب ميخائيل منه بالذهول ونظر الى الاب لحظة ، والى الام لحظة اخرى ، لانه لم يكن يجرؤ على ان يرفع اليها عينيه ، لفرط اضطرابه . ولاحظ مع ذلك ان ثوب الفتاة ، رغم بساطته ، كان يجسم فتنتها ذات الطبيعة المفرطة الحسية . ولاحظ كذلك ان البشرة القشدية كانت تزداد قتامة تحت تدفق الدم .

واخيراً نهض ميخائيل مستأذنا بالانصراف ، فنهض جميع افراد العائلة . وتبادلوا تحيات احتفالية . وحدقت الفتاة في عينيه وهي تمد اليه يدها ، فتناولها واحس بصدمة : كانت بشرتاهما تتلامسان . كانت بشرة ابولونيا حارة ، ولكنها خشنة : كف قروية . ورافقه الاب حتى سيارته في سفح التل، ودعاه الى العشاء يوم الاحد التالي . فوافق ميخائيل وهو مدرك تماما انه لن يستطيع الانتظار اسبوعا بطوله ليرى الفتاة ثانية .

ولم ينتظر . ففي اليوم التالي ، عاد الى القرية بسيارته من غير الراعيين،

فجلس على سطيحة المقهى ليثرثر مع الاب . وارسل السنيور فيتيلي ، وقد اخذته الشفقة عليه ، يطلب من امراته وابنته ان توافياه الى المقهى . وكان هذا اللقاء اقل تصنعا . وبدت ابولونيا اقل خجلا ، وتكلمت قليلا . وكانت ترتدي ثوبها اليومي من القماش المطبع الذي كان يناسب سحنتها اكثر .

وفي اليوم التالي ، مرت الامور على نحو مشابه ، باستثناء ان ابولونيا كانت هذه المرة تضع العقد الذهبي الذي كان قد أعطاها اياه . وبسم لها وهو يرى فيه رسالة تبليغ خفية . وتسلقا التل معا ، تتبعهما الام عن كثب . وبالرغم من هذه الرقابة ، لم يكن يسع جسميهما ان يمتنعا عن التلامس . بل لقد اتفق لابولونيا ان تعثرت بحجر ، فترنحت وسقطت على ميخائيل الذي تلقاها بملء ذراعيه . واذ ضم هذا الجسد الحار النابض ، أحس دمه يصعد متلاطم الامواج من قدميه الى راسه . ولم يريا الام تبتسم خلفهما : لقد كانت ابولونيا معزاة تلال ، ولم تكن تترنح في ذلك المر منذ كفت عن لبس قماطها . كانت تبتسم لان الشاب لن تكون له فرصة اخرى للمس الفتاة حتى الزواج .

ودام ذلك اسبوعين . وحمل لها ميخائيل هدايا في كل زيارة له . وتناقص خجلها رويدا رويدا ، ولكنهما لم يتركا ابدا بدون مصاحب . لم تكن ابولونيا الا قروية صغيرة لا تكاد تحسن القراءة والكتابة ، وكانت هي وميخائيل يتفاهمان بمشقة، ولكنه كان يلاحظ خاصة نضارتها وفرحتها بالحياة . ومر كل شيء بسرعة ، كما كان يتمنى ميخائيل . اما هي ، فقد كان زوج المستقبل يسحرها ، وكانت تحدس بأنه كان على الارجح وافر الغنى . وحدد موعد الزواج ذات احد ، قبل ذلك بخمسة عشر يوما .

وعند ذلك تولى دون تومازينو الامر بيده . وكانت رسالة من اميركا قد اعلمته بان ميخائيل كان يستطيع ان يتزوج على هواه ، ولكن كان عليه ان يتدرع بالحكمة والحذر . وقرر تومازينو ان يرافق الزوجين الى المذبح ، مما كان يتطلب حضوره الاحتفالات وحضور حراسه كذلك . ودعي كالو وفبريزيو الى العرس ، وكذلك الدكتور تازا . وتم التفاهم على ان يقيم العروسان اولا في مقصورة الطبيب المحاطة بالاسوار .

وتم الزواج على تقاليد البلاد . والقى القرويون ، من عتبات بيوتهم ، الزهور على الموكب الزوجي الذي مشى من بيت ابولونيا الى الكنيسة . وكان اعضاء الموكب يردون على هذه التحيات بقذف لوز ملبس بالسكر ، وهو الحلوى التقليدية للاعراس الصقلية . وبعد العرس ، بنى المدعوون جبلا من هذه الاقراص البدائية على سرير العروسين . وهذه المرة ، لم ينفذ هذا الطقس الا بشكل رمزي على سرير ابولونيا التي قضت ليلة عرسها في المقصورة ، خارج كورليون . واستمرت المادبة حتى منتصف الليل ، ولكن العروسين الشابين تسللا قبل ذلك الى الالفاروميو . وفي لحظة الذهاب ، لاحظ ميخائيل ان السيدة فيتيلي الام كانت ذاهبة معهما، بطلب من العروس . وأوضح الاب : كانت ابنته صغيرة جدا ، وعذراء ، فهي لذلك خائفة بعض الشيء . وكانت بحاجة الى من تثق بها وتعترف لها صباح اليوم

التالي لارشادها الى الطريق الصحيح اذا لم تجر الامور كما ينبغي . فتلك الامور كانت تخبيء احيانا بعض المفاجآت . وفي تلك اللحظة ، رأى ميخائيل ان ابولونيا كانت تراقبه ، قلقة ، بعينيها الكبيرتين الكستنائيتين الحييتين كعيني ظبية . فبسم لها وهز رأسه ايجابا .

وهكذا انطلقوا بالسيارة حتى المقصورة ، والحماة جالسة على المقعدالخلفي. وما كادوا يصلون حتى عانقت السيدة العجوز ابنتها وقبلت وجنتيها واتصلتبخدم الدكتور تازا . ودخل ميخائيل وابولونيا وحدهما الى غرفة النوم الكبيرة .

كانت ما تزال ترتدي ثوب العرس وفوقه وشاح . وكان الخدم قد حملوا الصندوق والحقيبة المنقولين بالسيارة . وكانت زجاجة نبيذ موضوعة على طاولة صغيرة الى جانب قطع من قالب حلوى العرس . وكان السرير الكبير المعمّد تحت ناظريهما . وانتظرت ابولونيا ، واقفة في وسط الغرفة ، ان يقوم ميخائيل بالخطوة الاولى .

ولكن منذ ان أصبحا وحيدين ، واصبحت تخصه قانونا ، ولم يعد شيءيمنعه من التمتع بالجسد والوجه اللذين كان قد حلم بهما تلك الليالي الطوال ، لم يكن ميخائيل يجرؤ بعد على الاقتراب منها . وقد رآها تضع معطفها وغلالتها على مسند كرسي ، ثم تنزع تاج زهور البرتقال وتضعه على طاولة صغيرة صفت عليها من قبل طائفة كبيرة من العطور ومستحضرات التجميل التي سبق له ان ارسلها من باليرمو . واجالت الفتاة عينيها دون أن تجرؤ على لمسها . وفيما كانت تتردد في خلع ثيابها في وضح الضوء ، اطفأ ميخائيل النور . ولكن قمر صقلية دخل من النافذة ، براقا كالذهب . واغلق ميخائيل المصاريع ، ولكن ليس كليا ، خشية ان تكون الحرارة اشد مما ينبغي .

واذ رأى ابولونيا ما تزال واقفة جامدة قرب الطاولة ، غادر الغرفة متجها الى الحمام في نهاية الرواق . وشرب قدح نبيذ في الحديقة مع الدكتور تازا ودون تومازينو . وحين عاد الى الغرفة الزوجية ، كان يأمل ان تكون الام والخادمات قد ساعدن عروسه على خلع ثيابها والاندساس في السرير . ربما كانت ابولونيا تتمنى ان يتولى هذا العمل بنفسه ، ولكنه كان يشك في ذلك نظرا لفرط حيائها وبراءتها .

وعند عودته ، كانت الغرفة مستغرقة في ظلام تام . وكان ثمة من اغلق المصاريع باحكام . وتلمس الطريق حتى السرير ، فتحقق باضطراب من حضور ابولونيا تحت الغطاء . وحين تحسسها ، لاحظ انها كانت توليه ظهرها ، وانها كانت متجمعة على نفسها . ونزع ثيابه واندس عاريا تماما تحت اللحاف . ومد يده فلمس بشرة الفتاة الحريرية . لم تكن ترتدي ثوب النوم . وسحرته هذه الجراة وعلى مهل ، وبحذر ، وضع يده على كتفها وضغط برقة لكي تستدير اليه. واستجابت ، على مهل ، هي ايضا . ولامس نهديها العذبين الريانين . وداعبهما، وفجأة ارتمت بين ذراعيه . وامتزج جسماهما في خطفة ناعمة . وضمها والتهم فمها وسحق نهديها على صدره وانقلب عليها .

واستسلمت ابولونيا بكل ما تملك عذراء صغيرة من ضراوة السعر والاهتياج. وحين اخترقها ، اطلقت تنهدة قصيرة مخنوقة ، وتجمدت لحظة صغيرة ، ثم انتفضت انتفاضة قوية فشدت ساقيها حول فخذي زوجها . وكانا بعد ذلك من ضراوة الاتحاد وعمق الالتحام بعد التخبط بحيث أحسا انهما عند انفصالهما يكادان يموتان .

وفي تلك الليلة ، وفي الاسابيع التي تلت ، بدأ ميخائيل يدرك الاهمية التي تعلقها المجتمعات البدائية على البكارة . لقد عاش حقبة من الحسية الشهوانية لم يعرفها من قبل ابدا ، واحس بقوته الرجولية احساس الامتلاء . وخلال هذه الايام الاولى ، كانت ابولونيا عبدا له تقريبا . وبفضل الثقة والشغف اللذين كان يمنحها اياهما ، اصبحت تلك العذراء امرأة تهب شهيتها العشقية من اللذائذ كل ما تهبه ثمرة في ابان نضجها .

كان حضورها يبث الاشراق في الجو الكئيب اجمالا لتلك المقصورة التي كان الرجال وحدهم يحسب لهم فيها حساب . وقد صرفت امها الى بيتها صبيحة اليوم الذي تلا ليلة العرس وترأست المائدة المشتركة ببراعة رائعة . وكان دون تومازينو يتناول العشاء كل مساء معهما ، وكان الدكتور تازا يروي حكايات الزمن الفائت . ثم كانت الامسيات تنقضي برقة كبيرة في الحديقة ، في شرب قدح اخير من النبيذ الاحمر . وفي غرفة النوم ، كان العروسان الشابان يقضيان الساعات فريسة عاطفة محمومة . ولم يكن ميخائيل يشبع من جسم ابولونيا الجدير بان ينحت له تمثال ، ولا من بشرتها العسلية ، ولا من عينيها الكبيرتين الكستنائيتين اللتين أصبحتا تلتمعان بالشهوة . وكان يتصاعد منها عبير نضارة، عبير جسدي ، بل حتى جنسي ، وهو مع ذلك رقيق عذب ، مثير للشهوة بلا هوادة . وكانت حماستها العذرية تتلاءم مع شبق ميخائيل ، فكانا لا ينامان غالبا، مرهقين ، الا عند طلوع النهار . وكان ميخائيل يجلس احيانا عند حافة النافذة، مستنفد القوى ، رافضا ان ينام ، ليتأمل جسم ابولونيا العاري وقد اخذها النوم . وكان وجهها ، في حالة الراحة ، مفرط السحر والفتنة : اشبه بالوجوه التي سبق ان رآها في كتب الفن ، وجوه المادونات الايطاليات اللواتي لم يكن الفنانون ، على براعتهم كلها ، يستطيعون ان يوحوا بانهن عذارى .

وبعد اسبوع من زواجهما ، تنقلا بسيارتهما في المنطقة وتنزها هنا وهناك . ولكن دون تومازينو اخذ ميخائيل على انفراد ليشرح له ان زواجه استرعى انتباه افراد المنطقة كلها . وكان معروفا لدى الجميع انه اميركي فار" . فكان لا بد اذن من اتخاذ الاحتياطات ضد اعداء عائلة كورليون الذين كانت ذراعهم الطويلة تمتد حتى صقلية . وعين دون تومازينو دوريات حراسة مسلحة حول المقصورة . وكف كالو وفبريزيو عن ترك البيت ، حتى لكأنهما تحولا الى قطع من اثاثه . ولم يعد ميخائيل وزوجته يخرجان من الاملاك . وقضى وقته في تعليم زوجته الشابة اللغة الانكليزية كتابة وشفويا ، وعلمها كذلك قيادة السيارة في ممرات الحديقة . وفي تلك الفترة ، كان دون تومازينو قليل الكلام . كانت لا تزال لديه متاعب مع مافيا

باليرمو الجديدة ، على ما يقول الدكتور تازا .
وذات مساء ، حملت امراة عجوز كانت تعمل خادمة في المقصورة صحفة من الزيتون المقطوف حديثا الى الحديقة ، وسألت ميخائيل :
ــ أصحيح ما يرويه الجميع من انك ابن دون كورليون ، العرّاب ؟
ورأى ميخائيل دون تومازينو يهز راسه باشمئزاز لان السر كان قد انفضح اكثر مما كان يقدر . ولكن العجوز كانت تحدجه بفضول شديد حتى بدت وكأن لها اسبابا شخصية تدفعها لمعرفة الحقيقة . وكان ان قال لها ميخائيل :
ــ صحيح . هل تعرفين ابي ؟
كان وجه هذه المراة ، فيلومنيا ، اشبه بحبة جوز في تجعده ودكنته . وكانت شفتاها تلتصقان بأسنانها المسودة . وقد رآها ميخائيل تبتسم للمرة الاولى منذ كانت هناك ، ثم تقول :
ــ في الماضي ، انقذ العرّاب حياتي ، وحال دون ان اصبح مجنونة .
وربتت على جبينها بطرف اصابعها . وارادت ان تقول المزيد ، فابتسم لها ميخائيل مشجعا ، فسألته بحياء :
ــ أصحيح ان لوكا برازي قد مات ؟
فهز ميخائيل راسه بالايجاب وادهشه ان يرى فيلومينا مرتاحة للنبأ . ثم صلبت وقالت :
ــ ليغفر لي الرب اذا دعوت على هذا الرجل بان تشوى روحه بنار جهنم حتى الابد .
وتذكر ميخائيل كم كان لوكا برازي يثير فضوله . وانتابه فجأة حدس : لقد كانت تلك المراة تعرف القصة التي كان هاجن وسوني يرفضان دائما ان يروياها له ، وصب قدح نبيذ للخادمة ودعاها الى الجلوس ، ثم قال بهدوء :
ــ حدثيني عن ابي وعن لوكا برازي . ان ما اعرفه عن هذا الموضوع ليس بالقليل . ولكن أخبريني كيف اصبحا صديقين ، ولماذا كان برازي على هذا الاخلاص لابي . لا تخافي شيئا ، تكلمي .
وازداد وجه فيلومنيا تجعدا . واتجهت عيناها السوداوان الشبيهتان باعناب كورنتيا الى دون تومازينو تسائلانه . ولا بد انه منحها اذنا بشكل فات الاميركي الشاب . وهكذا قضت فيلومينا السهرة في سرد قصتها .
كانت لثلاثين عاما مضت قابلة قانونية في نيويورك ، في الجادة العاشرة ، وكانت تولد نساء الجالية الايطالية . وكن خصبات ، فكانت فيلومينا تزدهر . وحين كان طبيب ما يستدعى لحالة صعبة ، كان كثيرا ما يتفق ان ترشده الى شيء ما . وكان زوجها ــ المتوفي منذ ذلك الحين ، ليرحمه الله ــ يملك متجر بقالة ويؤمن ربحا طيبا بالرغم من انه كان مفرط الشغف بلعب الورق ، وكان ، لتبذيره لا يفكر بحفظ قرش ابيض ليومه الاسود . وقد حدث ذات ليلة ملعونة ، منذ ثلاثين عاما ، في الساعة التي يكون فيها الاشخاص الشرفاء قد اووا منذ فترة طويلة الى سررهم ، ان طرق باب فيلومينا . ولم يذعرها ذلك ، باعتبار ان

المواليد كانوا في تلك الساعات بالذات ، يفضلون بدافع الحذر ، ان يدخلوا عالم الخطيئة الذي نعيش فيه . وارتدت ثيابها ثم فتحت الباب، فوجدت امامها لوكا برازي الذي كانت شهرته قد بدات تبث الرعب في كل مكان . وكانت تعرف ايضا انه كان اعزب . وقد خافت خشنية ان يكون قد قدم ليؤذي زوجها الذي ربما كان قد بلغ من خفته ان رفض له خدمة ما .

ولكن لا . لقد جاء لوكا للسبب نفسه الذي كان يدفع الاخرين للمجيء اليها. وقال لفيلومينا ان ثمة امراة توشك ان تضع طفلا في حي اخر ، وان عليها ان ترافقه. وحزرت على الفور ان ثمة شيئا ما يشتبه به . فقد كان وجه برازي القاسي يحمل ذاك المساء تعبير جنون . كان يبدو وكانه فريسة شيطان ما . واحتجت متذرعة بانها لم تكن تستطيع توليد امراة لم تكن تعرف من امرها شيئا . انها بصورة عامة تتابع زبوناتها في اثناء حملهن . ولكنه لم يرد ان يصغي اليها ، بل وضع قبضة من الاوراق الخضراء في يدها وامرها بقسوة ان تتبعه ولم تؤت الجراة على الرفض.

كان ثمة سيارة فورد تنتظر في الشارع . وكان وجه السائق مشمنقيا مثل وجه برازي . ولم تستغرق الرحلة اكثر من نصف ساعة ، وانتهت امام بيت خشبي صغير ، في « لونغ ايسلند » ، فيما وراء الجسر . وكان بيتا مبنيا لعائلتين ، ولكنه لم يكن مسكونا آنذاك الا من قبل برازي وعصابته ، بدليل انه كان ثمة قوادون آخرون في المطبخ يشربون ويلعبون الورق . وصاحب برازي فيلومنيا الى غرفة نوم بالطابق الاول . وكان في السرير امراة جميلة شابة يبدو انها ايرلندية بوجهها المزوق وشعرها الاحمر ، وكان بطنها منفوخا كبطن سمكة تروتة . وما كان اشد خوف الشقية ! حين رات برازي ادارت راسها الى الجهة الاخرى لفرط ذعرها. نعم ، يا سيدي ، لفرط ذعرها . والحق ان تعبير الحقد على وجه برازي الكريه كان اشد ما يثير الذعر في كل من عرفت القابلة القانونية في حياتها (وصلبت فيلومينا من جديد) .

لنختصر الحكاية . لقد ترك برازي الغرفة ، واتى رجلان من رجاله يساعدان القابلة . وولد الطفل . ونامت الام وقد نفدت قواها . ولفت فيلومينا الوليد بغطاء ، ثم ظهر برازي بعد ان ناداه احد الرجلين . ومدت له حملها وهي تقول : « اذا كنت أباه ، فخذه . لقد انتهت مهمتي » . فحدجها برازي بنظرة شريرة . كان الجنون مطبوعا على وجهه . وقال : « نعم ، انا الاب . ولكني لا اريد ان اترك احدا يعيش من هذا الجنس . احمليه الى القبو والقيه في النار ! »

وظنت فيلومينا ذات لحظة انها اساءت الفهم . كانت كلمة « الجنس» تثير فضولها . الان الام لم تكن ايطالية ؟ ام لانها كانت تنتمي الى اسوأ جنس ؟ ربما كانت مومسا ؟ ام لعله يريد ان يحرم على نفسه ان تولد له ذرية ؟ ولكنها اعتقدت ببساطة انه كان يقوم بمزحة ثقيلة فقالت له : « انه ابنك فافعل به ما تشاء »وحاولت ان تسلمه الوليد الملفوف بالغطاء .

في تلك اللحظة ، استيقظت الام الشابة ، منهكة ، والتفتت تنظر اليهم ، في اللحظة التي كان برازي يدفع بها الطفل الوليد على صدر فيلومينا .وقالت بصوت

ضعيف : « لوك ، لوك ، انني آسفة » ، والتفت لوكا اليها .

بعد ثلاثين عاما ، كانت فيلومينا ما تزال تقول ان ذلك كان فظيعا . كانا يشبهان وحشين من وحوش الغابة . لم يكونا مخلوقين بشريين . كان حقدهما المتبادل يشع في الغرفة . لم يكن ثمة شيء اخر في الغرفة ، حتى ولا الطفل الوليد . ومع ذلك ، فقد كانت عاطفة عجيبة : شبقا شيطانيا . كان واضحا انهما كانا ملعونين الى الابد . واستدار لوكا برازي الى فيلومينا وقال لها بقسوة: « افعلي ما اقول لك وستصبحين غنية » . وكانت اشد ذعرا من ان تتكلم ، فهزت راسها سلبا . ثم قالت : « افعله انت بنفسك مادمت الاب . افعله اذا كنت تجرؤ ».

واخرج برازي خنجرا كان يحمله بين قميصه وجلده وقال : « سوف اذبحك».

كان لا بد للصدمة من ان تمحو ذكرياتها لانها لا تذكر البقية تماما . على انها تتمثل نفسها في قبو ذلك البيت ، امام اتون التدفئة المركزية ، موقد كبير مربع ، من الحديد . وكانت فيلومينا ما تزال تحمل الطفل في غطائه . لم يكن ينبس ببنت شفة . « لعله لو بكى . ولعلي لو فكرت بقرصه ، اذن لاشفق عليه ذلك الشيطان.» ولا بد ان احد الرجلين قد فتح باب الفرن ، لان اللهيب كان واضحا . ثم الفت نفسها وحيدة مع برازي في ذلك القبو الذي تنبعث منها رائحة العفونة وترشح فيه الانابيب الرطوبة .وشهر برازي من جديد خنجره .كان سيقتلها دون ما شك. كان في عينيه شرارات لهيب . ولم يكن في وجهه الميزابي اي ملمح انساني .كان هو الشيطان ، بل حتى شيطانا مجنونا . ودفعها نحو الاتون .

وصمتت فيلومينا . وشبكت يديها المعظمتين على ركبتيها ونظرت الى ميخائيل، وفهم ما كانت تقصده : ان تنهي قصتها بلا كلام . وسألها بهدوء : « وهل فعلتها ؟» فاومات براسها ايجابا .

ولم تتم قصتها الا بعد قدح نبيذ آخر وعلامات صليب وصلوات تمتمتها بصوت خافت . لقد اعيدت الى منزلها مع رزمة اوراق مالية . وفهمت انها اذا نطقت بكلمة واحدة عما حدث ، فانها ستقتل . ولكن برازي قتل بعد يومين الشابة الايرلندية ، ام الطفل . واوقفته الشرطة . واستطار لب فيلومينا خوفا ، فذهبت تسر بالحكاية الى « البادرينو » واوصاها ان تصمت ، ووعدها ان يهتم بالامر . وفي تلك الفترة ، لم يكن برازي بعد في خدمة عائلة كورليون .

قبل ان يتمكن من ترتيب الامور ، حاول لوكا برازي ان ينتحر في زنزانته بان حز عنقه بقطعة زجاج . ونقل الى مستشفى السجن . وحين شفي ، كان دون كورليون قد تدخل . والواقع ان الشرطة لم تكن تملك من الادلة ما يكفي لتسليمه الى القضاء . واطلق سراح لوكا برازي .

وكان دون كورليون يطمئن فيلومينا ان لم يكن لها ان تخشى شيئا ، لا من برازي ولا من الشرطة . ولكنها كانت قد فقدت سكينة النفس . كانت اعصابها متزعزعة الى حد انها لم تكن تستطيع بعد ان تمارس مهنتها . واخيرا ، اقنعت زوجها ببيع دكان البقالة والعودة الى صقلية . وكان رجلا طيبا . وكانت قد كشفت له كل شيء ، فكان يدرك الوضع . ولكنه كان كذلك ضعيفا .وبذر الثروة

التي جهدا من اجلها طويلا في اميركا . وبعد موته ، اشتغلت فيلومينا كخادمـة. وتلك كانت نهاية قصتها .

وشربت كأس نبيذ اخرى وقالت لميخائيل :

ـ انني اباركـ اسم ابيك . لقد ارسل لي دائما ماكنت اطلب من مال . وقد انقذني من برازي . قل له ألا يخشى الموت لاني اصلي كل مساء من اجل خـلاص روحـــه .

بعد ذهاب المراة العجوز سأل ميخائيل دون تومازينو ان كانت قد نطقت بالحقيقة. فهز رئيس المافيا راسه بالايجاب . وفهم ميخائيل لماذا لم يكن احد يريد ان يروي له هذه القصة . فيالها من قصة ! وياله من لوكا برازي ايضا !

صباح اليوم التالي كان ميخائيل يريد ان يناقش دون تومازينو في القصة ، ولكنه علم أن رسالة مستعجلة وصلته بالبريد كانت قد استدعته الى باليرمو . وفي المساء عاد دون تومازينو ، فأخذ ميخائيل على حدة وقال له انه تلقى انبـــاء من اميركا . نبأ يشق عليه ان يبلغه اياه : لقد اغتيل سانتينو كورليون .

- ٢٤ -

كانت شمس صقلية تغمر في الصباح غرفة النوم بنور ليموني اللون . واستيقظ ميخائيل . وانعش رغبته ان يحس جسم ابولونيا الاملس على بشرته التي ما تزال دافئة بالنوم ، فلامسها بحنان . وتحبب . كان جمال زوجته وعشقها له ، حتى بعد أشهر من الامتلاك بلا تحفظ ، لا ينيان يذهلانه .

وذهبت تغتسل وترتدي ثيابها في الحمام الواقع في نهاية الرواق . وظل ميخائيل عاريا متمددا على سريره يستمتع بمداعبات اشعة الشمس على جسمه ، وأشعل سيكارة . كان ذلك آخر صباح يقضيه الزوجان الشابان في هذا البيت . وكان دون تومازينو قد قام باللازم لينتقل ميخائيل فيقيم في منطقة اخرى على الشاطىء الجنوبي من صقلية . وكانت ابولونيا ، التي اصبحت حاملا منذ شهر ، تنوي قضاء بضعة اسابيع مع عائلتها ، ثم تنضم الى زوجها في ملجأه الجديد .

وعشية الامس ، بقي دون تومازينو في الحديقة بعد ان ذهبت ابولونيا لتأوي الى فراشها . واعترف الدون ، الذي كان قلقا ومتعبا ، بأن سلامة ميخائيل كانت تحدث له هموما . قال :

ـ ان زواجك قد نبه اليك الانظار . ويدهشني ان اباك لم يتخذ تدابير لنقل اقامتك الى مكان آخر . وعلى اي حال ، فان اتراك باليرمو الشبان يحدثون لي ما فيه الكفاية من المتاعب . وقد عرضت عليهم تسوية عادلة . وسوف يفيدون منها اكثر مما يستحقون . ولكن هؤلاء الاغرار لا يكتفون بنقطة الندى ، بل يريدون ان يلتهموا كل شيء . انني لا افهم تصرفهم . لقد حاولوا كثيرا ان يسلخوا جلدي ، ولكنهم تبينوا اني اقسى من ان اطبخ لياكلوني ، وان لا بد لهم من دفع الثمن . غير ان الشبان هم كذلك ، حتى اكثرهم موهبة . انهم لا يفكرون بتعقل . انهم بحاجة الى الماء كله والبئر معه .

ثم شرح دون تومازينو لميخائيل ان الراعيين فبريزيو وكالو سيرافقانه في الالفاروميو كحارسين خاصين ، واضاف انه سيودعه في المساء نفسه لانه صباح اليوم التالي سيذهب للاهتمام باشغاله في باليرمو وسيمضي في الصباح الباكر . وكان المفروض الا يقول ميخائيل للدكتور تازا انه مسافر ، لان الطبيب كان سيقضي الليل في باليرمو وكان يخشى ان يثرثر .

وكان ميخائيل قد لاحظ ان تومازينو ، كان منذ فترة يعاني بعض المصاعب . وكان حرس مسلحون يقومون بالدورية حول القصورة ليلا ، وفي النهار كان يوجد في البيت دائما بعض الرعاة المخلصين المسلحين ببنادقهم اللوبارا . وكان الدون

نفسه مسلحا دائما حتى اسنانه، وكان حارس خاص يرافقه دائما الى كل مكان .

اصبحت الشمس لاهبـــــة الحرارة . وسحق ميخائيل سيكارته ثم نهض ، فارتدى بنطالا من كتان ، وقميص عمل ، واعتمر القلنسوة المدببة التي يلبسها جميع الصقليين تقريبا . ومال على نافذة الغرفة ، وهو لا يزال عاري القدمين ، فلمـــح فبريزيو جالسا على كرسي من كراسي الحديقة . وكان الراعي يصبغ بكسل شعره الاسود ، واللوبارا موضوعة باهمال على الطاولة الى جانبه . وصفر ميخائيـــل ، فرفع فبريزيو عينيه نحوه .

قال له ميخائيل : ـ أعدّ السيارة . سنذهب بعد خمس دقائق . اين كالو ؟

نهض فبريزيو ، وكان قميصه المفتوح يكشف خطوط الوشم الزرقاء والحمراء على صدره ، وقال :

ـ كالو يشرب فنجان قهوة في المطبخ . هل تذهب زوجتك معك ؟

تأمله ميخائيل بمزيد من التنبه . كان قد لاحظ منذ بضعة اسابيع ، من غير ان يهتم بذلك كثيرا اول الامر ، ان فبريزيو كان يلاحق بعينيه ابولونيا اكثر ممـــا ينبغي . كان الراعي ، بكل تأكيد ، لن يجرؤ على اية حركة مع زوجة صديق للدون. فليس في صقلية وسيلة آمن من هذه للموت . واذن ، فقد اجــاب ميخائيـــــل ببرودة :

ـ لا . انها ستقضي اولا بعض الوقت في بيت عائلتها وستلحق بنا فيما بعد .

ورأى فبريزيو يسرع نحو البناء الحجري الصغير الذي كان يؤوي الالفاروميو .

وذهب ميخائيل بدوره يغتسل عند نهاية الرواق ، فلم يجد ابولونيا في الحمام. لقد كانت على الارجح تعد له الفطور بيديها لتكفر عن الجريمة التي كانت ترتكبهـــا بالبقاء مع عائلتها بعض الزمن قبل ان تذهب الى البعيد ، الى الطرف الآخر مـــن صقلية . وسيتولى دون تومازينو امر نقلها الى ملجأ ميخائيل .

وفي المطبخ ، قدمت له العجوز فيلومينا القهوة وودعته بحياء ، فقـــال لها ميخائيـــل :

ـ سوف أذكر بك ابي .

فهزت براسها شاكرة . ثم اقبل كالو ينضم اليهما قائلا :

ـ السيارة جاهزة . هل ينبغي لي ان اضع فيها حقيبتك ؟

ـ لا ، سأهتم بها . اين هي ابولونيا ؟

شقت بسمة مرحة وجه كالو ، وقال : انها جالسة وراء المقود وهي تموت رغبة بالضغط على المسرّع . ان ابولونيا ستصبح اميركية قبل ان تصل الى اميركا .

لم يسبق لاحد في صقلية ان سمع بقروية تحاول ان تقود سيارة . ولكـــن ميخائيل كان بين الحين والحين يترك ابولونيا تقود الالفاروميو في ساحة المقصورة، وهو الى جانبها ، اذ كان يتفق لها ان تضغط على المسرّع حين كانت تريد الضغط على المكبـــح .

وقال ميخائيل لكالو : ـ انتظرني في السيارة مع فبريزيو .

وغادر المطبخ مرتقبا السلم باتجاه غرفته . كانت حقيبته مهيأة ، وقبل ان يتناولها نظر من النافذة فراى السيارة واقفة امام درج المدخل بينما كان المفروض ان تكون عند باب المطبخ . وكانت ابولونيا تمسك المقود بكلتا يديها ، كأنها طفل . وفي تلك اللحظة بالذات كان كالو يضع على المقعد الخلفي السلة التي تحتوي مؤن الغداء الذي سيتناولونه في الطريق . ورأى ميخائيل على الاثر فبريزيو يعبر بوابة المقصورة ليقوم ببعض المشتريات دون شك في الخارج . فأزعجه ذلك . الى اين كان يمضي هذا الراعي بحق الشيطان ؟ والقى فبريزيو نظرة من فوق كتفه ، فلمح ميخائيل في نظرته شيئا خاطفا ومشبوها . وقرر ان يهتم بأمر هذا الراعي الحقير. ثم هبط مارا بالمطبخ ليودع فيلومينا الوداع الاخير ، وسألها قائلا :

ـ الا يزال الدكتور تازا في السرير ؟

اتخذ وجه فيلومينا هيئة ماكرة وقالت : ـ ان الديكة المسنة لا تحيي الشمس المشرقة . لقد ذهب الطبيب مساء امس الى باليرمو .

وانفجر ميخائيل ضاحكا ، ثم خرج . وما لبث عطر شجر الليمون المزهر ان نفذ الى انفه عند الجيب المسدود باستمرار . وحيته ابولونيا بيدها فرحة جذلى . وكانت السيارة على بعد عشر خطى منه . ففهم اذ ذاك انها كانت تومىء له بأن يبقى حيث كان لانها كانت تريد ان تأتيه بالسيارة . وكان كالو يبتسم ، منتصبا قرب السيارة ، وكانت بندقيته تتدلى باهمال من ذراعه . ولكن فبريزيو كان ما يزال غائبا .

وبطرفة عين ، ومن دون اي تفكير واع ، فهم ميخائيل كل شيء فصاح بزوجته : « لا ، لا ! » ولكن صوته خنق بانفجار هائل ، لان ابولونيا كانت في اللحظة نفسها تدير المحرك . وتطاير باب المطبخ ، فتداعى ميخائيل للسقوط عند جدار المقصورة ، على بعد ثلاثة امتار . وسقطت قطع قرميد من السقف على كتفيه وتحطمت احداها على راسه . وقبل ان يغمى عليه ، اتيح له ان يلاحظ انه لم يكن باقيا من الالفاروميو الا العجلات الاربع وهيكل القاعدة .

استعاد وعيه في قاعة بدت له مظلمة جدا ، وسمع اصواتا خافتة جدا حتى انها كانت تصل اليه طنينا اكثر منها كلمات . وبنوع من الفريزة الحيوانية ، تظاهر بانه لا يزال فاقد الوعي . ولكن الاصوات صمتت ، ومال عليه شخص كان يجلس على كرسي الى جانب السرير . وسمع بوضوح :

ـ اقسم آنه عاد اخيرا بيننا .

واضيء مصباح ، فأحرق النور عينيه ، كما لو انه برق ابيض . وادار ميخائيل راسه ، فخيل اليه انه ثقيل مغفل ، واذ ذاك راى وجه الدكتور تازا منحنيا فوق السرير .

قال الطبيب بهدوء : ـ سأفحصك دقيقة ثم اطفىء النور .

ووجه الى عيني ميخائيل نور مصباح كهربائي صغير دقيق كأنه القلم ، وقال :

ـ ستشفى تماما . (والتفت الى شخص آخر في الغرفة) تستطيع ان تتحدث اليه .

كان دون تومازينو جالسا قرب السرير ، وقد بدا ميخائيل يتميزه بوضوح :
— ميخائيل ، هل استطيع ان احدثك ، ام تفضل ان ترتاح ؟
وبدلا من ان يجيب ، اومأ ميخائيل بيده ، مما بدا له اسهل . فسأله تومازينو:
— هل فبريزيو هو الذي اخرج السيارة من المراب ؟
ابتسم ميخائيل من غير ان يحس . كانت بسمة موافقة غريبة ، ولكنها بسمة باردة .

وقال الدون : — لقد اختفى فبريزيو . اصغ الي يا ميخائيل : لقد ظللت في الاغماء طوال اسبوع تقريبا . هل تفهمني ؟ ان الجميع يظنونك ميتا . ولهذا كف اعداؤك عن مطاردتك . فليس لك بعد ما تخشاه . وقد ابلغت اباك الذي ارسل لنا تعليماته . ستعود الى اميركا عما قليل . وبانتظار ذلك ، استرح هنا بهدوء . انك بمنجى من كل شيء ، في مزرعة جبلية صغيرة من مزارعي . ان اغرار باليرمو قد عقدوا الصلح معي ، الآن وقد ظنوك ميتا ، لانهم في الحقيقة انما كانوا ينوون قتلك انت ، فيما يجعلون الآخرين يعتقدون انهم كانوا يسعون الى التخلص مني . يجب ان تعرف ذلك . وبصدد كل ما بقي ، فوّض امرك الي . الزم الهدوء واستعد قواك .

وتذكر ميخائيل كل شيء . وسرعان ما حدس بأن زوجته قد ماتت ، وكذلك كالو . وفكر بالطباخة العجوز ولم يذكر اذا كانت قد خرجت معه . وتمتم : « فيلومينا ؟ » . فأجاب الدون على مهل : « لم تجرح . الانفجار جعل انفها ينزف فقط . لا تقلق عليها » .

واستطرد ميخائيل : — فبريزيو . اخبر رعاتك ان من يسلمني فبريزيو سيمتلك اخصب مراعي صقلية .

وبدا له ان الرجلين القريبين منه كانا يتنهدان بارتياح . وتناول دون تومازينو قدحا من على طاولة موضوعة قربه وشرب سائلا بلون العنبر جعله سريعا يقيم راسه. وجلس الدكتور تازا على حافة السرير وقال بما يشبه الشرود :
— انت تعرف انك ارمل . هذا نادر في صقلية .

وكان لا بد لهذا التفرد من ان ينشط المريض . وقد اومأ ميخائيل الى دون تومازينو ان يزداد انحناء عليه ، فأقبل الدون يجلس هو ايضا على طرف السرير ويحني راسه .

قال ميخائيل : — قل لابي ان يستدعيني اليه . قل لابي اني اريد ان اكون ابنه .

ولكن كان لا بد من انقضاء شهر آخر قبل ان يشفى ميخائيل من جروحه ، وشهرين آخرين ليجمع جميع الاوراق ويؤمن جواز سفره . وعند ذلك ، استقل طائرة باليرمو الى روما ، ثم من روما الى نيويورك . وفي هذه الفترة كلها ، لم يعثر لفبريزيو على اثر .

الكتاب السادس

- ٢٥ -

حين تركت كاي ادامس الجامعة مع شهادتها ، اقامت في مسقط راسها في « نيوهمبشاير » ، بصفة معلمة مدرسة . وطوال الاشهر العشرة الاولى التي تلت اختفاء ميخائيل ، ظلت تتلفن كل اسبوع الى امه تسألها عن اخباره . وكانت السيدة كورليون ، بلهجتها الودية ، تنهي المحادثة بالكلمات نفسها : « انت فتاة لطيفة جدا . يجب ان تنسي ميكي وتجدي زوجا لطيفا » . ولم تكن كاي تستاء منها . كانت تدرك ان الام تتكلم على هذا النحو محبة منها لفتاة تعيش في وضع مستحيل .

وفي نهاية الفصل الدراسي الاول ، قررت ان تذهب الى نيويورك لتشتري ملابس مناسبة وتجتمع الى بعض زميلات الجامعة القديمات . وكانت تنوي كذلك ان تبحث عن عمل لها اهم في نيويورك . فها قد انقضى عليها زهاء عامين وهي تعيش حياة عانس ، تقرأ وتدرس وتعلم وترفض الخروج ولا تقبل اي موعد لقاء . وكانت مع ذلك قد كفت عن مخابرة لونغ بيتش . كانت تعلم ان ذلك ما كان ممكنا ان يستمر ، لانها كانت تصبح شرسة نزقة . ولكنها كانت تظل تأمل ان يكتب لها ميخائيل او يرسل لها تبليغا ما . وقد اذلها واحزنها الا يفعل شيئا من ذلك ، لانها كانت ترى فيه علامة حذر تجاهها .

واستقلت القطار في ساعة مبكرة ، فوصلت الى فندقها في منتصف بعد الظهر . ولما كانت صديقاتها يعملن ، فانها لم ترد ان تزعجهن في النهار وقررت ان تتصل بهن مساء . ولم تكن لها رغبة ، بعد الرحلة التي اتعبتها ، ان تتسكع في المحلات . واذ وجدت نفسها وحيدة في غرفة الفندق ، تذكرت الزمان الذي كانت تلتقي فيه مع ميخائيل في غرف اخرى كهذه ليقوما بفعل الحب . واحست من ذلك شعور أسى . وكان هذا خاصة ما اوحى اليها بفكرة الاتصال بأم ميخائيل في لونغ بيتش .

وقد رد عليها اولا صوت رجولي ضخم . وقد احست كاي ان لهذا الصوت لكنة نيويوركية واضحة . فسألت عن السيدة كورليون ، وبعد دقائق عرفت لهجة ام ميخائيل . وشعرت كاي اول الامر بشيء من الارتباك ، وقالت :

ــ هنا كاي ادامس . هل تتذكرينني يا سيدة كورليون ؟

ــ طبعا ، طبعا ، اتذكرك . لماذا انقطعت عن الاتصال بنا ؟ هل تزوجت ؟

قالت كاي : ــ اوه ، لا ! كنت مشغولة جدا .

وادهشها ان تأخذ عليها الام الا تكون قد اتصلت بهم .

ــ الديك اخبار عن ميخائيل ؟ كيف حاله ؟

صمت على الطرف الآخر من الخط . ثم اجابت السيدة كورليون بصوت اكثر حزمـــا :
ــ ان ميكي في البيت . الا يتصل بك ؟ الا يراك ؟
وانتاب كاي الغثيان ، واخجلتها رغبة مفاجئة بالبكاء . وانكسر صوتها قليلا حين سألت :
ــ منذ متى عاد ؟
ــ منذ ستة اشهر .
قالت كاي : ــ آه ، فهمت .
والواقع انها كانت تفهم . وهزتها دفعة من الاضطراب والبلبلة لان ام ميخائيل كانت تخبرها بأنه كان على هذا النحو مستخفا بها الى ابعد حد . ثم جاء الغضب : غضب على ميخائيل ، وعلى الام ، وعلى جميع الاجانب وبخاصة الايطاليين الذيـن لبسوا مراعين بما فيه الكفاية للمحافظة على صداقة شريفة حتى بعد ان تنتهـــي المغامرة الغرامية . ان هذا الميخائيل لم يكن يعرف اذن انها ، حتى ولو لم يكن يريد بعد ان ينام معها ، كانت ما تزال تهتم به كصديق . واذا لم يكن يريـــد بعد ان يتزوجها ، اتراه كان يتصور انها ستنتحر كايطاليـــة ذات فكر محدود او انهـا ستحدث له مشكلة لانه كان يطردها بعد ان سلبها بكارتها ؟ ومع ذلك ، فقد كـانت تجهد لتتكلم بصوت هادىء ، فقالت :
ــ انني افهم . شكرا جزيلا . انني سعيدة ان اعرف ان ميخائيل قد عاد وانه بصحة جيدة . اما وقد عرفت ذلك الآن ، فلن اتصل بعد .
اجابت السيدة كورليون بنفاد صبر كما لو انها لم تكن تفهم ما قالت كاي :
ــ اذا كنت تريدين ان تري ميكي ، فتعالي على الفور . ستكون هذه مفاجـأة طيبة له . استقلي سيارة وقولي لرجل الحاجز ان يدفع اجرتها . قولي للسائق انه سيأخذ ضعف اجرة العداد ، والا فانه لن يأتي الى لونغ بيتش . ولكن لا تدفعـي انت . ان رجل الحاجز التابع لزوجي هو الذي يدفع اجرة السيارة .
قالت كاي ببرودة : ــ لا استطيع ان افعل مثل ذلك ، يا سيدتي . لو كـان ميخائيل يريد ان يراني لاتصل بي في منزلي . انه بلا شك لا يريـــد ان نستأنف علاقاتنــــا .
اجابت السيدة كورليون بجذل : ــ انت فتاة لطيفة جدا ، وتملكين ساقيـــن جميلتين ، ولكنك لا تملكين كثيرا من التفكير . انت قادمة لتريني انا ، وليس ميكي ، وانا اريد ان اتحدث اليك . تعالي على الفور . ولا تدفعي اجرة السيارة . انني انتظـــرك .
وسمعت كاي السيدة كورليون تغلق السماعة .
وكان بامكانها ان تخابر ثانية ، وان تقول انها لن تأتي . ولكنها كانت شديـدة الرغبة في رؤية ميخائيل والتحدث اليه ، حتى ولو لتبادل بعض عبارات المجاملة . وما دام قد عاد الى منزله ، فانه لم يكن بعد في خطر ، ويستطيع ان يعيش حيـاة طبيعية . وقفزت من السرير وتهيأت للذهاب الى لونغ بيتش . ارتدت ثيابهـــا

وتزينت بعناية ، وحين اصبحت مستعدة للخروج ، نظرت في المرآة . اكانت اكثر جاذبية مما كانت حين اختفى ميخائيل ؟ ام انه سيجدها وقد كبرت ، فهي ليست بعد على ذوقه ؟ كانت قامتها قامة امراة انضج : خصران اكثر امتلاء وصدر اكثر نضجا . ويقال ان الايطاليين يحبون ذلك ، بالرغم من ان ميخائيل كان يقول انه يحبها لانها كانترقيقة العود . والحق ان هذا لم يكن ذا اهمية . فهو بكل تأكيد لم يكن يريد بعد ان تكون له بها علاقة ، والا لتلفن لها بالتأكيد خلال الاشهر الستة التي قضاها في بيته .

نادت سيارة تاكسي ، فرفض السائق ان يقلها الى لونغ بيتش ، وبسمت له اجمل بسماتها واعدة اياه بدفع ضعف الاجرة المسجلة على العداد . عند ذلك ، قبل. واستفرقت الرحلة زهاء ساعة . كان الممر المشجر في لونغ بيتش قد تغير منذ ان راته كاي للمرة الاخيرة . فهو الآن محمي بحاجز حديدي ، وكانت بوابة كبيرة تسد مدخله . وقد فتح الباب حارس يلبس بنطالا من كتان ومعطفا رياضيا ابيض فوق قميص احمر ، فدس راسه في السيارة لينظر في العداد ، واعطى اوراقا مالية للسائق . وحين لاحظت كاي ان هذا الاخير لم يكن يحتج بل كان يبدو مسرورا مما دفع له ، ترجلت من السيارة واتجهت نحو البيت الرئيسي في الممر .

وفتحت السيدة كورليون شخصيا الباب وتلقت كاي بالعناق ، مما اثار دهشتها . ثم حدجت المراة الشابة وقالت بلا مقدمات :

ـ انت امراة جميلة . وابني شاب بليد .

وجذبت كاي الى الرواق ثم اقتادتها الى المطبخ حيث كانت صينية قد اعدت وركوة قهوة في زاوية الفرن . واستطردت الام :

ـ سياتي ميخائيل عما قليل . وسيفعل لك مفاجأة !

وجلسا معا ، فأجبرت السيدة المسنة كاي على ان تأكل فيما هي تطرح عليها الاسئلة بفضول كبير . ان تكون كاي معلمة ، وان تكون قد قدمت الى نيويورك لتزور بعض اصدقائها ، وان تكون في الرابعة والعشرين فقط ، كل ذلك كان يسحرها . وكانت تهز راسها بهيئة مسرورة ، كما لو ان كل تفصيل كان يعزز القرارات التي اتخذتها من قبل . وكانت كاي ثائرة الاعصاب بحيث انها كانت تكتفي بالاجابة على الاسئلة من غير ان تقول شيئا آخر .

وراته اولا وراء نافذة المطبخ . فقد توقفت سيارة امام البيت وهبط منها رجلان مع ميخائيل . واستقام ليحدث احد الرجلين . راته جانبيا ، من الجهة اليسرى التي بدت لها متورمة كراس دمية حطمتها قدم طفل . ومهما بدا ذلك غريبا ، فقد راته على جماله السابق ، ولكنها لم تكن اقل تأثرا واضطرابا حتىالدمع. وراته يحمل منديلا ناصع البياض الى وجهه ويتركه عليه لحظة فيما هو يستدير ليتجه الى البيت .

وسمعت الباب يفتح وخطى في الرواق تتجه الى المطبخ . ثم انتصب امامها. ورآها مع امه . ظل لحظة هادئا ثم ابتسم ، ولكن بسمة مقتضبة ، كما لو ان الكسر في حنكه كان يمنع شفتيه من الانفراج . وكانت لدى كاي رغبة لان تقول له مرحبا ،

كيف الحال ، بطريقة لا مبالية تماما ، ولكنهـــــا بدلا من ذلك ارتمت بين ذراعـي ميخائيل ودست وجهها في كتفه . وقبل وجنتيها الرطبتين وعانقها الى ان انتهت من البكاء . واذ ذاك قادها الى السيارة ، وصرف حارسه الخاص باشارة من يــده واقلع وكاي الى جانبه . وبدلا من ان تطري وجهها بالمسحوق مرة اخرى ، مسحت بمنديلها كل زينتها .

قالت : ــ لم اكن اريد ان افعل ذلك . ولكن لم يقل لي احد من قبل انك كنت مجروحا هذا الجرح الخطير .

انفجر ميخائيل ضاحكا وجس خده الجريح : ــ انت تتكلمين عن هذا ؟ ليس ذلك مهما ، سوى انه يحدث لي بعض الآلام في الجيب الانفي . والآن وقد عدت ، سأجري عملية رتق على الارجح . لم اكن استطيع ان اكتب لك ولا ان اتصل بك بأية وسيلة . يجب قبل كل شيء ان تفهمي هذا .

قالت : ــ حسنا .

ــ ان عندي استراحة في المدينة ، فهل تريدين الذهاب اليها ام تفضليـــن المطعم لنشرب قدحا ونتناول العشاء ؟

قالت كاي : ــ لا احس جوعا .

وانطلقت بهما السيارة نحو نيويورك ، من غير ان يتكلما .

ثم سألها ميخائيل : ــ هل حصلت على شهادتك ؟

اجابت : ــ نعم . انني ادرس في المدرسة الابتدائية بمسقط راسي . هــل عثر على قاتل الشرطي ؟ امن اجل هذا عدت ؟

ولم يجب ميخائيل الا بعد فترة : ــ نعم ، لقد عثروا عليه . وقد تحدثت عنــه جميع جرائد نيويورك ، فكيف حدث انك لم تطلعي على ذلك ؟

ضحكت كاي ضحكة ارتياح : لم يكن ميخائيل بالقاتل !

قالت : ــ اننا في البيت لا نتلقى الا النيويورك تايمس . لا بد ان خبرا كهــذا قد ظهر في الصفحة التاسعة والثمانين . ولو كنت قد قراته ، لاتصلت بأمك قبل هذا التاريخ .

واستطردت بعد لحظة صمت : ــ غريب كيف تحدثت امك عن ذلك . لقــد كدت اظن انك انت الذي قام بالعمل . وقبل ان تصل الساعـــة ، فيما كنا نشرب القهوة ، حدثتني عن مجنون قام بسرقة .

ــ ربما ظنتني امي مذنبا .

ــ امك بالذات ؟

قال ميخائيل وهو يضحك : ــ الامهات كالشرطة . انها تظن الاسوا .

وترك ميخائيل سيارته في مراب بـ « مالبوري ستريت » كان يبدو عـــــلى صاحبه انه يعرفــه . وصحب كاي فيما وراء المفترق حتى بيت من حجـر مُرحي خرب يرثى له كسائر بيوت الحي . وكان معه المفتاح . وما كادت كاي تدخل حتى تبين لها ان هذا المبنى الصغير كان مؤثثا بشكل باذخ مريح كأنه فندق خـــاص للميارديرين . ورافقها الى شقة الطابق الاول التي كان فيها صالون هائل ومطبخ كبير .

وكان ثمة باب يفضي الى غرفة نوم . وكان في زاويـــة الصالون مشرب . وصب ميخائيل الشراب . وجلسا جنبا الى جنب على صوفا . وقال لها بهدوء :
ـ سنكون مرتاحين كذلك في الغرفة .
وشربت جرعة كبيرة ثم بسمت له وقالت : « نعم » .
وكان الحب ، بالنسبة لكاي ، كالسابق تقريبا ، باستثناء ان ميخائيل قـــد اصبح اكثر عنقا ومباشرة واقل رقة ، كما لو انه كان ما يزال على حذره . ولكنهـــا لم تشتك من ذلك ، مؤملة ان تنتظم الامور . ووجدت مع المتع ان يظهر الرجال اكثر حساسية من النساء في وضع كهذا . وان تفعـــل الحب مع ميخائيل بعـــد عامين من الفراق ، فذلك قد بدا لها اكثر الامور طبيعية في الدنيـــا ، كما لو انهما لم يفترقـــا ابدا .
تمتمت وهي تتجمع ملتصقة به : ـ كان بامكانك رغم كل شيء ان تكتب لي . كان بامكانك ان تثق بي . كنت سأمارس قانون « الاوميرتا » . وانت تعرف ان الأميركيين لهم افواه مخيطة بما فيه الكفاية !
وضحك ميخائيل على مهل في الظـــلام وقال : ـ لم اكن اتصور قط انك ستنتظرينني . كنت اعتقد ، بعد ما حـدث ، انك ستتخلين عني .
وسرعان ما اجابت : ـ وانا لم اكن اصدق قط انك قتلت رجلين ، حتى ولو كان يبدو على امك انها تعتقد ذلك . ان قلبي لم يكن يصدقه . انني اعرفك اكثـر مما ينبغي .
وسمعت ميخائيل يتنهد قائلا : ـ فعلت ذلك ام لم افعله ، فليس لهذا مـــن اهمية . يجب ان تعرفي ذلك .
فأذهلت اللهجة الجافة كاي ، وسألته :
ـ اذن ، قل لي الحقيقة الآن : هل قتلتهما ام لا ؟
جلس ميخائيل في سريره واستند الى وسادته . وشع طرف سيكارته فـــي الظلام ، وقال :
ـ اذا طلبت منك ان تتزوجيني ، أعلي أن اجيب على هذا السؤال قبـل ان تجيبي على سؤالي ؟
ـ الامر عندي سواء . انني احبك . ولاني إحبك فالامر عندي سواء . ولكن اذا كنت انت تحبني ، فلن تخشى ان تقـول لي الحقيقـة . لـن تخـاف ان اذهب فاتحدث الى الشرطة . لان هذه هي الحقيقة ، اليس كذلك ؟ واذن ، فانت عضـو عصابة ، اليس ذلك صحيحا ؟ ولكن ذلك لا يهمني . ان ما يهمني هو انك لا تحبني . هذا لا شك فيه . انك لم تحاول حتى ان تتلفن لي منذ عدت الى منزلك .
سقط على ظهر كاي العاري نثار من التبغ المحترق ، فارسلت انة خفيفـــة وقالت مازحة :
ـ لا جدوى من تعذيبي ، فلن اتكلم .
لم يضحك ميخائيل ، بل قال بصوت رجل شارد : ـ اتعرفين اني حين وصلت الى البيت لم اكن سعيدا جدا برؤية عائلتي ، ابي وامي واختي كوني وتوم ؟ كـان

ذلك حسنا ، ولكني لم اكن في الحقيقة مكترثا . ثم هذا المساء ، دخلت فوجدتك في المطبخ . عند ذلك شعرت بالسعادة . اهذا ما تسمينه حبا ؟

قالت كاي : ــ هذا يشبهه شبها كافيا ، في نظري .

وفعلا الحب من جديد . وهذه المرة ، كان ميخائيل اكثر رقة . ثم نهض ليأتي بالشراب . ولدى عودته ، جلس في اريكة ، تجاه السرير . قال :

ــ لنتكلم بجد . ما تقولين في ان تتزوجيني ؟

ابتسمت له كاي : واومأت له ان يعود الى السرير ، فقال :

ــ كوني جادة . اني لا استطيع ان اقول لك شيئا مما حدث . انني بعد الآن اشتغل لابي . لقد اطلعوني على تجارة استيراد زيت الزيتون لآخذها بيدي . ولكنك تعرفين ان لعائلتي اعداء ، ان لابي اعداء. فمن الممكن انتصبحي ارملة شابة. هذا ممكن ، ولكنه غير مرجح . ولن اروي لك كل يوم ، ما يكون قد حدث في المكتب . ولن اطلعك على شيء من اعمالي . ستكونين زوجتي ، ولكن لا شريكتي في الحياة . هذه هي الصيغة الاميركية ، اليس كذلك ؟ لن تكوني شريكتي بحصص متساوية ، فهذا مستحيل .

جلست كاي في السرير . واشعلت مصباحا كبيرا موضوعا على طاولة الليل، ثم سيكارة . واستندت الى الوسائد ثم قالت بهدوء :

ــ انك تشرح لي الآن انك من رجال العصابات ، اليس كذلك ؟ تقول لي انك مسؤول عن عمليات قتل وعن جرائم اخرى مختلفة متصلة بالقتل ، وان عليّ الا اسألك ابدا عن هذا الجزء من حياتك ، حتى ولا ان افكر فيه . ان هذا اشبه بما في افلام الرعب التي يطلب فيها غول ما من فتاة ان يتزوجها .

ابتسم ميخائيل ، وفي تلك اللحظة كان خده المشوه ملتفتا اليها . وصاحت منسحقة القلب :

ــ اوه ، يا مايك . انني لم الاحظ ما في خدك . اقسم لك انني لم اعد الاحظه .

قال ميخائيل ضاحكا : ــ اعرف هذا . ولولا ان ذلك يضع النقرس في انفي ، لكان يروق لي .

ــ طلبت مني ان اكون جادة . فاذا تزوجنا ، فأي نوع من الحياة تنوي ان تجعلني اعيشه ؟ اتكون حياة امك ، حياة ربة بيت ايطالية تعنى باطفال البيت ؟ واذا حصلت لك مصيبة ؟ ان من الممكن ان تنتهي يوما الى السجن .

ــ لا ، هذا مستحيل . ان اقتل ، فهذا ممكن . اما ان اسجن ، فلا .

وكان من شأن ثقة ميخائيل بنفسه ان اضحك كاي ضحكة يختلط فيها التهكم بالفخر .

ــ كيف تستطيع ان تقول هذا حقا ؟

تنهد ميخائيل : ــ هذا امر من الامور التي لا استطيع ان احدثك عنها ، لا اريد ان احدثك عنها .

ولبثت كاي فترة طويلة لا تقول شيئا . ثم سألته :

ـ لماذا تريد ان تتزوجني بعد ان ظللت شهورا من غير ان تشعرني بانك على قيد الحياة ؟ الاني سأكون لذيذة في السرير الى هذا الحد ؟

قال ميخائيل وهو يهز راسه بجد : ـ بكل تأكيد . ولكن ما دمت استمتع بهذه اللذة بلا ثمن ، فليس هذا هو السبب الذي من اجله اريد ان اتزوجك . اسمعي : انني لا اطلب منك جوابا في هذه اللحظة بالذات . سوف نستمر في اللقاء . وسيكون امامك وقت لتحدثي في ذلك ذويك . وقد سمعت ان اباك رجل صلب . فاستمعي الى نصائحه .

ـ لم تجب على سؤالي .. لماذا تريد ان تتزوجني ؟

تناول ميخائيل منديلا ابيض من درج طاولة الليل ، فرفعه الى انفه وتمخط ثم مسح به .

ـ اسمعي ! هذا افضل سبب حتى لا تتزوجيني . انك لن تحتملي ان تعيشي مع شخص هو مضطر الى التمخط في كل لحظة !

قالت كاي نافدة الصبر : ـ كفى ، كن جديا . لقد طرحت عليك سؤالا .

شد ميخائيل المنديل في قبضته وقال : ـ سأجيبك . ولكن هذه المرة فحسب . انك الانسان الوحيد الذي يوحي لي بالمحبة . الوحيد الذي احرص عليه. انني لم اتلفن لك لانه لم يخطر لي على بال ان تكوني بعد مهتمة بي بعد كل ما حدث. كان بامكاني طبعا ان اطاردك ، ان اخدعك بالكلام المعسول ، بل ان اكذب عليك ، ولكني لم ارد ذلك . والآن ، اريد ان اسرّ لك بأمر ، ولكني لا اريد ان ترددیه ، حتى ولا لابيك . اذا سار كل شيء كما ينبغي ، فان عائلة كورليون ستصبح ، بعد خمسة اعوام او ما اليها ، عائلة مستقيمة كل الاستقامة . واذ ذاك تستطيعين ان تصبحي ارملة ثرية . والآن ، لماذا اريد ان اتزوجك ؟ حسنا ، لاني اريدك واريد عائلة . اريد اولادا . فلقد آن الاوان لذلك . لا اريد لهؤلاء الاطفال ان يتأثروا بي كما تأثرت بأبي . هذا لا يعني ان ابي قد اثر عليّ بارادته . انه لم يفعل ذلك قط . انه لم يكن يريد ان اشارك في شؤون العائلة . كان يريد ان اصبح استاذا او طبيبا او شيئا من هذا القبيل . ولكن الأحداث ساءت مسيرة ، فوجب عليّ ان اقاتل من اجل عائلتي . كان لا بد ان اقاتل لاني احب ابي واعجب به . وانا لم اعرف رجلا يستحق الاحترام مثله . كان دائما زوجا صالحا وصديقا صالحا لاولئك الذين لم يؤتوا حظا مثل حظه . وان شخصيته تكشف عن مظاهر اخرى لا اهمية لها عندي كابن . فمهما حدث ، فاني لا اريد ان يحدث لاولادي الشيء نفسه ، اريد ان يأخذوا تأثيرك انت ، وان يكبروا ليصبحوا اميركيين مئة بالمئة ، اميركيين حقيقيين، اللعبة الكبرى . لعلهم سيهتمون بالسياسة ، هم او اولادهم . (وابتسم ميخائيل) وربما اصبح احدهم رئيسا للولايات المتحدة . ولم لا ، بحق الشيطان ؟ لقد قمنا في جامعة دارتموت ، في درس التاريخ ، بابحاث عن اصول جميع « الرؤساء » . ان آباءهم او اجدادهم كانوا على حظ كبير الا ينتهوا الى المشنقة . اذا كان اولادي اطباء او موسيقيين او اساتذة ، فساكون مسرورا . لن يشاركوا ابدا بأعمال العائلة. وعلى اي حال ، فانهم حين يصبحون شبانا ، ساكون قد تقاعدت . وحينذاك ،

سنتردد الى نادي الناحية ، في ركن بعيد ما ، وسنعيش الحياة الطيبة البسيطه التي يعيشها جميع الاميركيين الميسورين . هذا هو عزمي . فما رايك فيه ؟

ــ رائع . ولكنك اسقطت افتراض الترمل .

ــ انه بعيد الاحتمال جدا . وانما اشرت اليه لاعطيك لوحة كاملة .

وربت على انفه بمنديله .

قالت كاي : لا استطيع ان اصدق ذلك . انني لا استطيع ان اتصور انتكون رجلا من هذا النوع . انت لست كذلك (كان في نظرتها بعض الذعر) انني لا افهم من الامر شيئا . فكيف يكون الوضع كذلك ؟

قال ميخائيل بهدوء : ــ لن اشرح لك اكثر مما شرحت . بل انك لستمحتاجة ان تفكري في هذه الامور كلها ، فهي في الواقع لا شأن لها بك ولا بالحياة التي سنعيشها اذا تزوجنا .

هزت كاي رأسها تقول : ــ كيف تستطيع الادعاء بانك تريد ان تتزوجني ؟ كيف توحي لي بأنك تحبني بينما لم تقل لي هذه الكلمة قط ؟ ومع ذلك ، فقد قلت اللحظة انك تحب اباك . انك ترتاب بي الى حد انك لا تريد ان تطلعني على اهم ما في حياتك ، وتريد ان تتزوجني ؟ كيف تستطيع ان تعيش مع زوجة لا تثق بها ؟ ان اباك يثق بامك ، على ما اعرف .

ــ بالتأكيد . ولكن هذا لا يعني انه يطلعها على كل شيء . ومع ذلك ، فان له اسبابا تبرر ثقته بها . لا لانهما متزوجان ولانها زوجته ، ولكن لانها انجبت له اربعة أولاد في فترات لم تكن الحياة فيها سهلة ، وخاصة لتربية الاولاد . لقد حرست ابي وعنيت به يوم كان اعداؤه يطلقون عليه النار . كانت تؤمن به . وكانت وفية له قبل كل شيء ، طوال اربعين عاما . وحين تكونين قد فعلت مثلما فعلت ، فربما اطلعك على بعض امور صغيرة لن تكون لك حقا رغبة في سماعها .

وسألت كاي : ــ هل ينبغي ان نعيش في الممر المشجر ؟

ــ نعم . ولكن سيكون لنا بيتنا الخاص ، ولن يكون مزعجا الى الحد الذي قد تتصورين . ان اهلي لن يزعجونا . سنعيش حياتنا الخاصة . ومع ذلك ، فما لم تنتظم اعمالنا ، فلا بد ان اعيش في الممر المشجر .

سألت كاي : ــ الان العيش في مكان آخر سيكون خطرا ؟

ولاول مرة منذ عرفته كاي راته غاضبا : غضبا مثلوجا لم يكن يتجلى في حركة او تغيير لهجة ، بل في برد كان ينبثق منه ، كبرد الموت . وفهمت آنذاك انها اذا قررت الا تتزوجه ، فسيكون ذلك بسبب هذا البرد .

قال ميخائيل : ــ المصيبة انما هي كل حماقات السينما والصحف . ان لك افكارا مغلوطة عن ابي وعن عائلة كورليون . وسأقدم لك شرحا اخيرا ، ولكنه سيكون الاخير حقا . ان ابي هو رجل اعمال يتفنن في تلبية حـاجات زوجته واولاده واصدقائه الذين قد يحتاج اليهم يوما ، في حال المصائب . انه لا ينطوي لقواعد المجتمع الذي نعيش فيه لان هذه القواعد ستحكم عليه بحياة لا تليق برجل موهوب بقوة وطبع عظيمين كقوته وطبعه . يجب ان تفهمي انه يعتبر نفسه ندا لكبار

العظماء امثال الرؤساء ورؤساء الوزارة وقضاة المحكمة العليا وحكام الولايـــات . وهو لا يقر ان تسيطر ارادتهم على ارادته . انه يرفض اطاعة قواعد اقامها الآخرون من شأنها ان تفرض عليه حياة مغلوب مهزوم . ولكن غايته القصوى هي ان يدخـــل هذا المجتمع مزودا بسلطة ما ، لان المجتمع لا يحمي في الواقع افراده ان لم تكن لهم بذاتهم قوة كافية . وهو بانتظار ذلك يطيع اخـــــلاقية يعتبرها ارفع جدا من بنى المجتمع القانونية .

كانت كاي تصغي اليه وهي تحدجه بهيئة من لا يصدق . ونبرت قائلة :

ـ ولكن هذا مضحك ! ما عساه يحدث اذا كان جميع الناس يتصرفون مثله ؟ ان المجتمع لا يدور بعد ، وسيعود بنا هذا الى عصر الكهوف . انك يا مايك لا يمكـن ان تؤمن بما تقوله ؟

قال مايك موضحا : ـ اقول لك ما يؤمن به ابي . واريدك ان تفهمي أن هذا الرجل هو من هو . ولكنه ليس رجلا غير مسؤول ، على الاقل في المجتمع الذي خلقه . ليس فيه شيء من السوقي المتوحش المتزود برشيشة الذي قد تتصورنه. ان ابي هو رجل عاقل وواع على طريقته .

ـ وانت ، بم تؤمن ؟

قال وهو يهز كتفيه : ـ اؤمن بعائلتي . اؤمن بك وبالعائلـــــة التي يمكن ان نؤسسها معا . وانا لا اعول على المجتمع ليحمينا . ولست انوي ان اضع قـدري بين ايدي الرجال الذين سموا انفسهم للحكم لمجرد انهم ابتزوا من الشعب اصـوات الانتخابات . ولكن هذا يصلح للحظة الراهنة ، فان عهد ابي يشرف على نهايتـه . وليس بالامكان القيام بما قام به الا بمخاطر كبيرة . ان على عائلة كورليون ، شئنـا ذلك ام ابينا ، ان تندمج في المجتمع . وحين ندرك تلك اللحظة ، فاني اتمنى ان تفعل ذلك وهي تتمتع بقوة واسعة ، اقصد بالمال والاملاك المادية . واود ان اضمن سلامة اولادنا قبل ان يتبعوا قدر جميع الناس .

ـ ومع ذلك ، فقد تجندت للدفاع عن بلدك كمتطوع ، وانت بطـــل حرب . فما الذي غيرك هكذا ؟

ـ ان هذه المحادثة لـن تؤدي الى شيء . ربما لم اكن في الحقيقة الا واحدا من اولئك المحافظين ، على الطرز القديم ، الذين يربى امثالهم في مدينتك مسقط راسك : فرداني اناني يهتم هو نفسه باعماله الخاصة . ان الحكومات لا تهتم قط بما هو مشترك بين الاحياء ، وربما كان هذا هو اصل المسألة . ولكن القضية ليست هذه الى هذا الحد . وكل ما استطيع ان اقوله هو هذا : يجب ان اساند ابي ، يجب ان انحاز الى معسكره . وعليك انت ان تقرري اذا كنت تريدين ان تكوني الـــى جانبي (وبسم لها) وان اطلبك للزواج ، ربما لم يكن ذلك فكـــرة طيبة الـــى هـــذا الحد .

ربتت كاي على السرير وقالت : ـ بصدد الزواج ، لا ادري . ولكني استغنيت عن الرجل طوال عامين ، ولا اريد ان اتركك تمضي الآن بهذه السهولة . تعال هنا.

وحين اصبحا معا في السرير واطفىء النور ، تمتمت تقول :
ـ اتصدقني حين اقول لك اني لم اقم بعمل الحب منذ ان تركتني ؟
قال ميخائيل : ـ اصدقك .
وهمست بمزيد من الرقة : ـ وانت ؟
ـ انا ، بلى . (واحس بانها كانت تتشنج) ولكن لا ، منذ ستة اشهر .
وكان هذا صحيحا . فمنذ موت ابولونيا ، لم يفعل ميخائيل الحب مع ايـــة امرأة اخرى غير كاي .

- ٢٦ -

كانت نوافذ الشقة ، المؤثثة والمزينة ببذخ صاخب ، تطل على ديكور من قصص الجنيات خلف الفندق . كان قد زرع فيها نخيل تضيئه اكاليل مصابيح كهربائية برتقالية اللون . وكان ماء المسبحين الكبيرين الازرق يلتمع تحت نجوم الصحراء. وعلى الافق ، فيما وراء الرمال ، كانت تنتصب الجبال التي تحيط بلاس فيغاس القابعة في واديها النيوني . واسدل جوني فونتان الستائر الرمادية الثقيلة المطرزة تطريزا غنيا ، والتفت الى داخل الفرفة .

كان فريق خاص من اربعة اشخاص ــ مدير قمار وامين صندوق ومعاون وضيفة كوكتيل ترتدي ثوبا خفيفا كاثواب الفانيات ــ يستعدون لبدء العمل لخدمة زبون واحد . وكان نينو فالانتي متمددا على الصوفا ، في صالون الشقة . وكان ينظر ، وقدح ويسكي كبير في يده ، الى موظفي الفندق يعدون طاولة لعبة « الواحد والعشرين » الشبيهة بحدوة الحصان ، مع الكراسي الست التقليدية .

وقال بصوت دبق : ــ عظيم ! مرحى ! (ولكنه لم يكن ثملا تماما.) تعال يا جوني ، سنلعب ضد هؤلاء القذرين . ان الحظ يواتيني . سننتصر عليهم .

واجاب جوني ، وكان جالسا على وسادة تجاه الصوفا :

ــ انت تعرف اني لا العب ابدا . كيف حالك ، يا نينو ؟

اجاب فالانتي باسما : ــ رائع ! ستكون هناك امراة في منتصف الليل . سنتناول العشاء ثم نعود الى الواحد والعشرين . اتعرف انني ربحت زهاء خمسين الف دولار في المقمرة ، وان هذا المبلغ يذوب منذ اسبوع ؟

ــ نعم . ولمن عساك تترك كل هذا حين تعملها ؟

قلب نينو فوق فمه قدحه الفارغ وقال : ــ ومع ذلك ، فان لك يا جوني شهرة رجل يتسلى ، ولكنك كئيب . حتى سواح لاس فيغاس يتسلون خيرا منك .

ــ ربما . اتريد ان احملك الى طاولة الواحد والعشرين هذه ؟

نهض نينو بمشقة كبيرة ، ووضع قدميه باحكام على السجادة : « ما زلت اعرف ان امشي وحدي » . وترك قدحه يسقط ، ومشى خطوة واثقة الى الطاولة. وكان احد الخدم يستعد لتوزيع الاوراق . اما مدير القمار ، فكان يراقب حركات المعاون . وكان امين الصندوق جالسا على خطوتين من الآخرين . وكانت المضيفة قد جلست على كرسي ، في وضع يتيح لها ان تراقب ادنى حركات نينو فالانتي . وربت نينو بقبضته على الطاولة الخضراء قائلا : « لنرم » ، فأخرج مدير اللعبة من جيبه دفترا ذا ارومة ، فملأ استمارة ثم انتزعها من الدفتر ووضعها امام نينو مع

قلم حبر صفير :
– تفضل يا سيد فالانتي . خمسة آلاف للبداية ، كالعادة .

فخربش نينو توقيعه في اسفل الورقة ، واخذها المدير فدسها في جيبه ثم اوما براسه لامين الصندوق الذي مد اصابعه الرشيقة كأصابع مشعوذ ، فتناول قسائم من العلب المثبتة على الطاولة . وفي اقل من خمس ثوان ، كان امام نينو خمس تلال من عشر قسائم سوداء وذهبية تساوي كل منها مئة دولار . وكانت تبرز على الطاولة مستطيلات صفيرة بيضاء ، لا تكاد تزيد مساحة عن ورقة اللعب. وكانت ستة ، كل مستطيل امام كرسي كان المفروض ان يجلس عليه مقامر . ووضع نبنو مئة دولار على كل مستطيل : قسيمة على كل واحد . واذن ، فقد كان يحل محل ثلاثة مقامرين . ورفض ان يعطي كل يد من الايدي الثلاث ورقة زيادة ، لان الموزع كان يملك الرقم سعة ، ورقة خاسرة . وخسر الموزع . فجمع نينو القسائم ثم التفت نحو جوني يقول :

– بهذه الطريقة تبدا السهرة . اليس صحيحا ؟

ابتسم جوني . في العادة لا يوقع متحد للصندوق كنينو وصلا لكي يلعب . فكلمته تكفي . ولكن ربما كانوا يحاذرونه : فقد كان يدمن الشرب بحيث كان يمكنه ان ينسى في اليوم التالي ما فعله عشية الامس . وكان رجال الفندق يجهلون ان نينو كان يتذكر كل شيء .

وظل نينو يربح . وبعد التوزيعة الثالثة ، اوما باصبعه الى المضيفة التي اتجهت الى المشرب ، في اقصى الفرفة ، وحملت له شرابا مالوفا : ويسكي الشيلم في قدح كبير . واخذ نينو القدح بيده اليسرى ليمسك بالمضيفة من خصرها قائلا:
– اجلسي قربي ، يا حبيبتي . ستجلبين لي الحظ .

كانت فتاة جميلة جدا . وقد حدس جوني بأنها كذلك امراة باردة لا شخصية لها ، بالرغم من جميع جهودها لاظهار انها ذات شخصية . وكانت تمنح نينو بسمات مغرية ، ولكنها في الحقيقة كانت تنظر خلسة الى القسائم السوداء والذهبية . وتساءل جوني لماذا ، بحق الشيطان ، لا تكون لها مثلها ، هي ايضا . ولكنه اسف الا يكون لنينو ما هو افضل منها مقابل ماله .

ترك نينو المضيفة تلعب بعض الرميات ، ثم اعطاها قسيمة وضربة على مؤخرتها ليبعدها عن الطاولة . واوما لها جوني بيده ان تأتيه بالشراب ، فصبت له باحتفالية كبيرة ، كما لو انها كانت تمثل اروع مقطع في اعظم فيلم : كانت تستعمل كل مفاتنها على جوني فونتان العظيم . كانت تهب نفسها بعينيها الملتهبتين ومشيتها المثيرة ، وكان فمها المفتر يبدو مستعدا للعض . فلكأنها حيوان في النزو ، ولكن كان واضحا كذلك انها كانت تمثل . وفكر جوني : « يا الهي ! واحدة اخرى ! » . كان معظم النساء اللواتي يردن النوم معه يتصرفن بالطريقة نفسها . ولم يكن ذلك يجدي الا حين يكون ثملا جدا . والحال انه لم يكن كذلك هذا المساء . وكافا الفتاة باحدى بسماته الشهيرة : « شكرا يا عزيزتي » . وفرجت بسمة اوضح فم المضيفة،

واصبحت نظرتها غائمة ، وامتد صدرها فانحنى الى امام فوق ساقيها الطويلتين الممدودتين بجورب مشبك . كان يبدو ان نوترا كان يصعد فيها ، فبدا صدرها يربو نما لو انه على وشك ان ينفجر تحت قميصها الذي لا ياقة له ولا اكمام . وارتعش الجسد لله بطريقه موحيه جدا ، فلكان هذه المراة قد ادركت الانتعاظ لمجرد ان جوني فونتان قد ابتسم لها وهو يقول « شكرا يا عزيزتي » . اداء ناجح جدا ، لم يسبق لجوني ان راى مثله قط ، ولكنه كان يعرف كم كان ذلك زائفا . فاولئك اللواتي يقمن بهذه التمثيلية خير قيام كن عادة اقل النساء اثارة للاهتمام في السرير .

ونظر الى الفتاة تعود الى كرسيها وهو يدير قدحه بين يديه . لم تكن له اية رغبة في ان يراها تكرر اللعبة المسرحية نفسها . لم يكن مزاجه ميالا الى ذلك في تلك الليلة .

وقضى نينو ساعة وهو ينطفىء . انحنى اولا الى الامام ، ثم استقام نحو مسند اريكته ، ثم سقط اخيرا باتجاه الطاولة . وادرك مدير القمار والمساعد قبل ان يبلغ الارض ، بعد ان تنبها الى ترنحه الاول ، فأقاماه وحملاه الى ما وراء الستائر التي كانت تحجب قطاع غرف النوم في الشقة . وتبعه جوني والمضيفة وموزع الورق . وساعدت المضيفة الرجال في نزع ثياب نينو واضجاعه تحت الغطاء . ثم عد مدير القمار قسائم نينو : وسجل الرقم على دفتره ، ثم اخذ يراقب الآخرين اللذين كانا يصفان القسائم في العلب .

سال جوني : — منذ كم من الوقت ، يحدث هذا ؟

هز مدير القمار كتفيه : — لم يصمد طويلا هذا المساء . في المرة الاولى التي انهار هكذا ، استدعينا طبيبنا فعالج السيد فالانتي بدواء ثم وعظه . واذ ذاك قال لنا نينو ان علينا الا نستدعي الطبيب بعد حين يحدث له مثل ذلك ، فليس لنا الا ان نضعه في السرير ، وسينهض واقفا صباح اليوم التالي . وهذا ما نفعل . ان له حظا عجيبا . لقد ربح هذا المساء ايضا زهاء ثلاثة آلاف .

قال جوني : — استدعوا مع ذلك طبيب الحانة هذا المساء . اتفقنا ؟ اذا لزم الامر ، ابعثوا بمن يبحث عنه في المقامر .

وصل جول سيغال بعد ربع ساعة . ولاحظ جوني ، منزعجا ، ان هذا الرجل لم تكن له قط هيئة طبيب . فذلك المساء كان يرتدي قميصا رياضيا ازرق واسعا جدا ذا اكمام طويلة وعليه تطريزات بيضاء ، وبنطالا من كتان ، وحذاء من جلد الايل بلا جوربين . ومع حقيبة الطب السوداء التقليدية تحت ذراعه ، كان يبدو اضحوكة لا تصدق .

قال له جوني : — جد لك طريقة لوضع هذه الحقيبة في كيس للفولف ذي طرز مقتضب .

فأجاب جول باسما من غير ان يتنكد قط : — نعم ، انها مصيبة ، هذه الحقيبة التي نجرجرها منذ كلية الطب . انها ترعب الناس . يجب ان تصنع بلون آخر على الاقل .

واقترب من السرير الذي ينام فيه نينو ، وقال لجوني وهو يفتح حقيبته :

ـ شكرا للشك الذي بعثت به الي . كان ذلك اكثر مما ينبغي . ان استشارة بسيطة لا تساوي ذلك .

قال جوني : ـ اما انا ، فأجد ان ذلك يستحق اكثر من هذا . وبعد ، فلا تفكر بذلك . لقد انقضى وقت طويل على الامر . ونينو ، ماذا يشكو ؟

كان جول يقوم بسرعة بفحص المريض : القلب والنبض والضغط . واخرج حقنة من حقيبته ، وغرز الابرة بشبه شرود في ذراع نينو ثم ضغط على المكبس . وفقد وجه نينو الشمعي قتامته ، وعاد الخدان ورديين ، كما لو ان الدم اخذ يجري بشكل اسرع . وقال جول بما يشبه المرح :

ـ تشخيص سهل جدا . لقد اتيح لي ان افحصه على نحو مفصل وان اقوم ببعض الروائز في المرة الاولى التي اغمي عليه فيها هنا . وقد نقلته الى المستشفى قبل ان يستعيد وعيه . انه مصاب بالسكري . وتلك حالة مزمنة ، هينة بالنسبة لبالغ ولا تمثل مشكلات لمن يعنون بانفسهم ويتبعون الحمية . وهو لا يريد ان يهتم بذلك . بل هو مصمم على ان يقتل نفسه بالشراب . ان كبده قد بدات تتلف ونخاعه مصاب . وسرعان ما تجده في حالة اغماء سكري . ويجب في رايي الحجر عليه .

شعر جوني بالارتياح . لم يكن الامر خطرا الى هذا الحد اذن ، ما دام نينو يمكن ان ينجو اذا عالج نفسه . وسأل :

ـ هذا يعني انه يجب وضعه في مصحة يجففون فيها السكارى ؟

اتجه جول الى المشرب فصب لنفسه قدحا وقال : ـ لا ، لقد قلت : الحجر عليه . واوضح : في مستشفى للمجانين .

ـ لا تتخابث .

ـ انا لا امزح . لست مطلعا على آخر درجة في علم النفس التحليلي ، ولكني اعرف منه طرفا لان ذلك جزء من مهنتي . فاذا لم تكن كبده تالفة اكثر مما ينبغي ، فبالامكان اعادة صديقك نينو الى وضع جيد . ولكن مع هذه الكبد ، لا بد من تشريح التثبت . والراس هو المتردي . ان الموت لا يخيفه في الحقيقة ، فهو لا يبالي به . بل لعل له رغبة في الانتحار . هذا ما يجب معالجته . والا فهو هالك . من اجل هذا اقول لك بالحجر عليه ليكون ملزما بتلقي المعالجة النفسية الواجبة .

طرق الباب ، فذهب جوني يفتحه . كانت هي لوسي مانسيني . وارتمت بين ذراعي جوني وقبلته ، وهي تقول :

ـ كم أنا سعيدة برؤيتك .

اجاب بقوله : ـ منذ وقت طويل لم تتح لي هذه الفرصة السعيدة .

ولاحظ ان لوسي كانت تتغير . كانت ارق جسما وارشق ، وكانت تلبس لباسا اكثر اناقة وملاءمة لجسمها . وكانت قصة شعرها ، الرجالية بعض الشيء ، منسجمة مع وجهها . كانت تبدو اصغر سنا واطلق نفسا . وتساءل جوني اذا لم تكن صحبتها لذيذة في لاس فيغاس . ربما كان ما يحتاج اليه معاشرة امراة حقيقية . ولكنه لم يكن قد بدأ بعد يمارس جاذبيته حين تذكر انها كانت صديقة جول . اذن،

لا مجال بعد . وحوّل بسمته الى بسمة الصداقة وسألها :
ــ ولكن قولي يا لوسي ! ماذا اتيت تفعلين في شقة نينو ليلا ؟
فلكمته في كتفه : ــ لقد علمت ان نينو مريض ، وانهم استدعوا جول . فأتيت اقدم خدماتي . ارجو ان يكون قدشفي .
اجاب جوني : ــ بالتأكيد . ستتحسن حاله .
صرخ جول المتمدد على اريكة الصالون : ــ ماذا تقول ؟! لنبق هنا جميعا ولننتظر ان يستعيد وعيه . فربما امكننا اقناعه بانقاذ حياته . ان يكنّ لك المودة يا لوسي ، فبامكانك ان تؤثري عليه . وانت يا جوني ان كنت حقا صديقا ، فسوف تساعدنا . والا فان كبد صديقك القديم نينو ستوضع عما قليل بين اجمل قطع المختبر في كلية من كليات الطب .
كانت كلمات الطبيب الفروسية تغيظ جوني . من عساه يعتبر نفسه هذا الرجل ؟ وكان على وشك ان يسأله ذلك حين قال نينو من جوف السرير :
ــ ايه ايها الاصدقاء ، اليس هناك شراب ؟
وجلس نينو . ثم بسم للوسي ومد لها ذراعيه :
ــ تعالي يا غندورة . تعالي قبلي نينو العجوز !
وجلست بالقرب منه واعطته قبلة . ومهما بدا ذلك غريبا ، فان هيئة نينو لم تكن سيئة ، بل لعلها كانت طبيعية تقريبا . وطقطق اصابعه قائلا :
ــ هيا ، يا جوني ، اعطني ما اشربه . ان الليل ما يزال شابا . وطاولة الواحد والعشرين ، ما الذي آلت اليه ؟
شرب جوني جرعة كبيرة وقال لنينو : ــ لا تشرب . لقد منعك طبيبك من الشراب .
قال نينو : ــ ليذهب الطبيب فينبعص ! (ثم قطب حاجبيه وتظاهر بملاحظة حضور الطبيب فمثل دور الغم) : عجبا ، هذا انت يا جولو ؟ انت طبيبي ، اتفقنا . ولكني لم اكن اتكلم عنك ، يا صديقي القديم . اسمع يا جوني . اعطني شرابا ، والا نهضت لاخدم نفسي .
هز جوني كتفيه وتوجه نحو المشرب . وتدخل جول ، من غير ان يبدو انه يعلق على الامر كبير اهمية ، فقال :
ــ لقد قلت ان عليه الا يشرب .
وفهم جوني تلك اللحظة لماذا كان جول يغيظه : فان صوته كان يظل متساويا . لم يكن يلح قط على اية كلمة ، حتى اخطر الكلمات ، ويتكلم دائما بصوت منخفض ، واثق من نفسه . حين كان يصدر انذارا ، فان تحذيره لم يكن يعبر عن نفسه الا بالكلمات نفسها ، ولكن الصوت كان يظل محايدا كما لو انه لم يكن يهتم بما يقول . كان ذلك يكفي لاغاظة جوني الى حد انه حمل قدحا كبيرا من الويسكي الى نينو . ومع ذلك ، فقد سأل جول قبل ان يعطيه اياه :
ــ اعتقد أن هذا لن يقتله مع ذلك ؟
اجاب جول بالهدوء نفسه : ــ لا ، لن يقتله .

والقت عليه لوسي نظرة قلقة ، وكانت على وشك ان تتكلم ، ولكنها امسكت . وفي تلك الاثناء ، كان نينو يتناول القدح ويشرب . وابتسم جوني لنينو . لقد بعصه ، هذا الطبيب الحقير ! وفجأة ففر نينو فمه ، ولهث وازرق لونه . ولم يعد يستطيع ان يتنفس . كان يختنق . وانتصب صدره كسمكة تقفز في الهواء . وانتفخ وجهه محتقنا بالدم ، جاحظ العينين . وبرز جول في الجهة المقابلة من السرير ، تجاه جوني ولوسي . وامسك نينو من رقبته فجمده ، وغرز ابرة حقنته في كتفه ، عند منبت العنق . وماع نينو بين يديه ، وتطامنت انتفاضاته . وبعد لحظة سقط ثانية على الوسادة ، وانغلقت عيناه ونام .

استدار جوني ولوسي وجول الى الصالة وجلسوا حول طاولة صغيرة كثيفة. ورفعت لوسي تلفونا بلون زمرد ريحاني لتطلب قهوة وطعاما سريعا . واتجه جوني الى المشرب فصب لنفسه قدحا وسأل جول :

ـ هل توقعت رد فعل آلويسكي هذا ؟

ـ كنت متأكدا منه تقريبا .

ـ لماذا اذن لم تحذرني ؟

ـ بل لقد حذرتك .

صاح جوني غاضبا : ـ لم تحذرني جيدا . انك طبيب عجيب ! انك لا تكترث بشيء . وتطلب مني الحجر على نينو في مستشفى للمجانين . بل انت لا تكلف نفسك عناء استعمال كلمة لطيفة ، كالمصحة . ليست لديك حقا الا رغبة اذلال الناس .

كانت لوسي قد خفضت راسها وبدت وكانها تنظر الى ركبتيها . اما جول فكان يتأمل فونتان مبتسما ، ثم قال :

ـ ما كان شيء يمنعك من اعطاء هذا القدح لنينو . كان لا بد من ان تظهر استقلالك الفكري . لقد اردت ان تثبت انك لا تقبل تحذيراتي واوامري . تذكر انيوم الذي عرضت فيه عليّ ان تتخذني طبيبا خاصا بعد المتاعب التي احدثتها لك حنجرتك . وقد رفضت لاني كنت اعرف اننا لا نستطيع ان نتفاهم . ان الطبيب يرى فسه اشبه بآله . انه يعتبر نفسه على الاقل الكاهن الاكبر للمجتمع المعاصر . وتلك احدى مكافآته . ولكنك ما كنت لتعاملني كذلك . انني في نظرك لن اكون الا ربا صغيرا لا قيمة له ، كجميع اطباء هوليوود . من اين تعثر على هؤلاء الاشخاص ؟ ان ذلك امر لا يصدق . فهم لا يعرفون شيئا ويهزاون بالامر . انهم بالتأكيد يحدسون بما يحدث لنينو ، ولكنهم يكتفون بأن يصفوا له كل انواع المخدرات ليظل يعمل . انهم انيقو الثياب ، نعم . ملابس حريرية ، نعم . ومستعدون دائما للحس اقفيتكم لانكم سلطات قوية في عالم السينما ، وانتم تعتبرونهم اطباء كبارا . يجب ان يكونوا لطفاء رحماء ، اطباء المسارح والسينما . اليس هذا صحيحا ؟ ولكنها ليست رحمة ولطفا . انهم في الحقيقة لا مبالون . سيان عندهم من يعيش ومن يموت . اما انا ، فان لي هوسي الصغير ، الذي ربما كان لا يغتفر : اريد ان ابقي الناس احياء ! لقد تركتك تقدم لنينو الشراب عن قصد ، لاريك ما يمكن ان

يحـــدث له .
وفال جول نحو جوني ، وتابع بصوت لا يزال رتيبا ، عاريا من كل حماسة :
ــ ان صديقك في آخر مراحله . الحالة النهائية . هل تدرك ما يعني ذلك ؟ ليس له اي حظ في البقاء بلا عناية طبية دقيقة وخاصة معالجة نفسية . انالضغط والسكري وسوء الصحة يمكن ان تؤدي الى نزيف في الدماغ بين لحظة واخرى . ان دماغه سيغمره الدم ، وسيموت . وهذا واضح لك . وقد تقصدت ان اقــول « مستشفى للمجانين » لاني اريدك ان تفهم ما هو بحاجة اليه ، والا فلن تهتم به . انني اعرض لك الوضع بصراحة . فأحد امرين : انقذ حياة صديقك بالحجر عليه ، والا فقل له وداعا .
تمتمت لوسي : ــ حبيبي جول ، لا تكن على هذه القسوة ، ارجوك . قل ذلك بلهجة ألطف .
ونهض جول . فلاحظ جوني بسرور انه كان يفقد هدوءه ، وانتعش صوتـــه كـــذلك :
ــ اتظن انها المرة الاولى التي اتحدث فيها الى اشخاص في مثل هذا الوضع ؟ ان هذا يحدث لي كل يوم . ان لوسي تطلب مني ان اكون اقل قسوة ، ولكنهـــا تعرف القضية . وانت تعرف اني كنت اقول لزبائني في الســـابق : كلوا أقل والا متم ، دخنوا اقل والا متم ، اعملوا اقل والا متم ، اشربوا اقل والا متم . ولم يكن احد يهتم بذلك . اتعرف لماذا ؟ لاني لا اقول : ستموتون غدا . حسنا . هذه المرة، استطيع ان اقول لك ان من الممكن جدا ان يموت نينو غدا !
واتجه جول الى المشرب فصبب قدحا آخر :
ــ واذن ، يا جوني ! هل ستحجر على نينو ؟
ــ لا ادري .
وافرغ جول كأسه بسرعة ثم ملأه ثانية : ــ الا تجد من المستغرب ان يستطيع المرء ان يدخن حتى الموت ، وان يشرب حتى الموت ، وان يعمل حتى الموت ، بل ان يأكل حتى الموت ؟ ولكن هذا كله مقبول . الامر الوحيد الذي هو مستحيل ماديا ، هو ان يضاجع الانسان حتى الموت . ومع ذلك ، ففي هذا الميدان بالذات ، تقـام اكثر العقبات . (وتمهل حتى افرغ قدحه) والحق ان النساء انفسهـــن يمكن ان تكون لهن مصاعب بهذا الصدد . ان بعض زبوناتي كن يعرفن ان عليهن الا ينجبــن اطفالا بعد . وكنت اقول لهن : ان ذلك خطر ، وقد يؤدي بكن الى الموت . وفــي الشهر التالي ، كن يرجعن حاضرات ناضرات باسمات فيقلن : « اعتقد يا دكتـــور اني حامل » . وكنت ارد عليهن : « ولكن هذا خطر ! » . في ذلك الــوقت كـــان ما يزال في صوتي حماسة . بل لقد كان ثمة من يقلن لي باسمات : « زوجي وانـــا كاثوليكيان نمارس واجباتنا الدينية » . وهكذا !
طرق الباب ، ودفع احد الخدم في الصالة طاولة متنقلة ملأى بالمآكل ومعهـــا اواني قهوة فضية . وكان يرافقه رئيس للخدم ، وقد بسطا طاولة صغيرة قابـــلة للطي ووضعا صحونا ، ثم صرفهما جوني ، وجلسوا ثلاثتهم ليأكلوا الشطائر الحارة

والقهوة التي طلبتها لوسي . واسند جوني كتفيه الى مسند كرسيه ثم اشعل سيكارة :

— تقول ان لك هوسا بانقاذ حياة الناس . لماذا اذن قمت بالاجهاضات ؟

تدخلت لوسي للمرة الاولى قائلة : — كان يريد ان ينقذ الفتيات المسكينات الواقعات في الارتباك والحرج ، فتيات كان من الممكن ان ينتحرن او يتهالكن تعبا حين يحاولن التخلص من الاطفال .

ابتسم لها جول وتنهد قائلا : — ليس الامر هينا بهذه الصورة . لقد انتهيت الى التخصص في الجراحة . ان لي يدين بارعتين . ولكني كنت من الحذق والبراعة الى حد اني خشيت ان اصبح من ذلك ابله . لقد اتفق لي ان فتحت بطن اشخاص مساكين فيما كنت اعلم انهم سيموتون على اي حال . كنت اعرف ان السرطان او الورم الخبيث سيولدان من جديد ، وكنت مع ذلك اجري العمليات . ثم كنت ابعث بهم الى بيوتهم مع بسمة طيبة وركام من الهذر . واتتني فتاة مسكينة ، فقطعت لها ثديها . وعادت في العام التالي ، فقطعت الثدي الثاني . وبعد ذلك بعام، افرغتها من عضوها التناسلي كما تفرغ بطيخة صفراء من بذورها . وفي نهاية الامر، ماتت . ومنذ البدء ، كان زوجها يتلفن لي ليسالني : « الفحوص ، ما الذي أعطته من نتائج ؟ ماذا اعطت الفحوص ؟ » . وقد عينت سكرتيرة لتجيب على هذه الاسئلة، وامتنعت عن رؤية المريضة الا حين تكون مستعدة وعازمة كل العزم على اجراء الفحوص والعملية . لم اكن اخصص لها الا ادنى قدر من الوقت لانني ، بعد كل حساب ، كنت انسانا مجهدا . وكنت اخيرا امنح الزوج دقيقتين ، وكنت اقول له: « انها المرحلة النهائية » . ولم يكن يسمع قط الكلمة الاخيرة . وتساءلت اذا لم اكن امضغها بشفقة لاواعية . واذ ذاك اجتهدت في ان انطق بها واضحة تماما . ومع ذلك فلم يكونوا يسمعونها . وضجرت من هذا كله ، فلجأت الى الاجهاضات . انها سهلة وممتعة . الجميع فيها مسرورون . شأن من ينظف المغسلة بعد غسل الاواني . هنا كنت في ميدان شغلي . وكنت احب ذلك كثيرا . كانت لديّ موهبة مجهض . لا استطيع التوصل الى ان اصدق ان يكون جنين شهرين كائنا بشريا . وهكذا لم اكن احس بتبكيت الضمير . كنت اخلص فتيات ونساء متزوجات وقعن في المغطس . وكنت اكسب حياتي على سعة . كنت على خط النار . وحين قبضوا عليّ ، احسست بما يحس به هارب من الجندية قبض عليه بعد هربه . ولكني كنت محظوظا ، فقد انقذ صديق لي وضعي فخرجت سليما . على ان المستشفيات الكبرى لا تدع لي بعد ان اجري العمليات في قاعاتها . وهذا هو وضعي الآن . وقد عدت اعطي النصائح التي لا يبالي بها احد .

قال جوني فونتان : — سأبالي بها . وسأفكر في الامر .

وغيرت لوسي موضوع الحديث : — ماذا تفعل في لاس فيغاس ، يا جوني ؟ هل ترتاح من همومك كرئيس هوليوودي ام ان لديك شغلا ؟

— لا شيء من ذلك . ان مايك كورليون يريد ان يراني ويتحدث معي . وسيصل هذه الليلة بالطائرة مع توم هاجن . وهو يريد ان يراك انت ايضا يا لوسي ، على

ما قال لي توم . اتعرفين لماذا ؟ (فهزت لوسي راسها نفيا) . سنتناول العشاء معا مساء الغد . وسيكون فريدي بيننا . واعتقد ان الامر متعلق بموضوع الفندق الذي يتعثر العمل في قاعاته الخاصة بالقمار ، والتي تبدو خاسرة في هذه الفترة . وربما يكون الدون قد ارسل مايك للتفتيش .

قال جوني : ــ علمت ان مايك اجرى اخيرا عملية في فكه .

قالت لوسي ضاحكة : ــ لا شك في ان كاي هي التي دفعته الى ذلك. لم يكن، في فترة العرس ، يريد ان يجري العملية . واتساءل لماذا . كان ذلك فظيعا جدا ، وكان يسيل دائما انفه . لقد كان عليه ان يرضخ للامر قبل ذلك . (وصمتت لحظة) وقد استدعت العائلة جول كمستشار ومراقب للعملية .

قال جوني بجفاء : ــ اعرف ذلك . بل انا الذي اوصيت بهذا .

ــ آه ، حسنا . من جهة اخرى ، قال مايك انه يريد ان يفعل شيئا لجول . من اجل هذا يدعونا غدا للعشاء .

قال جول ، حالما : ــ انه لم يكن يثق باحد . لقد اراد ان اراقب كل حركة لدى الاطباء الذين يجرون العملية ، مع انها كانت عملية بسيطة جدا . وباستطاعة اي جراح ان يقوم بها بنجاح .

حدثت حركة وراء الستار جعلتهم يلتفتون نحو غرفة النوم . كان نينو قد استعاد وعيه ، فذهب جوني يجلس على حافة السرير ، وظل جول ولوسي واقفين عند راسه . وابتسم نينو بسمة متعبة ، وقال :

ــ حسنا . كفاني بطولة ! لقد فطست حقا . اتذكر يا جوني ما حدث حين كنا في « بالم سبرنغ » مع فارتين ، منذ عام ؟ اقسم لك انني لم اغر منك . كنت سعيدا . اتصدقني ياجوني ؟

قال جوني بصوت مقتنع ، لكي يطمئنه : ــ بكل تأكيد .

وتبادل لوسي وجول نظرة . كان يخيل اليهما ، بعد كل ما علماه وعرفاه من امر جوني فونتان ، ان من المستحيل ان يخطف عشيقة صديق حميم كنينو . ولكن اذا كان الامر كذلك ، فما حاجة نينو لان يقول بعد عام انه لم يكن غيران منه ؟ وفي لحظة واحدة ، خطرت لهما كليهما الفكرة نفسها : ان نينو كان ينتحر بفرط الشراب تحت تأثير يأس عاطفي لان فأرة تخلت عنه وآثرت جوني .

ومن جديد ، فحص جول نينو ، وقال : سأجعل ممرضة تسهر عليك هذه الليلة . يجب عليك ان تلازم السرير يومين او ثلاثة . انني لا امزح .

قال نينو باسما : ــ حسنا ، يا دكتور . شريطة الا تكون الممرضة جميلة اكثر مما ينبغي .

وتلفن جول لاستدعاء الممرضة ، ثم انصرف مع لوسي . وجلس جوني في اريكة قرب السرير ، منتظرا . وعاد نينو الى النوم . كان وجهه يعبر عن الارهاق . وتذكر جوني ما كان قد قاله بصدد الفتاتين في « بالم سبرنغ » ، منذ عام . انه لم يخطر له قط ان يكون بامكان نينو ان يغار .

لعام خلا ، كان جوني فونتان جالسا في المكتب الاداري الفخم لشركته

السينمائية فريسة اكبر هموم ساورته في حياته . وكان ذلك عجيبا ، نظرا لان الفيلم الاول الذي كان قد انتجه والذي مثل فيه دور البطولة مع نينو كبطل ثان ، كان يحقق دخلا هائلا . كان كل شيء قد سار على ما يرام ، وكان الجميع قد اصابوا منافعهم . ولم تكن التكاليف قد بلغت حدها الاقصى المتوقع . وكان الجميع سيصبحون اغنياء ، وسيفطس جاك وولتز من جراء ذلك قبل عشر سنوات ! وكان امام جوني فيلمان آخران في التصوير . كان هو يمثل في احدهما ونينو في الآخر . وكان نينو مدهشا على الشاشة ، في دور العاشق العذري الجذاب ، الساذج قليلا ، الذي كانت النساء شغوفات بضمه الى نهودهن : الفتى الصغير الضائع . وكان كل ما يلمسه يدر المال . وكانت الارباح تتدفق . وكان « العرّاب » يقبض نسبته المئوية بواسطة المصارف ، وكان جوني مبتهجا لذلك بصدق : كان مستحقا لثقة الدون . ولكنه كان ذلك المساء يعاني السوداء .

كان منتجا مستقلا لافلام ناجحة جدا ، وكان يتمتع بنفوذ ربما كان يفوق ما كان يتمتع به يوم كان يغني . وكانت الفتيات يتساقطن بين ذراعيه ، والاجمل منهن ! ولكن ربما كان ذلك لغاية اكثر انانية . وكانت له طائرته الخاصة ، وكان يعيش ببذخ اكبر ويفيد من الاعفاءات الضرائبية التي كانت مرفوضة على سواه من الفنانين . واذن ، فما الذي كان يقلقه ؟

كان يعرف ذلك جيدا . كان يعاني من صداع في الجبين ولهيب في المنخرين ، وتأكل في الحنجرة . ولكي يقضي على تلك التأكلات ، لم تكن امامه الا وسيلة واحدة : ان يغني . ولكنه لم يكن يجرؤ حتى على المحاولة . وكان قد سأل جول سيغال متى يستطيع ان يسمح لنفسه بالغناء ، فأجابه جول بألا يحرم نفسه ذلك ان كانت له رغبة . وهكذا قام ببعض المحاولات ، ولكن صوته كان اجش رديئا الى حد انه تخلى عن محاولاته . والاسوأ من ذلك ان حنجرته كانت في اليوم التالي تعذبه ، ولكن ليس على النحو الذي كانت تعذبه فيه حين استؤصلت نوابته . كان يحس الحرقة ، وكان ذلك اشد ايلاما . ولم يكن يجرؤ بعد على الغناء ، ويخشى ان يفقد نهائيا صوته .

فاذا لم يكن يستطيع بعد الغناء ، فما جدوى الباقي كله ؟ لم يكن ثمة شيء يهمه بعد . لم يكن يعرف ولا يحب الا الغناء . وربما لم يكن في العالم كله من يعرفه خيرا منه : فن الغناء حسب التقاليد الايطالية . من تلك الزاوية ، لم يكن ثمة من يبزّه ، وكان يدرك ذلك في تلك الفترة من السويداء . كانت السنوات قد جعلت منه محترفا حقيقيا . لم يكن ثمة من يستطيع ان يقول له ان كان ذلك جيدا او رديئا ، صحيحا او ناشزا . ولم تكن به حاجة الى استشارة احد . كان يعرف . اية ورطة ، اية ورطة تستحق الرثاء !

وكان اليوم يوم جمعة ، فقرر ان يقضي عطلة نهاية الاسبوع مع فرجينيا والبنتين . وتلفن لها ليبلغها مجيئه . وربما كان ذلك ليعطيها الفرصة ان تقول له لا . ولكنها لم تكن تفعل ذلك قط . لم يسبق لها ان فعلته مرة واحدة بالرغم من ان طلاقهما تم منذ بضع سنوات . فما كانت تسمح لنفسها ان تمنع جوني من

رؤية ابنتيه . وفكر : « تلك هي امراة ! » . كان ذا حظ مع فرجينيا . وكان يحبها اكثر من اي شخص في العالم ، ومع ذلك فقد كان يعرف انهما لا يستطيعان بعد اعادة علاقاتهما الجسدية . ربما حدث ذلك في الخامسة والخمسين ، حين ياخذ تقاعده وينسحب من كل شيء ، فسيكون معها لينهيا حياتهما معا .

ولكن الاحداث خيبت ظنه حين وصل الى بيت فرجينيا . لم تكن على مزاج طيب ، ولم تجن الفتاتان فرحا لان حضور الاب كان يحرمهما قضاء نهاية الاسبوع مع اصدقاء لهما في مزرعة لتربية الخيل ، حيث كانتا تنويان ركوب الحصان .

وقال لفرجينيا ان ترسل الفتاتين الى المزرعة ، وانصرف عنهما بمعانقتهما وهو يبتسم بمرح . كان يفهمهما جيدا . فاي صبي لا يؤثر ركوب حصان في مزرعة على التسكع مع اب متأفف يظهر فقط في الساعات التي تروق له ؟ ثم قال لفرجينيا : « ساشرب قدحا أو قدحين ، ثم انسحب انا ايضا » .

قالت : « اتفقنا » . كانت سيئة المزاج ، مما لم يكن يتفق لها غالبا ، ولكن هذا كان واضحا . ان الحياة التي تعيشها لم تكن سهلة الى ذلك الحد .

وراته يصب لنفسه الخمر بسخاء ، فسألته :

ـ ما حاجتك الى العزاء ؟ ان كل شيء على ما يرام بالنسبة اليك . لم يخطر لي على بال قط ان بامكانك ان تصبح رجل اعمال ناجحا الى هذا الحد .

قال باسما : ـ ولكن الامر ليس صعبا مع ذلك .

وفي اللحظة نفسها داخله شعور بانه كان يحدس بما لم يكن يجري كما ينبغي . كان يفهم النساء ، وخاصة فرجينيا : كانت حاقدة عليه لانه كان ناجحا اكثر مما ينبغي . ان النساء ، في اعماقهن ، لا يحببن ان ينجح ازواجهن . فذلك يغيظهن . ويخيل اليهن انهن يشددن بصلابة اقل رفيق حياتهن بأواصر المحبة والعادات الجسدية او الزواج بكل بساطة . ولكي يرد لها مزاجها الطيب ، اكثر من رغبته في التشكي ، قال لها :

ـ ما جدوى هذا كله ، اذا لم اكن استطيع الغناء ؟

قالت منزعجة : ـ لست بعد طفلا يا جوني . لقد تجاوزت الآن الخامسة والثلاثين . فلماذا تهتم بأن تغني ؟ ان هذا مضحك . ثم انك تربح مالا اكثر بصفتك منتجا .

وادهش هذا الهجوم جوني ، فقال : ـ ولكني مغن قبل كل شيء . انني اعبد الغناء . وليس للسن دخل في ذلك .

اجابت فرجينيا ، مغتاظة هذه المرة : ـ الحق اني لم احب قط ان تغني . والآن وانا اراك قادرا على انتاج الافلام ، فاني سعيدة بالا تستطيع الغناء بعد .

وعجب كلاهما بالمقدار نفسه حين صرخ جوني غاضبا : ـ هي ذي افكار شريرة قذرة !

ولم يصدق اذنيه . لماذا كانت فيرجينيا تحتقره الى هذا الحد ؟

وابتسمت فيرجينيا لانها كانت قد نكدته بما فيه الكفاية من القسوة لتفجر غضبه ، وقالت :

ـ الم تتساءل قط عما كنت اعانيه حين كانت اكوام من الفتيات تدور حولك ، لمجرد ان لك صوتا جميلا ؟ ما عساك كنت تفعل انت لو كنت انطنط في الشارع عارية الفخذين ليطاردني الرجال ؟ كان هذا ، هو غناؤك . وكنت اتمنى ان تفقد صوتك ، الا تستطيع ان تغني بعد ابدا ... ولكن هذا ، كان قبل طلاقنا .

وافرغ جوني قدحه وقال : ـ انت لا تفهمين شيئا من شيء .

وذهب الى المطبخ ، فخابر نينو . وببضع عبارات دبرا قضاء نهاية اسبوع قصيرة في « بالم سيرنغ » . واعطى نينو رقم تلفون حسناء شابة وناضرة كان يرغب في مضاجعتها منذ فترة ، قائلا له :

ـ لا بد أن عندها زميلة لك . ساكون عندك بعد ساعة .

وقالت له فيرجينيا « الى اللقاء » بلا حرارة . ولم يهتم بذلك لانه كان غاضبا منها كما كان يحدث بين الحين والحين ، ولكن لبضع دقائق فقط . الى الشيطان هذا كله ! انه سينطلق في نهاية الاسبوع ليتطهر من السموم التي كانت تحدث له الكآبة والسويداء .

وجرى كل شيء بصورة رائعة في « بالم سبرنغ » . كان جوني يملك بيتا كان دائما مفتوحا ومزودا بالخدم في ذلك الفصل من العام . وكانت الفتاتان صبيتين ضبى يعد بمتعة كبيرة ، ولم تكونا تتطلبان شراهة متطرفة في التماس اية حظوة . واتى اصدقاء يقضون معهم بعض الوقت في المسبح حتى ساعة العشاء . وقصد نينو الى غرفته مع صديقته ليرتدي ثيابه قبل الطعام وليعلوها بينما كان لا يزال يملك حرارة الشمس في دمه . ولم يكن جوني ذا مزاج مماثل ، فارسل صديقته ـ وهي شقراء صغيرة ممتلئة تدعى تينا ـ لتأخذ حمامها وحدها . كان بحاجة ، بعد خصام مع فرجينيا ، الى بعض الوقت ليستطيع الاهتمام بامراة اخرى .

وذهب الى سطح الدار المحاط بحاجز من الواجهات الزجاجية والذي كان يتخذ صالونا وضع فيه بيانو . حين كان يغني مع جوقة ، كان يتسلى بالتوقيع على ملامس بيانو ، وكان ينجح في عزف انغام على طريقة الاغاني التي تغنى في ضوء القمر . وجلس على الكرسي ودمدم بصوت خافت وهو يوقع على الملامس . ولم تلبث تينا طويلا حتى وافته ، فقدمت له شرابا وجلست الى جانبه ، ووقع بعض الاغاني ودمدمت هي معه . ثم تركها على البيانو وصعد يأخذ حمامه . وغنى ، وهو تحت الماء ، بضع جمل قصيرة من غير ان يلح على النغم ، كما لو كان يتكلم . ثم ارتدى ثيابه وهبط . وكانت تينا لا تزال وحدها ، ونينو يشتغل بفتاته بعمق او يسكر .

وتركت له تينا كرسي البيانو ثم خرجت تتنزه حول المسبح . واخذ جوني يغني اغانيه القديمة المفضلة . ولم تؤلمه حنجرته . كانت الكلمات تخرج مخنوقة بعض الشيء ولكنها مع ذلك حارة . والقى بنظرة الى الخارج ، فرأى تينا لا تزال قرب المسبح ، وكان الحاجز الزجاجي يفصلهما . انها لن تسمع . ولسبب لم يكن يفهمه جيدا ، لم يكن يريد ان تسمعه . واستعاد اغنيته المفضلة من بدئها وغناها

بملء صوته ، كما كان يفعل مع جمهوره السابق . وانطلق وهو يتوقع ان يحس حنجرته تحترق ، ولكن لم يحدث شيء من ذلك . واولى صوته مزيدا من التنبه . لم يكن هو صوته نفسه ، ولكنه راق له . كان صوتا اعرض ، وبدا له اكثر غماقة: صوت رجل ، وليس بعد صوت شاب . صوت غني ، داكن وغني . وانهى الاغنية بصوت اقل خفوتا ، وظل جالسا امام البيانو يتأمل .

ــ لا باس ، يا صديقي القديم ، لا باس على الاطلاق !

والتفت جوني ، فاذا به نينو وحيدا ، بدون صديقته ، على عتبة الباب . واحس جوني بشعور الارتياح . لم يكن يزعجه ان يسمعه نينو . وقال جوني :

ــ نعم . لنتخلص من هاتين الفأرتين . اصرفهما .

ــ اذا كان الامر كذلك ، فتكفل انت بهذا . انهما صبيتان طيبتان . لا اريد ان اشق عليهما . ثم انني ضربت ضربتين مع فتاتي ، فستكون سحنتي سخيفة اذا طردتها من غير ان ادعوها حتى الى تناول العشاء .

وفكر جوني : طز ! فلتسمعاني ، وان كان صوتا رديئا . وتلفن لرئيس جوقة كان يعرفه في « بالم سبرنغ » وطلب منه ان يرسل آلة ماندولين لنينو . فقال الآخر محتجا :

ــ انك تضل السبيل ، يا صديقي المسكين ، فليس ثمة من يعزف على الماندولين في كاليفورنيا .

هدر جوني يقول : ــ جد لي آلة ماندولين ، اقول لك !

ولم يكن ينقص في البيت شيء من اجهزة التسجيل . وقد شرح جوني للفتاتين تشغيل الآلات . وبعد العشاء ، انصرف للعمل . وصاحبه نينو على الماندولين فغنى اغاني مجموعته القديمة . غناها بملء صوته من غير ان يهتم بحنجرته التي لم تخنه ، وعاوده الشعور بانه سيتمكن بعد اليوم من الغناء حتى آخر ايامه . وكان قد اتفق له ان فكر ، خلال الاشهر الطويلة التي فقد فيها صوته ، بالطريقة التي سيغني بها بعض العبارات ، وكان يرى ان يغنيها فيما بعد بشكل مختلف عما كان في ايام شبابه . بل لقد غناها ذهنيا بتنويعات ادق وارهف. وها هو الآن يغنيها صحيحة . كان ذلك بين الفينة والفينة يبدو رديئا ، وكانت مقاطع من التي كانت تبدو له جيدة حين كان يسمعها فقط في راسه ، تصبح رديئة حين كان يغنيها بملء صوته . وفكر : بملء الصوت ! لم يكن يصغي الى نفسه قط ، وكان يركز ذهنه على الاداء . وتعثر بين حين وحين على الايقاع ، ولكنه لم يعلق عليه كبير اهمية . صحيح انه كان صدئا ، ولكن كان له في رأسه موقتة موسيقية لن تخونه ابدا . كان حسبه ان يستأنف التطبيق .

وكف اخيرا عن الغناء . واقبلت عليه تينا مشعة العينين ، فاعطته قبلة طويلة ، وقالت :

ــ الآن افهم لماذا لا تفوت امي اي فيلم من افلامك !

هذه الفكرة كانت تكون قاسية في اي وقت غير هذا . ولكن جوني ونينو انفجرا ضاحكين .

واستمعوا الى التسجيل ، واذ ذاك سمع جوني صوته . كان قد تغير اكثر جدا مما ظن ، ولكنه كان بلا ريب صوت جوني فونتان . وكما سبق له ان تبين قبل العشاء ، كان اغنى وارصن ، ولكنه اكتسب الآن طابعا اكثر رجولة . كان يعبر عن حماسة اكثر ، وعن طبع اشد بروزا . ومن الوجهة التقنية ، كان الاداء يفوق كل اداء سبق ان قام به حتى ذلك الحين ، كان شيئا رائعا ، وليس اقل ! ولئن كان يعبر عن نفسه بهذه الروعة ، رغم انه صدىء ، فما عساه يكون بعد قليل من التدريب . وسأل نينو باسما :

ــ ايكون جيدا الى الحد الذي اظن ؟

بدا نينو مندهشا ان يراه مشعا هذا الاشعاع . وقال :

ــ ممتاز . ولكن لنر كيف ستغني غدا .

وانزعج جوني لتشاؤم صديقه ، فقال :

ــ لن تبلغ هذا المبلغ ، يا ابن القذر ! ولا تقلق للغد . لقد انتهى الامر . وانا بأحسن حال .

ومع ذلك ، فلم يغنّ اكثر من ذلك هذا المساء . واصطحبا الفتاتين الى سهرة لدى اصدقاء . ثم قضت تينا الليل معه ، ولكنه في هذا الميدان لم يقم بالمعجزات. وخاب ظن الفتاة قليلا . وفكر : فليأخذها الشيطان ! لا يمكن للمرء ان ينجح في كل شيء في اليوم نفسه !

وحين استيقظ صباح اليوم التالي انتابه الخوف الغامض من ان لا تكون عودة صوته الا حلما . ثم حين تبين ان القضية كانت واقعا بالفعل ، خشي ان يعود فيفقد صوته . وقصد الى النافذة ، ودمدم قليلا ، وهبط الى الصالة بالمنامة . ووقع على الملامس طلبا للمصاحبة وغنى بصوت مرتفع ، من غير ان يحس بأي الم . بل ان حنجرته لم تكن حتى مهتاجة . واذ ذاك غنى غناء اقوى ، فكانت الحبال الصوتية تحافظ على كل غناها من غير ان يضطر الى بذل اي جهد . كان كل شيء يسيل بسهولة ، وبراحة تقريبا . وفهم جوني ان الايام السيئة قد انقضت ، وان كل شيء كان يعود اليه . وسيان عنده بعد الآن اذا حطم انفه بعملية الانتاج ، او افسد ليلته مع تينا او حقدت عليه فيرجينيا بان يعود الى الغناء . لم يتحسر ، لمدة لحظة ، الا على امر واحد : لماذا لم يكن قد عاد اليه صوته حين كان يحاول ان يغني لابنتيه ؟ لو حدث ذلك ، لكان شيئا بالغ الروعة ، بالغ السحر !

كانت ممرضة الفندق قد عادت الى الغرفة وهي تدفع عربة محملة بالقوارير وعلب الاقراص . ونهض جوني . وتأمل نينو الذي كان ينام ، او ربما يموت . لا . لم يكن نينو يحسده لانه كان قد استرد صوته . بل كان يأخذ عليه فقط ان يحس من ذلك بسعادة تتجاوز حدها . كان يأخذ عليه ، بعد كل حساب ، ان يحرص اكثر مما ينبغي على الغناء . وهذا هو ما بدا له بدهيا آنذاك : ان نينو فالانتي لم يكن يحرص على شيء في العالم ، الى حد انه لم يكن يجد مبررا لان يريد البقاء على قيد الحياة .

٢٧

وصل ميخائيل كورليون في ساعة متأخرة من المساء . لم يكن احد ينتظره في المطار ، بناء على اوامره . ولم يكن يرافقه الا توم هاجن وحارس خاص جديد يدعى البير نيري .

وكانت قد حجزت له ولحاشيته افخم شقة في الفندق . وكان الذين يفرض ان يجتمعوا به ينتظرونه .

وقد استقبل فريدي اخاه بعناق حار . كان الاخ الذي يكبره ، وهو يكتهل ، يزداد عرض كتفين ، وتصبح هيئته اكثر حفاوة بل فرحا . وكان اكثر اهتماما بمظهره الخارجي . وقد كان ذلك المساء يرتدي طقما من الحرير الرمادي مقصوصا بشكل رائع مع جميع التوابع المنسجمة . وكان شعره محلوقا بالموسى ومسرحا بمثل العناية التي يسرّح بها شعر ابطال السينما . وكان وجهه يلتمع بعد حلاقة كاملة ؛ كما انه كان قد قلّم اظافره وصبغها . انه لم يكن بالاجمال ذلك الذي ارسل من نيويورك لاربعة اعوام خلت .

تراجع فريدي بصدره الى الوراء ، وتأمل ميخائيل بحنان ، ثم قال له :

ــ ان لك هيئة افضل جدا منذ ان اجريت هذه العملية بوجهك . انها زوجتك من دفعك لاجرائها ، اليس كذلك ؟ كيف حالها ؟ متى تأتي لزيارتنا هنا ؟

ابتسم ميخائيل لاخيه : ــ وانت ايضا تبدو بصحة ممتازة . كان بامكان كاي ان ترافقني لو لم تكن تنتظر مولودا آخر . ويجب ان تعنى كذلك بالاول . ثم انني يا فريدي في رحلة عمل ، ويجب ان اعود غدا مساء او صباح بعد غد .

قال فريدي : ــ ستأكل اولا شيئا ما . ان عندنا في الفندق طباخا لا ينافسه منافس ، ولن تأكل الذ من طعامه هنا . اذهب فخذ لك حماما وغيّر ملابسك . وفي هذه الاثناء سأعدّ لك الطعام . وقد استدعيت جميع الذين تريد ان تقابلهم، وسيكونون تحت تصرفك بمجرد ان تكون مستعدا . يكفي ان نناديهم .

اجاب ميخائيل باسما : ليكن مو غرين آخرهم . اتفقنا ؟ اطلب من جوني فونتان ونينو ان يتناولا العشاء معنا ، وكذلك لوسي وصديقها الطبيب . سنثرثر ونحن نأكل . (والتفت الى هاجن) اتريد ان تضيف احدا الى هذه اللائحة ، يا توم ؟

فهز هاجن راسه نفيا . وكان فريدي قد استقبله بأقل ودا مما استقبل اخاه . وكان هاجن يعرف سبب ذلك . لقد كان فريدي مسجلا على لائحة ابيه السوداء ، فكان يأخذ على المستشار الا يتدبر الامر . وقد كان يود هاجن لو يفعل

ذلك ، ولكنه كان يجهل لماذا كان فريدي قد تعرض لانحسار الحظوة الابوية عنه. لم يكن الدون يصدر قط اي مأخذ واضح ، كان يكفيه ان يعبر عن استيائه .

وتجمعوا بعد منتصف الليل حول الطاولة التي اقيمت لهذه الغاية في شقة ميخائيل . وعانقته لوسي ولم تعلق على تحسن مظهره بعد العملية . ودرس جول بجراة فك ميخائيل المقوّم وقال له :

– عمل عظيم . انه مسدد جيدا . والجيب الانفي ؟

– لا بأس . شكرا على مساعدتك .

وتركز الانتباه على ميخائيل في اثناء العشاء . وقد لاحظ الجميع ان حركاته وكلماته كانت تشبه حركات الدون وكلماته . ولسبب غامض ، كان يوحي بالاحترام نفسه وحتى بشعور الخوف المعجب . على انه كان يتصرف بطريقة طبيعية جدا ، ويتفنن في ايحاء حس الارتياح للجميع . وكالعادة ، كان هاجن يجلس على مبعدة ، وبتحفظ . اما الجديد ، الذي لا يعرفه الآخرون ، البير نيري ، فقد كان يبدو ممحوا كذلك وغير مرئي تقريبا . كان جالسا على مقعد قريب من الباب ، يقرأ صحيفة .

بعد ان آفرغوا بعض الاقداح واكلوا ، صرف الخدم . وتوجه ميخائيل الى جوني فونتان :

– علمت انك استعدت صوتك وجميع امجادك السابقة . تهانينا !

قال جوني : « شكرا » . وكان يتساءل عن سبب حرص ميخائيل على رؤيته . اتراه سيطلب منه خدمة ؟ ثم توجه ميخائيل الى جميع من كانوا يحيطون به :

– ان عائلة كورليون تفكر في المجيء للاقامة هنا ، في لاس فيغاس ، بعد ان باعت اسهمها في تجارة زيت الزيتون . وقد ناقشنا الموضوع ، الدون وهاجن وانا ، ونعتقد ان مستقبل العائلة هو في الغرب . هذا لا يعني اننا سننتقل هذا العام او العام القادم . ربما كنا بحاجة الى سنتين او ثلاث او حتى اربع لننهي اعمالنا هناك . ولكن هذا هو مشروعنا الاجمالي . ان بعض اصدقائنا يملكون جزءا طيبا من راسمال هذا الفندق – الكازينو . وسيكون هذا اساس تجارتنا . وسيبيعنا مو غرين حصته لنصبح كليا اسيادا في دارنا .

بدا القلق على وجه فريدي القمري : – اانت واثق ان مو غرين سيبيع يا مايك ؟ انه لم يسبق له قط ان اشار اية اشارة الى شيء مماثل ، وهو يعبد عمله . انني لا اعتقد انه سيّبيع حصته .

اجاب ميخائيل بهدوء : – سأقدم له عرضا لن يستطيع رفضه .

نطق بهذه الكلمات بصوت طبيعي ، ولكن كان فيها مع ذلك ما يرعش ، ربما لانها كانت احدى عبارات الدون المألوفة . ووجه ميخائيل حديثه الى جوني فونتان :

– آن عرّابك يعتمد عليك لتساعدنا في الاقلاع . لقد شرحوا لنا ان العروض الفنية تسهم اسهاما طيبا في اجتذاب المقامرين . ونحن نأمل ان تلتزم بعقد ينص

على ان تغني خمس مرات في العام لمدة اسبوع او ما يقاربه . ونأمل كذلك ان يفعل اصدقاؤك في السينما مثل ذلك . لقد اديت لهم خدمات كثيرة ، وتستطيع الآن ان تستعين بهم .

اجاب جوني : ـ بالتأكيد . سأفعل كل شيء واي شيء من اجل عرّابي . انت تعرف ذلك يا مايك .

على ان صوته كان يشي بظل من شك . وابتسم ميخائيل قائلا :

ـ لـن تخسر شيئا في هذا ، ولا اصدقاؤك . ستكون لك حصتك من اسهم الفندق . واذا بدا لك احد ما مهما ، فسيكـــون له نصيبه ايضا . واذا كنت لا تصدقني ، فاعلم اني اردد كلام الدون .

اجاب جوني : ـ انني اصدقك ، يا مايك . ولكن العمل جار الآن في بنـاء عشرة فنادق ـ كازينوهات اخرى على « الستريب » . وحين تصل الى هنـا ، ربما تكون السوق مشبعة . ان المنافسة بدات تصبح ضارية جدا حتى ان الاوان يمكن ان يكون قد فات .

تدخل توم هاجن فقال : ـ ان اصدقاء لعائـــلة كورليون يمولون ثلاثة مـن هذه الفنادق .

وفهم جوني على الفور ما كانت تعنيه هذه العبارة : كانت العائلة تملك هذه الفنادق مع كازينوهاتها . واذن ، فستكون هناك اسهم كثيرة للتوزيع .

قال جوني : ـ سأهتم بالامر .

والتفت ميخائيل نحو لوسي وجول سيفال ، فقال لجول :

ـ ان لك دينا عندي . وقد سمعت انك تريد ان تعود الى تشريح امثالك ، وان المستشفيات ترفض اعارتك قاعات العمليات بسبب قصة اجهاضاتك القديمة. اريد ان اعرف ما الذي تتمناه .

ـ يا عزيزي مايك ، انت لا تعرف عالم الطب . فبرغم نفوذك كله ، ليست لك من سلطة على هؤلاء الاشخاص . انني اخشى الا تستطيـــع ان تعمل شيئـــا من اجـــلي .

هز ميخائيل راسه بهيئة شرود ، قائلا : ـ انت محق بالتأكيد ، ولكن اصدقاء اي ، وهم اشخاص معروفون بما فيه الكفاية ، سيبنـــون مستشفى كبيرا فـي لاس فيغاس . والمدينة بحاجة اليه ، نظرا الى السرعة التي بها تكبر وتتسع والى مشاريع الاستغلال . فلعل هؤلاء الاشخاص يمنحونك الحق باستعمال قاعـــات العمليات اذا شرحنا لهم حالتك شرحا صحيحا . فكر : كم عدد الجراحين مـن مرتبتك ، او حتى دونك كفاءة ، الذين يودون الاقامة في هذه الصحراء ؟ اننـــا بحق الشيطان نؤدي خدمة لهذا المستشفى . اذن ، لا تبتعد . وقد علمت انكمـا ستتزوجان ، لوسي وانت .

قال جول وهو يرفع كتفيه : ـ نعم ، ولكن حين اؤمن مستقبلي .

قالت لوسي بخبث : ـ اذا لم تبن هذا المستشفى ، يا مايك ، فسأمـــوت عانســـا .

انفجر الجميع ضاحكين ، ما عدا جول الذي قال لمايك :
ـ اذاً قبلت هذا العرض ، سيكون ذلك بلا شروط ؟

قال ميخائيل ببرودة : ـ ليس هناك اي شرط . اني مدين لك ، فانا ارد الدين ، لنصفي حسابنا .

قالت لوسي على مهل : ـ لا تغضب ، يا ميخائيل .

اجابها ميخائيل باسما : ـ لست غاضبا . (ثم التفت الى جول) لقد نطقت بحماقة . ان عائلة كورليون قد ارهقت نفسها من اجلك . ولكن لا يذهب بك الظن اني من البلادة بحيث اطلب منك القيام باعمال تستنكرها . ومع ذلك ، فاذا حدث لي هذا ... من تراه قد رفع اصبعه يوما لانقاذك حين كنت في المغطس ؟ حين علمت انك كنت تريد ان تستعيد نشاطك كجراح ، التمست طويلا وسيـــلة لمساعدتك . وما زلت اسعى الى ذلك . انني لا اطلب منك شيئا بالمقابل . ولكـن بوسعك على الاقل ان تضع علاقاتنا على صعيد الصداقة ، واعتقد انك سترد لي شخصيا الخدمات التي ستؤديها لاي صديق طيـب . هذا هو شرطي . على ان بامكانك ان ترفض .

خفض توم هاجن راسه وهو يبتسم : ان الدون نفسه ما كان له ان يعرّض الامور عرضا احذق .

كان جول قد احمر : ـ لا شك في اني ، يا مايك ، قد اسات التعبير . اني مدين لكما بالعرفان ، انت ووالدك . انس ما قلته .

قال ميخائيل : ـ حسنا . بانتظار ان يبنى المستشفى ويفتح ابوابه ، ستكون رئيس الدائرة الطبية في الفنادق الاربعة . عين موظفين . وستـــزداد عائداتك ايضا ، ولكنك ستناقش هذا مع توم فيما بعد . واما انت ، يا لوسي ، فاريد ان اكلفك بمهمات اهم . ربما كان بامكانك ان تنسقي الحوانيت التي ستفتتح تحت قناطر الفنادق . تنسيقا ماليا ، طبعا . وربما امكنك كذلك ان تعيني الفتيـــات اللواتي سنحتاج اليهن لتسيير الكازينوهات . وهكذا ، اذا لم يتزوجك جول ، ستكونين على الاقل عانسا غنية .

كان فريدي يسحب بعصبية دخان سيكاره . واستقام ميخائيل فقـال له بهـــدوء :

ـ لست الا مبعوث الدون . ما يريد ان يصنعه بك سيقوله لك بنفسه طبعا. ولكني واثق من انه سيكون شيئا هاما بما يكفي لاسعادك . ان الجميع يؤكدون انك اصبت نجاحا كبيرا في عملك هنا .

ساله فريدي بلهجة شاكية : ـ لماذا اذن هو عاتب عليّ ؟ الان الكازينو يخسر مالا ؟ انه ليس من اختصاصي ، بل هو من اختصاص مو غرين . ما الذي يطلبـه منه ، الشيخ ؟

ـ لا تقلق لهذا (ثم التفت ميخائيل من جديد الى جوني فونتان) اين نينو ؟ كنت آمل ان اراه ثانية .

قال جوني وهو يهز كتفيه : ـ ان نينو مريض جدا . وهناك ممرضة تسهر

عليه في غرفته . وصديقنا الطبيب يدعي ان من الواجب الحجر عليه لانه ينتحر . نينـــو !

عجب ميخائيل ثم قال متفكرا : ــ لقد كان نينو دائما رجلا لطيفا . انـه ، على ما اعرف ، لم يرتكب اي عمل رديء ، ولا ما يؤذي اي انسان . ولكنه لم يهتمْ قط بأي شيء ، الا بالشراب .

قال جوني : ــ نعم . في هذه الفترة ، يتدفق علينا المال كالموج . وبوسعه ان يربح كل ما يريد بالغناء او بالعمل السينمائي . ان كل فيلم يعود عليه الآن بخمسين الف دولار ، وهو يصرفها بطرفة عين . انه يستخف استخفافا مطلقا بالشهرة . نحن صديقان منذ اعوام ، وانا لم اتهمه قط بفعل اي شيء سيىء . ومع ذلك فان ابن القذر هذا يشرب حتى يفطس .

كان جول يهم بأن يتكلم حين طرق باب الشقة . وادهشه ان يـــلاحظ ان الحارس الخاص الجالس في مقعد قرب الباب ظل يقرا صحيفته . وفتح توم هاجن الباب ، وكاد مو غرين يدفعه دفعا وهو يدخل القاعة مع رجلين قويين .

كان مو غرين رجلا جميلا ، وكان قد بدأ حياته لصا شريرا في جمـــاعة « موردر انكوبوريتد » ببروكلين . وآنذاك اكتسب شهرته . وبعدها انطلق فـــي استغلال القمار وذهب الى الغرب سعيا وراء الثروة . ولم يسبقه احد الـــى اكتشاف امكانيات لاس فيغاس ، وكان قد بنى اول فندق ــ كازينو عـــلى « ستريب » . وكان ما يزال يتفق له ان يصاب بنوبات غضب قاتل ، وكـــان الجميع يخافونه في الفندق ، بمن فيهم فريدي ولوسي وجول سيفال الذين كانوا يتجنبون الالتقاء به ، ما وسعهم ذلك .

كان وجهه البشوش في العادة يبدو عبوسا : ــ انوي ان احدثك يا مايك . وقد انتظرت . ولما كان عندي عمل كثير غدا ، فقد رايت ان من الافضل ان القاك هذه الليلة . ما رايك في ذلك ؟

كان ميخائيل كورليون يتأمله بنوع من الدهشة الودية ، فقال :

ــ احسنت صنعا . (ثم اشار الى هاجن) قدم شرابا السيد غرين .

لاحظ جول ان المدعو البير تيري كان يراقب بتنبه مو غرين من غير ان يهتم بالحارسين الخاصين المستندين الى الباب . ولكنــــه كان يعرف انه ليس في لاس فيغاس اي عنف يخشى منه . كان ذلك محظورا حظرا باتا لان اية جريمـــة ستهدم مشاريع من كانوا ينوون ان يجعلوا من هذه المدينة الملجأ الشرعي للمقامرين الاميركيين .

قال مو غرين لحارسيه القردين : ــ وزعا قسائم على جميع هؤلاء الاشخاص ليستطيعوا ان يقامروا على حساب المؤسسة .

وكان يشير طبعا الى جول ولوسي وجـــوني فونتان والبير نيري . وهز ميخائيل كورليون راسه علامة الموافقة قائلا : « فكرة موفقة » .

عند ذلك فقط ، نهض نيري ليذهب مع الآخرين . وبعد واجبات التوديع ، لم يبق في الشقة الا فريدي وتوم هاجن ومو غرين وميخائيل كورليون .

وضع غرين قدحه على الطاولة وقال وهو لا يكاد يتحكم في غضبه :
ــ ماذا يروون لي ؟ يبدو ان عائلة كورليون تريد ان تحولني من هنا بــان تعوض عليّ . انا الذي سأعوض عليكم ، لا انتم .

وحاول ميخائيل ان يقنعه : ــ ان كازينوك يخسر مالا ، وهذا غير معقول . فلا بد ان ادارتك سيئة . فربما كان بامكاننا ان نحسن الوضع .

انفجر غرين بضحكة ضارية : ــ يا للقذارات الايطالية ! لقد اديت لكم خدمة بأن اخذت فريدي حين كنتم في البؤس ، وها انتم الآن تريدون طردي . هــذا ما تاملونه . ولكني انا لا أدفع . ان لي اصدقاء يساندونني .

لبث ميخائيل هادئا ومتعقــلا ، ثم قال : ــ لقد اخذت فريدي لان عــائلة كورليون اعطتك ما انت بحاجة اليه لتنجز تاثيث فندقك وادارة كازينوك برأسمال جار . ثم ان عائلة موليناري ، المقيمة على الشاطىء ، قد ضمنت سلامته وقدمت لك كذلك بعض الخدمات . وهكذا تكون عائلة كورليون متعادلة معك الآن . فــلا افهم ما يغيظك . سنشتري حصتك بالثمن الذي تطلبه شرط ان يكــون معقــولا . فليس هناك مجال للقول بعد . لا يستطيع المرء ان يكون اكثر من ذلك استقامة . وبالنظر الى ان كازينوك يخسر ، فاننا نقدم لك خدمة غير منتظرة .

هز غرين رأسه نفيا فقال : ــ لم تبق لعائلة كورليون القوة السابقة . فالعراب مريض ، والعائلات الاخرى تطردكم الآن من نيويورك . وتتصورون انكم ستجــدون هنا مالا اكثر تجمعونه . فنصيحة اليك يا مايك : لا تحتك بالامور هنا .

سأله ميخائيل على مهل : ــ أمــن اجــل هــذا سمحت لنفسك بصفــع فريدي علنا ؟

انتفض توم هاجن ووجه انتباهه الى فريدي الذي كان محمرا والذي قال :
ــ ليس في الامر ما يستحق المأساة ، يا مايك . لم يكن مو يملك رأســه . انه يسترسل مع غضبه بين الحين والحين ، ولكننا صديقان ، اليس كذلك ، يا مو؟

قال غرين بحذر : ــ طبعا ، بكل تأكيــد . انني مضطر الى توزيــع بعض الركلات في المؤخرات بين الحين والحين لادارة الحانوت . لقــد اغضبني فريــدي لانه من فرط مضاجعته لجميع الخادمــات جعلهن غيــر محتملات . وقد تخاصمنا، فألزمته حده .

سأل ميخائيل اخاه ، وهو ما يزال محتفظا بهدوئه :
ــ واذن ، فأنت الآن ملتزم حدّك ، يا فريدي ؟

نظر فريدي الى اخيه الصغير نظرة تستدعي الرثاء ولم يجب . فتدخــل غرين ضاحكا :

ــ كان القذر الصغير يأخذهن اثنتين اثنتين : فهو يكدن مهرتين معا . ويجب ان اعترف ، يا فريدي ، انك تحسن تدبير هذه الامور . فبعد ان يمررن بين يديك، لا يعود احد يكفيهن .

لاحظ هاجن ان هذا الخبر يفاجىء ميخائيل . وتبادلا نظرة تفاهم . لعــل

الدون انما كان يكره فريدي من اجل ذلك . والواقع ان الصقليين القدامى ، في هذا الميدان ، كانوا شديدي المحافظه . فتاتان في وقت واحد ! كان يعتبر مثل هذه التصرفات علامة انحلال . وبالاضافة الى ذلك ، فان فريدي كان قد أضرّ بنفوذ عائلة كورليون اذ تسامح بأن يصفعه مو غرين . كان هذان الامران كافيين لجعله ماثلا على لائحة الاب السوداء .

نهض ميخائيل قائلا بلهجة حاسمة : ــ عليّ ان اعود الى نيويورك غدا . ففكر بالثمن الذي تطلبه .

اجاب غرين غاضبا : ــ انك تامل ان تتخلص مني بمثل هذه السهولة ، يا ابن الفحبة ! لقد ارتكبت من حوادث القتل اكثر مما ارتكبت انت قبل ان اشتهر. وسأستقل الطائرة الى نيويورك لاتحدث الى الدون شخصيا . وله هو سأقدم عرضي .

قال فريدي لهاجن ثائر الاعصاب : ــ توم ، ما دمت المستشار ، فتحدث الى الدون ، وانصحه .

آنذاك فقط عبر ميخائيل عما كان في شخصيته الجديدة من طبع مثلج :

ــ ان الدون هو في التقاعد تقريبا ، وانا الذي يدير اعمال العائلة بعد الآن. وقد سحبت من توم وظيفته كمستشار . وسيكون مستشاري القضائي في لاس فيغاس . وبعد شهر او شهرين سيقيم هنا مع اسرته ليشرف على كل الشؤون القانونية . فاذا كان لديك ، يا مو ، شيء تقوله ، فقله لي اذن .

لم يجب احد . واضاف ميخائيل بلهجة احتفالية : ــ انت يا فريدي اخي الاكبر ، وانا احترمك . ولكن لا تنحز بعد الآن الى احد ضد عضو من اعضاء العائلة . لن احدث حتى ابي في ذلك . والآن ، لا تشتم ، يا مو ، الذين يجهدون لكي يفيدوك . والافضل ان تستعمل طاقتك في البحث عن سبب خسارةالكازينو. ان عائلة كورليون قد وظفت مبالغ ضخمة في هذه العملية وهي لا تسترد منها الارباح التي تستحقها . ومع ذلك ، فانني لم آت الى هنا لشتمك . انني اقدم لك يدا منجدة . فاذا راق لك ان تبصق في هذه اليد ، فأنت حر . ولن اقول في ذلك اكثر مما قلت .

لم يكن قد رفع صوته لحظة واحدة ، ولكن كلماته تركت تأثيرا مهدئا على غرين وفريدي . وقد نظر اليهما كليهما وهو يبتعد عن الطاولة ليوحي اليهما بالانصراف . وذهب هاجن يفتح الباب ، فخرج فريدي وغرين من غير ان يقولا مساء الخير .

صباح اليوم التالي ، تلقى ميخائيل رسالة شفوية من غرين : انه لن يبيع حصته في الفندق ــ الكازينو بأي ثمن . وفريدي هو الذي نقل هذا الجواب. وهز ميخائيل كتفيه وقال لاخيه :

ــ اريد ان ارى نينو قبل ان اسافر .

ووجد جوني فونتان يتناول الفطور ، وهو جالس على طرف الاريكة في صالون نينو . وكان جول يفحص المريض خلف ستائر الفرفة . وبعد لحظة ،

انحسرت الستائر .

وذهل ميخائيل لمظهر نينو . كان المسكين ينهدم بصورة واضحة : عينان زجاجيتان وفم فاغر ، وجميع عضلات الوجه مسترخية . وجلس ميخائيل على طرف السرير وقال له :

ــ انني سعيد بأن القاك ثانية يا عزيزي نينو . ان الدون يسأل دائما عن انبائك .

واستعاد نينو بسمته الساحرة السابقة : ــ قل له انني اموت . قل له ان عالم المسرح والسينما اخطر جدا من تجارة زيت الزيتون .

ــ سوف تسترد صحتك . وأذا كانت لك مشاكل ، فقلها لي . ان العائلة تستطيع ان تساعدك .

قال نينو وهو يهز راسه نفيا : ــ لا . ليست لي مشاكل . ليس لي شيء على الاطلاق .

وثرثر ميخائيل فترة قصيرة ثم مضى . ورافقه فريدي الى المطار ، ولكنه لم ينتظر قيام الطائرة لان ميخائيل صرفه على الفور . وحين صعد مع توم هاجن ونيري سأل مايك هذا الاخير :

ــ هل صوّرته ؟

اجاب نيري وهو يربت جبينه بطرف سبابته :

ــ انه مسجل هنا ، مع رقمه .

٢٨

حاول ميخائيل كورليون ، في طائرة العودة ، ان يسترخي لينام ، ولكـــن عبثا . كانت اخطر مرحلة في حياته تقترب ، ومن الممكن ان تكون حاسمة . لم تكن القضية بعد الآن قضية وقت : فكل شيء كان جاهزا . كان بحاجة الى عاميـــــن ليتخذ احتياطاته . فان يتأخر اكثر من ذلك ، كان هذا مستحيلا . كان الـــدون في الاسبوع الماضي قد اعلن صراحة لرؤساء الفرق وسائر اعضـــاء العائلـــة عـــن تقاعده وانسحابه .

وكان ميخائيل قد ادرك ان اباه كان يقصد بذلك الى : ان الساعة قد دقت . ها قد انقضت ثلاثة اعوام منذ عودته الى المنزل ، وعامان على زواجه بكـــاي . وكـــان قد كرس هذا الوقت لتعلم قضايا العائلة خلال ساعات طويلة قضاها مع توم هاجن والدون . وكان غنى آل كورليون ونفوذهم قد اذهلاه . كانوا يملكون املاكا عقارية ذات قيمة هائلة في قلب نيويورك ، بما فيها مبان تجارية . وكانت العائلة ، بواسطة بعض الرجال المسخرين ، تضع يدها على وكالتين لسماسرة الاوراق الماليـــة لوول ستريت ومصارف لونغ ايسلند . وكانت شريكة لمتاجر للالبسة الجاهزة . وكـــان يضاف الى ذلك عائدات نشاطاتها اللامشروعة في ميدان القمار والنقابات .

وهمّه خاصة ان يعرف ان العائلة كانت قد حمت ، لقـــاء مبالغ من المال ، عصابة من مز وري الاسطوانات . كـــان هؤلاء الاشخاص يطبعـــون بكميـــات كبيرة اسطوانات اشهر الفنانين .وكانت الطوابع والقمصان مقلدة تقليدا متقنا لـــم يكن احد يستطيع معه ان يكتشف التزوير . وبالطبع ، لم يكن المغنون ولا الجوقات التي كانت قد سجلت الاسطوانة الاصلية يقبضون درهما واحدا من عمليات التزويـــــر هذه . ولاحظ ميخائيل في ملفات العائلة ان جوني فونتان كان قد خسر من ذلك مبالغ طائلة ، لان اسطواناته في تلك الفترة ، قبيل فقدانه صوته ، كانت أروج الاسطوانات في البلاد .

وسأل توم هاجن عن هذا الموضوع . لماذا سمح البادرينو ، بحـــق الشيطان ، لهؤلاء المزورين ان ينهبوا ابنه بالمعمودية ؟

وهز توم كتفيه : الاشغال هي الاشغال . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كـــانت حظوة جوني عند الدون غائبة تلك الفترة . كان قد طلق زوجته الاولى ــ وهـــي علاقة حب منذ الطفولة ــ ليتزوج مارغو اشتون ، وكان الدون قد استاء جـــدا مـــن ذلك .

سأل ميخائيل : ــ وكيف حدث ان اوقف هؤلاء الاشخاص نشاطهم ؟ هـــل

قبض عليهم ؟

ـ على الاطلاق . فبعد زواج كوني مباشرة ، كف الدون عن حمايتهم .

وعثر ميخائيل على امور مماثلة في تاريخ العائلة . كان الدون غالبا ما ينقذ اشخاصا سبق له ان وضعهم في المفطس . وربما لم يكن ذلك بارادته ، واقل من هذا بمكره ، وانما لانه كانت له مصالح عديدة ومتنوعة ، وبسبب خاصية نجدها في كل مكان في طبيعة الكون كله : تداخل الشر والخير تداخلا غير قابل للحل .

وكان ميخائيل قد تزوج كاي في نوفيل انكلترا ، خلال حفلة متكتمة لم يحضرها الا عائلة العروس وبعض اصدقائها القليلين . ثم اقاما منزلهما في احد بيوت الممر المشجر بلونغ بيتش . وادهش ميخائيل ان يلاحظ كم كانت كاي متفاهمة مع ذويه وسائر سكان الممر . وكانت قد وجدت نفسها حاملا على الفور تقريبا ، كما يجدر بزوجة طيبة من اسرة ايطالية ، وكان هذا يسهم في اكسابها احترام العائلة . وكان مولود آخر على الطريق ، منذ العام الثاني ، مما كان يزيد قشدة على قالب الحلوى .

كان المفروض ان تنتظر كاي ميخائيل على المطار . لم تكن تفوّت قط استقباله على المطار ، وكانت سعيدة لكل عودة من عوداته . وكان هو كذلك سعيدا ، باستثناء هذه المرة ، لان هذه الرحلة الاخيرة كانت تعني انه سينطلق في النشاط الذي كانوا قد رصدوه واعدّوه له طوال ثلاثة اعوام . وكان الدون ينتظره ايضا ، مع رؤساء الفرق . وسيتخذ ميخائيل مع ابيه القرارات ويصدر الاوامر التي سيتوقف عليها مصير العائلة .

كل صباح ، حين كانت كاي تنهض لتعطي الطفل مصاصته الاولى ، كانت تشاهد الماما كورليون تغادر الممر المشجر في سيارة يقودها احد الحراس وتعود بعد ساعة . ولم تلبث كاي ان علمت ان حماتها كانت تقصد الكنيسة كل صباح بلا انقطاع . وكانت زوجة الدون غالبا ما تتوقف لتشرب قهوة الصباح مع كاي وترى حفيدها الاخير .

وكانت الماما كورليون تبدأ الحديث دائما بسؤال كاي لماذا لم تكن تقرر اعتناق الكاثوليكية . وكانت تجهل ان ابن كاي كان قد تلقى العماد البروتستانتي . ووجدت كاي من المستحسن ان تسأل حماتها لماذا كانت تذهب كل صباح الى الكنيسة ، وهل كان ذلك فرضا على الكاثوليك .

وقد اجابت السيدة العجوز ، مفترضة ان تلك السخرة هي التي كانت تمنع كاي من تغيير مذهبها :

ـ اوه ! لا ، لا . ان بعض الكاثوليك لا يذهبون الى الكنيسة الا في الفصح او في الميلاد ، فتستطيعين ان تذهبي اليها متى شئت .

قالت كاي وهي تضحك : ـ فلماذا اذن تقصدينها كل صباح ؟

واجابت السيدة كورليون بلهجة طبيعية : ـ اقصدها من اجل زوجي . (وصوبت اصبعها الى الارض) حتى يذهب الى هناك . ثم صوبت الاصبع

نفسه الى السماء) اصلي كل يوم حتى تصعد روحه الى هناك .
وبسمت بسمة صغيرة لطيفه ، لا لانها كانت تمثل على الرب السيد ، ولكن كما لو انها كانت تعصي زوجها او لانها كانت تعتقد اللعبة خاسرة . كانت تقول ذلك،وهي تمزح تقريبا ، على طريقة عجوز ايطالية من الريف ، وتظهر ظلا من الاستقلال تجاه الدون العجوز ، كما هو الشأن دائما حين لا يكون حاضرا .
وسالتها كاي ذات يوم : ــ كيف حال زوجك ؟
تنهدت السيدة كورليون بخضوع وقالت : ــ لم يعد هو الرجل نفسه منذ ان اطلقوا عليه النار . انه يترك كل العمل لميخائيل ويكتفي باللعب كالاطفال في حديقته مع فليفلاته وبندوراته . فلكانه فلاح بعد . ولكن الرجال جميعهم اطفال .
وفيما بعد ، في الضبيحة ، كانت كوني كورليون تعبر الممر المشجر مع ولديها لتأتي فتثرثر مع كاي التي كانت تحبها لحيويتها وحنانها الجلي نحو ميخائيل . وكانت كوني تعلم كاي طبخ المآكل على الطريقة الايطالية . وكانت تجلب ايضا ، بين الحين والحين ، بعض الطعام المعد بشكل ماهر ليأكل منه ميخائيل .
وفي ذلك الصباح ، سألت كوني كاي ، كما يتفق لها غالبا ان تفعل ، ما رأيها في زوجها . أكان ميخائيل يحب حقا كارلو كما كان يبدو ؟ لقد واجه كارلو دائما بعض المصاعب مع « العائلة » ، ولكنه منذ عام كان قد سلك سلوكا آخر . كان يتدبر امره جيدا في الاشغال النقابية التي كان موكلا بها ، ولكنه كان عملا قاسيا جدا يستغرق كثيرا من وقته . وكانت كوني تردد بلا انقطاع ان كارلو كان يحب ميخائيل كثيرا ، ولكن الجميع كانوا طبعا يحبون ميخائيل ، كما كان الجميع يحبون الدون . وكان ميخائيل يتماثل اكثر فاكثر مع الدون العجوز ، وكانت كوني ترى من الخير ان يتولى ميخائيل شؤون زيت الزيتون .
وكانت كاي قد لاحظت على كوني انها حين تتكلم عن علاقات زوجها « بالعائلة » كانت دائما ثائرة الاعصاب ، وانها كانت تتمنى ان تسمع كلمة ثناء على كارلو . وقد كانت كاي تكون بليدة اذا لم تلاحظ الذعر الذي كانت عواطف ميخائيل نحو كارلو توحيه الى كوني . وقد حدثت في ذلك ميخائيل ، ذات ليلة ، وادهشها ان لم يكن ثمة احد بعد يشير الى سوني كورليون . لم يكن ثمة احد يقول كلمة في حضورها عن الابن الاكبر . ومرة واحدة ، عبرت كاي عن تعازيها للدون وللماما . وقد اصغيا اليها بصمت ، وامتنعا عن اي جواب ، بشكل يكاد يكون فظا . وكانت قد حاولت ايضا ان تحمل كوني على التحدث عن اخيها الاكبر ، ولكنها لم تصب في ذلك نجاحا اكثر .
اما ساندرا ، ارملة سوني ، فكانت قد ذهبت تقيم مع اولادها في فلوريدا حيث كان يعيش ذووها . وكانت « العائلة » قد اتخذت تدابير مالية لكي تعيش هناك عيشة مريحة ، بالرغم من ان سوني لم يكن قد خلف اية ثروة شخصية .
وشرح ميخائيل لكاي ، على مضض ، ما كان قد حدث ليلة اغتيل سوني . فان كوني التي كانت تعيش انذاك في نيويورك ، كانت قد تلفنت الى الممر المشجر ، بعد ان اوسعها كارلو ضربا . وكان سوني هو من اخذ المخابرة فأسرع كالعاصفة ،

فريسة غضب اعمى . وطبعا اخذ كارلو وكوني ، منذ ذلك الحين ، يتساءلان بقلق اذا لم تكن العائلة تأخذ عليهما انهما بصورة غير مباشرة قد سببا موت سوني . واكد ميخائيل ان شيئا من ذلك لم يكن . وكان دليله في هذا انهم قدموا لكوني وكارلو بيتا في الممر المشجر ، وان كوني قد عهد اليه في مهمة هامة في النقابات. كان كارلو قد غير سلوكه ، فكف عن الشراب ، وانقطع عن مطاردة المومسات ، ولم يعد يجتذب اليه الانظار . وكانت « العائلة » منذ عامين مسرورة من عمله ومسلكه، ولم يكن ثمة احد يؤاخذه عما حدث .

قالت كاي : — لماذا اذن لا تدعوه ذات مساء ، لا لشيء الا لتطمين اختك ؟ ان المسكينة قلقة جدا لرايك في زوجها . قله لها ، وقل لها ان تنسى هذا الوسواس .

اجاب ميخائيل : — لا استطيع ان افعل ذلك . اننا لا نتكلم عن هذه الامور في « العائلة » .

— اتريد ان اردد لها ما قلته لي ؟

وعجبت ان ترى ميخائيل يفكر طويلا قبل ان يرد على سؤال كان يبدو لها على غاية البساطة .

قال لها اخيرا : — احسب ان من الافضل ان تمتنعي عن ذلك . ان هذا في رايي لن يفيد شيئا . انها ستظل قلقة على اي حال . وهذا امر ليس للانسان حيلة فيه .

هذا الجواب اذهل كاي . ولاحظت ان ميخائيل كان دائما ابرد مع كوني منه مع جميع الآخرين بالرغم من الحب الكبير الذي كانت اخته تظهره له . وسألته :

— انك بكل تأكيد لا تأخذ على كوني ما حدث لسوني ؟

اجاب متنهدا : — لا ، بكل تأكيد . انها اختي الصغيرة العزيزة . وانا متأسف لها . ان كارلو قد تحسن الآن سلوكا ، ولكنه في الحقيقة ليس الزوج الذي كانت تحتاجه . وهذه ايضا قضية لا حيلة لنا فيها . فلا تفكري فيها بعد .

لم تكن كاي مرهقة بأسئلتها ، فكفت . وكانت تعرف ايضا ان ميخائيل كان جديرا به ان يبدو مزعجا اذا بولغ باستنفاد صبره . وكانت تعرف كذلك انها وحدها في العالم كانت تستطيع احيانا ان تفرض عليه ارادتها ، ولكنها اذا اشتطت في استغلال هذه السلطة هدمتها . ومن جهة اخرى ، فقد كانت تزداد حبا له ، بعد عامين من الحياة المشتركة .

كانت تحبه لاستقامته . ومهما بدا ذلك غريبا ، فقد كان دائما على استقامة تامة مع محيطه . لم يكن يستسلم قط للعسف ، حتى في اتفه الامور . وكانت قد لاحظت ان زوجها اصبح رجلا قويا جدا . فكثير من الناس يأتون للتناقش معه في البيت : يطلبون منه خدمات ، ويظهرون له المراعاة والاحترام . وكان ثمة شيء على الاخص يجعله عزيزا عندها :

فمنذ ان عاد ميخائيل من صقلية مشوه الوجه ، نصحه جميع افرادالعائلة باجراء عملية جراحة تجميلية . وكانت الماما ، على الاخص ، ترهقه بهذا الصدد .

وذات مساء احد ، خلال عشاء كان يجمع افراد عائلة كورليون ، صاحت به :«انك شبيه برجل عصابات سينمائي . فبحق السماء وبحق زوجتك المسكينة تـدبر وجهك . ان انفك لن يسيل بعد كأنف ايرلندي سكير ! »

كان الدون متصدرا المائدة يسمع ويراقب كل شيء . وسأل كاي :

ــ هل يزعجك ذلك ؟

فهزت راسها نفيا . واذ ذاك توجه الدون الى زوجته :

ــ انه الآن متزوج ، فلست بعد مسؤولة ، وهذا لا يعنيك .

وصمتت المراة العجوز ، لا لانها كانت تخشى زوجها ، بل لان نزاعا امـــام اعضاء العائلة الآخرين كان يكون نقصا في الاحترام .

وفي تلك اللحظة ، خرجت كوني ، ابنة الدون الاثيرة ، من المطبخ حيثكانت تعد العشاء . وكان وجهها قد احمر امام الفرن ، فقالت :

ــ اما انا ،فاجد ان عليه ان يجري عملية . كان ميخائيل اجمل افرادالاسرة في الماضي . هيا يامايك ! قل انك ستجري العملية !

نظر اليها ميخائيل بهيئة شرود ، وكان يبدو وكأنه لم يسمع ولـــم يجب . وذهبت كوني الى ما وراء ابيها ، فقالت له : ــ اجبره على اجراء العملية ، يا بابا.

ووضعت كلتا يديها بشغف على كتفي الدون وداعبت رقبته . ولم يكن اي فرد في العائلة يسمح لنفسه بمثل رفع الكلفة هذه . كان شغفهـا بأبيها يتسم بشيء ما مؤثر ، لانها كانت في مثل وثوق فتاة صغيرة . وربت الدون على يدها قائلا :

ــ اننا نموت جوعا هنا . فقدمي السباغيتي اولا ، ثم يحين وقت الكلام .

واستدارت كوني الى زوجها :ــ كارلو ، قل لمايك ان يتدبر امر وجهه. فلعله يصغي اليك انت .

وكانت لهجتها توحي بالافتراض بأن يكون بين ميخائيل وكارلو ريزيصداقة تتجاوز العلاقات العائلية التي تشد الاخرين فيما بينهم . وقد شرب كارلو الاشقر ذو الوجه المسمر والشعر المسرح جرعة نبيذ من صنع البيت وقال :

ــ ليس هناك من يستطيع ان يقول لميخائيل ما ينبغي ان يفعل .

لم يكن كارلو ، منذ ان اقام في الممر المشجر ، الرجل نفسه بعد . كانيعرف مقامه في « العائلة » ويلتزمه .

وقدرت كاي ان في هذا المشهد شيئا ما غير قابل للفهم وانه كان يصدمها. وبصفتها امراة ، كانت ترى ان كوني كانت تبذل ما في وسعها لتسحر اباهـا . وكانت تتاتى الى ذلك جيدا . بل لقد كانت مخلصة ، وان لم تكن تلقائيـة .وكان يبدو على كارلو ، بجوابه ذلك ، انه يذكر نفسه بالتزام النظام . واما ميخائيـل، فلم يلق بالا لما كان يجري .

لم يكن يزعج كاي ان زوجهـا كان مشوه الوجه . ولكنهـا كانت قلقة على جيبه الانفي الذي كان مرتبطا بهذا التشوه . ان عملية الوجه ستشفـي الجيب ايضا . واذن ، فقد كانت تتمنى ان يقصد ميخائيل المستشفى ويجري العملية . ومعذلك، فقد كانت تحدس بانه كان يتمنى ، لاسباب غريبة ، ان يبقى على حالته ، وكـانت

مقتنعة بان الدون كان يدرك السبب .

بعد ان وضعت طفلها الاول ، ادهشها ان تسمع ميخائيل يسألها :

ـ اتريدين ان أصحح وجهي ؟

قالت :ـ بالتأكيد . انت تعرف الاطفال . سيأخذ ابنك انطباعا سيئا حين يكبر بما فيه الكفاية ليلاحظ ان ليس لك وجه طبيعي . فيما يخصني شخصيا ، احبك كما انت ، ولكني لا اريد ان يرى ابننا هذا .

قال باسما :ـ حسنا . سيتم ذلك .

وانتظر حتى تركت مستشفى الامومة ، ثم اتخذ التدابير الضرورية . ونجحت العملية . وزال تشوه الوجه تقريبا ، فابتهجت العائلة كلها ، وكوني اكثر من الجميع. كانت تقصد المستشفى كل يوم لرؤية ميخائيل وتسحب معها زوجها . وحين عاد اخوها الى الممر المشجر عانقته وقبلته وتأملته باعجاب وهي تقول :

ـ ها قد عدت الان اخي الرائع !

والدون وحده لم يتأثر بالامر . وقد رفع كتفيه قائلا ـ : اية اهمية ! واحست كاي بالعرفان لزوجها. كانت تعرف ان ميخائيل قد خضع على مضض ولانها فقط طلبت اليه ذلك . كانت وحدها اذن تستطيع ان تحمله على ان يتصرف خلافا لطبيعته .

بعد ظهر اليوم الذي عاد فيه ميخائيل من فيفاس ، اتى روكو لامبون بسيارة كبيرة يحمل كاي الى المطار.. ولم تكن تفوت قط فرصة الذهاب لاستقبال زوجها حين كان يعود من السفر ، لانها كانت تشعر بالوحدة بدونه وراء تحصينات الممر المشجر .

وقد راته يهبط من الطائرة مع توم هاجن وآخر مجندي العائلة : البير نيري. وهذا الاخير لم يكن يعجبها قط لانه كان يبدو في مثل ضراوة لوكا برازي . وقد رات ان نيري كان يترك ميخائيل يتقدمه خطوة ، ويبتعد قليلا من جانب وهو ينظر فيما حوله بعين نفاذة . بل ان نيري هو اول من راى كاي ، فلمس كتف ميخائيل وأدار له راسه في الوجهة الصحيحة . وارتمت كاي بين ذراعي زوجها الذي عانقها بسرعة ثم تركها . وصعد ميخائيل وتوم الى السيارة ، واختفى البير نيرى. ولم تلاحظ انه كان يستقل سيارة اخرى مع رجلين وانهم كانوا يتبعون سيارتهم حتى الممر .

ولم تسال كاي زوجها قط عن العمل الذي انجزه في فيفاس . فحتى سؤال مثل هذا ومطروح بأدب كان يكون ضربا من الخرق . لا شك في انه كان يجيبها بأدب مماثل ، ولكن هذا التبادل في الحديث كان سيذكرهما بان زواجهما كان يترك بينهما اراضي ممنوعة . ثم ان كاي لم تكن تهتم بذلك حقا . ومع ذلك ، فحين قال لها ميخائيل بانه سيقضي الامسية مع ابيه ليقدم له تقريرا على الرحلة الى فيفاس ، شعرت بالخيبة ولم تستطع الامتناع عن تقطيب حاجبيها .

قال :ـ انا آسف . ولكننا مساء الغد سنذهب لتناول العشاء في نيويورك ،

وسنقصد المسرح او السينما . اتفقنا ؟

وداعب بطنها : كانت حاملا في الشهر السابع :

ــ حين يولد هذا ، ستكونين من جديد شديدة الانهماك . يا للشيطان ! انت ايطالية اكثر منك اميركية ! ولدان في سنتين !

اجابته بحرارة ــ وانت ، انت اميركي اكثر منك ايطالي . فانك تقضي امسية عودتك في الاهتمام بالاعمال التجارية . (ولكنها استدركت واضافت مبتسمة) انك لن تعود في ساعة متأخرة اكثر مما ينبغي ؟

اجاب ميخائيل ــ قبل منتصف الليل . ولكن لا تنتظريني اذا كنت متعبة .

ــ بل سأنتظرك .

في اجتماع ذلك المساء ، في المكتبة القائمة عند زاوية منزل الدون ، كان ثمة الدون نفسه وميخائيل وتوم هاجن وكارلو ريزي ورئيسا الفرقتين : كليمنزا وتيسيو .

كان الجو اقل مرحا من المرة السابقة . فمنذ ان اعلن دون كورليون تقاعده النصفي وان ميخائيل سيتولى اعمال العائلة ، توتر الجو بعض التوتر . ان الخلافة في مثل هذه الاعمال ليست بالضرورة وراثية . ولو حصل هذا في عائلة اخرى ، فان رئيسي فرقتين قويين مثل كليمنزا وتيسيو كان يمكن ان يرثا لقب الدون ، او كان يسمح لهما على الاقل ان ينفصلا لتكوين « عائلتهما » الخاصة .

ومنذ ان عقد دون كورليون الصلح مع العائلات الخمس ، اخذت عائلته تضعف . واصبحت عائلة بارزيني العائلة الاقوى في المنطقة النيويوركية بلا منازع . وكان تحالفها مع عائلة تاتاغليا يكسبها التفوق الذي كان آل كورليون ينعمون به سابقا . بل لقد كانت تسمح لنفسها بان تقضم سلطة عائلة كورليون بشق طريقها في قطاع القمار ، وباللجوء الى الاستفزازات الصغيرة المتتالية لجس ردود فعل الخصم . واذ لاحظت عائلة بارزيني ضعفها ، اخذت تقيم مكاتب متسلمي الرهانات في ارض العدو بالذات .

كان انسحاب الدون يبهج عائلتي بارزيني وتاتاغليا . فبالغا ما بلغ ميخائيل من القوة ، فانه محتاج على الاقل لعشرة اعوام قبل ان يكتسب حنكة الدون العجوز ونفوذه . واذن ، فقد كانت عائلة كورليون نهائيا على المنحدر .

لقد تعرضت بكل تاكيد للمصائب والمحن . كان كبير الاولاد صالحا فقط ليكون فندقيا وزير نساء . والاسم الصقلي لهذا النوع من الاشخاص لم يكن قابلا الترجمة ، ولكنه يوحي بصورة طفل جشع لا يترك ثدي امه ، وباختصار ، كان رجلا قليل الرجولة . وقد كان موت سوني كذلك كارثة . كان سوني رجل عصابة مخيفا لا ينبغي الاستخفاف به . على انه كان قد ارتكب غلطة بارسال اخيه الاصغر ميخائيل لقتل التركي ونقيب الشرطة . كان ذلك تدبيرا ضروريا ، بالتاكيد ، من وجهة النظر التكتيكية ، ولكن العملية كانت تبدو خطأ شنيعا ، من زاوية الستراتيجية البعيدة المدى . فهي قد اجبرت الدون على النهوض من سرير النقاهة ليأخذ الامور

مجددا بيده . وكانت قد حرمت ميخائيل كذلك من عامين كان بامكانه ان يكرسهما لاكتساب الخبرة تحت وصاية ابيه . ثم انه كان ثمة ايضا هذا المستشار الايرلندي: الحماقة الوحيدة التي ارتكبها الدون في حياته . لم يكن ثمة ايرلندي واحديستطيع ان يأمل في مضاهاة صقلي بالمكر . كان ذلك على الاقل راي العائلات التي كانت اشد احتراما لتحالف عائلتي بارزيني وتاتاغليا منها لعائلة كورليون . وقد كانوا يرون ان ميخائيل لم يكن يضاهي سوني بالقوة بالرغم من انه كان اذكى منه ، وان كان دون الاب ذكاء . وبالاختصار ، فقد كان وريثا ذا قيمة متوسطة لا يوحي بخوف مبالغ فيه .

وبالرغم من الاعجاب العام ببرودة الاعصاب التي عقد بها الدون الصلح ،فان كونه لم يثأر لمقتل سوني قد اضعف كثيرا نفوذ العائلة . وكان الاستنتاج من ذلك انه فاوض من مركز الضعف . كان الرجال الستة المجتمعون في المكتبة يعرفون راي الآخرين بهم ، وربما كان بعضهم يؤمن بهذا الراي . كان كارلو ريزي يحب كثيرا ميخائيل ، ولكنه كان يخافه اقل مما كان يخاف سوني . وفيما كان كليمنزا معجبا بالشجاعة التي نفذ بها ميخائيل قتل التركي ونقيب الشرطة ، فانه لم يكن اقل اقتناعا بان ميخائيل كان اقل قسوة وصلابة من ان يكون « دونا » . كان رئيس الفرقة السمين قد امل ان يمنح الاذن بتكوين « عائلته » الخاصة في اقطاعة من اقطاعات كورليون . ولكن الدون كان قد قرر قرارا آخر ، وكان كليمنزا اشداحتراما له من ان يعصاه . الا اذا اصبح الوضع غير محتمل .

اما تيسيو ، فكان له راي افضل بميخائيل . كان يحزر ان الشاب كان يحاذر بدهاء ان يكشف لعبته ، وخاصة قوته ، متبعا في ذلك مبدا الدون الذي ينص على ان الصديق يجب دائما ان يقدر فضائلنا اكثر مما ينبغي ، وان العدو يجب ان يقدر نقائصنا اكثر مما ينبغي .

واما الدوق وتوم هاجن ، فلم يكونا يشكان طبعا بميخائيل . وما كان الدون لياخذ تقاعده لو لم يكن مقتنعا اقتناعا مطلقا بان ابنه كان قادرا على تقويم وضع « العائلة » . وكان هاجن قد عمل مدة عامين مرشدا لميخائيل ، فكان مذهولا ان يراه سريع التمثل للحيل المعقدة المرتبطة بتجارة زيت الزيتون : الابن الحقيقي لابيه .

كان كليمنزا وتيسيو منزعجين لان ميخائيل كان قد اضعف نفوذ فرقتيهما ولم يعد تشكيل فرقة سوني . لم تكن العائلة تتصرف ، بعد ذلك التاريخ ، الا بفرقتين قادرتين على القتال وعدد من المأجورين اقل من السابق . وكان هذا، في رأي رئيسي الفرقتين ، بمثابة انتحار ، لا سيما وان حلف بارزيني ــ تاتاغليا كان متفوقا على مملكتهما . وكانا يأملان مع ذلك بان يسمح الاجتماع الاستثنائي الذي دعا اليه الدون بتصحيح هذه الاخطاء .

وبدأ ميخائيل يتحدث عن رحلته الى فيغاس ، فأوضح ان غرين كان يرفض ان يبيع حصته ، ثم قال :

ــ ولكننا سنقدم له عرضا لن يستطيع رفضه . انكم تعرفون ان « العائلة »

تنوي نقل مركز نشاطها الى الغرب . ونحن نملك اربعة فنادق ـ كازينوهات على « التهريب » ؛ ولكن هذا لا يمكن ان يتم فورا . اننا بحاجة الى وقت لتصفيةاعمالنا. (وتوجه بالحديث الى كليمنزا) انت وتيسيو ستبقيان معي مدة عام بلا اسئلة ولا تحفظات . وفي نهاية هذه المهلة ، تستطيعان ان تنفصلا عن العائلة وتصبحا سيدي نفسكما . ولا حاجة الى القول اننا سنبقي على علاقات الصداقة بيننا . والافتراض بان من الممكن ان يكون الامر بخلاف ذلك ، سيكون اهانة لن اسمح بها ، بالنظر الى احترامكما لابي . ومع ذلك ، وقبل ان تأخذا حريتكما ، استمرا في اتباع توجيهي ولا تهتما بشيء . ان هناك محادثات جارية الآن ستتيح حل مسائل تظنونها لا تحل فتذرعا ببعض الصبر .

وتكلم تيسيو : ـ اذا كان مو غرين يريد التحدث الى ابيك ، فلماذا تمنعه من ذلك ؟ لقد نجح الدون دائما في اقناع الجميع . ولم يصمد احد قبل اليوم لحججه .

واجاب الدون شخصيا :ـ لقد اخذت تقاعدي . وسيفقد ميخائيل نفوذه اذا تدخلت . وبالاضافة الى ذلك ، فان غرين رجل افضل الا اتحدث معه .

وتذكر تيسيو ما كان قد سمعه حول ما حدث ذات مساء في فندق فيفاس. فان مو غرين كان قد صفع فريدي علنا . واحس بان وراء الاكمة ما وراءها فقبع في مقعده . وكان مو غرين في نظره قد اصبح رجلا ميتا : ان عائلة كورليون لم لكن تتمنى اقناعه .

وتدخل كارلو ريزي بدوره ، فسأل :ـ هل ستتخلى « العائلة » عن كل نشاط لها في نيويورك ؟

اجاب ميخائيل :ـ اننا نبيع تجارتنا بزيت الزيتون . وسنترك لتيسيو وكليمنزا كل ما نستطيع تركه . ولكن لا تقلق على وضعك ، يا كارلو . لقد كبرت في النيفادا، وانت تعرف هذه الولاية وسكانها . وانا انوي ان اجعلك مساعدي الايمن حين نقيم هناك .

واستند كارلو بدوره الى المقعد ، وقد احمر وجهه سرورا . كانت ساعته تقترب ، وهو سوف يلمع في ثريا السلطة .

وتابع ميخائيل :ـ ان توم هاجن ليس بعد مستشارنا . سيكون مرشدنا القضائي في فيفاس . وبعد شهرين تقريبا سيذهب للاقامة هناك نهائيا معاسرته. بصفته محاميا على سبيل الحصر . وابتداء من هذه اللحظة ، لم تعد تعنيه اية قضية . انه محام ، وهذا كل شيء . على هذا النحو ، ارى الامور . والحق اني ان كنت محتاجا للنصائح ، فمن ينصحني خيرا من ابي ؟

وضحك الجميع . ومع ذلك ، فقد كانوا ، رغم المزاح ، يفهمون التبليغ .كان توم خارج اللعبة ولم يكن يملك بعد اية سلطة . والقى كل حاضر من الحضور نظرة في اتجاهه ليرى كيف كان رد فعله ، ولكنه كان هادئا لا يريم .

وصفر كليمزا بصوته ، صوت الرجل السمين :ـ واذن ، فبعد عام ، سنعمل لحسابنا ؟ اليس كذلك ؟

قال ميخائيل بمجاملة :ـ وربما قبل ذلك . ان بوسعك طبعا ان تبقى عضوا في «العائلة» اذا كنت تفضل ذلك. ولكن سلطتنا ستكون بعد الان في الغرب. وبالنظر الى انك مرتب شؤونك هنا ، فبامكانك ان تتدبر امرك تدبرا افضل .

قال تيسيو بهدوء :ـ ان عليك في هذه الحالة ان تسمح لنا بتعزيز فرقتينا. ان رجال بارزيني القذرين لا يفتأون ينقصون من سلطتي على ارضي . وارى من المستحسن اعطاءهم درسا في التزام حدودهم.

هز ميخائيل راسه نفيا :ـ لا . سيكون هذا خطأ . الزم الهدوء . ان هذه القضايا يجري التفاوض عليها ، وسننظم كل شيء قبل ان نرحل .

لم يقتنع تيسيو بهذا الجواب ، فتوجه بالحديث مباشرة الى الدون ، مخاطرا بتعريض نفسه لمزاج ميخائيل السيء . قال :

ـ اعذرني ، يا عرّاب . لتكن سنوات صداقتنا عذري عندك . ولكني أعتقد انك وابنك مخطئان في موضوع النيفادا . كيف تستطيعان ان تأملا في النجاح هناك ، اذا لم تكونا هنا مدعومين بقوة ؟ ان الاعمال مرتبطة بعضها ببعض . ومن جهة اخرى ، ستكون عائلتا بارزيني وتاتاغليا ، لدى رحيلكم ،اقوى من ان نتحملهما . سنواجه انا وكليمنزا مصاعب كثيرة ، وعاجلا او آجلا ، سنسقط تحت سلطة اعدائنا . والحال ان بارزيني ليس رجلا على مزاجي . وانا حريص على القول ان على عائلة كورليون الا تخلي المكان الا بالقوة ، وليس بمركز ضعف . ان علينا ان نعزز فرقتينا ونسترد الاراضي التي خسرناها ، على الاقل في « ستايتن ايسلند».

وهز الدون راسه نفيا :ـ لقد عقدت الصلح . فلا تنس هذا . انني لا استطيع ان انكث بعهدي .

واصر تيسيو :ـ الجميع يعرفون ان آل بارزيني قد تحدونا واستفزونا منذ عقد الصلح . وبالاضافة الى ذلك ، فلا شيء يمنع ميخائيل ، اذا كان هو الرئيس الجديد لعائلة كورليون ، من اتخاذ التدابير التي يراها صالحة . انه ليس مرتبطا ارتباطا مطلقا بكلمتك وعهدك .

وتدخل ميخائيل بجفاء ، كما يليق بقائد :ـ ان ما نتفاوض عليه الآن يستجيب لاسئلتك ويهدىء مخاوفك . فاذا لم تكفك كلمتي ، فاسال « دونك » .

ولكن تيسيو ادرك اخيرا انه تجاوز حده . ان يسال الدون ، معناه ان يتخذ ميخائيل عدوا له . وقد هز كتفيه وقال خاتما كلامه :

ـ لقد تحدثت لصالح « العائلة » ، لا لصالحي . انني قادر على الدفاع عن نفسي .

فابتسم له ميخائيل بود :ـ اسمع يا تيسيو ، انني لم اشك يوما بك ، من اية زاوية . على الاطلاق . ولكن فوض الي امرك . صحيح اني لست في مثل كفاءتك وكفاءة كليمنزا بصدد قطاعكما بالذات ، ولكن ابي موجود هنا ليرشدني . ولن اسقط في الامتحان وهكذا سنخرج جميعا منتصرين .

كان الاجتماع قد انتهى . وهو على الاقل قد علم كليمنزا وتيسيو ان بامكانهما عما قليل ان يحولا فرقتيهما الى « عائلتين » مستقلتين . وسيكون من نصيب تيسيو

العاب القمار واحواض السفن في بروكلين ، ومن نصيب كليمنزا العاب القمار في مانهاتن وسلطة « العائلة » على ميادين سباق لونغ ايسلند ، وقد خرج رئيسا الفرقتين غير راضيين تمام الرضى ، بل مستاءين قليلا .

وتأخر كارلو ريزي ، مؤملا ان يعامل اخيرا كعضو في العائلة . ولكنه لم يلبث ان لاحظ ان هذه لم تكن نية ميخائيل . وكان ان ترك الدون وتوم هاجن وميخائيل وحدهم في المكتبة . ورافقه البير نيري الى الباب ، ولاحظ كارلو ، ان نيري ظل واقفا على عتبةالبيت ليراقبه فيما كان يجتاز المر المشجرالمضاء كالنهار.

واسترخى الرجال الثلاثة الباقون في المكتبة ، كما يستطيع ان يفعل اولئك الذين قضوا اعواما معا ، في بيت واحد ، واسرة واحدة . وصب ميخائيل قدح انيسون للدون وويسكي لتوم . واخذ لنفسه قدحا كذلك ، وهذا ما كان يتفق له نادرا .

وكان توم اول من تكلم ، فقال :ـ لماذا تضعني ، يامايك ، على الحياد ؟

بدا ميخائيل مفاجأ ، فقال :ـ ستكون ساعدي الايمن في فيغاس . ونحن نقوم هناك الا بأعمال مشروعة ، وستكون رجلي القانوني . فماذا تأمل اكثر من ذلك ؟

ابتسم هاجن ببعض الاسى وقال :ـ ليست هذه هي القضية . انني اتكلم عن روكو لامبون الذي يشكل لنفسه الآن فرقة على حسابي . انك تصدر اوامرك مباشرة الى نيري من غير المرور بواسطتي او واسطة رئيس فرقة . والآن ، من الممكن الا تعرف ما يقوم به لامبون .

سأل ميخائيل بهدوء :ـ وكيف عرفت ان لامبون يشكل لنفسه فرقة ؟

ـ لا تقلق . هذا النبأ لم يتسرب ، وليس ثمة غيري يعرفه . ولكن وضعي يسمح لي بان أرى ما يجري . انك تدفع مباشرة للامبون ، وبسخاء . وقد منحته ايضا كثيرا من الحرية . وهو بحاجة الى موظفين لمساعدته في مملكته الصغيرة ، وجميع الذين يختارهم يجب ان اعرفهم . ولقد لاحظت انه يختار دائما رجالا يستحقون افضل مما يعهد اليهم فيه من مهمات . والحق انه يدفع لهم لقاء ما يستحقون ، لا ما يفعلون .وباستثناء ذلك،فانك لم تخطيء باختيارك لامبون.. انه ينجح نجاحا باهرا .

ـ ولكن ليس كاملا ما دمت قد حزرت ما يجري . وعلى اي حال ، فان الدون هو الذي اختار لامبون .

ـ حسنا ، ولكن لماذا تنحيني ؟

نظر اليه ميخائيل محددا بصره في عينيه ، وقال بلا مواربة :

ـ توم ، انك لست مستشارا لزمن الحرب . فيمكن للوضع ان يتسمم ، بالنظر الى ما نفعله . فيجب عند ذلك ان نقاتل . ولا اريدك ان تكون على خط النار. مجرد احتياط .

احمر هاجن . لو كان الدون هو من يقول له ذلك ، لوافق بخضوع . ولكن ما الذي كان يسمح لمايك ان ينطق باحكام قاطعة كهذه ؟

قال : ـ حسنا . ولكن الحال اني متفق مع تيسيو . وارى انك تمضي من

خطوة عاثرة الى خطوة عاثرة . انك تتصرف بضعف وليس بقوة . وهذا سيء دائما. ان بارزيني ذئب . فاذا قطع لك اعضاءك واحدا واحدا ، فصدق ان العائلات الاخرى لن تهرع الى مساعدة آل كورليون .

قرر الدون ان يتدخل ، فقال : « يا توم . ان ميخائيل ليس وحده في الميدان. انه يتبع نصائحي . وربما كان الامر يقتضي القيام بأمور لا اريد ان اكون مسؤولا عنها . فأنا الذي اريد الاشياء على هذا النحو ، وليس ميخائيل . انه لم يسبق لي قط ان اعتبرتك مستشارا سيئا ، حين كنت اعرف سانتينو غير جدير بان يصبح « دونا » ، لتسكن روحه الجنة . لقد كان ذا قلب طيب ولكنه لم يكن مخلوقا ليتولى قيادة العائلة حين اصابتني تلك المصيبة الصغيرة . ومن ذا الذي كان يعتقد ان فريدو سيكون عبدا للنساء ؟ اذن ، لا تغضب . ان ميخائيل يتمع بثقتي ، مثلك انت . ولاسباب ينبغي الا تعرفها ، يجب الا تشارك بما قد يحدث . وبالمناسبة ، قلت لميخائيل ان فرقة لامبون السرية يجب الا تفلت من رقابتك . وهذا يدل على اني واثق بك .

ضحك ميخائيل قائلا :ــ بصراحة ، لم اكن اعتقد انك ستلاحظ ذلك .

وفهم هاجن انهما كانا يعزيانه فقال : ــ استطيع على كل حال ان اكون مفيدا.

قال ميخائيل وهو يهز راسه نفيا :ــ لا . انت يا توم خارج اللعبة .

افرغ توم قدحه ، وقبل ان يمضي ، وجه الى ميخائيل عتابا خفيفا اذ قال:

ــ انك تضاهي اباك تقريبا ، ولكن يبقى لك شيء تتعلمه .

سأله ميخائيل بأدب :ــ وما هو ؟

ــ ان تقول : لا .

هز ميخائيل راسه بجدية وقال :ــ انت على حق . سأتذكر ذلك .

حين خرج هاجن ، قال ميخائيل لابيه فرحا :ــ وهكذا ، علمتني كل شيء الا هذا . فعلمني ان اقول للناس « لا » بشكل يروق لهم .

ذهب الدون يجلس خلف مكتبه وقال :ــ لا نستطيع ان نقول لا للذين نحبهم، او نادرا . هذا هو السر . وحين تكون مجبرا على فعل ذلك ، فيجب ان يكون لدى الذي تتوجه اليه شعور بانه يسمع نعم . او عليك ان تحمله على ان يقول هو نفسه لا . ان هذا يتطلب وقتا وصبرا . ولكني رجل من العهد القديم ، وانت تنتمي الى الجيل الجديد . واذن ، فلا تهتم اكثر ممّا ينبغي بما ارويه لك .

قال ميخائيل ضاحكا :ــ حسنا . ومع ذلك . فانت موافق ، بصدد توم .

قال الدون :ــ نعم . يجب الا يشارك في هذا .

ــ لقد آن الاوان ،على ما يخيل الي ، ان اقول لك انني ما كنت اتصرف كما سوف اتصرف لكي اثأر لابولونيا وسوني ، ولكنه هو الحل الصالح . ان تيسيو وتوم على حق في موضوع عائلة بارزيني .

هز دون كورليون راسه قائلا :ــ الثأر وجبة تؤكل باردة . ما كنت لاعقد الصلح لو وجدت وسيلة اخرى لاعادتك الينا حيا . ويدهشني مع ذلك ان يكون

بارزيني قد حاول ان يقتلك بعد هذا . ربما يكون قد دبر هذه الخطة قبل اتفاقنا، ولم يستطع ان يحول دون تنفيذها . هل انت واثق انه لم يكن حاقدا على دون تومازينو ؟

ــ كانوا يريدون ان يحملوا على تصديق ذلك . والحق ان هذا كان سينجح. وحتى انت ، ما كنت لتعرف الحقيقة لو لم ابق على قيد الحياة . لقد رأيت فابريزيو يختفي من البوابة ويفر . ومنذ عدت ، قمت بالتحقيق طبعا .

سأله الدون :ــ وهل عثر على ذلك الراعي ؟

ــ لقد اكتشفته منذ عام . انه صاحب مطعم بيتزا صغير ، هناك ، في بوفالو . باسم مستعار ، وهوية مزورة وجواز مزور . واشغاله على ما يرام ، فابريزيو الراعي .

ــ اذن ما جدوى الانتظار ؟ متى تبدأ ؟

ــ حين تضع كاي مولودها . تحسبا لما قد يحدث من احداث سيئة . واريد كذلك ان يكون توم قد اقام في فيغاس ، حتى لا يتورط . لنقل اذن ، بعد عام .

سأل الدون من غيران ينظر الى ميخائيل :ــ هل اعددت كل شيء ؟

قال ميخائيل بهدوء :ــ لن تشارك في العمليات . لن تكون مسؤولا عن شيء. سأتولى كل المسؤولية على عاتقي . واذا اردت ان تصدر اعتراضاتك ،فسأعصاك. وسأترك « العائلة » لاتدبر الامر وحدي . اطمئن بالا . لن تكون موضوع خلاف .

لبث الدون فترة طويلة صامتا ثم تنهد قائلا :

ــ فليكن ذلك . لعلني من اجل هذا اخذت تقاعدي ، ووضعت كل شيء بين يديك . لقد قمت بمهمتي ، ولا أستطيع الاستمرار . ان اقوى الناس ليسوا مستعدين دائما لانجاز بعض المهمات . فتصرف على هواك .

في ذلك العام ، وضعت كاي ادامس كورليون طفلا ثانيا . ذكرا آخر . ومر كل شيء على ما يرام ، بلا ادنى تعقيد . ثم استقبلت الام الشابة في الممر المشجر بكل آيات التشريف الجديرة بها اميرة ملكية . واهدتها كوني جهازا حريريا كاملا ، صنع باليد في ايطاليا . جهاز رائع باهظ الثمن .

ــ ان كارلو هو الذي عثر عليه . لقد طاف بنيويورك كلها ليجد شيئا ثمينا لاني لم اكن ابلغ ذلك .

فشكرتها كاي وابتسمت وهي تدرك انها لا بد لها ان تكرر هذه الاكذوبة على مسمع ميخائيل . كانت قد بدأت تصبح صقلية حقيقية .

وفي تلك السنة نفسها . مات نينو فالانتي بنزيف في المخ . وقد نشر النبأ بأحرف بارزة في الجرائد الشعبية، لان الفيلم الذي كان جوني فونتان قد عهد اليه فيه بدور البطولة قد خرج قبل ذلك ببضعة اسابيع وكان يحرز نجاحا هائلا جعل من نينو معبودا . وذكرت الصحف ان جوني فونتان سيتولى الدفن الذي سيكون باحتفال خاص لا تشارك فيه الا الاسرة وبعض اصدقاء حميمين . وكان جوني فونتان ، وفق مقال اثار ضجة كبيرة ، قد آخذ نفسه على موت صديقه : كان عليه

ان يجبره على اتباع علاج طبي . على ان الصحفي قد اشار في مقاله الى ان ذلك كان شعورا بالذنب وهميا ، شعور رجل بريء ذي قلب مفرط الحساسية . كان جوني فونتان قد جعل من صديق طفولته نينو فالانتي نجما سينمائيا . فما عساه كان يرجو اكثر من ذلك ؟ وكان فريدي وحده ، من افراد اسرة كورليون ، من حضر الجنازة في كاليفورنيا . وكانت لوسي وجول سيفال حاضرين كذلك . وقد كان المفروض ان يحضر الدون ايضا لولا ان نوبة قلبية خفيفة قد الزمته الفراش طوال شهر . فاكتفى بارسال اكليل زهور هائل . وسافر البير نيري الى كاليفورنيا كممثل رسمي « للعائلة » .

بعد يومين من دفن نينو ، قتل مو غرين بطلقة نارية ، في هوليوود ، في بيت عشيقته الممثلة السينمائية . ولم يظهر البير نيري في نيويورك الا بعد ذلك بشهر . وكان قد قضى عطلة في جزر الانتي ، واستعاد عمله وقد اسمرّت بشرته حتى كاد يصبح اسود . واستقبله ميخائيل كورليون وهو يبتسم وببعض كلمات مديح . واخبر نيري كذلك انه سيتمتع بعد الان بموارد اضافية : عائدات « العائلة » من مكتب لمتسلمي الرهانات كبير الدخل في « الايست سايد » . وكان نيري مسرورا عظيم السرور ان يعيش في عالم يكافأ فيه الرجل الذي يقوم بواجبه مكافأة عادلة .

٢٩

كان ميخائيل كورليون قد اتخذ احتياطاته ضد كل حدث ممكن . خطة محكمة. تدابير امن ممتازة . كان رجلا صابرا ، فكـان يؤمل تكريس عام كامل لاستعداداته. ولكـن القدر انتصب ضده وقصَّر هذه المهلة بشكل مفاجيء تماما . انه البطريرك ، الدون الكبير شخصيا ، الذي اخل بالتزامه تجاه ميخائيل .

صباح يوم احد ، بينمـا كانت النساء في الكنيسة ، لبس دون فيتوكورليون ثيابه البستانية : بنطال رمادي ملولب ، وقميص ازرق ناحـل اللون ، ولبادة قديمة مبعجة ذات شريط من حرير رماديّ مبقّع . كان الدون منذ بضعة اعوام قـد زاد وزنا،وكان يزرع بندوراته ـ لسبب صحي، كما كان يقول .ولكنه لم يكن يخدع احدا. كان في الواقع يحب البستنة. كان منظر بستانه في الصباح يسحره اذ يذكره شبابـه في صقلية ، لستين عامـا خلت ، ولكن من غير ان يبتعث الرعب والشقاء اللذيـن احسّ بهما عند موت ابيه . وكانت زهـور صغيرة بيضاء تبرعـم رؤوس غرسات اللوبياء التي تحيط بهـا من كل جانب باقات من ثوم قصبي . وكان برميل ضخم ينتصب حارسا في نهايـة الحديقة ، وكان ممتلئا بمـاء مزابل البقر : اثمـن سمـاد لدى البساتنة . وعند هـذا الطرف نفسه كانت تقـوم الاطارات الخشبية التي كـان الدون قد صنعهـا بيديه الاثنتين . وكانت خيوط ممدودة من دعامة الى دعامة تسنـد اغراس البندورة الصغيرة .

واستعجل الدون الري . كان يجب الاسراع اليه قبل ان تحوّل الشمس المفرطة الحرارة كل نقطة ماء الى عدسة تحرق الخسّ كانه الورق . ان الشمس ضروريـة كضرورة الماء ولكن مزجهما على نحو غير حكيم يحدث مصائب كبيرة .

ثم تنقل الدون فيحقله ، مطاردا النمل. كان حضور النمل من شانه ان يكشف حضور البزّاق ، فاذا كان النمـل يطارد البزّاق ، فقد كان لا بد من التبخير بسائل خاص .

كان قد قام بالري في ابانه تماما . فقد كانت الشمس تزداد ارهاقا ، وكان الدون يفكر : « الحذر ، الحذر » . ولكن كـان مـا يـزال عليـه ان يغرس بعض الاعمدة قرب عدة غرسات . وكان ان انحنى من جديد ، عازمـا ان يعود الى البيت بمجرد ان ينتهي من هذه الاجمة الاخيرة .

وفجأة ، خيّل اليه ان الشمس قد هبطت مشتطة بالقرب من رأسه وان نقطـا صغيرة مذهبة كانت تتراقص امام عينيه . وكان ابن ميخائيل يعدو نحوه . وكـان يبدو تحيط به هالة من النور الاصفر المعمي . ولم يصدق الدون هذا السراب لانـه

كـان مفرط الشيخوخة . وقد كان الموت مختبئا خلف هذه الهالة الملتهبة ، يوشك ان ينقضّ عليه . وبحركة من يده ، امر الصفير بان يبتعد ، فـي اللحظة المناسبـة تمامـا . ذلك ان مطرقة آلية ضربت صدره ، ففغر فاه ليتنفس وسقط الى امام .

وهرب الطفل وهو ينادي اباه . فهرع الى الحديقة ميخائيل كورليون وبعض رجال كانوا قرب البوابة ، على طرف الممر المشجر . ووجدوا الدون ملقى على بطنه وحفنة من تراب في يده . فحملوه ونقلوه الى الظل ، في صحن الدار . وركـع ميخائيل قرب ابيه واخذ يده . واستدعى الاخرون بالتلفون سيارة اسعاف وطبيبا.

فتح الدون عينيه بجهد كبير لينظر الـى ابنه مـرة اخيـرة . كانت النـوبـة القلبيـة القاسية تزرّق وجهه . كـان مشرفـا على الموت . وشـم عطور الحديقة. وكانت الهالة المذهبة ما تزال تشتعل في عينيه ، وتمتم :

ـ ما اجمل الحيـاة !

ووفر عليه القدر رؤية النساء باكيات ، لانه مات قبل عودتهن من الكنيسة ، وقبل وصول سيارة الاسعاف والطبيب . مات محاطـا بالرجال ، وممسكا بيده يد الابن الذي كان يحبه اكثر من اي شخص اخـر .

واقيمت له جنازة ملكية ، حضرها دونات العائلات الخمس ورؤساء فرقهم ، وكذلك تيسيو وكليمنزا مع اقاربهما . واستحق جوني فونتان ايضا عناوين الصحف الكبرى المحبة للفضائح لانه ذهب الى حفلة الدفن ، بالرغم مـن نصائح ميخائيـل . وصرّح فونتان للصحفيين ان فيتو كورليون ،اعظم رجل عرفه في حياته ، كان عرّابه، وانه كان يشرّفه ان يسمح له بتقديم تحية احترام اخيرة له . وطز في الذين لم يكن ذلك يروق لهـم .

واقيمت السهرة الجنائزية في بيت الممر المشجر ، على الطريقة القديمة ،وبذل اميريغـو بوناسيرا قصارى جهده ، فتكفّل بجميع التفاصيل وجهز للابدية صديقه القديم والمحسن اليه بحب شبيه بحب ام تجهز ابنتها العروس صباح يوم العرس . وقد لاحظ الجميع ان الموت بالذات لم يخدش نبالة الدون الكبير ولا جلاله . وكـان ان احس اميريغـو بوناسيرا من ذلك اعتزازا كبيرا وشعورا بالقوة غريبا . فهـو وحده كان يعرف كم عكّر الموت صفاء وجه الدون .

واقبل جميع الاصدقاء القدامى والخدم يحيّون المتوفي : نازورين وزوجتـه وابنته وصهره واحفاده الثلاثة ، ولوسي مانسيني التي قدمت مع فريدي مـن لاس فيغاس ، وتوم هاجن مع زوجته واولاده ، ودونات سان فرنسيسكو ولوس انجلس وبوسطن وكليفلاند . وامسك روكو لامبون والبير نيري حبال بساط الرحمـة مـع كليمنزا وتيسيو وطبعـا اولاد البطريرك . وكانت جميع بيوت الممر المشجر تفيض بالاكاليل والباقات حتى البساتيـن .

وكان المخبرون والمصورون متجمعين وراء البوابة . وكانت ترى ايضا شاحنة صغيرة مزودة بالآت التصوير لتسمح لرجال المخابرات الاميركية ان يصوروا هذه المأسـاة . ولاحظ الصحفيون الذين حاولوا ان يدسوا انوفهم الى مـا بعد البوابـة انهـا كانت محروسة ، فلم يكـن يسمح لاحد بالدخول من غير ان يبرز بطاقة هويته

وبطاقة الدعوة . على ان سادة الصحافة هؤلاء عوملوا باكبر المجاملة والمراعاة ، بل لقد ارسلت لهم المرطبات الى الخارج . غير ان احدا منهم لم يدخل . وكانوا يطرحون الاسئلة على الذين كانوا يخرجون ،ولكن عبثا : نظرات مثلوجة ،دون ما نأمة.

وقضى ميخائيل كورليون طوال النهار تقريبا في المكتبة القائمة عند زاوية البيت ، مع كاي وتوم هاجن وفريدي . وقد دخل الى المكتبة بعض الاصدقاء مع مرافقين ليقدموا تعازيهم . وقد استقبلهم ميخائيل بادب . وقد اطلق عليه البعض اقب عرّاب وناداه اخرون بدون ميخائيل . ولاحظت كاي آنذاك ان هذه الكلمات كانت تجعله يزم شفتيه استياء .

وانضم كليمنزا وتيسيو الى هذه الدائرة الحميمة ، فقدم لهما ميخائيل شخصيا الشراب . وتكلموا قليلا . وابلغ ميخائيل رئيسي فرقتيه القديمين ان جميع بيوت المر المشجر ستباع الى متعهد عقاري . وكان الربح الهائل يدلل مرة اخرى على عبقرية الدون التجارية . وفهما ان المملكة ستنتقل بعد الان نحو الغرب ، وان عائلة كورليون ستتخلى عن كل سلطتها في نيويورك . وكان المفروض ان يكون الامر كذلك عند انسحاب الدون او موته .

ولاحظ احدهم : ــ ها قد مرت عشرة اعوام تقريبا لم يستقبل البيت فيه هذا العدد الكبير من الناس ، ولكن كان ذلك في ظرف اخر : زواج كونستانزيا كورليون وكارلو ريزي .

واتجه ميخائيل الى النافذة لينظر الى الحديقة . هذه سنوات عشر تمر على جلوسه فيها مع كاي ، من غير ان يتصوّر آنذاك القدر العجيب الذي كان ينتظره . وكان ابوه قد قال له وهو يلفظ انفاسه . « ما اجمل الحياة ! » ولم يكن يذكر انه سمعه قط يتحدث عن الموت . كان الدون اشد خوفا من الموت من ان يتفلسف بشأنه .

واتت ساعة التوجه الى المقبرة لدفن الدون الكبير . ومد ميخائيل ذراعه لكاي وذهبا معا ينضمان في الحديقة الى المدعوين اللابسين السواد . وكان يتبعهما رئيسا الفرقتين مع جنودهما ، ثم جميع البسطاء الذين كان العرّاب قد باركهم خلال حياته : الخباز نازورين ، والارملة كولومبو واولادها وكثير غيرهم لا يحصون من ضيوف هذا العالم الذي حكمه بحزم ، ولكن بعدالة . وحتى بعض اعدائه القدامى اتوا يقدمون له تحية اخيرة .

ولاحظ ميخائيل هذا كله ببسمة متشنجة ولكنها مؤدبة . لم يكن متأثرا بذلك . ومع هذا ، فقد فكر بانه اذا كان يجد الحياة جميلة ، ساعة موته، فسيكون قد نجح في حياته . سوف يتبع درب ابيه ، وسيهتم باولاده ، وبعائلته ، وبعالمه . ولكن اولاده سيكبرون في عالم اخر . سيكونون اطباء وفنانين وعلماء. وربما اصبح احدهم حاكما ، او رئيسا ، اي شيء . سيسهر على ان ينضموا الى العائلة البشرية الكبرى . ولكنه هو الاب الحذر القدير سيجعل هذه العائلة الكبيرة تحت نظره .

في اليوم التالي للجنازة ، اجتمع في الممر المشجر اكبر اعضاء السلّم العائلي. وادخلوا قبل الظهر الى بيت الدون الفارغ . وقد استقبلهم فيه ميخائيل كورليون.

كانت المكتبة غاصة ، وكان حاضرا فيها رئيسا الفرقتين كليمنزا وتيسيو وكان روكو لامبون يبدو على سابق عهده في الرصانة والكفاءة . وكان كارلو ريزي يتخذ مكانه في تحفظ . اما توم هاجن فمد انفصل عن دوره القانوني المحصور بسبب الازمة . واخيرا كان البير نيري شبه ملتصق بميخائيل ، يشعل سكاير « دونه » الجديد ، ويقدم له الشراب ، ويظهر على هذا النحو ولاء لا يتزعزع رغم الكارثة التي حلت بعائلة كورليون .

والواقع ان موت الدون كان مصيبة كبيرة . كان يحرم العائلة نصف سلطتها على الاقل ، اي نفوذها ، خلال المفاوضات مع حلف بارزيني ـ تاتاغليا . وجميع الذين كانوا في القاعة كانوا يدركون ذلك وينتظرون ما سوف يقوله ميخائيل . لم يكن في نظرهم الا الوريث ولم يصبح بعد الدون لانه لم يكن قد اكتسب هذا اللقب . ولو كان العرّاب قد عاش مدة اطول ، فلعله كان سيتخذ التدابير ليوكد دور ابنه بصفته خلفا ، ولكن لم يكن ثمة من هو واثق من ذلك .

وانتظر ميخائيل ان يفرغ نيري من تقديم الشراب ، ثم قال بهدوء :

ـ انوي فقط ان اقول لكم جميعا انني افهم ما تعانونه . انني اعرف كم كنتم تحترمون ابي . ولكن يبدو لي طبيعيا ان تفكروا بانفسكم وبعائلاتكم . ان فيكم من يتساءل عما عسى يتركه حدادنا من اثر على مشاريعنا وعلى الوعود التي قمت بها . حسنا ! هوذا جوابي : لا شيء . ان كل شيء يستمر كالسابق .

هزّ كليمنزا راسه المشعث ، راس الثور الاميركي . كان شعره في لون رماد الحديد . وكان وجهه المنتفخ قد اصبح ظاهر البشاعة ، وقال :

ـ ان عائلتي بارزيني وتاتاغليا ستنقضان علينا ، يا مايك . فيجب ان نقاتل او نفاوض .

ولاحظ الجميع في المكتبة ان كليمنزا قد توجه الى ميخائيل وهو يدعوه مايك، وانه حاذر ان يعطيه لقب الدون .

قال ميخائيل : ـ لننتظر ، وسنرى ماذا يحدث . ليكونوا هم اول من ينقض الصلح .

قال تيسيو بصوته القاسي : ـ ولكنهم نقضوه ، يا مايك . لقد فتحوا مكتبين جديدين للرهانات في بروكلين هذا الصباح بالذات . اخبرني بذلك نقيب الشرطة الذي يشرف على سجل الحماية . ولن اعرف ، من هنا الى شهر ، اين استطيع ان اعلق قبعتي في بروكلين كلها .

حدجه ميخائيل بهيئة تفكر : ـ وانت ، ماذا فعلت ؟

هزّ تيسيو رأسه النمسيّ قائلا : ـ لا شيء على الاطلاق . لم ارد ان اسبب لك متاعب .

ـ حسنا . استمر . وهذا ما اريد ان اقوله لكم جميعا : استمروا . الزموا

الهدوء . لا ترددوا على التحدّيات . امنحوني بضعة اسبيع اخرى لتنظيم اعمالنا . وسنرى بعد ذلك من اين تأتينا الريح . واذ ذاك سأتدبر امور كل منكم، ثم يكون لنا اجتماع اخير لاتخاذ اخر القرارات .

وبدا محدّثوه مندهشين ، فلم يبال بذلك . وقام البير نيري يفتح الباب ويرافقهم .

وقال ميخائيل بجفاء : ـ ابق يا توم بضع دقائق .

واتجه هاجن الى النافذة المشرفة على الممر المشجر ، فرأى رئيسي الفرقتين وكارلو ريزي وروكو لامبون يعبرون البوابة يرافقهم نيري . واذ ذاك التفت الى ميخائيل يسأله :

ـ هل جمعت جميع خيوط علاقاتك السياسية ؟

هزّ ميخائيل راسه مظهرا اسفه : ـ ليست كلها . كنت بحاجة الى اربعة اشهر اخرى . وكان الدون يهتم بذلك معي . ولكن اصبح في جيبنا جميع القضاة واهم شخصيات الكونفرس . فقد كانوا هم اول من اهتممنا بهم . اما رؤساء الاحزاب هنا ، فينيويورك، فلم يطرحوا اية مشكلة ، طبعا . ان « العائلة » اقوى مما يمكن ان يظن اي شخص . وقد كنت افضل مع ذلك لو انجزنا كل شيء تمام الانجاز . (وابتسم لهاجن) آمل ان تكون قد فهمت الان ؟

ـ لم يكن الامر على غايةالصعوبة . كان شيء واحد يدهشني : ان تضعني خارج اللعبة . ولكني اعتمرت قبعتي الصقلية وانتهى بي الامر الى الفهم .

ضحك ميخائيل : ـ كان عجوزنا واثقا من ذلك . ولكنه سيكون بعد الان بذخا كماليا لا استطيع ان اسمح به لنفسي . اني بحاجة اليك هنا ، لبضعة اسابيع على الاقل . وتحسن صنعا بان تتلفن الى فيغاس لتبلغ زوجتك . قل لها: لبضعة اسابيع فقط .

وسأله هاجن مبلبلا : ـ كيف تعتقد انهم سيسعون للاتصال بك ؟

قال ميخائيل بعد تنهدة : ـ لقد شرح لي الدون ذلك . سيتصلون بي بواسطة احد اقاربي . سيستخدم بارزيني شخصا لا استطيع ان ارتاب بانه ينصب لي فخا .

قال هاجن باسما : ـ انا ، مثلا .

قال ميخائيل وهو يرد له بسمته : ـ انت ايرلندي ، ولن يفوضوا اليك الامر .

ـ انا اميركي من اصل الماني .

ـ انت اذن في نظرهم ايرلندي . لن يتوجهوا اليك كما انهم لن يتوجهوا الى نيري لانه شرطي قديم . ثم انكما قريبان مني قربا مفرطا ، وهم لا يجرؤون على التعرض لهذه المخاطرة . اما روكو لامبون ، فهو غير قريب مني قربا كافيا . فسيكون كليمنزا او تيسيو او كارلو ريزي .

ـ انني اراهن على كارلو .

ـ سنرى . لن يتأخر الامر .

صباح اليوم التالي كان هاجن وميخائيل يتناولان طعام الفطور حين رن جرس التلفون . وتلقى ميخائيل المخابرة في المكتبة ، وحين عاد قال لتوم :
ــ انتهى الامر . المفروض أن التقي ببارزيني خلال إسبوع لنتفاوض في امر صلح جديد . ان موت الدون يخلق وضعا جديدا .
وانفجر ضاحكا ، فسأله توم : ــ منْ تلفن لك ؟
كان كلاهما يعرفان ان عضو عائلة كورليون الذي كان يقيم هذا الاتصال مع العدو كان خائنا . وابتسم ميخائيل باسى ، وقال :« انه تيسيو » .
وانهيا فطورهما بلا كلام . وامام اخر فنجان له ، قال هاجن هازا براسه :
ــ كنت مستعدا ان اقسم انه سيكون كارلو ، او على الاكثر كليمنزا . ولكني لم اكن لافكر قط في تيسيو . انه افضل من في العصابة .
ــ اذكاهم . لقد فعل ما يعتقده ابرع شيء . ان يسلمني الى بارزيني ،معناه ان يضمن خلافة عائلة كورليون . هو يظن انه يخسر كل شيء اذا بقي معي ، لانه يتصور انني لا يمكن ان اربح .
سأل هاجن على مضض : ــ هل هو مخطيء ام مصيب ؟
هزّ ميخائيل كتفيه قائلا : ــ الوضع غير واضح . ولكن ابي كان الوحيد الذي يفهم ذلك : ان علاقات سياسية طيبة خير من عشر فرق . واحسب انني استرددت معظم نفوذ الدون السياسي . ولكن ليس ثمة غيري من يعرف ذلك .
ووجه بسمة مطمئنة لهاجن : ــ سيدعونني « دونا » . ولكن تيسيو ذاك ، اية حسرة !
ــ هل قبلت لقاء مع بارزيني ؟
ــ طبعا . بعد ثمانيةايام. في بروكلين ، على ارض تيسيو ، ضمانا لسلامتي.
وانفجر ضاحكا من جديد .
ــ كن حذرا في انتظار ذلك .
للمرة الاولى، تحدث ميخائيل الى هاجن بلهجة باردة ، فقال :
ــ لا حاجة بي الى مستشار ليعطيني نصائح من هذا النوع .

خلال الاسبوع الذي سبق مفاوضات الصلح بين عائلتي كورليون وبارزيني ، اظهر ميخائيل لهاجن كم كان بارعا في ان يكون حذرا . لم يضع قدمه مرة واحدة خارج الممر المشجر ، ولم يستقبل احدا الا ونيري الى جانبه . ولم يحدث الا امر معقد واحد : كان الابن الاكبر لكوني وكارلو يجب ان يثبت في سر الميرون في الكنيسة الكاثوليكية ، وقد طلبت كاي الى ميخائيل ان يكون عرّابه بهذه المناسبة . فرفض .
قالت : ــ انني لا ابتهل اليك ، غالبا . اوجوك ، افعل هذا من اجلي .ان كوني شديدة الرغبة في ذلك ،وكذلك كارلو . ويبدو لهما هذا هاما جدا . ارجوك، يا ميخائيل .
ورات انه كان مغتاظا ، لانها كانت تلحّ . وظنت انه سيرفض ، ولكنها فوجئت

به يهز راسه ويقول :

ــ حسنا . ولكنني لا استطيع ان اترك المر المشجر . قولي لهم ان يتدبروا امرهم لكي ياتي الاسقف فيثبته هنا . سادفع ما يكلف ذلك . ولئن كان في ذلك تعقيدات ، فان هاجن سيرتب الامور .

وهكذا اصبح ميخائيل كورليون ، عشية لقائه بعائلة بارزيني ، عرّاب ابن كوني وكارلو ريزي . وقد اهدى الصبي ساعة يد باهظة الثمن . واقيم استقبال صغير في بيت كارلو لاعضاء العائلة ورئيسي الفرقتين وهاجن ولامبون وجميع الذين كانوا يعيشون في المر المشجر ، بمن فيهم طبعا ارملة الدون .

وقد بلغ من شدة تاثر كوني انها كانت في كل لحظة تعانق وتقبل اخاها وكاي. وحتى كارلو ريزي اصبح عاطفيا . وقد كانت جميع الحجج صالحة له ليشد على يد ميخائيل ويدعوه : « بادرينو » ، كما في البلد الاصلي . اما ميخائيل ، فلم يسبق له ان كان حفيا ومنفتحا الى هذا الحد . وهمست كوني لكاي :

ــ اعتقد ان كارلو ومايك سيصبحان بعد الان صديقين حميمين . ان حفلات كهذه الحفلة تشد دائما الاواصر العائلية .

امسكت كاي بذراع كوني قائلة : « انني سعيدة جدا » .

٣٠

كان البير نيري ، في شقته الهادئة في البرونكس ، ينظف بالفرشاة ثوبه الرسمي من الصرج الازرق ، ثوب رجل الشرطة . وقد نزع عنه الاشارة ووضعها على الطاولة ليصقلها . وكان قراب المسدس معلقا على مسند كرسي . وكان ذلك النشاط ، الذي كان شبه يومي سابقا ، يجعله سعيدا سعادة غريبة . بل لعلها كانت احدى المرات النادرة التي كان يحسّ بها فيها احساس السعادة منذ تركته زوجته ، لعامين سبقا .

كان ملتحقا حديثا بالشرطة حين تزوّج ريتا التي لم تكن قد انهت دراستها الثانوية . كانت فتاة صغيرة حيية ، ذات شعر اسود ، متحدّرة من اسرة ايطالية محافظة لم تكن تسمح لها بالخروج مساء بعد الساعة العاشرة . وكان نيري مجنونا بها وببراءتها وفضيلتها وكذلك بجمالها .

وفي البدء ، كانت ريتا نيري مسحورة بزوجها . كان على قوة خارقة ،وكانت ترى جيدا ان الناس كانوا يخافونه بسبب قوته وصلابته تجاه الخير والشر . كانت تعوزه الحصافة . فكان اذا استاء من موقف جماعة او راي فرد ، صمت او قال بضع كلمات بشكل فظ . ولم يكن يتقبل امرا تقبلا مؤدبا . وكان له طبع صقلي بشكل نموذجي ، هو عرضة لثورات غضب مخيفة ، ولكنه لم يكن يتخاصم قط مع زوجته .

وخلال خمسة اعوام ، اصبح نيري واحدا من اشد شرطة نيويورك تخويفا وارعابا . وكان كذلك واحدا من اشدهم استقامة ، ولكن له طريقته الخاصة في الحفاظ على النظام واحترام القانون . كان يكره السرقة . وحين كان يلتقي بعصبة من الاوغاد الشبان يحدثون صخبا في الليل في زاوية شارع او يزعجون المارة ، كان يتخذ تدابير سريعة وحاسمة باللجوء الى وسائل القوة الجسمية بقدرة استثنائية لم يكن هو نفسه يدركها .

ذات ليلة ، قفز من سيارة شرطة في « سانترال بارك ويست » وصف في صف واحد ستة اوغاد يرتدون سترات من الحرير الاسود . وقد بقي معاونه ، وكان يعرف طبعه ، وراء المقود حتى لا يتدخل بهذه القصة . وكان الشبان الستة الذين تتراوح اعمارهم بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة قد تسلوا بايقاف المارة ليطلبوا منهم سكاير فيما هم يتلفظون بتهديدات صبيانية متطرفة ، ولكن من غير ايذائهم . وكانوا قد وجهوا كذلك الى الفتيات حركات فرنسية اكثر منها اميركية .

وهكذا صفهم نيري عندجدار يفصل سانترال بارك عن الجادة الثامنة . كان ذلك عند الفسق ، وكان نيري يحمل سلاحه المفضل : مصباح كهربائي ضخم . ولم يكن يتكلف قط عناء فك مسدسه ، لانه لم يكن بحاجة اليه . حين يكون مستاء فان شراسة وجهه وثوبه الرسمي كانا كافيين لارهاب السوقة . ولم يكن هؤلاء الستة داخل الاستثناء . وقد سأل اول شاب يلبس الحرير الاسود : « اسمك ؟ » فأعطى المراهق اسما ايرلنديا ، فقال له نيري :« عد الى بيتك . واذا عثرت عليك تتسكع في الشارع هذا المساء ، فانني سأصلبك ! » وقام بحركة من مصباحه ، ففر الاخر بسرعة . ولجأ الى الطريقة نفسها مع صبيين اخرين تركهما يهربان . اما الرابع فقد اعطى اسما ايطاليا وهو يبتسم لنيري كما لو انه يستنجد لديه بتضامن سلفي . والواقعان نيري كان بلا نزاع ايطالي المحتد . وقد تأمل الشاب لحظة ثم سأله : « ايطالي ؟ » فابتسم الاخر بثقة . وكان ان ضربه نيري بمصباحه علىجبينه فسقط راكعا . كان جلده قد انشق واخذ الدم يسيل على وجهه . ولكنه لم يكن الا جرحا سطحيا . وقال له نيري بقسوة :« يا ابن القذر الجبان ! انك تلوث شرف الايطاليين . انك تسيء الىسمعتنا . انهض ! » وركله في جنبيه ، لا بلطف ، ولا بشدة . « عد الى بيتك ولا تجرّ قدميك في الشوارع بعد ، ولا تدعني اراك بهذه السترة ، والا ارسلتك الىالمستشفى. افرنقع ! ان من حسن حظك اني لست اباك ! » ولم يهتم بالاخرين ، بل اكتفى بركلهما في مؤخرتيهما حتى الجادة وهو يهددهما بالويل والثبور اذا التقاهما خارج بيتهما ذلك المساء .

كانت الاحداث المشابهة تجري بسرعة شديدة حتى ان المتسكعين لم يكونوا يجدون وقتا للتجمع والاحتجاج . وكان نيري يصعد الى سيارته وسرعان ما يقلع به معاونه . كانت هناك طبعا حالات صعبة ، حالات الاشخاص المستعدين للقتال او الذين كانوا يشهرون مدية . ولم يكن ذلك يعود عليهم بالسعادة ، ذلك اننيري كان يوسعهم ضربا بشراسة مرعبة ، ويرمي بهم في السيارة وهم ينتحبون . وكانوا يسجنون بتهمة اهانة شرطة القوة العامة ، ولكنهم لم يكونوا يمثلون امام القضاء الا بعد خروجهم طبعا من المستشفى .

واخيرا ، نقل نيري الى الحي الذي كان يقوم فيه مبنى الامم المتحدة ، لانه خصوصا لم يظهر مجلا بما فيه الكفاية لرقيب مفوضية الاولى . وكان رجال الامم المتحدة ، مدعومين بحصانتهم الدبلوماسية ، يركنون سياراتهم حيثيروق لهم ، من غير ان يهتموا بقوانين الشرطة . وقد اشتكى نيري من ذلك لرؤسائهالذين اوصوه بالا يحدث المشكلات وان يغض النظر . ولكن حدث ذات ليلة ان سد شارع صغير بسيارات كانت واقفة بوقاحة في وسط الطريق . وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل . فأخذ نيري مصباحه الكهربائي الضخم من السيارة واجتاز الشارع من طرفه الى طرفه وهو يحطم الواجهات الامامية في السيارات . ولم يكن بوسع دبلوماسي ، ولو كان ذا مركز رفيع ان يصلح واجهة سيارته باقل من بضعة ايام . وتلقت المفوضية وابلا من الاحتجاجات وطلب الى الشرطة ان تحمي السياراتمن نزعة هدم النفائس.واستمر تحطيم الواجهات الامامية للسيارات

طوال اسبوع فهم احدهم بعده ما كان يجري ، فتم نقل البير نيري الى هارلم .
وبعد ذلك بقليل ، اخذ نيري زوجته ، بعد ظهر يوم احد ، لزيارة اخته الارمل في بروكلين . وكان البير نيري كجميع الصقليين يحس بمحبة تتميز بروح الحماية تجاه اخته . وكان يقصدها للزيارة كل شهر ليتأكد من انها كانت بصحة جيدة . كانت تكبره سنا ، وكان لها ابن في العشرين من عمره، يدعى توماس ، كان يورثها كثيرا من الهموم لانه لم يكن في البيت اب يؤدبه. وكان قد ارتكب عددا لا بأس به من الاعمال الرديئة . وكان نيري مضطرا الى اللجوء لعلاقاته في الشرطة ليوفر عليه التوقيف بتهمة اختلاسات طفيفة . وفي تلك المناسبة ، كان قد كبح غضبه ، ولكنه حذر ابن اخته بقوله :« اسمع يا تومي ، اذا جعلت اختي تبكي ، فاني سأقبض علبك بنفسي » . وكان ذلك بالنسبة الى رجل مثله التحذير الودي للخال العطوف ، وليس تهديدا حقيقيا .ومع ذلك ، وبالرغم من ان تومي كان واحدا من اصلب شبان بروكلين ، فقد كان شديد الخوف من خاله البير .

في يوم الاحد ، ذاك المحكي عنه ، نام تومي طوال النهار . وكان قد عاد صباحا في ساعة غير مناسبة . وقد انتهت امه الى دخول غرفته وطابت اليه ان يرتدي ثيابه لتناول العشاء مع خاله وزوج خالته . ولما كان الباب آنذاك مشقوقا ، فان خاله وزوج خالته سمعا جواب الفتى الفاسد : « لا يهمني ذلك ،دعيني انام » . وعادت امه الى المطبخ ببسمة اعتذار .

وكان ان تناولوا العشاء بدون تومي . وسأل نيري اخته ان كان تومي يسبب لها متاعب جدية ، فهزت راسها نفيا . وكان الخال وامراته على وشك الخروج حين نهض تومي ، فدمدم بتحية غير مفهومة وقصد المطبخ ، ثم ما لبث ان خار قائلا :« ايـن انت ايتهاالام ! لماذا لم تعدّي ما آكله ؟ » ولم يكن ذلك سؤالا ، بل كان امرايصدره ولد فاسد . واجابته امه بلهجة حادة :« انهض في الساعة المناسبة وستأكل . انني لن اعود الان لاطبخ لك » .
كانت مشاهد صغيرة رديئة غالبا ما تحدث . ولكن تومي ارتكب تلك المرة امرا خاطئا ، لانه كان ما يزال مخدرا بالنوم ، فقال :« اذهبي فانبعصيانت ومآخذك! اني ذاهب لآكل خارجا » . وسرعان ما ندم على ذلك . ذلك ان خاله البير وثبعليه كما تثب قطة على فار ، لا لانه اهان امه ذلك اليوم ، بل لانه على الارجح كان غالبا يكلمها بمثل هذه الفظاظة حين يكونان وحدهما . ولم يسبق لتومي ان تلفظ بمثل هذا الكلام امام خاله ، ولكنه ذلك الاحد ترك لنفسه العنان من سوء حظه.
واوسع البير ابن اخته ضربا لا هوادة فيه ، تحت انظار المراتين المذعورتين. وحاول الشاب اول الامر ان يدافع عن نفسه ، ولكنه لم يلبث ان طلب النجدة .وقد صفعه نيري الى حد ان شفتيه نزفتا وتورمتا . ثم ضرب راسه بالجدار ، ثم ارسل قبضته على معدته . وحين تمدّد ابن الاخت ارضا ، ضرب الخال وجهه على السجادة . وامر المراتين ان تنتظرا ثم انزل تومي حتى السيارة . وهناك حاول وجها لوجه ان يبث فيه رعب الرب الكلي القدرة :« اذا قالت اختي لي يوما انك

تكلمت مرة اخرى بتلك اللهجة ، فان درس اليوم سيترك لديك ذكرى رقيقة في مثل عذوبة قبلة قحبة جميلة . انني اريد ان تمشي باستقامة ، وسأسهر على هذا . والان ، اصعد فقل لزوجتي انني أنتظرها » .

بعد ذلك بشهرين ، حين عاد البير نيري من خدمته الليلية ، وجد شقته فارغة . كانت زوجته قد حزمت حقائبها لتعود الى اسرتها . وقد قال والد ريتا اصهره انها لم تكن تجرؤ على ان تعيش بعد معه لانها كانت تخاف نوبات غضبه. ولم يصدق البير اذنيه . انه لم يسبق له قط ان ضرب زوجته او هدّدها باي شكل ولم يظهر لها الا الرقة والحنان . ولكنه اصيب بذهول شديد حتى انه ترك بضعة ايام تنقضي ، على ان يذهب فيتحدث اليها فيما بعد بحضور ذويها .

ومن سوء الحظ ان بعض المصاعب واجهته في تلك الاثناء . فقد دعي نيري الى الذهاب الى هارلم على اثر مخابرة تلفونية تشير الى وقوع حادث عنف متطرف. وكعادته ، قفز من السيارة قبل ان تتوقف .كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكان الشرطي يشهر مصباحه الكهربائي . وقد عيّن بسهولة مكان الحادث لان تجمعا كان قد تحلق امام باب مبنى للسكن . وقالت له امراة سوداء : « هناك رجل في الداخل يشطب فتاة صغيرة ».

ودلف نيري الى الرواق ، فراى بابا منفرجا في طرفه الاخير . وجذبه منه شعاع نور ، وسمع اصوات انين ، فاقتحم الباب ودخل الشقة . واوشك ان يتعثر بجسمين ممددين على الارض : جسم زنجية في حوالي الخامسة والعشرين وجسم فتاة صغيرة لم تكن تتجاوز العاشرة . وكانت كلتاهما تنزفان بغزارة ، وكان وجهاهما وجسماهما ممزّقين بطعنات موسى . وراى نيري في الصالة المجاورة بطل هذه الجريمة . كان يعرفه جيدا .

كان يدعى واكس بينز، وهو قواد مشهور ، تاجر مخدرات وممارس لانواع مختلفة من العنف . وكان في تلك اللحظة يبدو جاحظ العينين من المخدر . وكان لا يزال يمسك بيده الاداة الدامية التي استعملها . وفي الاسبوع السابق ،كان نيري قد اوقفه لانه كان يضرب احدى تلك المومسات في الشارع . وكان بينز قد سمح لنفسه بان يقول له : « هيه، ياعزيزي ،هذا لا يعنيك ! » وكان الشرطي الذي يرافق نيري قد نصحه بان يدع الزنوج يتقاتلون ان كان ذلك يروق لهم . ولكن ذلك لم يمنع البير من القبض على بينز واخذه الى مركز الشرطة وتوقيفه في النظارة . وفي اليوم التالي ، اطلق سراح هذا القواد بكفالة .

لم يكن نيري يحب الزنوج كثيرا . وكانت وظيفته في هارلم تزيده احتقارا لهم . لم يكونوا في نظره الا متعاطي مخدرات او سكيرين ، وكانوا يعيشون من عمل زوجاتهم او بغائهن . كان يحتقرهم جميعا . والوقاحة التي اظهرها بينز في الاسبوع الماضي قد اغضبته . ثم أتى مشهد الفتاة الصغيرة المطعونة بالموسى يخرجه عن طوره . ولكنه تمالك نفسه ، وقرر الا يوقف بينز هذه المرة .

غير ان الشهود كانوا قد دخلوا الشقة : اشخاص كانوا يسكنون المبنى ورجل الشرطة الذي كان يقود معه السيارة . وكان ان امر نيري بينز بقوله :

– اترك هذا السلاح . انـك موقوف .
فانفجر بينز ضاحكا ، وقال وهو يشهر موساه :
– انك بحاجة الى مسدسك ، يا صاحبي ، لكي توقفني . ام انـك تريد ان تتعرف الى هـذا ؟

وتصرف نيري بسرعة كبيرة حتى ان معاونه لم يجد الوقت لاخراج مسدسه. وحاول الزنجي ان يذبحه ، ولكن نيري كان من شدة البراعـة بحيث قبض علـى معصم يده اليسرى ، ورسمت ذراعه اليمنى نصف دائرة وادرك المصباح الكهربائي بينز فوق صدغه . فكـان ان ركع على ركبتيه بصورة مضحكة كما يسقط رجـل سكير . وافلت السلاح من يده .واذن ، فقد اصبح غير مؤذ . وكما نص فيما بعد تحقيق الشرطـة الاداري والمحكمة ، كانت الضربة الثانية لا تغتفر ، واكد ذلـك الشهود ومعاونه . لقد ضرب نيري راس بينز باندفاع بلغ من قوتـه ان اللمبـة وعاكسها انبثقا خارج الانبوب حتى الطرف الاخر من الفرفة والتوى المصباح نفسه. ووحدها البطريات التي كـان يحتويهـا حالت دون ان ينطوي المصباح كحدوة الحصان . وصرّح شاهد اذهله الحادث ، وهو زنجي كان يعيش في البيت نفسه ــ صرّح فيمـا بعـد امـام القاضي ان نيري قد قال : « ان له رأسا صلبا ، هــذا الزنجي ! » ولكن راس بينز لم يكـن صلبا بما فيه الكفاية . فقد تحطمت جمجمته، فمات بعـد ساعتيـن في مستشفى هارلم .

اندهش البير نيري اندهاشا شديدا حين اتهمه رؤساؤه بالشطط فـي استعمال قوته بلا فائدة . وقد عزل من وظيفته ، واوقف بتهمة القتل وحكم عليه بالسجن من عام الى عشرة . وكان آنذاك فريسة اندهال وغضب شديدين ضد المجتمع كله حتى انه لم يهتم بالحكم . لقـد جرؤوا على ان يحكموا عليه كمجرم ! وكانت لديهم الشجاعة لارساله الى السجن لانه صرع وحشا شريرا كذلك القواد الاسود . وهم لم يهتموا حتى بالمرأة والفتاة الصغيرة اللتيـن كان ذلك الزنجي قـد شطبهمـا وشوّههما الى الابد واللتيـن كانتا ما تزالان في المستشفى .

لم يكن يخاف السجن . ونظراً الى انه كان قد انتسب للشرطة ، واذا اخذت بعيـن الاعتبار طبيعة الحادث الذي ادى الى الحكم عليه ، فقدَ كان مقتنعا انهـم سيحسنون معاملته . وكان بعض زملائه في العمل قد اكدوا لـه انهم سيتحدثون بصالحه الى اصدقاء . ووحده ابو زوجته ، وهـو عجوز ايطالي معـاكـر كان يبيـع السمك في سوق البرونكس ، كـان يحدس بان البير نيري لن يبقى على قيد الحياة اكثر من عام في السجن : فاما ان يقتله معتقل اخر ، واما ان يقتل احد رفاقه فـي السجن . والحق انه كان يحس نفسه مذنبا ، لان ابنته كانت قد تركت زوجا مناسبا جدا ، لسبب حماقة من تلك التي تخطر في بال النساء . من اجل هذا توجه الـى عائلة كورليون . وكان يدفع جزيـة خمايـة لعرض بضاعته في السوق الى ممثل « للعائلة ». وكان يقدم للدون شخصيا سمكا من اجود السمك.وهكذا اذن ، طلب تدخلـه .

كان افراد عائلة كورليون قد سمعوا بالبير نيري . وكانت شهرته قـد

اصبحت شبه اسطورية ، شهرة شرطي ينبغي عدم الاستخفاف به لانه كان جديرا ببث الرعب من غير ان يكون محتاجا لثوبه الرسمي ولا لسلاحه . وكان اشخاص من هذا الطراز يهمون دائما « العائلة » . لم يكن مهما جدا ان يكون شرطيا :فان كثيرين من الشبان يسلكون الطريق السيء قبل ان يجدوا موهبتهم الحقيقية. والزمن والمصادفة يضعانهم بصورة عامة على الطريق المستقيم .

واستلفت كليمنزا ، وهو الموهوب حاسة تمييز خاصة لاختيار المساعدين — استلفت نظر توم هاجن الى قضية نيري . ودرس هاجن ملف الشرطة الرسمي ثم قال لكليمنزا :

— من الممكن ان يكون لوكا برازي ثانيا .

هز كليمنزا راسه بقوة . صحيح ان وجهه كان سمينا جدا ، ولكنه لم يكن يملك الرقة المشتركة بين الرجال السمان .

وقال : — هذا تماما ما افكر به . ويجب على مايك ان يهتم به شخصيا .

وهكذا ، فان نيري قبل ان ينقل من سجنه الموقت الى السجن الذي سيقيم فيه مدة اطول في شمال الولاية ، عرف ان القاضي قد اعاد النظر في وضعه بالنسبة لمعلومات جديدة وشهادات ادلى بها كبار الموظفين في الشرطة . فهو يستفيد من وقف التنفيذ .

وفهم البير نيري ما حدث ، ودفع دينه لعمه ابي زوجته بان وافق على الطلاق، ثم ذهب الى لونغ بيتش يشكر المحسن اليه . ولا جدوى من القول ان ترتيبات كانت قد اعدت سلفا لهذه الغاية . فقد استقبله ميخائيل في المكتبة .

وعبّر نيري عن آيات عرفانه بلهجة احتفالية . وسحرته الحماسة التي اجاب بها ميخائيل : — يا للشيطان ! لم اكن استطيع ان ادع مواطنا صقليا يصاب بمثل هذا ! كان ينبغي ان يكافئوك ! ولكن هؤلاء السياسيين القذرين لا يخافون الا الجماعات المنظمة ليؤثروا عليهم . اسمع . انني ما كنت اتدخل في القضية لو لم ادرس الملف . وقد تبينت بشكل واضح كالنهار انك ذهبت كبش فداء . لقد تحدث رجل من رجالي مع اختك ، وهكذا عرفت انك كنت تهتم بها وبابنها ، وانك اعدته الى الطريق السويّ لتمنعه من التردي . ان عمك ابا زوجتك نفسه يقول انك شخص مدهش . وهذا نادر .

وكان ميخائيل من الفطنة بحيث لم يشر الى الزوجة التي كانت قد تركت نيري . وثرثرا فترة، فكان ان فتح نيري صدره لميخائيل ، رغم كونه صموتا . ولم يكن بينهما من فرق السن الا خمسة اعوام . ومع ذلك ، فقد كشف الشرطي السابق لميخائيل عن قلبه ، كما يكشف ابن لابيه عن اسراره . واخيرا قال له ميخائيل بودّ :

— لن يكون منطقيا ان اخرجك من السجن لاتركك على الرمل . انني استطيع ان اجد لك عملا في لاس فيغاس حيث لي مصالح . ان تجربتك ستجعل منك عامل سلامة في فندق — كازينو ، اما اذا كانت لديك رغبة في القيام بعمل تجاري ما فبوسعي ان ابعث بكلمتين الى بعض اصحاب المصارف ليسلفوك رأس المال

الذي تريـد ..

كان مـن شان هذا القدر من اللطف والرعاية ان يؤثر تاثيرا عميقا في نفس نيري وان يربكه ايضا . وقد رفض باعتزاز ، ولكنه اضاف :

ــ الامر مستحيل بالنسبة للاس فيغاس . ان حكم وقف التنفيذ يرتبط بمهلة امتحان ، ويجب ان ابقى على ارض المحكمة التي اصدرت عليّ الحكم .

ــ هذا تفصيل غير ذي قيمة . وسأتدبر الامر . والحق ان عليّ ان اعمل على حذف ورقتك الصفراء حتى لا ادع مجالا لتردد المصارف .

والورقة الصفراء بطاقة للشرطـة تسجل عليها سوابق كل فرد . وهي تقدم أجمـالا للقاضي حين يحدد عقوبة ما على محكوم عليه . وكان نيري قد قضى في الشرطـة وقتا كافيا ليُعرف ان كثيرا مـن الاشراركانوا يحكمون بعقوبات هينة لان دائرة الملفات الشرطية كانت ترشى فتقدم للقاضي ورقة صفراء بكرا . ولم يدهشه ان يكون ميخائيل كورليون قادرا على القيام باحراز مثل هذا الانتصار . ولكنـه تساءل لماذا يبذل مثل هذا الجهد كله من اجله ؟

قال : ــ اذا احتجت الى معونة ، فسوف ابلغك .

اجاب ميخائيل : « ممتاز » ثم نظـر الى ساعته ، ففهم نيري ان ذلك كـان بمثابة اذن له بالانصراف ، ومن جديد فاجاه محدّثه اذ قال :

ــ هذا وقت الغداء . تعال اذن فتناول الغداء مع عائلتي . سيكون ابي سعيدا برؤيتك ، وسنتحدث خلال الطعام . اعتقد ان زوجتي قد اعدت بيضا مـع فليفلة مقليـة ومقانق . غداء حقيقي على الطريقة الصقلية .

امضى البير نيري فترة من اسعد فترات حياته في منزل آل كورليون . وهو لم يكن يذكر انه أصاب من الراحة والمتعة مثلما أصاب عندهم منذ موت ابويـه، حين كان في الخامسة عشرة . كان دون كورليون ذا مزاج لطيف ساحر ، وقـد ابتهج عندما لكتشف ان ذوي نيري كانوا يسكنون قرية صغيرة تبعد بضعةكيلو مترات عن قريته . ووسط الاحاديث اللطيفة والطعام اللذيذ والنبيذ الاحمرالفني، احس نيري بانه كـان اخيرا بين اهله . كان يعرف جيدا انه انما كان موجودا هناك بصفته ضيفا عابرا ، ولكن كان يخيل اليه انه كان يستطيع ان يجد هناك مكانـه وان يعيش فيه سعيدا .

ورافقه ميخائيل والدون الى سيارته . وصافحه رب العائلة قائلا :

ــ انك شخص لطيف . لقد شخت ، واريد ان آخذ تقاعدي ، وانا اعلمابنـي ميخائيل ، هذا ، تجارة زيت الزيتون ، وها هوذا يأتيني فيقول لي انه يريـد ان يتدخل في قضيتك الصغيرة . واقول له : « اهتم بزيت الزيتون » ولكنه لا يريد ان يدعني وشاني . ويلح قائلا : هذا شخص لطيف ، صقلي مثلنا يمثلون معـه دورا لئيما ، ولاحقني حتى اهتممت بالامر . انني اروي لك هذا لاشرح لـك انـه كان على حق . اما وقد عرفتك الآن ، فانا مسرور اني كلفت نفسي هذا العناء . هل تفهمني ؟ اننا في تصرفك (في ذلك اليوم تحسر نيري على موت الدون حيـن تذكر حفاوته . لو كان مازال على قيد الحياة لرأى انه لم يكن قد أنقذ عاقا) .

فكر نيري طوال ثلاثة ايام قبل ان يتخذ قراره . وكان ذكيا بما فيه الكفاية ليفهم ان آل كورليون كانوا يجتذبونه . ولكنه كان يرى كذلك ان عائلة كورليون كانت تقر العمل الذي ادانه المجتمع من اجله وعاقبه عليه . كانت تحترمه ، وكان المجتمع يحتقره ، وسيكون هو شخصيا اسعد في العالم الذي صنعه آل كورليون منه في العالم الذي كان قد عاش فيه حتى ذلك الحين . وكان يرى اخيرا ان عائلة كورليون ، كانت على نحو ما قوية ، ولو في حدود ضيقة .

وعاد يقابل ميخائيل ويلعب اوراقه بصراحة : ان لاس فيفاس لم تكن تهمه ، ولكنه سيقبل اية مهمة تعهد اليه العائلة فيها ، في نيويورك . واكد بوضوح ولاءه . وتأثر ميخائيل لذلك . واحس نيري بهذا التأثر . ولكن ميخائيل نصحه بالحاح ان يأخذ اولا عطلة له :

— ان « العائلة » تملك فندقا في ميامي . وستستقبلك هناك مجانا ، كما انك ستقبض سلفة شهر من راتبك لتستطيع ان تتسلى كما يروق لك .

وتذوق نيري خلال عطلته لقمته الاولى من البذخ . وكان رجال الفندق يبدون مهتمين به ، مراعين له . وكانوا يقولون له ، لانهم كانوا قد تلقوا كلمة السر : « آه ، انك صديق لميخائيل كورليون ! » واعطوه شقة فخمة بدلا من ابعاده الى احدى تلك الغرف الرديئة المصنوعة للاقارب الفقراء . ووصله مدير المرقص في الفندق بفتيات فاتنات . وحين عاد الى نيويورك ، كان يرى الحياة بألوان جديدة .

وضموه الى فرقة كليمنزا ، وهو رجل موهوب بشكل خاص في تقدير الموظفين والمعاونين . والواقع انه كان لا بد من اتخاذ احتياطات معه لانه كان منتسبا الى الشرطة . ولكن ضراوة نيري الطبيعية قضت على الوساوس التي كان يمكن ان يحس بها اذ يجد نفسه في الجانب الآخر من الحاجز . وقام « بامتحانه » في اقل من عام . ومنذ ذلك التاريخ ، لم يكن يستطيع بعد ان يتراجع .

وكال له كليمنزا آيات الثناء . كان نيري مجندا ممتازا ، لوكا برازي جديدا . بل هو سيصبح خيرا من لوكا . وكان كليمنزا يمتدحه على هذا النحو لانه كان هو الذي اكتشفه . جسديا ، كان اعجوبة . كان يتمتع بمرونة وردود فعل تساوي في القيمة ما كان يتمتع به بطل البيسبول الشهير جو دي ماجيو . وكان كليمنزا يحدس كذلك بان نيري لم يكن مخلوقا ليبقى في فرقته . والواقع انه قد اعطي وظيفة جديدة كانت تضعه تحت الاوامر المباشرة لميخائيل كورليون . مع توم هاجن ، كحاجز ، طبعا . ولما كان معتبرا خارج الملاك ، فقد كان يقبض راتبا اعلى ، ولكن لم يكن له الحق في دخل خاص على مكتب رهانات او « حماية » معينة . وكان احترامه لميخائيل واضحا بل هائلا . وقد قال هاجن يوما لميخائيل مازحا :

— لقد عثرت الآن حقا على « لوكا » لك .

وهز ميخائيل رأسه . كان قد قام بكل ما يلزم لاجل ذلك . كان نيري يخصه في السراء والضراء ، في الحياة وفي الموت . وكان الدون هو الذي كان قد علمه ان يتلاعب هكذا بعقول الناس . وبينما كان يطلع على مجرى الاعمال ، خلال ايام طويلة

من الوصاية التي فرضها عليه ابوه ، اتفق له ان ساله يوما :
– كيف حدث ان استخدمت شخصا كلوكا برازي ؟ وحشا حقيقيا ؟
كان ذلك ايضا جزءا من التعليم الذي كان الدون يلقنه ابنه :
– ان في هذه الدنيا اشخاصا لا يطلبون الا ان يقتلوا . ولا بد انك لاحظت بعضهم .
انهم يسعون الى الخصومات في قاعات القمار ، انهم يثبون خارج سيارتهم لمجرد ان يكون واحد من الناس قد ساقه سوء حظه الى جرح واقي الصدمات في تلك السيارة . انهم يسعون الى اذلال او اساءة معاملة افراد لا يعرفون قوتهم او ردود فعلهم الممكنة . وقد رايت واحدا من هؤلاء المجانين يستثير قصدا غضب جماعة من الاشرار الخطرين الى ابعد الحدود . وبالاختصار ، انهم اشخاص يطوفون في العالم وهم يصيحون : « اقتلوني ! اقتلوني ! » وينتهي بهم الأمر الى العثور على واحد يؤدي لهم هذه الخدمة . ويتحدثون عنهم في الصحف كل يوم ، فيؤذون انفسهم ، ولكنهم يؤذون الآخرين ايضا ، ولقد كان لوكا برازي واحدا منهم ، ولكنه كان فردا فذا جدا بحيث ان احدا لم يتوصل ، لفترة طويلة ، الى القضاء عليه . اننا ، بصورة عامة ، لا نهتم بهؤلاء المجانين ، ولكن يحسن احيانا استخدام سلاح في مثل قوة برازي . ونظرا الى ان رجلا من هذا الطراز لا يخشى الموت ، بل هو يسعى اليه ، فان القضية كلها تكمن في هذا : ان تتدبر امرك بحيث تكون الشخص الوحيد في العالم الذي لا يريد ان يقتل على يده . واذا ذاك يخشى على الاقل شيئا ، هو ان تقتله ، وهو لهذا يخصك ، وينتسب اليك . وانت تفعل به ماتشاء.
ذلك كان واحدا من أنفع الدروس التي لقنها الدون لابنه قبل ان يموت .وقد افاد ميخائيل منه ليجعل من نيري « لوكا برازي » ه .

ها هو البير نيري اخيرا في شقته في البرونكس . لقد انهى تنظيف ثوبه الرسمي . وسوف يرتديه . وصقل بالعناية نفسها زناره وعلبة مسدسه. وسينظف كذلك قبعته التي تحتاج مقدمتها الى تنظيف ، كما سيمسح حذاءه المتين الاسود. انه يعمل بحماسة لانه وجد مكانه في العالم . وقد وثق به ميخائيل كورليون بلا تحفظ ، وسيثبت نيري انه جدير بهذه الثقة .

١

٣١

في اليوم نفسه ، توقفت سيارتان كبيرتان عند بوابة الممر المشجر في لونغ بيتش . كانت كوني كورليون وامها وزوجها وولداه سيستقلون احداهما للذهاب الى المطار . كان المفروض بأسرة كارلو ريزي ان تذهب في عطلة الى لاس فيغاس وتنتهز هذه الفرصة لتعد هناك لاقامتها الدائمة . وكان ميخائيل قد اصدر امره بذلك الى كارلو رغم احتجاجات كوني . ولم يكن قد كلف نفسه عناء التعبير عن رغبته باخلاء الممر المشجر من جميع سكانه قبل لقاء كورليون – بارزيني . وهذا الاجتماع نفسه كان سرا . كان ميخائيل وتوم ورئيسا الفرقتين مطلعين وحدهم على ذلك .

وكان المفروض بكاي وولديها ان يستقلوا السيارة الاخرى للتوجـــه الـــى نيوهامبشاير لزيارة اسرة ادامس . وكان ميخائيل باقيـــا في الممـــر المشجر لاعمال عاجلة جدا .

وفي آخر لحظة ، بعث ميخائيل يقول لكارلو ريزي انه سيكون بحاجة بعد الى وجوده في لونغ بيتش لبضعة ايام ، على ان ينضم الى زوجته واولاده خلال الاسبوع. وغضبت كوني ، وحاولت ان تتلفن لميخائيل ، ولكنه كان قد ذهب الى المدينة . ومع ذلك ، فقد طافت بالممر المشجر بحثا عنه ، وعلمت انه كان موجودا هناك . ولكنه منفرد بتوم هاجن ولم يكن يريد ان يزعجه احد . ويئست كوني فاستسلمـــت . ورافقها زوجها الى السيارة . وعندما عانقته في لحظة الوداع قالت له :

– اذا لم تكن في لاس فيغاس بعد يومين ، فسأعود لاصطحابك .

وطمأنها يقول ببسمة مشاركة جسدية : – سأكون هناك .

واطلت براسها من فوق زجاج باب السيارة وسألته :

– هل تدري لماذا يحتفظ بك ميخائيل هنا ؟

كان القلق يضفي عليها هيئة شيخوخة ويجعلها قبيحة . وهزّ كارلو كتفيه :

– لقد وعدني بعملية ضخمة . فلعله يريد ان يحدثني عنها . لقد اومأ لـــي بذلك ، على اي حال .

ولم يكن كارلو يعرف بأمر الاجتماع المقرر ذلك المساء نفسه مع عائلة بارزيني.

وسألت كوني : – اصحيح ان هذا ما تظنه ، يا كارلو ؟

فأومأ كارلو براسه ايجابا ليطمئنها . واقلعت السيارة وعبرت بوابة الممـــر المشجر . وبعد ذلك فقط ، صحب ميخائيل كاي وولديه الى سيارتهم . ولحق بهم كارلو ليودع زوجة شقيق زوجته ويتمنى لها رحلة سعيدة وعطلة سعيدة . وانطلقت السيارة الثانية بدورها .

قال ميخائيل : ــ يؤسفني ان استبقيك هنا ، يا كارلو . ولكنها مسألة يوم او يومين .

فسارع كارلو ريزي يجيب : لا اهمية لذلك .

ــ حسنا . ابق امام تلفونك . ساناديك بمجرد ان اصبح مستعدا . انني ما ازال بحاجة الى بعض المعلومات . اتفقنا ؟

قال كارلو : ــ بكل تاكيد يا مايك ، بكل تاكيد .

وذهب الى منزله ، فتلفن للمومس التي كان ينفق عليها بتكتم في «ويستبوري» ووعدها بان يحاول ان يوافيها عند المساء . ثم جلس امام زجاجة ويسكي وانتظر . واستمر الانتظار طويلا . وبعد الظهر بقليل وصلت الى الممر المشجر عدة سيارات على التوالي . ورأى كارلو كليمنزا يهبط من احداها ، وبعد ذلك بقليل ، تيسيو يهبط من اخرى . وادخل الحرس الخاص الرجلين كليهما الى غرفة ميخائيل . وعاد كليمنزا بعد بضع ساعات . اما تيسيو ، فلم يظهر ثانية .

وخلال عشر دقائق ، قام كارلو بجولة حول الممر طلبا للهواء . وكان يعرف جيدا الحراس الذين يقفون عادة عند البوابة ، بل كان على علاقات طيبة مع بعضهم . وخطر له ان يذهب فيثرثر قليلا لاضاعة الوقت . فادهشه ان الذين كانوا يقومون بالحراسة ذلك اليوم كانوا مجهولين لديه . وما كان اكثر اثارة للدهشة ان روكو لامبون كان هو شخصيا من يراسهم . والحال ان كارلو كان يعرف ان روكو كان يتولى مركزا في السلم ارفع جدا من ان يكلف معه بمهمة تافهة كهذه . واذن فلا بد ان يكون ثمة شيء ، استثنائي .

وابتسم له روكو بود وحياه . فكان ان وقف كارلو على حذره . وقال روكو :

ــ عجبا ، كنت اظن انك ذهبت في عطلة .

ــ استبقاني مايك يومين آخرين . ان لديه ما يكلفني به .

ــ نعم . وانا ايضا . كلفني بان اقوم بالحراسة . انه المعلم ، بعد كل حساب.

وكان في لهجة روكو ما يوحي بانه كان يحكم على ميخائيل بانه دون الدون العجوز . على ان كارلو حاذر ان يعض على الشص ، فقال :

ــ ان مايك يعرف ما يقوم به .

وتقبل روكو هذا الجواب الجاف من غير كلمة . وانصرف كارلو عائدا الى بيته . كان يحدث شيء ما ، ولكن كان واضحا ان روكو لم يكن مطلعا عليه .

نظر ميخائيل ، وهو واقف امام نافذة الصالة ، الى كارلو وهو يتنزه على الممر. واتاه هاجن بكاس من الكونياك ، فاحتسى منها بضع جرعات بلذة . وقال له هاجن بصوت خافت :

ــ مايك . يجب ان تبدأ . لقد آن الاوان .

وتنهد مايك : ــ واحسرتاه ! انني آسف الا يكون الدون قد عاش مدة اطول .

ــ سيجري كل شيء على ما يرام ، لقد راجعت كل شيء . فان لم يكن شيء قد فاتني ، فستسير الامور كما لو انها على عجلات . ان خطتك محكمة .

وابتعد ميخائيل عن النافذة :

ـ ان العجوز هو الذي اعد اهم سطور هذه الخطة . ولكنك تعرف ذلك .
ـ لم يكن هناك من يشبهه . انه الكمال . لا يستطيع المرء ان يفعل خيرا من ذلك . فانت اذن ايضا لا تستطيع ان تكون رديئا اكثر مما ينبغي .
قال ميخائيل : ـ من يعش ير . هل كليمنزا او تيسيو موجودان ؟
ـ نعم .
وافرغ ميخائيل كاس الكونياك :
ـ ابعث لي بكليمنزا . ساعطيه تعليماتي شخصيا . لا اريد ان ارى تيسيو . قل له فقط اني ساكون مستعدا بعد نصف ساعة للذهاب معه لمقابلة بارزينـــي . وسيتولى رجال كليمنزا امره فيما بعد .
وسال هاجن بلهجة لم تكن تلزمه شيئا :
ـ الا سبيل لتوفير تيسيو ؟
اجاب ميخائيل : لا سبيل .

في بوفالو ، شمالي ولاية نيويورك ، كانت تلك ساعة اطلاق الطلقة النارية في مطعم صغير للبيتزا في شارع قليل المارة . وبعد ان انتهت ساعة الغداء ، تباطأت الاعمال . وطاف صاحب المطعم بالقاعة يحمل صينية كبيرة من قصدير ، فالتقط الشطائر التي كانت باقية ، وكذلك التي كانت ما تزال على المشرب لاستعمال المارة . وصفها بعدذلك على رف من رفوف الفرن القرميدي الكبير . وفتحه ، فالقى نظرة على شطيرة بيتزا كانت تنضج . ولم يكن الجبن قد بدا يحدث فقاعات ، وعاد الى المشرب . وكان قد توقف عنده رجل ذو سحنة شاحبة ، فقال :
ـ اعطني قطعة منها .
تناول المعلم مجرفة الخباز الطويلة ، فالتقط شطيرة من على الرف وزلقها في الفرن يسخنها . وبدلا من ان ينتظر الزبون في الخارج ، قرر ان ياكل في الداخل. كانت القاعة خالية . وفتح المعلم فزنه ، فأخذ شطيرة البيتزا وقدمها على صحن من الورق المقوّى . وبدلا من ان يدفع له الزبون ، نظر اليه محدقا .
قال : ـ لقد سمعت ان على صدرك وشما كبيرا . وانا ارى راسه فوق الياقة. ارني الباقي .
وتسمر بائع البيتزا في مكانه . وبدا مشلولا .
قال الزبون : ـ افتح قميصك .
هزّ الاخر راسه نفيا وقال بلكنة واضحة :
ـ ليس عندي وشم . ان صاحب الوشم هو الذي يشتغل ليلا .
انفجر الزبون ضاحكا : ضحكة كريهة ، فظة ، متشنجة :
ـ هيا ، فك ازرار قميصك ، حتى أرى .
وتراجع المعلم نحو داخل الدكان وهو يحاول ان يستدير حول الفرن . ورفع الزبون يده فوق المشرب . كان يمسك بمسدس . واطلق فأصابت الرصاصة بائع البيتزا في صميم صدره ودفعته نحو الفرن . واطلق الزبون من جديد ، فسقط

الاخر ارضا . واستدار الزبون حول المشرب ، فانحنى وانتزع ازرار القميص . كان الصدر قد امتلأ بالدم ، ولكن كان يرى عليه وشم ، رجل وامرأة متعانقان وقد نفذهما خنجر طويل . ورفع بائع البيتزا ذراعا ضعيفة ، كما لو ليحمي نفسه ، فقال لـــه صاحب المسدس :

ــ فابريزيو . ان ميخائيل كورليون يرسل الك تحياته .

ومد ذراعه ليطبق ماسورة سلاحه على نخاع الراعي الصقلي القديم وضغط الزناد . ثم خرج بهدوء من الحانوت . كانت ثمة سيارة تنتظره ، مفتوحة الباب ، على طرف الرصيف ، ووثب المنفّذ الى داخلها ، فأقلعت السيارة .

ردّ روكو لامبون على التلفون الذي كان موضوعا في صندوقة مربوطة باحدى أعمدة البوابة . وقال له أحدهم :

ــ ان رزمتك جاهزة .

ودلته تكة في التلفــون على ان محدثه قد وضع السماعة . وصعــد روكــو لامبــون سيارته وغادر المر المشجر . واجتاز طريق جونس بيتشن الذي كان سوني كورليون قد قتل عليه ، وسار حتى محطة « وانتاغ » فترك سيارته هناك . وكانت سيارة اخرى تنتظره وفيها رجلان ، فذهبوا جميعــا الى موتيل يقع على بعد عشر دقائق ، على السانرايز هايواي ، ودلفــوا الى الباحة . وترك روكو لامبون معاونيه في السيارة واتجه توا الى دار صغيرة شبيهة بالشاليه . وبركلة من قدمه انتــزع روكو الباب من رزّاته ودخل بوثبة واحدة .

قام فيليب تاتاغليا ، عاريا كمولود جديد ، بجانب سرير كانت متمددة عليه فتاة في زهرة العمر . كانت جمته الكثيفــة ، وقد بلغ السبعين ، ما تزال سوداء حالكة ، ولكــن شعره كــان كريهــا بلونه الرمادي . كــان سمينا كطير مغذى جيدا . واطلق روكو لامبون اربــع رصاصات فاصابته في بطنه . ثم عــاد الى السيارة وهو يعدو . ووضعه رفيقاه عنــد محطــة وانتاغ ، ومن هناك عاد الى المر المشجر في سيارته . وقضى بضع دقائق مع ميخائيل ثم عــاد يأخذ نوبته على البوابة .

كان تيسيو ينتظــر في مطبخ البيت الذي كــان الدون قد عاش فيه . كــان يحتسي فنجان قهوة حين اتى هاجن يقول له :

ــ ان مايك جاهز . تلفــن اذن الى بارزيني ليتحرك .

ونهض تيسيو ، فرفع السماعة الجدارية وركب رقم بارزيني فــي نيويورك وقــال بجفاء :

ــ نحن متجهان الى بروكلين .

واعاد السماعة ، ثم ابتسم لهاجن :

ــ آمل ان يرتب لنــا مايك كثيرا من الامور

اجاب هاجن : ــ لا اشك في هذا .

ورافق تيسيو على المر المشجر حتى بيت ميخائيل . واوقفهما احد الحراس

عنـد الباب . قائـلا :
ـ يقول المعلم انه سيتجه الى هناك في سيارة اخرى، ويأمركما بان تسبقاه كلاكما.
ـ قطب تيسيو حاجبيه والتفت الى هاجن :
ـ خراء ! ليس هذا ممكنا . انه يفسد جميع ترتيباتي .
وفي تلك اللحظة احاط بهمـا ثلاثة حراس اخرين . فقالي هاجن بهدوء :
ـ وانا كذلك ، لن اذهب معك يا تيسيو .
في لحظة من ثانية ، فهم رئيس الفرقة ذو الوجه النمسي كل شيء فرضخ للامـر . وبعد لحظـة من الضعف الجسدي تدارك نفسه قائلا :
ـ قل لمايك ، يا توم ، انهـا قضية اشغال ، ولكنني احببته دائما .
قال هاجن : ـ هو يعرف وهو يدرك .
صمت تيسيو لحظة قصيرة ثم سأل بصوت خافت :
ـ توم ، كذكرى لصداقتنا القديمة ، الا سبيل لتجنيبي ذلك ؟
اجاب هاجن وهو يهز راسه نفيـا :
ـ لا سبيل .
وراى الحراس الخاصين يحدقون بتيسيو ويقتادونه الى سيارة . واوجعه ذلك في قلبه قليلا . لقد ظل تيسيو فترة طويلة افضل جنود عائلة كورليون ، وكـان العجوز قد اعتمد عليه اكثر من اعتماده على اي شخص آخر ، باستثناء لوكابرازي، وقد اسف ان يرتكب رجل على هذا القدر من الذكاء غلطـة في التقدير على هـذا القدر من الشناعة والتأخر في حياته المهنيـة .

كان ما يزال البير نيري يرتدي ثيابه وهو وحيد في شقته ، من غير استعجال. وارتدى بنطال ثوبه الرسمي وقميصه ، وعقد ربطة عنقه ، ولبس سترته ، وتمنطق بزنـاره مع علبة مسدسه .
كان في فترة تعليقه قد اعـاد سلاحه النظامي ، ولكن تركت له مداليته ، بفعل اهمال اداري . وكان كليمنزا قد اعطاه مسدسا جديدا من طراز ٣٨ شرطة خاصـة لن يكتشف اصله ابدا . وفك نيري العلبة ، وفتح مسدسه ، فشحمه وفحص جميع قطعه ، ثم اعاد تركيبه وجرب الزناد ، وجعل الديك ينزل ، ثم دس رصاصة في كل اسطوانة من المسدس . وها هوذا جاهز .
نظر الى ساعته ، بعد بضع دقائق ، ستتوقف السيارة عند باب بيته . وقد خصص هذا الوقت ليفحص في المرآة ان كان كل شيء على ما يرام . كانت له ، بلا ادنى شك ، هيئة الشرطي الكاملة . وقد وضع كبيّة ثوبه في كيس كبيـر مـن الورق وارتدى معطفـا مدنيا ليخفي ثوبه الرسمي .
كان رجلان من رجال روكو لامبون ينتظرانه على المقعد الامامي من السيارة . وجلس نيري في المقعد الخلفي . وحين غادرت السيارة حيّه ، نزع المعطف المدني فوضعه على ارض السيارة ثم فتح كيس الورق واعتمر قبعته النظامية .
توقفت السيارة عند حافة الرصيف ، وقريبا من ملتقـى الشارع الخامـس

والخمسين والجادة الخامسة . وترجل نيري ومضى سيرا على قدميه في الجادة. وداخله احساس غريبان يجد نفسه وهو يقوم بالدورية في قلب نيويورك ، كما كان يفعل غالبا من قبل . كان الجمهور ينغل على الرصيف . وتابع طريقه حتى روكفلر سنتر ، تجاه كاتدرائية سانت باتريك . وعاين سيارة ضخمة متوقفةوحدها عند طرف الرصيف الذي كان يسير عليه ، تماما بين لافتتين تشيران ،موقف ممنوع .

ابطأ نيري في سيره ، كان الوقت ابكر مما ينبغي . بل هو قد توقف ليسجل شيئا على دفتره ، بهدوء ، ثم استأنف سيره . واذ بلغ مستوى السيارة ، طرق بمطرقته واقية الصدمات . فرفع السائق راسه مندهشا . وبطرف مطرقته ، دله نيري على اللافتة التي تحظر التوقف هناك ، ثم اشار له بالابتعاد . وادار السائق راسه .

ترك نيري الرصيف ليذهب الى جهة الباب الايسر الذي كان زجاجه مفتوحا. كان السائق رجلا ذا هيئة مدعية ، واحدا من هؤلاء ، الذين كان نيري يحب ان يحطمهم . وقد قال له بلهجة تتقصد التنكيد :

ـ واذن ، ايهاالخبيث، هل تنسحب ام تريد ان ادس لك في مؤخرتك مخالفة؟

اجاب الاخر بهدوء : ـ اذهب فاستعلم في الحي . ولكن مع ذلك ، اعطني المخالفة ان كان هذا يسعدك !

ـ اغرب من هنا والا سحبتك من هذه السيارة من جلد فخذيك وكسرت لك صلبك !

وبمهارة مشعوذ ، لوّح السائق بورقة عشرة دولارات بين اصابعه ، فطواها بيد واحدة مربعا صغيرا وحاول ان يدسها في سترة نيري الذي تراجع خطوة ، وعاد الى الرصيف وهو يومىء الى السائق ان يلحق به . وترجل هذا الاخير من السيارة.

قال نيري : ـ اجازة السواقة والبطاقة الرمادية .

وكان قد امّل ان يجتذب السائق حتى ملتقى الطرق والى الشارع الصغير المجاور ، ولكنه تبين ان ذلك لم يكن ممكنا . ورأى بطرف عينه ، من غير ان يتلفت ، ثلاثة رجال اقوياء يهبطون درجات « البلازا » . كان هو بارزيني شخصيا وحارساه الخاصان الذين كانوا ذاهبين للالتقاء بميخائيل كورليون . وانفصل احد الشابين واندفع الى الامام ليرى ما كان يحدث . وسأل السائق :

ـ ماذا هناك ؟

ـ مخالفة . لا اهمية لذلك . انه لا شك شرطي جديد في هذه الناحية .

ووصل بارزيني مع حارسه الاخر فدمدم :

ـ واذن ، ماذا يحدث الان ؟

ولم يكد الثلاثة الاخرون يفهمون ما كان يحدث حتى كان قد اطلق ثلاث رصاصات في صدر بارزيني العريض ، واندس بين الجمهور ، وعدا نحو ملتقى الطرق ثم قفز الى السيارة التي كانت بانتظاره . واندفعت السيارة نحو الجادة التاسعة واستدارت لتتجه الى وسط المدينة . وتخلص نيري من قبعته ، ونزع ثوبه الرسمي

ليرتدي ثوبا مدنيا وغيّر سيارته قرب « شلسيابارك » وترك الثوب والمسدس في السيارة الاولى . سيتولى رفاقه امر اخفائها . وبعد ساعة ، كان يتحدث مع ميخائيل كورليون في ممر لونغ بيتش المشجر .

كان كارلو ريزي ينتظر ان يستقبله ميخائيل . وكانت روحات السيارات وغدواتها قد بدات تقلقه . مما لا نزاع فيه ان شيئا ما خطيرا كان يحدث ، وكان كل شيء يدل على انه كان منحّى جانبا . ودفعه نفاد صبره الى الاتصال بميخائيل، فردّ عليه احد الحراس الخاصين وذهب يسال الدون الجديد ثم عاد يقول له :

ـ انتظر لحظة اخرى . لن تتاخر كثيرا بعد .

واتصل كارلو بعشيقته واكد لها انه سيستطيع ان يصحبها ذلك المساء ، فيما بعد ، لتناول العشاء ، ثم يقضيان الليلة معا . وكان ميخائيل قد قال انه لن يتأخر كثيرا بعد . ولن يستغرق ماكان عليه ان يقوم به اكثر من ساعة او اثنتين . ولن تستغرق الرحلة بعد ذلك الى « ويستيوري » اكثر من اربعين دقيقة . كان هذا اذن ممكنا . لقد وعد بذلك المراة ودللها شفهيا . وبعد ان اعاد السماعة ، قرر ان يرتدي ثيابه للسهرة ، مما سيجعله يكسب الوقت فيما بعد .

وكان كارلو قد ارتدى قميصا نظيفا حين طرق الباب . لا شيء يستدعي القلق: كان مايك قد حاول ان يتلفن له ، فوجد التلفون مشغولا ، فبعث احد رجاله ليصطحبه .

وتوجه كارلو ليفتح الباب . وسرعان ما احس بخوف هائل يقطع له ساقيه . كان ميخائيل كورليون على العتبة . ووجد كارلو على وجهه المظهر نفسه لقناع الموت الذي كان غالبا ما يراه في احلامه .

وكان هاجن وركو لامبون يرافقان ميخائيل . وكانت هيئتهما تشبه هيئة اشخاص ياتون على مضض ليبلغوا صديقا لهم نبأ مؤسفا . وصحبهم كارلو ريزي الى الصالة . واذ تخلص من ذعره الاول ، اراد ان يقنع نفسه بانه قد استسلم لخوف لا داعي له . ولكن كلمات ميخائيل الاولى خلّفت عنده الغثيان . قال :

ـ قدّم حسابا عما حدث لسانتينو .

وتظاهر كارلو بانه لم يفهم ، ولم يجب . وكان هاجن ولامبون قد انفصلا ليستندا ، وجها لوجه ، الى الجدارين المتقابلين في الغرفة . وكان ميخائيل باقيا وحده تجاهه . وقال ميخائيل من غير ان يرفع صوته :

ـ لقد سلمت سوني الى عائلة بارزيني . والتمثيلية الصغيرة التي قمت بها مع اختي ، اكنت تظن انها ستخدع واحدا من آل كورليون ؟ ان بارزيني هو من جعلك تظن ذلك .

كان كارلو قد اصبح مريضا من الرعب ، فاجاب بلا اية كرامة :

ـ اقسم انني بريء . اقسم بذلك على رؤوس اولادي . لا تفعل لي هذا ، يا مايك ، لا تفعل لي هذا .

قال ميخائيل بهدوء : ـ مات بارزيني . وكذلك فيلب تاتاغليا . انني هذا المساء

اصفي جميع حسابات « العائلة » . فلا تزعم لي ، اذن ، انك بريء . وخير لك ان تعترف بما فعلت .

تأمل هاجن ولامبون ميخائيل بدهشة ، وفكرا بانه لا يملك بعد صلابة ابيه . لماذا يحاول ان يحمل هذا الخائن على الاعتراف ؟ لقد كان جرمه اكيدا ، بالقدر الذي يمكن فيه لانسان ان يتأكد من اي شيء . وقد كان الجواب على هذا السؤال يفرض نفسه بالبداهة : لم يكن ميخائيل واثقا بعد من حقوقه . كان يخشى ان يرتكب ظلما . كان ما يزال يهتم بظل صغير من الشك كان من شأن اعترافات كارلو ريزي وحدها ان تمحوه .

واذ رأى ميخائيل زوج اخته ملتزما عدم الاجابة ، استطرد يقول بلهجة ودية:

— لا تخف هذا الخوف الشديد . اتعتقد ان اختي ، بسبب غلطة مني ، ستصبح ارملة واولادها ايتاما ؟ انني بعد كل حساب ، عرّاب احد اطفالك . لا . هوذا عقابك: لن يكون لك بعد الان اي مركز في « العائلة » . استقل الطائرة هذا المساء الى فيغاس، حيث تلحق بزوجتك واولادك . وستبقى هناك . سارسل نفقة لكوني . هذا كل شيء . ولكن لا تردد انك بريء . لا تثر غيظي بان تسعى لحماي على الشك بذكائي . مع من كنت متواطئا ؟ مع تاتاغليا ام مع بارزيني ؟

وعلى امل قلق لديه بانقاذ جلده ، تمتم كارلو ، وهو فريسة دفقة من العزاء والارتياح اللذيذ انه لن يقتل :

— مع بارزيني .

قال ميخائيل بصوت خافت ، وهو يترك يده اليمنى تتدلى :

— حسنا ، حسنا جدا . امض اذن على الفور . ان سيارة تنتظرك لتقلك الى المطار .

وخرج كارلو اولا ، يتبعه الثلاثة الاخرون . كان الليل هابطا ، ولكن الممر المشجر كان مضيئا كالنهار ، كما هي العادة . واقبلت سيارة تقف بقربهم . فرأى كارلو انها سيارته ولكنه لم يعرف السائق . وكان رجل يجلس في زاوية المقعد الخلفي . وفتح لامبون الباب الامامي واومأ الى كارلو ان يصعد . وقال له ميخائيل:

— سأتلفن لزوجتك لاقول لها انك في الطريق .

جلس كارلو قرب السائق ، وكان القميص الحريري الذي ارتداه مبللا بالعرق .

اقلعت السيارة وسارت بهدوء نحو البوابة . وكان كارلو على وشك ان يدير راسه ليرى من كان جالسا وراءه ، ولكن كليمنزا ، في تلك اللحظة بالذات ، القى مضغطته بمهارة ودقة كبيرتين تشبهان مهارة فتاة صغيرة تعقد شريطا على عنق قطة . وسرعان ما عضت الاحبولة اللحم تحت معصم كليمنزا الحازم . وانتفض جسم كارلو ريزي كله ، كسمكة في رأس صنارة . وظل كليمنزا يضغط العقدة الى ان تجمد كارلو ريزي كليا واسترخى . وفجأة ، انتشرت في السيارة رائحة كريهة . كانت العضلات العاصرة قد تراخت لحظة الموت ، ففرغت الاحشاء تلقائيا . ولمزيد من التأكد ، ابقى كليمنزا المضغطة بضع دقائق اخرى ، ثم فك الاحبولة ووضعها في جيبه . واستند بارتياح الى المقعد . وتداعى جسم كارلو على الباب . وبعد لحظة،

انزل كليمنزا زجاج الباب ليهوّي داخل السيارة .

احرزت عائلة كورليون نصرا كاملا . فخلال الساعات الاربع والعشرين نفسها اطلق كليمنزا ولامبون منفذيهما ، فكانت مذبحة جميع الذين اعتدوا على مملكة عائلة كورليون . وكان نيري قد تولى قيادة فرقة تيسيو . والفيت مكاتب رهانات بارزيني ، وصرع اثنان من منفذي عائلة بارزيني الرئيسيين بينما كانا ينظفان اسنانهما بأمان ، بعد العشاء ، في مطعم ايطالي بمالبوري ستريت . وصفي كذلك مدبر لسباق الخيل المقرونة اذ كان عائدا الى بيته بعد امسية مثمرة في ميدان سباق الخيل . واختفى المرابيان الرئيسيان من مرابي احواض السفن . ولم يعثر على جثتيهما الا بعد انقضاء اشهر ، في مستنقع بنيو جرسي .

وهكذا فان هجوما غاضبا واحدا قد امن شهرة ميخائيل واعاد نفوذ عائلة كورليون بين العائلات الخمس . وكان من نتيجة براعته في التخطيط ان احرز من الاحترام ما جعل رؤساء فرق بارزيني وتاتاغليا ينضمون فورا الى معسكره .

وقد كان لميخائيل ان ينعم بنصر كامل لو لم تستسلم اخته كوني لمشهد هستيري . فقد تركت اولادها في لاس فيغاس واستقلت الطائرة مع امها . وبقيت هادئة تقريبا ، رغم حزنها ، الى ان توقفت سيارتها في الممر المشجر . واذ ذاك لم تترك للماما ان تمسك بها ، بل ركضت على الطريق المرصوف بالحصى المستدير حتى بيت ميخائيل ، فدخلته كالعاصفة ، ووجدت اخاها مع كاي في غرفة الاستقبال . ونهضت كاي لتستقبلها وتعانقها تخفيفا عنها ، ولكنها توقفت منذ بدات كوني تطلق الشتائم والاتهامات :

ـ لقد قتلت زوجي . لقد انتظرت موت ابينا حتى لا يمنعك احد من ذلك فقتلته . كنت حاقدا عليه لموت سوني ، منذ وقت طويل ، كجميع الناس . ولكنك لم تكن تفكر بي . كنت دائم اللامبالاة بي . ما الذي سافعله الان ؟ ما الذي ساصير اليه ؟

كانت تخور ، ثم انفجرت بالبكاء . واقترب منها حارسان خاصان من الخلف وانتظرا اوامر ميخائيل ، ولكنه ظل هادئا لا يتحرك ، وانتظر ان يخف غضب كوني.

قالت كاي مذهولة : ـ كوني، لا تتكلمي هكذا . انك مضطربة متأثرة .

وجهدت كوني لتسترد هدوءها ، ولكن صوتها ظلّ مسموما :

ـ لاية غاية تظنين انه كان دائما باردا معي الى ذلك الحد ؟ ولاية غاية تظنين انه احتفظ بكارلو هنا ، في الممر ؟ كان ذلك لكي يغتاله ، وكان يدبر ذلك منذ وقت طويل . ولكنه لم يجرؤ في حياة ابي الذي كان سيمنعه من ذلك . كان يعرف ذلك ، وكان ينتظر ساعته . ثم انه عرّب ابني الكبير في تثبيته ليخدعنا ، هذا القذر ذو القلب الفظ ! اتتصورين انك تعرفين زوجك ؟ اتعرفين كم شخصا قتل في الوقت نفسه مع كارلو ؟ طالعي الصحف ، وسترين ، بارزيني ، تاتاغليا ، وكثيرين اخرين . ان اخي هو الذي قضى عليهم !

ولشدة خوارها على هذا النحو ، سقطت في نوبة اعصاب جديدة ، وحاولت ان تبصق في وجه اخيها ، ولكن لم يكن في فمها بعد لعاب .

قال ميخائيل : ـ خذاها الى بيتها ، واستدعيا طبيبا .
وسارع الحارسان يمسكان بكوني من ذراعهـا ويقتادانها خارج البيت .
وسألت كاي زوجها ، وقد بلغ بها الذعر حد البلاهة :
ـ لماذا تقول ذلك ، ياميخائيل ؟ ما الذي يجعلها تنطق بمثل هذه الاشياء ؟
قال وهـو يهز كتفيه : ـ لقد فقدت رشدها .
والحت كاي تسائله وهي تنظر في عينيه :
ـ ليس هذا ممكنا، يا ميخائيل ، ارجوك ،قل لي ان هذا غير صحيح .
هزّ ميخائيل راسه نفيا وهو حزين ، وقال :
ـ طبعا لا ، صدّقيني . هذه هي المرة الاولى التي اسمح لك فيها بان تسأليني حول اشغالي . واعطيك جوابي : ليس هذا صحيحا .
ولم يسبق له قط ان كـان مقنعا الى هذا الحد . كان ينظر اليها في بيـاض عينيهـا مستنجدا بكل الثقة التي كانت حياتهمـا الزوجية قد عقدتها بينهما . وكفت عن الارتياب ، وبسمت بأسى ، وقبعت بيـن ذراعيه لتقبله .
قالت : ـ ان بنا حاجة ، نحـن الاثنين ، ان نرفع معنوياتنا .
وذهبت تجلبُ ثلجا منَ المطبخ من حيث سمعت الباب يفتح ، فعادت الـى العتبة ، فاذا بكليمنزا ونيري وروكو لامبون يدخلون مع الحرس الخاص . وكـان ميخائيل يوليهـا ظهره . وتقدمت قليـلا لتراه جانبيا ، واذ ذاك توجه كليمنزا الى زوجها ، مبتدئا بهذه الصفة الاحتفاليـة :
ـ دون ميخائيـل .
ولاحظت كاي كيف كان ميخائيل يتلقى ذلك . لقـد ذكرها ببعض التماثيـل الرومانية ، تماثيل اباطرة العهود القديمة الذين كانوا ، بالحـق الالهي ، يمارسون سلطـة الحياة والموت على سائر البشر . كانت يد متدلية على طول فخذه ، وكان ثقل جسمه كله على احدى القدمين ، المتراجعـة بعض الشيء عن الاخرى ، وكل ما كان في وقفته ، كـان هذا جميعه يشي بمقدرة معتزة ومثلجة . وكـان رؤساء الفرق واقفين وقفة الاستعداد الجندية ، باحترام واجلال .
وفهمت كاي حينذاك كل شيء . كانت اتهامـات كوني صحيحة .
وذهبت الى غرفتها ، واخذت تبكـي .

الكتاب السابع

٣٢

لم يؤت انتصار عائلة كورليون ثماره الا بعد عام من المناورات الدبلوماسية الدقيقة تم" الاعتراف على اثره بميخائيل كأقدر زعيم عائلة في الولايات المتحدة كلها. وطوال اثني عشر شهرا قسم وقته قسمة متساوية بين ممر لونغ بيتش المشجر ومسكنه الجديد في لاس فيغاس . وبعد هذه المهلة الطويلة ، قرر ان يوقف كل عملية في نيويورك وان يبيع جميع املاك العائلة على الشاطىء الشرقي . ولهذه الغاية عاد بذويه الى نيويورك في زيارة اخيرة . وكان المفروض ان يقضوا فيها شهرا يصفي كل منهم خلاله اعماله الشخصية ، وستقوم كاي خاصة برزم حوائج البيت وشحنها ، وكان ثمة الف شيء اخر يستحق الاهتمام .

لم يكن ثمة بعد من يتحدى افراد عائلة كورليون . وكان لكليمنزا عائلته الخاصة . وكان روكو لامبون رئيس الفرقة الوحيدة لميخائيل . وكان البير نيري يشرف على دائرة الامن لجميع الفنادق التي كانت « العائلة » تملكها رسميا او سرا في « النيفادا » . واما هاجن ، فكان ما يزال يلعب دورا هائلا بالقرب من ميخائيل في « الغرب » .

وساعد الزمن على شفاء الجراح . وتصالحت كوني مع اخيها . فلم يكد يمضي اسبوع على تلفظها بتلك الاتهامات الفظيعة ، حتى اعتذرت من ميخائيل واكدت لكاي ان عباراتها لم تكن تنطوي على اصغر جزء من الحقيقة : كانت قد اضاعت رشدها خلال نوبة عصبية ، كما يحدث للارامل الشابات .

ولم تلبث كوني كورليون ان وجدت بديلا عن زوجها . بل هي لم تنتظر نهاية عام الحداد التقليدي لتستقبل في سريرها شابا طيبا عينته عائلة كورليون كسكرتير. وكان متحدرا من اسرة ايطالية موثوقة ، ومع ذلك فقد انهى دراسته في واحدة من اهم جامعات الولايات المتحدة الادارية . وكان زواجه باخت الدون يؤمن مستقبله.

وكانت كاي ادامس قد أسعدت بيت عمها باعتناقها الكاثوليكية . وكان ابناها قد ربيا طبعا تحت ظل هذه العقيدة نفسها ، كما طلب مرشدها . ولم يجد ميخائيل ذلك منسجما مع مزاجه . كان يفضل اولادا بروتستانتيين ، مما هو اكثر اميركانية .

وادهشه ان تشغف كاي بالنيفادا حيث راق لها كل شيء : الديكور والتلال ، وشعاب الجبال ذات الصخور الحمر المذهلة ، والصحراء المحرقة ، واللقاء المفاجىء بالبحيرات المنعشة الشبيهة بالنعم الربانية ،وحتى الحرارة الخانقة . وكان لكل ولد من اولادها مهرته الخاصة . وكانت تحيط بها خادمات حقيقيات ولم تكن تجد

حولها دائما حرسا خاصا .

وكان ميخائيل يعيش حياة طبيعية . كـان يدير مشروعا للبناء يخصه ،ويشارك في نـاد محلي لرجال الاعمال وفي لجان مدنية مختلفة . وكان يهتم بالسياسة ،وكان ذلك امرا سليمـا ، ولكن من غير ان يظهر تحت الانظار . حياة طيبة ! وكانت كـاي سعيدة بان تتحلل نهائيـا من كل ما كـان يشدها الى نيويورك ، وان تبيع بيت الممر المشجر وان تقيم نهائيا في لاس فيغاس . وكانت العودة مرة اخيرة الـى الشرق تزعجها . واذن ، فقد انجزت اعمالهـا بحيوية ونجوع . وفي اليوم الاخير الذي سبق الرحيل ، احست بالتعجل نفسه الذي يحس به المريض الناقه حيـن يغادر المستشفـى .

وذلك اليوم الاخير ، افاقت كاي ادامس كورليون منذ الفجر . وقد سمعت صوت هدير الشاحنات على الممر المشجر تفرغ البيوت من اثاثها . وكان المتفق عليه ان تستقل العائلة كلها ، بمن فيها الماما كورليون ، الطائرة المسافرة بعد ظهر اليـوم نفسه الى لاس فيغـاس .

وحين خرجت كاي من الحمام ، وجدت ميخائيل مستندا الى وسادته يدخـن سيكارة في سريره . وسالهـا :

ــ لماذا يتوجب عليك، بحق الشيطان ، ان تقصدي الكنيسة كل صباح ؟ يـوم الاحد ، افهم ذلك . ولكن في اثناء الاسبوع .. انك تصبحين مثل امي ..

ومد يده في الظلام ، فاشعل مصباح السرير . وجلست كاي على طرف السرير لترتدي جوربهـا :

ــ انت تعرف ان المعتنقين الجدد يحملون الكاثوليكية على محمل الجد .

وداعب ميخائيل فخذها ، هناك حيث البشرة مطلسة ، فوق جورب النيلون، فقـالـت :

ــ لا ، انني اتناول هذا الصباح .

ولم يحاول ان يستبقيها حين نهضت ، وقال بنصف بسمة :

ــ كيف يحدث ان كاثوليكية في مثل تقواك تترك اولادها يتسكعون غالبا بدلا مـن الذهـاب الى الكنيسـة ؟

وخيّل اليهـا ان ميخائيل كان يراقبها آنـذاك بما كانـت تسميه « عينيـه الدونيتين » ، مما اشعرها بالاستياء . فقالت بحذر :

ــ حين يستقر بنا المقام ،ساهتم بهذا الامر .

ومنحت زوجها قبلة توديع ومضت . وكان الجو قد بدا يصبح حارا في الخارج. كانت الشمس تطلع حمراء في الشرق . ومشت كاي على قدميهـا حتى بلغت السيارة المتوقفـة قريبا من البوابة . وكانت الماما كورليون تنتظرها فيها ، مرتدية السواد كما يليق بأرملـة . وكـان قداس الصباح قد اصبح عادة يومية لهما كلتيهما .

قبّلت كاي خد السيدة العجوز المجعد ، وجلست وراء المقود وسالتهـا الماما متشككـة :

ــ الم تتناولي الفطـور ؟

اجابت كاي : ـ لا .

هزّت الماما راسها ، مسرورة . كانت كاي قد نسيت مرة واحدة من قبل ، ان عليها الا تاكل بين منتصف الليل وتناول الصباح المقدس . ومنذ ذلك الحين ، لا تني حماتها تطرح عليها كل يوم السؤال نفسه .

وسالتها ايضا : ـ كيف الحال ؟

قالت كاي : ـ جيد جدا .

كانت الكنيسة تبدو صغيرة ومهجورة تحت اشعة الشمس الاولى . وكانت الزجاجيات الملونة تقي داخلها من الحرارة ، فالجو فيها سيكون رطبا ومريحا ، وساعدت كاي حماتها على الترجل من السيارة ثم على ارتقاء بضع درجات، ثم تركتها تدخل قبلها . وكانت السيدة العجوز تحب الجلوس على مقعد حجري قريب من المذبح . وانتظرت كاي امام الباب لحظة صغيرة . كان ينتابها دائما في اللحظة الاخيرة ، ضيق خفيف .

ودلفت اخيرا الى الظلمة الرطبة ، فبللت اطراف اصابعها في جرن الماءالمقدس وصلّبت ووضعت اصابعها الرطبة على شفتيها الجافتين . وكانت هالة صغيرة ترسل الشرر عند راس كل شمعدان ، امام القديسين وامام المسيح المصلوب . وركعت كاي قبل ان تدخل الرواق وذهبت تركع على مقعد خشبي قاس ، بانتظار التناول . وحنت راسها كما لتصلّي ، ولكنها لم تحس نفسها بعد مهياة .

هنا فقط ، تحت قبة الكنيسة المظلمة ، كانت تسمح لنفسها بان تفكر بحياة زوجها الاخرى ، وبالليلة المقيتة التي كان ، لعام خلا ، قد خان فيها ثقتها وحبهما المتبادل ليزعم كذبا انه لم يعمل على قتل زوج اخته .

كانت قد تركته ، لا بسبب هذه الجريمة ، بل لانه كان قد كذب عليها . ومنذ صباح اليوم التالي ، ذهبت تلتجيء مع اولادها لدى ذويها في نيوهمبشاير ، من غير ان تقول كلمة واحدة لاي انسان ، ومن غير ان تعرف في الواقع ما تنوي ان تفعل . وكان ميخائيل قد فهم . وكان قد ناداها على التلفون في اليوم الاول ، ثم تركها وشانها . وبعد اسبوع فقط ، توقفت سيارة فخمة مسجلة في نيويورك امام منزل ذويها ، وترجل منها توم هاجن .

وقضت بعد ظهر فظيعا مع توم . اسوأ فترة في حياتها . لقد ذهبا يتنزهان في الغابات قرب مدينتها الصغيرة وعاملها هاجن بلا مجاملة .

وقد ارتكبت كاي اولا خطأ التظاهر بمرح احتقاري ، وهو ما لا يناسب طبعها . وسالته :

ـ هل ارسلك مايك تهددني ؟ كنت انتظر ان ارى بعض عساكركم يهبطون عليّ والشيشات في ايديهم لارجاعي بالقوة .

وللمرة الاولى منذ عرفت هاجن، راته يغضب ، وقال بقسوة :

ـ لم يسبق لي قط ان سمعت حماقة نسوية كهذه . لم اكن اتوقع هذا من جانب امراة مثلك .

ـ اعذرنـي .
ومشيا بمحاذاة درب مخضوضر . وسألها هاجن بهدوء :
ـ لماذا هربت ؟
ـ لان ميخائيل قد كذب عليّ ، لانه خدعني اذ قبل ان يكون عرّاب ابن كوني . لقد خانني . انني لا أستطيع ان احب بعد هذا الرجل . لا استطيع احتمال ذلك . ولا اريده ان يربّي اولادي .
قال هاجن : ـ انا لا اعرف حتى عمّ تتحدثين
واستدارت اليه وهي فريسة غضب مبرّر :
ـ عمّ اتحدث ؟ لقد قتل زوج اخته . هل فهمت هذه المرة ؟
واضافت بعد لحظة : ـ ثم انه كذب عليّ .
وسارا فترة طويلة من غير ان يتبادلا كلمة . ثم قال هاجن :
ـ ليست لديك ايـة وسيلة لتتأكدي من ان ذلك صحيح . ومع ذلك ، ولكـي اروق لك فحسب ، « لنفرض » ان الامر كان كذلك . حذار ! انني لا ازعم انه كذلك حقا . ولكن مـا تقولين اذا اثبت لك ان مثل هذا العمل له ما يبرره ؟ لنتفاهم جيدا: ان بامكاني ان اعرض لـك دوافع ممكنـة .
قالت باحتقار : ـ لم يسبق لي قط ان رايتك تمثل دور محام ، يا توم ، وليس هـذا خيـر مظاهـرك .
ـ ربما . ولكن اصغي اليّ . لنفرض ان كارلو قد سلّم سوني لاولئك الذيـن قتلوه . لنفرض انه حين ضرب زوجته ذلك المساء ، انمـا كان يشارك في مؤامرة لكي يغادر سوني الممر المشجر بلا حمايـة ويدلف وحيدا الى طريق جونس بيتش ؟ لنفرض انهم قد دفعوا لـه من اجل ذلك . في تلك الحالة ، ماذا ستقولين ، يا كاي؟
فلم تجب . واستطرد هـاجن :
ـ والان ، لنقرّ ان الدون ، وهـو الرجل العظيم حقا ، لم تأته الجراة ، في سنّه ، للانتقام لابنه الاكبر بقتل زوج ابنته . اليس من الممكن ، في تلك الحالـة ، انه وضع خلافته بين يدي ميخائيل وهو يعرف انه سيضطلع بهذه المسؤولية المرعبة؟
صاحت كاي وعيناهـا مخضلتان بالدموع :
ـ ولكن هذا كله كـان قد انتهى ! كان الجميع سعداء . كان بالامكـان الصفح عن كارلو . لماذا لا نستطيع ان نعيش في سلام وننسى ؟
كانا قد اجتازا مرجا اخضر ، ووصلا الى حافة جدول يحف بـه الشجر . وجلس هاجن في الظل ، على العشب وتنهّد . ونظر فيمـا حوله ، ثم تنهد ثانيـة وقـال :
ـ من الممكـن ان يحدث ذلك ، في مثل هذا العالم .
قالت كاي :
ـ ليس ميخائيل بعد هو الرجل الذي تزوجت .
فصاح هاجن بضحكـة قصيرة جافـة :
ـ من حسن الحظ ! لو ظل كمـا تزوجته ، لكان ميتا الان ولكنت انت ارملـة

وما كانت لك بعد من هموم .
وصاحت كاي مغتاظة :
ـ ماذا تقول هناك ! كفى ! حاول ان تقول الحقيقة ، ولو مرة في حياتك . انا اعرف ان ميخائيل غير قادر على هذا . اما انت ، فلست صقليا . فبوسعك اذن ان تتحدث بصراحة الى امراة ، وتعاملها معاملة الندّ ، ككائن بشري مثلك !
بعد صمت طويل ، هزّ هاجن راسه وقال :
ـ انك لم تفهمي مايك . انت غاضبة لانه قد كذب عليك . ولكن الغلطة غلطتك. لقد منعك من ان تساليه عن اشغاله . وها انت تأخذين عليه الان انه قد قبل ان يكون عرّاف ابن كارلو ، ومع ذلك ، فانت التي ابتهلت اليه ان يفعل ذلك . انني ساعترف لك ، يا عزيزتي ،ان ذلك كان جيدا . لم يكن ثمة وسيلة افضل لايحاء الثقة لكارلو . انها خدعة تقليدية .
ثم سال هاجن كاي وهو يبتسم ابتسامة وقحة :
ـ هل اكون الان في نظرك صريحا بما فيه الكفاية ؟
ولكن كاي كانت قد خفضت راسها .
وتابع يقول :
ـ ساطلعك على حقائق اخرى . فبعد موت الدون مباشرة ، اصبح مايك مرصودا للقتل . ولقد نصب له فخ لاغتياله . اتعرفين من فعل هذا ؟ انه تيسيو. واذن ، فقد كان لا بد من القضاء على تيسيو . وكان لا بد لكارلو ايضا من ان يختفي ، لان الخيانة لا تغتفر ابدا . كان ميخائيل متسامحا بما فيه الكفاية لكي ينسى . اما هم الخونة ، فانهم ما كانوا ليسامحوا انفسهم ، وكانوا سيبقون خطرين الى الابد . كان ميخائيل يحب تيسيو حقا . وهو يعبد اخته . ولكن ترك الخائنين حرّين يسرحان ، كان معناه خيانة واجباته نحوك ونحو اولاده ونحو « العائلة » كلها، ونحوي ونحو اهلي . وقد كان تيسيو وكارلو ، ما داما على قيد الحياة ، يعرّضان حياتنا جميعا للخطر ، والى الابد .
كانت كاي تصغي وخداها مبللان بالدموع . وسألته :
ـ ايكون ميخائيل هو الذي ارسلك لتقول لي هذا ؟
قال هاجن وقد فوجىء فعلا بسؤالها :
ـ لا ، بل ارسلني لاقول لك شيئا اخر مختلفا : انه سيعطيك كل ما تريدين ، وسيسمح لك بان تقومي بكل ما ترغبين القيام به ، شريطة ان تعني بالاولاد . (وابتسم هاجن) وقد اضاف ايضا هذه الدعابة : قل لها انها « دون » ي .
وضعت كاي يدها على ذراع هاجن ، وسالته :
ـ الم يكلفك بان تقول لي الباقي ؟
وتردد هاجن ، كما لو انه كان يتساءل عما اذا كان حكيما بان يفضي اليها بحقيقة اخيرة ، ثم قال :
ـ ما زلت لا تفهمين . اذا رددت لميخائيل ما اطلعتك عليه اليوم ، فسأكون رجلا هالكا . (واضاف بعد لحظة) ان امه وانت والاولاد هم الوحيدون في العالم الذين

سيكون عاجزا عن الخلق اي اذى بهم .

وبعد خمس دقائق طويلة ، نهضت كاي وتوجها جنبا الى جنب عائدين الى المدينة الصغيرة . وكانا قد وصلا تقريبا امام بيت كاي حين سألت هاجن :

– هل تستطيع ان تعيدني الى نيويورك هذا المساء مع الاولاد ، بسيارتك ؟

قال هاجن :

– كانت هذه نيتي حين قدمت الى هنا .

ومضى أسبوع على عودة كاي ، فذهبت تقابل كاهنا لتطلب منه ان يثقفها في الدين الكاثوليكي .

*

في داخل الكنيسة ، دق جرس صغير ليدعو المؤمنين الى التوبة . ودقت كاي صدرها بقبضة يدها دقا خفيفا ، كما كانوا قد علموها ، علامة الندامة . ودق الجرس الصغير من جديد ، فسمعت بعد ذلك على البلاطات الحجرية اقدام المتناولين الذين كانوا يغادرون امكنتهم ليقتربوا من المذبح .

ونهضت كاي فانضمت اليهم . وركعت امام الكورس ، ومن جديد ، قرع الجرس من اعماق الكنيسة . فدقت كاي قلبها مرة اخرى بقبضة يدها المغلقة . كان الكاهن امامها . وارتدت برأسها الى الوراء وفتحت فمها لتتلقى خبز الذبيحة. وكانت تلك افظع لحظة . كانت تستمر حتى يذوب القربان . وحين ابتلعته فقط ، كان بامكانها ان تفعل ما من اجله قصدت الكنيسة .

بعد ان تطهرت من كل اثم ، وقامت بابتهالاتها ، نكست رأسها وشبكت يديها على المذبح . ومالت بجسمها الى الوراء لتريح ركبتيها .

وطردت من ذهنها كل الافكار التي كانت تخصها ، هي واولادها . وازاحت كل غضب ، وكل تمرد ، وكل سؤال . وكما كانت تفعل كل صباح ، منذ تحولها ، وبرغبة عميقة في ان تؤمن وتصدق ، وان يستجاب لها ، صلت من اجل ميخائيل كورليون .